

International Islamic University,
Islamabad.

Faculty of Islamic Studies.

Department of
Tafseer and Quranic Sciences.



الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد.

كلية أصول الدين، قسم التفسير.

قسم التفسير وعلوم القرآن الكريم.

"المقارنات في القرآن الكريم"

أساليبها وأهدافها

دراسة موضوعية

بمحت مقدم لنيل درجة الدكتوراه في التفسير وعلوم القرآن الكريم

الباحثة:

حفصة محمود غازي

رقم التسجيل:

283-FU/PHDTOS/S17

المشرف على البحث:

د. محمد عبد الوهاب الراعي

٢٠٢٠/٢٠٢١ م





6990
K

Accession No TH24735

PhD

۲۹۷۰۱۲۲۱۶۶

ح ف م

قرآن کریم - بحوث

قرآن کریم - علوم

قرآن کریم - اسالیب

قرآن کریم - اُھداف

قرآن کریم - مقارنات



لجنة المناقشة لرسالة الدكتوراه PHD

كلية أصول الدين، قسم التفسير وعلوم القرآن الكريم،

الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد .

أجريت مناقشة البحث الذي أعدته الطالبة: "حفصة محمود غازي"،

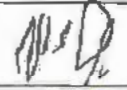
(283-FU/PDHTQS/S17)

بعنوان:

"المقارنات في القرآن الكريم - أساليبها وأهدافها، دراسة موضوعية"،

يوم الاثنين، الموافق ٢٠٢١/٨/٣٠ م.

أسماء أعضاء لجنة المناقشة والأفاضل وتوقيعهم

اسم العضو	صفته	توقيعه
١. د. سيد آدمجاء هاشمي	مناقش خارجي	
٢. د. هيام الله شيرازي	مناقش خارجي	
٣. د. تاج أفسر	المناقش الداخلي	
٤. د. محمد عبيد الوهاب الراشد	المشرف على البحث	

الإهداء

إلى من بركة دعواتها وصلت إلى هذه المرحلة من مراحل الحياة، ومن بسببها تمكنت من إعداد هذا البحث ... والدي الكريمة حفظها الله وبارك في عمرها ... وإلى من كان السبب في التحاقى بكلية أصول الدين، ومن كان ومازال قنوتى في الحياة، ومن أود أن أسير سيره في خدمة العلم ونشره طيلة الحياة ... والدي العزيز رحمه الله وأسكنه الفردوس الأعلى من الجنة ... أدعو الله أن يجازيهم عني خيرا، وأن يجعل عملي هذا في ميزان حسناتهم، وأن يجمعنا في دار كرامته ومستقر رحمته. آمين يا رب العالمين.

إليهما أهدي هذا العمل المتواضع.

شكرو وتقدير

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

بدايةً لأوجه شكري وامتناني إلى الله سبحانه وتعالى الذي وفقني إلى تعلّم كتابه جل وعلا، وإلى البحث في هذا الموضوع الشيق المتعلق بالعلوم القرآنية ودراسته، ولولا توفيقه عز وجل لما وُفقت إلى ذلك. فالحمد لكل الحمد والشكر كل الشكر للمولى عز وجل، الذي أنزل كتابه لفائدة البشر، ثم وفقهم إلى قراءته وتعلّمه وخدمته، ووعدهم ثواباً جزيلاً على ذلك.

وقد بين رسول الله ﷺ أن من لم يشكر الناس لم يشكر الله، فطاعة له واتباعاً لأمره أتقدم بالشكر الجزيل لكل من كان سبباً في وصولي إلى هذه المرحلة من مراحل الحياة من أساتذتي وأستاذاتي وأهل بيتي الكرام - خصوصاً والدتي وأخوتي اللاتي شجعتني دائماً على الاستمرار في طريق طلب العلم - وكل من ساعدني في إتمام هذا البحث. وأخص بالذكر من بين هؤلاء الأستاذ الدكتور عبد المحسن جمعة - حفظه الله ورعاه - الذي أعانني على اختيار هذا الموضوع وإعداد خطة البحث، وكان معي بعونه ومساعدته في مراحل اختيار الموضوع، وإعداد الخطة، وقبولها من مجالس الجامعة، والذي رعايته وإشرافه بدأت البحث فيه ودراسته. فجزاه الله خيراً، وتقبل منه هذه الجهود المباركة، وجعلها في ميزان حسناته.

وفي الوقت نفسه لا يفوتني أن أقدم شكري للأستاذ الدكتور محمد عبد الوهاب الراسيخ الذي أشرف على هذا البحث بعد الدكتور عبد المحسن، وكان مع الباحثة دائماً بتوجيهاته وملاحظاته أثناء إعداد البحث، إلى أن اكتمل بفضل الله، فجزاه الله خيراً، وتقبل منه بقبول حسن.

وفي الأخير أقدم شكري الوافر مرة أخرى لكل من ساعدني في إعداد هذا البحث من أفراد الأسرة وأساتذة الجامعة وأستاذاتها وطالباتها، أو ذكرني بدعوة خلال قيامي بهذا العمل. ولا شك أن هذه الدعوات هي التي يبركتها تمكنت من إتمام هذا العمل. فجزى الله الجميع عني خيراً، وتقبل منهم جهودهم ودعواتهم قبولاً حسناً، وجعلها في ميزان حسناتهم يوم القيامة.

المقدمة

وتشمل:

- أهمية الموضوع.
- أسباب اختيار الموضوع.
- الدراسات السابقة.
- إشكالية البحث.
- فرضية البحث.
- منهج البحث وخطواته.
- خطة البحث.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. وبعد؛

فإن القرآن كلام الله الخالد، أنزله الله لهداية البشر إلى دينه القويم، وصراطه المستقيم، فهدفه الأصل هو صلاح الإنسان في الدنيا وفلاحه في الآخرة. هذا هو الغرض الأصل والمقصد الأساسي للقرآن الكريم، وكل آياته وسوره تدور حول هذا المقصد الأصلي لا تخرج عنه. ولكن هذا لا يعني أن القرآن الكريم يتحدث عن موضوع واحد أو أمر واحد فقط، بل يناقش أمورًا ويتحدث عن موضوعات شتى كلها تخدم هذا الهدف الأساسي. ومن موضوعات القرآن الكريم ومباحثه الرئيسية: العقائد كالتوحيد والمعاد وغيرها، والأحكام من العبادات والمعاملات، والأخلاق، وتذكير الناس لأخذ العظة والعبرة منها، والحاجة مع الفرق الباطلة وأتباع الأديان الأخرى، وغير ذلك من الموضوعات والمباحث.

لقد استخدم القرآن الكريم لمناقشة هذه الموضوعات والمباحث، وإثبات الحقائق وترسيخها في الأذهان أساليب شتى كلها قد بلغت ذروة الفصاحة والبلاغة. ومن هذه الأساليب: الأمثال، والأقسام، والتشبيهات البديعة، والحوارات، وسرد قصص السابقين، والجدل، ونحو ذلك. ومن هذه الأساليب أيضا إجراء المقارنات بين أمور متعددة بهدف تبين الأشياء وتوضيحها، لأنه بضلها تبيّن الأشياء.

فقد قارن القرآن الكريم بين قضايا متعددة وأمر شتى، وهذه المقارنات منتشرة في القرآن الكريم في معظم سوره وأجزائه، بحيث لا يكاد يخلو جزء من أجزاء القرآن الكريم من مثل هذه المقارنات. فمثلا نجد في القرآن مقارنة بين الهدى والضلال، وبين العبود الحقيقي الذي هو الله الواحد الأحد وما يعبد الناس من دونه من شركاء وشفعاء، وبين المؤمن والكافر، وبين العلم والجهل، وبين الجنة والنار، وبين الإسلام والكفر، وبين قدرة الله المطلقة ومنتهى عجز ما سواه، وبين الظلمات والنور، وغير ذلك.

ولهذه المقارنات القرآنية أساليب متنوعة بليغة، فبعضها صريحة وأخرى غير صريحة، وهناك مقارنات مباشرة وأخرى غير مباشرة. ومن الأساليب المتبعة فيها: ضرب المثل، واستخدام التشبيه والاستعارة والاستفهام، وحذف أحد طرفي المقارنة مع ذكر أداة للمقارنة والطرف الآخر، ونفي المساواة بين الطرفين وغيرها من الأساليب. وكما أن هذه المقارنات أساليب متنوعة، لها أيضا أهداف متنوعة تسعى إلى تحقيقها.

هذا البحث المقدم لتبيل درجة الدكتوراه في التفسير وعلوم القرآن الكريم، والذي هو بعنوان "المقارنات في القرآن الكريم - أساليبها وأهدافها (دراسة موضوعية)"، يهدف إلى دراسة هذه المقارنات القرآنية بعد استقراءها وجمعها من القرآن الكريم كله، ودراستها وتحليلها، وبيان أساليبها المختلفة، وأهدافها التي ذُكرت من أجلها. وقد قسمت البحث إلى مقدمة وتمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة، ثم فهارس تفصيلية.

❖ أهمية الموضوع:

إن لهذا الموضوع أهمية عظمى لكونه يتعلق بالتفسير وعلوم القرآن الكريم على السواء، حيث إن جمع المقارنات القرآنية وبيان أساليبها موضوع يحول إلى علوم القرآن الكريم، وتحليل آيات المقارنة وشرحها أمر يتعلق بالتفسير. فدراسة هذا الموضوع تُعبر دراسة في علوم القرآن من وجه، وفي التفسير من وجه آخر. ولهذا للموضوع أهمية أيضا باعتبار أنه يبرز جانباً من جوانب بلاغة القرآن الكريم وإعجازه، كما أنه - حسب علمي وإطلاعي - موضوع لم يُفرد فيه مؤلف خالص، ولم يُنمّز دراسة مستقلة كما هو الحال بالنسبة لأساليب القرآن الكريم الأخرى، كالأمثال والأقسام ونحوها. ولعل الباحثة من خلال دراسة هذا الموضوع تقدم للمكتبة الإسلامية عموماً والتفسير خصوصاً موضوعاً جديداً من موضوعات علوم القرآن الكريم، وتفتح المجال لمزيد من الدراسات الجديدة، ويظهر بين يدي القراء منهج جديد لدراسة آيات القرآن الكريم التي تقارن بين أحور متعددة.

❖ أسباب اختيار الموضوع:

لقد اخترت هذا الموضوع لأسباب متعددة، أهمها:

- ١) عدم وجود دراسة مستقلة عميقة حول موضوع المقارنات القرآنية.
- ٢) إبراز جانب جديد من جوانب بلاغة القرآن الكريم وإعجازه.
- ٣) التعرف على أساليب المقارنات القرآنية، وتقديمها بين يدي القراء والباحثين، ليستفيدوا منها.
- ٤) الكشف عن الأهداف والأسباب الكامنة وراء هذه المقارنات.
- ٥) جمع آيات المقارنة من القرآن في موضع واحد، ليستفيد الطلبة والباحثون، وليفتح المجال لمزيد من الدراسات الجديدة حول هذا الموضوع.

❖ الدراسات السابقة:

ليس هناك - حسب دراستي وإطلاعي - مؤلف مستقل ولا دراسة مستقلة عميقة حول هذا الموضوع، لكن هناك كتب تعرضت له، ومقالات قصيرة قامت بالتعريف بالمختصر بهذا الموضوع لهم. ومنها:

- ١) من مقارنات القرآن الكريم: وهو مقال موجز للكاتب جمال الحميلي. عرف فيه الكاتب بالمقارنة وذكر بعض الأمثلة بذكر الآيات فقط من القرآن، دون تعرض لشرحها وتفصيلها.
- ٢) من أساليب الغيبة في القرآن: هذا كتاب للباحث الدكتور عثمان قذافي. تحدث فيه المؤلف عن أساليب الغيبة في القرآن الكريم، فذكر أكثر من سبعين أسلوباً تروياً، ومن بين هذه الأساليب أسلوب المقارنة والاختيار. فقد ذكر أن القرآن الكريم اختار هذا الأسلوب، إذ قارن بين الأمور والقضايا ليحصل إلى نتيجة ويختار الحق والصواب كي يرشد للناس إليه. كما ذكر المؤلف عوامل هذا الأسلوب وقوائده مع ذكر بعض الأمثلة عليه، ولم يجمع الأمثلة كلها، ولم يتعرض لشرح الآيات وتفسيرها.

٣) تصنيف آيات القرآن الكريم: كتاب للدكتور محمد محمود إسماعيل. قسم الكاتب في كتابه هذا آيات القرآن الكريم إلى أحد عشر موضوعا، وذكر منها للمقارنة والأضداد. فذكر المؤلف الأمور والقضايا التي قارن بينها القرآن، واكتفى بذكر الآيات دون شرح وتفصيل لها. وهناك كتب أخرى أيضا في تصنيف آيات القرآن ذكرت فيها آيات للمقارنة دون شرح وتفسير.

هذه هي بعض المقالات والكتب التي عثرت عليها والمتعلقة بهذا الموضوع، وقد تحدث الدكتور نبيل العوضي أيضا عن بعض هذه المقارنات في محاضراته، وهي موجودة على الشبكة. ولم أشر على بحث أو دراسة عميقة أو كتاب مستقل في هذا الموضوع، دُرس فيه موضوع المقارنة بشكل مُفصل عميق.

❖ إشكالية البحث:

يتناول هذا البحث حول الإجابة عن التساؤلات التالية:

- ١) ما الأمور التي قارن بينها القرآن الكريم؟
- ٢) ما الأساليب التي استُخدمت لإجراء هذه المقارنات في القرآن؟
- ٣) لم قارن القرآن الكريم بين هذه الأشياء؟ وما أهداف هذه المقارنات؟

❖ فرضية البحث:

يمكن بيان فرضية البحث فيما يلي:

- ١) لقد شغلت المقارنات حيزا كبيرا من القرآن الكريم، حيث اهتم بها القرآن واستخدمها في إثبات الحقائق.
- ٢) إن اهتمام القرآن بالمقارنات يشير إلى أن لها فوائد جمة، ودراستها يوضح جانباً من جوانب إعجاز القرآن الكريم.
- ٣) أساليب المقارنات في القرآن الكريم كثيرة ومتنوعة، وهي تساعد على فهم ما يريد القرآن توضيحه.
- ٤) استخدم القرآن الكريم لإجراء المقارنات بين الأضداد أساليب صريحة تارة وغير صريحة تارة أخرى، وأساليب مباشرة في حين وغير مباشرة في حين آخر.
- ٥) للمقارنات في القرآن لها أهداف تسعى إلى تحقيقها، ومن أهمها: إقامة الحجة على العباد، والدعوة إلى النظر والتدبر في القرآن الكريم.

❖ منهج البحث وخطواته:

منهج هذا البحث هو المنهج الاستقرائي في جمع آيات المقارنة من القرآن الكريم، والمنهج التحليلي في شرح هذه الآيات وتفسيرها، وبيان أساليب المقارنات وأهدافها. أما خطوات البحث فهي تتمثل فيما يلي:

- ١) جمع آيات المقارنة من القرآن الكريم باستخدام المنهج الاستقرائي.

- (٢) دراسة هذه الآيات وبيان الأساليب المستخدمة في المقارنة.
- (٣) تحليل هذه الآيات وشرحها ببيان تفسيرها.
- (٤) استخراج الأهداف من هذه المقارنات القرآنية.
- (٥) ذكر مثالين لكل أسلوب من أساليب المقارنات، ومثالين لكل هدف من الأهداف، مع الحرص على أن يكون أحد المثالين من النصف الأول وثانيهما من النصف الآخر من القرآن الكريم.
- (٦) عزو الآيات القرآنية إلى سورها.
- (٧) تفريغ الأحاديث النبوية من مصادرها الأصلية، مع الحكم عليها إن لم تكن في الصحيحين.
- (٨) ترجمة الأعلام غير المشهورين إن وود ذكرهم في البحث.
- (٩) التعريف بالمصطلحات المتعلقة بالعلوم المختلفة إن تكررت في البحث.
- (١٠) عزو الأقوال الواردة في البحث إلى قائلها، مع بيان مصادرها.
- (١١) إلحاق الفهارس اللازمة في آخر البحث، لسهولة الوصول إلى المطلوب.

❖ خطة البحث:

يشتمل البحث على مقدمة وتمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة كالتالي:

١- المقدمة. وتشمل:

- التعريف بالموضوع.
- أهمية الموضوع.
- أسباب اختيار الموضوع.
- الدراسات السابقة.
- إشكالية البحث.
- فرضية البحث.
- منهج البحث وخطواته.
- خطة البحث.

٢- التمهيد. ويشمل:

- (أ) أساليب القرآن الكريم في إثبات الحقائق.
- (ب) نبذة عن المقارنات في القرآن الكريم.

٣- الباب الأول: أساليب المقارنات القرآنية.

وفيه فصلان:

■ الفصل الأول: المقارنات الصريحة:

وليه أربعة مباحث:

• المبحث الأول: المقارنة باستخدام أسلوب الاستفهام:

وفيه ثلاثة مطالب:

- المطلب الأول: أسلوب الاستفهام الإنكاري.
- المطلب الثاني: أسلوب الاستفهام التقريري والتوبيخي.
- المطلب الثالث: أسلوب طرح السؤال والإجابة عليه.

• المبحث الثاني: ضرب المثل.

• المبحث الثالث: استخدام أساليب بيانية متنوعة:

وفيه ثلاثة مطالب:

- المطلب الأول: المقارنة باستخدام أسلوب التشبيه والاستعارة.
- المطلب الثاني: المقارنة باستخدام أسلوب الطباق والمقابلة.
- المطلب الثالث: المقارنة باستخدام أسلوب الإطناب.

• المبحث الرابع: المقارنات باستخدام الأسلوب المباشر:

وفيه ثلاثة مطالب:

- المطلب الأول: نفي المساواة بين الطرفين.
- المطلب الثاني: بيان خيرية أحد الطرفين.
- المطلب الثالث: استخدام صيغة "أفعل" التفضيل.

■ الفصل الثاني: المقارنات غير الصريحة:

وفيه ستة مباحث:

• المبحث الأول: ذكر أحد طرفي المقارنة وحذف الطرف الآخر (استخدام إيجاز

الحذف).

- المبحث الثاني: اختيار صفة للطرفين أو ذكر صفات الطرفين وأحوالهما.
- المبحث الثالث: الربط بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد.
- المبحث الرابع: ذكر النقيضين وما يترتب عليهما.
- المبحث الخامس: ذكر الفروق بين الطرفين.
- المبحث السادس: استخدام أسلوب فيه إنكار وتمكيم وتوبيخ.

٤- الباب الثاني: أهداف المقارنات القرآنية:

وفيه ثلاثة فصول:

■ الفصل الأول: ما يتعلق بالمولى عز وجل:

وفيه ستة مباحث:

- المبحث الأول: الدعوة إلى الإيمان بالله وتوحيده.
- المبحث الثاني: الترغيب في التقوى والتحذير من عقاب الله.
- المبحث الثالث: بيان سعة علم الله وقدرته المطلقة.
- المبحث الرابع: الأمر باتباع أوامر الله.
- المبحث الخامس: ذكر رحمة الله ومظاهر نعمته على عباده.
- المبحث السادس: ذكر معية الله وولايته للمؤمنين.

■ الفصل الثاني: ما يتعلق بالإيمان والكفر والترغيب والترهيب:

وفيه خمسة مباحث:

- المبحث الأول: إصلاح عقائد البشر.
- المبحث الثاني: بيان أهمية الاستعداد للدار الآخرة وفضلها على دار الدنيا.
- المبحث الثالث: إثبات فضل الإيمان والمؤمن على الكفر والكافر.
- المبحث الرابع: تشجيع الثابتين على الحق والحث على اتباع سبيلهم.
- المبحث الخامس: التشويق للجنة والتخويف من النار.

■ الفصل الثالث: قضايا متعددة:

وفيه ستة مباحث:

- المبحث الأول: إقامة الحجة على العباد.
- المبحث الثاني: كشف الحقائق وإظهار الأشياء بذكر أعدادها.
- المبحث الثالث: بيان اختلاف أحوال الناس.
- المبحث الرابع: الدعوة إلى التدبر وتوضيح الفروق بين طريفي المقارنة.
- المبحث الخامس: تسلية النبي ﷺ والمؤمنين وبيان فضلهم على من سواهم.
- المبحث السادس: بيان ثبات الحق ودوامه وزوال الباطل واضمحلاله.

٥- الباب الثالث: الدراسة التطبيقية لمواضع المقارنات في القرآن:

وفيه فصلان:

■ الفصل الأول: المقارنات من أول القرآن الكريم إلى آخر سورة الكهف:

وفيه أربعة مباحث:

- المبحث الأول: المقارنات من أول القرآن إلى آخر سورة البقرة.

- المبحث الثاني: المقارنات من أول آل عمران إلى آخر سورة الأنعام.
 - المبحث الثالث: المقارنات من أول سورة الأعراف إلى آخر سورة هود.
 - المبحث الرابع: المقارنات من أول سورة يوسف إلى آخر سورة الكهف.
 - الفصل الثاني: المقارنات من أول سورة مريم إلى آخر القرآن الكريم.
- وفيه أربعة مباحث:

- المبحث الأول: المقارنات من أول سورة مريم إلى آخر العنكبوت.
- المبحث الثاني: المقارنات من أول سورة الروم إلى آخر سورة غافر.
- المبحث الثالث: المقارنات من أول سورة فصلت إلى آخر الحديد.
- المبحث الرابع: المقارنات من أول سورة المجادلة إلى آخر القرآن الكريم.

٦- الخاتمة: وفيها:

- (أ) النتائج.
- (ب) التوصيات.

٧- الضمارس، وتشمل:

- (أ) فهرس الآيات القرآنية.
- (ب) فهرس الأحاديث النبوية.
- (ج) فهرس الأعلام المترجم لها.
- (د) فهرس المصادر والمراجع.
- (هـ) فهرس الموضوعات.

هذا ما قمت به في هذه الدراسة المتواضعة، فإن وُفِّقَتْ فيها إلى الصواب فبفضل الله ورحمته، وإن أخطأت فبتقصير مني. وأسأل الله العفو، وأدعوه تعالى أن يجعل هذه الدراسة مفيدة لي، ولكل من يطلع عليها، ويتقبلها مني بقبول حسن، ويجعلها في ميزان حسناتي.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه ألتجئ.

التمهيد.

وفيه:

(أ) أساليب القرآن في إثبات الحقائق.

(ب) نبذة عن المقارنات في القرآن الكريم.

أساليب القرآن الكريم في إثبات الحقائق

إن أسلوب القرآن الكريم بديع لا مثيل له في كلام البشر، فلا هو بالشعر ولا بالنثر، بل هو منفرد متميز عن سائر الكلام، معجز لن يتمكن البشر من الإتيان بمثله إلى قيام الساعة. وقد شهد ببراعة أسلوب القرآن الكريم الأعداء والأصدقاء، حيث قال أحد ألد أعداء القرآن الكريم عنه^(١): "والله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجز ولا بقصيدة مني ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيتا من هذا. والله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه مقدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلو وإنه ليخطم ما تحته".^(٢)

ومع أن أسلوب القرآن الحكيم لا عهد للبشر بمثله، إلا أنه يمكن القول بأن أسلوبه خطابي لا تحريري، إذ كان القرآن ينزل على رسول الله ﷺ، فيقرأه على الناس، ويقدمه لهم على أنه كلام يُتلى لا كتاب يُقرأ. قال العلامة حميد الدين الفراهي^(٣): "كان القرآن خطيباً سماوياً، يخاطب أهل الأرض كافة، فيلتفت يمينا وشمالاً ويخاطب هذا وذاك".^(٤)

لا شك أن الكلام حول أسلوب القرآن الكريم طويل، فهو علم عميق متشعب، كما أنه دقيق، وهو كما قال الإمام الزركشي^(٥): "هذا علم شريف المحل، عظيم المكان، قليل الطلاب... وهو أرق من الشعر، وأهول من البحر، وأعجب من السحر".^(٦) وكما أن للقرآن الكريم أسلوباً بديعاً منفرداً في استخدام الكلمات والعبارات، له أسلوب

(١) وهو الوليد بن المغيرة المخزومي، أحد رعماء قريش وساداتها.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک على الصحيحين، ٥٥٠/٢، رقم ٣٨٧٢، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطاء، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٠م. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط البخاري ولم يخرجاه. وقال الذهبي: على شرط البخاري.

(٣) هو الإمام العلامة عبد الحميد بن عبد الكريم الأنصاري الفراهي، المعروف بحميد الدين الفراهي. أحد علماء شبه القارة المشهورين. ولد في مدينة فريية (والها نسب) في منطقة أعظم جره في الهند عام ١٢٨٠هـ. عالم بالعلوم القرآنية والأدبية. توفي عام ١٣٤٩هـ. له كتب كثيرة، منها: الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح، الإمعان في أقسام القرآن، جمهرة البلاغة، وغيرها.

ينظر: نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، للحسيني الطالبي، ط ١، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ، ١٢٦٧/٨.

(٤) أساليب القرآن، للفراهي، ط ١، الدائرة الحميدية، ١٣٨٩هـ، ص ١٩.

(٥) هو أبو عبد الله بدر الدين محمد بن بهادر الزركشي الشافعي. عالم بالفقه والأصول والتفسير والحديث. تركي الأصل مصري المولد والوفاة. ولد عام ٧٤٥هـ في مصر. درس على عدد من العلماء منهم ابن كثير والمراج البلقيني، وغيرها. توفي عام ٧٩٤هـ. له كتب كثيرة في عدة علوم، منها: البرهان في علوم القرآن، البحر في الأصول، النكت على ابن الصلاح، أحكام المساجد، وغيرها.

ينظر: طبقات المفسرين، للدواودي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٦٢/٢ - ١٦٣. طبقات المفسرين، للأذنه وي، تحقيق: سليمان بن صالح الخزي، ط ١، مكتبة العلوم والحكم، السعودية، ١٤١٧هـ، ص ٣٠٢. الأعلام، للزركلي، ط ١٥، دار العلم للملايين، ٢٠٠٢م، ٦٠/٦ - ٦١.

(٦) البرهان في علوم القرآن، للزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ١، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، ١٩٥٧م، ٣٨٢/٢.

متفرد أيضا في ترتيب هذه الكلمات والعبارات، فهو ليس مُبَوِّهاً ولا مُقَسِّماً إلى فصول وموضوعات متشابهة، بل إنه مُقَسِّمٌ إلى سور وآيات. والموضوعات الأساسية التي اهتم بها القرآن الكريم مجتمعة في كل موضع منه، حتى تبقى أمام أعين القارئ لا تغيب عنه. قال الشيخ ولي الله الدهلوي^(١): "لم يجعل القرآن ميّوماً مفصلاً، ليطلب كل مطلب منه في باب أو فصل؛ بل كان كمجموع للكتابات فرضاً، كما يكتب الملوك إلى رعاياهم بحسب اقتضاء الحال مثلاً، وبعد زمان يكتبون مثالا آخر، وعلى هذا القياس حتى يجمع أمثلة كثيرة فيدونها شخص حتى يصير مجموعاً مرتباً".^(٢)

هذا ما يتعلق بأسلوب القرآن الكريم بشكل عام. وقد استخدم القرآن الكريم خلال هذا الأسلوب العام طرقاً وأساليب شتى لإثبات الحقائق وتقريرها، وتوضيح الأمور في سوره وآياته. وتحدث العلماء عن هذه الأساليب وناقشوها بالتفصيل، وألفوا حولها الكتب والمؤلفات، كما أفردوا بعضها بالكتب والمصنفات. فذكر العلماء في هذا الصدد أموراً كثيرة، ودرسوا أساليب القرآن الكريم التي تدلّ على عظمته وبلوغه ذروة الفصاحة والبلاغة.

إن من أهم الأساليب التي استخدمها القرآن الكريم لتقرير الحقائق، والتي تظهر بشكل خاص عند البحث في أسلوب القرآن ودراسة هذا الجانب منه هي: الالتفات، تصريف الآيات، الخذف، الإيجاز، التفصيل بعد الإجمال، العود على البدء، الأمثال، المقارنات، الأنسام (القسّم)، الجمل المعترضة.^(٣) وقد ذكر الزركشي وغيره من الأئمة هذه الأمور، كما ذكروا كثيراً من الأساليب البلاغية الأخرى التي اهتم القرآن الكريم باستخدامها. ومنها: التوكيد^(٤)، الخذف، الإيجاز، للتقديم والتأخير، التضمين^(٥)، وضع الخبر موضع الطلب، تذكير المؤنث وتأنيثه للمذكر، إجماع

(١) هو أبو عبد العزيز أحمد بن عبد الرحيم الفاروقي الدهلوي الهندي، الملقب شاه ولي الله، فقيه حنفي محدث مفسر. ولد عام ١١١٠ هـ. له مكانة علمية كبيرة. أحب الله به وأولاده وأولاد بنه وتلاميذهم الحديث والسنة بالهند بعد مواعها. توفي سنة ١١٧٦ هـ. ألف كتباً كثيرة، منها: إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء، حجة الله البالغة، المسوى من أحاديث الموطأ، وغيرها.

ينظر: فهرس الفهارس، لبعيد الحبي الكنتاني، تحقيق: إحسان عباس، ط ٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٨٢ م، ١٧٨/١، ١١١٩/٣. نزعة الموطأ، للحمي، ٨٥٦/٦. الأعلام للزركلي، ١٤٩/١.

(٢) الفوز الكبير في أصول التفسير، لولي الله الدهلوي، ط ٢، دار الحديث، ملتان، باكستان، ص ٦١.

(٣) ينظر: محاضرات قرآنية، للدكتور محمود أحمد غازي، ط ٥، الفيصل ناشران وتاجران، لاهور، باكستان، ٢٠٠٩ م، ص ٣٣٢.

(٤) هو تقوية صدق الكلام الخيري بما يؤكد من ألفاظ... والغرض منه إعلام المخاطب بأن لتكلم بقول كلامه جازماً، فاصداً لما يدل عليه كلامه، متبثقاً منه.

البلاغة العربية، لبعيد الرحمن حسن حينكة الميناني، ط ١، دار القلم دمشق، ١٤١٦ هـ، ١٨٦/١، تصريف.

(٥) هو إعطاء الشيء معنى الشيء، ويكون في الأسماء والأفعال والحروف. فمثلاً في قوله تعالى: "وإذا خلوا إلى شياطينهم"، ضمن الفعل "خلا" معنى "ذهب"، لأنه يقال خلا به لا إليه.

ينظر: البرهان، للزركشي، ٣٣٨/٣.

الخصم بالحجة، الاستفهام، المقابلة والتفصيل، التكرار، الإجماع ثم الإيضاح، النفي، الإثبات، وغيرها^(١) والقرآن الكريم بحر لا يُدرك عمقه، ولا يمكن الإحاطة بعلومه وفنونه، وكل يوم يخرج منه جديد لم يتوصل إليه من قبل.

ومن أهم الأساليب القرآنية وأوضحها ما يلي:

❖ الالتفات:

إن من أهم الأساليب التي كثر استخدام القرآن الكريم لها هو أسلوب "الالتفات". والالتفات هو "التحويل في التعبير الكلامي من اتجاه إلى آخر من جهات أو طرق الكلام الثلاث "الكلم والخطاب والغيبة"، مع أن الظاهر في متابعة الكلام يقتضي الاستمرار على ملازمة التعبير وفق الطريقة المختارة، أولاً دون التحول عنها".^(٢) فالانتقال من ضمير إلى آخر يسمى "الالتفات" لدى علماء البلاغة. وهو كثير في القرآن الكريم. ومن الأمثلة عليه قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى (٥) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٥) وَمَا يُذَرِّكَ لَعَلَّكَ تَرْوَى (٥) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الْذِّكْرَى (٥)﴾. فقد بدأ الحديث بضمير الغائب، ثم انتقل فجأة في الآية الثالثة إلى ضمير الخطاب. ولهذا الأسلوب فوائد كثيرة، منها: تنبيه السامع، إحضار البعيد لجعله أوقع في القلب، شدته الخطاب، صرف التوجه عن السامع تصغيراً له وإغراضاً عنه، التعريض بمن يتوقع منه الإنكار أو الكراهة وغير ذلك.^(٣)

❖ الحذف:

ويقصد به حذف الألفاظ والجمل التي تُفهم من السياق، وهو نوع من الإيجاز. وفي القرآن الكريم محذوفات كثيرة تُفهم من السياق، وأعرض القرآن الكريم عن ذكرها تجنباً للإطالة. قال العلامة الفراهي: "والحذف إسقاط الفضول عن القول، والفضول ما يُفهم الكلام بدونه ويتأثر منه السامع".^(٤) ومن الأمثلة على الحذف قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾.^(٥) وتقديره: جعل لكم الليل مظلماً لتسكنوا فيه والنهار مبصراً ليتمتعوا فيه.^(٦) وهذا المحذوف يفهم من سياق الكلام. والمحذف أمثلة أخرى أيضاً مشورة في القرآن الكريم كله.

(١) ينظر: البرهان، للزركشي، ٢/٣٨٣. أساليب القرآن، للفراهي.

(٢) البلاغة المبرقة، لعبد الرحمن حسن، حنيكة للطباعة، ط ١، دار القلم، دمشق، ١٤١٦هـ، ١/٤٧٩.

(٣) سورة عبس، ١ - ٤.

(٤) ينظر: أساليب القرآن، للفراهي، ص ٢٢ - ٢٣.

(٥) أساليب القرآن، للفراهي، ص ٢٥.

(٦) يونس: ٦٧.

(٧) أساليب القرآن، للفراهي، ص ٢٩.

❖ العود على البدء:

ذكر العلماء الكرام ضمن أساليب القرآن الكريم أيضا ما يُلحِّي بأسلوب العود على البدء، حيث يبدأ القرآن الكريم في مواضع الحديث بمناقشة موضوع معين ثم ينتقل إلى موضوعات أخرى، وفي النهاية يُختم الكلام بالموضوع الذي بدأ منه. ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في سورة الواقعة، إذ بدأت السورة بالحديث عن الفرق الثلاثة يوم القيامة وبيان جزائهم^(١)، ثم ناقشت السورة موضوعات أخرى، ثم حُتمت بالحديث عن هذه الفرق الثلاثة مرة أخرى^(٢).

❖ التفصيل بعد الإجمال:

لقد استخدم القرآن الكريم أيضا أسلوب "التفصيل بعد الإجمال"، حيث يأتي بحديث مجمل عن أمر معين ثم يأتي التفصيل حوله بعد هذا البيان الجمل. ومثال ذلك قصة أصحاب الكهف التي جاءت مجملة في بداية السورة، ثم وردت تفاصيلها بعد هذا الإجمال. فجاء في بداية السورة: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۝ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِلْسِلَةً ۝ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنُعَلِّمَهُمُ الْكِتَابَ وَآيَاتِنَا أَنْزَلْنَاهُ فِي الْقُرْآنِ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْهُمْ سَائِلِينَ ۝﴾^(٣). وبعد هذا الذكر الإجمالي جاءت تفاصيل قصة أصحاب الكهف، والتي بدأت بقوله تعالى: ﴿لَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ۝﴾^(٤).

❖ الأمثال:

لقد ضرب القرآن الكريم لتقرير الحقائق الأمثال المختلفة، يقول تبارك وتعالى: ﴿وَبِذَلِكَ الْأَمْثَلُ نُضَرُّهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝﴾^(٥) ولعل هو الذي يشبه مضربه بمورده. والمراد بالمضرب الحالة للتشبيه التي أريدت من الكلام، والمراد بالمورد الحالة الأصلية التي ورد فيها الكلام، ومعنى ضرب المثل جعله ينتشر ويذيع في البلاد^(٦). وله فوائد كثيرة، منها: تقريب المعنى إلى الأذهان، وتفهم المراد، وإحضاره في النفس في صورة مثال^(٧). وهذه الأمثال واردة بكثرة في ثنايا سور القرآن الكريم وآياته، منها قوله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ

(١) قال تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۝ فَأَصْحَابُ التَّيْمَةِ مَا أَصْحَابُ التَّيْمَةِ ۝ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَةِ ۝ وَالسَّيْفُونَ السَّيْفُونَ ۝﴾. الواقعة: ٧ - ١٠.

(٢) قال تعالى: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُتَشَكِّينَ ۝ فَزُجْجُوا فِي النَّارِ وَزَيَّنَّا لِلْجَانِثِ لَمَامًا ۝ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ۝ فَسَلِّمُوا لَهُمْ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ۝ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ۝ فَنُزِّلْ لَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ نَارًا ۝﴾. الواقعة: ٨٨ - ٩٣.

(٣) الكهف: ٩ - ١٢.

(٤) الكهف: ١٣.

(٥) الحشر: ٢٦.

(٦) الأمثال في القرآن: لابن قيم الجوزية، تحقيق: سعيد محمد عمر الخطيب، ط ٤، دار المعرفة: بيروت، لبنان، ٢٠٠٠م، ص ١٩، ٢١.

(٧) يُنظر: الأمثال في القرآن، لابن القيم، ص ٢٢.

فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتْنَاهَا لَنُرْسِلَنَّ عَلَيْهَا لُيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَنْعَامِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾

❖ القسم:

ومن الأساليب التي استخدمها القرآن الكريم بكثرة أسلوب "القسم". فقد أقسم الله سبحانه وتعالى في كتابه بنفسه وبمخلوقاته في مواضع كثيرة، حيث أقسم بالخمسة والقمر والضحى والليل والسماء والقلم والقرآن وغيرها من المخلوقات. وهذه الأقسام ماثلة في ثنايا القرآن الكريم بكثرة، ولها أمثلة كثيرة. منها قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾. (١) ويرد القسم في القرآن الكريم للتأكيد على الكلام، وتنبيه السامع، والتوجيه إلى التدبر في المخلوقات التي أقسم الله تعالى بها، وبالتالي التوصل إلى خالقها سبحانه وتعالى.

هذه هي بعض أهم الأساليب التي اتخذها القرآن الكريم لإثبات الحقائق التي تحدث عنها. والكلام عن جميع هذه الأساليب طويل يصعب حصره وبيانته في هذه الصفحات القليلة، ولكن يمكن الرجوع إليها في الكتب المولفة حول هذا الموضوع، والتي منها: "أساليب القرآن" للعلامة حميد الدين الفراهي، "دراسات لأسلوب القرآن الكريم" للشيخ محمد عبد الحالق عظيمه^(٢)، وغيرها. وتحدثت كتب إعجاز القرآن الكريم، وكتب علوم القرآن أيضا كالإيهان للزركشي وغيرها عن أساليب القرآن الكريم. كما أن هناك كتباً أفردت حول أسلوب من هذه الأساليب، مثل "الأمثال في القرآن" و"الأقسام في القرآن"، كلاهما لابن قيم الجوزية^(٣).

(١) يونس: ٢٤.

(٢) الضحى: ١ - ٣.

(٣) هو محمد عبد الحالق عظيمه، اللغوي الباحث الحقيقي. ولد عام ١٣٢٨هـ في مصر. درس في كلية اللغة العربية بالأزهر، ودرس في مصر والسعودية. نال جائزة الملك فيصل عن كتابه "دراسات لأسلوب القرآن الكريم". توفي عام ١٤٠٤هـ. من كتبه: المعنى في تصريف الأفعال، هادي الطريق إلى ذخائر التطبيق، تحقيق كتاب المذكر والمؤث لأبي بكر بن الأنباري، وغيرها. يُنظر: تكملة معجم المؤلفين، محمد خير رمضان يوسف، ط١، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ١٤١٨هـ، ص ٥٠٩. تنمة الأعلام، محمد خير، ط٢، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ١٤٢٢هـ، ٦٨٣/٢. الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير والإقراء والنحو واللغة، لوأيد الزبيدي وآخرين، ط١، مجلة الحكمة، بلنيستر، بريطانيا، ١٤٢٤هـ، ٢١٣٦/٣.

(٤) هو أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي المصنفي المختلي، من كبار العلماء في التفسير والحديث والفقه والأصول والكلام وعلم اللغة. ولد عام ٦٩١هـ. تتلمذ على كثير من العلماء، أهمهم ابن تيمية الذي استفاد منه كثيرا وانحصر لأقواله. توفي عام ٧٥١هـ. من كتبه: إعلام الموقعين، حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، زاد المعاد في هدي خير العباد، وغيرها. يُنظر: الوافي بالوفيات، للخليل الصفدي، تحقيق: أحمد الأرنؤوط وركني مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ، ١٩٥/٢. بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، للسيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، لبنان، ١٣٦/١. الأعلام، للزركلي، ٥٦/٦.

وهناك أسلوب آخر مهم أيضا من الأساليب المتبعة في القرآن الحكيم، ألا وهو أسلوب "المقارنة بين الأضداد"، وهو وارد بكثرة في القرآن الكريم. فقد قارن القرآن الكريم بين الإله الحقيقي والآلهة الباطلة، وبين المؤمنين والكافرين، وبين الإيمان والكفر، وبين الجنة والنار وأصحابهما، وبين التوحيد والشرك، وغير ذلك من الأمور المهمة الكثيرة. وهذه المقارنات لها فوائد كثيرة أهمها تبيين الأشياء وتوضيح الحقائق، لأنه بضدها تبيين الأشياء. والحديث عن هذا الأسلوب القرآني المهم هو موضوع هذا البحث.

نبذة عن المقارنات في القرآن الكريم

❖ معنى المقارنة:

أصل للمقارنة في اللغة القاف والراء والنون: "قرن". والقرن (بفتح القاف وسكون الراء) يأتي في اللغة لمعان كثيرة:

- ١- قرن الثور وغيره (وهو معروف)، وجمعه قُرُونٌ.
 - ٢- قرن الرجل: حدٌ وأسدٌ وجانبه.
 - ٣- قرن الجبل: أعلاه.
 - ٤- الدُّرَابَةُ. ويقال: للمرأة قرنان: أي ضَهِيرَتان أو ذُرَابَتان. وجمعه أيضًا قُرُونٌ.
 - ٥- قرن الشمس: أولها عند الطلوع.
 - ٦- قرن القوم: سيدهم.
 - ٧- الأمة ثاني بعد الأمة.
- أما القرن (بفتح القاف والراء) فهو:

- ١- البعير المتقرن بآخر.
 - ٢- الحبل الذي يُقرن به البعيران، ويُجمع على أقران.
 - ٣- قرنتك هو المقاوم لك في أي شيء كان، وجمعه أقران.
- ومعنى قرنت الشيء بالشيء وقرنته إليه بقرنته قرنتاً: شدته إليه، ووصله به. ويقال: أقرنت للشيءان وتقرنتا، أي: اجتمعا. وجادوا قراني، أي: مُقَاتِلِينَ. وصاحب مقرون كأنه قرن بصاحبه. وقارن الشيء الشيء مُقَارَنَةً وقَرَانًا: أقرن به وصاحبه. وقارنته قراناً يعني: صاحبه. والمُقَارَنَةُ كالمُصاحبة.

ويطلق القرين على:

- ١- الأسير.
 - ٢- المصاحب، أو صاحبك الذي يُقارنك، وهو قرينك وقرنتك، ويجمع على قرناء. (١)
 - ٣- القرينة تأتي بمعنى مفعولة من الأقران، ومعناها: مُقَرَّنة. وقرينة الرجل امرأته.
- ومن هذا الأصل أيضاً القِرَان، فقرن بين الحج والعمرة معناه جمع بينهما بنية واحدة وإحرام واحد وتلبية واحدة. وقرن الحج بالعمرة قراناً أي: وصلهما.
- والقرآن أيضاً من هذا الأصل عند من لم يهمله، وسمي بذلك لاقتران آيئه أي: جمع سورته وآياته فيه. (٢)

(١) ومنه قوله تعالى: ﴿وَقِيضْنَا لَهُمْ قُرُونَهُمْ فَزَيَّنَآ لَهُمْ مَا يَشِئْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا تَخَلَقُوهُمْ﴾. سورة فصلت، آية ٢٥.

(٢) يُنظر: العين، للخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: مهدي الخزومي وإبراهيم السامرائي، دار مكتبة الهلال، ١٤١٥/٥ - ١٤٢٣. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، لأبي نصر الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط ٤، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م، ٦/٢١٧٩ - ٢١٨٢. المحكم والمخطوط الأعظم لابن سيده، تحقيق: عبد الحميد هداوي، ط ١، دار الكتب

فمعنى قَارَنَهُ قَرَانًا ومُقَارَنَةً، أي: صار له قرينًا. والمُقَارَنَةُ: التلاقي في زمان أو مكان كالملابسة. والأقتران كالازدواج في كونه اجتماع شيئين أو أشياء في معنى من المعاني.^(١)

نستنتج مما سبق أن المقارنة في أصل اللغة تُستخدم بمعنى الجمع بين شيئين أو أشياء ووصلها ببعضها. فالمراد بما الجمع بين الشيء وضده، وذكرهما معاً، بهدف توضيح الفروق بينهما، والتوصل إلى نتيجة معينة.

❖ أهمية المقارنة:

إن للمقارنة أهمية كبيرة، ولأهميتها هذه تُستخدم في كل العلوم بهدف الوصول إلى نتائج معينة. فإلى جانب ورودها في القرآن الكريم هي واردة في السنة النبوية أيضاً، إذ استُخدمت في كثير من الأحاديث النبوية الشريفة. فمثلاً: قارن الرسول ﷺ بين الصديق الصالح والصديق السوء بأسلوب بليغ، مشبها الصديق الصالح بصاحب المسك والصديق السوء بنافخ الكير. قال ﷺ: "مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوِّءِ، كَمَثَلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ"^(٢)، فَخَامِلُ الْمِسْكِ: إِذَا أَنْ يُخَذِّبَكَ^(٣)، وَإِذَا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِذَا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكِيرِ: إِذَا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِذَا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً"^(٤) فذكر الرسول ﷺ في هذا الحديث الفرق بين الصاحب الصالح والصاحب الفاجر بعقد مقارنة بينهما، ووضح آثارهما على المصاحب لهما، باستخدام أسلوب التشبيه.

العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، ٣٦١/٦ - ٣٦٩. لسان العرب، لابن منظور الإفريقي، ط٣، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٤١٤هـ، ٣٣١/١٣ - ٣٤٢. القاموس المحيط، للفيروز آبادي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، ط٨، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، ص ١٢٢٣ - ١٢٢٤.

(١) يُنظر: المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، ط١، دار القلم، دمشق، سوريا، ١٤١٢هـ، ص ٦٦٧. شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، لنشوان اليميني، تحقيق: حسين العمري وآخرون، ط١، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، ٥٤٦٥/٨. جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، للقاضي عبد النبي نكري، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، ٢١٦/٣.

(٢) الكير: كير الحداد، وهو المبني من الطين. وقيل: هو الرِّقُّ الذي يُنفَخ به النار.

النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الجزري، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، ٢١٧/٤.

(٣) الإحذاء بمعنى الإعطاء، والحذية العطية. فيحذيك بمعنى يعطيك.

ينظر: الفائق في غريب الحديث والأثر، للزحاشي، تحقيق: علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار المعرفة، لبنان، ٤٤٣/١.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الذبائح والصيد، باب المسك، ص ٩٨٤، رقم ٥٥٣٤، من حديث أبي موسى رضي الله عنه. ط٢، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

ومن المقارنات النبوية أيضا مقارنته عليه الصلاة والسلام بين من يذكر الله ومن لا يذكر الله سبحانه وتعالى، فقال ﷺ: "مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ، مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ". (١)

كما أن هناك حديثا آخر قارن فيه رسولنا ﷺ بين الذي يقرأ القرآن الكريم والذي لا يقرأه مقارنة بليغة توضح أهمية قراءة القرآن الكريم وأثرها على الإنسان، يقول ﷺ: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَالْأُتْرُجَةِ (٢)، طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَرِيحُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الَّذِي لَا يَقْرَأُ كَالْثَمَرَةِ، طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَلَا رِيحُهَا، وَمَثَلُ الْفَاجِرِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الرِّيحَانَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْفَاجِرِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ (٣)، طَعْمُهَا مُرٌّ وَلَا رِيحُهَا". (٤)

ومن مقارناته ﷺ أيضا ما ورد في حديثه عن المخاطبين بدعوته وأقسامهم، من حيث قبول هذه الدعوة والاستفادة منها وإفادة الغير بها، وحكى ذلك. فجاء في الحديث الشريف: "إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْهُدَى، وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ، فَلَبِثَ الْمَاءُ قَالِبَتِ الْكَلَا وَالْمَغْثَبُ الْكَثِيرُ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ (٥) أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَتَنَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَرَعَوْا، وَأَصَابَ طَائِفَةٌ مِنْهَا أُخْرَى،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب فضل التمتع، ص ١١١٢، رقم ٦٤٠٧، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) الأترجة: نوع من الثمار، طيب الطعم والرائحة، تاعم اللبس.

يُنظر: مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار، لجمال الدين الصديقي الحنفي، ط ٣، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٩٦٧م - ١٣٨٧م، ١٢/١.

(٣) الحنظل: مفرده حنظلة. وهو نبت مفترش ثماره في حجم البرتقالة، فيها لبٌ شديدٌ لمرارة.

يُنظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، لأحمد مختار عمر، ط ١، عالم الكتب، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م، ٥٧٢/١. معجم من اللغة، لأحمد رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ١٣٧٧هـ - ١٩٥٨، ١٨٠/٣.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوجيه، باب قراءة الفاجر والمنافق وأصواتهم وتلاوتهم، ص ١٣٠٥، رقم ٧٥٦٠، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٥) الأجادب جمع أجلب، والأجذب جمع جذب. وهي الأراضي الصلبة التي تمسك الماء فلا تشربه سريعا. أو الأرض التي لا نبات بها. وهو مأخوذ من الجذب بمعنى القشط.

يُنظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الجوزي، ٢٤٢/١ - ٢٤٣.

إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ^(١) لَا تَمْسِكُ مَاءً، وَلَا تُنْبِتُ كَلًّا، فَذَلِكَ مَقْلٌ مِّنْ فُقَةٍ فِي دِينِ اللَّهِ، وَنَفْعَةُ اللَّهِ بِمَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلِمَ، وَمَقْلٌ مَّنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ"^(٢)

ومثل هذه المقارنات البليغة موجودة في الأحاديث النبوية بكثرة، منتشرة في كتب السنة المطهرة، على صاحبها أفضل الصلوات وأتم الصليحات.

وليس فقط في الأحاديث النبوية، بل إن المقارنة مستخدمة في كثير من العلوم الأخرى أيضا، ففي علم الكلام تُعقد المقارنة بين آراء الفرق الكلامية المختلفة، بهدف بيان وجه الصواب في المسائل المختلفة، كما أنها مستخدمة في الفقه بين المسالك الفقهية المختلفة وأدلتها القائمة عليها، بغرض الوصول إلى الرأي الراجح بين الآراء الفقهية المختلفة الواردة في المسألة الواحدة.

وأيضا فإن من العلوم التي نجد فيها المقارنة مجالا واسعا وأهمية عظمى علم الأديان، إذ إن علم مقارنة الأديان علم كامل مستقل في حد ذاته، يهدف إلى كشف مواطن الشبه والاختلاف بين الأديان والنحل المختلفة، للوصول إلى الدين الحق، وتيسير عملية الدعوة إلى هذا الدين.

ولا يستفاد من المقارنة في العلوم الشرعية فحسب، بل هي مفيدة في العلوم التجريبية أيضا، حيث يُستفاد منها في توضيح الفروق بين الجواهر والمواد المختلفة وفهم حقيقتها ومجالات استخدامها. وبالإضافة إلى كل ذلك يُعتبر المنهج المقارن للدراسات العلمية مشهورا ومعروفا، فهو "يقوم على معرفة كيفية ولماذا تحدث الظواهر، من خلال مقارنتها مع بعضها البعض، من حيث أوجه الشبه والاختلاف بينها، وذلك من أجل التعرف على العوامل المسببة للحادثة أو الظاهرة المعنية، والظروف المصاحبة لذلك، والكشف عن الروابط والعلاقات، أو أوجه الشبه والاختلاف بين الظواهر في البيئات المختلفة"^(٣). وأيضا فإنها (المقارنة) "ترشد الباحث إلى أوجه الشبه أو الخلاف بين الظاهرة التي يحللها، والظواهر الأخرى التي سبقت له معرفتها. وتعتبر هذه المقارنة عملية ضرورية لربط المعلومات وتوضيحها وتصحيحها، وقد يؤدي ذلك إلى امتداع الباحث لفكرة جديدة"^(٤).

(١) القيعان جمع قاع. والقاع أرض خرة لا رمل فيها، ولا ينبت فيها الماء لاستوائها. فهي لا تمسك الماء ولا تنبت الكلا.
يُنظر: غريب الحديث، لابن الجوزي، تحقيق: عبد المعطي القطيعي، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، ٢٧٤/٢.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب بيان مثل ما بعث به النبي ﷺ، ص ١٠٦١، رقم ٥٩٥٣، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه. ط ١، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤١٩هـ - ٢٩٩٨م.

(٣) البحث العلمي أسسه مناهجه أساليبه وإجراءاته، لروحي مصطفى عليان، طبعة بيت الأفكار الدولية، عمان، الأردن، ص ٦٤.

(٤) البحث العلمي - أساليبه النظرية وممارسته العلمية، لرجاء وحيد دويدري، ط ١، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤٢٦هـ، ص ٤٢٣.

لا شك أن هذا الاستخدام الكبير للمقارنة في كافة العلوم يدل على أهميتها البالغة وعلى أن لها فوائد كثيرة. ومن هذه الفوائد:

- ١- تبيين الأشياء وتوضيحها، لأنه بضدّها تبيين الأشياء.
- ٢- توضيح الفروق بين طريقتي المقارنة.
- ٣- إيقاظ العقل ودعوته إلى التفكير والتدبر في الأمور حوله، وبالتالي الوصول إلى الصواب.
- ٤- إدراك الحقائق عن طريق وضع طريقتي المقارنة فيما يشبه كفة الميزان، وبذلك يبين الحق وينكشف أمام الباحث أو القارئ.
- ٥- معرفة مواطن الشبه والاختلاف بين طريقتي المقارنة.
- ٦- ترسيخ المعلومات في الأذهان.

هذه هي أبرز فوائد المقارنات بشكل عام، ولأجل هذه الفوائد وغيرها استُخدمت في كافة العلوم بما فيها العلوم التجريبية والعلوم الشرعية، والبحوث العلمية وغيرها. وقد وردت في القرآن الكريم أيضاً لهذه الأهداف والفوائد، وأخرى غيرها.

❖ شروط المقارنة وضوابطها:

لتحقيق مقارنة سليمة يجب توفر بعض الشروط اللازمة، ومنها:

- ١- الموضوعية التامة.
- ٢- وجود أوجه الشبه والاختلاف بين طريقتي المقارنة ما لا يقارن.
- ٣- تجنب السطحية، وإبراز الجوانب الأكثر عمقا.
- ٤- الدقة والعمق في جمع المعلومات وبيانها.
- ٥- استناد المقارنة إلى دراسة مختلف أوجه الشبه والاختلاف بين شيئين فأكثر.^(١)

وهذه الشروط والضوابط نجدها واضحة في مقارنات القرآن الكريم المختلفة.

❖ ورود المقارنات في القرآن الكريم:

إن المقارنات موجودة في القرآن الكريم بكثرة، مشهورة في ثنايا سورة وآياته المختلفة، وهي وردت في القرآن لأهداف وفوائد كثيرة. وقد أولاه القرآن الكريم أهمية كبرى، ويدل على ذلك اهتمامه بها واستخدامه لها في إثبات الحقائق

(١) يُنظر: أسامييات علم النفس، للدكتورة فاطمة عبد الرحيم، دار المناهج للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ٢٠١٥م - ١٤٣٥هـ،

المتنوعة التي يهدف إلى ترسيخها في أذهان البشر. فوضع الشيء وضده معاً كما قال الدكتور محمود غازي^(١) رحمه الله لا يوضح الكلام فحسب، بل يرسخه أيضاً في ذهن المخاطب.

وباللقاء نظرة على القرآن الكريم تظهر أمثلة كثيرة على أسلوب المقارنة في القرآن الكريم، حيث قارن القرآن بين النور والظلمات، وبين الإيمان والكفر، وبين المؤمنين والكافرين، وغير ذلك من الأمور. وهذا لا يضيف إلى الكلام حسنة فقط، بل يوضح الموضوع أمام القارئ توضيحاً تاماً.^(٢)

لقد قارن القرآن الكريم بين أمور كثيرة، من أهمها: الجنة والنار ترغيباً في الجنة وترهيباً من النار. فمن عادة القرآن الكريم أنه يقرن ذكر الجنة بالنار والترغيب بالترهيب. قال الإمام الشاطبي^(٣) رحمه الله: "إذا ورد في القرآن الترغيب قارنه الترهيب في لواحظه أو سوابقه أو قرآنته وبالعكس، وكذلك الترجية مع التخويف، وما يرجع إلى هذا المعنى مثله، ومنه ذكر أهل الجنة يقارنه ذكر أهل النار، وبالعكس؛ لأن في ذكر أهل الجنة بأعمالهم ترجية، وفي ذكر أهل النار بأعمالهم تخويفاً؛ فهو راجع إلى الترجية والتخويف".^(٤)

وأيضاً قارن القرآن الكريم في كثير من المواضع بين المؤمنين والكفار، وأعمالهم وجزاء كلا الفريقين، وأحوالهما يوم القيامة. قال الدكتور وهبة الزحيلي^(٥): "قارن الله - كما هو شأن القرآن - فعل الكفار الآثمين بفعل المؤمنين الصالحين، ليظهر الفرق واضحاً بين الفريقين، فيكون ذلك أدعى إلى امتناع الجاحد وامتنان المؤمن الصادق".^(٦)

(١) هو الأستاذ الدكتور محمود أحمد غازي بن محمد أحمد القاري، من العلماء المعاصرين. ولد عام ١٩٥٠م في الهند، ثم هاجر مع والديه إلى باكستان واستقر فيها. اشتهر بالعلوم الشرعية منذ الصغر. كانت له خبرة بالعلوم الشرعية والعربية وغيرها. توفي عام ٢٠١٠م. من كتبه: المدخل الوجيز إلى دراسة الإعجاز في الكتاب العزيز، محاضرات قرآنية، تاريخ الحركة المجددية، وغيرها.

(٢) ينظر: محاضرات قرآنية، للدكتور غازي، ص ٣٤١.

(٣) هو أبا إسحاق إبراهيم بن موسى الفرياطي المالكي المشهور بالشاطبي. محدث لغوي، أصولي، مفسر. من العلماء المحققين وأكابر الأئمة الثقات، إمام في كثير من العلوم والفنون. توفي عام ٧٩٠هـ. من كتبه: الموافقات في أصول الأحكام، الاعتصام، عنوان الاتفاق في علم الاشتقاق، وغيرها.

ينظر: نيل الابتهاج بتطريز الديباج: أبي العباس أحمد بابا السوداني، ط ٢، دار المكتبة طرابلس، ليبيا، ٢٠٠٠م، ص ٤٨. معجم المؤلفين، لعمر رضا كحالة، مكتبة المفتي، بيروت، لبنان، ١/ ١١٨.

(٤) الموافقات، للشاطبي، تحقيق: أبو حبيدة مشهور، ط ٢، دار ابن عثان، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، ٤/ ١٦٧.

(٥) هو الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي. عالم سوري من العلماء المعاصرين، ألف في التفسير والفقه. توفي عام ٢٠٠٦م. من كتبه: الفقه الإسلامي وأدلته، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، الوجيز في أصول الفقه، وغيرها.

ينظر: التفسير والمفسرون في لونه الجديد، للدكتور عبد الغفور مصطفى جعفر، ط ١، دار السلام، القاهرة، مصر، ٢٠٠٧م، ص ٧٧٨ - ٧٧٩.

(٦) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، للزحيلي، ط ٢، دار الفكر، دمشق، سورية، ١٤١٨هـ، ٣/ ٨٨.

وقد وردت في القرآن الكريم أيضاً مقارنات متعددة بين الإله الحقيقي الذي هو الله الواحد الأحد والآلهة الباطلة التي يعبدونها الناس من دون الله. وهذه المقارنات متنوعة ومختلفة، فتارة يأتي ذكر القدرة الإلهية المطلقة ومقابلته بذكر الصجر الكامل للآلهة الباطلة، وتارة يتم اختيار صفة أخرى للمقارنة وبها يتم إثبات حق الله تعالى وحده بالعبادة. وكذلك جاءت في القرآن الكريم مقارنة بين الدنيا ومتاعها الزائل والآخرة ومتاعها الباقي الذي لا يفنى أبداً، كما قارن القرآن بين الإنفاق في سبيل الله والربا، وبين فِرْق أهل الكتب المختلفة، وغيرها من الأمور الكثيرة.

❖ أنواع المقارنات القرآنية:

إن المقارنات التي وردت في القرآن الكريم يمكن تقسيمها إلى نوعين، هما:

١- المقارنات الصريحة: وهي التي فيها ذكر للطرفين مع وجود ما يدل على المقارنة بينهما، مثل قوله تعالى:

﴿أَوْ مَن كَانَ مَبْتَغًى فَأَخِيتَهُ وَجَعَلْنَا لِقَدُّورًا يُنْفِئُ بِهِ فِي النَّاسِ مَن مَّكُلُوهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١) فقد قارن الله تعالى في هذه الآية بين المؤمنين الذين أنعم الله عليهم بنعمة الإيمان فصاروا به أحياء بعد أن كانوا كفاراً مثل الأموات. ووجود كاف التشبيه وقبله حرف الاستفهام في أول الآية، يدلان على كونها مقارنة صريحة.

وأيضاً من المقارنات الصريحة قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنِ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(٢) هنا أيضاً مقارنة بين الإيمان بالله والجهاد في سبيله وبين سقاية الحاج وعِمارة للمسجد الحرام بأسلوب صريح.

٢- المقارنات غير الصريحة: ويفصد بها المقارنات التي جاء فيها ذكر لطرفي المقارنة مع عدم وجود ما

يدل على المقارنة بينهما. ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾^(٣) ففي الآية قرن ذكر ولي المؤمنين الذي هو الله تعالى بذكر أولياء الكفار الذين هم الطواغيت، ولكن ليس فيها ما يدل على التصريح بالمقارنة بينهما.

هذان هما نوعا المقارنات في القرآن الكريم، ولكل نوع منهما أساليب وطرق متنوعة متوفرة في القرآن الكريم، سيُفصّل فيها في الصفحات القادمة بإذن الله.

(١) سورة الأنعام، آية ٦٢٢.

(٢) سورة التوبة، آية ١٩.

(٣) سورة البقرة، آية ٢٥٧.

❖ أهداف المقارنات القرآنية:

لا شك أنه لا يخلو أسلوب من أساليب القرآن الكريم من فائدة وحكمة، إذ يستحيل أن يستخدم الله سبحانه وتعالى في كتابه أسلوباً لتقرير حقائق معينة دون هدف ومقصد، لأنه أحكم الحاكمين، والحكيم لا يخلو أقواله وأفعاله عن حكمة وغرض، علمها البشر أم لم يعلموها. فكما أن للمقارنات القرآنية أساليب متنوعة لها أيضا أهداف ومقاصد شتى، سعت إلى تحقيقها. وهذه الأهداف متنوعة وكثيرة؛ وذلك لأن لكل مقارنة هدفا وغرضا خاصا. ولكن يمكن جمع هذه الأهداف كلها في ثلاثة عناوين:

- ١- أهداف متعلقة بالمولى عز وجل: وذلك مثل إثبات قدرة الله تعالى المطلقة، وعلمه الواسع المحيط بكل شيء، والدعوة إلى الإيمان به وحده بلا شريك ولا منازع، وإثبات رحمته وشفقته بعباده، وولايته للمؤمنين، وغير ذلك. ومثال المقارنات التي تندرج تحت هذا النوع قوله تعالى على لسان سيدنا يوسف عليه السلام: ﴿يَا صَاحِبِي التَّيَجَنِّي أَزْيَابٌ مُتَقَرَّبُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾^(١).
 - ٢- أهداف متعلقة بالإيمان والكفر والترغيب والترهيب: وذلك كالترغيب في الجنة والتخويف من النار، وإصلاح عقائد البشر، وإثبات فضل الإيمان على الكفر، والحث على الاستعداد للدار الآخرة، وما إلى ذلك. ومن المقارنات التي سعت إلى تحقيق ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْتَرِي الْأَعْتَى وَالْبَصِيرُ ۖ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ۖ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ﴾^(٢).
 - ٣- أهداف متعلقة بأمور متنوعة: ونحت هذا العنوان لدخل أهداف شتى، مثل توضيح الحقائق وإظهارها بذكر أمثالاتها، وإقامة الحجة على العباد، والدعوة إلى التفكير والتدبر وإعمال العقول التي وهبها الله للبشر، وتسلية المؤمنين، وبيان أن الحق ثابت دائم وأن الباطل أمره إلى زوال، وغير ذلك من الأهداف وللمقاصد المتنوعة. ولكل هدف من هذه الأهداف وغيرها أمثلة كثيرة في القرآن الكريم.
- وفيما يلي بيان تفصيلي لأساليب المقارنات في القرآن الكريم وأهدافها، مع ذكر الأمثلة عليها. وبالله التوفيق.

(١) سورة يوسف، آية ٣٩.

(٢) سورة فاطر، الآيات، ٢٩ - ٢١.

الباب الأول: أساليب المقارنات في القرآن الكريم

وفيه:

- الفصل الأول: المقارنات الصريحة.
- الفصل الثاني: المقارنات غير الصريحة.

الفصل الأول: المقارنات الصريحة

وقيه:

- المبحث الأول: المقارنة باستخدام أسلوب الاستفهام.
- المبحث الثاني: ضرب المثل.
- المبحث الثالث: استخدام أساليب بديهة متنوعة.
- المبحث الرابع: المقارنات باستخدام الأسلوب المباشر.

المبحث الأول:

المقارنة باستخدام أسلوب الاستفهام

❖ أسلوب الاستفهام وأنواعه:

يقسم علماء البلاغة الجملة إلى نوعين، هما:

- ١- الجملة الخبرية^(١)، وهي التي تحتل الصدق والكذب لذاتها.
 - ٢- الجملة الإنشائية^(٢)، وهي التي لا ينطبق عليها تعريف الجملة الخبرية ولا يمكن الحكم عليها بصدق أو كذب^(٣) ولها أنواع متعددة، منها: الأمر والنهي، والدعاء، والاستفهام وغيرها.
- فالاستفهام ضرب من ضروب الإنشاء الطلبي.

● تعريف الاستفهام:

الاستفهام هو طلب العلم بشيء لم يكن معلوما من قبل، وذلك بأداة من أدواته، فهو نوع من أنواع الإنشاء الطلبي^(٤) فالأصل في الاستفهام طلب الإفهام والإعلام لتحصيل فائدة مجهولة لدى المستفهم. وقد يراد به غير هذا المعنى الأصلي الذي وُضع له، ويُستعمل على ذلك المعنى بالقرائن القولية أو الحالبة^(٥) والاستفهام حين يأتي في كلام الله تعالى من عنده فهو من القليل الثاني: أي: أن يكون على حقيقته، لأنه تعالى غني عن طلب الإفهام أو الإعلام، بل يراد به غير المعنى الأصلي له.

(١) الجملة الخبرية هي التي اشتملت على خير ماء أو إيجابا وسلبا فإذا صح أن يقال عن الجملة إنها مطابقة للواقع أو غير مطابقة للواقع فهي جملة خبرية.

البلاغة العربية، لعبد الرحمن حبيكة الميداني، ١/١٦٦، ينصرف.

(٢) والجملة الإنشائية هي التي لم تشتمل على خير، وإنما أنشأ النطق بها حدثا ما، كطلب الفعل أو نحوه.

لمرجع السابق، ١/١٦٣.

(٣) وينقسم الإنشاء أيضا إلى قسمين:

١- الإنشاء الطلبي: وهو ما يستدعي مطلوبا غير حاصل في اعتقاد المتكلم وقت الطلب لامتناع تحصيل الحاصل، وهو خمسة

أنواع: الأمر، والنهي، والتمني، والاستفهام، والدعاء.

٢- الإنشاء غير الطلبي: وهو ما لا يستدعي مطلوبا حاصلًا مثل المدح والذم.

ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، لجلال الدين القزويني، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، ط ٣، دار الجيل، بيروت، لبنان، ٣/٥١.

وما بعدها. علوم البلاغة - البيان والمعاني والبدیع - علوم البلاغة - البدیع والبيان والمعاني،

للدكتور محمد أحمد فاضل والدكتور محي الدين ديب، ط ١، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، ليبيا، ٢٠٠٣ م، ص ٢٨٢.

(٤) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع، لأحمد مصطفى الهاشمي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ص ٢٨.

(٥) البلاغة العربية، لحبيكة الميداني، ١/٢٥٨.

• أدوات الاستفهام:

أدوات الاستفهام هي: الهمزة، هل، من، ما، أي، كم، كيف، أين، أيان، متى، أنى. ^(١) وكل أداة من هذه الأدوات تُستخدم في معنى خاص بها. ^(٢)

• أغراض الاستفهام:

يرد الاستفهام بشكل عام للسؤال عن أمر غير معلوم لدى المستفهم. لكنه أحيانا يخرج عن هدفه الأصلي ومراده الحقيقي إلى أمور أخرى أيضا. فبإني في كلام البلاء ليس فقط للسؤال عن أمر والاستعلام عنه، بل يرد لأغراض أخرى كثيرة. وأهم هذه الأغراض هي:

- ١- الإنكار: وذلك كما في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾. ^(٣)
- ٢- التقرير: كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾. ^(٤)
- ٣- التوبيخ: كما في قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾. ^(٥)
- ٤- التعجب: كما في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَعْفُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَنًا فَأَحْبَبْكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. ^(٦)

(١) الإيضاح في علوم البلاغة، للقزويني، ٥٥/٣.

(٢) هذه أدوات مفردة للاستفهام، وهناك كلمات مركبة أيضا تُستخدم في معنى الاستفهام، مثل: غلام، إلام، حقام. وهذه الأدوات تُسأل بها عن الزمان والمكان وغيرها. وقد وردت هذه الأدوات المركبة في كلام العرب. فمثلا جاء في معلقة طرفة بن العبد:

يَلُومُ وما أحبب غلام يَلُومني كما لا أمني في الحني فُرط بن معزلة.

جوهرة أشعار العرب، لأبي زيد القرنبي، تحقيق: علي محمد الجادوي، غضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ص ٣٣٠. وقال الفرزدق مخاطباً ناقته:

إِلَامَ فَلَقْنَيْنِ وَأَنْتِ قَتْنِي وَخَيْرُ الثَّلَاثِ كُلُّهُمُ أَهْلَامِي

الحماسة البصرية، لأبي الحسن البصري، تحقيق: عطار الدين أحمد، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ١٢٢/١.

وقال المتنبي:

حَقَّامٌ نَحْنُ تُسْتَبَارَى التَّجَمُّعُ فِي الظُّلَمِ وَمَا شَرَّهَا عَلَى حُفٍّ وَلَا قَدَمِ

اللامح العزري شرح ديوان المتنبي، لأبي العلاء المعري، تحقيق: محمد سعيد المولوي، ط ١، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م، ص ٩٣٣.

(٣) سورة الروم، آية ٢٩.

(٤) سورة الشرح، آية ١.

(٥) سورة البقرة، آية ٤٤.

(٦) سورة البقرة، آية ٢٨.

٥- العتاب: كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنْ الْحَقِّ﴾. (١)

٦- التهكم والسخرية: ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِ فَاتَّبَعْنَاهُمْ نَكَالَ الْأُنْحَالِ ۖ مَا أَصْبَحُوا بِآيَاتِنَا إِلَّا كَغِيَابِ غَبَاطٍ لَا يَأْتِيهِم مِّنْهُ نَبَأٌ مَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾. (٢)

٧- التنبيه: كما في قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾. (٣) فلراد بهذا الاستفهام تنبيههم على ضلالهم.

٨- التوسية: كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. (٤)

٩- العزيب: كما في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ أَذْلُكُمْ عَلَىٰ حِمْلَةٍ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. (٥)

١٠- التضمين والتعظيم: كما في قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُنْزِلُنَا مَا لَنَا مِنْهُ الْكِتَابُ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾. (٦) إلى غير ذلك من الأغراض. (٧)

وتعرف من السياق الهدف من ورود الاستفهام، وقد ورد الاستفهام في القرآن الكريم لهذه الغاية كما استخدم القرآن الكريم أسلوب الاستفهام في مقارناته البديعة أيضا. وهذه الأساليب الاستفهامية الواردة في ثنايا المقارنات القرآنية جاءت لأغراض شتى. ففي القرآن الكريم مقارنات استخدم فيها أسلوب الاستفهام الإنكاري، كما أن فيه أسلوب الاستفهام التقريري والتوبيخي، وفي مواضع أخرى ورد الاستفهام وأعقبه جواب عن هذا السؤال المستفهم عنه. ولكل أمثلة وردت في القرآن الكريم.

(١) سورة الحديد، آية ١٦.

(٢) سورة الصافات، الآيتان ٩١ - ٩٢.

(٣) سورة التكاوير، آية ٢٦.

(٤) سورة البقرة، آية ٦.

(٥) سورة الصف، آية ١٠.

(٦) سورة الكهف، آية ٤٩.

(٧) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، للقزويني، ٦/٣ - ٨٠. البلاغة العربية لحفصة الميناني، ١/ ٢٧٠ وما بعدها.

المطلب الأول:

أسلوب الاستفهام الإنكاري

❖ معنى الاستفهام الإنكاري:

الاستفهام الإنكاري هو الاستفهام الذي يراد به النفي مع الإنكار على المثلث كيف أثبت ما هو ظاهر للنفي، وكان الواجب عليه أن ينفي. أو مع الإنكار على المخاطب قضيته وهي باطلة في تصور موجه الاستفهام. فيتعدى الاستفهام الذي غرضه الإنكار عن معنى الطلب إلى استنكار وقوع ما هو سؤال عنه في ظاهر الأمر. ويلزم فيه أن يكون الأمر المستفهم عنه غير واقع أو أن يكون مدعيه كاذباً. ^(١) وذلك مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾. ^(٢) فالاستفهام في الآية غرضه الإنكار، أي: لا يهلك إلا القوم الفاسقون.

❖ أمثلة على المقارنات باستخدام أسلوب الاستفهام الإنكاري:

استخدم القرآن الكريم أسلوب الاستفهام الإنكاري في كثير من المواضع التي قارن فيها بين أمور متعددة بهدف نفي المساواة بينها، والإنكار على الذين يدعون المساواة وعدم التفرقة بين هذه الأمور. ومن الآيات التي وردت فيها مقارنة بأسلوب الاستفهام الإنكاري:

١ - قال الله تعالى: ﴿أَفَتَبِيعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾. ^(٣)

قارنت الآية بين من حاول نيل رضا الله بطاعته واتباع أوامره واجتناب نواهيه وكان مأواه الجنة، ومن نال غضب الله تعالى وسخطه باتباع طريق معصيته وإتيان نواهيه وكان مأواه جهنم وبئس المصير، مستخدمة أسلوب الاستفهام الإنكاري. حيث نفت الآية الكريمة المساواة بين هذين الاثنين وأنكرت على من يظن أنهما سواء. فشتان ما بينهما في الدنيا والآخرة، ولا يمكن أن يتسويا في الدنيا ولا في الآخرة. ثم ذكرت الآية التي تلتها أن لكل منهما درجات عند الله تعالى حسب أعمالهما: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾. ^(٤)

^(١) يُعْظَرُ: البلاغة العربية، للشيخ حبيكة الميداني، ٢٧١/٦، علوم البلاغة - البديع والبيان والمعاني، للمذكور محمد أحمد قاسم ومحيي

الدين ديب، ص ٢٩٧.

^(٢) سورة الأحقاف، آية ٣٥.

^(٣) سورة آل عمران، آية ١٦٢.

^(٤) سورة آل عمران، آية ١٦٣.

■ سياق الآية:

وردت هذه الآية في سياق الحديث عن غزوة أحد، وجاءت بعد قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلَّ﴾^(١)، وهذه الآية نزلت كما قال سيدنا ابن عباس رضي الله في قطيفة حمراء افتقدت يوم بدر. فقال بعض الناس: لعل رسول الله ﷺ أخذها، فانزل الله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلَّ﴾^(٢) إلى آخر الآية^(٣) ولهذا السبب ذكر بعض العلماء أن المراد باتباع رضوان الله والرجوع بسخطه الغلول وعدمه، وروي هذا المعنى عن الضحاك^(٤) بن مزاحم رحمه الله^(٥). ولكنها وإن نزلت في تلك الظروف الخاصة إلا أن ألفاظها عامة تشمل كل من سلك الطريق المؤدي إلى رضوان الله تعالى بما فيه ترك الخيانة والغلول، وكل من سلك طريق غضب الله تعالى وسخطه بما فيه الخيانة والغلول؛ وذلك لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. قال الشوكاني^(٦) في فتح القدير: "ليس من اتباع رضوان الله في أوامره ونواهيه فعمل بأمره واجتناب نهيه كمن بآء، أي: رجع بسخط عظيم كائن من الله بسبب مخالفته لما أمر به ونهي عنه، ويدخل تحت ذلك من اتبع رضوان الله بترك الغلول واجتنابه ومن بآء بسخط من الله بسبب إقدامه على الغلول"^(٧).

(١) آل عمران: ١٦١.

(٢) آل عمران: ١٦١.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب التفسير، باب ومن سورة آل عمران، ص ٦٧٦، حديث رقم ٣٠٠٩، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، ط ١، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

(٤) هو أبو القاسم الضحاك بن مزاحم الهلالي الخراساني. كان من المفسرين والفقهاء. روى عن ابن عباس وابن عمر وأبي سعيد الخدري، توفي عام ١٠٢هـ.

ينظر: طبقات المفسرين للداودي، ٢٢٢/١. طبقات المفسرين لأحمد بن محمد الأذنه وي، ص ٤٠. الوافي بالتوفيات، للخليل الصنفدي، ٢٠٧/١٦.

(٥) عن الضحاك بن مزاحم في قوله "أقمن اتباع رضوان الله كمن بآء بسخط من الله" قال: من غل.

أخرجه عبد الرزاق الصنعاني في لمصنف، ٢٤٦/٥، رقم ٩٥٠٦، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، ط ٢، المجلس العلمي، الهند، ١٤٠٣هـ.

(٦) هو أبو عبد الله محمد بن علي الشوكاني. من كبار علماء اليمن. كان مفسراً فقيهاً أصولياً محدثاً. ولد ونشأ في صنعاء وتولى فيها القضاء. توفي عام ١٢٥٠هـ. من كتبه: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، مطلع البدرين ومجمع البحرين، نيل الأوطار من أسرار منتهى الأخبار وغيرها.

ينظر: معجم المفسرين، لعادل نويس، ط ٣، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، لبنان، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م، ٥٩٣/٢. الأعلام، لخير الدين الزركلي، ٢٩٨/٦.

(٧) فتح القدير، للشوكاني، ط ١، دار ابن كثير - دار الكلم الطيب، دمشق - سوريا، بيروت - لبنان، ١٤١٤هـ، ٤٥٢/١.

■ تفسير الآية:

وضح الله في الآية أنه ليس من اتبع رضوان الله وفعل ما أمر به ربه، كمن عصاه فاستحق غضب الله وسخطه عليه وكان مأواه جهنم التي هي نفس المصير. فلكل درجات يستحقونها عند الله، والله مطلع على أعمال العباد يجازيهم عليها يوم القيامة. ويرى الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي أن في الآية استعارة، حيث يجعل ما شرعه الله كدليل الهداية إلى رضوانه، ويجعل المعاصي كمن أمر أن يتبع شيئا فامتنع. وقال أيضا: "يُبين سبحانه نفى المساواة بين المحسن والمسيء، فأخبر أن من اتقى الله وعمل صالحا لا يستوي مع من عصي الله وعمل سوءا. أي: فلا يستوي من اتبع رضوان الله فيما شرعه فاستحق به رضوانه وجزيل ثوابه وأمن العذاب، ومن استحق غضب الله وألزم به فلا يخيد له عنه. ومأواه يوم القيامة جهنم ونفس المصير... وإن لكل من أهل الخير وأهل الشر درجات ومنازل يتفاوتون فيها. فللمعتفين الطائعين درجات في الجنة وللعصاة دركات في النار، فهم يتفاوتون في الجزاء، بسبب تفاوت أعمالهم في الدنيا". (١)

أما ابن عاشور (٢) فيرى أن الآية فيها تشبيه لخال من يطلب بأفعاله رضا الله بحال الذي يطلب طلبا فهو يتبعه حيث وجد، قال رحمه الله: "الاتباع هنا بمعنى التطلب: شبه حال المتوخي بأفعاله رضا الله بحال المتطلب لطلبه فهو يتبعها حيث حل ليقضيها. وفي هذا التشبيه حسن التنبؤ على أن التحصل على رضوان الله تعالى محتاج إلى فرط اهتمام. وفي فعل "باء" من قوله "كمن يأمر بسخط من الله" تمثيل لخال صاحب المعاصي بالذي خرج يطلب ما ينفعه فرجع بما يضره، أو رجع بالخيبة... وقد علم من هذه المقابلة حال أهل الطاعة وأهل المعصية، أو أهل الإيمان وأهل الكفر". (٣)

لا شك أن الآية الكريمة عامة تشمل كل من اتبع طريق الهداية للمؤدي إلى رضا الله والجنة، ومن اتبع طريق الضلال المؤدي إلى سخط الله ثم الخلود في النار، وتذكر أن هذين ليسا بسواء. ولا شك أن الأمر كذلك فلا يمكن للمساواة بين المؤمن الذي يطيع الله تعالى في كل شؤون الحياة وبين الكافر المعاصي لله تعالى، لا في الدنيا ولا في الآخرة. حيث يحاول الأول نيل رضا الله في كل صغيرة وكبيرة ويجتنب كل ما يؤدي إلى غضبه سبحانه وتعالى، أما الثاني فلا يهمه رضا الله ولا غضبه، فهو يعيش حياته وفق هواه ولا يلتقي بالا لأوامر الله تعالى ونواهيه، إذ يجتنب أوامر الله ويبقى نواهيه دون مخوف من عقاب ولا رغبة في ثواب. وكما أن الفرق بينهما واضح في الدنيا، كذلك بينهما فرق

(١) التفسير المنير، للزحيلي، ١٤٥/٤، ١٤٨، بتصريف.

(٢) هو محمد الطاهر بن عاشور. من كبار علماء تونس. كان مفسرا، لغويا، أدبيا، نحويا. ولد ونشأ وتعلم بتونس. درس في جامع الزيتونة. كان عضواً لمجمع اللغة العربية بمصر، وللمجمع اللغوي العلمي بدمشق. توفي عام ١٣٩٣ هـ. من كتبه: التحرير والتنوير، مقاصد الشريعة الإسلامية، موجز البلاغة، وغيرها.

ينظر: معجم المفسرين، لعادل نويس، ٥٤١/٢ - ٥٤٢، الأعلام، للزركلي، ١٧٤/٦.

(٣) التحرير والتنوير، لابن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤ م، ١٥٧/٤، بتصريف.

في الآخرة كالفرق بين السماء والأرض. فالذي نال رضا الله تعالى مصيره جنة عرضها السماوات والأرض، وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. أما الذي استحق سخط الله فمصيره جهنم التي فيها من أنواع العذاب ما لا طاقة للبشر بمثلها، نسأل الله المعافاة من ذلك.

٢- قال الله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ (١).

هذه الآية فيها مقارنتان متشابهتان، حيث قارن الجزء الأول منها بين الذين آمنوا وعملوا الصالحات وكانوا سبيلًا في إصلاح الأرض، والمفسدين الذين آفَسُوا في الأرض وسعوا في تخريبها بأعمالهم الفاسدة، باستجلام الاستفهام الإنكاري، أي: لا يستوي هذان، وليس لأحد أن يظن أنهما سواء. ثم قارن الجزء الآخر من الآية بين المتقين الذين جُلَّ همهم تقوى الله تعالى بطاعته واجتناب معصيته والفجار العاصين لله تعالى البعيدين عن طاعته. فذكرت الآية أنه لا يمكن أن يجعل الله تعالى هؤلاء وهؤلاء سواء، بل هما مختلفان في طريقة حياتهما في الدنيا، كما أنهما مختلفان في درجاتهما ومرتباتهما عند الله تعالى.

■ سياق الآية:

جاءت هذه الآية الكريمة بعد ذكر قصة سيدنا داود عليه السلام الذي جاءه خصمان في قضية كانت بينهما، فحكم فيها سيدنا داود عليه السلام، ثم استغفر الله تعالى حينما علم أن الله امتحنه بمحدين الخصمين. ثم أخبره الله تعالى أنه جعله خليفة في الأرض؛ فيجب عليه أن يحكم بين الناس بالعدل بعيدا عن الهوى الذي يضل الناس عن طريق الله، والضل عن طريق الله الحق له عذاب شديد. وبعد ذكر هذه القصة بين الله تعالى أنه لم يخلق السماء والأرض عبثا دون فائدة، كما يظن الكفار الذين أعدت لهم النار في الدار الآخرة. بل إن الله خلق السموات والأرض لحكمة وفائدة، إذ لا يليق بحكيم مثله أن يخلق شيئا لولا وعيها. ثم جاءت هذه الآية التي نفتت المساواة بين المؤمنين المصلحين والكفار المفسدين في الأرض، وبين المتقين والفجار. فكما أن الله تعالى لم يخلق الكون بما فيه هوا ولعاب، فكذلك لا يليق بحكمته العظيمة أن يسوي الله تعالى بين هذه الطوائف المختلفة المتفرقة. وبعد ذلك جاء ذكر الكتاب المنزل على رسول الله ﷺ الذي ينهي أن يتدبر فيه الناس ويهتدوا بهديه. ثم جاء ذكر العبد الصالح سيدنا سليمان عليه السلام. فوردت الآية بين قصة نبيين لإيضاح أن الكفار المفسدين لا يتساوون أبدا مع مثل هؤلاء المؤمنين الصالحين، فكان قصة سيدنا داود عليه السلام قبل الآية وقصة سيدنا سليمان عليه السلام بعدها دليل على ما جاء فيها من نفي المساواة بين المؤمنين والمفسدين وبين المتقي والفاجر. (٢)

(١) سورة ص، آية ٢٨.

(٢) راجع: الآيات ٢١ - ٤٠ من سورة ص.

■ تفسير الآية:

نفث هذه الآية المساواة بين المؤمنين الذين يعملون الأعمال الصالحة ويعملون على إصلاح الأرض وعمارها بطاعة الله تعالى وإقامة شرعه في أرضه، والكفار المفسدين الذين لا يعملون الصالحات بل يسعون في الأرض فساداً، وذلك بإتيان المنكرات وإقامة حكم الطاغوت في الأرض. كما نفث الآية المساواة بين المتقي والفاجر، وأنكرت حلي من يظن أن هؤلاء سواء، فالاستفهام في الآية إنكاري.

و"أم" الواردة فيها منقطعة^(١) كما ذكر المفسرون، وأفادت الإضراب. قال الإمام ابن عاشور: "أم منقطعة أفادت إضراباً انتقالياً، وهو ارتقاء في الاستدلال على ثبوت البعث وبيان لما هو من مقتضى خلق السماء والأرض بالحق، بعد أن سبق ذلك بوجه الاستدلال الجملي، وقد كان هذا الانتقال بناء على ما اقتضاه قوله: ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾^(٢)، فالأجل ذلك بُني على استفهام مقدر بعد "أم"، وهو من لوازم استعمالها، وهو استفهام إنكاري. والمعنى: لو اتفنى البعث والجزاء كما تزعمون لاستوت عند الله أحوال الصالحين وأحوال المفسدين... وأم الثانية أيضاً منقطعة، وذلك لقصد زيادة التشجيع على منكري البعث والجزاء بأن ظنهم ذلك يقتضي أن جعل الله المتقين مساوين للفجار"^(٣).

فذكر الله تعالى عدم المساواة بين هذين الحزبين - أي: المؤمنين المصلحين والكفار المفسدين في الأرض، والمتقين من المؤمنين الذين يعيشون حياتهم وفق أوامر الله والفجار^(٤) الذين لا يطبقون أوامر الله تعالى في حياتهم - استدلالاً على البعث والجزاء، وذلك لأن إنكار البعث والجزاء يقتضي أن يكون هؤلاء كلهم متساوين عند الله تعالى، فلا

(١) "أم" تأتي على وجهين:

١- "أم" المتصلة: وهي التي يكون ما بعدها متصلاً بما قبلها ومشاركاً له في الحكم. وتقع بعد همزة الاستفهام، أو بعد همزة التسوية. مثل قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْتُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. (البقرة، آية ٦). ويحتمل متصلة لأن ما قبلها وما بعدها لا يستغني أحدهما عن الآخر.

٢- "أم" المنقطعة: وهي التي تكون لقطع الكلام الأول، واسئناف ما بعده، ومناه الإضراب. (البلاغة العربية، حينكة للبدائي، ٥٦٤/١).

(٢) سورة ص، آية ٢٧.

(٣) التحرير والتوير، لابن عاشور، ٢٤٩/٢٣ - ٢٥٠، بتصرف.

(٤) ويصح أن يكون المراد بالفجار في الجزء الثاني من الآية العصاة من المسلمين، كما يضح أن يكون المراد بهم الكفار، قال البيضاوي: "كانه أفكر التسوية أولاً بين المؤمنين والكافرين، ثم بين المتقين من المؤمنين والمجرمين منهم، ويجوز أن يكون تذكيراً للإنكار الأول باعتبار وصفين آخرين بمنعان التسوية من الحكيم الرحيم".

أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، ط ١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤١٨ هـ، ٢٨/٥.

يُحصل المؤمن على أجره ولا ينال الفاجر عقاب أفعاله. وهذا لا يُلحق بحكمة الله تعالى ورحمته. قال الزمخشري^(١):
"والمراد أنه لو بطل الجزاء كما يقول الكافرون لاستوت عند الله أحوال من أصلح وأفسد، واتقى وفجر، ومن سوى
بينهم كان سفيها ولم يكن حكما".^(٢)

(١) هو أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري. ألّف بحار الله لأنه جاور مكة زمنا. كان مفسرا نحويا معتزليا. ولد في خوارزم عام ٤٦٧ هـ. كان واسع العلم، ذكيا، ماهرا في كل علم، علامة في الأدب والنحو. توفي عام ٥٣٨ هـ. له كتب كثيرة، منها: الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، أساس البلاغة، الأمودج في النحو، وغيرها.
يُنظر: طبقات المفسرين، للباودي، ٣١٥/٢ - ٣١٦. طبقات المفسرين، للسيوطي، ص ٢٢٠ - ١٢١. طبقات المفسرين، للأردن، ص ١٧٢ - ١٧٣.

(٢) الكشف، للزمخشري، ط ٣، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٤٠٧ هـ، ٩٠/٤.

المطلب الثاني:

أسلوب الاستفهام التقريري والتوبيخي

❖ معنى الاستفهام التقريري والتوبيخي:

(١) الاستفهام التقريري:

الاستفهام التقريري هو الاستفهام الذي يهدف إلى حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقر عنده العلم به، حيث يرد هذا النوع من الاستفهام لإجاء المخاطب إلى الإقرار بما يعرفه والاعتراف بما يسأل عنه. (١) ومثال قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ يَمِينًا تَفَارَى ۖ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ۖ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ۖ﴾ (٢) فهذه الآيات تقر بأن الله آوى رسوله ﷺ وهده وأغناه، كما تحمل النبي ﷺ على الإقرار بذلك، والاعتراف بهذه النعم عليه.

(٢) الاستفهام التوبيخي:

ويسمى استفهاما توبيخيا أو تقييما، وهو الاستفهام الذي يكون الغرض منه توجيه اللوم والعتاب المبيد، حيث يقوم المستفهم بتوجيه هذا النوع من الاستفهام بالتوبيخ على فعل شيء غير حسن في نظره، أو ترك فعل كان ينبغي القيام به في نظره. (٣) ومثاله قوله تعالى: ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ (٤) ففي هذه الآية لا يسأل سيدنا موسى سيدنا هارون عليه السلام عما فعله، بل يلومه على ما فعل ويعاتبه على معصيته لأمره. وكذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۖ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٥)، فلا يسأل سيدنا إبراهيم عليه السلام في هذه الآية قومه عما يعبدون، إذ هو عالم بذلك، بل يوبخهم على صنيعهم ويعاتبهم على عبادتهم لأصنام منحوتة بأيديهم، والحال أن الله خلقهم وخلق ما يعبدون من دونه.

❖ أمثلة على المقارنات باستخدام الاستفهام التقريري:

استُخدم أسلوب الاستفهام التقريري في عدد من المواضع التي قارن القرآن الكريم فيها بين أمور متعددة، والأمثلة عليها مثورة في القرآن الكريم كله. ومن هذه الأمثلة:

(١) يُنظر: البلاغة العربية، لحبشكة الميداني، ٢٧٥/١. علوم البلاغة - البيان والمعاني والهدى، لأحمد بن مصطفى المراغي، ص ٦٩.

علوم البلاغة - الهدى والبيان والمعاني، للدكتور محمد فاسم وبجي الدين ديب، ص ٢٩٧ - ٢٩٨.

(٢) سورة الضحى، الآيات: ٦ - ٨.

(٣) يُنظر: البلاغة العربية، لحبشكة الميداني، ٢٧٤/١.

(٤) سورة طه، آية ٩٣.

(٥) سورة الصافات، الآيات ٩٥ - ٩٦.

١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ٥﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِمْ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ٦ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ ٧ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ٨ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسٍ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ٩ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ ١٠ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ١١ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ١٢ وَيَجْعَلُ لَكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ١٣ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ ١٤ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ١٥ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتٍ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ١٦ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ ١٧ تَعَلَّى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ١٨ أَمَّنْ يَنْتَدُوا الْخَلَاقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ١٩ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ ٢٠ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٢١ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ٢٢ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ٢٣﴾ (١)

إن في هذه الآيات مقارنة بين المعبود الحقيقي الذي هو الله الواحد الأحد، وما يعبده المشركون من دونه من الأصنام والأوثان وتعوها، فوجهت الآية أولا استفهاما تقريرا، لحمل المخاطبين على الاعتراف بكون الله تعالى خير من هذه الأصنام العاجزة التي لا تملك شيئا ولا تقدر على نفع ولا ضرر. ثم سيفت الأدلة الدالة على كون الله تعالى خير من هؤلاء الشركاء.

■ سياق الآية:

جاءت هذه الآية بعد ذكر قصص بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام (وهم سليمان وصالح ولوط عليهم السلام). فبعد ذكرهم وبيان ما حل بأقوامهم المكذبة من العذاب، أمر الله سبحانه نبيه محمد الله تعالى على إهلاك المكذبين الظالمين، وإلقاء السلام على عباده المصطفين قائلا: ﴿قُلْ أَخَذْتُ لِلَّهِ وَاسْلَمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ أَصْطَلَقُوا﴾ (٢). ثم وردت هذه المقارنة للوجزة بعد ذكر قصص الأنبياء وما حل بأقوامهم من العذاب، لحمل المخاطب على الاعتراف والإقرار بأن الله خير من كل ما يُعبد من دونه من الشركاء والشفعاء، وهو الذي بيده كل شيء، وهو المستحق للعبادة وحده، وهو الذي يجيب الدعوات، وهو وحده المالك لكل ما في السماء والأرض.

(١) سورة النمل، الآيات: ٥٩ - ٦٥.

(٢) سورة النمل، آية ٥٩.

■ تفسير الآيات:

ذكر الله تعالى باستخدام أسلوب الاستفهام التقريري^(١) أن الله خير مما يشرك المشركون، فحملهم بهذا الأسلوب على الاعتراف بهذا الأمر البديهي. ولم يكتف بالتقرير بأن الله تعالى خير من الشركاء الباطلين، بل ساق الأدلة والبراهين التي أثبتت خيرية الله تعالى وقدرته المطلقة التامة، فعدد الخيرات والمنافع التي هي من آثار رحمته وقدرته، وهي:

- (١) خلق السماوات والأرض.
- (٢) إنزال الماء من السماء وإنبات الحنائق النضرة الجميلة من ذلك الماء المنزل.
- (٣) جعل الأرض مكان السكنى والقرار.
- (٤) شق الأنهار في الأرض.
- (٥) إثبات الجبال الرؤاسي في الأرض للمحافظة على توازنها.
- (٦) خلق البحار المختلفة وجعل الجواز بينها حتى لا يختلط الماء للمخ بالعتب.
- (٧) إجابة دعاء المضطر.
- (٨) كشف السوء عن المكروبين.
- (٩) خلق الإنسان وجعله خليفة في الأرض.
- (١٠) توفير الهداية في ظلمات البر والبحر والإرشاد إلى الطريق للصواب.
- (١١) إرسال الرياح للبشرة بالخير والرحمة والقيث من عند الله.
- (١٢) خلق الإنسان لأول مرة وإعادة خلقه.
- (١٣) منح المخلوقات الرزق من السماء والأرض.
- (١٤) العلم بالغيب.

ووجه مع التذكير بكل نعمة استفهاما بقوله: "إله مع الله"، لإثبات أن الله وحده هو النعم المتفضل عليهم، وهو فقط يستحق العبادة. وقد وصف المشركين بعدم العلم والتذكر، وقال إنهم يسمون بالله غيره، وليس عندهم برهان على ما يقولون ويفعلون، يدل على صلتهم، والله هو الذي يعلم الغيب وإليه يحشر الجميع يوم القيامة.

ولا شك أن من يقدر على هذه الأمور كلها قدرة مطلقة، ويملكها ملكا تاما، خير من العاجز المطلق الذي لا يملك النفع والضرر لنفسه بله غيره، وليس معنى هذا الكلام أن الشركاء فيهم ذرة خير، حتى يمكن أن يتوازن بينهم وبين

(١) قال ابن عاشور رحمه الله: "انتقل بهذا الإضراب من الاستفهام الحقيقي النهكمي إلى الاستفهام التقريري. ومن المقدمة الإجمالية وهي قوله: ﴿وَعَالِلَهُمْ ذُرِّيَّتًا مَّا يَفْتَرِغُونَ﴾ إلى الغرض المقصود وهو الاستدلال. وعدد الله الخيرات والمنافع من آثار رحمته ومن آثار قدرته، فهو استدلال مشوب بامتنان".

الله عز وجل، بل جاء هذا الأسلوب تحكما بالمشركين وتنبها لهم على ضلالهم وجهلهم. قال الزمخشري: "قيل لهم مع العلم بأنه لا خير فيما آثروا، وأنهم لم يؤثروه لزيادة الخير ولكن هوى وعشاء لينبها على الخطأ المفرط والجهل المفرط واضلالهم التمييز، ونبذهم المعتقد وليعلموا أن الإيثار يجب أن يكون للخير الزائد".^(١)

وقد ذكر الدكتور الزحيلي أن الآية أحملت أولا الاستدلال على أحقية الله بالإلهية ثم فصلت ذلك ببيان الأدلة على أنه واحد لا شريك له قادر على كل شيء ومستحق للعبادة وحده، والأدلة التي ساقها الآيات أنواع:

- (أ) فمنها ما يتعلق بالسموات: مثل إنزال الماء والرزق من السماء.
- (ب) ومنها ما يتعلق بالأرض: مثل جعلها مكان السكون والقرار، وخلق الأنهار فيها ونحو ذلك.
- (ج) ومنها ما يتعلق عموميا باحتياج الخلق إلى الله: مثل إجابة الدعوات وكشف السوء.
- (د) ومنها ما يتعلق باحتياج الخلق إلى الله في وقت خاص: كالمداية في ظلمات البر والبحر.
- (هـ) ومنها ما له صلة بإبداع الخلق والحشر والنشر: مثل بدء الخلق وإعادة.^(٢)

ولا يقدر على هذه الأمور كلها إلا الله، فلا شك أنه الخير المطلق.

وبخلاصة القول إن الله تعالى قارن بين الإله الحقيقي والآله الباطلة، بطرح سؤال بصيغة الاستفهام التقريري، حيث حمل المخاطبين على الاعتراف بحيرية الله تعالى، فهو الخير المطلق وهو الخالق لكل خير، ثم ساق الأدلة الدالة على أحقية الله تعالى بالعبادة وحده دون شريك، وعده النعم الكثيرة التي تثبت كونه الله مستحقا للعبادة وحده.

٢- ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ بَأْتِيَ آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ أَعْمَلُوا مَا كُنْتُمْ ۖ إِنَّهُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرُونَ﴾.^(٣)

هذه الآية أيضا فيها مقارنة بين من مصيره النار يوم القيامة، ومن يكون في أمن وسلام بعيدا عن شر العذاب وشر النار يوم القيامة، باستخدام أسلوب الاستفهام التقريري.

■ سياق الآية:

وردت الآية في معرض ذكر بعض آيات الله تعالى، حيث ذكر الله أن من آياته الليل والنهار والشمس والقمر، وهذه كلها مخلوقات خلقها الواحد الأحد، وبالتالي فهي لا تستحق العبادة، والذي يستحقها هو خالقها فقط، ومع أنه ليس بحاجة إلى عبادة أحد، فعنده من يعبدونه ليل نهار دون ملل وسأم. ثم ذكر آية أخرى من آياته، وهي إحياء الأرض الميتة بعد نزول الماء عليها، ولا شك أن الذي يستطيع إحياءها قادر على إحياء الموتى. ثم قال الله إن

(١) الكشاف، للزمخشري، ٣/٣٧٥ - ٣٧٦.

(٢) ينظر: التفسير الكبير، للزحيلي، ٢٠/١١ - ١٤.

(٣) سورة فصلت، آية ٤٠.

الملحدين والمجادلين في آيات الله مكشوفون ظاهرون أمام الله وسوف يجازيهم يوم القيامة على صنيعهم. ثم طرح هذا الاستفهام لحمل المخاطب على الإقرار بأن الآمن خير يوم القيامة ممن يلقى في النار، وختم الآية بذكر أن الله بصير بأفعال العباد وسيجازيهم عليها يوم القيامة. (١)

■ تفسير الآية:

إن الاستفهام في الآية كما قال كثير من المفسرين استفهام تقريري (٢)، فقد أقرت الآية بأن المؤمنين بآيات الله يبعثون يوم القيامة آمنين من العذاب، ومن البديهي أنهم يومئذ خير من الذين يلقون في النار، ولا شك أن هذا يعترف به كل إنسان، كما أن في الآية تنبيها على أن الملحدين في آيات الله مصيرهم النار يوم القيامة، والمؤمنين بما مثواهم الجنة دار الأمن والسلام. وفي الآية حذف، حيث حذف مقابل "من يلقى في النار"، وهو: من يدخل الجنة. وحذف مقابل "من يأتي آمنا" وهو من يأتي خائفا، وهم أهل النار. (٣) ففي الآية أيضا مقابلة بين الطرفين، وتقديرها: آمن من يأتي خائفا ويلقى في النار يوم القيامة خير، أم من يأتي آمنا ويدخل الجنة؟

وقد ذكرت أقوال متعددة فيمن هو المراد بهذه الآية، فذهب بعض المفسرين إلى أن المراد من يلقى في النار أبو جهل ومن يأتي آمنا عمار بن ياسر رضي الله عنه، وقال آخرون إن المراد بما أبو جهل وأبو بكر الصديق رضي الله عنه، لو أبو جهل وعمر الفاروق رضي الله عنه، في حين يرى آخرون أن المراد من يلقى في النار أبو جهل وأصحابه ومن يأتي آمنا النبي ﷺ وأصحابه. (٤)

ولا شك أن الآية عامة، فهي شاملة لكل هؤلاء ولغيرهم، فهي على العموم تشمل كل من كان كافرا يلحد في آيات الله ويعرض عنها ويجادل فيها ويثبت خائفا وجلا وكان مصيره النار يوم القيامة، وكل من أتى يوم القيامة مؤمنا بالله وآياته آمنا من العذاب وكان مصيره الجنة. وختمت الآية بنهيهم، حيث قال الله لعباده اعملوا ما شئتم، ووضح أنه بصير ما يفعلون، ويحصى أعمالهم، وسيجازيهم عليها في الدار الآخرة.

وبالجملة فإن في الآية مقارنة بين المؤمن الآمن، والكافر الوجل يوم القيامة، فحملت باستفهامها التقريري المخاطب على الإقرار والاعتراف بأن المعرض عن آيات الله الملحد فيها يلقى في النار على وجهه، والمؤمن يبعث آمنا يوم

(١) راجع: الآيات ٣٧ - ٤٠ من سورة فصلت.

(٢) يُنظر: للبحر المحيط، لأبي حيان: تحقيق: حسني محمد جميل، طبعة دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ، ٣٠٩/٩. مفتاح

الغيب، للرازي، ط ٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ، ٥٦٨/٢٢. التفسير المنير، للرحبي، ٢٤/٢٤١.

أما العلامة ابن عاشور فإنه يرى أن هذا الاستفهام تقريري جاء للتنبيه على عظم تفاوت المرتبتين.

التحرير والتنوير، لابن عاشور، ٤/٧٤. ٣٠٤/٧٤.

(٣) التحرير والتنوير، لابن عاشور، ٣٠٤/٣٤ - ٣٠٥.

(٤) يُنظر: النكت والعيون، للماوردي، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٨٥/٥. للنور المنشور

في التفسير بالمأثور، للسيوطي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ٣٣٠/٧.

القيامة ويدخل الجنة. ولا شك أن الداخل في النعيم والذي يُبعث في أمان لا خوف عليه ولا حزن خير ممن يُبعث على وجل وخوف. وهذا ما يقر به كل إنسان.

❖ مثال على المقارنات باستخدام الاستفهام التوبيخي:

١- ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿٥﴾ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا﴾ (١)

قارنت الآية الكرعة بين نار جهنم وأصناف العذاب التي يلوقها الداخلون فيها، وبين جنة الخلد التي يدخلها المتقون ويشتمعون فيها بأنواع وأصناف من النعم والملاذات.

■ سياق الآية:

ورد في الآيات السابقة ذكر الكفار وعنادهم والشبهات والاعتراضات التي كانوا يوجهونها إلى ذات الرسول ﷺ، والتي منها أنه يأكل الطعام كسائر البشر، وأنه يمشي في الأسواق لأداء حاجاته، وأن هذا الكتاب أساطير الأولين، وهو كذب افتراه بمساعدة غيره، وأنه مسحور، ومنها أيضا اقتراحهم على نبي الله ﷺ أن تكون له جنة يأكل منها أو يكون له كثر خاص به. فردّ الله تعالى على افتراءاتهم وقال إنه قادر على كل ذلك، ليكن هؤلاء لن يؤمنوا أبداً وإن أنزل الله كل ما طلبوا من الآيات؛ وذلك لأن مصيبتهم الحقيقية هي أنهم كذبوا بالساعة، وقد أعد الله لكل مكذب بما عذاب السعير. ثم ذكر صفة هذا العذاب، وهي أنه شديد لا يمكن للكفار الفرار منه، لأنهم يكونون مقرنين فيه، وإذا رأوا جهنم من بعيد سمعوا لها صوتا مليا بالغيط والغضب، وهم بعد دخولها يدعون على أنفسهم بالهلاك. وبعد ذكر هذه التفاصيل المتعلقة بالجحيم جاءت هذه الآية لتسأل: هل هذا العذاب خير أم الجنة التي وعدها الله للمتقين، والتي هي جزاء إيمانهم وتقواهم وأعمالهم الصالحة، وهم خالدون فيها أبداً، لن يخرجهم منها شيء. (٢)

■ تفسير الآية:

قارنت الآية باستخدام أسلوب الاستفهام الذي غرضه التوبيخ بين عذاب السعير وجنة الخلد. فكلمة "ذلك" في الآية تشير إلى ما سبق ذكره من العذاب المذكور للمكذبين بالساعة والذي هو عذاب السعير. والمراد: هل هذا العذاب الشديد الذي ينتظر الكفار المكذبين بالساعة خير أم جنة الخلد التي تنتظر المتقين للمؤمنين بالساعة، وهي جزاء أعمالهم الصالحة. فقد وجهت الآية اللوم والعتاب الشديد للمكذبين بالساعة ووجهتهم على صنيعهم هذا وعلى ظنهم بأن جزاء المكذبين يوم القيامة يكون مثل جزاء المتقين. والاستفهام كما قال المفسرون للتوبيخ والتفريع، وفيه

(١) سورة الفرقان، الآيات ١٦ - ١٧.

(٢) راجع: الآيات ٤ - ١٦ من سورة الفرقان.

تحكم بالكفار.^(١) والخيرية في الآية ليست للأفضلية، بل هي على ما جرت عادة العرب في بيان فضل الشيء وخصوصيته بالفضل دون مقابلة.^(٢) ولا شك في أن الجنة خير من النار وما فيها من عذاب، بل لا مقارنة بين الجنة والنار أصلا.

فجاء في الآية ذكر الجنة ونعيمها تحكما بالكفار وتوبيخا لهم على إعراضهم عن الأعمال الصالحة التي ندخلهم الجنة، وكفرهم بالساعة ومساقتهم نحو عذاب السعير. قال الأستاذ الدكتور الزحيلي: "وبعد أن وصف الله عقاب الكافرين بالساعة قارن بينه وبين ثواب المؤمنين المتقين بما يؤكد الحسرة والندامة.. أي: قل يا محمد ل هؤلاء المكذابين تحكما بهم وتحسروا لهم: أهذا العذاب الذي وصفت لكم أفضل أم نعيم جنة الخلد الذي يدوم إلى الأبد. وقد وعدنا المتقون الأبرار الذين أطاعوا الله فيما أمر به، وانتهوا عما نهى عنه، وجعلها لهم جزاء طاعتهم في الدنيا وما لهم المحسن إليها. وجنة الخلد هي التي لا ينقطع نعيمها".^(٣)

وفي مرجع اسم الإشارة "ذلك" أيضا أقوال متعددة، أولها: أنه إشارة إلى الجنات وإلى القصور التي في قوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ خِزْيَانًا مَغْفُورًا﴾. (والجمل المذكور في الآية يكون في الدنيا). وثانيها: أنه إشارة إلى الكثر والجنة التي ذكرها الكفار، واقترحوا على رسول الله ﷺ أن تكون له هذه الأمور ليأخذ منها حاجته. وثالثها: أن الإشارة إلى النار المذكورة في الآيات السابقة، وهذا هو الأصح.^(٤)

ومن البديهي أن النار لا خير فيها أصلا، فهي تكون مليحة بالخيظ والغضب على الكفار المكذبين يوم الجزاء، وحيما يدخلونها تحرقهم وترتكهم بحالة بين الموت والحياة، يذنون على أنفسهم بالهلاك والموت، فلا يأتيهم الموت، بل يقال لهم: لا تدعوا هلاكا واحدا بل ادعوا هلاكا كثيرا. وأما الجنة بالمقابل فهي جزاء المتقين على أعمالهم، وعدم الله إيها، وجعل هذا الوعد على نفسه مسؤولا، بحيث يمكن لمستحقها أن يسأل الله ويطلبه بها، ويتنظر دخولها يوم الجزاء. وتفتح أبوابها يوم القيامة لاستقبال الداخلين فيها من أهل الإيمان واليقين، وفيها من النعيم ما لا يُعَدُّ ولا يُحصى ولا يمكن للبشر أن يتصوروه، إذ يجدون فيها ما تشبهه أنفسهم وتلد أعينهم. ولا شك أن هذا خير من ذلك، وينبغي لكل إنسان أن يجتهد في سبيل الحصول على الجنة والبعد عن النار.

(١) يُنظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبن عطية، تحقيق: عبد السلام محمد، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٢هـ، ٢٠٣/٤. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للشاطبي، ١١٩/٤. البحر المحیط لأبي حيان، ٨٨/٨. التحرير والتنوير، لأبن عاشور، ٣٣٥/١٨. التفسير المثير للرحيلي، ٣١/١٩.

(٢) البحر المحیط، لأبي حيان، ٨٨/٨.

(٣) التفسير المثير للرحيلي، ٣١/١٩.

(٤) سورة الفرقان، آية ١٠.

(٥) يُنظر: المحرر الوجيز، لأبن عطية، ٢٠٣/٤.

المطلب الثالث:

أسلوب طرح السؤال والإجابة عليه

لقد ورد في مجال المقارنات القرآنية أيضا في بعض المواضع استفهام لا بغرض الاستعلام، بل لجذب انتباه السامع إلى ما يراد بياته، فإلّا يسيء السؤال ويتبعه بجواب على هذا الاستفهام من عند الله تعالى. والأمثلة على هذا الأسلوب أيضا منتشرة في ثنايا القرآن الكريم.

❖ أمثلة على المقارنات باستخدام هذا الأسلوب:

وردت في القرآن الكريم مقارنات استخدم فيها أسلوب طرح السؤال مع الإجابة عنه، ولهذا الأسلوب فوائد كثيرة، منها: جذب انتباه السامع إلى الحقيقة التي يراد بيانها، وإيقاظ العقول وتوجيهها نحو التفكير في الأمر والوصول إلى الحق والصواب.

ومن الأمثلة على هذا الأسلوب:

١- قال الله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ⑤ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ⑥ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ⑦ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ⑧ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ⑨﴾. (١)

هذه الآية الكريمة فيها مقارنة بين الإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد في سبيل الله، وبين سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام. ولا شك في أن هذه الأعمال كلها أعمال البر والتقوى ولكن عقدت بينهما مقارنة ليبين أن بعضها أفضل من بعض، إذ ورد استفهام إنكاري (١)، ثم تبعه جواب عن الأمر المستفهم عنه بقوله: ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾. فتبين بذلك أن هذه الأعمال ليست سواء في نظر الله تعالى، ثم فضل الجواب بتوضيح أن الذين آمنوا بالله وهاجروا وجاهدوا في سبيله أفضل وأعظم درجة عند الله من سقاة الحاج وعمري المسجد الحرام.

(١) سورة التوبة، آية ١٩ - ٢٣.

(٢) يُنظر: التفسير الكبير، للرحلي، ١٠/١٤٢.

■ سبب نزول الآية:

عن النعمان بن بشير^(١) قال: "كنت عند منبر رسول الله ﷺ، فقال رجل: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج. وقال آخر: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أحمر للمسجد الحرام. وقال آخر: الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتم. فزجرهم عمر، وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ وهو يوم الجمعة، ولكن إذا صليت الجمعة دخلت فاستفتيته فيما اختلفتم فيه. فأنزل الله: ﴿أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَنْتُمْ عَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية إلى آخرها".^(٢)

وهذه الرواية تدل على أن هذه الآية نزلت في اختلاف المسلمين في أفضلية بعض الأعمال على بعض، ولكن الإمام القرطبي^(٣) رحمه الله يرى أن هذا لا يضح، حيث يقول رحمه الله: "وهذا المساق يقتضي أنها إنما نزلت عند اختلاف المسلمين في الأفضل من هذه الأعمال. وحيث لا يليق أن يقال لهم في آخر الآية "والله لا يهدي القوم الظالمين، فتعين الإشكال. وإزالته بأن يقال: إن بعض الرواة تسامح في قوله: "فأنزل الله الآية". وإنما قرأ النبي ﷺ على عمر حين سأله فظن الراوي أنها نزلت حيثئذ. واستدل بها النبي ﷺ على أن الجهاد أفضل مما قال أولئك الذين سمعهم عمر، فاستفتي لهم فتلا عليه ما قد كان أنزل عليه، لا أنها نزلت في هؤلاء".^(٤)

ويرى ابن عاشور أن الآية مخاطبة للذين سورا بين سقاية الحجيج وعمارة للمسجد الحرام وبين الجهاد والهجرة في أنها كلها أعمال البر، فهي خطاب لقوم مؤمنين فصلوا عن الجهاد والهجرة بعللة انشغالهم بالسقاية والعمارة. وذكر الإيمان

(١) هو الصحابي الجليل أبو عبد الله النعمان بن بشير بن ثعلبة الخزرجي الأنصاري. وأمه عمرة بنت ربيعة أخت عبد الله بن ربيعة رضي الله عنهما. كان أول مولود في الإسلام من الأنصار بعد الهجرة. روى عن النبي ﷺ وعن عمر وعائشة رضي الله عنهما، وروى عنه ابنه وأبو قلابة وآخرون. كان كريها جوادا. عُيِّن أميرا على الكوفة وحمص زمن معاوية رضي الله عنه. توفي عام ٦٥ هـ. يُنظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البر، تحقيق: علي البجاري، ط ٦، دار الجيل، بيروت، لبنان، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م، ٤/١٤٩٧ - ١٤٩٨. أسد الغابة، لابن الأثير، تحقيق: علي معوض وعادل أحمد، ط ٢، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م، ٥/٣١. الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني، تحقيق: عادل أحمد وعلي معوض، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٥ هـ، ٦/٣٤٦ - ٣٤٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمامة، باب فضل الشهادة في سبيل الله، ص ٨٤٣، حديث رقم ٤٨٧١.

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري القرطبي المالكي، الإمام والمفسر الفقيه المتبحر في العلوم. كان من العلماء الزهادين. لا يشتغل في شيء سوى العبادة والتصنيف. له كتب تدل على سعة علمه وكثرة اطلاعه. توفي عام ٦٧١ هـ. من كتبه: الجامع لأحكام القرآن، التذكار في أفضل الأذكار، التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، وغيرها.

يُنظر: طبقات المفسرين، للسيوطي، تحقيق: علي محمد عمر، ط ٦، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، ١٣٩٦ هـ، ص ٩٢. طبقات المفسرين، للدوادري، ٢/٦٩ - ٧٠. طبقات المفسرين، للأدنه وي، ص ٢٤٦.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، تحقيق: أحمد الوردوني وإبراهيم أطفيش، ط ٢، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م، ٨/٩٢.

ليبان أن الجهاد ملازم للإيمان، وليس لأن الذين سواها يبتغوا بمؤمنين لأنهم لو كانوا خير مؤمنين لجعلوا مناصب دينهم أفضل من الإيمان والجهاد وليست مساوية لهما^(١).

وأيا ما كان، فالآية توضح بأن الإيمان والهجرة والجهاد أفضل عند الله من سقاية الحجيج وعمارة المسجد الحرام، سواء كان السقاة والعامرون مؤمنين أم مشركين. فإذا كانوا مؤمنين فلهم أجرهم عند الله ولكنهم أدنى منزلة من المهاجرين المجاهدين، وإن كانوا مشركين فلا قيمة لأعمالهم عند الله ولا مقارنة بينهم وبين أصحاب الإيمان والهجرة والجهاد في سبيل الله.

■ سياق الآية:

وردت الآية في سياق الحديث عن المشركين وبيان أفعالهم السيئة، وأمر الله للمؤمنين بمقاتلتهم. ثم ذكرت الآيات بعد ذلك أن المشركين لا يستحقون عمارة مساجد الله وهم كفار، بل الذي يستحق أن يعمر مساجد الله حق العمارة هم المؤمنون الذين يقيمون الصلاة المؤتونة الزكاة. وبعدها جاءت هذه الآية لتسبب القراء والمسلمين على عظم درجات المؤمنين المجاهدين في سبيل الله، حيث طرحت سؤالاً، وأجابت عنه مصرحة بأن سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام لا يسوي مع الإيمان بالله والجهاد في سبيله، فالمؤمنون المجاهدون درجاتهم أعظم عند الله، وهم الفائزون يوم القيامة، ولهم عند ربهم رحمة ورضوان وجنات^(٢).

■ تفسير الآية:

وضحت الآية الكريمة أن الإيمان بالله والهجرة والجهاد في سبيله لا تتساوى مع سقاية الحجيج وعمارة المسجد الحرام، بل الإيمان بالله والهجرة والجهاد أفضل من هذه الأعمال، وإن كانت كلها أعمالاً صالحة. قال أبو السعود^(٣): "أجعلهم أهل السقاية والعمارة في الفضيلة كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيله. أو: أ جعلتسوها في ذلك كالإيمان والجهاد وشتان بينهما. فإن السقاية والعمارة وإن كانتا في أنفسهما من أعمال البر والخير، لكنهما وإن خلقا عن القوادح بمنزل عن صلاحية أن يشبه أهلها بأهل الإيمان والجهاد أو يشبه أنفسهما بنفس الإيمان والجهاد"^(٤).

(١) يُنظر: التحرير والتنوير لابن عاشور، ١٠/١٤٢، ١٤٥.

(٢) راجع: الآيات ١٣ - ٢٢ من سورة التوبة.

(٣) هو أبو السعود محمد بن محمد العمادي. من فقهاء الأحناف وعلماء الأثر. كان مفسراً أصولياً شاعراً، علماً باللغات العربية والتركية والفارسية. ولد في القسطنطينية عام ٨٩٦هـ. كان من كبار المفسرين المتأخرين. تولى القضاء والإفتاء في مناطق متعددة.

توفي عام ٩٨٢هـ. من كتبه: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، تحفة الطلاب، قصة هاروت وماروت، وغيرها.

ينظر: طبقات المفسرين، للأذنه وي، ص ٣٩٨. معجم المفسرين، لعادل تويهض، ٢/٦٢٥ - ٦٢٦. الأعلام، ٥٩/٧.

(٤) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ٥٢/٤.

فهذه الأعمال وإن كانت أعمال الخير ومصدر الأجر والثواب إلا أن فضيلة الإيمان بالله والجهاد في سبيله لا تدانيه فضيلة، فلا تقبل الأعمال الصالحة كلها بما فيها عمارة المسجد الحرام وخدمة الحاج والمعتمرين بدون الإيمان الخالص بالله عز وجل. ولا قيمة عند الله لعمل من يسقي الحاج ويخدم المسجد الحرام وهو يصد للمسلمين عن الدخول فيه ويشرك بالله تعالى، فهؤلاء ظالمون والله لا يهدي القوم الظالمين.

ولا يستوي في نظر الله تعالى المؤمن المهاجر المجاهد في سبيله بنفسه وماله مع غيره ممن يقوم بأعمال الخير الأخرى، فهو أعظم درجة وأقرب منزلة عند الله، وهو الفائز في الدار الآخرة، والمؤمنون المهاجرون المجاهدون في سبيل الله هم من الله بشارة برحمة ورضوان من عنده، وقد أعد لهم ربهم جنات مليحة بالنعيم واللذات الدائمة. ومثل هؤلاء هم الجاهلون في هذا النعيم السرمدي لا يخرجهم منه أسعد ولا يحول بينهم وبينه حائل.

وفي الآية حذف، إما من أول الآية، فيكون التقدير: أجمع لهم أصحاب سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله. وقد يكون الحذف من آخر الكلام، فيكون التقدير: أجمع لهم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كإيمان من آمن بالله. (١)

وفي الآية أيضا إشارة إلى أن الأعمال الصالحة لا قيمة لها ولا وزن عند الله دون الإيمان به جل وعلا، وهي غير مقبولة في ميزانه. ومثل هذه الأعمال تصير هباء منثورا يوم القيامة، لأنها ليست خالصة لوجه الله تعالى، والله لا يقبل الأعمال الصالحة إلا إذا كانت مقترنة بالإيمان به وبإخلاص النية له عز وجل. فهي كما ذكر القرطبي رحمه الله مبطلات قول من افتخروا من المشركين بالسقاية والعمارة. (٢)

إن هذه المقارنة البليغة بين المؤمن المهاجر والمجاهد وبين ساقى الحاج وعامر المسجد الحرام وضحت الفرق بين الطرفين، وأثبتت فضيلة الأول على الآخر، كما وضحت عظم درجات المؤمنين الذين آمنوا بالله حق الإيمان وهاجروا وجاهدوا في سبيله بأموالهم وأنفسهم. وبيئت أيضا أن الذين آمنوا ولم يهاجروا ولم يجاهدوا لا تشغلهم بالسقاية والعمارة دونهم منزلة عند الله تعالى. فالأولون أعظم درجة وهم الفائزون في الآخرة، وقد بشرهم الله وهم في الدنيا بأن لهم رحمة من عنده، ورضوان وجنة في الآخرة لهم فيها نعم دائم لا ينقطع أبدا.

٢- قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا ۚ لَا يَسْتَوُونَ ۚ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ الْمَأْوَىٰ ۖ هَٰذَا هُمْ كَانُوا يَعْمَلُونَ ۚ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۚ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ دُخُّوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ۚ﴾ (٣)

(١) يُنظر: التفسير للنور، للرحيمي، ١٠/١٤٢.

(٢) يُنظر: الجامع لأحكام القرآن الكريم، للقرطبي، ٨/٩١.

(٣) سورة المجدة الآيات: ١٨ - ٢٠.

هذه الآية فيها مقارنة بين المؤمن والفاسق باستخدام أسلوب الاستفهام الإنكاري، حيث أنكرت على من يسوي بين المؤمن المطيع لله تعالى والفاسق الخارج عن طاعة الله تعالى، فطرحت سؤالا فيه استفهام إنكاري ثم أجابت عن هذا السؤال إجابة صريحة واضحة، مبينة أن المؤمن والفاسق لا يستويان أبدا في نظر الله تعالى. ثم فصلت الآيتان بعد هذه الآية هذا الجواب ووضحنا ذلك ببيان أن المؤمن العامل للمصالحات له جنات المأوى نزلا من عند الله له، وأما الفاسق فمأواه النار التي لا يقدر على الخروج منها أبدا مهما حاول ذلك.

■ سياق الآية:

تحدثت الآيات السابقة عن الموت وذكرت أن المجرمين يكونون أذلاء يوم القيامة يطلبون الرجوع إلى الدنيا ليعملوا أعمالا صالحة، لكن لا يُسمح لهم بذلك. ثم قيل إن الله لو شاء لأجبر الناس جميعا على الإيمان به، لكن مشيئته لا تريد ذلك. وبعد ذلك ذكرت صفات المؤمنين بآيات الله تعالى، حيث إنهم يتركون مضاجعهم في الليالي ليدعوا الله ويعبدوه، كما أنهم ينفقون في سبيله، وهؤلاء لهم عند ربهم ما لا يمكن لأحد أن يتصوره. ثم جاءت هذه الآيات لتمنع المساواة بين المؤمن والفاسق منعا باتا، وتوضح مضمير الفريقين وجزاءهم يوم القيامة.^(١)

■ تفسير الآية:

لقد وجهت الآية استفهاما يتكرر للمساواة بين المؤمن والفاسق، ثم ضمنت بعدم المساواة بينهما، والفاسق في الأصل هو الخارج عن طاعة الله تعالى سواء كان مسلما أو كافرا. والمقصود في الآية من ليس بمؤمن، لأنه قيل عنه في نهاية الآية إن أمثال هؤلاء يعذبون في النار ولا يقربون على الخروج منها أبدا، ويقال لهم ذوقوا هذا العذاب الذي كنتم تكذبون به في الدنيا. فالمراد بالفاسق في الآية الخروج عن الإيمان الذي هو الشرك.^(٢)

والتصريح بعدم المساواة بعد هزة الاستفهام الذي أفاد الإنكار، للتأكيد على عدم المساواة، ونقي للمشابهة بالمرة على أبلغ وجه وأكدته، وحتى يبنى عليه التفصيل الآتي بعد ذلك. والمراد بالمؤمن والفاسق في الآية جنس المؤمنين وجنس الفاسقين، لا مؤمنا واحدا ولا فاسقا واحدا. ويدل عليه قوله "يستويون"، فالجمع هنا باعتبار معنى "من"، والافراد فيما سبق باعتبار اللفظ.^(٣)

وبعد التصريح بنفي المساواة بينهما بينت الآيات عاقبة الطائفتين يوم القيامة، فالمؤمنين لهم جنات المأوى والتي هي نزل لهم من عند الله تعالى، والنزل ما يُعد للضيف والنازل، فكان هؤلاء للمؤمنين ضيوف للرحمن أعد لهم فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. وأما الفاسقون فمصيرهم النار التي يخلدون فيها دون خروج،

(١) واجمع: الآيات ١١ - ٢٠ من سورة السجدة.

(٢) يُنظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، ٢٣١/٢١.

(٣) يُنظر: لباب التأويل في معاني التنزيل، لعلاء الدين الخازن، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٥ هـ، ٢/٣ - ٤. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود، ٨٥/٧.

وهؤلاء لهم أيضا عذاب في الدنيا أقل من هذا العذاب، يذيقهم الله تعالى لعلمهم يرجعون إليه ويتوبون من فسقهم وكفرهم.

فالآية قارنت بين المؤمن والفاسق، وصرحت بأنهما لا يستويان أبدا في الدنيا ولا في الآخرة. فإن المؤمن يعيش حياته وفق أوامر الله تعالى ونواهيها حبا له ورغبة في ثوابه وخوفا من عقابه، ولكن الفاسق لا يهتم بشيء من ذلك، فشتان ما بينهما. وأما في الآخرة فلا مقارنة بينهما أبدا، لأن المؤمن له جنة المأوى التي عرضها السماوات والأرض وهو ضيف للكريم الرحمن فيها، أما الفاسق فمأواه النار التي كلما أراد الخروج منها حيل بينه وبين ما يشتهي، وأعيد فيها ليلوى العذاب الذي كان يكذب به في الدنيا، ولن يقدر على الخروج منه أبدا.

المبحث الثاني:

ضرب المثل

❖ معنى المثل وفوائده:

• معنى المثل:

المَثَل في اللغة: هو الشيء الذي يضرب لشيء مثلاً، فيجعل مثله... وهو مأخوذ من المثال والخلق. (١) والمثل هو التشبيه. (٢)

وهو بمعنى التظير في الأصل، ثم نقل إلى القول السائر، أي: القاصي للمثّل مضربه بمورده. والمراد بالمورد الحالة الأصلية التي ورد فيها الكلام، وبالمضرب الحالة المشبهة بما التي أريد بالكلام. (٣) ومعنى ضرب المثل جعله ذالعا سائرا.

وقال ابن القيم رحمه الله: وقع في القرآن أمثال وأمثال القرآن لا يعقلها إلا العلون، وهي تشبيه شيء بشيء في حكمه، وتقريب للعقول من المحسوس، أو أحد المحسوسين من الآخر، واعتبار أحدهما بالآخر. (٤)

• ورود الأمثال في القرآن الكريم:

لقد وردت الأمثال في القرآن الكريم، فضرب الله للناس أمثالا كثيرة لتوضيح الأمور الخفية عليهم، والعباد يحتاجون إلى مثل هذه الأمثال لفهم الحقائق بشكل أفضل، وترسيخ الأمور في الأذهان. وهذه الأمثال تدعو الناس إلى التدبر فيها، واستخدام العقول لفهم المقصود من ضربها، لأنها ليست مجرد مجموعة تشبيهات واستعارات وردت لرفع من المستوى البلاغي للقرآن الكريم دون هدف آخر، بل لها أهداف ومعاني سامية. قال الله تعالى: ﴿وَيَذَلِّكَ الْأَمْثَلُ نُظْرِبَهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾. (٥) وجاء في آية أخرى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾. (٦)

(١) لسان العرب، لابن منظور، ٦١١/١١ - ٦١٢، بتصرف.

(٢) المحكم والمحيط الأعظم، لابن سيده، ١٥٩/١٠.

(٣) كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، للذهبي، تحقيق: د. علي دخروج، تعريب: عبد الله الخالدي، ط ١: مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، ١٩٩٦ م، ١٤٤٩/٢.

(٤) الأمثال في القرآن الكريم، لابن قيم الجوزية، ص ١٧٣ - ١٧٤.

(٥) سورة العنكبوت، آية ٤٣.

(٦) سورة الزمر، آية ٢٧.

"فالعباد يحتاجون إلى ضرب الأمثال لما خفيت الأشياء عليهم، فضرب الله لهم مثلاً من عند أنفسهم لا من عند نفسه ليدركوا ما غاب عنهم". (١)

• أقسام الأمثال الواردة في القرآن:

إن الأمثال الواردة في القرآن الكريم تقسمان:

- (أ) ظاهرة نصريح به، كما في قوله تعالى: ﴿مَثَلُهم كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا﴾. (٢)
 (ب) ساقط لا ذكر للمثل فيه، ولكن يُفهم منه المثل الموجود فيه. فمثلاً من قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنُوا بِمَا نَقُلْ وَلَكِنْ لَيْسَ لَكُمْ قُلُوبٌ فَحَسْبُ﴾ (٣)، يفهم منه المثل المعروف: "ليس الخير كالعيان". (٤)

والأمثال كثيرة في القرآن الكريم، جمعها العلماء في كتبهم وجعلوها موضوع دراستهم وبحوثهم، وأورد بعضهم مؤلفات مستقلة خاصة بالأمثال الواردة في القرآن الكريم، وذلك مثل كتاب "الأمثال في القرآن الكريم"، للعلامة ابن قيم الجوزية.

ومن الأمثلة على ما ضرب الله تعالى من الأمثال قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاستَغِيثُوا للهَ، إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا للهَ، وَإِن يَسْأَلْنَهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَنْطَلُبُ﴾. (٥) فـضرب في الآية الكريمة مثل لبيان ضعف أصنام المشركين، وإثبات أنهم عاجزون عن الخلق تماماً، حيث إنهم غير قادرين على خلق شيء تافه حقير كالذباب، بل إن هؤلاء عاجزون أيضاً أمام هذا الذباب الصغير الذي خلقه الله، فلو أخذ هذا الذباب منهم شيئاً لن يستطيعوا استرجاعه منه. وهذا دليل على منتهى عجزهم وضعفهم. وبهذا المثل وضع الله تعالى أن من كانت هذه حالته في الضعف والعجز لا يستحق أبداً أن يكون إلهاً، كما أثبت أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له.

• فوائد ضرب الأمثال في القرآن الكريم:

لا شك أن الأمثال لها فوائد كثيرة، فلا يرد في القرآن شيء دون فائدة وأهمية، وتناثر الأمثال في ثنايا سور القرآن الكريم وآياته أكبر دليل على فوائدها الكثيرة وأهميتها القصوى.

(١) الأمثال من الكتاب والسنة، للحكيم الترمذي، تحقيق: السيد الجميلي، دار ابن زيدون، بيروت، لبنان، ص ١٤.

(٢) سورة البقرة، آية ١٧.

(٣) سورة البقرة، آية ٢٦٠.

(٤) معرك القرآن في إعجاز القرآن، لجلال الدين السيوطي، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م،

٣٥٣/١ - ٣٥٥.

(٥) سورة الحج، آية ٧٣.

فمن فوائد ضرب الأمثال في القرآن الكريم كما ذكر العلماء: التذكير والوعظ، والخث، والزجر، والاعتبار، والتفهير، وتقريب المراد للعقل. ومن فوائدها أيضاً: تصوير المعنى بصورة المحسوس؛ فإن الأمثال تصور المعاني بصورة الأشخاص، لأنها أثبتت في الأذهان، لاستعانة الذهن فيها بالحواس، والمقصود من المثل تشبيه الخفي بالجلي والغائب بالمشاهد.^(١)

لأجل هذه الفوائد وغيرها ضرب القرآن الكريم أمثالا لكثير من الأمور والحفائق بفرض تقريبها إلى عقول البشر. وقد ضربت في مجال المقارنات القرآنية أيضا أمثال، سقت لأجل توضيح الفرق بين الأشياء، وتوجيه العقول نحو التفكير والتدبر، وبالتالي للوصول إلى الحق والصواب.

❖ أمثلة على المقارنات باستخدام أسلوب ضرب المثل:

هناك أمثلة عديدة على استخدام القرآن الكريم لأسلوب المثل في معرض مقارناته بين الأمور المختلفة، إذ ضرب مثلا لكل من الطرفين لينجلي الفرق بينهما لتمام الجميع. ومن هذه المقارنات البليغة:

- ١- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۝ تُوْقِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ يَأْذِنُ رَبُّهَا ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ۝﴾.^(٢)

هذه الآيات الثلاثة فيها مقارنة بين الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة، بضرب مثل لكل منهما. فالكلمة الطيبة مثل الشجرة الطيبة الثابت أصلها في الأرض الواصلة فروعها إلى السماء، والتي تعطي الثمار الطيبة في كل حين، في حين أن الكلمة الخبيثة هي مثل الشجرة الخبيثة التي اقتلعت جذورها من الأرض، ولا ثبات لها ولا قرار ولا تقدم منفعة للآخرين في شكل الثمار الطيبة.

■ مبادئ الآيات:

تحدثت الآيات السابقة عن يوم القيامة، وبرز الناس جميعا أمام الله تعالى في ذلك اليوم، فذكر أن الضعفاء يومئذ يوجهون النور للمتكبرين الأشراف الذين اتبعوهم في الدنيا، ويطلبون منهم النجاة من النار، ولكنهم لن ينفعوهم شيئا. ثم جاء ذكر الشيطان، وأنه سوف يثير أيضا من أتباعه يوم القيامة، ويقول لهم: إنه لم يكن له عليهم سلطان، بل إنهم استجابوا لدعوته بكامل حريتهم، إذ هو لم يجبرهم على شيء، وليس لهم إلا أن يلوموا أنفسهم. ثم جاء ذكر الذين آمنوا وعملوا الصالحات، حيث يدخلون الجنة التي تكون تحيتهم فيها سلاما.

(١) يُنظر: معترك القرآن في إعجاز القرآن، للسيوطي، ٣٥٢/١.

(٢) سورة إبراهيم، آية ٢٤ - ٢٩.

وبعد ذلك جاءت هذه الآيات لتبين أهمية الكلمة الطيبة التي هي كلمة التوحيد ونفعها للجميع، وخبت الكلمة الخبيثة التي هي كلمة الشرك ومضارها، عن طريق ضرب مثل لكل من الكلمتين؛ وذلك حتى يتضح الفرق بينهما جيداً.^(١)

■ تفسير الآيات:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: أتى رسول الله ﷺ بقنّاع من بسر^(٢)، فقرأ: "مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة"، قال: "هي النخلة".^(٣)

لقد ضرب الله في هذه الآيات مثلاً للكلمة الطيبة، وآخر للكلمة الخبيثة، فالكلمة الطيبة هي مثل الشجرة الطيبة التي تنفع الناس، والكلمة الخبيثة هي مثل الشجرة الخبيثة التي لا نفع فيها لأحد. "والمقصود بذلك إظهار المقابلة بين الخالين".^(٤)

○ أولاً: مثال الكلمة الطيبة:

ذكر المفسرون في تفسير الكلمة الطيبة أقوالاً، هي:

(أ) أنما الإيمان، أو كلمة التوحيد، وهي قول لا إله إلا الله.

(ب) أنه حتى بما يؤمن نفسه.

(ج) كل ما كان فيه حق، أو دعوة إلى صلاح.^(٥)

(١) راجع: الآيات ٢١ - ٢٦ من سورة إبراهيم.

(٢) ليسر مرحلة من مراحل نضج الثمر، فأولّه طلق ثم خلال ثم يلق ثم يمتز ثم رطب، ثم تمر. والقنّاع الطبق من عصب النخل. يُنظر: الصحاح، للجوهري، ٥٨٩/٢، ١٢٧٣/٣.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک، ٣٨٣/٢، رقم ٣٣٤١، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجه. وقال الذهبي: على شرط مسلم.

وأخرج ابن حبان عن أنس أيضاً أن رسول الله ﷺ أتى بقنّاع جزء، فقال: ﴿مَثَلُ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ كَمَثَلِ شَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۝ لُؤْلُؤٌ أَصْلُهَا كُلُّ حَبٍّ بِأَنْزِلِ رِيحًا﴾، فقال: "هي النخلة"، ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَمَثَلِ شَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۝ لُؤْلُؤٌ أَصْلُهَا كُلُّ حَبٍّ بِأَنْزِلِ رِيحًا﴾، قال: "هي الخنظل".

أخرجه ابن حبان في صحيحه، ٢٢٣/٣، رقم ٤٧٥، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨. وقال المحقق: إسناده حسن. وأخرجه الترمذي في سننه، كتاب التفسير، باب ومن سورة إبراهيم عليه السلام، ص: ٧٠٥، رقم ٣١١٩.

(٤) التحرير والتنوير، لابن عاشور، ٢٢٥/١٣.

(٥) يُنظر: جلعع البيان في تأويل القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م، ٥٦٧/١٦. للنكت والعبون، للمأوردي، ١٣٢/٣. كنوار التنزيل وأسرار التأويل، للمبشراوي، ١٩٨/٣. التحرير والتنوير، لابن عاشور، ٢٢٤/١٣.

وهي كلها أقوال متشابهة لا تعارض فيها، لأن أطيب أنواع الكلام الطيب هو الإيمان بالله تعالى أو النطق بالشهادتين، وهي لا تصدر إلا من مؤمن بالله تعالى، ثم يدخل كل ما وافق الإيمان من كلام طيب جهل موافق للحق والصالح تحت عنوان الكلمة الطيبة الجامع.

فقد شبه الله تعالى الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة التي بين الرسول ﷺ أنها النخلة في الحديث الذي سبق ذكره. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه فسر الشجرة الطيبة بالمؤمن، فذكر في قوله: «أصلها ثابت»: "لا إله إلا الله ثابت في قلب المؤمن، «وُقرعها في السماء»: يقول: يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء.^(١)

ويقول ابن عطية^(٢) رحمه الله في تفسير هذه الآية: "كان هذه الكلمة الطيبة "لا إله إلا الله" أصلها ثابت في قلوب المؤمنين، وفضلها وما يصلر عنها من الأفعال الزكية والحسنة وما يحصل من عفو الله ورحمته هو فرعها يصعد إلى السماء من قبل العبد. وقالت فرقة: المراد بالشجرة الطيبة المؤمن نفسه، لأن الكلمة الطيبة لا تقع إلا منه، فكان الكلام كلمة طيبة وقائلها. وكان المؤمن ثابت في الأرض وأقواله وأفعاله صاعدة، فهو كشجرة فرعها في السماء، وما يكون أبدا من المؤمن من الطاعة أو عن الكلمة من الفضل والأجر والغفران هو بمثابة الأكل الذي ثلثي به كل حين".^(٣)

وبعد أن بين الله أن الكلمة الطيبة مثل الشجرة الطيبة، ذكر صفات هذه الشجرة التي شبه بها الكلمة الطيبة، وهذه الصفات هي:

- (١) أنها شجرة طيبة، والطيب يشمل طيب المنظر والشكل والرائحة والثمار والمنافع. وهذه الصفات كلها يجتمع كمال الطيب.
- (٢) أن أصلها ثابت في الأرض، أي باقي آمن من الانقطاع والزوال، بحيث تظل الشجرة تحصل على رزقها من الأرض عن طريق جذورها الثابتة فيها.
- (٣) فرعها في السماء: فأغصانها مرتفعة في السماء، وقوتها تدل على ثبات الأصل ورسوخ العروق، وأيضاً في ارتفاعها إشارة إلى بعدها عن قاذورات الأرض، وبالتالي نقاء ثمارها من الشوائب.

(١) جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري، ٥٦٧/١٦.

(٢) هو أبو محمد عبد الحق ابن عطية الغرناطي الأندلسي، إمام المفسرين. ولد عام ٤٨٠ هـ. كان فقيها عالما بالتفسير والحديث والأحكام، بصيرا باللغة العربية، ذكيا واسع المعرفة. له مهارة في الإنشاء والنظم والنثر. توفي عام ٥٤١ هـ. من كتبه: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز.

يُنظر: طبقات المفسرين، للسيوطي، ص ٦٠ - ٦١. طبقات المفسرين، للناوذي، ٢٦٥/١ - ٢٦٧. طبقات المفسرين، للأذنه وي، ص ١٧٥ - ١٧٧.

(٣) المحرر الوجيز، لابن عطية، ٣/٣٣٥.

(٤) **تؤتي أكلها كل حين:** فثمارها حاضرة في كل حين ووقت، ويستفاد بها المتفعمون في كل وقت ومساء. (١)
ومن خلال هذه الصفات التي ذكرها الله سبحانه وتعالى للشجرة الطيبة تتضح صفات الكلمة الطيبة التي شبهت
بهذه الشجرة ذات الصفات الحسنة، وهي:

(١) **أفها طيبة المنظر والصورة:** فهذه الكلمة حينما تخرج من عند المؤمن تكون جميلة حسنة، يتأثر بها
الناس ويحبذون إليها ويحبونها، كالشجرة الطيبة الشكل والصورة، والتي يراها الناس من بعيد
فيستحسنونها ويعجبهم جمالها ورونقها، ويأتون إليها للاقتطاع بها والسكون إليها. كذلك هي الكلمة
الطيبة يستحسنها الناس ويسكنون إليها.

(٢) **أصلها ثابت:** فهي ثابتة في قلب المؤمن لا تتحرك ولا تتزعزع، فلا يضطرب الإيمان في قلب المؤمن
بحوادث الدهر ومصائبه، بل يبقى ثابتاً راسخاً في مكانه، مثل الشجرة الثابتة التي لا تحركها الرياح ولا
تزيلها من موضعها.

(٣) **فرعها في السماء:** هذه الكلمة الثابتة الطيبة أصلها في قلب المؤمن، وفروعها تظهر منه في صورة
أعمال حسنة ودعاء ودعوة إلى دين الله، وكلها أفعال تُرفع إلى السماء عند الله ليجازي المؤمن عليها،
مثل فروع الشجرة التي تكاد تصل إلى السماء.

(٤) **تؤتي أكلها كل حين:** فكما أن الشجرة الطيبة تؤتي ثمارها كل حين ليأكلها الناس ويستفعمون بها، كذلك
الكلمة الطيبة للراسخة في قلب المؤمن تظهر آثارها في أعماله وجوارحه، فيصير المؤمن ببركتها مصدر
نفع لغيره، حريصاً على إيصال الخير والنفع لغيره في كل حين ووقت بإذن الله تعالى.

فيجب أن يكون للمؤمن بركة الكلمة الطيبة (وهي الإيمان في قلبه) طيباً في نفسه، ومصدر نفع ومرور وراحة لغيره،
وثابت الإيمان في قلبه لا تضعفه المصائب والشدائد ولا تحركه من موضعه، بل يجعله المصائب أقوى وأرسخ إيماناً،
كما ينبغي أن تظهر ثمار إيمانه هذا في صورة الأعمال الصالحة التي تنفعه، إذ ترتفع إلى السماء ليجازي عليها يوم
القيامة، وتتفع لغيره أيضاً في صورة النصيحة لهم ومعاملتهم بالمعروف ودعوتهم إلى الله تعالى.

○ ثانياً: مثال الكلمة الخبيثة:

وكذلك وردت أقوال في تفسير الكلمة الخبيثة، وهي:

(أ) **الشرك بالله تعالى، أو كلمة الشرك والكفر.**

(ب) **الكافر نفسه.**

(ج) **ما كان على خلاف الحق، أو دعوة إلى باطل أو فساد. (٢)**

(١) يُنظر: مفاتيح الغيب، للإمام الرازي، ٩٢/١٩ - ٩٢.

(٢) يُنظر: مفاتيح الغيب، للرازي، ٩٣/١٩. الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ٣٦١/٩. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للمبضاهي،

١٩٨/٣. التحرير والتنوير، لابن عاشور، ٢٢٤/١٣.

وهذه الأقوال في تفسير الكلمة الخبيثة أيضا متشابهة لا تعارض بينها، فأخبت أنواع الكلام الخبيث هو كلمة الشرك والكفر التي لا تصدر إلا عن كافر، ويدخل فيه كل ما وافق الشرك والباطل من أنواع الكلام الفاسد.

وقد شبه الله تعالى هذه الكلمة الخبيثة بشجرة خبيثة، لا تمر الناظرين ولا تنفعهم، بل هي خالية من هذه المنافع والصفات التي اجتمعت في الشجرة الطيبة. ومع حلولها من المنافع هي مشتملة على مضار، ولها صفات فكرت في الآية المباركة. وهذه الصفات هي:

(١) أنها خبيثة: ويشمل الخبيث خبث للنظر والطعم والرائحة، مع الاشتغال على المضار الكثيرة.

(٢) اجتثت من فوق الأرض: أي استؤصلت أو اقتلعت من فوق الأرض، فليس لها أصل في الأرض ولا عرق، فهي شجرة تم اقتلاعها من الأرض لأنها لا تنفع فيها؛ فالبشر لا يتركونها تلتف على الأشجار فتقتلها.

(٣) ما لها من قرار: ليس لها استقرار ولا ثبات في الأرض. فهي موصوفة بمضار كثيرة لا نفع فيها لأحد.^(١)

وهذه الصفات المعاكسة لصفات الشجرة الطيبة تدلنا على صفات الكلمة الخبيثة التي هي على العكس من صفات الكلمة الطيبة تماما. وهذه الصفات هي:

(١) أنها خبيثة في نفسها، كالشجرة الخبيثة التي لا نفع فيها ولا فائدة، ولا هي مصدر فح وسرور وبهجة للناظرين.

(٢) اجتثت من فوق الأرض: فالكلمة الخبيثة التي هي كلمة الشرك والكفر غير ثابتة في قلب الكافر، لأنها لا تثبت في مكان، إذ يظل الكافر تائها يتخبط في ظلمات الضلال، لا يطمئن على شركه وكفره، مثل الشجرة المقتلعة من جذورها، بخلاف المؤمن الذي رسخ الإيمان في قلبه تمام الرسوخ، قصار مطعنا مرتاجا، فالشرك والكفر بالله لا ثبات له ولا قوة، والكافر لا حجة له ولا برهان.

(٣) ما لها من قرار: هذه الكلمة غير ثابتة ولا مستقرة في مكان واحد، فالكافر ليس مثل المؤمن الراسخ في إيمانه الذي استقر الإيمان في قلبه، فلا تحركه ولا تفسده حوادث الدهر.^(٢) بل إن للكفر يغير بالحوادث ولا يثبت في قلب صاحبه. وهذا هو حال كل كلمات الشر والفساد، إذ إنما لا تستقر في قلوب أصحابها ولا يطمنون إليها، وأيضا فهي لا تنفع فيها لأحد، ولا ترفع إلى السماء لتفزع الكافر في الآخرة، لأنه ليس له عمل صالح ولا قول طيب، تماما مثل الشجرة التي اقتلعت من جذورها، والتي لا تفيد أحدا ولا تنفعه، لا بمنظرها ولا بثمارها.

(١) يُنظر: مفاتيح الغيب، للرازي، ٩٣/١٩، الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ٣٦٢/٩، التحرير والتنوير، لابن عاشور، ٢٢٥/٦٣.

(٢) وأمثلة الصحابة رضوان الله عليهم معروفة في هذا المجال، حيث ثبتوا على الإيمان أشد الثبات ولم يتحركوا عن كلمة التوحيد قيد أنملة رغم تعرضهم لأشد أنواع الابتلاء والتعلميد.

يقول ابن القيم رحمه الله: "الشرك ليس له أصل يأخذ به الكافر ولا برهان، ولا يقبل الله عمل المشرك، ولا يصعد إلى الله. فليس له أصل ثابت في الأرض ولا فرع في السماء. يقول: ليس له عمل صالح في السناء ولا في الآخرة".^(١) وبعد أن وضع الله تعالى الفرق بين الكلام الطيب والخبيث، أو للمؤمن والكافر بين جزاء الفريقين، فذكر أن المؤمنين أصحاب الكلمة الطيبة يتبتهم الله تعالى في الدنيا والآخرة بفضل هذه الكلمة الطيبة في قلوبهم. أما الظالمون والذين هم أصحاب الكلمة الخبيثة فبضلهم الله، لأنهم ليست لهم كلمة ذات ثبات وقرار، تثبتهم في الدنيا والآخرة، وتنجيهم من العذاب يوم القيامة.

٢- قال الله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.^(٢)

تقارن هذه الآية بين المشرك الذي يعبد آلهة متعددة وبين المسلم الذي يعبد إلهًا واحدًا باستخدام أسلوب ضرب المثل. فقد مثل الله للمشرك برجل مملوك يتنازع فيه شركاءه مختلفون فيما بينهم، وهو لا يدري من يطيع وماذا يفعل، ومثل للمسلم برجل مملوك يطيع سيده واحدًا يفعل ما يأمره، وليس هناك من يختلف معه ويخالفه في أمره. ثم وجه استهماهما قائلا: هل يستوي هذان الرجلان، ومن البديهي أن هذين لا يستويان، لكن أكثر الناس لا يعلمون.

■ سياق الآية:

تحدثت الآيات السابقة عن القرآن الكريم ويثبت أن الله نزل أحسن الكلام الذي يؤثر في الذين يخشون ربهم، والله يهدي به من يشاء. ثم ذكر الكافر الذي تلقى في النار ويحاول أن يقي نفسه من هذا العذاب بوجهه، كما ذكر أن الذين كتبوا قبلهم جاءهم عذاب الحزى في الدنيا وفي الآخرة. وبعد ذلك ذكر الله أنه ضرب في هذا القرآن أمثالا للناس لعلهم يتذكرون، وهذا القرآن عربي لا عوج فيه نزل للناس رجاء أن يتقوا ربهم ويتعظوا، وبعد ذلك جاءت هذه الآية لتوضح الفرق بين المشرك والموحد في الحياة الدنيا بشكل خاص.^(٣)

■ تفسير الآية:

ضربت هذه الآية مثلين لرجلين، أحدهما مشرك يعبد آلهة كثيرة، والآخر موحد يعبد الله الواحد الأحد، فمثلت للمشرك الذي يعبد آلهة شتى برجل مملوك لشركاء مختلفين يتنازعون ويختلفون فيما بينهم^(٤)، ويبقى العبد حائرًا بين هؤلاء السادة لا يدري من يطيع ومن يعصي. أما الموحد الذي لا يعبد إلا الله مثل الله له برجل مملوك لسيده واحد

(١) الأمثال في القرآن، لابن قيم الجوزية، ص ٢٣٧.

(٢) سورة الزمر، آية ٢٩.

(٣) راجع: الآيات ٢٣ - ٢٩ من سورة الزمر.

(٤) التشاكس بمعنى سبى الخلق، وتشاكس الرجلان بمعنى تضادا، فعنى متشاكسون: متضادون مختلفون فيما بينهم.

يُنظر: المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده، ٦/٦٧٥ - ٦٧٦.

خالص له، يطيعه ويحاول إرضاءه، ويتجه إليه عند مواجهة الشدائد؛ فيساعد هذا العبد ويعينه في مضايقه. ولا شك أن من تأمل في هذين المثالين استطاع أن يدرك الفرق بين التوحيد والشرك، وفهم الفرق بين الموحّد والشرك جيّداً.

لقد اشتملت الآية على غميل لحال للشرك في تقسيم عقله بين آله كثيرة، فيبقى في حيرة وشك متردداً في أمره، إن أَرْضَى أحداً أغضب الآخر، لأن رغباتهم مختلفة؛ فيظل ضائعاً لا يدري على من يعتمد. فهو مثل المملوك الذي اشترك فيه عدة مالكيّن، ولا بد أن يكون بينهم اختلاف وتنازع، إذ يطلبون منه أعمالاً شتى ويرسلونه في حوائج مختلفة، وهو حيران يعيش في تعب وتعذاب دائم، لا يرتاح ولا يطمئن. وبالعالي لا تجتمع قواه لأداء واجبه، فيظل متجيراً جاهلاً في سبيل إرضاء جميع السادة لكنه لا يملك إلى ذلك سبيلاً. وإذا احتاج إليهم في شيء رده كل واحد إلى الآخر، ولم يجد مساعدة من أحد. وهكذا يكون حال المشرك؛ فلا يستريح ولا يريح. أما المسلم الموحّد فيقوم بما كلفه به الله، ويسير على هدى وبصيرة، يعرف إلهاً واحداً، يعبدُه ويخدمُه دون حيرة وتردد، ويرجع إليه عند مواجهة الشدائد. فهو مثل العبد المملوك لسيد واحد، يعرف أوامره ويعلم ما يريدُه منه سيده، فقلبه مجتمِع وذمّه متجه نحو هدف واحد؛ فيخدم سيده بإخلاص، ويجد منه المعونة والشفقة كلما احتاج إلى ذلك، لذا فهو يرجع إليه في مصائبه ومشكلاته. وكذلك المؤمن تجتمع طاقاته وتتوحد؛ فينتج بكل طاقته وجهده. وهذا هو الحال في كل متبع للحق ومتبع للباطل؛ فمتبع الحق لا يعترضه ما يشوش عليه ويثقل أعماله، أما متبع الباطل فيظل حائراً يتعبط في أعماله ولا يدري إلى أين يتجه.^(١)

وقال الرازي^(٢) رحمه الله: "هذا المثل في غاية الحسن في تقييد الشرك وتحسين التوحيد. فإن قيل: هذا المثل لا ينطبق على عبادة الأصنام لأنها جمادات، فليس بينها منازعة ومشاكسة. قلنا: إن عبدة الأصنام مختلفون، فمنهم من يقول هذه الأصنام تماثيل الكواكب السبعة، ويثبتون بينها منازعة ومشاكسة، ومنهم من يقول إنها تماثيل الأرواح القلبيّة وزعموا أن كل حوادث العالم يتعلق بروح من الأرواح السماوية، وحيثما يحصل بينها منازعة ومشاكسة. ومنهم من

(١) يُنظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، ٤٠١/٢٣ - ٤٠٢. تفسير الرازي، لأحمد مصطفى المياضي، ط١، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م، ١٦٤/٢٣. الأساس في التفسير، لسعيد حوى، ط١، دار السلام، القاهرة، مصر، ١٤٢٤ هـ، ٤٨٤٧/٩.

(٢) هو محمد بن عمر فخر الدين الرازي القرشي، من ذرية أبي بكر الصديق رضي الله عنه. الشافعي المفسر للكلام. ولد عام ٥٤٤ هـ. كان فريداً عصره وإمام زمانه في العلوم العقلية. ألف في التفسير والفقه وعلم الكلام. توفي عام ٦٠٦ هـ. من كتبه: مفاتيح الغيب، المحصول في أصول الفقه، مناقب الشافعي، وغير ذلك.

يُنظر: طبقات المفسرين، للسيوطي، ص ١١٥ - ١١٦. طبقات المفسرين، للداودي، ٢/٢١٥ - ٢١٨. طبقات المفسرين، للأدنه وي، ص ٢١٣ - ٢١٤.

يقول إنما غائب الأَشْخاص من العطاء والزهد ويعبدونها طمعا في الشفاعة... وهكذا ينطبق المثال، وثبت أنه مطابق للمقصود".^(١)

فلنسلم يستطيع أن يلي أوامر ربه ويرضيه، لأن طريق رضا الله تعالى واحد يسير عليه الإنسان فيصل إلى مرضاة الرب سبحانه وتعالى، ولا يواجه أوامر سادة متنازعين تصرفه عن هذا الطريق المستقيم. أما المشرك فيظل حائرا بين أرباب شتى وآلهة مختلفين إذا أَرْضَى أحدهم أغضب الآخر، وإذا لَبَّى أمر أحدهم تجاهل أمر الآخر. ولا يمكن للآلهة كلها أن تصفق على أمر واحد، كما أن السادة المتشاكسين للعبد المملوك لا يتفقون على رأي واحد. وكما أن هذين لا يستويان، كذلك لا يستوي الموحّد والمُشرك أبدا. وبعد أن ضرب الله هذا المثل الواضح البين الذي أقام الحجة على أهل الشرك، حمد الله تعالى نفسه وأثنى عليه لإحقاق الحق وإبطال الباطل، ثم ذكر أن أكثر الناس لا يعلمون هذا ولا يفهمونه، لأنهم لا يفكرون فيه.

ومما ذكر أيضا في تفسير هذه الآية أن فيها مثلا للراغب والزاهد. فالراغب في الدنيا تشغله أمور كثيرة تصرفه عن طاعة ربه فلا يتوجه إلى عبادته بكامل إخلاصه، وإذا كان في العبادة تشغله أمور أخرى ينصرف إليها قلبه. فلا يستطيع أن يتفرغ للعبادة كاملا، بل يظل بين مطالب مختلفة متشاكسة يفكر فيها ولا يخلص لعبادة الله وحده. أما الزاهد فقلبه لا يتصرف إلا إلى عبادة الله وحده، فهو يتفرغ للعبادة ويترك كافة الأعمال الدنيوية في وقت العبادة ولقاء الله، وبالتالي يعبد ربه خالصا لوجهه خوفا منه وطمعا في رضاه وثوابه.^(٢) وهذا المعنى أيضا يمكن أن يدخل في تفسير هذه الآية وإن كان الأول ما ذكره معظم المفسرين.

ولا شك أن من يتأمل في هذا المثل البليغ الذي ضربه الله للمُشرك والمُوحّد يدرك الفرق الشاسع بين المؤمنين والمُشرك في الدنيا، ويتيقن من أنهما لا يستويان في الدنيا ولا في الآخرة. قال ابن القيم رحمه الله: "وهذا من أجل المثال. فإن الخالص لخالق واحد يستحق من معونته وإحسانه والتفاته إليه وقيامه بمصالحه ما لا يستحقه صاحب الشركاء المتشاكسين".^(٣)

(١) يُنظر: مفتاح الغيب، للرازي، ٤٥١/٢٦، بصرف.

(٢) يُنظر: بحر العلوم، لأبي الميثم الصمغندي، ١٨٥/٣.

(٣) الأقطاب في القرآن، لابن القيم، ص ٢٦٩.

المبحث الثالث:

استخدام أساليب بيانية متنوعة

• مدخل:

إن القرآن الكريم معجز، تحدى الله به البشر جميعاً، وكان التحدي أول الأمر بالإتيان بكلام مثله، ثم نزل إلى عشر سور مثله، ثم استقر الأمر في النهاية على الإتيان بسورة من مثله، ولكن لم يستطع أحد إلى الآن، ولن يستطيع أبداً الإتيان بما يشبه القرآن الكريم. ولأعجاز القرآن الكريم وجوه متعددة أهمها الجانب البلاغي، حيث وصل القرآن ذروة الفصاحة والبلاغة، وهو كله في درجة واحدة من البلاغة والبيان، ولا يمكن لبشر أن يصل إلى مثل هذه الدرجة في كلامه، فبلاغته تفوق بلاغة كافة البلغاء.

وقد استخدم القرآن الكريم أساليب بلاغية كثيرة في عرض حقائقه وأفكاره وإثباتها، ووردت هذه الأساليب البيانية الرائعة أيضاً في مقارنات القرآن الكريم، والتي جعلت هذه المقارنات أكثر متعة وأبلغ أثراً في نفوس البشر. فتارة استخدم أسلوب الاستفهام بأغراضه المتنوعة، وتارة ضرب أمثالا رابعة، وأحيانا استخدم تشبيهات بديعة واستعارات بليغة. وأحيانا أخرى عبر عن مراده مستخدماً أسلوب الطباق والمقابلة، كما استخدم أسلوب الإطناب في توضيح الفرق بين طريفي المقارنة.

وهذه كلها أساليب بيانية تضيء على الكلام حسناً وجمالاً، وتجعل مقارنات القرآن الكريم أكثر أثراً في نفوس البشر، لأن الكلام البليغ المشتمل على أساليب بديعة من البلاغة والبيان أكثر أثراً في النفوس. وهذا أمر شك فيه.

المطلب الأول:

المقارنة باستخدام أسلوب التشبيه والاستعارة

❖ معنى التشبيه والاستعارة:

أولاً: التشبيه:

○ تعريفه:

التشبيه هو الدلالة على مشاركة شيء لشيء في معنى من المعاني أو أكثر على سبيل التطابق أو التقارب لغرض ما، ولا يكون وجه التشبه فيه منتزعا من متعدد. ^(١) وللتشبيه أقسام وأنواع متعددة. ^(٢)

○ أركانه:

للتشبيه أربعة أركان، وهي: المشبه، المشبه به (ويسميان طرفا التشبيه)، أداة التشبيه ^(٣)، ووجه الشبه. ^(٤)

○ مثاله:

للتشبيه أمثلة كثيرة في القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۚ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ ۚ كَأَنَّهُمْ خَشَبٌ مُسْتَنْدَقٌ﴾. ^(٥) فشبهت الآية المنافقين بالخشب المستندع، أي: المتحركة إلى شيء. وذلك أنهم كانوا يحضرون مجالس الرسول ﷺ ولكن لا يستمعون إلى كلامه حتى الاستماع، فلا يعون منه شيئا؛ لذا شبههم الله بأخشاب لا عقل لها ولا بصيرة، ولا تسمع ولا تفهم ولا تعقل.

ثانياً: الاستعارة:

○ تعريفها:

الاستعارة من المجاز ^(٦) اللغوي، وهي تشبيه خُلف أحد طرفيه (المشبه أو المشبه به)؛ فإذا حُذف المشبه مُمَيِّت استعارة قصرية، وإذا حُذف المشبه به مُمَيِّت استعارة مكنية. ^(٧) ويمكن تعريف الاستعارة بأنها

(١) البلاغة العربية، لحبيكة المهدي، ١٦٢/٢.

ويمكن تعريف التشبيه بأنه: بيان أن شيئا أو أشياء شاركت غيرها في صفة أو أكثر، بأداة هي الكاف أو نحوها ملفوظة أو ملحوظة.

البلاغة الواضحة، لعلي الجارم ومصطفى أمين، ط ١، انتشارات سيد الشهداء، قم، إيران، ١٣٧٢ هـ، ج ٢، ص ٢٠.

وما يكون فيه وجه الشبه منتزعا من متعدد فيسمى تمثيلا، أو تشبيها تمثيلا.

(٢) ومنها التشبيه المقلوب، والتشبيه الضمني، وغيرها من الأنواع.

(٣) أداة التشبيه قد تكون حرفا كالـ"كاف"، أو فعلا كـ"يشبه"، أو اسما كـ"مثل".

(٤) يُنظر: البلاغة العربية، لحسن حبيكة، ١٦٢/٢. البلاغة الواضحة، لعلي الجارم ومصطفى أمين، ص ٢٠.

(٥) سورة المنافقون، آية ٤.

(٦) والمجاز هو اللفظ المُستعمل في غير ما وُضِعَ له لعلاقة مع قرينة.

(٧) يُنظر: البلاغة الواضحة، لعلي الجارم ومصطفى أمين، ص ٧٧.

استعمال لفظ ما في غير ما وُضع له في اصطلاح التخاطب لعلاقة المشابهة، مع قرينة صراحة عن إرادة المعنى الموضوع له في اصطلاح التخاطب.^(١)

○ مثال الاستعارة:

للاستعارة أمثلة كثيرة في القرآن الكريم وفي كلام العرب. ومن الأمثلة على ورود الاستعارة في القرآن الكريم قوله تعالى:

١- ﴿كَتَبْنَا نُورًا لِنُكَفِّرَ بِالنُّورِ الْكَافِرِينَ﴾ (٢) وفي الآية استعارة، حيث

شُبِّهَ الكفر بالظلمات وحُذِفَ المشبَّه على سبيل الاستعارة التصريحية (وُجِّهَتْ تصريحية لأنه صريح فيها بالمشبَّه به)، وكذلك شُبِّهَ الإيمان بالنور وحُذِفَ المشبَّه على سبيل الاستعارة التصريحية.

٢- ﴿وَأَخْفِضْ لَنَا جَنَاحَ اللَّيْلِ مِنَ الرِّيحِ﴾ (٣) وفي هذه الآية شُبِّهَ الليل بطائر ذي جناح، ثم

حُذِفَ الطائر ورمز له بشيء من لوازمه، وهو الجناح، على سبيل الاستعارة المكنية.^(٤)

❖ أمثلة على المقارنات باستخدام التشبيه والاستعارة:

استخدم القرآن الكريم أسلوب التشبيه والاستعارة في كثير من مقارناته. ومن الأمثلة على ذلك:

١- قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ

عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ أَلَّذِينَ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَّبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۖ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى

الظَّالِمِينَ ۝ أُولَٰئِكَ يَصْطُرُونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَتَّبِعُونَ حِوَجَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ

كَافِرُونَ ۝ أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُفْجِرِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ

أَوْلِيَاءَ ۖ يَضَعُ لَهُمُ الْعَذَابَ ۖ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّنْعَ وَمَا كَانُوا يُنصِرُونَ ۝

أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ۝ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي

الْآخِرَةِ هُمْ الْآخِسُونَ ۝ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ

(١) البلاغة العربية، لحبيكة المهداني، ٢٢٩/٢.

ويمكن تعريف الاستعارة بأنها المجاز الذي تكون علاقته المشابهة بين المعنى الأصلي والمعنى المجازي الذي يستعمل اللفظ للدلالة به عليه. وأصلها تشبيه حُذِفَ منه أحد طريقه وأداة التشبيه ووجه التشبيه.

ينظر: المصدر السابق، ٢٢٤/٢، ٢٢٩/٢.

(٢) سورة إبراهيم، آية ١.

(٣) سورة الإسراء، آية ٦٤.

(٤) التفسير المنير، للرحيلي، ٤٩/٦٥.

أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَصْمَى وَالْأَبْصَرِ ۚ أَصْحَابُ السَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٥﴾

هذه الآية الكريمة فيها مقارنة بين الظالمين للفاترين الكذب على الله الذين خسروا أنفسهم يوم القيامة، ولم ينفعهم "كذبهم وافترائهم في الآخرة، وبين المؤمنين الخاشعين لله العاملين الصالحات الفاترين بالجنة في الآخرة. وشبهت الآية الفريق الأول بالأعمى والأصم، والفريق الثاني بالبصير والسميع. ثم وجهت سؤالاً إلى القراء والمسلمين، وهو: هل هذان يستويان في عقل أحده ولا شك أن جواب هذا السؤال يكون بالنفي لدى الجميع. فلماذا لا يتفكر الناس في هذا الأمر ويأخذون منه العبرة والذكرى.

■ سياق الآيات:

جاءت هذه الآيات في سياق الحديث عن الكفار وإنكارهم للقرآن الكريم، حيث ورد التحدي بالإتيان بعشر سور مثل هذا القرآن الكريم، كما ورد القطع بأنهم لن يتمكنوا من ذلك، لأن هذا القرآن إنما نزل من عند الله. ثم ذكرت هذه الآيات صفات الكفار المكذبين بالقرآن، من افتراءهم الكذب على الله، وصلحهم عن سبيل الله وغيره، مينة أنهم معذبون لا محالة. كما وضحت الآيات مصيرهم وقارنت بينهم وبين المؤمنين، وجزء كلا الفريقين في الآخرة. (١)

■ تفسير الآيات:

بدأت الآيات بالحديث عن الكفار ظلموا أنفسهم، وافتروا الكذب على الله، وذكرت أنهم يتعرضون على ربهم فيفرضون ويشهد عليهم الشاهدون، وهم الذين يستحقون اللعنة من الله، بسبب صدهم عن سبيل الله وابتغائه عوجها، وكفرهم بالله والدار الآخرة. هؤلاء سيجمعهم الله يوم القيامة، ولن يستطيعوا الهروب منه، ولن يحلوا من عذاب الله وجزائه. ويضاعف لهم العذاب يوم القيامة لعدم استغلالهم لأسماعهم وأبصارهم في معرفة الحق وإدراكه. وهؤلاء هم الخاسرون يوم القيامة ولن ينفعهم يومئذ ما كانوا يفترونه في الدنيا، إذ يذهب عنهم كل ما عبدوه من دون الله في الدنيا من الأصنام والأنداد، ولن ينفعهم، بل يضرهم كل الضرر. فهم الأخسرون يوم القيامة، لأنه لا أحد أبين وأكثر خسراناً منهم يوم القيامة، وذلك بسبب أنهم استبدلوا بنعيم الجنة ودرجاتها عذاب جهنم ودرجاتها، وبدلوا نعيم الجنان بحميم آن، والحر العين بغطاء من غسول، والقصور العالية بالهاوية، وقرب الرحمن بغضب الديان وعقابه. وبعد ذكر الكفار وصفاتهم وأحوالهم في الدنيا والآخرة، ذكر أضدادهم وهم المؤمنون الذين يؤمنون بالله ويطيعونه محبتين إليه، أي: مطمئنين إليه خاشعين، منقطعين إلى عبادته تخضوع وتواضع، ويعملون

(١) سورة هود، الآيات ١٨ - ٢٤.

(٢) راجع: الآيات ١٣ - ٢٤ من سورة هود.

الأعمال الصالحة. وذكر أيضا حالهم يوم القيامة ومصيرهم، فبين أن هؤلاء هم أصحاب الجنة خالدين في نعيمها لا يخرجون منها. وهم الفائزون في حقيقة الأمر.^(١)

وبعد أن تم توضيح أحوال الفريقين جيء بهذا التشبيه المرسل^(٢) حيث شبه الكافر بالأعمى والأصم، والمؤمن بالبصير والسميع. وذلك لأن الكافر أعمى عن الحق وعن مشاهدة آيات الله المنتشرة في العالم، ولا ينظر إليها بعين الاعتبار فلا يهتدي إلى خير ولا يعرفه. وهو أصم عن سماع الحق والحجج، فلا يسمع آيات الله التي تنطق عليه لتنفعه في الدنيا والآخرة ولا يتلقاها بالقبول. وشبه المؤمن بالسميع والبصير لأنه يستخدم سمعه وبصره فيما ينفعه، حيث يبصر الحق ويميز بينه وبين الباطل؛ فيتبع الخير ويعرض عن الشر، ويرى آيات الله الدالة على ربوبيته ووحدانيته، فيؤمن بالله ويذهن له. وأيضاً فإن المؤمن يسمع آيات الله تنطق عليه فيؤمن بها ويتدبر فيها، ويسمع الحجج فيفرق بينها وبين الشبهة فلا يؤمن بباطل ولا يتأثر به. فهل يستوي هذان الفريقان المذكوران؟^(٣) أفلا تعتبرون فتفرقوا بين هؤلاء وهؤلاء؟^(٤)

وقد ذكر العلماء في التشبيه المذكور في الآية معنيين:

- (أ) أنه شبه الكفار الذين يعرضون عن آيات الله فلا يرونها ولا يسمعونها بالأعمى والأصم، وشبه المؤمنين الذين استفادوا من أسماعهم وأبصارهم في الوصول إلى الحق بالسميع والبصير الذي يستفيد من النور في الظلام، ويستفيد من إنذار المنتهرين.
- (ب) أنه شبه كلا من الفريقين تشبيهاً اثنين، أي: مثل الفريق الكافر كالأعمى، ومثله أيضاً كالأصم. ومثل الفريق للمؤمن كالبصير، ومثله أيضاً كالسميع. ويمكن أن يكون المعنى تشبيه نوع من الكفار بالأعمى، ونوع منهم بالأصم، وكذلك المؤمنين نوع منهم كالسميع، ونوع منهم كالبصير.^(٥)

(١) يُنظر: المجتمع لأحكام القرآن، للقرطبي، ٢٦/٩. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود، ١٩٨/٤، روح المعاني، للأغوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ، ٢٣٣/٦، التفسير المنير، للرحيلي، ٤٨/١٢.

(٢) التشبيه المرسل هو التشبيه الذي ذكرت فيه أداة من أدوات التشبيه.

(٣) البلاغة العربية، لحسن حبكة، ١٧٣/٢.

(٤) وهذا التشبيه مرسل لوجود أداة التشبيه "الكاف" فيه.

(٥) والاستفهام إنكاري، إذ نفت الآية المساواة بينهما وأنكرت على من يظهرهما متساويين.

(٦) يُنظر: تفسير القرآن العظيم، لإسماعيل بن كثر، تحقيق: محمد حسين محمد الدين، ط ٢، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٩هـ، ٢٧٣/٤. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود، ١٩٨/٤.

(٧) يُنظر: الكشف، للزمخشري، ٣٨٣/٢، روح المعاني، للأغوسي، ٢٣٤/٦ - ٢٣٥.

والمعنى الأول هو الراجح، وهو الذي ذكره المفسرون بشكل عام، ورجحه الإمام الألوسي^(١) رحمه الله^(٢).

والفرق بين المؤمن والكافر كالفرق بين البصير والسميع والأعمى والأصم، فالبصير السميع يعرف طريقه وهدفه في الحياة، فيظل سائرا فيه يستفيد من سمعه وبصره في السير نحو مقصد الحياة، وكذلك المؤمن يسير في طريق الإيمان ليصل إلى مرضاة الله تعالى التي هي هدفه السامي. أما الأعمى والأصم فلا يعرف طريقه ولا يستطيع السير في طريق معين ليصل إلى هدفه في الحياة، وكذلك الكافر يتخبط في الضلال ولا يستخدم حواسه ليصل إلى الهدف الأصلي من وجوده في هذا الكون أبدا. ولا شك أن بين الاثنين فرقا كبيرا يتركه كل ذي لب.

٢- قال الله تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَخْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَتَن مَّثَلَهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٣).

هذه الآية فيها مقارنة بين المؤمن الذي أخرجته الله من ظلمات الكفر، وأحياه بعد أن كان ميتا وأعطاه نورا يستير به في حياته، وبين الكافر التائه في ظلمات الخيرة والضلال لا يجد إلى الخروج منها سبيلا. واستخدم أسلوب الاستعارة، حيث شبه المؤمن الذي هداه الله بالملت الذي بعثه الله بعد موته وأعطاه نور الهداية الذي يمشي به في الطريق الصواب، وشبه الكافر بمن يعيش في الظلمات ولا يخرج منها. فتساءل الآية: هل الأول مثل الثاني؟ ومن البيهقي أن الجواب عن هذا السؤال يكون بالنفي، لأن بين الاثنين بونا شاسعا.

■ سياق الآية:

تحدثت الآيات السابقة عن الكفار، وأخبرت أنهم لن يؤمنوا بالله تعالى مهما رأوا من الآيات، وقد جعل الله تعالى لكل نبي عدوا من الجن والإنس. ثم ذكر أن الله تعالى أنزل هذا الكتاب مفصلا، وكلمات الله كاملة الصديق والعدل، ليس لأحد أن يبدل فيها ويغير. وبعد ذلك أمر النبي ﷺ بعدم طاعة أكثر أهل الأرض لأنهم يدعون إلى الضلال، ويتبعون الظن، والله أعلم بالمهتدين والضالين. ثم جاء الأمر بالأكل مما ذكر عليه اسم الله، وترك ما لم يذكر عليه اسم الله من التبايح، لأن ما لم يذكر اسم الله عليه فسق لا يحل أكله، كما ذكر أن الشياطين يحرضون الناس على مجادلة الرسول ﷺ والمؤمنين بالباطل، فعلى المسلمين ألا يطيعوا الشياطين. وبعد ذلك وردت هذه الآية التي توضح

(١) هو أبو الشفاء شهاب الدين محمود بن عبد الله الألوسي، مفسر، فقيه، محدث كتيب. كان شيخ علماء العراق في عصره، ولد في بغداد وتقلد الإفتاء فيه. ثم عزل ذلك وانقطع للعلم والتأليف فالف كتباً مفيدة. توفي عام ١٢٧٠ هـ. من كتبه: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، وغيره.

ينظر: معجم المفسرين (من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر)، لعادل تويهض، ٦٦٥/٢.

(٢) ينظر: روح المعاني، للألوسي، ٢٣٥/٦.

(٣) سورة الأنعام، آية ١٢٢.

الفرق بين المؤمن والكافر إيضاحاً يتنا باستخدام استعارة بليغة، ليتفكر الناس ويتعظوا، وبالتالي يصلوا إلى الحق والصواب.^(١)

■ تفسير الآية:

بعد أن حذر الله تعالى من أولياء الشياطين ومجادلهم^(٢) بين قضاة حال المشركين وحسن حالة المؤمنين حين تركوا الشرك ودخلوا في الإيمان؛ فجاء باستعارة تمثيلية^(٣) لبيان حال كل من الفريقين، حيث استعار الموت للكفر، والحياة للإيمان، والنور للهدى، والظلمات للضلال، كما أكرر المساواة بين الفريقين (المؤمن والكافر) باستخدام الاستفهام الإنكاري.^(٤)

لقد شبه الله تعالى في هذه الآية المؤمن الذي كان كافراً فهداه الله بحال من كان حيناً لا خير فيه ولا تقع لأحد، (لأن الشرك يحول دون التمييز بين الحق والباطل ويصرف الإنسان عن السعي إلى ما فيه خيره وصلاحه)، وكان في ظلام لم يستيقظ لا يعرف ماذا يفعل، فأحبا الله قلبه وهداه إلى الإيمان والإسلام، فتغير حاله وصار يميز بين الحق والباطل ويعلم الصالح من الفاسد، وصار كالحي يسعى إلى ما فيه الصلاح ويتعدى عن الفساد. وبالإضافة إلى إحيائه وهدايته بعد كفرة أعطاه نورا يضيء له طريقه بين الناس وهو نور القرآن والهدى والإيمان الذي يوجه الإنسان إلى الطريق الصواب في الحياة. وشبه الكافر المنغمس في الجهل والهوى والضلال بمن هو تائه في الظلمات لا يستطيع الخروج والتخلص منها، ولا يهتدي إلى منقذ ولا مخلص مما هو فيه. والآية عامة لكل من هداه الله وكل من أضله الله.^(٥)

قال الألوسي: "هذا تمثيل مسوق لتفجير المسلمين عن طاعة المشركين إثر تحذيرهم عنها بالإشارة إلى أنهم مستضيئون بنور الوحي الإلهي، والمشركون غارقون في ظلمات الكفر والطغيان، فكيف يعقل طاعتهم له".^(٦)

فالمؤمن الذي كان كافراً فأحياه الله وهداه إلى الإيمان به سبحانه، ووفقه إلى ما فيه حياة القلوب والنفوس، وأعطاه نور الهداية الذي يضيء له الطريق بين الناس؛ فيستفيد منه بنفسه ويفيد غيره بحيث يدعوهم إلى الإيمان، وينير لهم

(١) راجع: الآيات ١١١ - ١٢٢ من سورة الأنعام.

(٢) قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ الشَّيَاطِينَ يُرْسِلُونَ إِلَىٰ أَزْيَاجِهِمْ لِئَجْثِلُوا لَهُمُ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾. سورة الأنعام، آية ١٢١.

(٣) والاستعارة التمثيلية هي التي يكون فيها اللفظ المستعار كلاماً مركباً من عدة ألفاظ مفردة.

البلاغة العربية، لحبيكة الميداني، ٢٣٥/٢.

(٤) يُنظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، ٨-٤٣/١. التفسير المنير، للرحيلي، ٢٧/٨.

(٥) يُنظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل، لأبي الزكيات النسفي، تحقيق: يوسف هلي بدوي، ط ١، دار الكلم الطيب، بيروت.

لبنان، ١٩٩٨م - ١٤٢٩هـ: ٥٣٤/١. التحرير والتنوير، لابن عاشور، ٨-٤٥/١. التفسير المنير، للرحيلي، ٢٩/٨.

(٦) روح المعاني، للألوسي، ٢٦٢/٤.

طريق حياتهم بهذا النور الذي أعطاه الله، ويعرف طريقه الصحيح ويمشي فيه ليصل إلى هدفه المنشود. هذا المؤمن مثل الحي الذي يسعى للإصلاح وهو مصدر نفع لنفسه ولغيره (ففي الآية إشارة أيضا إلى أن المؤمن ينبغي له أن ينير الطريق لغيره أيضا)، والذي كان ميتا عديم الخير والفايدة، فأحياء الله وجعله صاحب نفع وغير للجميع. هذا لا يمكن أن يكون مثل الميت النائم في ظلمات الجحيرة والضلال، لا يجد إلى الخروج منها سبيلا. فالظلمات هي ظلمات الكفر والجهل والضلال، والكافر في هذه الظلمات، لا يبصر الطريق للصحيح، ولا حياة فيه، ولا يملك ما ينير له طريقه، فلا خير فيه لنفسه، إذ يتخبط في الظلام ولا قدرة له على إيصال نفسه إلى الهدف المقصود، ولا على معرفة الطريق الصواب. وكذلك لا نفع فيه لغيره، لأنه لا يملك نور الهداية التي يملكها المؤمن الحي، فيستفيد منها ويفيد بها. هل هذان مستويان في نظر العقل؟ لا شك أنه لا يقول ذلك أحد. وقد أنكرت الآية أيضا استواء هذين الاثنين، لكن الكفار زين لهم الشيطان أعمالهم، فلا يهتمون إلى هذا الفرق العظيم.

وبعد الاستعارة التمثيلية البليغة وضح الله تعالى الفرق بين المؤمن والكافر أهد الإيضاح، بحيث لا يمكن أن ينكر ذلك إلا من لا عقل له ولا بصيرة.

٣- قال تعالى: ﴿أَمَّنْ يَمِشُ مَكَبًا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ

مُسْتَقِيمٍ﴾ (١)

قارنت هذه الآية بين المؤمن والكافر، فشبهت الكافر بمن يمشي مكبا على وجهه، لا يبصر الطريق ولا يعرف أين يتجه، فيسير دون طريق واضح وهدف مقصود. وشبهت المؤمن بمن يمشي سويا على طريق مستقيم، يعرف مصيره وهدفه واتجاهه، باستخدام استعارة تمثيلية. وسألت هل الأول أهدى أم الثاني، ولا شك أن الثاني أهدى من الأول.

■ سياق الآية:

أوردت الآيات السابقة بعض الأدلة على وحدانية الله تعالى، وذكرت بعض مظاهر قدرته المطلقة من خلق الأرض والطيور ونحو ذلك، وجاء في سياقها التحذير من عذاب الله الذي لا ينجو منه الكفار والمكذبون. وذكر أيضا أن الله أهللك للمكذبين من قبل، وعذبهم على كفرهم وعصيانهم، فمن الذي يملك نجاة هؤلاء الكفار من عذاب الله إذا أراد أن ينزله بهم، وكذلك من الذي يستطيع أن يرزقهم إذا منع الله عنهم الرزق. وبعد هذه الأدلة والبراهين سبقت هذه الآية لتنفى المساواة بين المؤمن والكافر. (٢)

(١) سورة الملك: آية ٢٢.

(٢) راجع: الآيات ١٥ - ٢٢ من سورة الملك.

■ تفسير الآية:

لقد جاءت الآية الكريمة باستعارة تمثيلية بديعة، فذكرت المؤمن في صورة رجل يمشي سويًا على صراط مستقيم، والكافر في صورة رجل يمشي مكبا على وجهه إلى طريق جهنم. والهمزة الواردة في بداية الآية للاستفهام للتقرير، إذ حملت الآية المخاطب على الإقرار بالحق والاعتراف بأن المؤمن أهدى طريقًا من الكافر.^(١)

إن الآية الكريمة ضربت مثلا للكافر المشرك ومثلا للمؤمن الموحد، نبيانا لحالهما وتوضيحا لواقع مذهبهما، فالكافر في اضطرابه في عقيدته كالماشي منكسا رأسه ضالا طريقه، مثل الأعمى الذي لا ينظر أمامه ولا خلفه ولا يمينه ولا شماله، بل يمشي في انخفاض وارتفاع بتعثر كل لحظة، ولا يأمن من الوقوع على وجهه لصعوبة طريقه. أما المؤمن فهو في طمأنينة قلبه بالإيمان ووضوح الحق أمامه، كمن يمشي مستويا صحيح البصر معتدلا يرى أمامه وخلفه ويمينه وشماله، على طريق واضح مستقيم لا صعوبة فيها ولا وعورة. وهنا ينبغي الإقرار بأن الماشي سويًا على طريق مستقيم أهدى وأقوم طريقًا من الذي يمشي مكبا على وجهه. فكذلك للمؤمن الذي يمشي على بصيرة على مسلك العقل والنقل، ويعمل بطاعة الله، أهدى وأصوب دينا من الكافر الذي لا يسمع ولا يعقل ولا يهتدي إلى الصواب. وكلمة أهدى لا يقتضي وجود الهداية في الأصل في المفضل عليه، بل يكفي وجودها فرضا.^(٢)

وذكر بعض المفسرين أن هذا التمثيل الذي مثلت به الآية المؤمن والكافر لا يكون في الدنيا فقط، بل يكون في الآخرة أيضا. فالكافر يمشي في الدنيا مكبا على وجهه لا يعرف طريقه الصحيح، وكذلك يُحسّر في الآخرة منكسا يمشي على وجهه، حتى يصل إلى نار جهنم فيقع فيها على وجهه. وأما المؤمن فيسير في الدنيا على منهج الله على هدى وبصيرة، وفي الآخرة كذلك يُحسّر سويًا على طريق مستقيم يوصله إلى الجنة بإذن الله.^(٣)

إن الكافر في نظر هذه الآية المباركة مثل رجل يمشي على طريق معوج منكسا رأسه لا يعرف الطريق ولا ينظر يمينا ولا شمالا، ولا يعرف هدفه المنشود، بل هو يمشي دون بصيرة وفكر، فلن يصل إلى غايته، بل يظل تائها حائرا في الطريق. وكذلك الكافر في حياته الدنيوية ليس له هدف ولا غاية، ولا يتبع طريقا واضحا يوصله إلى هذا الهدف، كما أنه في الآخرة يحسّر على وجهه منكسا فيصل إلى عذاب جهنم والعياذ بالله.

(١) يُنظر: التفسير المظهر، لثناء الله، تحقيق: غلام نبي التونس، مكتبة الرشدية، باكستان، ١٤١٢ هـ، ٢٦/١٠ - ٢٧. التفسير

الخير، للرحيلي، ٢٩/٣٠.

(٢) يُنظر: بحر العلوم، للسمرقندي، ٤٧٨/٣. البحر المحيط، لأبي حيان، ٢٢٨/١٠. الثياب في علوم الكليات، لأبي حفص سراج

الدين الحنبلي، تحقيق: عادل أحمد وعلي محمد معوض، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م، ٢٥٥/١٩.

التفسير المظهر، لثناء الله، ٢٧/١٠. أئمة التفاسير، لأبي بكر الجزائري، ط٥، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية

السعودية، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م، ٤٠٣/٥.

(٣) يُنظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٢٠١/٨. التفسير الخیر، ٢٩/٣٣.

وأما المؤمن فهو مثل رجل يمشي مستقيماً على طريق مستقيم واضح لا عوج فيه يوصله إلى هدفه ومقصده، وهو محتاط في السير فيه، بحيث يحفظ نفسه من الأمور التي تضره والطرق التي تحرفه عن هدفه المنشود؛ وذلك لأن المؤمن يسلك في حياته الدنيوية طريق الإيمان والقرآن الذي هو طريق مستقيم مستقيم لا عوج فيه، يتبعه على بصيرة وعقل، ويحتاط في السير فيه؛ فلا يرتكب معصية، ولا يتبع أموراً تحرفه عن طريق ربه، وله هدف سامي، وهو رضا الله تعالى والجنة. وهو في الآخرة يحشر سوياً، فيمشي سريعاً على طريق مستقيم يوصله إلى الجنة.

ولا شك أن الثاني أهدى وأصوب طريقاً من الأول؛ فكانت النتيجة هي أن المؤمن أصبح ديناً وأقوم طريقاً من الكافر، وهو الأهدى في الدنيا والآخرة. وقد اتضح ذلك وضوح الشمس لكل من قرأ هذه الاستعارة البليغة.

المطلب الثاني:

المقارنة باستخدام أسلوب الطباق والمقابلة

❖ معنى الطباق والمقابلة:

الطباق والمقابلة كلاهما من المحسنات البديعية^(١) المعنية التي تضبط إلى الكلام حسنا وزملا.

أولا: الطباق:

○ تعريفه:

إن الطباق يسمى أيضا للطابقة والتكافؤ والتضاد. وهو الجمع بين المتضادين، أي: معنيين متقابلين في الجملة، إما بلفظين من نوع واحد (اسمين أو فعلين أو حرفين) وإما بلفظين من نوعين. ويمكن القول أيضا بأن الطباق هو الجمع في العبارة الواحدة بين معنيين متقابلين على سبيل الحقيقة أو المجاز ولو إيهاما. ولا يُشترط تكون اللفظين المتضادين من نوع واحد، بل يُشترط التقابل في المعنى فقط.^(٢)

○ أقسامه:

للطباق قسمان:

(أ) طباق إيجاب: وهو ما لم يختلف فيه الضدان إيجابا وسلبا.

(ب) طباق سلب: وهو الجمع بين فعلي مصدر واحد مثبت ومنفي أو أمر ونهي.^(٣)

○ مثال الطباق:

١- قال الله تعالى: ﴿وَأَنذَرُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾.^(٤) هذه الآية فيها طباق إيجاب بين "أضحك" و"أبكى".

٢- قال الله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾.^(٥) ففي الآية طباق سلب بين "استغفر" و"لا تستغفر".

(١) علم البديع هو العلم الذي تُعرف به المحسنات الجمالية المعنوية واللفظية المنشورة في الكلام. وهي نوعان:

(أ) محسنات معنوية: وهي ما يشتمل عليه الكلام من زينات جمالية معنوية، كالطباق والمقابلة وغيرها.

(ب) محسنات لفظية: وهي ما يشتمل عليه الكلام من زينات جمالية لفظية، كالتجناس والتسجع وغيرها.

يُنظر: البلاغة العربية، لعبد الرحمن حبيكة، ٣٦٩/٢.

(٢) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، لعبد المتعال الصعدي، ط ١٧، مكتبة الآداب، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م، ٥٧٤/٤.

البلاغة العربية، لعبد الرحمن حبيكة، ٣٧٥/٢.

(٣) يُنظر: بغية الإيضاح للصحيح، ٥٧٥/٤. علوم البلاغة - البديع والبيان وللعاني، محمد قاسم وعبيد الدين ديب، ص ٦٨.

(٤) سورة التجم، آية ٤٣.

(٥) سورة التوبة، آية ٨٠.

ثانياً: المقابلة:

○ تعريفها:

المقابلة مثل الطباق أيضاً. وهي أن يؤتى بمعنيين أو معان متوافقة ثم بما يقابلهما أو يقابلها على الترتيب. (١)
والفرق بين المقابلة والطاق أن الطباق لا يكون إلا بين الأضداد، والمقابلة تكون بين الأضداد وغير الأضداد. وأيضاً فإن الطباق لا يكون إلا بين ضدّين، والمقابلة تكون بين أكثر من اثنين. (٢)

○ مثال المقابلة:

١- قوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً﴾. (٣) وفي الآية مقابلة بين "فليضحكوا قليلاً" و"وليبكوا كثيراً".

٢- قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۖ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۖ فَسَنِّيْرُهُ لِلْئِسْرَى ۖ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۖ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۖ فَسَنِّيْرُهُ لِلْئِسْرَى ۖ﴾. (٤) فالجمل الثلاثة الأولى في هذه الآيات الكريمة مقابلة للجمل الثلاثة الأخرى.

❖ أمثلة على المقارنات باستخدام الطباق والمقابلة:

توجد في القرآن الكريم أمثلة عديدة لاستخدام أسلوب الطباق والمقابلة في المقارنة بين أمور متعددة، وباستخدام هذين الأسلوبين يتم توضيح ما يؤيد القرآن إيضاحه أحسن توضيح، كما يضيف هذان الأسلوبان حسناً وجمالاً إلى آيات القرآن بشكل عام ومقارناته بشكل خاص.
ومن الأمثلة على مثل هذه المقارنات:

١- قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾. (٥)

قارنت الآية الكريمة بين الإله الحقيقي الذي هو الله الواحد الأحد للقادر على الخلق وبين الآلهة الباطلة العاجزة عن الخلق. فأتارت الآية تساؤلاً، وهو: هل الذي يخلق مثل الذي لا يخلق؟! وذلك بإيراد طباق سلب بين "يخلق" و"لا يخلق". ومن البديهي أن القادر المطلق الذي يستطيع أن يخلق ما يشاء لا يتساوى مع الذي لا يستطيع أن يخلق ذرة.

(١) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع لأحمد مصطفى المصطفى، ص ٣٠٤. بغية الإيضاح، للصبيحي، ١/٤ - ٥٨٠.

(٢) علوم البلاغة - البدیع والبيان والمعاني، محمد قاسم وعبيد القين، ص ٧٢.

(٣) سورة التوبة: آية ٨٢.

(٤) سورة الليل، الأبيات ٥ - ٩٠.

(٥) سورة النحل، آية ١٧.

■ سياق الآية:

وردت هذه الآية في سياق الحديث عن نعم الله تعالى، وبيان مظاهر قدرته على خلقه، حيث ذكرت الآيات السابقة أن الله خلق الأنعام وسخرها للبشر، وأنزل من السماء ماء لفائدة المخلوقات، وخلق الزرع والأشجار، وسخر البحر للإنسان ليستفيد منه وما فيه، وخلق الجبال لإقامة توازن الأرض، كما خلق السجود التي تحدي الناس في ظلمات الليل والبحر. ثم أنكرت هذه الآية للمساواة بين الخالق القادر على الخلق وبين العاجز المطلق، داعية الناس إلى التذكر والاتعاظ بما خلق الله، وبالعالي العوذة إلى الرشيد والصواب.^(١)

■ تفسير الآية:

إن الاستفهام الوارد في الآية إنكارية، إذ نفت الآية للمساواة بين الذي يخلق والذي لا يخلق، وأنكرت على من يظنهما سواء. وقد نبه الله في هذه الآية على عظمتها، وعلى أنه لا تنبغي العبادة إلا له دون سواء من الأصنام والأوثان التي يعبدونها للمشركون، والتي لا تخلق شيئا، وبالتالي فهي لا يمكن أن تساوي الخالق الذي خلق ما في الأرض جميعا. وفي الآية أيضا إبطال لإشراك المشركين بإنكار أن يساوي الله ويستحق مشاركته ما لا يقدر على خلق شيء من الأشياء. وفي ختام الآية أنكر الله عليهم علم التفكير، ففي الاستفهام في الأخير إنكار على المشركين ورسمهم بالجهل وسوء التقدير، إذ قيل لهم: لم لا تتذكرون فتعتبرون وتتعضون؛ فإن معرفة ذلك لا يحتاج إلى تدبير وفكر ونظر طويل.^(٢)

وفي استخدام "من" للمعبودات التي يعبدونها المشركون مع أنها في الغالب أصنام وأوثان لا تعقل، وجوه ذكرها المفسرون، وهي:

- (أ) استخدم لفظ "من" لاشتغال المعبودات من غير الله تعالى على من يعقل وما لا يعقل، أو لاعتقاد الكفار أن لها تأثيرا وأفعالا وأنها تنفع وتضر، فأجراها القرآن مجرى أولي العلم.
- (ب) أنه استخدم "من" على سبيل المشاكلة بينها وبين من يخلق.
- (ج) التخصص بأولي العلم من المعبودات. فإذا وقع الفرق بين الخالق وغير الخالق من أولي العلم، كان الفرق بينه وبين من لا يعلم شيئا أوضح وأكثر.^(٣)

وقد ذكر الإمام الزمخشري في تفسير هذه الآية نكتة مهمة، فقال: "فإن قلت: هو إلزام للمذنبين عبدوا الأوثان وسجوها آلهة تشبها بالله، فقد جعلوا غير الخالق مثل الخالق، فكان حق الإلزام أن يقال لهم: أفمن لا يخلق كمن يخلق؟

(١) راجع: الآيات ٥ - ١٧ من سورة النحل.

(٢) يُنظر: محاسن التأويل، لجمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد ياسر عيون السود، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٨ هـ، ٣٦٠/٦، التحرير والتنوير، لابن عاشور، ١٤٢٣/١٤، التفسير المنير، للرحبلي، ١٤٠٦/١٤.

(٣) يُنظر: البحر المحيط، لأبي حيان، ٥١٦/٦، الدر المنصور في علوم الكتاب المكنون، للشيخ السمين الحلبي، تحقيق: أحمد محمد الحارث، دار القلم، دمشق، سوريا، ٢٠٠٤/٧.

قلت: حين جعلوا غير الله مثل الله في تسميته باسمه والعبادة له وسوا بينه وبينه، فقد جعلوا الله تعالى من جنس المخلوقات وشبهها بها، فأنكر عليهم ذلك بقوله: ﴿أَقَمْتُمْ خَلْقَ كُنْ لَا يَخْلُقُ﴾^(١) ففي هذا الترتيب زيادة توبيخ ليكون كأنهم جعلوا غير الخالق أقوى حالا وأعز من الخالق، ثم جاءت خاتمة الآية تحمل مزيدا من الإنكار والتوبيخ عليهم جهل المشركين وسوء خاتمهم، لأنهم يجهلون ما هو ظاهر معروف غافلون عنه.^(٢)

فلا يمكن أبدا أن يستوي الخالق مع الذي لا يقدر على خلق شيء ولو كان مقدار أملة، لأن الخلق من أعظم مظاهر القدرة على الأمور والتصرف في الملك، ولا يملك هذه القدرة إلا الله الواحد الأحد. وهذا ما يعترف به الجميع، وحتى المشركون الذين خوطبوا بهذه الآية الكريمة كانوا يعترفون بأن الله تعالى هو الخالق وحده، وهو الذي خلقهم وخلق السماوات والأرض وما بينهما جميعا^(٣)، وأن أصنامهم التي يعبدونها من دون الله لا تقدر على الخلق. فوجهتهم هذه الآية نحو التدبر في هذا الأمر، وأنكرت عليهم تسويتهم بين الخالق والمخلوق فيما لا يستحقه إلا الخالق، وهو العباد. فهم يؤمنون بأن الله وحده هو الخالق، ويعترفون بأن جميع المعبودات الباطلة لو اجتمعت وساجد بعضها بعضا لن تقدر على خلق شيء نافع كالذهب، بل إنهم عاجزون أمام هذا الذباب الصغير أيضا، فكيف يمكن مع هذا الاعتراف بقدرة الله على الخلق والرزق أن يسوا بين هؤلاء الذين هم في منتهى العجز وبين الله الخالق لجميع ما في الكون والماوراء عليه. لا شك أن هذا الأمر لا يحتاج إلى فكر طويل وتدبر عميق، بل هو واضح جلي يمكن للإنسان إدراكه بكل سهولة بشرط أن يملك عقلا سليما وقلبا نقيًا.

٢- قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلُمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۖ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ۝

فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَمِنْهُمْ فِي النَّارِ لَهُمْ زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۝ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ

وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ۝ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَمِنْهُمْ فِي الْجَنَّةِ

خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۚ عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُورٍ ۝﴾^(٤)

هذه الآيات الكريمة فيها مقارنة بين الأشقياء والسعداء يوم القيامة باستخدام أسلوب المقابلة. فقد قسمت الآية الأولى الناس يوم القيامة إلى صنفين: شقي وسعيد، ثم بيّنت الآيات التي بعدها مصير كل منهما يوم القيامة. فالأشقياء لهم نار جهنم يعيشون فيها، والسعداء مصيرهم الجنة خالدين، ويكون عطاؤهم فيها دائما غير منقطع. وثمة مقابلة بين الطرفين، فقليل عن الأشقياء إنهم في النار، وذكر عن السعداء أنهم في الجنة، وباجتماع أكثر من

(١) الكشاف: للزمخشري، ٥٩٩/٢.

(٢) يُنظر: غرائب القرآن وغرائب الفرقان، لنظام الدين النيسابوري، تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت.

لبنان، ١٤١٦ هـ، ٢٥١/٤.

(٣) وقد ذكر اعتراضهم بذلك في كثير من الآيات القرآنية، منها قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، سورة نساء، آية ٢٥.

(٤) سورة هود، الآيات ١٠٥ - ١٠٨.

ضدين حصلت مقابلة بين الطرفين، كما أن في الآية الأولى طباقا بين الشقي والسعيد. فاجتمع في هذه المقارنة أسلوبا الطباق والمقابلة.

■ سياق الآيات:

تحدثت آيات سورة هود الواردة قبل هذه الآيات عن الأنبياء وأقواسهم، وذكرت ما حل بالأمم المكذبة من العذاب الشديد بسبب ثردها وعصيانها، وتحدثت هذه القصص بقصة سيدنا موسى عليه السلام وفرعون. ثم وضع الله عز وجل أن هؤلاء ظلموا أنفسهم بالكذب والتعرض لعذاب الله تعالى؛ فالله لا يظلم أحدا بل يأخذ الناس أخذًا شديدًا ويعذبهم لكفرهم وظلمهم لأنفسهم. كما ذكر أن هذه القصص فيها آيات للذين يخافون الآخرة التي يجتمع فيها الناس ويُعرضون أمام الله تعالى، ولا يتكلم أحد يومئذ إلا بإذنه سبحانه. ثم يثبت هذه الآيات أقسام الناس يوم القيامة، فقسمتهم إلى فريقين: أشقياء وسعداء، ووضحا مصيرهما الأبدى، وما لهم عند الله تعالى من الجزاء. (١)

■ تفسير الآيات:

حينما يُحشر الناس يوم القيامة ويُعرضون أمام الله تعالى لن يقدر أحد على النطق بحرف إلا بإذن الله تعالى، وحينها ينقسم الناس جميعا إلى فريقين: الفريق الأول شقي ومصيره النار، والفريق الثاني سعيد ومصيره الجنة. ووضحت الآيات جزاء كل منهما باستخدام أسلوب المقابلة.

فالذين شقوا يدخلون النار ويعيشون فيها، وهم فيها زفير وشهيق. والزفير إخراج النفس، والشهيق ردها، ويستعملان أيضا لتهيق الحمار، واستُخدم هذا التعبير للدلالة على شدة كرمهم وغمهم؛ فهم يسكنون النار ويتنفسون فيها، ويصرخون بسبب سوء حالهم فيها صراخا يشبه تحيق الحمار. هؤلاء يخلدون في النار إلى الأبد، ولا سبيل لهم إلى الخروج منها أبدا إلا أن يشاء الله. أما الاستثناء الواقع في قوله تعالى "إلا ما شاء ربك"، فالراجح أن المراد به عصاة المؤمنين الذين يدخلون النار، فيعذبون فيها لفترة، ثم يخرجون منها بشفاعَةِ الشافعين ورحمة الله الواسعة، ولن يبق في النار إلا من وجب عليهم الخلود. وهذا هو ما رجحه الإمام الطبري (٢) رحمه الله؛ وذلك لأن الله توعد المشركين بالخلود في النار، وتظاهرت الأخبار بذلك عن رسول الله ﷺ. ثم ذكر الله تعالى أنه يفعل ما يريد، لن يمنعه أحد من التصرف في ملكه كيف شاء. وأما الذين سعدوا فهم يدخلون الجنة، ويخلدون فيها إلى الأبد، إلا ما شاء الله،

(١) راجع: الآيات ١٠٠ - ١٠٨ من سورة هود.

(٢) هو الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، إمام المفسرين. ولد عام ٢٢٤هـ. جمع علوما كثيرة، فكان حافظا للقرآن الكريم، عالما بمجانيه، فقيها محدثا، عالما بأحوال الصحابة والتابعين، وأخبار الناس وأيامهم. توفي عام ٣٢٠هـ. له كتب كثيرة، أهمها: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، وهو تفسير جليل، تاريخ الأمم والملوك، أحكام شرائع الإسلام، وغيرها.

يُنظر: طبقات المفسرين، للسيوطي، ص ٩٥ - ٩٧. طبقات المفسرين، للذوودي، ١١٠/٢ - ١١٨. طبقات المفسرين، للأندلسي، ص ٤٨ - ٥١.

فإذا شاء الله أبطل التخليد، وأخرجهم منها، لأنه لا يجب عليه شيء، والأمور كلها تابعة لمشيئته، لكنه لا يشاء ذلك. وفي ختام الآية وضع الله أن هذا العطاء الذي يعطيه سبحانه لأهل الجنة دائم غير منقطع، ولا نهاية له. (١)

لقد قارنت الآية بين الأشقياء والسعداء وحالهم يوم القيامة. فالأشقياء في عذاب دائم وهو عذاب جهنم لا يجد لهم عنه ولا مفر منه، فهم يعيشون في هذا العذاب إلى الأبد، لخالدتين فيه، لا سبيل لهم إلى الخروج منه أبداً. والبار لا يخرج منها إلا العصاة من المؤمنين الذين يعذبون فيها بقليل ذنوبهم ثم يُخرجون منها ويدخلون الجنة بسبب إيمانهم بالله تعالى. والأمور كله معلق بمشيئة الله وهو يفعل ما يريد.

أما السعداء - أي المؤمنين العاملين الصالحات الذي استحقوا الجنة برحمة الله تعالى، ثم بسبب أفعالهم - يدخلون الجنة دار النعيم السرمدي، ويمكثون فيها إلى الأبد، وهذا الأمر كذلك راجع إلى مشيئة الله. والله ينعم على المؤمنين السعداء، ويعطيهم عطاء غير منقطع جار إلى الأبد. فالأولون في دار غضبه وعقابه، والآخرون في دار كرامته ومستقر رحمته، وبنيهما من الفرق العظيم ما لا يحصى.

٣- قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۚ وَمِن كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۚ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاجِرَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فُضْلِهِ ۚ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. (٢)

ههنا مقارنة بين بحرين، أحدهما عذب شديد العذوبة يشربه الناس بكل سهولة، ويروون به قدامهم، والثاني مالح شديد الملوحة لا يمكن شرب مياهه. وذكرت الآية أن هذين البحرين لا يستويان، مع أن كلا منهما تخرج منه الحلي النفيسة واللحوم الطرية التي تنفع الناس جميعاً، لكن مع ذلك لا يستوي البحر العذب بالبحر المالح، بل العذب أفضل منه وأكثر فائدة.

■ سياق الآية:

تحدثت الآيات الواردة قبل هذه الآية عن عداوة الشيطان للإنسان مع التحذير منه، وذكرت عذاب الكفار وأجر المؤمنين. ثم جاءت آيات تذكر الناس ببعض مظاهر القدرة الربانية، من إرسال الرياح وإنزال الأمطار التي تحيي الأرض بعد موتها، وتخلق الإنسان من تراب ونطفة، وجعله أزواجاً، كما ورد أن العزة لله جميعاً، وهو الذي يصعد إليه الكلام الطيب الذي يرفعه العمل الصالح. وقد بين الله أيضاً أنه يعلم ما تحمل الأنثى وما تضع، وكل شيء.

(١) يُنظر: جامع البيان، للطبري، ٤٨١/١٥ - ٤٨٩. تفسير القرآن، لأبي المنظر السمعاني، تحقيق: ياسر إبراهيم وعنيد عباس، ط١، دار الوطن، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، ٤٦٠/٢ - ٤٦١. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي، ١٤٩/٣. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٣٠١/٤ - ٣٠٢. تفسير الشعراوي، ٦٨١/٢.

(٢) سورة قاطر، آية ١٢.

عنده مكتوب في كتاب، ثم وردت هذه الآية لتفني المساواة بين نوعين من البحار، أحدهما عذب والآخر مالح، وإن كانت في الاثنين فائدة^(١).

فهو كما ذكر ابن عاشور رحمه الله انتقال من الاستدلال بما في السماء والجو على تفرد الله بالإلهية إلى الاستدلال بما في الأرض من بحار وأنهار على عظيم صنع الله^(٢).

وقد ذكر الدكتور الرحلي رحمه الله للناسية بين هذه الآية والآيات التي قبلها بقوله: "بعد إبراز أدلة البعث، أورد الله تعالى الأدلة والبراهين الدالة على وحدانيته وعظيم قدرته بخلقه أشياء متحدة الجنس، لكنها مختلفة المنافع من الماء الواحد والليل والنهار والشمس والقمر، وأردفه بالرد على عدة الأضمار التي لا تملك شيئا ولا تسمع دعاء ولا تجيب تداء، وتبيرا من عباديتها يوم القيامة"^(٣).

■ تفسير الآية:

قارنت الآية بين نوعين من البحار، وهما: العذب والمالح، باستخدام أسلوب المقابلة، حيث أن بين "عذب فرات" و"ملح أجاج" ما يسمى بالمقابلة^(٤).

لقد ذكرت الآية الكريمة أنه لا يستوي البحر العذب بالبحر المالح، وهذا الاختلاف بين البحرين في أمور والاتفاق بينهما في أمور أخرى دليل على دقة صنع الله الواحد الأحد. والملح هو الشيء الذي وُصف بالملوحة بذاته لا بإلقاء الملح فيه، لأن الذي يضاف إليه الملح يُسمى مالحا، والأجاج بمعنى شديد الملوحة. والعذب ضد المالح، و"سافع شرايه" يعني أن شربه سهل لا تتركه النفس كما أنه مزيل للعطش. فلا يقاوى هذان النوعان من البحار، لأن أحدهما عذب، فمأواه شديد العذوبة سهل الشرب مزيل للظما، وهو يجري في الأنهار وفق حاجة الناس إليه في الأمصار. والآخر ملح، فمأواه شديد الملوحة، لا يمكن شربه. ومع هذا الاختلاف فإنهما يتشابهان في أمور، مثل أخذ اللحم الطري والحلوة منهما، كما أن الفلك يجري في كليهما لنفع البشر وفائدتهما لعلهم يشكرون الله وينيبون إليه. فالذي أوجد بين المتشابهين اختلافا وبين المختلفين تشابها لا شك أنه قادر مطلق مختار^(٥).

وقد ذكر بعض المفسرين أن هذه الآية تقصد بالبحرين المؤمنين والكافرين، فضربت مثلا للكافر والمؤمن بذكر البحرين، ولا مساواة بين الكافر والمؤمن كما أنه لا مساواة بين البحر المالح والعذب. فالمؤمن الذي يسير في طريق الله ويعمل الصالحات، ويطلب العزة من الله تعالى، ويتفجع العاس هو مثل البحر العذب الفرات، والكافر الذي يسير في غير طريق الله، ولا يطلب العزة من الله تعالى، هو مثل البحر المالح الأجاج. وفي كل منهما منفعة للآخرين، ولكن يفضي

(١) راجع: الآيات ٦ - ١٢ من سورة فاطر.

(٢) يُظنر: التحرير والتوير، لابن عاشور، ٢٧٩/٢٢.

(٣) التفسير الخیر، للدكتور الرحلي، ٢٤٢/٢٢.

(٤) للمصدر السابق، ٢٤١/٢٢.

(٥) يُظنر: التحرير والتوير، لابن عاشور، ٢٨٠/٢٢. التفسير المنير للرحلي، ٢٤١/٢٢ - ٢٤٣.

الفرق بينهما دائماً كالفرق بين البحرين. فالبحرين وإن اشتركا في بعض الفوائد إلا أن أحدهما أفضل من الآخر، وكذلك للمؤمن والكافر وإن اتفقا في بعض مكارم الأخلاق، كالكرم والشجاعة إلا أن المؤمن أفضل وأكثر نفعاً من الكافر لبقائه على الفطرة والدين الصحيح. (١)

وقد وافق الزمخشري رحمه الله أيضاً الرأي القائل بأن البحر العذب والمالح مثلاً للمؤمن والكافر، لكنه خالف في أن المنافع المذكورة يراد بها منافع الكافر والمؤمن، لأن الكافر في نظره لا نفع فيه أصلاً، فرأى رحمه أن صفات البحرين وما فيهما من نعم الله تعالى جاءت على سبيل الاستطراد. كما ذكر أنه يحتمل أن يكون المراد تشبيه البحرين بالمؤمن والكافر، ثم فضل البحر الأجاج على الكافر، لأنه شارك العذب في بعض المنافع، مثل أكل السمك وإخراج الحلي منه وجري الفلك فيه، ولكن الكافر خال من المنافع أصلاً. (٢)

وقد رجح الإمام الرازي الرأي الأول القائل بأن المراد في الآية البحرين في الحقيقة، فقال: "لا نفع في الكفر والكافر. والأظهر أن المراد منه ذكر دليل آخر على قدرة الله. وذلك من حيث إن البحرين يستويان في الصورة ويختلفان في الماء، فإن أحدهما عذب فرائد والآخر ملح أجاج... وعدم استوائهما دليل على كمال قدرته ونفوذ إرادته". (٣)

ويؤيد هذا الرأي أيضاً أن الآية وردت في سياق الحديث عن دلائل قدرة الله تعالى، والاستدلال بما على وحدانيته ودقة صنعه، وتشابه البحرين واختلافهما في وقت واحد من الأدلة الظاهرة على ذلك.

فقد صرحت الآية بنقي المساواة بين البحر المالح والبحر العذب، وهذا ما لا يتكره عاقل. فهما مختلفان متفاوتان وإن كانت في كل منهما منفعة وخير للناس، لأنهما مصدر الحلي النفيسة التي تلبسها النساء، وتجري الفلك في الاثنين، ويخرج من كليهما السمك الذي تلتذ به كل لحم الطير. لكن البحر العذب أكثر فائدة للبشر من البحر المالح الذي لا يمكن شرب مياهه، لأن العذب يشرب الناس منه ويربون غرضهم، فهو أفضل من المالح من هذه الناحية. وفي كل منهما دليل على دقة صنع الله تعالى وعظيم قدرته، حيث خلق شقين متشابهين في الظاهر لكن بينهما هذا الفرق الكبير في حقيقة الأمر. وبهذه المقارنة تبينت فضيلة البحر العذب على المالح لكونه أكثر فائدة، وقد اتضح بهذا أن كل ما كان أعظم نفعاً لغيره كان أفضل وأحسن في نظر الله.

(١) يُنظر: روح المعاني، للألبوسي، ٣٥٢/١١. الأساس في التفسير، لمحمّد حوى، ٤٥٧٨/٨. التفسير المنير، للزحبي، ٢٤٣/٢٢.

(٢) يُنظر: الكشف، للزمخشري، ٦٠٤/٣ - ٦٠٥. مدارك التنزيل وحقائق التأويل، للنسفي، ٨٩/٣.

(٣) مقاتيح الغيب، للرازي، ٢٢٨/٢٦، بتصرف.

المطلب الثالث:

المقارنة باستخدام أسلوب الإطناب

❖ معنى الإطناب:

الإطناب صورة من صور أداء المعاني التي يريد للتكلم أو الكاتب إيصالها إلى السامع أو القارئ، حيث يختار البليغ إحدى ثلاث صور لإيصال المعنى الذي يريد التعبير عنه. وهذه الصور هي: الإيجاز^(١) والإطناب، والمساواة^(٢).

○ تعريف الإطناب:

الإطناب يتضمن معنى الكثرة والإطالة. وهو كون الكلام زائدا عما يمكن أن يؤدي به من المعاني في معاد القاصحاء لفائدة تقصده^(٣).

○ أقسامه:

ينقسم الإطناب إلى قسمين:

(أ) الإطناب بالبسط: وذلك بتكثير الجمل وبسط المعاني، واستعمال كلام طويل يعني عنه كلام قصير دون أن تكون فيه ألفاظ زائدة.

(ب) الإطناب بالزيادة: وذلك بزيادة في الألفاظ على أصل المعنى الذي يراد بيانه لتحقيق فائدة ما^(٤).

○ طرقه:

يكون الإطناب بعدة أمور، منها:

(أ) الإيضاح بعد الإبهام.

(ب) ذكر الخاص بعد العام.

(ج) ذكر العام بعد الخاص.

(د) التكرير أو التكرار لفائدة معينة.

(هـ) التنزيل: وهو تعقيب الجملة بأخرى تشتمل على معناها.

وغير ذلك من الأمور^(٥).

(١) الإيجاز هو أداء أصل المراد بلفظ ناقص عنه واف.

يُنظر: الإيضاح في علوم البلاغة، للفتووي، ١٧٣/٣.

أي: أداء المعنى بأقل قدر ممكن من الألفاظ.

(٢) المساواة هي أن تكون المعاني بقدر الألفاظ والألفاظ بقدر المعاني، لا يزيد بعضها على بعض.

البلاغة الواضحة، لعلي الجارم ومصطفى أمين، ص ٢٤٠.

(٣) البلاغة العربية، لعبد الرحمن حبتكة، ٦٠/٢.

(٤) البلاغة العربية، لعبد الرحمن حبتكة، ٦٢/٢، ٦٤/٢.

(٥) يُنظر: الإيضاح في علوم البلاغة، للفتووي، ١٩٦/٣ - ٢٢٢. البلاغة الواضحة، لعلي الجارم ومصطفى أمين، ص ٢٥١.

○ فوائدُه:

للإطناب فوائد كثيرة، منها: التأكيد على المعنى، وتمكيكه في النفس، والتنبيه على أمر مهم، ورفع التوهم، وإزالة اللبس حول شيء ما، وتوضيح المعنى بشكل أفضل وغير ذلك. (١)

○ أمثلة على الإطناب:

للإطناب بطرقه المختلفة أمثلة كثيرة منتشرة في القرآن الكريم، منها قوله تعالى:

١- ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلُقَ أَكْمَلًا مِنْهُمْ الْخَالِدُونَ ۖ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾. (٢)

في الآية الكرمة إطناب، حيث ذكر في البداية أنه ليس لبشر الخلود في الدنيا، فكلهم سيموتون، ثم تكرر بيان أن كل نفس ذائقة الموت.

٢- ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾. (٣) ورد في الآية ذكر الخاص بعد

العام، حيث إن جبريل عليه السلام من الملائكة، ولكنه ذكر بعد ذكر الملائكة بشكل خاص. وذكر الخاص بعد العام صورة من صور الإطناب.

❖ مثال على المقارنات باستخدام الإطناب:

للإطناب بشكل عام أمثلة كثيرة في القرآن الكريم، ولكنه لم يُستخدم كثيرا في مجال المقارنات القرآنية كالأسلوب البلاغية الأخرى. ومثال المقارنة بأسلوب الإطناب:

• قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ۖ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ۖ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. (٤)

قارنت الآية بين القاعدتين عن الجهاد القادرين عليه من المؤمنين اللذين لا عذر لهم في التخلف عنه، وبين المجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم. فقد صرحت الآية بنفي المساواة بينهما، مستخدمة أسلوب الإطناب في نفي هذه المساواة وبيان فضيلة المجاهدين في سبيل الله. فذكر الله أولا أن المجاهدين والقاعدتين لا يستويان، ثم ذكر أنه فضل المجاهدين على القاعدتين درجة، ثم بين مرة أخرى أنه تعالى فضلهم على القاعدتين، وأعطاهم أجرا عظيما.

(١) للاستزادة من ذلك يمكن الرجوع إلى: البلاغة العربية، لعبد الرحمن حبيكة، ٦٥/٢ وما بعدها.

(٢) سورة الأنبياء، الآيات ٣٤ و ٣٥.

(٣) سورة القدر، آية ٤.

(٤) سورة النساء، آية ٩٥.

■ سياق الآية:

وردت الآية في سياق الحديث عن الجهاد في سبيل الله وأحكامه، حيث منع الله تعالى أولاً من قتال الذين بينهم وبين المسلمين عهد وميثاق، كما منع من قتال المعتزلين، وأباح قتال من سواهم من الكفار الذين لا يلجأون إلى السلم بل يفضلون الفتنة والقتال، ثم بيّن أحكام قتل المؤمن خطأ، وحرم قتل المؤمن عمداً، وجعل جزاءه اللعنة والغضب من الله والدخول في النار. ثم نبه إلى أمر هام، وهو التثبت من إيمان الشخص قبل قتله، إذ نهي عن قتل من ألقى السلام بحجة أنه ليس مؤمناً وإنما يريد الفر من القتل. وبعد بيان هذه الأحكام المتعلقة بالجهاد، رغب فيه ببيان فضيلة المجاهدين على القاعدتين عن الجهاد القادرين عليه، وصرح بنفي المساواة بين الفريقين.^(١)

■ سبب نزولها:

نزلت كلمة "غير أولي الضرر" في صحابي جليل من صحابة رسول الله ﷺ، فقد روى زيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ ألقى علياً: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ **﴿وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾**، فجاءه ابن أم مكتوم^(٢) وهو يُلْمُها علياً. فقال: يا رسول الله، لو أستطيع الجهاد لجاهدت - وكان رجلاً أعمى - فأنزل الله تبارك وتعالى على رسوله ﷺ وفخذه على فخذي، فَثَقُلْتُ عَلَيَّ حَتَّى حِفْظْتُ أَنْ تُرَضَّ فُجْذِي، ثم سُرِّي عنه.^(٣) فأنزل الله عز وجل: **﴿غَيْرِ أُولِي الضَّرَرِ﴾**.^(٤)

وروي في سبب نزول الآية رواية أخرى، فمن ابن عباس أنه قال: **﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرِ أُولِي الضَّرَرِ﴾** عن بدر والخارجون إلى بدر. لما نزلت غزوة بدر قال عبد الله بن جحش^(٥) وابن أم مكتوم: إنا أعميان يا

(١) راجع: الآيات ٩٠ - ٩٦ من سورة النساء.

(٢) هو الصحابي الجليل عمرو بن قيس بن زائدة بن الأصم القرشي العامري، ابن أم مكتوم الأعمى المؤذن. أسلم قديماً بمكة، وكان من المهاجرين الأولين، هاجر إلى المدينة بعد مصعب بن عمير رضي الله عنه. واستخلفه رسول الله ﷺ على المدينة عدة مرات. روى عن النبي ﷺ، وروى عنه عبد الرحمن بن أبي لعل، وأبو رزين الأسدي، وآخرون. شهد فتح القادسية واستشهد فيها. يُنظر: الإصابه لابن حجر، ٤/٤٩٤ - ٤٩٥. الاستيعاب، لابن عبد البر، ٣/١١٩٨ - ١١٩٩. أسد الغابة، لابن الأثير، ٢٥١/٤.

(٣) ملها: بضم الهمزة وكسر الميم وتشديد اللام، أي: عليها. أَنْ تُرَضَّ فُجْذِي، أي: تدفها. وسُرِّي عنه، أي: نُزِل وكُشِف عنه. يُنظر: فتح الباري، لابن حجر، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ٢٣٧٩هـ، ٢٦١١/٨. عمدة القاري، لبدر الدين العيني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤/١٣٠.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب قول الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرِ أُولِي الضَّرَرِ﴾، ص ٤٤٦٩ رقم ٢٨٣٢.

(٥) هو أبو أحمد عبد بن جحش بن رباب الأسدي، وقيل اسمه عبد الله بن جحش. والإصحاح أنه عبد بن جحش، أخو عبد الله بن جحش رضي الله عنهما. كان شاعراً، ومن السابقين الأولين، ومن أوائل المسلمين هاجروا إلى المدينة المنورة. كان ضريفاً، ومع ذلك شهد بلوا وغيرها من الغزوات. توفي بعد أخيه زبيب بنت جحش زوج رسول الله ﷺ.

رسول الله، فهل لنا رخصة؟ فنزلت: ﴿لَا يَسْقَى الْفَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِي الضَّرَرِ﴾. ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾ فهؤلاء القاعدون أولي الضرر. ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ درجات منه على القاعدين من المؤمنين غير أولي الضرر. (١)

والرواية الأولى أرجح في سبب نزول الآية، لأنها أوضح من الرواية الثانية؛ وذلك لورودها في صحيح البخاري.

■ تفسير الآية:

ذكرت الآية أن المجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم لا يستوون مع القاعدين من غير أولي الضرر، وأولو الضرر هم كما قال سيدنا ابن عباس رضي الله عنه: "قوم كانوا على عهد رسول الله ﷺ لا يغزون معه، كانت تحبسهم أوجاع وأمراض وآخرون أصحاء فكان المرضى أعذر من الأصحاء". (٢)

فالمجاهدون بأموالهم وأنفسهم أفضل عند الله تعالى من القاعدين من غير أولي الضرر. أما أولو الضرر الذين حبستهم الأوجاع والأمراض فهؤلاء ينالون أجر الجهاد في سبيل الله، ويؤجرون على نياتهم، والآية جاءت بنفي المساواة بين الاثنين، ثم فصلت ما بين الترفيع من التفاوت الذي ذكر مجملًا في قوله "لا يستوي" ببيان كيفية وكميته، وفي التفصيل بعد الإجمال تأكيد وترغيب في الجهاد، ودفع توهم فضيلة القاعد على المجاهد، لأنه قد يقوم في فترة تخلفه عن الجهاد بعبادات وأعمال صالحة. فقد صرح الله بأنه فضل المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين من غير أولي العذر درجة مع أنه وعد كليهما الحسن، وهي الجنة، ثم أكد على أنه فضل المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً. وفي الآية إطناب في قوله: ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾ وقوله: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. كما أن في قوله: "لا يستوي" أيضاً إيهام على السامع، وهو أبلغ من ذكر المنزلة التي بين القاعد والمجاهد بالتحديد، فيبقى المتأمل يفكر ويتخيل المنزلة والدرجات التي يناها المجاهد في سبيل الله. (٣)

ينظر: الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر، ٥/٧ - ٦. الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البر، ٤/٥٩٣ - ١٥٩٤. أسد الغابة، لابن الأثير، ٥/٦.

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة النساء، ص: ٦٨١، رقم ٣٠٣٢. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه من حديث ابن عباس.

(٢) أخرجه البيهقي في المعجم الكبرى، ٤١/٩، رقم ١٧٨٦٨ تحقيق: محمد عبد القادر عطاء، ط ٣، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م. وأخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، ٨٥/٣، رقم ٢٥٦٩، تحقيق: طارق عوض الله وعبد الحسيب الحسني، دار الحرمين، القاهرة، مصر.

(٣) ينظر: البحر الوعيز، لابن عطية، ٩٧/٢. البحر المحيط لأبي حيان، ٣٥/٤. غرائب القرآن ورخائب الفرقان، للنيسابوري، ٤٧٨/٢. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود، ٢٢٠/٢. التفسير المظهر، ل محمد توفيق الله، ٢٠٣/٢. التفسير المتبر، للزحيلي، ٢٢٠/٥.

والمفسرين في تفسير هذه الآية، وللمراد من التفضيل والدرجات أقوال:

- (أ) أن المفضل عليهم بقوله "درجة" هم المفضل عليهم آخرًا بقوله "أجرًا عظيمًا درجات منه"، والتفضيل الأول هو ما يحصل عليه المجاهد في الدنيا من النضر والمقيمة والسمعة الحسنة. والتفضيل الثاني هو ما لهم في الآخرة من الأجر العظيم والمتنازل العالية في الجنة.
- (ب) أن المفضل عليهم أولاً غير المفضل عليهم ثانياً؛ فللمراد أن الله تعالى فضل المجاهدين على القاعدين من أولي النضر درجة، وفضلهم على القاعدين من غير أولي النضر (المتخلفين عن الجهاد لغير عذر) أجرًا عظيمًا ودرجات من عنده. وذكر ذلك سيدنا ابن عباس أيضاً في الرواية المذكورة أعلاه.
- (ج) أنه ليس ثمة فرق بين التفضيل الأول والتفضيل الثاني، بل هما سواء، وتكرر على سبيل التوكيد. فللمراد بالدرجة الفضل والأجر الوافر. وجاءت مفردة أولاً لأنها جنس لا أفراد له، وليس للدلالة على الوحدة. لذلك أعيد ذكرها بصيغة الجمع للتأكيد.^(١)

والراجع أن الآية فضلت المجاهدين على القاعدين عن الجهاد القادرين عليه، لأن هذا ما يدل عليه ظاهر الآية. ومن كانت نيته صالحة وكان يرغب في الجهاد ولكن لا يستطيع للجهاد لعذر أو مرض يحصل على الأجر والثواب لنيته الصالحة. وذكر ذلك أبو حيان^(٢) أيضاً.^(٣) كما أن هذا الرأي يؤيده قوله ﷺ: "إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا، مَا يَمْزُجُ مَسِيرًا، وَلَا قَطْعًا، وَإِدْبَارًا، إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ"، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ؟ قَالَ: "وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ، حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ".^(٤)

(١) يُنظر: الخيزر الوجيز، لابن عطية، ٩٨/٢. البحر المحيط، لأبي حيان، ٣٧/٤ - ٣٨. غرائب القرآن ورحائب الفرقان، للنيسابوري، ٤٧٨/٢ - ٤٧٩. التحرير والتنوير، لابن عاشور، ١٧١/٥ - ١٧٢. التفسير المفهر، للزحيلي، ٢٢٢/٥.

(٢) هو أبو حيان محمد بن يوسف. أبو الدين الفرناطي الأندلسي. كان مفسراً، فقيهاً، محدثاً، مؤرخاً أدبياً. ولد عام ٦٥٤هـ. أخذ عنه أكابر عصره حيث كان بارعاً في كل العلوم. توفي عام ٧٤٥هـ. له كتب كثيرة، منها: البحر المحيط في التفسير، إتحاف الأريب بما في القرآن من الغريب، الأبيات الوافية من علم القافية، وغيرها.

يُنظر: طبقات المفسرين، للداودي، ٢٨٧/٢ - ٢٩١. طبقات المفسرين، للأدنه وي، ص ٢٧٨ - ٢٨٠.

(٣) فقال: المتنور يستوي في الأجر مع الذي خرج للجهاد لأنه لو كان قادراً لخرج.

البحر المحيط، ٣٦/٤.

وذكر ذلك محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله أيضاً، إذ قال: قوله "غير أولي النضر" يفهم من مخالفته أن من خلفه العذر إذا كانت نيته صالحة يحصل ثواب المجاهد.

أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين الشنقيطي، ط دارة الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، ٢٤٧/١.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب رقم ٨٢، ص ٧٥٣، رقم ٤٤٢٣؛ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

لقد أنكرت الآية المساواة بين المجاهد في سبيل الله بنفسه وماله وبين القاعد عن الجهاد لغير عثر مع قدرته عليه. ثم بينت عظم التفاوت بينهما، ووضعت درجات المجاهد في سبيل الله تعالى باستخدام طريقة الإيضاح بعد الإمام التي هي صورة من صور الإطناب. وأفاد هذا الأسلوب في تقرير المعنى في النفس والتأكيد على عظم درجة المجاهد. وقد وعد الله كلا من المجاهدين والقاعدين من المؤمنين المحسنين، وهي الجنة. ولكن درجات المجاهدين لا شك في أنها أعظم وأفضل عند الله من درجات القاعدين وإن كان الجميع في الجنة، إذ إن للمجاهدين درجات عظيمة ورحمة ومغفرة من عند الله تعالى. قال رسول الله ﷺ: "إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، كُلُّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ".^(١)

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب "وكان عرشه على الماء"، ص ١٢٧٧، رقم ٧٤٢٣، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

المبحث الرابع:

المقارنة باستخدام الأسلوب المباشر

• مدخل:

لقد استعمل القرآن الكريم في مقارناته البليغة أساليب متنوعة كثيرة، كما سبق أن ذكرنا. فهناك مقارنات صريحة فيها ما يدل على عقد مقارنة بين طرفين، وهناك مقارنات غير صريحة إذ ذكر فيها طرفان دون وجود ما يدل صراحة على المقارنة بينهما. وفي المقارنات الصريحة هناك أساليب متعددة، منها ما سمّيته المقارنات باستخدام الأسلوب المباشر.

ويقصد بها تلك المقارنات الواضحة التي تذكر الفرق بين الطرفين بشكل مباشر، دون إثارة سؤال أو استفهام، حيث تأتي فيها الآية لتذكر بشكل مباشر أن هناك فرقا بين هذين الأمرين المذكورين في الآية المباركة. وتدخل ضمن المقارنات المباشرة ثلاثة أساليب استخدمها القرآن الكريم بكثرة في المقارنات المنتشرة فيه، فأحيانا يصرح بغي المساواة بين طرفين بشكل مباشر، وتارة يتم بيان أن أحد الطرفين خير من الآخر، وتارة يستعمل اسم التفضيل لبيان الفرق بين شيئين.

هذه هي الأساليب الثلاثة للمقارنات التي ذكرتها تحت عنوان المقارنة باستخدام الأسلوب المباشر. وفيما يلي توضيح لكل من هذه الأساليب الثلاثة، مع ذكر الأمثلة عليها.

المطلب الأول:

نفي المساواة بين الطرفين

لقد استخدم القرآن الكريم أسلوب نفي للمساواة بين الطرفين في العديد من مقارناته، حيث أنكر المساواة بين أمور كثيرة. فقد نفى التساوي بين الأعشى والبصير، وبين الظلمات والنور، وبين البحر المالح والعذب، وبين الخبيث والطيب، إلى غير ذلك من الأمور. وقد ذكرت لهذا الأسلوب بعض الأمثلة خلال بيان الأساليب التي مضى الحديث عنها سابقا، وتلك الأمثلة التي ذكرت سابقا تدرج تحت هذا النوع أيضا وتحت الأنواع التي ذكرت فيها أيضا، لكن هناك مقارنات تختص باستخدام هذا الأسلوب.

❖ أمثلة على المقارنات باستخدام هذا الأسلوب:

إن لهذا الأسلوب أمثلة متعددة في القرآن الكريم، ومنها:

١- قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرُهُ

الْخَبِيثُ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَأُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١).

قارنت الآية بين الخبيث والطيب، حيث وضحت أن الخبيث والطيب لا يستويان أبدا، ولو كثرت الخبيث وأحببه الناس كلهم. فالخبيث يبقى خبيثا، ولا يمكنه أبدا أن يساوي الطيب الجميل، وعلى الناس أن يتقوا الله تعالى بترك الخبيثات والأخذ بالطيبات، لعلهم يفلحوا في حياتهم.

■ سياق الآية:

وردت الآية في معرض الحديث عن بعض الأحكام الشرعية، والأمور التي أحلها الله تعالى وحرمها. فورد النهي عن الحمر والميسر والأنصاب والأزلام، ثم جاء النهي عن صيد البر في حالة الإحرام مع بيان جواز صيد البحر في حالة الإحرام والإحلال. وبعد ذلك ذكرت بعض محارم الله تعالى، كالكعبة والأشهر الحرم والمهدي، كما ورد التهديد بكون الله شديدا العقاب وكونه غفورا رحيمًا، وذكر أيضا أن الرسول ليس عليه إلا البلاغ، والله عالم بالسر والعلانية. ثم بينت هذه الآية عدم المساواة بين الخبيث الذي حرمه الله عز وجل والطيب الذي أحله الله، ولو كثرت الخبيث ونشأت في المجتمع. (٢)

■ تفسير الآية:

أمرت الآية رسول الله ﷺ بالتصريح بعدم المساواة بين الطيبات والخبيثات، وبيان أنهما لا يستويان وإن كثرت الخبيث كثرة تأثر بها الناس وصاروا يتعجبون منها. فلا يستوي عند الله الخبيث والطيب من الأقوال والأفعال والأشخاص،

(١) سورة المائدة، آية ١٠٠.

(٢) راجع: الآيات ٩٠ - ١٠٠ من سورة المائدة.

لأن الطيب من ذلك كله مقبول محبوب وإن قل، والرديء مردود ممقوت ولو كثر، فالعبرة بالجودة والرداءة وليسبت بالقلة والكثرة. وقد جرت العادة بكثرة الخبيث وقلة الطيب من كل شيء، فمثلاً قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾^(١). أما الآخرون فذكر عنهم في القرآن الكريم في مواضع متعددة أنهم لا يعلمون ولا يعقلون وما إلى ذلك.^(٢)

وقد ذكرت في المراد بالخبيث والطيب عدة أقوال، وهي:

- المشركون والمؤمنون.
- الحرام الضار والحلال النافع.
- المعصية والطاعة، أو العاصي والمطيع.
- الكفر والإيمان.

والآية تشمل الخبيث والطيب من كل شيء، فلا يستوي عند الله الإيمان والكفر ولا الطاعة والمعصية، ولا أهل الجنة وأهل النار، ولا الأعمال الخبيثة والطيبة، ولا المال الحرام والحلال، ولا المؤمن والكافر ونحو ذلك. بل الخبيث مبغوض مردود والطيب محمود مقبول، ولو أعجب الناظر كثرة الخبيث وتعجب من كثرة مع خبيثه، فهو لا ينفع صاحبه شيئاً بل يضره في دينه ودنياه. لذا يجب على الإنسان أن يصير طيباً بالطاعة والإيمان، لا خبيثاً بالكفر والمعاصي. فالطيب وإن كان قليلاً فهو خير من الخبيث وإن استكثر قوة، لأن العبرة بالجودة والرداءة لا بالقلة والكثرة، لذا فالقليل المحمود خير من الكثير المذموم. ثم جاء الحديث على التقوى، تنبيهاً إلى أنها هي التي تعين على الأخذ بالطيبات واجتناب الخبيثات، وبالتالي الوصول إلى الفلاح، فقل اتقوا الله يا ذوي العقول السليمة، واتركوا الحرام واكتفوا بالحلال، لتلكم تهلمون في الدنيا والآخرة.^(٣)

إن كلمة "الخبيث" في الآية عامة تشمل كل ما خالف شريح الله تعالى من الأخلاق القبيحة والكفر والمعاصي والمال والطعام الحرام وغير ذلك، وكذلك كلمة "الطيب" يدخل فيها كل ما أمر به الله من الإيمان والأخلاق الحسنة والطاعات والمال الحلال والطعام الحلال ونحو ذلك. وهذان الاثنان لا يستويان أبداً في نظر الله، وإن كثر الخبيث

(١) سورة نبيأ، آية ١٣.

(٢) يُنظر: البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، لأبي العباس ابن عبيد، تحقيق: أحمد القرشي، طبعة حسن عباس زكي، القاهرة، مصر، ١٤١٩هـ، ١/٢.

(٣) يُنظر: تفسير الراغب الأصفهاني، تحقيق: هادي جنت محمد زاهد، ط١، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، مكة، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، ٤٥٩/٥ - ٤٦٠. معالم التنزيل في تفسير القرآن، لأبي محمد الحسين البغوي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ، ٩١/٢. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ١٨٣/٢. بيان القرآن للتهانوي، إداره تليفات اخبرية، لبنان، ١٤٢٩هـ، ص ٥١٥. تفسير الكرمي الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبد الرحمن ناصر السعدي، تحقيق: عبد الرحمن معل، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، ص ٢٤٥.

في الدنيا وانتشر في أرجائه وحاض فيه الناس، لأن العبرة عند الله ليس بالكثرة والقلّة وإنما بالجودة والرداءة. والخبيث يبقى خبيثاً مبعوضاً عند الله وإن وقع فيه الجميع، فالواجب عدم الاغترار بكثرته وانتشاره وجعل ذلك حجة للخوض فيه. بل إن على الإنسان اتباع الطيب المحبوب عند الله من القول والعمل والاعتقاد، لأنه هو المقبول عند الله وإن قل، وبدا الشخص غريباً بالتمسك بالطيب، فالله لا يقبل إلا الطيب، والطيب هو الذي يؤدي إلى رضا الله والجنة. وأما الخبيث فيجمعه الله مع بعضه البعض ويركبه جميعاً فيجعلهم في جهنم، وإن كان محبوباً لدى الناس منتظراً في العالم كله.

٢- قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ أَحْسَنَ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝﴾ (١).

في الآية الكرعة مقارنة بين الصحابة الذين آمنوا وأنفقوا وجاهدوا في سبيل الله قبل فتح مكة، والذين أسلموا وقتلوا وأنفقوا في سبيل الله بعد فتحها. فبيّنت الآية فضيلة السابقين الأولين من صحابة رسول الله ﷺ، وذكرت أنهم ليسوا مثل الذين جاهدوا وأنفقوا بعد فتح مكة، تأفياً للمساواة بينهما، مُصَرِّحَةً بأن السابقين أعظم درجة عند الله من فخرهم، وإن كان الكل موعده الجنة.

■ سياق الآية:

بدأت سورة الحديد بالتسبيح لله تعالى، وبيان أن له ملك السماوات والأرض، وأنه يعلم كل شيء، ثم ذكرت بعض مظاهر قدرته، مثل خلق السماوات والأرض، وملكه لها، وإيلاج الليل في النهار والنهار في الليل، وعلمه بحفايا الصدور. ثم أمر الله بالإيمان به سبحانه وتعالى، والإنفاق في سبيله، ووبخ الناس على عدم الإيمان بالله مع وجود الرسول الذي يدعوهم إلى الإيمان بين أظهرهم، وذكر أنه ينزل على عبده آيات واضحة للإخراج من الظلمات إلى النور، ثم لامت هذه الآية الناس على عدم الإنفاق في سبيل الله الذي له ميراث السماوات والأرض، وذكرت عدم المساواة بين الذي أنفق وجاهد قبل الفتح والذي أنفق وجاهد بعده. (٢)

■ تفسير الآية:

نفى الله تعالى التسوية بين فريقين من الصحابة في الفضيلة والأجر والثواب، ونفى التسوية كتابة عن تفضيل أحد الجانبين وتقصيص الجانب الآخر. فالصحابة الذين أنفقوا وقتلوا في سبيل الله قبل الفتح أعظم درجة عند الله وتقرباً

(١) سورة الحديد، آية ١٠.

(٢) راجع: الآيات ١ - ١٠ من سورة الحديد.

منه وأكثر ثواباً من الذين أنفقوا وقاتلوا بعده. والمراد بالفتح فتح مكة، لأنه صار علماً بالنسبة لفتح مكة، وهذا هو قول جمهور المفسرين.^(١)

وسبب تفضيل المنفقين والمجاهدين قبل الفتح على المنفقين والمجاهدين بعد الفتح هو أنهم أنفقوا وجاهدوا في زمن ضعف المسلمين وقتلتهم وحاجتهم إلى المال، وكثرة أهل الكفر وقوتهم؛ فكان الإنفاق والجهاد قبل الفتح أشق على نفوس المسلمين لقلتهم وضعفهم. فهم فعلوا ذلك عند كمال الحاجة إلى النصرة بالنفس والمال لقلة المسلمين وكثرة عدوهم، وعدم وجود ما ترخّب فيه النفوس مثل كثرة الغنائم والمال، فكان القتال والإنفاق حينئذ أشد على النفس، لذا كان القائم به أقوى يقيناً بما عند الله من الأجر والثواب. ولما فتحت مكة ودخلت مسائر قريش والعرب في الإسلام، كثّر المسلمون وزاد الخير، فقلت الحاجة إلى القتال والإنفاق. فبيّنت الآية تفاوت درجات المنفقين حسب اختلاف أحوالهم في الإنفاق في سبيل الله، بعد بيان أن لهم جميعاً أجراً كبيراً على الإطلاق لبحثهم على الأفضل. وذكر القتال مع الإنفاق، لبيان أنه من أهم موارد الإنفاق، وهو من أفضل العبادات. واستخدمت اسم الإشارة "أولئك" للتعظيم والتنويه، ولبيان أنهم جددون بهذا الفضل. وقد وعد الله الجميع الحسن، وهو لقب قرآني يدل على خيرات الآخرة، والمراد به الجنة. فالفضل ثابت للذين أسلموا وجاهدوا بعد فتح مكة أيضاً، لأن الله وعدهم الجنة. ثم ختم الآية ببيان أن الله خير بأفعال الجميع، وسيجازيهم عليها قريباً.^(٢)

قال الشيخ ثناء الله الباقى بنى^(٣): "تدل الآية بمنطوقها على أفضلية السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار على من آمن بعد الفتح وقاتل حينئذ. ومفهومها وسياقها تدل على أفضلية الصديق على سائر الصحابة، وأفضلية الصحابة على سائر الناس. فإن مدار الفضل على السبق في الإسلام والإنفاق والجهاد، وأبو بكر رضي الله عنه هو أول من أسلم وأنفق في سبيل الله. ولا يحل الظن في أحد منهم، ولا يد من حل مشاجرتهم على محامل حسنة وأغراض صحيحة وخطأ في الاجتهاد."^(٤)

لقد ذكرت الآية الكريمة أن الصحابة متفاوتون فيما بينهم في الفضل والثواب، وبيّنت أن بعضهم أفضل من بعض. فالسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار لهم درجة عظيمة وفضل كبير عند الله تعالى، لأنهم أنفقوا في سبيل الله

(١) ينظر: التفسير المظهر، محمد ثناء الله، ١٩٠/٩. التحرير والتنوير، لابن عاشور، ٣٧٤/٢٧ - ٣٧٥.

(٢) ينظر: روح المعاني، للألبوسي، ١٤/١٧٢. التحرير والتنوير، لابن عاشور، ٣٧٤/٢٧ - ٣٧٦. التفسير المنير، للرحيلي، ٢٧/٢٩٦ - ٣٠٤.

(٣) هو العالم الفقيه المفسر محمد ثناء الله الباقى بنى القشبندي الحنفي الهندي، من علماء الهند الراجزين. درس على يد الشيخ ولي الله الدهلوي، ولزم الشيخ جان جانان العلوي الدهلوي واستفاد منه. ألّف بيهقي الوقت لبحره في الفقه والحديث. توفي عام ١٢٢٥ هـ. من كتبه: التفسير المظهر، السيف المسلول، تذكرة الموتى والقبور، وغيرها.

(٤) ينظر: نوه الخواطر، للمصنّف، ٩٤٣/٧. معجم المؤلفين، لعمر رضا كجالة، ١٤٤/٩. معجم المفسرين، لعادل نويس، ٥٠٧/٢. التفسير المظهر، لثناء الله، ١٩١/٩ - ١٩٢.

وجاهدوا قبل فتح مكة، حينما كانت أوضاع المسلمين صعبة عسيرة. وهؤلاء كلهم، وخصوصاً أبو بكر الصديق رضي الله عنه من بينهم، له فضل وشرف عظيم، لأنه أول من أسلم، وأكثر من أنفق ماله في سبيل الله منذ بداية الدعوة الإسلامية؛ فهو أولى الناس بهذه الفضيلة والشرف، ولا يفضل عليه أحد من الصحابة. ثم تأتي بعده درجة تلتحقهم في سبيل الله قبل فتح مكة على تفاوت فيما بينهم أيضاً كما تعرف ذلك من السنة النبوية، فلهم مكانة عظيمة ومنزلة رفيعة عند الله تعالى. وهؤلاء لا يساويون الصحابة الذين أسلموا بعد فتح مكة وجاهدوا وأنفقوا في سبيل الله، بعد أن تحسنت أوضاع المسلمين. لكن هذا لا يعني أبداً الانتقاص من شأنهم، لأن الجميع وعده الله الحسنى أي: الجنة، مع اختلاف الدرجات حسب الأعمال. وهؤلاء أيضاً أصحاب فضل وشرف؛ فلا يجوز لنا أبداً أن ننسى الأدب مع أحدهم، والتجرد على الحكم عليهم على ما فعلوا، فهم فعلوا ما فعلوا بنية صالحة ولهم أجرهم عند الله. وكلهم عدول، وقد رضي الله عنهم ورضوا عنه، وجزاؤهم الجنة. ولا يمكن لأحد بعدهم أن يصل إلى درجتهم في الفضل والشرف.

قال رسول الله ﷺ: "لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا أَذْرَكَ مَدَّ أَيْدِيهِمْ، وَلَا نَصِيفَهُ".^(١)

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب تحريم نسب الصحابة رضي الله عنهم، ص ١١٣، حديث رقم ٦٤٨٧، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه البخاري في صحيحه بنحوه، كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ "لو كنت متخذاً خليلاً"، ص ٦١٧، رقم ٣٦٧٣، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

المطلب الثاني:

بيان خيرية أحد الطرفين

إن من المقارنات المباشرة أيضا ما قارن فيه القرآن الكريم بين بعض الأمور، وبين بصراحة أن أحد الطرفين خير من الطرف الآخر، ولم يستخدم في ذلك أسلوب استفهام أو توجيه سؤال أو ضرب مثل، بل وضح بصورة مباشرة أن هذا خير من ذلك.

❖ أمثلة على المقارنات باستخدام هذا الأسلوب:

هذا الأسلوب للمقارنات له أمثلة كثيرة جدا في القرآن الكريم منتشرة في سورة وآياته، ومن هذه الأمثلة:

١- قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَأَمَنَ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۖ﴾ (١)

هذه الآية تقارن بين المشرك والمؤمن، وبين المشركة والمؤمنة، إذ بدأت الآية الكريمة بالنهي عن نكاح المشركين والمشركات، ثم وضحت أن المؤمنة وإن كانت أمة خير من المشركة الحرة وإن أعجب الإنسان حسناتها وجمالها، كما بينت أن المؤمن، وإن كان عبدا، خير من المشرك الحر، ولو أعجب الإنسان ماله وجماله وحاله. ثم جاء التوضيح للزهد لهذه الخيرية ببيان أن المشركين والمشركات يدعون إلى نار جهنم، وصحبتهن وسيلة إلى دخول النار، والله يريد لعباده المغفرة من الذنوب والجنّة، وهو يدعوهم إليها.

■ سياق الآية:

لقد وردت الآية الكريمة في سياق بيان بعض الأحكام الشرعية التي استفتى فيها المؤمنون رسول الله ﷺ، فنزلت الأجوبة القرآنية عن هذه الأسئلة. فقد ورد الحكم بالإنفاق والقتال، ثم جاء بيان أحكام الأشهر الحرم، والتصريح بأن الفتنة أكبر من القتل، ثم ورد ذكر الخمر والميسر اللذين فيهما إثم كبير ومنافع للناس، ثم نزل الحكم بجواز مخالطة النيامي إجابة عن سؤال وجه حولهم. وبعد ذلك جاءت هذه الآية التي تمنع نكاح المشركين والمشركات، وتوضح أن المؤمن والمؤمنة، وإن كانا من الرقيق، خير من المشركين الأشهرار ذوي المال والجاه. (٢)

(١) البقرة، ٢٢١.

(٢) راجع: الآيات ٢١٥ - ٢٢١ من سورة البقرة.

■ تفسير الآية:

بدأت الآية الكريمة بالنهي عن تكاح المشركات، فقالت: لا تزوجوا المشركات حتى يؤمن بالله وبالنبي ﷺ، والمشرك هو الذي ليس له كتاب ودين سماوي. ثم ذكر سبب هذا النهي الذي بدأ بلام الابتداء الشبهة بلام القسم للمبالغة في الزجر، فقيل إن الأمة المؤمنة بالله ورسوله ﷺ، وإن كانت رقيقة ليس معها مال ولا جاه، أفضل بحسب الدين والدنيا من مشركة خرة ذات أصل كريم، وإن أعجبكم بسبب الجمال والحسن والمال، وذلك لأن الإيمان يكمل الدين والدنيا معاً، والمال والجاه يكملان الدنيا فقط. ورعاية الدين وما يلحق به من دنيا أولى من رعاية الدنيا وإهمال الدين. ثم قال: ولا تزوجوا المشركين من نساءكم للمؤمنات حتى يؤمنوا بالله ورسوله، والعبد المؤمن بالله ورسوله مع ما فيه من ذل ومهانة، خير من مشرك حر مع ما له من عز للملكية، وإن أعجبكم في المال والحسن والنسب والشرف وغير ذلك من أمور الدنيا. ثم جاءت علة هذا النهي، وهو أن المشركين يدعون إلى الشرك بالله وإلى العمل بكل ما يدخل النار، لأنهم ليس لهم كتاب ولا دين سماوي يرشدهم إلى الخير والصواب. فتبى عن صحبتهم ومعاشرتهم، لأنها توجب المحبة والألفة والقابل بهم، وبالتالي تنتقل من عندهم الأفكار الضالة والعقائد الباطلة والعادات الفاسدة، فيقع فيها الإنسان المسلم فصحة هذه الأمور إلى النار، كما أن ذلك يؤدي إلى تربية الأطفال وتشبههم على الفساد والضلال. وهذه الأمور كلها تعتبر دعوة إلى النار، وإن لم يدع المشرك إلى النار وإلى دينه بالفاظه وعباراته. (١)

أولئك المشركين والمشركات يدعون إلى الكفر للوذي إلى النار، فلا تجوز موالاتهم وإقامة العلاقات الأسرية معهم، والله بمن بالهداية وبين الآيات، ويحض على الطاعات التي تدعو إلى الجنة. وذكر البيضاوي (٢) رحمه الله أن المراد بقوله: "والله يدعو أولياء الله. أي: أن أولياء الله المؤمنين يدعون إلى الاعتقاد الصحيح والعمل الصالح للوجهين إلى الجنة. والله هو الموفق يوفق الناس للهداية، فيسر طريقها للذين يريدون سلوك طريق الهداية، وبين آياته للناس لكي يتذكروا ويتعظوا، ويسلكوا طريق الخير ويتألفوا الهوى. (٣)

(١) يُنظر: المحرر الوجيز، لابن عطية، ٢٩٧/١. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود العمادي، ٢٢١/١. التفسير المنير، للزحبي، ٢٩١/٢ - ٢٩٢.

(٢) هو عبد الله بن عمر ناصر الدين البيضاوي الشافعي، كان إماماً زاهداً متعبداً. علماً بعلوم كثيرة منها التفسير والفقه والحديث والمنطق واللغة العربية. وفي القضاء في شيراز. توفي عام ٦٨٥ هـ. من كتبه: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، المحتاج في الأصول، الغاية القصوى، وغيرها.

(٣) يُنظر: طبقات المفسرين، للداودي، ٢٤٨/١ - ٢٤٩. طبقات المفسرين، للأدنه وي، ص ٢٥٤ - ٢٥٥.

(٤) يُنظر: المحرر الوجيز، لابن عطية، ٢٩٧/١. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي، ١٣٩/١.

فالْمُؤْمِنَةُ وَالْمُؤْمِنُ خَيْرٌ مِنَ الْمُشْرِكَةِ وَالْمُشْرِكِ فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ وَإِنْ أَصْغَبَ الْجَمِيعُ. وَقَدْ ذَكَرْتُ الْآيَةَ أَنَّ الْأُمَّةَ الْمُؤْمِنَةَ وَالْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ خَيْرٌ مِنَ الْمُشْرِكِ وَالْمُشْرِكَةِ الْخَرِينِ، فَإِذَا كَانَ الْعَبْدُ وَالْأُمَّةُ بِسَبَبِ إِيْمَانِهِمَا خَيْرٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ الْأَحْرَارِ، فَكَيْفَ بِالْأَحْرَارِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ؟!

إِنَّ الْعَبْدَ وَالْأُمَّةَ مَعَ مَا بَيْنَهُمَا مِنْ ذُلِّ الْعِبَادَةِ وَقِلَّةِ لِمَالٍ وَعَدَمِ الْنَسَبِ الشَّرِيفِ تَفْضُلُ لِلْمُشْرِكِ بِاللَّهِ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ وَجُودِ هَذِهِ الْأُمُورِ فِيهِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ يَدْعُونَ إِلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَالشِّرْكِ بِهِ، وَمَعَاشَرَتِهِمْ وَمَصَاحِبَتِهِمْ تُوْدِي بِالْمُؤْمِنِ إِلَى الرَّفُوعِ فِي الشِّرْكِ وَالْمَعَاصِي وَالْعَقَائِدِ الْبَاطِلَةِ، وَبِالتَّالِيِ الدَّخُولِ فِي النَّارِ. أَمَّا الْمُؤْمِنَتَيْنِ فَهِنَّ يَدْعُونَ إِلَى دِينِ اللَّهِ تَعَالَى وَطَاعَتِهِ، وَبِالتَّالِيِ الْحَصُولِ عَلَى الْمَغْفِرَةِ مِنَ اللَّهِ وَالْجَنَّةِ، وَمَصَاحِبَتِهِمْ تَسَاعِدُ الْمُؤْمِنَ عَلَى سُلُوكِ طَرِيقِ الْإِيْمَانِ وَالْمُهْدَى، وَالْمُسَابَقَةِ فِي الْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَكُلُّ ذَلِكَ يُؤْدِي إِلَى حَصُولِ الْمَطْلُوبِ الْأَسْمَى. وَاللَّهُ سَبِّحَانَهُ يَرِيدُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ يَسْلُكُوا هَذَا الطَّرِيقَ، لِيَصِلُوا إِلَى غَايَتِهِمُ الْحَقِيقِيَّةِ الَّتِي هِيَ نِزْلُ رِضْوَانِ اللَّهِ تَعَالَى وَالْجَنَّةِ. فَمَنْ يَدْعُو إِلَى اللَّهِ تَعَالَى خَيْرٌ وَأَفْضَلُ عِنْدَ اللَّهِ مِمَّنْ يَدْعُو إِلَى مَا سِوَاهُ، وَإِنْ مَلَكَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا.

٢- قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (١).

هَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا مَقَارَنَةٌ بَيْنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْحَيَاةِ الْآخِرَةِ بَيِّنَاتٌ أَنَّ الْآخِرَةَ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا، وَحَيَاتُهَا هِيَ الْأَصْلِيَّةُ الْبَاقِيَّةُ، أَمَّا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَهِيَ فَانِيَةٌ زَائِلَةٌ، وَلَكِنَّ النَّاسَ يُفْضِلُونَهَا عَلَى مَا هِيَ خَيْرٌ مِنْهَا. فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَهْتَمُّوا بِالْحَيَاةِ الْأَصْلِيَّةِ الْبَاقِيَّةِ، فَيَرْجِعُوا الْبَاقِيَّ عَلَى الْفَانِي، وَالْخَيْرَ عَلَى الشَّرِّ.

■ سِيَاقُ الْآيَتَيْنِ:

بَدَأَتْ سُورَةُ الْأَعْلَى بِالتَّسْبِيحِ لِلَّهِ تَعَالَى وَذَكَرَ بَعْضُ مَظَاهِرِ نِعَمِهِ عَلَى الْبَشَرِ مِثْلَ الْخَلْقِ وَالتَّسْوِيَةِ وَالْمُهْدِيَّةِ، وَإِخْرَاجِ الْمَرْغُوبِ وَغَيْرِهَا. ثُمَّ طَمَأَنَ اللَّهُ رَسُولَهُ ﷺ بِأَنَّهُ لَنْ يَنْسِيَ شَيْئًا مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ، وَأَمَرَهُ بِتَذْكَورِ النَّاسِ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، مُوضِحًا أَنَّ التَّذْكَورَ تَفْعٌ الَّذِي يَخْشَى اللَّهَ تَعَالَى، بَيْنَمَا الْأَشْقَى الَّذِي لَا يَخَافُ اللَّهَ فَهُوَ يَتَجَنَّبُ التَّذْكَورَ وَلَا يَنْتَفِعُ بِهِ، وَيَدْخُلُ النَّارَ. ثُمَّ جَاءَ ذِكْرُ الْمَقْلُوحِ مَعَ بَيَانِ صِفَاتِهِ، حَيْثُ إِنَّهُ يَتَزَكَّى وَيُذَكِّرُ اللَّهَ تَعَالَى وَيُصَلِّي. وَبَعْدَ ذَلِكَ جَاءَتْ هَذِهِ الْآيَةُ تُلَوِّمُ النَّاسَ عَلَى إِثَارَتِهِمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَتَقْدِيمَتِهَا عَلَى الْآخِرَةِ الَّتِي هِيَ خَيْرٌ مِنْهَا وَأَبْقَى. (٢)

■ تَفْسِيرُ الْآيَتَيْنِ:

وَجِهَتِ الْآيَتَانِ الْعِتَابَ إِلَى النَّاسِ عَلَى إِثَارَتِهِمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، وَالْإِثَارَ اخْتِيَارَ شَيْءٍ مِنْ بَيْنِ أُمُورٍ مُتَعَدِّدَةٍ. فَقِيلَ: بَلْ أَنْتُمْ تُؤْثِرُونَ مَنَافِعَ الدُّنْيَا أَوْ تَقْدِمُونَهَا عَلَى لَذَاتِ الْآخِرَةِ وَمَنَافِعِهَا، وَتَفْضِلُونَهَا عَلَى مَا فِيهِ نَفْعُكُمْ وَصَلَاحُكُمْ، إِذْ تَخْتَارُونَ لَذَاتِ الدُّنْيَا الْفَانِيَّةِ وَتُظْلِمُونَ كَثَرَتَهَا، وَتُوجِّهُونَ كَافَّةَ اِهْتِمَامِكُمْ وَعِنَايَتِكُمْ نَحْوَهَا، وَتَتْرَكُونَ الْآخِرَةَ، مَعَ أَنَّهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا، إِذْ إِنَّ نَعِيمَهَا وَثَوَابَ اللَّهِ فِيهَا أَفْضَلُ وَأَدْوَمُ مِنَ الدُّنْيَا، لِأَنَّهُ نَعِيمٌ أَبَدِيٌّ لَا انْقِطَاعَ لَهُ، وَهُوَ خَالِفٌ

(١) سُورَةُ الْأَعْلَى، الْآيَاتُ ١٦ وَ ١٧.

(٢) رَاجِعْ: الْآيَاتُ ١ - ١٧ مِنْ سُورَةِ الْأَعْلَى.

عن كل ما يكدره، وحال من العيوب التي توجد في نعيم الدنيا ولذاتها، مثل خوف المرض والموت والفقر والذل والهوان والزوال ونحو ذلك. فكيف يمكن لعامل أن يفضل الغايي ذا العيوب على الباقي الخالي من هذه العيوب، ويهتم بما يزول عنه، ويترك الاهتمام بدار البقاء والنعيم السرمدي الذي لا ينقطع، وأن يختار العقلاء الدنيا ولا يفعلون ما يسعدهم في الآخرة. وقد عطف الخير على الإنشاء في قوله "والآخرة خير وأبقى" لزيادة الترهيب والتأكيد على أنهم في إعراضهم عن النظر في دلائل حياة آخرة قد أعرضوا عما هو خير وأبقى. والمراد بإثارة الحياة الدنيا الرضا والاطمئنان بها، والإعراض عن الآخرة بالكلفة، أو ترجيح جانب الدنيا على الآخرة في السعي وترتيب المبادئ. (١)

وليس المراد بإثارة الحياة الدنيا الكفر بالآخرة ونسيانها بالكلية، لأن ذلك يختلف باختلاف الناس، فالكافر يؤثر الحياة الدنيا إثاراً كثر حيث يرى أنه ليست هناك دار آخرة، والدنيا هي الأصلية وليست بعدها حياة أخرى. ولما المؤمن فهو يؤثرها إثاراً معصية وغلبة نفس إلا من عصمه الله من ذلك. وسبب الإثارة حب العاجل والجهل ببقاء الآخرة. (٢)

وهناك أسباب لإثارة الحياة الدنيا على الآخرة، فقد روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قرأ هذه الآية ﴿يَهْدِي اللَّهُ الْبَالِغِينَ﴾ (٣)، فقال: هل تدري بأي شيء ابتدأ الحياة الدنيا؟ لأي شيء آثر بالحياة الدنيا؟ غلبت لنا الدنيا، وأوتينا لذتها، وبهجتها، وغلبت عنا الآخرة وزويت عنا، فأحببتنا العاجل وتركنا الآجل. (٤)

فمن أسباب تفضيل الناس الحياة الدنيا وترجيحها على الآخرة أن الدنيا واضحة بارزة أمام أعين الناس، وأوتي الناس لذتها وزينتها، أما الآخرة فهي غائبة عن الأنظار، لذا لا يهتم بها الناس كثيراً. وقد ذكر الشنقيطي (٥) أيضاً بعض الأسباب الأخرى لإثارة الناس للدنيا فقال: "إن من أسباب إثارة الدنيا على الآخرة زينتها وزخرفتها في أعينهم

(١) يُنظر: بحر العلوم، لسمرقندي، ٥٧٢/٢. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٣٧٤/٨. الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي المالكي، ٢٣/٢٠ - ٢٤. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود، ١٤٦/٩ - ١٤٧. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي، ٣٠٦/٥. الصبحر والتنوير، لابن عاشور، ٢٨٩/٣٠ - ٢٩٠. التفسير المنير، للوجيهي، ١٩٨/٣٠.

(٢) يُنظر: المحرر الوجيز، لابن عطية، ٤٧٠/٥.

(٣) سورة الأنعام، ١٦.

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ٢٣٤/٩، رقم ٩١٤٧، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، ط ٢، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، مصر.

(٥) هو عبد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، مفسر مدرّس من علماء شنقيط في موريتانيا. ولد عام ١٣٢٥ هـ في شنقيط، وفيها تعلم. دّرس في المدينة للنورة والرياض. توفي بمكة عام ١٢٩٣ هـ. من كتبه: أضواء المياني في إيضاح القرآن بالقرآن، آداب البحث والمناظرة، دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب، وغيرها.

يُنظر: معجم المفسرين، لعادل توبهض، ٤٩٦/٣. الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير والإقراء والنحو واللغة، لمجموعة من المؤلفين، ٢٥٣٣/٣. الأعلام، للزركلي، ٤٥/٦.

بالمال والبدن والخيال والأثام. وقد ذكر ذلك لا للإعجاب فحسب، بل فيه ما يسمى لازم الفائدة، وهو قم من كان هذا حاله، فوجب البحث عن علاج لهذه الحالة. فقبسوة القلب وطول الأمد والتسويق هي العوامل الأساسية للخلل وإثارة الدنيا. والخشية والذكر هي العوامل الأساسية لتذكر الآخرة والاستعداد لها^(١).

إن الآخرة خير في نظر الله من الدنيا، وهي في الواقع كذلك، بل يصح القول بأنه لا مقارنة بين الدنيا والآخرة، لأن الآخرة خير من كل الجوانب والاعتبارات، فهي الباقية والدنيا قاتية متاعها زائل وهو متاع الغرور. وأيضاً فإن الآخرة تشمل النعيم الذي لا تكدره الشوائب، وليس فيها موت ولا حزن ولا فراق أحبة، بل إن فيها الخلود في السعادة، والسرور إلى الأبد دون وجود ما يفسد هذا السرور وهذه السعادة. أما الدنيا فهي يومان: يوم لك ويوم عليك، ولا يمكن أن يكون فيها سرور دون حزن، وسعادة دون شقاء، ولا عكس ذلك.

قال رسول الله ﷺ: "مَوْضِعُ سَوَاطِئِ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا"^(٢).

(١) أصول البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي، ٨/ ٥٠٥ - ٥٠٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأهلها مخلوقة، ص ٥٤٢، رقم ٣٢٥٠، من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه.

المطلب الثالث:

استخدام صيغة "أفعل" التفضيل

❖ اسم التفضيل:

اسم التفضيل هو كل وصف على وزن "أفعل" يدل على أن الثين اشتركا في صفة وزاد أحدهما على الآخر في تلك الصفة.

وهناك أمور ينبغي توفرها في اسم التفضيل:

- (أ) أن يكون وصفاً، أي: ما دل على معنى وصاحبه.
 - (ب) أن يكون على وزن "أفعل"، بحيث يصاغ من الفعل على هذا الوزن.
 - (ج) أن يدل على أن شيئين اشتركا في صفة، وزاد أحدهما على الآخر.
- فهو اسم مشتق على وزن "أفعل" يدل على مشاركة اثنين في معنى ما، وزيادة أحدهما على الآخر في هذا المعنى.

■ أركان التفضيل:

١. صيغة "أفعل"، وهي اسم مشتق.
٢. شيان يشتركان في معنى خاص.
٣. زيادة أحدهما على الآخر في هذا المعنى الخاص. والذي زاد يسمى المفضل، والآخر يسمى المفضل عليه.^(١)

إن هناك مقارنات صريحة مباشرة استخدم فيها القرآن الكريم اسم التفضيل، أو صيغة "أفعل" التفضيل، لبيان الفرق بين طرفين أو بين شيئين، وتوضيح زيادة أحدهما على الآخر في صفة من الصفات.

❖ أمثلة على المقارنات باستخدام اسم التفضيل:

لقد كثرت الأمثلة على هذه الصيغة في القرآن الكريم، فهي منتشرة بكثرة في ثنايا سور القرآن الكريم وآياته، ومن الأمثلة على هذه المقارنات:

- ١- قال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ ۖ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾.^(٢)

(١) يُنظر: النحر المصفي، محمد عبيد، مكتبة الشباب، ص ٦٧٧. النجوى الوافي، لعبد حسن، ط ١، دار المعارف، ٣/٣٩٥.

(٢) سورة البقرة، آية ٢١٧.

قارنت الآية المباركة بين القتال في الشهر الحرام وبين الصد عن سبيل الله والكفر به وحصد الناس عن المسجد الحرام وإخراج أهله منه. فبيّنت أن كليهما من كبار الذنوب، لكن صد الناس عن سبيل الله وعن المسجد الحرام، والكفر بالله أكبر عند الله من استحلال حرمة الشهر الحرام، كما وضحت أن فتنة الناس عن دينهم أكبر إثماً عند الله تعالى من قتلهم، لأن ذلك يؤدي إلى دخولهم في النار.

■ سياق الآية:

وردت الآية في سياق ذكر بعض أسئلة المسلمين التي وجهوها إلى رسول الله ﷺ، والأجوبة التي نزلت عنها من عند الله. فتتل الجواب عن سؤالهم عن النفقة موضحاً أن خير أنواع النفقة تكون للوالدين والأقربين واليتامى والمساكين، كما ورد ذكر فرضية القتال على المسلمين مع أنه مكروه لهم، ولكن قد يكره المسلمون شيئاً فيه خير لهم، وقد يحبوا شيئاً فيه شر لهم. ثم جاء هذا السؤال عن القتال في الشهر الحرام، والرد عليه ببيان أنه من كبار الذنوب، ولكن الكفر بالله والصد عن سبيله أعظم إثماً عند الله تعالى من ذلك. (١)

■ سبب النزول:

عن جندب بن عبد الله (٢) أن رسول الله ﷺ بعث رهطاً، وبعث عليهم أبا عبيدة بن الجراح، فلما أخذ ينطلق بكى صباة إلى رسول الله ﷺ، فبعث رجلاً مكانه يقال له عبد الله بن جحش (٣)، وكتب له كتاباً، وأمره أن لا يكره أحداً من أصحابه على السير معه. فلما قرأ الكتاب استرجع، وقال: سمع وطاعة - يعني لله ورسوله - خيروهم الخير، وقرأ عليهم الكتاب، فرجع رجلاً، ومضى بقيتهم، فلقوا ابن الحضرمي، فقتلوه ولم يدرك ذلك اليوم من وجب أو من جمادى، فقال المشركون للمسلمين: فعلتم كذا وكذا في الشهر الحرام، فأتوا رسول الله ﷺ فحدثوه الحديث.

(١) راجع: الآيات ٢١٥ - ٢١٧ من سورة البقرة.

(٢) هو الضحاحي الجليل أبو عبد الله جندب بن عبد الله بن سفيان البجلي الطلفي. سكن في الكوفة ثم انتقل إلى البصرة مع مصعب بن الزبير. روى عن أبي بن كعب وحذيفة وغيرهما. وروى عنه الحسن والأمنود بن قيس وغيرهما.

ينظر: الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر، ٦١٢/١ - ٦١٤، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البر، ٢٥٦/١ - ٢٥٧. أسد الغابة، لابن الأثير، ٥٦٦/١.

(٣) هو أبو محمد عبد الله بن جحش بن رباب الأسدي، ابن أئمة عمه رسول الله ﷺ. أسلم قبل دخول رسول الله ﷺ إلى دار الأرقم، وهاجر المحجرين، وهو أول أمير أمره رسول الله ﷺ إذ أمره على سرية، وغنيمته أول غنيمة غنمها المسلمون، شهد بدر وأحداً واستشهد في غزوة أحد، وقُف مع حزة في قبر واحد، رضي الله عنهما.

ينظر: الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر، ٣١/٤ - ٣٢، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البر، ٨٧٧/٢ - ٨٨٠. أسد الغابة، لابن الأثير، ١٩٤/٣.

فأقول الله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ إلى قوله ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾، قال: الشريك. (١)

■ تفسير الآية:

بدأت الآية بذكر سؤال الناس لرسول الله ﷺ عن القتال في الأشهر الحرم، والجواب الذي نزل من عند الله في ذلك، فقيل: إن القتال في الأشهر الحرم إثم كبير لا يحل وهو أمر مستنكر، ولكن صد قريش عن سبيل الله، أي منعهم الناس من الإيمان بالله وبمحمد ﷺ بتعليبهم وقتلهم، والكفر بالله، والصد عن المسجد الحرام بمنع المسلمين من الحج والعمرة، وإخراج أهل المسجد الحرام، يعني النبي ﷺ وأصحابه من مكة (وجعلهم أهلاً له، لأنهم كانوا قائمين بحقوقه) كل ذلك أعظم جرماً وأكبر إثمًا ووزراً عند الله من القتال في الشهر الحرام. (والعندية في قوله "عند الله" مجازية، والمراد بها عندية العلم والحكم). وما وقع من أهل السرية من قتل رجل في الشهر الحرام كان عن خطأ أو ظن سقوط حرمة الشهر الحرام. وقد استعظم المشركون هذا الفعل واستنكروه، ولا يحق لهم ذلك، لأنهم يأتون ما هو أفظع منه، كالكفر بالله الذي جعل الكعبة والأشهر محرمة، والصد عن سبيله وإخراج أهل الحرم منه وإيذائهم، فهم أجدر بالذم. (٢) ثم ذكر الحق سبحانه أن الفتنة أكبر من القتل، والمراد بها فتنة المسلمين عن دينهم وإعادتهم إلى الكفر بإلقاء الشبهات في قلوبهم، وتعليبهم والتعرض لهم بالأذى بالقول والفعل، ومنعهم من إظهار عبادتهم وقطيعتهم في المعاملة والسخرية بهم، وغير ذلك من الأعمال المنكرة الوحشية. وكل ذلك أشد حرمة وأكبر من قتل المسلمين واحداً من رجال المشركين في الشهر الحرام، مع كونه في نفسه كبيراً. وذكر بعض المفسرين أن المراد بالفتنة الشرك، فكأنه قال: إن الشرك الذي أنتم عليه أعظم من قتل رجل في الشهر الحرام؛ وذلك لأن الفتنة تؤدي إلى القتل في الدنيا والخلود في العذاب يوم القيامة. (٣)

وهناك اختلاف فيمن سأل هذا السؤال، فورد في ذلك قولان:

(١) أخرجه أبو يعلى الموصلي في مسنده، ١٠٢/٣، رقم ١٥٣٤، تحقيق: حسين سليم أسد، ط ١، دار الناؤون للتراث، دمشق، سوريا، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م. وقال المحقق: إسناده حسن. وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير بنحوه، ١٦٢/٢، رقم ١٦٧٠، وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى بنحوه، ٢٠/٩، رقم ١٧٧٤٥.

(٢) وذكر ابن عاتق أن الآية خالفت مقتضى النظم الظاهر، حيث كان مقتضى الظاهر أن يقال: وصد عن سبيل الله وكفر به، وصد عن المسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله. فحول ذلك ليكون على أسلوب أدق بتقديم ما هو أفظع من جرائمهم، فترقب على تقديم الأهم فالأهم. فالصد عن سبيل الله يجمع مظالم كثيرة، لأنه يجمع الاعتداء على الناس والمجدد لرسالة الرسول. يُنظر: التحرير والتنوير، ٣٢٩/٢.

(٣) يُنظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٤٣٠/١ - ٤٣٢. غرائب القرآن ووعائب الفرقان، للنيسابوري، ٥٩٧/١. مفاتيح الغيب، للرازي، ٣٨٨/٦. معالم التنزيل، للبغوي، ٢٤٨/٦. التحرير والتنوير، لابن عاشور، ٣٢٦/٦ - ٣٢٩. التفسير المنير، للزحيلي، ٢٥٨/٢.

(أ) السائلون هم المشركون، وسألوا ذلك ليعبروا برسول الله ﷺ وينكروا عليه قتاله في الشهر الحرام، وهو قول الأكثر.

(ب) المسلمون، وأصحاب السرية منهم بشكل خاص، وسألوا ليعلموا حكم ذلك.^(١)

فبيّنت الآية الكريمة باستخدام اسم التفضيل أن القتال في الشهر الحرام يشترك في الإثم مع الكفر بالله والصد عن سبيل الله ومنع أهل المسجد الحرام من دخول المسجد والقيام بحقوقه وإخراجهم من مسجدهم وموطنهم. فكل هذه الأمور تعد عند الله من كبائر الذنوب، لكن الكفر بالله مع هذه الأعمال المنكرة التي يأتيها كفار قريش أكبر وأعظم جرماً عند الله من القتال في الشهر الحرام، والذي وقع فيه المسلمون عن خطأ وسوء ظن. وكذلك الفتنة التي تفع فيها قريش بنفسها، وتوقع الناس فيها أكبر في نظر الله تعالى من القتل؛ وذلك لأن القتل يقضي على حياة المقتول فقط، وهو ينال جزاء أعماله يوم القيامة. لكن فتنة الإنسان عن دينه الصحيح تفسد عليه حياته في الدنيا، وتجعله مستحقاً للعذاب الدائم في الآخرة، وبالتالي تفسد عليه دنياه وآخره.

٢- قال الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۖ كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.^(٢)

تفارق الآية بين المخاطبين الموحدين وبين الماضين الذين عاشوا قبل هؤلاء الذين خاطبوا بهذه الآية. واستخدمت الآية اسم التفضيل لبيان أن الذين مضوا قبل هؤلاء كانوا أقوى وأشد قوة منهم؛ ولكن هذه القوة التي ملكوها لم تنفعهم شيئاً، فلم يغن عنهم ما كسبوا، بل أهلكهم الله وعذبهم حينما كفروا به، وعصوا رسوله وأوامره رغم كونهم أقوى من هؤلاء الموحدين.

■ سياق الآية:

ذكرت الآيات الواردة قبل هذه الآية مصير الكفار يوم القيامة والعذاب الذي سيعرضون له في جهنم، ثم أمر رسول الله ﷺ بالصبر، كما ذكر أن الجميع سيعود إلى الله، ووعد حق واقع لا محالة. ثم ذكر أن كثيراً من الرسل أرسلوا قبل رسول الله ﷺ، ومنهم من ذكروا في القرآن ومنهم من لم يذكر في القرآن، ولكن إذا جاء أمر الله خسر الكفار للكافرين بالرسول جميعاً. ثم جاء ذكر الأنعام التي خلقها الله، والتي فيها آيات ومنافع للبشر، وسئل الناس: أي آيات الله يتكبرون. وبعد ذلك وجهت هذه الآية اللوم للمشركين على عدم السير في الأرض للاعتبار بعواقب الذين مضوا قبل، والذين كانوا أقوى منهم، ولكن هذه القوة لم تغن عنهم شيئاً من الله، فعلى أي شيء يفتخرون هؤلاء.^(٣)

(١) التكت والتهون، للماوردي، ٢٧٤/١. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي، ١٣٦/١ - ١٣٧.

(٢) سورة غافر، آية ٨٢.

(٣) راجع: الآيات ٧١ - ٨٢ من سورة غافر.

■ تفسير الآية:

تتحدث الآية عن الكفار المكذبين بالله ورسوله، وتعاتبهم على عدم السير في الأرض لأخذ العظة والعبرة من مصير الذين كانوا قبلهم، والذين أهلكهم الله بسبب ظلمهم وعصيانهم. فقبل باستخدام هزة الاستفهام التي للإنكار: أَقَعَدَ هؤلاء المجادلون في آيات الله من المشركين، فلم يسيروا في الأرض لينظروا في أمصارهم كيف كان عاقبة الذين كانوا قبلهم من الأمم للهلكة التي عصت الله وكلمت الرسل، وماذا كان مصيرهم، وشاهدوا آثارهم الموجودة في ديارهم التي تدل على ما نزل بهم من عقوبة وعذاب شديد. كان هؤلاء أكثر من مشركي قريش عدداً، وأقوى منهم بدناً، وأوسع منهم مالا، وأشد آثاراً في الأرض، حيث تركوا آثاراً كثيرة بقيت بعينهم من الأبنية والقبور والمصانع والحصون والمزارع وغيرها من مظاهر الحضارة والعمران والفن والعلوم. وقيل: إن المراد بالآثار آثار أقدامهم في الأرض لعظم أجرامهم. فلما حل بهم العذاب لم يغيث عنهم كل ما عملوا في الدنيا وكسبوا من مال وجاه، فلم ينفعهم ما لهم ولا أولادهم ولا ما عملوا في الدنيا من أعمال شتى، ولا رُدَّ عنهم أمر الله حين ينزل بهم العذاب الشديد. وأهلكهم. فهؤلاء الكفار لو ساروا في الأرض سير اتعاظ واعتبار لعرفوا أن عاقبة للمتمردين الطاغين ليست إلا الهلاك والدمار، ولن يغيث عن أحد ماله ولا جاهه ولا أولاده من الله شيئاً. فإذا كان مصير المكذبين ذوي المال والجاه الهلاك والبوار، فكيف بالفقراء المساكين الذين لا يملكون شيئاً من مال الدنيا وجاهها؟! فاحتجَّت هذه الآية على قريش بما نزل بالأمم السابقة من عذاب الله، وانتقامه من الكفار الذين كانوا أقوى وأغنى وأبقى آثاراً في الأرض منهم.^(١)

قال الرازي رحمه الله: "أما بيان أنهم كانوا أكثر من هؤلاء عدداً فإنما يعرف في الأخبار، وأما أنهم أشد قوة وآثاراً في الأرض، فلأنه قد بقيت آثارهم بحصون عظيمة بعدهم مثل الأهرام الموجودة بمصر، ومثل هذه البلاد العظيمة التي بناها الملوك المتقدمون، ومثل ما حكى الله عنهم، أنهم كانوا ينتحون من الجبال بيوتا".^(٢)

فالأمم التي مضت قبل قريش كانت أعظم منها وأفضل، إذ كان أفرادها أكثر منهم في العدد، وأشد منهم في القوة، وأعظم آثاراً في الأرض، ولكن لم ينفعهم كونهم على هذه القوة والشدة في النجاة من عذاب الله، فكيف ينفع كفار قريش ما هم فيه؟! وما الذي ينجيهم من عذاب الله تعالى إذا أراد إنزاله بهم؟! ولا شك أن الله يسهل عليه أن يعذبهم بسبب تمردهم وعصيانهم، إذ لا يصعب عليه شيء، ولا يقف في وجهه كون الإنسان ذا قوة وشدة، بل هو

(١) ينظر: بحر العلوم، للميرزا محمد باقر، ٢١٥/٣. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية، ٥٧١/٤. اللباب في علوم الكتاب، لأبي حفص الهيثمي، ٩٢/١٧. البحر المنير في تفسير القرآن المجيد، لابن عجيبة، ١٥٦/٥. التفسير المنير، للزحبي، ١٧٣/٢٤ - ١٧٤.

(٢) مفاتيح الغيب، للرازي، ٥٣٥/٢٧.

يقدر على إهلاكه مع كل ما يملك من قوة ومال وجاه وأولاد في لحظة عين. ^(١) فإذا كان قادرا على إهلاك من كانوا قبلهم مع قوتهم وجبروتهم، فلن لا يقدر على إهلاك هؤلاء المعتدين للكاذبين المتمردين وتلعبهم في ثانية واحدة؟! لا شك أنه يملك القدرة التامة على ذلك، ولن يعصنا إلا هو، فترجو منه العصمة والرحمة.

(١) كما فعل يافرون، إذ يخسف به ويماله الأرض، ولم يدفع عنه ماله هذاب الله تعالى. قال تعالى: ﴿فَحَسَبْنَا يَهُ وَيَمَارِهِ الْأَرْضَ فَنَّا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْقِصِينَ﴾. (سورة القصص، آية ٨١). وكما أهلك عادًا وثمود وغيرهما من الأمم السابقة.

الفصل الثاني: المقارنات غير الصريحة.

وفيه:

- مدخل.
- المبحث الأول: ذكر أحد طرفي المقارنة وحذف الطرف الآخر (استخدام إيجاز الحذف).
- المبحث الثاني: اختيار صفة للطرفين أو ذكر صفات الطرفين وأحدهما.
- المبحث الثالث: الرطب بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد.
- المبحث الرابع: ذكر التقيض وما يترقب عليهما.
- المبحث الخامس: ذكر الفروق بين الطرفين.
- المبحث السادس: استخدام أسلوب فيه إفكار وتصورات.

❖ مدخل:

يُقصد بالمقارنات غير الصريحة تلك المقارنات التي قارن فيها القرآن الكريم بين أمرين معيّنين، إما يذكر طرفين دون الإتيان بما يدل على عقد مقارنة، وإما يذكر طرف وحذف الطرف الآخر، خلافاً للمقارنات الصريحة. فهذا النوع من المقارنات إما أن يُذكر فيها طرفان يجانب بعضهما البعض ويتم توضيح الفرق بينهما فقط، ولا تكون في المقارنة أداة تدل على إجراء المقارنة بينهما، وإما أن يُذكر في المقارنة طرف واحد فقط، ويُفهم الطرف الآخر من السياق.

ومثل هذه المقارنات كثيرة جداً في القرآن الكريم، وهي أكثر عدداً من المقارنات الصريحة، ولها أساليب متنوعة وبلغت، استخدمها القرآن الكريم في سوره وآياته المختلفة، فأحياناً يذكر القرآن طرفاً ويحذف الطرف الآخر، وأحياناً أخرى يذكر الطرفين، لكن يذكر صفات أحدهما بقدر من التفصيل، ويعرض عن صفات الآخر، وتارة يذكر الفروق بين الاثنين بالتفصيل. فهي أساليب متعددة، يجمع بينها عدم ذكر ما يدل على التصريح بالمقارنة بين شيئين، إما بعدم ذكر أداة تدل على المقارنة، أو بعدم ذكر أحد طرفي المقارنة.

وفيما يلي عرض لهذه الأساليب مع ذكر أمثلة عليها من القرآن الكريم.

المبحث الأول:

ذكر طرف وحذف الطرف الآخر

(استخدام أسلوب إيجاز الحذف)

❖ إيجاز الحذف:

يختار المتكلم البليغ إحدى ثلاث صور لإيصال المعنى إلى المخاطب، وهي: الإيجاز والإطناب والمساواة.^(١) فالإيجاز صورة من صور أداء المعنى وإيصاله إلى المخاطب.

○ تعريف الإيجاز:

الإيجاز هو أداء المعنى بعبارة أقل منه، بشرط أن يكون اللفظ واقفا بالمعنى المقصود، أي: أنه تكون الدلالة واضحة لا خفاء فيها.^(٢)

ويمكن تعريف الإيجاز أيضا بأنه التعبير عن المراد بكلام قصير ناقص عن الألفاظ التي يؤدي بها عادة في متعارف الناس، مع وفائه بالدلالة على المقصود.^(٣)

○ أنواعه:

الإيجاز نوعان:

- ١- إيجاز القصر: وهو الذي ليس فيه حذف، فتكون الألفاظ فيه قليلة والمعنى كثيرا، دون أن يكون في التركيب حذف. مثل قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾.^(٤) فالألفاظ في الآية الكريمة قليلة، ولكنها تدل على معان كثيرة دون حذف في التركيب.
- ٢- إيجاز الحذف: وهو الذي يكون فيه المعنى كثيرا واللفظ قليلا مع حذف في التركيب، حيث تُحذف من الكلام ألفاظ أو عبارات يدل عليها السياق. مثل قوله تعالى: ﴿وَسَقِلْ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾.^(٥) فحذف من هذه الآية المضاف، لكونه مفهوما من السياق، وتقديره: وسأل أهل القرية.^(٦)

(١) وقد سبق للتعريف بما في المبحث الثالث من الفصل الأول: عند الحديث عن أسلوب الإطناب.

(٢) البلاغة الصافية في المعاني والبيان والهدى، لحسن إسماعيل الجناحي، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، مصر، ٢٠٠٦م، ص ٢٣٦.

(٣) البلاغة العربية، لعبد الرحمن جنيكف، ٢٦/٢.

(٤) سورة البقرة، آية ١٧٩.

(٥) سورة يوسف، آية ٨٢.

(٦) يُنظر: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، للمصيري، ٢/٣٣٢ - ٣٣٥. البلاغة العربية، لعبد الرحمن جنيكف،

٢٦/٢ وما بعدها. البلاغة الصافية، لحسن إسماعيل، ص ٢٣٦ - ٢٣٩.

○ قوائده:

إن لاستخدام الإيجاز في الكلام فوائد كثيرة، منها:

- ١- الاختصار في الكلام.
- ٢- التسخيم والتعظيم أو التهويل.
- ٣- التخفيف على النطق.
- ٤- صيانة المخدوف عن الذكر تشريفاً له.
- ٥- صيانة اللسان عن ذكر المخدوف تحقيراً له.
- ٦- تحريك العقول وشغلها بالإيهام الذي بعده البيان ليصير أوقع في النفس. (١)

❖ أمثلة على المقارنات القرآنية باستخدام أسلوب إيجاز الحذف:

إن لهذا الأسلوب أمثلة عديدة في القرآن الكريم، ومن هذه الأمثلة:

- ١- قال الله تعالى: ﴿أَقِمْنَ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَظْهَرُ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ رُبَّ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾. (٢)

هذه الآية الكريمة فيها مقارنة باستخدام إيجاز الحذف، حيث ذكر طرف واحد وهو القائم على كل نفس بما كسبت وهو الله تعالى، وحذف الطرف الآخر للدلالة السياق عليه. فبالآية تقارن بين القائم على كل نفس وهو الله جل وعلا وبين غير القائم عليها وهو غير الله تعالى من المعبودات والآلهة الباطلة. وتم حذف الطرف الآخر، وتقدير المخدوف كما ذكر العلامة ابن عاشور رحمه الله: "أقمن هو قائم على كل نفس ومن جعلوهم به شركاء سواء في استحقاق العبادة". (٣)

■ سياق الآية:

وردت الآية في سياق الحديث عن المؤمنين ويان اطمعنهم بذكر الله تعالى، وذكر ما لهم عند الله تعالى من الثواب، ثم جاء ذكر الرسول ﷺ، ويان أنه أرسل من عند الله ليدعو الناس إلى الله تعالى، وأعقبه ذكر القرآن الكريم، وتكذيب الكفار به واستمرارهم في التكذيب حتى ينزل الله بهم قارعة تهلكهم. وقد ذكر الله تعالى أيضاً أنه استهزئ برسل قبل النبي محمد ﷺ وعاقب الله المكذبين المستهزئين؛ فعلى الكفار أن يتعظوا بمصيرهم ويرجعوا إلى الله تعالى. وبعد ذلك قارنت هذه الآية بين المعبود الحقيقي القائم على النفوس والقادر عليها وبين الشركاء الذين لا يستحقون

(١) للاستفادة من هذا الموضوع يُنظر: البلاغة العربية، لعبد الرحمن حبيكة ٢/٤٠ وما بعدها.

(٢) سورة الرعد، آية ٣٣.

(٣) التحرير والتنوير، لابن عاشور، ١٣/١٥٠.

العبادة، وأنكرت على من يسوي بينهما؛ وذلك لينجلي أمام الناس جميعاً أن الله وحده هو المستحق للعبادة، وهو قادر على إهلاك العصاة المكذبين.^(١)

■ تفسير الآية:

بدأت الآية الكريمة باستفهام إنكاري، حيث أنكرت على من يسوي بين الله الذي هو قائم على النفوس كلها، وبين غير الله من الآلهة الباطلة، فلن يشرك هؤلاء بالله غيره ممن لا يساوي الله تعالى أبداً.

إن في الآية محذوفاً، تقديره: أفعى هو قائم على كل نفس وهو الله ومن جعلوهم به شركاء سواء في استحقاق العبادة، ويمكن تقديره أيضاً بقوله: أفعى هو قائم على كل نفس بما كسبت وهو الله، كمن ليس كفلك من الأصنام التي يعبدونها والتي لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل، ولا تملك نفعا ولا ضرا لأنفسها ولا لمن يعبدونها. وجاء بهذا التعبير يدل اسم الجلالة، لأن في الصلة دليلاً على انتفاء المساواة وتخطئة لأهل الشرك. فيقول جل وعلا: أفعى هو الحفيظ الرقيب على كل نفس بما عملت من خير وشر، ومتوليها ومدبرها في جميع شؤونها في الخلق والأجل والرزق، ومن هو العالم بأحوالها وأعمالها لا يخفى عليه شيء من أمرها، والقائم عليها قياماً وفاقاً لأعمالها، فإذا كانت تعمل خيراً يقوم عليها باللطف والرضى، وإذا كانت تعمل شراً يقوم عليها بالغضب والبلاء، كمن هو ليس كذلك بل هو عاجز لا يقدر على شيء أبداً. وفي ذكر "ما كسبت" تبشير وتهديد للفريقين. فالباري تعالى هو المحيط بأحوال النفوس كلها، وبه على بعض حالاتها، وهو الكسب، ليتفكر الإنسان فيما يكسب من خير وشر وما يترتب على الكسب من الجزاء.^(٢)

والله تعالى هو الرقيب على النفوس والعالم بأحوالها، لا يخفى عليه شيء من أعمال البشر، ولا يفوت عنده شيء من جزائهم. وهو القادر على الجميع، وما سواه عاجز لا يقدر على شيء. فكيف يجعل للمشركون القادر كمن لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعا ولا ضرا، وكيف يتخلون به يطلبون منه النفع ودفع الضر. ثم قال: وجعلوا لله شركاء؛ وهو استئناف جاء للدلالة على الخير المحذوف، ووضع فيه الظاهر موضع الضمير للتنبيه على أنه المستحق للعبادة. ثم أمر رسوله بأن يقول للكفار: صفوا هؤلاء الشركاء فانظروا هل هم يستحقون العبادة ويستأهلون الشراكة، وفيه تنبيه على أن هؤلاء الشركاء لا يستحقون العبادة. وبعد ما قال: هل تخبرون الله بما لا علم له به في السماوات والأرض، بل زين للكفار مكرهم وجندوا عن الطريق الصواب. وفي ختام الآية وضح أنه من يضل الله فلا هادي له.^(٣)

(١) راجع: الآيات ٢٨ - ٣٣ من سورة الفرقان.

(٢) يُقَرَّر: البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان، ٣٩٢/٦. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٣٩٨/٤ - ٣٩٩. التجرير والتبوير، لابن جابر، ١٤٩/١٣ - ١٥١. للتفسير المنير، للزحيلي، ١٦٩/١٣، ١٧٤.

(٣) يُقَرَّر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي، ١٨٩/٣. الدر المنصور في علوم الكتاب المكنون، للسمن الحلبي، ٥٥/٧ - ٥٦. التفسير المظهر، لثناء الله، ٢٤٢/٥. التفسير المنير، للزحيلي، ١٦٩/١٣، ١٧٤.

فالمخلوق لجميع الموجودات والقائم عليها والمحتوي لأمرها لا شك أنه لا يتساوى مع العاجز عن هذه الأمور. والله تعالى هو الذي خلق كل شيء وقدره تقديراً، وهو للهيمن القادر على ما خلق، وهو الذي يوفيهما جزاء بما عملوا من أعمال، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يخرج عن قدرته شيء في العالم ولو كان مثقال ذرة. أما ما سواه من الآلهة الباطلة التي يعبدونها المشركون، فهي ليست خالقة ولا قائمة على النفوس ولا قادرة عليها، بل هي غير قادرة على جلب النفع لنفسها ودفع الضرر عنه، فأن تقدر على نفع غيرها وضرها والفرق بين الله تعالى وبين هذه الآلهة التافهة العاجزة كثير لا يمكن لنا إدراكه، لأن الله هو المالك للقدرة المطلقة وما سواه لا يملك شيئاً. فثبت من هذه المقارنة الموجزة التي جاءت بهذه الكلمات القليلة أن المخلوق القائم على خلقه هو الذي يستحق العبادة وحده ولا يستحقها أحد سواه مهما علا شأنه، لأنه في حقيقة الأمر لا يملك شيئاً.

٢- قال الله تعالى: ﴿أَقْمِن يَتَّقِي بَوَجهِهِمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تُعْصِبُونَ﴾^(١)

عقدت هذه الآية الكريمة مقارنة بين من يدخل النار ويحاول أن يحمي نفسه سوء عذابها بوجهه، وبين من يأمن من العذاب يوم القيامة بدخول الجنة. واستخدمت الآية إيجاز الحذف، حيث ذكرت طرفاً واحداً فقط، وهو الذي يحاول أن يقي نفسه من العذاب بوجهه، وحذفت الطرف المقابل له، وهو الذي يأمن من العذاب في الآخرة، لأنه مفهوم من السياق.

■ سياق الآية:

تحدثت الآيات قبل هذه الآية عن أهل الجنة وأهل النار، ثم ورد ذكر بعض مظاهر قدرة الباري جل وعلا، وتبعه ذكر للمسلم الذي يأخذ العبرة من آيات الله، فيشرح الله صدره للإسلام، وأشير إلى أنه لا يساوي الكافر المعرض عن آيات ربه. ثم ذكر الله هذا الكتاب الذي أنزله، والذي تقشعر منه جلود المتقين الذين يطمنون لذكر الله، وقيل: إن الله يهدي من يشاء، ومن يضل الله فلا هادي له، ويعلمها سبقات هذه الآية لتنكر المساواة بين الذي يستفيد من كتاب الله الذي أنزل لهداية البشر فيأمن من العذاب بدخول الجنة، وبين الذي لا يستفيد من هداية الله فيدخل النار.^(٢)

■ تفسير الآية:

بدأت الآية باستفهام إنكاري، فأنكرت المساواة بين الذي يدخل النار ويقيها بوجهه، وبين من يأمن من العذاب بدخول الجنة. فقيل: أقمن يستعمل النار بوجهه، فيجعله نرساً يحمي نفسه بها سوء العذاب، وحذف حاله الطرف الآخر، لظهوره من المقابلة التي اقتضاها الاستفهام. وتقدم الحذف: أقمن يتقي بوجهه سوء العذاب، لأن الله

(١) سورة الزمر، آية ٢٤.

(٢) راجع: الآيات ٢٩ - ٢٤ من سورة الزمر.

أضله، كمن آمن من العذاب، لأن الله هداه. ويمكن تقديره أيضا: فمن يدخل النار فلا يجد شيئا بقي به نفسه من العذاب إلا وجهه، فيبقى بوجهه سوء العذاب، كمن هو في النعيم لا يناله شيء من المخاوف أو المكروه؛ بل هو آمن في جنة الله. وتهدف الآية إلى بيان عدم التسوية بين من هو في العذاب وهو الضال، وبين من هو في النعيم وهو الذي هداه الله.

وقد اختلف المفسرون في المراد بقول الله تعالى: "يُتَقَى بوجهه سوء العذاب"، فذكروا فيه أقوالا، هي:

(أ) يجر على وجهه.

(ب) يحمل الوجه على حقيقته، وذلك لأن الكافر يلقى في النار على وجهه مقلوبة يده إلى رجليه مع عنقه، ولا يكون له شيء يتقي به النار إلا وجهه.

(ج) المراد وصف كثرة ما ينال الكافر من العذاب، إذ هو يتقيه أولا بجوارحه، ويزيد العذاب حتى يتقيه بوجهه الذي هو أشرف جوارحه وفيه حواسه. وهذا الوجه أبين بلاغة لدى ابن عطية.

(د) وذكر ابن عاشور أن هذا التعبير استخدم كناية عن عدم الوقاية، لأن وجه الإنسان أعز ما في جسده وهو يوقى ولا يُتَقَى به. ومن جبلة الإنسان أنه إذا توقع ما يصيب جسده ستر وجهه خوفا عليه. فتعين أن يكون الانتقاء بالوجه مستعملا كناية عن عدم الوقاية على طريقة التهكم أو التلميح؛ فكانه قيل: من يطلب وقاية وجهه فلا يجد ما يقيه به إلا وجهه.^(١)

وفي ختام الآية ذكر الله أنه يقال للكافرين يومئذ: باسروا جزاء ما كنتم تعملون من الكفر والحصيان، ووضع الظاهر (الظلمين) موضع الضمير تسجيلا للظلم عليهم، وتنبها على سبب استحقاقهم لذلك، وهو ظلمهم.^(٢)

ولا شك أن هناك بونا شاسعا بين الذي يلقى في النار على وجهه، وبين الآمن الذي لا يواجه شيئا من العذاب في الدار الآخرة. فالذي يلقى في النار هو الكافر الذي لا يهتم في الدنيا بما يرضي الله تعالى، بل تكون همه الدنيا يعمل لأجلها ويسعى لحريتها، ويلقى في الآخرة العذاب الشديد الأليم الذي يصل إلى وجهه، ولن يجد شيئا بقي به نفسه من العذاب، فيجعل وجهه وقاية لنفسه مع كونه أشرف أعضائه جسده. أما الآمن من العذاب فهو المؤمن الذي يعيش حياته وفق مرضاة الله، ويسعى لأجل الحصول على ثواب الله؛ فيأمن من العذاب للدار يوم القيامة، ويدخل في النعيم السرمدي الذي أعدّه الله لعباده الصالحين. ويشتان ما بين الاثنين في الدنيا وفي الآخرة، إذ ولا

(١) يُنظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية، ٥٢٨/٤. التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي الكلي القرطبي، تحقيق: عبد الله الخالدي، ١، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، لبنان، ١٤١٦هـ، ٢٢٠/٢. البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان، ١٩٦/٩ - ١٩٧. التحرير والتنوير، لابن عاشور، ٣٩٢/٢٣ - ٣٩٤. التفسير المفصل للرحيلي، ٢٣/٢٨ - ٢٨.

(٢) يُنظر: المحرر الوجيز، لابن عطية، ٥٢٩/٤. التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي الكلي، ٢٢٠/٢. التفسير المنير، للرحيلي، ٢٧٦/٢٣.

يمكن لأحد أن ينكر هذا الفرق الشاسع بينهما. فلنعمل لأجل وقاية الوجوه من عذاب جهنم التي لا تبقى ولا تضر، والتي تلقى فيها المكذبون على وجوههم، عثشون فيها عليهم.

ولا شك أن الله تعالى قادر على أن عشي أهل جهنم على وجوههم يوم القيامة. فعن أنس أن رجلاً قال: يا نبي الله، كيف تجسر الكافر على وجهه؟ قال: "أَلَيْسَ الَّذِي أَمْسَاهُ عَلَى الرَّجُلَيْنِ فِي الدُّنْيَا قَادِرًا عَلَى أَنْ يَمْسِيَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟" (١) نعوذ بالله أن يجعلنا من هؤلاء.

❖ ذكر صفات أحد الطرفين والإعراض عن الآخر:

إن مما يدخل في إيجاز الحذف أيضاً ما يمكن تسميته بذكر صفات أحد الطرفين والإعراض عن صفات الآخر، وفي ذلك يقارن القرآن الكريم بين شيئين مختلفين، فيذكر الطرفين، لكن يوضح صفات أحدهما ويعرض عن صفات الثاني، إما لأنها تفهم من السياق، أو لأنها غير قابلة للذكر لكونها عديمة الأهمية والقيمة.

فمثلاً يقارن القرآن الكريم بين أهل الجنة وأهل النار، فقال: إن النار أعدت للكافرين، والجنة أعدت للذين آمنوا وعملوا الصالحات، وذكر بعض ما يتمتع به أهل الجنة من النعيم، دون ذكر ما فيه الكفار من صوف العذاب. فاكفى بذلك أن النار أعدت للكافرين، بينما ذكر أن الجنة التي أعدت للمؤمنين فيها أنهار ونهار وأزواج مطهرة. ومن السياق نفهم أن أهل النار في عذاب محرومين من هذا النعيم السرمدي، ولا يستحقون الذكر لتفاهتهم وحفارة شأهم. (٢) وأحياناً لا تذكر صفات الطرف الآخر إيقاظاً للعقل وتوجيهاً له نحو التدبر والتفكير فيما يقابل ما ذكر الله من الصفات لأحد الطرفين.

❖ أمثلة على ذلك:

إن من الأمثلة على استخدام القرآن الكريم لهذا الأسلوب في مقارنته ما يلي:

١- قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نَاعَسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِنْكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانِ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا ۗ قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَمَرَّ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب الجحش، ص ١١٣٠، حديث رقم ٦٥٢٣.

(٢) قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ لَمْ يُفْعَلْ وَلَمْ يَفْعَلُوا فَافْعَلُوا الْكَارَ الَّتِي وَكُودَهَا النَّاسُ وَالْجِبَارُ ۚ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ۖ﴾ (٥) وتبين الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار، كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأكلوا به مكشوفاً، ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون ﴿٦﴾، سورة البقرة، الآيات ٢٤ - ٢٥.

مَضَاجِعُهُمْ ۖ وَلِيَتَّبِعِيَ آلُ اللَّهِ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيَمْلِكَنَّ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۖ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ^(١)

قارنت الآية الكريمة بين طائفتين من جيش المسلمين في غزوة أحد، فوضحت أن المؤمنين بعد هزيمتهم في غزوة أحد انقسموا إلى طائفتين، ثم قارنت بينهما بيان صفات طائفة واحدة وترك صفات الطائفة الأخرى، فذكر أن الطائفة الأولى أنزل الله عليها نعاساً آمناً فارتاحت بعد الغزو العصيب، والطائفة الأخرى كان لا يهملها إلا نفسها، وتظن بالله الظنون السيئة، وتخفي في نفسها غير الذي تبديه للناس، وتحسب أن الموت يأتي في ساحة المعركة بسبب القتال. ولم تفصل الآية القول في صفات الطائفة الأولى، لأنه يفهم من السياق أنها مؤمنة مخلصة تعمل لرضا الله وثوابه ولا تفعل فعل الطائفة المنافقة.

■ سياق الآية:

وردت الآية الكريمة في سياق الحديث عن غزوة أحد، حيث ورد في الآيات قبلها أن الله صدق وعده في بداية المعركة، فقاتل المسلمون الكفار بشدة وقتلوه في البداية، واقتربوا من النصر، ولكنهم بعد أن عصوا رسول الله ﷺ وتنازعوا فيما بينهم هزموا، ولقد عفا الله عنهم هذه الزلة التي وقعوا فيها. ثم وصف القرآن حالهم، فبين أنه انتشرت الفوضى في صفوف المؤمنين وصار الرسول ﷺ يدعوهم إلى نفسه، فأجابهم الله غماً. وبعد ذلك ذكر حال طائفتين بعد نزول هذا الغم، والمرور بهذه الأوضاع الصعبة، فطائفة غشاهما من الله نعاسٌ آمنٌ، وطائفة أخرى ازداد حزناً ومهما لعدم تقتها بالله، وعدم إيمانها الكامل به، وتكررت حالتها بقدر من التفصيل.^(٢)

■ تفسير الآية:

ذكر الله تعالى مخاطباً للمؤمنين أنه أنزل عليهم بعد الغم الذي سبق ذكره في الآيات السابقة نعاساً ذا أمانة، غشي طائفة منهم، وهم أهل الإيمان والإخلاص والثبات واليقين والتوكل الصادق، الموفون بأن الله سينصر رسوله، ويحقق وعده. فقد أزال الله تعالى عن هؤلاء الخوف الذي كان بهم، حتى نسوا وغلبيهم النوم. وكان ذلك بعد المعركة وقبل النفير الذي أعلنه الرسول ﷺ في اليوم الثاني، حيث إن المشركين لما انتصروا توعّدوا المؤمنين بالرجوع، فلم يأخذ المؤمنون راحتهم بعد المعركة، بل ظلوا مستعنيين للقتال في أماكنهم خوفاً من عودة المشركين؛ فأنزل الله عليهم الأمن وأخضعهم للنعاس. وفي ذلك دليل على أنهم صاروا مطمئنين آمنين على الرغم من هزيمتهم وانتصار المشركين عليهم، لأن الأمن هو الذي يشعر، أما الخائف فلا ينام ولا يتعمس.^(٣)

(١) سورة آل عمران، آية ١٥٤.

(٢) راجع: الآيات ١٥٢ - ١٥٤ من سورة آل عمران.

(٣) ينظر: معالم التنزيل، للبغوي، ٥٢٤/٦ - ٥٢٥. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود، ١٠٠/٢ - ١٠١.

الأساس في التفسير، لسعيد حوى، ٩٠٣/٢.

وقد روي عن كبار الصحابة أنه نزل عليهم النعاس يوم أحد؛ فعن أبي طلحة^(١) رضي الله عنه أنه قال: "سكت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد، حتى سقط سيفي من يدي مرارا، يسقط وأخذه، ويسقط فأخذه"^(٢) وعنه أيضا أنه قال: "رفعت رأسي يوم أحد فجعلت أنظر، وما منهم أحد إلا وهو يجيد تحت حشفته"^(٣) من النعاس، فلذلك قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةٌ نَاصِيَةٌ تَأْتِي فِيهَا مَوْجٌ مَصْحُومٌ﴾^(٤).

أما الطائفة الأخرى وهي الطائفة المنافقة فلم يهملها إلا نفسها، ولم ينزل الله الأمن والنعاس عليها، فبقيت في خوف وقلق، وجلبت إليها نفوسها المريضة وظنونها السيئة الهم والجزع وخوف القتل وذهاب الأموال، ولم تحتم بأمر الرسول والدين والمسلمين. هذه الطائفة اشتملت على المنافقين الذين كانوا يظنون بالله ظننا سيئا بعيدا عن الحق، كما يظن أهل الشرك والجاهلية، وهو أن الله لا ينصر رسوله محمدا ﷺ، وأن أمره سيضعحل وينهيب، وأن الإسلام ليس بحق، وأنه قد باد مع أهله. وقالوا في تلك الحال متكئين على المسلمين في هذه الأوضاع الصعبة: ليس لنا رأي ولا يسمع أحد قولنا، وليس لنا نصيب من النصر الموعود؛ فرد الله عليهم بقوله: إن الأمر والنصر كله بيد الله. ومن صفات هؤلاء المنافقين أيضا: أنهم يخفون في نفوسهم للكفر والنفاق والشرك، ويظهرون للرسول والمسلمين المودة والنصرة، ويقولون للمسلمين: لو سمعتم رأينا وعملتم بقولنا ما خرج منا أحد للقتال، ولا قتل من قتل في هذه المعركة. لكن الله تعالى رد على أقوالهم موضحا أن الموت لا مفر منه، وأن أجل كل امرئ معلوم لا يُقدَّم ولا يؤخَّر، والتخلف عن القتال لا يبعد الموت عن الإنسان. فقال لهم: لو قعدتم في بيوتكم لجاء من غضب عليه في قضاء الله وقدره الموت إلى مكان مصرعه في أحد، ومات فيه، ولم تنفعه الإقامة في المدينة، لأن قضاء الله لا يُردَّ وحكمه لا مقر منه. ونجست الآية ببيان حكمة قرضية القتال وما وقع يوم أحد من الشدة والهول، فقيل: إن الله فعل ذلك كله ليمتحنكم

(١) هو أبو طلحة زيد بن سهل بن الأبيود الأنصاري الخزرجي، زوج أم سليم أم لئس بن مالك رضي الله عنهم جميعا. من كبار الصحابة. شهد بعة العقبة، كما شهد بدرًا وأحد وغيرها من المشاهد مع رسول الله ﷺ. دافع عن رسول الله ﷺ يوم أحد. توفي عام ٣١ هـ وصلى عليه سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه.

يُنظر: الإصابة، لابن حجر، ١٩٤/٧. الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البر، ١٦٩٧/٤ - ١٦٩٩. أسد الغابة، لابن الأثير، ١٧٨/٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب ثم أنزل عليكم من بعد الغم آمنة ناصية تأتي فيكم، ص ٦٨٨، رقم ٤٠٦٨.

(٣) الخيفة هو نوع من أنواع التوسر يصنع من الجلود بمكمل خاص.

يُنظر: المحكم والمحيط الأعظم، لابن سيدة، ٩٠/٣.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرک على الصحيحين، ٣٢٥/٢، حديث رقم ٣١٦٤. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. وقال الذهبي: صحيح.

وأخرجه أبو يعلى اللؤلؤي في مسنده بحقه، ١٤٤/٣، رقم ١٤٢٢. وقال المحقق: إسناده صحيح.

ويتحرك، ويخرج منا في صدوركم وقلوبكم من الإخلاص والنفاق، وما فيها من الأسرار التي لا يعلمها إلا الله، والله عليم بما في قلوب العبيد من خير وشر. (١)

إن الآية الكريمة وضحت أن جيش المسلمين بعد المعركة وخلالها كان يشتمل على فريقين مختلفين، بينهما فرق كبير، وذكرت أحوال أحدهما بقدر من التفصيل وسكت عن أحوال الآخر، لأنه معلوم أن الفريق الآخر صفاته وأحواله مناقضة للمذكور.

لقد ذكرت الآية أنه بعد الفراغ من المعركة أنزل الله تعالى النعاس على الطائفة المؤمنة المخلصة، فارتاحت بعد القتال في هذه المعركة الصعبة وغلبها النوم الخفيف؛ وذلك يدل على رضاها بقدر الله تعالى، وعدم تضجرها وتسخطها مما جرى في المعركة من الأهوال. فأنزل الله عليها النعاس رحمة من عنده، فاطمأنت وزال عنها الخوف والقلق الذي كان يراودها، فالخائف لا ينام بل يظل متيقظاً قائماً، وإنما الذي ينام هو المطمئن المرتاح الواثق بربه.

أما الطائفة الأخرى، وهي الطائفة المنافقة، فلم تهدأ ولم تعلمن؛ بل كان يهيمها نفسها، وكانت قلقة مضطربة مما جرى في المعركة من قتل وهزيمة، وصارت تظن بالله الظنون السيئة الجاهلية، فبدل أن ترضى بقضاء الله مثل الطائفة الأولى صارت تظن بالله سوءاً، وتحزن على ما فاتها من النصر والغنيمة، وتقول: لو كان لنا رأي في القتال ما قتلناها هنا. وهذه الطائفة تخفي في نفوسها الكفر وتبدي للرسول ﷺ والمؤمنين الإيمان. ولأجل عدم رضاها بقضاء الله وقدره، وعدم ثقتها بالله، حرمها الله الاطمئنان والسكون القلبي الذي أنزله الله على المخلصين من المؤمنين الذين كانوا مع رسول الله ﷺ في المعركة وثبتوا. وهذا هو الفرق الواضح بين الطائفتين اللتين قارنت الآية بينهما.

(١) ينظر: معالم التنزيل، للبغوي، ٥٢٥/١. المحرر الوجيز، لابن عطية، ٥٢٥/١ - ٥٢٩. التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي الكلبي، ١٦٧/١ - ١٦٨. الدر المنثور، للسمين الحلبي، ٤٤٧/٣ - ٤٥٠. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود، ١٠١/٢ - ١٠٢. حقائق الروح والريحان في روائع علوم القرآن، للشيع الأمين الحارثي، ط ١، دار طوق النجاة، بيروت، لبنان، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م، ٢١٦/٥، ٢٢٣، ٢٢٤. الأسس في التفسير، لسعيد جوي، ٩٠٣/٢ - ٩٠٤.

المبحث الثاني:

اختيار صفة للطرفين أو ذكر صفات الطرفين وأحوالهما

يقوم القرآن الكريم أحياناً بالجمع بين طرفين باختيار صفة لهما، ثم بيان الفرق بينهما فيما يتعلق بهذه الصفة الخاصة. ولا يلزم لذلك أن يكون الفرق بين هذين الطرفين في هذه الصفة المختارة فقط، بل تكون بينهما فروق متعددة، ولكن القرآن الكريم يختار صفة واحدة من الصفات التي تفرق بينهما، ويبين الفرق الواقع بينهما باعتبار هذه الصفة. فمثلاً قارن القرآن الكريم بين الملائكة والبشر، مختاراً صفة العلم فقط لعقد هذه المقارنة، على الرغم من وجود صفات كثيرة مختلفة في الاثنين.^(١)

وقد يختار القرآن الكريم صفات متعددة، ويقارن بين طرفين باعتبار هذه الصفات كلها، فمثلاً قارن بين المؤمنين والمنافقين بذكر صفات متعددة للآخرين. فذكر أن المؤمنين أولياء بعضهم البعض، وهم يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ويطيعون الله ورسوله. أما المنافقون فلا يؤدون هذه الواجبات، فهم ليسوا بأولياء بعضهم البعض، وهم يأمرون بالمنكر، وينهون عن المعروف، ويقبضون أيديهم، فلا ينفقون أموالهم في سبيل الله، وتسوا الله، فلا يتكبرونه في الصلاة ولا في غيرها.^(٢) فباختيار هذه الصفات المتعددة قارن القرآن بين المؤمنين والمنافقين في الدنيا، وبين أحوالهما في الدار الآخرة.

❖ أمثلة على المقارنات باستخدام هذا الأسلوب:

إن لهذا الأسلوب أمثلة عديدة منتشرة في القرآن الكريم، ومنها:

١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۝ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ۝ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ۝ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ ۖ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝﴾.^(٣)

قارن القرآن الكريم في هذه الآيات الكريمة بين الكفار من اليهود والنصارى وبين المؤمنين، مختاراً صفة الإيمان بالرسول، إذ قارن بين الاثنين من حيث الإيمان برسول الله تعالى. فذكر أن الكفار (اليهود والنصارى) لا يؤمنون بجميع الرسل

(١) هذه المقارنة وردت في الآيات ٣٠ - ٣٣ من سورة البقرة.

(٢) يرجى الرجوع إلى الآيات ٦٧ - ٧٢ من سورة التوبة.

(٣) سورة النساء، الآيات: ١٥٠ - ١٥٢.

على السوء، بل يفرقون بين الله ورسله في الإيمان، كما يفرقون بين الرسل أنفسهم، فيؤمنون ببعضهم ويكفرون ببعض الآخر، فهم كفار بالجميع في حقيقة الأمر. أما المؤمنون فهم لا يفرقون بين رسل الله تعالى في الإيمان، إذ يؤمنون بهم جميعاً دون تفرق، فهم للمؤمنون في حقيقة الأمر، ولهم أجرهم عند الله تعالى.

■ سياق الآيات:

تحدثت الآيات قبل هذه الآية عن المنافقين، وذكرت ما لهم عند الله تعالى من العقاب الشديد إلا للتائبين المصلحين منهم. ثم ذكر الله تعالى أنه لا يعذب أحداً إذا شكر وآمن وهو شاكر عليهم، كما بين أنه لا يحب الجهر بالسوء من القول إلا من الظلوم، وهو يعلم السر والعلانية، وهو عفو قدير على خلقه. وبعد ذلك قارنت هذه الآيات بين الكفار والمؤمنين من حيث الإيمان بأنبياء الله تعالى ورسله، لتوضح أهمية الإيمان بالأنبياء والرسل دون فرق بينهم، لأن من كفر بأحدهم فكأنما كفر بالجميع ولا يفيد في الآخرة الإيمان بواحد منهم، لذا يجب الإيمان بالجميع.^(١)

■ تفسير الآيات:

تحدثت الآيات عن الكفار، والمراد بهم اليهود والنصارى، فيقول الله إن الذين يكفرون بالله، فيصفونه بصفات غير صفاته كالتشبيه والتجسيم ونحوها، ويكفرون برسل الله^(٢)، فيحاولون التفرقة بين الله ورسله، بإنكار صدق بعض الرسل الذين أرسلهم الله، والاعتراف بصدق بعضهم دون البعض الآخر مع ادعاء الإيمان بالله تعالى الذي أمر بالإيمان بالجميع، ويقولون: نؤمن ببعض ونكفر ببعض، إذ يقول اليهود نؤمن بموسى ونكفر بعيسى ومحمد ﷺ، والنصارى يقولون نؤمن بموسى وعيسى ونكفر بمحمد ﷺ، فلما غم هذا غير مقبول، لأن من كفر بواحد فقد كفر بالكل وبالله تعالى. وهم بهذه الطريقة يريدون أن يتخذوا طريقاً بين الإيمان والكفر. هؤلاء هم الكافرون في حقيقة الأمر، وقصر صفة الكفر عليهم^(٣)، لأن من رد نبوة نبي للحسد أو لأي سبب آخر تبين أن إيمانه بمن آمن به من الأنبياء ليس إيمانا شرعياً، بل هو عن هوى وعصية، وهو كافر أيضاً بمن ادعى الإيمان به لأن الإيمان بواحد يقتضي الإيمان بالجميع. ثم وضع الله أنه أعد لكل كافر مطلقاً أو لمن كفر بسبب إيمانه ببعض الرسل وعدم إيمانه برسل آخرين، عذاباً فيه ذل وإهانة لهم جزاء على كفرهم. وهذا العذاب يستحقه كل كافر سواء كفر بجميع الرسل أم كفر

(١) راجع: الآيات ١٤٥ - ١٥٢ من سورة النساء.

(٢) وجمع الرسل، لأن اليهود كفروا بعيسى عليه السلام ومحمد ﷺ، والنصارى كفروا بمحمد ﷺ، فجمع الرسل باعتبار مجموع الكفار. واستخدم الفعل المضارع ليدل على أن هذا أمر متجدد فيهم مستمر، لأنهم لو كفروا في الماضي ثم رجعوا عن الكفر لما استحقوا العذاب.

ينظر: التحرير والتوير، لابن عاشور، ٨/٦.

(٣) وذلك بتعريف جزأي الجملة مع الإتيان بضمير الفصل، بقوله: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾.

بعضهم وآمن بعضهم؛ وذلك لأن من آمن بالله في حقيقة الأمر آمن بجميع رسله الذين أرسلهم لمداية البشر، فلا يتصور إيمان بالله وكفر ببعض رسله. (١)

ثم ذكر المؤمنين الذين يؤمنون بالله ويرسله جميعا لمقابلة المسيحيين بالمحسين، والندارة بالبشارة على عادة القرآن الكريم. والمراد بالذين آمنوا المؤمنون كلهم، وخاصة من آمن من أهل الكتاب مثل عبد الله بن سلام، فقرن الله المسلمين بمؤلاء للمقارنة والعظة والعبرة. فقال عنهم: إثم آمنوا بالله تعالى، وبكل نبي بعثه الله، وكل كتاب أنزل الله، دون فرق بينهم، فلم يكذبوا ببعضهم ويصلحوا ببعضهم، بل آمنوا بالله تعالى حق الإيمان، وأقروا بأن كل ما جاء من عند ربهم حق لا شك فيه، ومؤلاء لهم أجرهم عند الله. (٢)

قال البيهقي (٣) رحمه الله: "قبي هذه الآية أن الله تعالى جعل الكفر ببعض رسله كفرا بجميعهم، ثم جعل الكفر بجميعهم كفرا به، وقال بعد ذلك: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾، فثبت أن حسن الذاب إنما يكون لمن لم يفرق بين رسل الله عز وجل وآمن بجميعهم". (٤)

لقد وضع الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات المباركة أن الإيمان بجميع رسل الله تعالى وأتبيائه واجب على السواء دون تفرق بينهم، وصرح بوجود الفرق بين الذين يؤمنون بالجميع والذين يفرقون بينهم بالإيمان ببعض والكفر ببعض الآخر. فاليهود والنصارى يؤمنون ببعض الأنبياء، ويكفرون بالآخرين (إذ يكفر اليهود بعيسى عليه السلام ومحمد ﷺ، ويكفر النصارى بمحمد ﷺ)، ويعملهم هذا يصيرون كفارا في حقيقة الأمر، لأن الرسل جميعا مرسلون من عند الله، فكيف يمكن ادعاء الإيمان بالله تعالى مع عدم الإيمان ببعض من أرسله الله تعالى وأمر بالإيمان به؟ والإيمان بالله تعالى يوجب طاعته فيما أمر، والإيمان بكل من أرسل من الأنبياء والرسل، وكل ما أنزل من الكتب

(١) يُنظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود، ٢/٢٤٨. التحرير والتنوير، لابن عاشور، ٦/٨ - ١٢. التفسير المنير، للزحيلي، ٩ - ١١.

(٢) يُنظر: جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري، ٩/٣٥٢ - ٣٥٥. التحرير والتنوير، لابن عاشور، ٦/٨ - ١٢. التفسير المنير، للزحيلي، ٩ - ١١.

(٣) هو الإمام العلامة الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين الشافعي، ولد عام ٣٨٤ هـ. سمع الحاكم وأبا عبد الرحمن الشافعي وآخرين. كان أصوليا، فقيها من كبار فقهاء الشافعية، ومن كبار المحدثين. روى عنه كثيرون منهم ابنه إسحاق. توفي عام ٤٥٨ هـ. كتب كتب كثيرة، منها: "المتن الكبير"، "المتن الصغير"، "مناقب الشافعي"، "دلائل النبوة"، وغيرها.

يُنظر: طبقات الفقهاء الشافعية، لابن الصلاح، تحقيق: محيي الدين علي، ط ١، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، ١٩٩٢ م، ١/٣٣٢ - ٣٣٦. طبقات علماء الحديث، لأبي عبد الله الشافعي، تحقيق: أكرم اليوسفي وإبراهيم الزبيدي، ط ٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م، ٣/٣٢٩ - ٣٣١. طبقات الشافعية الكبرى، للمسبكي، تحقيق: محمود الططاحي وعبد الفتاح الحلوة، ط ٢، دار مخرج، ١٤١٣ هـ، ١/٨ - ١٢.

(٤) شعب الإيمان، للبيهقي، تحقيق: د. عبد العلي حامد، ط ٢، مكتبة الرشيد للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م، ١/٢٧٢.

والصحف. والذي يفرق بين أنبياء الله تعالى كافر بالله وبكل أصياله، ولا يفيد الإيمان ببعضهم حتى يقرّ بنبوّة الجميع، ويعترف بأنهم مرسلون من عند الله، وإلا سوف يدخل العذاب المهين الذي أعدّه الله للكفار جميعاً، بمن فيهم المنافقون واليهود والنصارى والمشركون. أما المؤمنون بمقابلهم، فهم يؤمنون بالله تعالى حق الإيمان، إذ يطيعونه في كل ما أمر، ويقرون بجميع الأنبياء والرسل الذين بعثهم للناس دون فرق بينهم. هؤلاء هم المؤمنون بالله حق الإيمان، وهم الذين أعدّ الله لهم الأجر العظيم الذي يعطيهم يوم القيامة، كما يغفر عنهم زلاتهم. فثبت من هذه المقارنة أن الواجب الإيمان بكل الأنبياء والرسل، والتصديق بأنهم مرسلون من عند الله تعالى، وبذلك يصير الإنسان مؤمناً بالفعل، مستحقاً للجزاء الذي أعدّه الله للمؤمنين به. وباتباع طريق اليهود والنصارى بالكفر ببعض ولو واحداً منهم، يكون الإنسان مستحقاً للعذاب المهين الذي أعدّه الله للكافرين به وبرسله.

٢- قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاَسْمِعُوا لَهُمْ ۖ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِنْ يَسْلُبْنَهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ۗ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَضْطَرِّي مِنَ الْمَلَكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٠﴾﴾^(١).

قارنت هاتان الآيتان الكريمتان بين الله تعالى وبين الشركاء الذين يدعون من دون الله تعالى مقارنة ضم صريحة باختيار صفة اللاتين، فاختبرت صفة القدرة لإجراء هذه المقارنة، وبيان الفرق بين الله وما سواه مما بعيد من دون الله. فقد ذكر الله أن الشركاء عاجزون بحيث إنهم لا يقدرّون على خلق ذباب، بل إنهم عاجزون أمام هذا المخلوق النافه من خلق الله، إذ إنه إذا سلّبهم شيء من أشياءهم لن يستطيعوا إنقاذه منه. وما ذاك إلا لضعفهم وعجزهم. أما الله تعالى فهو قوي عزيز، صاحب القدرة والقوة المطلقة، ولكن الناس لا يقدرّونه حق قدره. وبهذه المقارنة باختيار صفة القدرة ثبت أن المستحق للوحدانية والعبادة هو الله القادر على مخلوقاته لا الشركاء العاجزون حتى أمام أضعف خلق الله.

■ سياق الآيتين:

وردت هاتان الآيتان في سياق الحديث عن الكفار الذين يعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً، وقيل إنهم إذا تلبّث عليهم آيات الله يفضيئون أشد للفضب، ويحاولون إيقاع الضرر بمن يقرأ عليهم آيات ربهم، فهؤلاء هم النار التي وعدّها الله الكافرين. وبعد ذلك جاءت هاتان الآيتان لعقد مقارنة بين الله تعالى القادر المطلق، وبين الشركاء

المانجزيين الذين يدعواهم الكفار ويعبدونهم من دون الله، لإيقاظ عقول الكفار، وتنبئهم إلى ضلالتهم؛ لعلمهم يرجعوا عن كفرهم وشركهم، ويتجهوا إلى الله الواحد الأحد، ويقدره حق قدره. (١)

■ تفسير الآيتين:

خاطبت الآية الأولى الناس جميعا لينتبهوا إلى المثل المذكور فيها، فقيل: يا أيها الناس ضرب لكم مثل، أي: بين لكم حال مستغربة أو قصة رائعة ولذلك سماها مثلا، فاستمعوا حاله وصفته استماع تدبر وتفكر، لأن السماع وحده دون تدبر لا يكفي، ثم بين هذا المثل. فكأنه قال: أتذكرون أمر الخلق والإيجاد وأتذكرون فيما هو أسهل منه، وهو أن الذين يدعونهم آلهة من دون الله، لن يقدروا على خلق ذباب مع صغره وحقارته، ولو اجتمعوا كلهم مع بعضهم وتعاونوا عليه، فكيف إذا كانوا منفردين؟ وأقل درجات لعبود أن يقدر على نفع عابده وضربه، ولكن الآلهة التي يعبدونها المشركون من دون الله، لن تقدر على خلق الذباب، ولو اجتمعوا كلهم لخلقها، فكيف بما هو أكبر منه؟ بل إن هذه الآلهة لا تقدر على الانتصار من الذباب، إذا سلبها شيئا من أشتاتها، كالطبيب الذي يوضع عليها أو الطعام الذي يقدم لها. فلا هي قادرة على خلق الذباب الذي هو من أضعف الحيوانات، ولا على الانتصار منه واسترجاع ما سلبها إياه، وبالتالي فلا أحجز من هذه الآلهة ولا أضعف منها، فكيف يمكن لعاقل أن يعبدها من دون الله؟ وهذا أبغ ما أنزل في بطلان الشرك، وتجهيل قرش، وتقييح عقولهم، والشهادة على تلاعب الشيطان بهم، حيث وصفوا بالأكهوية، التي من شأها القدرة على جميع المقدرات والإحاطة بكل المعلومات، صورا وتماثيل غير قادرة على أضعف ما خلقه الله وأطهره، وهو الذباب، ولو اجتمعوا له. ثم سوي بين العابد والمعبود فقال كلاهما عاجزان ضعيفان، أو سوي بين الصنم والذباب في العجز والضعف. (٢)

وبعد ذكر عجز الشركاء قيل: إن للمشركين لم يقدروا الله حق قدره، فما عرفوه حق معرفته، حيث جعلوا هذا الصنم الضعيف شريكا له. ومن جعل هذه الأصنام التي لا تقدر على الامتناع من الذباب إلها مع القوي العزيز، فما عرف الله حق معرفته، ولا عظمه حق تعظيمه، ولا وصفه حق صفته. وختم الآية ببيان أن الله قوي على خلق الممكنات كلها، وقادر غالب عليها لا يعجزه شيء، وألهمهم عاجزة، فكيف يمكن أن يكون العاجز للغلوب شيئا له؟ (٣)

لقد فصلت الآية الأولى القول في ضعف الآلهة التي يعبدونها المشركون من دون الله تعالى، بضرب مثل هذه الآلهة المزعومة، حيث ذكر الله تعالى أنها عاجزة في نفسها وأمام غيرها، إذ هي غير قادرة على الدفاع عن نفسها ضد

(١) راجع: الآيات ٧٢ - ٧٤ من سورة الحج.

(٢) يُنظر: معالم التنزيل، للبغوي، ٣/٣٥١ - ٣٥٢. التفسير الكبير، للإمام الرازي، ٢٣/٢٥١ - ٢٥٢. تفسير القرآن الكريم، لابن القيم، تحقيق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية، ط ١، دار مكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ص ٢٨٥ - ٢٨٦. البحر المنيد في تفسير القرآن المجيد، لابن عجيبة، ٣/٥٥٥.

(٣) يُنظر: معالم التنزيل، للبغوي، ٣/٣٥١ - ٣٥٢. أنوار التنزيل، للبيضاوي، ٤/٧٩. تفسير القرآن الكريم، لابن القيم، ص ٢٨٥ - ٢٨٦. البحر المنيد في تفسير القرآن المجيد، لابن عجيبة، ٣/٥٥٥. أشواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي، ٥/٢٩٩.

أصغر وأضعف مخلوقات الله، وهو الذباب، وهذه الآلة لن تقدر أبداً على خلق شيء ضئيل مثل الذباب، ولو اجتمعت كلها مع بعضها، وتعاونت مع كل ما سوى الله تعالى من المخلوقات، لن تقدر على إيجاد ذباب واحد. والحقيقة أنها أعجز من ذلك، فإنه الذباب إذا أخذ منها شيئاً من طعامها وشرابها فهي لا تستطيع أن تأخذه وتسترده منه، بل إن الأصنام لا تقدر على منع الذباب من الجلوس عليها، بله القدرة على خلقها. أما الله سبحانه وتعالى فهو صاحب القوة والقدرة المطلقة التي لا نهاية لها ولا حدود، وهو القادر على خلق كل مخلوقاته وإحيائها وإماتتها، وهو المتصرف في خلقه كما يريد، لا يعجزه شيء، ولا يخرج عن نطاق قدرته أحد في السماوات ولا في الأرض، ولكن الناس لم يعرفوه حق معرفته، ولم يقدره حق قدره، وبالتالي ما عبدوه حق عبادته. ولو عرفوه حق المعرفة، لما أشركوا به أحداً في المحبة ولا في العبادة ولا في شيء آخر. فأنى يمكن المساواة بين هذا وذاك؟ ومن خلال هذه المقارنة الموجزة اتضح أن الله هو المستحق للعبادة والرهبة منه وحده، أما الأصنام فلا حقيقة لها ولا منزلة أمام الله الواحد الأحد.

٣- قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ۖ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ۖ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ۖ جَنَّاتٌ عَذْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۖ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ ۖ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ۖ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۖ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ۖ﴾ (١).

قارنت الآيات الكريمة بين صنفين من الناس بذكر صفاتهما وأحوالهما ومصيرهما في الآخرة، فذكرت أولاً صفات الصنف الأول، وهي: أنهم يوفون بعهد الله ولا ينقضونه، ويصلون الأرحام، ويخافون الله ربهم، ويخافون الحساب والجزاء، ويصبرون لأجل ربهم، ويقومون الصلاة، وينفقون مما رزقهم الله، ويدفعون السيئة بالحسنة. هؤلاء لهم أجرهم عند الله، حيث إن لهم جنات يدخلونها يوم القيامة مع الصالحين من أبنائهم، وترحب بهم الملائكة هناك. أما الفريق المقابل هؤلاء، فهم ينقضون عهد الله وميثاقه، ويقطعون الأرحام، ويفسدون في أرض الله، وهؤلاء عليهم لعنة الله ولهم المصير السيئ يوم القيامة. ولا شك أن الفريقين لا يتساويان في صفاتهما في الدنيا ولا في أحوالهما في الآخرة.

■ سياق الآيات:

ورد في الآيات السابقة ذكر بعض مظاهر قدرة الله تعالى مع ذكر مثل للحق والباطل من خلال مظاهر القدرة الربانية، ثم قيل: إن الذين يستجيبون لدعوة ربهم، ويستفيدون من أمثال القرآن لهم الخيرية الحسنة يوم الجزاء، أما الذين لا يستجيبون لهذه الدعوة ولا يحفظون من أمثال القرآن، فلهم سوء الحساب وأولاهم جهنم يوم القيامة، ثم وُجّه استفهام وهو: هل الذي يعلم أن ما أقول الله على محمد ﷺ حق ويعترف بكونه كذلك، كالذي هو أعمى لا يرى الطريق الحق ولا يعصر الصواب. وبعد ذلك قيل: إن أصحاب العقول السليمة هم الذين يستفيدون من آيات الله ويتكبرون. وأعقب ذلك ذكر لصفات أولي الألباب الواردة في هذه الآيات المباركة، مع ذكر صفات أعدائهم من السفهاء الجاهلاء، لعقد مقارنة بينهما حتى تتضح الفروق بينهما جليا. (١)

■ تفسير الآيات:

بدأت الآيات بذكر صفات أولي الألباب المؤمنين الذين ورد ذكرهم في الآيات السابقة، قيل: إن أولي الألباب هم الذين يوفون بعهد الله تعالى. وعهد الله تعالى يشمل كل عهد بين الناس وبين الله، وهي أوامره ونواهيه التي وصي بها عبده، ويدخل فيها التزام جميع الفروض ويحجب جميع المعاصي، كما يشمل كل عهد بين الناس. فهؤلاء يوفون بعهد العهود كلها، ولا ينقضون الميثاق. والميثاق يشمل:

- (أ) جنس المواثيق، أي: إذا اعتقدوا في طاعة الله عهدا لم ينقضوه.
- (ب) الميثاق المعروف، وهو الذي أخذه الله على عباده وقت مسحه على ظهر آدم عليه السلام.
- ومن صفات أولي الألباب أيضا أنهم يصلون ما أمر الله به أن يوصل، والمراد بذلك:
- (أ) صلة الرحم، فيصلون أرجاسهم ولا يقطعونها. وهذا هو قول أكثر المفسرين.
- (ب) الإيمان بجميع الأنبياء، وصلة محمد ﷺ وموارزته ونصرته في الجهاد.
- (ج) رعاية جميع الحقوق الواجبة للعباد، فيدخل فيه صلة الرحم وأخوة الإيمان.

ولا يتناقض بين هذه الأقوال الثلاثة، إذ يمكن الجمع بينها بالقول بأن أولي الألباب يقومون بكل هذه الأمور.

وبالإضافة إلى ذلك يخاف هؤلاء الله تعالى، فيتركون ما نهاهم عنه، ويطيعونه في كل أوامره كما يخافون سوء الحساب، وشدة يوم القيامة، وسوء الحساب هو ألا تقبل منهم حسنة ولا تغفر لهم سيئة. ثم إن هؤلاء يصبرون أيضا على أداء الطاعات، وعن إتيان المعاصي والشهوات، وعلى اليلابا والفقن والمصائب، وعلى أدنى الأعداء من الكفار والمنافقين، طلبا لرضا الله عز وجل. ومن صفاتهم أيضا أنهم يقيمون الصلاة، فيؤدونها في أوقاتها بإتمام ركوعها وسجودها، ويتصدقون من أموالهم في كل الأحوال ظاهرا وباطنا، ولا يكفون بإداء الزكاة الواجبة عليهم، بل يتصدقون مما رزقهم الله تطوعا أيضا. وأفراد الصلاة والزكاة بالذكر تنبيها على شرفهما وأهميتهما. ومن صفاتهم أيضا أنهم يدفعون

(١) راجع: الآيات ١٦ - ٢٥ من سورة الرعد.

السيئة بالحسنة، فلا يكافئون الشر بالشر، بل بالخير، ويدفعون الكلام السيئ بالحسن، والذنب بالتوبة. وبعد ذكر صفاتهم بين ثوابهم ومصيرهم في الآخرة، فقال: إن هؤلاء هم العقبي الحسنة في الدار الآخرة، وهي جنات الإقامة التي يدخلونها مع الصالحين من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، وقد دخل عليهم الملائكة من كل أبواب الجنة وقصورها، وتسلم عليهم، وتقول لهم: هذه الكرامات التي حصلتم عليها إنما هي بسبب صبركم، وهو جزاء حسن جميل. وفي ذكر الآباء والأزواج والذريات دلالة على أن الله يعطي درجات الكاملين في الجنة من لم يبلغ درجتهم، ولم يعمل مثل أعمالهم، من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، بشرط الإيمان، تطيباً لقلوبهم وتعظيماً لشأنهم.

وبعد ذكر صفات المؤمنين بين صفات أعدائهم، وهم الذين لم يستجيبوا لدعوة ربهم، وذكر أحوالهم المخزية في الآخرة. فقال: إنهم ينقضون عهد الله بعد تأكده وتغليظه، فيشركون بعد الإقرار بالتوحيد يوم الميثاق، ولا يوفون بالعهد التي بينهم وبين الناس، ويقطعون الأرحام، كما أنهم يؤمنون ببعض الأنبياء ويكفرون بآخرين، ويفسدون في الأرض، بالدعوة إلى عبادة غير الله من الأصنام والأوثان، وترك الطاعات وإتيان المعاصي، وإهلاك الحرث والنسل، والظلم والبغي بغير الحق. وأصحاب هذه الصفات عليهم اللعنة من الله تعالى، إذ هم يعيدون عن رحمة الله ومطروودون من كل أنواع الخير في الدنيا والآخرة، ولم يرجع السيئ في الآخرة، وهو نار جهنم والغياض بالله. (١)

لقد قارن الله تعالى في هذه الآيات بين أولي الإياب المؤمنين الذين يستجيبون لدعوة ربهم، وبين الكفار الذين لا يستجيبون لدعوة ربهم ولا يؤمنون به، فنذكر عدة صفات متناقضة للطرفين في الدنيا، كما بين أحوالهم في الدار الآخرة.

○ الفرق بين الطرفين في الدنيا:

ذكر القرآن عدة صفات تفرق بين الاثنين في الدنيا، وهي:

المؤمنون	الكفار
١- الوفاء بجميع العهود التي بينهم وبين الله من الإيمان يوحدانيته وربوبيته وما إلى ذلك، وجميع العهود التي وبينهم وبين الناس، وعدم نقض شيء منها.	١- نقض عهد الله بعد ميثاقه، بعدم الإيمان يوحدانيته وربوبيته مع كونهم عاهدوا الله على ذلك يوم الميثاق، وعدم الوفاء بالعهد التي بينهم وبين الناس.
٢- صلة الأرحام، والاهتمام بالقرابات وأداء جميع الحقوق اللازمة المتعلقة بالقرابات.	٢- قطع ما أمر الله بوصله، وعدم صلة الأرحام، وعدم أداء حقوق القرابات التي أوجبها الله.

(١) يُنظر: بحر العلوم، للسمرقندي، ٢/٢٢٤ - ٢٢٥. تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني، ٣/٨٩ - ٩١. المحرر الوجيز، لابن عطية، ٣/٣٠٩ - ٣١١. الباب في علوم الكتاب، لأبي حفص المجتبى، ١١/٢٩٣ - ٢٩٨. التفسير المظهر، محمد ثناء الله، ٥/٢٣٠ - ٢٣٥.

٣- الخوف من الله وطاعته حتى الطاعة، والخوف من الحساب يوم القيامة، والاستعداد بعمل الصالحات وترك السيئات.	٣- الفساد في الأرض، بإقامة شرع غير الله، والدعوة إلى غير دين الله، وبالإتيان بكافة المحرمات والمكروهات، وترك أداء الواجبات التي فرضها الله من الصلاة والزكاة وعبادة الله وحده ونحو ذلك.
٤- الصبر لأجل نيل رضا الله تعالى على كل مكروه.	
٥- إقامة الصلاة بأدائها في أوقاتها، وإتمامها بركوعها وسجودها وسائر أركانها.	ويذكر الإفساد في الأرض أشار إلى كل صنائع السوء التي يقوم بها الكفار في الدنيا، والتي هي مضادة لصفات المؤمنين المتقين.
٦- الإنفاق من الأموال سرا وعلانية، وأداء الزكاة الواجبة والمستحبة.	
٧- دفع السيئة بالحسنة، وعدم مجازاة الشر بالشر، وفعل الخير في كل الأحوال.	

○ الفرق بين حالهم في الآخرة:

المؤمنون	الكفار
للمؤمنون لهم العقوبة الحسنة في الآخرة، حيث يدخلون الجنة مع الصالحين من آباؤهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من أبواب الجنة ويسلمون عليهم، ويقولون لهم هذا الثواب الحسن الذي حصلتم عليه إنما هو بسبب صبركم، وهو ثواب حسن جميل.	هؤلاء عليهم اللعنة من الله، فهم مطرودون من رحمته يعيدون عن كل أنواع الخير في الدنيا وفي الآخرة، ولهم النار السيئة في الآخرة، وهو نار جهنم التي يدخلونها مع أمثالهم، ويعذبون فيها بأنواع العذاب المؤلم المهيئ، والتي لا عزة فيه لهم ولا كرامة ولا أنس بوجود الأعداء.

هذا هو الفرق الشاسع بين الفريقين في الدنيا والآخرة، فعلى أولى الأبواب الاستفادة من هذه المقارنة القرآنية، والاتصاف بصفات أصحاب العقول السليمة في الدنيا للتعلم بمثل نعيمهم يوم القيامة.

٤- قال الله تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُكُمْ آلَهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ أَنْ تَبْرَهُوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ آلَهُ لِيُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا يَنْهَكُكُمْ آلَهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۝﴾ (١).

قارن الله تعالى في هاتين الآيتين المباركتين بين صفتين من الكفار، يذكر صفاتهما وأحوالهما المتناقضة. الصف الأول يشمل الكفار الذين لم يقاتلوا المسلمين، ولم يظلموهم بإخراجهم من بيوتهم، بل هم مسلمون يعيشون مع المسلمين،

(١) سورة المتحنة: الآيات: ٨ - ٩.

وهم على دينهم دون إظهار العداوة والبغضاء للإسلام والمسلمين. أما الصنف الثاني فيشمل الكفار الذين يظهرون العداوة للمسلمين، ويقاثلونهم بسبب إسلامهم، ويخرجونهم من بيوتهم ويتعاونون معا على ظلم المسلمين. وبسبب أنهم لم يسوا سواء أعطى الله لكل صنف حكما مختلفا، إذ لم يمنع من التعايش المسلمي مع الصنف الأول، ومعاملته بالمعروف والعدل، في حين أنه نهي عن موالاة الصنف الثاني، وجعل الموالين له من الظالمين. ومن هنا نعرف أن هناك فرقا بين الاثنين في نظر القرآن الكريم.

■ سياق الآيتين:

تحدثت الآيات السابقة عن إبراهيم عليه السلام وذكرت أنه أسوة حسنة للمسلمين، إذ تراءى هو وأصحابه من الكفار وما يعبدون من دون الله، وتوكلوا على الله تعالى ودعوا ألا يجعلهم الله فتنه للذين كفروا، كما طلبوا منه المغفرة من الذنوب. ثم ذكر الله أن الذي يطلب الله والدار الآخرة له قدوة حسنة في هؤلاء، وعليه أنه يقتدي بهم ويمثلهم في التبرؤ من الكفار أعداء الله ورسوله. ثم ذكر أن الله قادر على تغيير أوضاع المشركين من الكفر إلى الإيمان، وبالتالي تغيير عداوة المسلمين معهم إلى حب ومودة. وبعد ذلك جاءت هذه الآيات توضح ما يريد الله من المسلمين تجاه الكفار بعقد مقارنة بين صنفين من الكفار، وبيان أحكامهما وطريقة التعامل معهما.^(١)

■ سبب النزول:

عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما أنها قالت: أتتني أمي رابعة في عهد النبي ﷺ، فسألت النبي ﷺ: أأصلها؟ قال: نعم. قال ابن عيينة^(٢): فأنزل الله تعالى فيها: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾.^(٣)

(١) راجع: الآيات ٤ - ٩ من سورة الممتحنة.

(٢) هو أبو محمد سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي الكوفي، من كبار حفاظ وأئمة الإسلام، ولد عام ١٠٧ هـ، كان إماما حجة، كثير العلم، كبير القدر، ومن أعلم الناس بالحديث. جالس الزهري وتعلم منه، وروى عن زيد بن أسلم وعمر بن دينار ومحمد بن المنكسر وآخرين. وروى عنه الإمام الشافعي وابن معون وابن المديني وأخرون. توفي عام ١٩٨ هـ.

ينظر: التاريخ الكبير، للبخاري، طبعة دائرة المعارف العثمانية، جلد آياد الدكن، ٩٤/٤. تذكرة الحفاظ، للذهبي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٩ هـ - ١٣٩٨ م، ١٩٣/١ - ١٩٤. طبقات الحفاظ، للسيوطي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٣ هـ، ص ١١٩.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب صلة الوالد للمشرك، ص ١٠٤٧، حديث رقم ٥٩٧٨.

وروى الحاكم في المستدرک أن قتيلة بنت عبد العزی بنت أمیعة من بني مالك بن خسل قدمت على ابنتها أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، وكان أبو بكر طلقها في الجاهلية. فقدمت على ابنتها هدايا ضيافا ومنا وأقطا، فأبتهت أسماء أن تأخذ منها، وتقبل منها، وتدخل منزلها حتى أرسلت إلى عائشة رضي الله عنها أن سألني عن هذا رسول الله ﷺ فأعبرته فأمرها أن تأخذ هداياها وتدخلها منزلها، فأنزل الله عز وجل: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ

■ تفسير الآيتين:

يقول الله جل وعلا أنه لا ينهى عن فعل البر والخير والإحسان ولتحكم بالعدل مع أهل العهد من الكفار المسلمين الذين عاهدوا المسلمين على ترك القتال، وعدم الإغارة ضد المسلمين، فلم يقاتلوا المسلمين لأجل دينهم، ولم يخرجوهم من بيوتهم، كالنساء والضعفاء وغيرهم من المعاهدين. فلا يمنع الله من العدل والقسط بين المسلمين وهؤلاء بأداء حقوقهم، كالوفاء بالعهد وإداء الأمانة ونفع الجار ونحوها. وقد دخل في حكم هذه الآية أصناف، وهم خلفاء النبي ﷺ مثل خزاعة ومزينة، والنساء والصبيان من المشركين، ونفر من بني هاشم مثل العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ. هؤلاء وأمثالهم اليوم يعاملهم المسلمون بمثل ما يعاملون به المسلمين، ومعاملة أحد بمثل ما يعامل به يُعتبر من العدل، والله يحب كل عادل مقسط، ويتدخل فيه الذين يعذبون مع الذين خالفوهم في الدين، إذا كانوا مع المخالفة محسنين معاملتهم.

إنما ينهى الله تعالى المسلمين عن موالاة الكفار الذين عادوهم فقاتلوهم في دينهم وأخرجوهم من ديارهم، أو ساعدوا وعاونوا من قاتل المسلمين وظلمهم. وذلك مثل مشركي مكة، فكان أهل مكة فريقين، منهم من يقاتل المسلمين ويظلمهم ويأبى بالأسباب التي لا يحتل المسلمون معها البقاء بمكة، ومنهم من يعين على ذلك ويغري عليه. فنهى الله عن اتخاذهم أولياء وأنصاراً وأمر بمعادتهم ومعاملتهم بالمثل. وأكد الوعيد على موالاتهم، فوضح أن من يتولم فهو ظالم، لأنه وضع الولاية في غير موضعها. وقصر صفة الظلم عليهم في قوله "هم الظالمون"، لبيان أن ظلمهم لشدة وقوعه بعد النهي الشديد ظلم لا يغفر، حيث إنهم تولوا من يستحق العداوة، لكونه عدواً لله ورسوله. فالآيتان حددتا علاقة المسلمين بالمسلمين من الكفار والمعاهدين منهم، والعدل واجب مع الاثنين.^(١)

لقد وضحت الآيتان الكريمتان الفرق بين نوعين من الكفار، وذكرتا صفاتهما، وبه تبين أنهم ليسوا جميعاً سواء، فلا تصح معاملتهم كلهم معاملة واحدة. فالنوع الأول هم الذين لم يقاتلوا المسلمين، ولم يظهروا العداوة لهم، ولم يتعاونوا مع المعادين للمسلمين، ولم يخرجوا المسلمين من ديارهم، بل بقوا على دينهم، وتركوا المسلمين يمارسون أواخر دينهم ويطبقون شعائره دون التعرض لهم بالأذى. أما الصنف الآخر فهم المعادون للإسلام والمسلمين، الذين يقاتلون المسلمين لأجل إسلامهم، ويظلموهم ويخرجوهم من بيوتهم، أو يساعدون الخارجين ضد المسلمين الذين يؤذونهم بأقوالهم وأفعالهم. وذكر حكم الاثنين وفق صفاتهما، فالفرق الأول يعاملهم المسلمون بالبر والإحسان والعدل، لأن

أخرجه الحاكم في المستدرک، ٥٢٧/٢، رقم ٣٨٠٤. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الذهبي: صحيح. وأخرجه الإمام أحمد في مسنده، ٣٧/٢٦، رقم ١٦١١١، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ط ١، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

(١) ينظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن، لأبي إسحاق الطبري، تحقيق: أبو محمد بن عاشور، ط ١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م، ٢٩٤/٩. معالم التنزيل، لليغوي، ٢١/٥. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، لليبضاوي، ٢٠٦/٥. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ١٢٨/٨ - ١١٩، التحرير والتنوير، لابن عاشور، ١٥٢/٢٨ - ١٥٤. التفسير المنير، للزحلي، ١٣٤/٢٨ - ١٣٦.

الله يحب العادلين. أما الفريق الثاني فهو أيضا يعامل بالمثل؛ فتحريم على المسلمين مواليتهم، ومن والاهم من المسلمين فهو ظالم لنفسه، لأنه وضع الولاية في غير موضعها الأصلي. فلكل فريق صفاته، ولكل حكمه طبقا لهذه الصفات المذكورة في المقارنة.

المبحث الثالث:

الربط بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد

إن من أساليب المقارنة غير الصريحة في القرآن الكريم الربط بين ما يُسمى بالترغيب والترهيب أو الوعد والوعيد، فيذكر القرآن الكريم أحوال الجنة وأهلها وما هم فيه من نعم، ترغيباً في الإيمان الذي جزاؤه الدخول في الجنة، ويقرن به أحوال أهل النار وما هم فيه من عذاب، تخويفاً وترهيباً من الكفر ومعصية الله تعالى، وبالتالي الدخول في النار. وهذه عادة من عادات القرآن الكريم، فلا يذكر القرآن البشارة بالجنة للمؤمنين إلا ويذكر معها تخويف الكفار من عقاب الله الشديد، كما أنه كلما يتوعد الكفار بنار جهنم، يربط بهذا الوعيد وعد للمؤمنين بنعيم الجنة. وقد أشار كثير من العلماء إلى هذا الأسلوب القرآني.

فقال الجاحظ^(١) رحمه الله: "وفي القرآن معان لا تكاد تفتقر، مثل الصلاة والزكاة، والجوع والخوف، والجنة والنار، والرغبة والرهبة، والمهاجرين والأنصار، والجن والإنس".^(٢)

وقال الإمام الشاطبي رحمه الله: "إذا ورد في القرآن الترغيب قارنه الترهب في نواحيه أو سوايقه أو قرائنه وبالعكس. وكذلك الترجية مع التخويف. وما يرجع إلى هذا المعنى مثله، ومنه ذكر أهل الجنة يقارنه ذكر أهل النار وبالعكس، لأن في ذكر أهل الجنة بأعمالهم ترجية، وفي ذكر أهل النار بأعمالهم تخويف، فهو راجع إلى الترجية والتخويف".^(٣) ووقد ذكر ذلك العلامة ابن عاشور رحمه الله أيضاً، إذ قال: "من عادة القرآن أنه إذا أنذر أعقب بالبشارة لمن لا يحق عليه ذلك الإنذار، وإذا بشر أعقب بالبشارة بنذارة لمن يتصف بضد ما بشر به".^(٤)

ويمكن اعتبار هذا الأسلوب من أشهر أساليب المقارنات القرآنية، وأكثرها وروداً في القرآن الكريم. فلا نكاد نجد في القرآن الكريم ذكراً للنار إلا ومعه ذكر للجنة، ليبقى التوازن قائماً بين الخوف والرجاء والرغبة والرهبة، ولا يميل الإنسان إلى أحدهما بإهمال الآخر. وبالتوازن بينهما تستقيم حياة المسلم المؤمن بالله.

(١) هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكندي، المشهور بالجاحظ. من أهل البصرة. ولد عام ١٦٣ هـ. كان من أئمة المعتزلة، ومن تلامذة أبي إسحاق النظمي. كان قصباً بليغاً، علماً من علماء الأدب. ألف في علوم كثيرة. توفي عام ٢٥٥ هـ. من كتبه: الحيوان، البيان والتبيين، البخل، مسائل القرآن، وغيرها.

يُنظر: نزهة الألباء في طبقات الأدباء، لأبي البركات الأنباري، تحقيق: إبراهيم السامرائي، ط ٣، مكتبة المنارة، الزرقاء، الأردن، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م، ص ١٤٨ - ١٥١. بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، لجلال الدين السيوطي، ٢/ ٢٢٨، الأعلام، لخبر الدين الزركلي، ٧٤/٥.

(٢) البيان والتبيين، لأبي عثمان الجاحظ، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ١٤٢٣ هـ، ٤٢/١.

(٣) المواقفات، للشاطبي، ١٦٧/٤.

(٤) التمهيد والتنوير، لابن عاشور، ٨ - ١٩٤/١.

❖ أمثلة على مقارنات هذا الأسلوب:

إن لهذا الأسلوب أمثلة كثيرة متشرة في القرآن الكريم كله من بدايته إلى نهايته. ومن هذه الأمثلة:

١- قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ۝﴾^(١).

قارنت الآيتان بشكل غير صريح بين الذين يطيعون الله ورسوله والذين يعصون الله ورسوله، مستخدمة أسلوب الربط بين الرغبة في الطاعة والترهيب من للعصية، يذكر جزاء كل منهما في الآية. فذكرت أن الطائعين لله ورسوله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار، يدخلون فيها إلى الأبد. أما العاصون لله ورسوله فلهم نار جهنم التي يدخلون فيها ويتعرضون للعذاب المهين بسبب عصيان الله ورسوله واعتداء حدوده. فوعدت الآيتان الطائعين ثواباً جزيلاً، بينما توعدت العاصين عذاباً مهيناً مخزياً.

■ سياق الآيتين:

وردت الآيتان في سياق الحديث عن أحكام الموارث، فبعد أن فصل الله القول في أحكام الإرث، وبين نصيب كل وارث في المال الذي تركه قريبه الميت، وضع أن هذه هي الحدود التي عينها الله. ثم بين في هاتين الآيتين أن من يطع الله ورسوله يفوز فوزاً عظيماً بالخلود في الجنات، ومن يعصهما ويخرج عن الحدود التي عينها يخلد في نار جهنم.^(٢) وبعد هذا الوعد والوعيد شرع في بيان أحكام أخرى متعلقة بالمجتمع الإسلامي.

■ تفسير الآيتين:

ذكرت الآيتان أن من يطيع الله ورسوله في كافة أحكامهما، ومنها أحكام الموارث، ويبقى داخل الحدود التي وضعها يدخل الجنة.^(٣) وطاعة الله ورسوله تكون بالعمل بالتكاليف الشرعية، وتطبيق أحكام الله ورسوله، والسير على منهج الله تعالى، ويكون جزاء ذلك هو الدخول في الجنة في الآخرة، فكل الذين يطيعون الله ورسوله يدخلون الجنة التي تجري من تحت أبنيتها وزروعها وأشجارها الأنهار التي لا تضر الأبنية ولا الساكنين فيها بل هي لفائدتهم، ويبقون فيها بقاء لا فناء بعده؛ فلا يموتون فيها ولا يخرجون منها. وهذا هو الفوز والنصر والنجاح العظيم الذي يمنحه الله ويليق بعظمته، وكل فوز في الدنيا يُعتبر حقيراً بمقابله مهما علا شأنه.

(١) سورة النساء، الآيتان ١٣ - ١٤.

(٢) راجع: الآيات ١١ - ١٤ من سورة النساء.

(٣) وذكر الشعراوي رحمه الله أنه ذكرت طاعة الرسول ﷺ بجانب طاعة الله ليبيان أن له ﷺ أن يضع حدوداً للحلال والحرام من عنده، وقد أعطاه الله تعالى حق التشريع.

يُنظر: تفسير الشعراوي - الخواطر، للشعراوي، مطابع الأنهار اليوم، ١٩٩٧م، ٢/٣٩-٢.

أما الكفار الذين يعصون الله ورسوله، ويتجاوزون حدودهما، بمخالفة كافة أحكامهما (ومنها أحكام المواريث) وفراقهما، وبالليل عنها والإصرار على ذلك وعدم التوبة عنه، يدخلهم الله نارا يخلدون فيها، ولهم فيها عذاب ذو خزي وإهانة. وهذا العذاب يجمع بين الألم والإهانة في وقت واحد، فهو عذاب روحاني باعتبار الدخول فيه لإنسانا يشعر بالكرامة والشرف، ويتألم بالخزي والإهانة، وجسماني يتألم به البدن العاصي، ولا يستطيع أحد أن يصبر عليه، ويستحق العاصي هذا العذاب المهين، لأنه غير ما حكم الله به وضاد الله في حكمه، بعدم الرضا بما قسم الله وحكم به، لذا استحق الخزي والإهانة.^(١)

وقد ذكر الشعراوي^(٢) رحمه الله وغيره من المفسرين^(٣) نكتة لطيفة في هذه الآيات، فقال رحمه الله: "إننا نجد الملحظ الثاني وهو خلود المؤمنين في الجنات، أما الكافر فسيدخل النار. ولم يقل الحق نيرانا، ولم يقل الحق أيضا: "خالدين" لماذا؟ لأن المؤمنين سيكونون في الجنة على سرر متقابلين، ويتجاوزون، وكل واحد يستمتع بكل الجنان، وأيضا إن المرء إذا كان له من عمله الصالح الكثير وقصر أولاده الذين اشتركوا معه في الإيمان، فإن الحق سبحانه يلحق به ذريته ويكون هو وذريته في النعيم والجنان كرامة له. فتكون الجنات مع بعضها وهذا أدعى للإيمان. ولكن الموقف يختلف مع الكافر، فلن يلحق الله به أحدا، وكل واحد سيأخذ ناره، وحتى لا يأسيها مع بعضهم وهم في النار. فالأئس لن يطولوه أيضا، فكل واحد في ناره تماما مثل الحبس المنفرد في زنزانه، ولن يأسي واحد منهم بالآخر".^(٤)

قارنت الأيمان بين المطيعين لله ورسوله - وهم المؤمنون العاملون الصالحات - والعاصين لله ورسوله وهم الكفار الخارجون عن الإيمان. وقد ذكرت في الآيات قبلهما أحكام عدة متعلقة بالجمع للمسلم، ثم جاءت هاتان الآيتان تحملان وعيدا للطائعين ووعيدا للعاصين، فقيل: إن الذين يطيعون الله ورسوله في كل أولامهم وينتهون عن كل نواهيهم، يدخلهم الله في الآخرة جنات يتمتعون فيها مع أهاليهم وأولادهم المؤمنين، لا يفرق بينهم فيها أحد.

(١) يُنظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي الكلي، ١/٢٨٢. غرائب القرآن ورفائف الفرقان، للنيسابوري، ٢/٣٧١. تفسير الجلالين، لجلال الدين المحلي والسعوطي، ط ١: دار الحديث، القاهرة، مصر، ص ١٠١. محاسن التأويل، للقاسمي، ٣/٤٧. تفسير المراغي، ٤/٢٠٢ - ٤/٢٠٤. الخواطر، للشعراوي، ٤/٢٠٣٩ - ٤/٢٠٤٧.

(٢) هو الشيخ محمد متولي الشعراوي. ولد عام ١٣٧٢ هـ في مصر. كان من علماء الأشاعرة. حفظ القرآن الكريم وهو صغير السن. درس في القاهرة، ودرس في جامعة أم القرى بمكة المكرمة. اختير وزيرا للأوقاف والشؤون الأزهرية فترة من الزمن. كان عالما مجتهدا في تفسير القرآن، وتفرغ لهذه المهنة الجليلة. حصل على عدد من الجوائز. توفي عام ١٤١٩ هـ. من كتبه: تفسير الشعراوي، وغيرها. يُنظر: الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير والإفتاء والنحو واللغة، لوليد أحمد الزبيدي وآخرين، ٣/٢٣٤٠ - ٣/٢٣٥٢.

(٣) ومنهم الشيخ أحمد مصطفى المراغي الذي قال: "قال في أهل الجنة خالدين وفي ذكر أهل النار خالدين: إشارة إلى تمتع أهل الجنة بالاجتماع وأئس بعضهم ببعض، والمتفردون يسرون مثل هذا التمتع، وأما الذي في النار فإن له من العذاب ما يمنعه من الأئس، فكانه وحيد لا يجد لذة في الاجتماع بقوله ولا أئسبه".

تفسير المراغي، ٤/٢٠٣.

(٤) تفسير الشعراوي - الخواطر، للشعراوي، ٤/٢٠٤٦.

فيخلد هؤلاء جميعا جنات تجري من تحت مياثيها وقصورها وأشجارها الأنهار العذبة الجميلة التي يتروي منها أصحاب الجنة، ويستمتعون برؤية منظرها الجميل، وهم على سرر متقابلون. وهذا الذي حصلوا عليه بفضل الله تعالى فوز عظيم لا يقابله فوز في الدنيا مهما علا شأنه وتعظم أمره.

أما الذين يعصون الله بمقابلتهم فهم الذين لا يؤمنون به ولا يفعلون ما أمروا به، ويتجاوزون حدود الله تعالى بالخروج عن طاعته والإصرار على معصيته سبحانه وتعالى. هؤلاء هم في الآخرة النار التي يُعذبون فيها، وهم لوحدهم بحيث لا يأنسون باجتماع الأحبة والاستمتاع معهم، بل تُعذب أجسادهم كما تُعذب أرواحهم بأنواع العذاب الذي يجمع بين الألم والشدة والحزني والإهانة، فهو عذاب يلقي وروحي في آن واحد، ولا يقدر أحد على تحمله والصبر عليه. أعاذنا الله منه.

٢- قال الله تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۝ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۝ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نُصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفَ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نُجْزِي كُلَّ غُفُورٍ ۝ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۖ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ الْتَذِيرُ ۖ فَذُقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ۝﴾ (١)

هذه الآيات أيضا فيها مقارنة بين الجنة وأهلها والنار وأهلها بأسلوب غير صريح، حيث ذكر الوعد أولا ترغيبا في الإيمان والطاعات وبالتالي الدخول في الجنة والتعميم بنعيمها، ثم ذكر الوعيد إنذارا من الكفر والمعاصي وترهيبا من عذاب النار والتعرض لأنواع عذابها. وقد عرضت هذه الآيات أحوال أهل الجنة وأهل النار بقدر من التفصيل، إذ ذكر أن أهل الجنة يلبسون في الجنة لباسا حريريا وأساور ذهبية ويحمنون الله تعالى على نعمه العظيمة، أما الكفار فهم في العذاب لا يموتون ولا يحيون فيه، ويصرخون فيه وينادون الله تعالى طالبين منه الخروج والعودة إلى الدنيا مرة أخرى، لكن لا يُسمع قولهم ولا يُستجاب لهم.

■ سياق الآيات:

ورد في الآيات السابقة ذكر بعض مظاهر القدرة الربانية، ثم جاء ذكر المؤمنين الذين يملكون كتاب الله ويقيمون الصلاة، كما ذكر أن لهم أجرهم عند ربهم يعطاهم إياه كاملا لا نقص فيه ولا عيب. ثم قيل إن هذا الكتاب الذي أوحى إلى محمد ﷺ هو الحق مصدق لما بين يديه، والمؤمنون هم الوارثون لهذا الكتاب، وهم ثلاثة أصناف، فمنهم

من يظلم نفسه بالإفراط في بعض الواجبات وارتكاب المحرمات، ومنهم المقتصد الذي يفعل الطاعات ويقع في المعاصي، ومنهم السابق بالخيرات بإذن الله. ثم ذكر في هذه الآيات أن هؤلاء المؤمنين يدخلون الجنة ويتمتعون بنعيمها، وأعقبه ذكر لأعدائهم وهم الكفار وأحوالهم يوم القيامة.^(١)

■ تفسير الآيات:

إن الأصناف الثلاثة السابقة الذكر والتي هي الظالم لنفسه والمقتصد والسابق بالخيرات تدخل جنات الإقامة التي يلبسون فيها أساور ذهبية مرصعة باللؤلؤ في أيديهم، ولباسا مصنوعا من الحرير الخالص. وحين يستقر للمؤمنون في هذه الجنات يحمدون الله تعالى قائلين: الحمد والثناء على الله الذي أزال عنا جميع أنواع أحزان الدنيا والآخرة ومخاوفهما، ويثنون على رحم بأنه غفور حيث غفر عنهم ذنوبهم وسيئاتهم، وشكروا حيث شكرهم على صنيعهم بإدخالهم الجنة. ثم يحمدون الله تعالى على نعمة البقاء والراحة في الجنة، ويشكرونه على أنه أسكنهم الجنة التي هي دار إقامة دائمة، لا خروج منها ولا تحول عنها، وأعطاهم هذه المنزلة وهذا المقام بمحض فضله وإحسانه، لا بسبب أعمالهم التي لا تستحق هذا المقام العظيم، كما يحمدون الله على أنهم لا يتعرضون هنا لشيء من العمل والتعب، إذ ليس في الجنة تعب ولا مشقة ولا كلفة، لا روحانية ولا جسمانية، كما كان الحال في الدنيا، بل فيها راحة دائمة.^(٢)

وقد أشار الرازي رحمه الله إلى السر في ذكر الأساور دون سائر الحلى بقوله: "ذكر الأساور بين سائر الحلى لأن التحلى يكون بمعنيين:

(أ) إظهار كون المتحلى غير مبتذل في الأشغال، لأن التحلى لا يكون حالة الشغل.

(ب) إظهار الاستغناء عن الأشياء والقدرة عليها. (عدم الحاجة إلى شيء).^(٣)

وبعد ذكر حال المؤمنين ومقرهم ذكر حال الكافرين، لأن المقارنة تبعث في النفس الطمأنينة والراحة، وفيه دليل على أن الأصناف الثلاثة المذكورة للمؤمنين في الجنة، والذين كفروا هم أعدائهم. هؤلاء لهم نار جهنم، يدخلونها ويحذرون فيها، ولا يحكم عليهم فيها بموت ثان، لأنهم إذا ماتوا بطلت حواسهم فاستراحوا، وليس لهم في النار راحة، لذا لا يموتون فيستريحوا من عذاب جهنم، ولا يخفف لهم من هذا العذاب، بل يبقى شديدا عليهم. وهذا هو جزاء كل

(١) راجع: الآيات ٢٧ - ٣٧ من سورة فاطر.

(٢) يُنظر: التفسير الوسيط، للواحدى، تحقيق: عبدل للوجود وآخرون، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م، ٥٠٦/٣، المحرر الوجيز، لابن عطية، ٤٤٠/٤، زاد المسر في علم التفسير، لابن الجوزي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ط ١، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٤٢٢ هـ، ٥١٣/٣ - ٥١٤. التفسير الكبير، للرازي، ٢٤٦/٢٦ - ٢٤٣. البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان، ٣٣/٩ - ٣٧، التحرير والتنوير، لابن عاشور، ٣٢٤/٢٢ - ٣٢٠. التفسير المنير، للزحلي، ٢٦٤/٢٢ - ٢٧٣.

(٣) مفاتيح الغيب، للفتح الرازي، ٢٤٠/٢٦.

كافر شديد الكفر. هؤلاء الكفار يصرخون فيها ويصيحون أشد الصياح، فيقولون ربنا أخرجنا من هذه النار، وودنا إلى الدنيا نعمل أعمالا صالحة غير الأعمال التي كنا نجسبها صالحة في الدنيا، فنؤمن بدل الشرك ونطيع بدل المعصية ونمثل أوامر الرسل. وفي ذلك إشارة إلى أنهم سيظهر لهم فساد عملهم، وأنهم سيندمون أشد الندم على أفعالهم، ويتحسرون على ما عملوه من غير الصالح ويقرون به. ولكن لا يستجاب لدعوتهم، بل يقال لهم توبوا وتقرروا: ألم نيقمكم مدة من العمر كافية للتذكر إذا أردتم التذكر، وقد جئكم الرسول المنذر ومعكم الكتاب. ثم يقال لهم تحكما بهم ذوقوا عذاب جهنم، فليس لكم اليوم ناصر ينقذكم مما أنتم فيه من العذاب، ولن يزول العذاب عنكم أبدا. (١)

إنه بالتأمل في هذه المقابلة البديعة التي أجراها القرآن الكريم بين الجنة وأهلها والنار وأهلها تتضح لنا عدة فروق بين الاثنين، وهي التي أراد الله بيانها بهذا الربط بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد. ومن هذه الفروق أن أهل الجنة يدخلون جنات الإقامة التي يسكنونها مع أحبهم ويأتسون فيها بمعيتهم، لا يخرجهم منها شيء ولا يحول بينهم وبين نعيمها حائل. أما أهل النار فهم يدخلون نار جهنم التي هي مأواهم ومسكنهم إلى الأبد، والتي يواجهون فيها العذاب المقيم الذي لا يزول عنهم أبدا، وليس فيها تصور لقرب الأحبة والأقرب بهم. فكلما يخلد في دار جزائه إلى الأبد دون خروج، ولكن الفرق بينهما يكمن في أن أهل الجنة يفرحون بهذا الخلود، بينما يحزن أهل النار بسببه، حيث يتمنون الموت ولكنهم لن يموتوا فيستريحوا من للعذاب الشديد ولن يخفف عنهم هذا العذاب، بل يبقى شديدا قاسيا عليهم. قال رسول الله ﷺ: "إِذَا صَارَ أَهْلُ الْجَنَّةِ إِلَى الْجَنَّةِ وَأَهْلُ النَّارِ إِلَى النَّارِ، جِيءَ بِالْمَوْتِ حَتَّى يُجْعَلَ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ لَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ لَا مَوْتَ. فَيَزْدَادُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فَرَحًا إِلَى فَرَحِهِمْ وَيَزْدَادُ أَهْلُ النَّارِ حُزْنًا إِلَى حُزْنِهِمْ". (٢)

وكذلك فإن أهل الجنة يكونون فرحين فيها بما آتاهم الله تعالى من فضله، ويحمدونه على تفضله وإحسانه عليهم بإزالة جميع أنواع الخوف والحزن عنهم، كما يشنون عليه، لأنه غفر لهم ذنوبهم وسعاهم، وشكر لهم طاعاتهم وصنيعهم بمنح هذا الجزاء الطيب، وأسكنهم دار الإقامة من فضله، الدار التي لا تعب فيها ولا مشقة. أما أهل النار بمقابلتهم فهم يصرخون في العذاب أشد الصراخ - واستخدم لهذا الصراخ لفظ "يصرخون" ليدل على شدته وزيادته، فإن زيادة اللفظ يدل على زيادة المعنى -، ويطلبون من الله تعالى أن يخرجهم من هذا العذاب الشديد، ويترجعهم إلى الدنيا ليعملوا عملا صالحا بدل العمل الذي عملوه، وهم في الدنيا يحسبونه صالحا، ولكن الله لن يستجيب لطلبهم، بل يوبخهم على صنيعهم، ويقول لهم: قد أوتيتم أعمارا تكفي للعظة والتذكر لمن أراد ذلك، وقد جاءكم النذير الذي

(١) يُنظر: التفسير الوسيط، للواحدي، ٥٠٦/٣. المحرر الوجيز، لابن عطية، ٤٤٠/٤. زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي،

٥١٣/٣ - ٥١٤. للتفسير الكبير، للرازي، ٢٤١/٢٦ - ٢٤٢. البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان، ٣٣/٩ - ٣٧. التحرير

والتنوير، لابن عاشور، ٣١٤/٢٢ - ٣٢٠. التفسير المبرر، للزحلي، ٢٦٤/٢٢ - ٢٧٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، ص ١١٣٤، حديث رقم ٦٥٤٨، من حديث ابن عمر.

خوفكم من هذا المصير الذي أقيم فيه الآن، فلم تستمعوا له ولم تطيعوه، فليس لكم الآن ناصر ينصركم من العذاب الذي قضي به عليكم.

وأيضاً فإن أهل الجنة يلبسون الأساور الذهبية المرصعة بالؤلؤ، والثياب الحريرية التي لا تفتى ولا تضي، وقد وصف رسول الله ﷺ هذه الثياب والأساور بقوله: "لَوْ أَنَّ مَا يَهْلُ ظَفَرٌ بِمَا فِي الْجَنَّةِ بَدَأَ لَعَزَّخَرْتُ لَهُ مَا بَيْنَ خَوَافِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ^(١)، وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَطْلَعَ قَبْدًا أَسَاوِرُهُ لَطَمَسَ ضَوْءُ الشَّمْسِ كَمَا تَطْمَسُ الشَّمْسُ ضَوْءُ النُّجُومِ".^(٢) وقال ﷺ: "مَنْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ يَنْعَمُ لَا يَبْئَسُ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ وَلَا يَفْقُ شَبَابُهُ".^(٣) أما ثياب أهل النار بمقابلتهم فهي مصنوعة من قطران ومن نيران، وليست لهم الأساور التي تحلهم وتزينهم مثل أهل الجنة، بل لهم الثياب النارية الذي لا يفيد إلا في الزيادة من عذابهم وألمهم.

ومن آيات أخرى نعرف أيضاً أن أهل الجنة يكونون في الجنة فرحين مسرحين مع بعضهم البعض، ليس في قلوبهم غل ولا حقد ولا حسد ضد بعضهم البعض، بل يكونون إخواناً يجلسون على سرر متقابلين يتمتعون معا بنعيم الجنة المبرور. وقد دخل عليهم الملائكة، وتسلم عليهم وتحييهم، كما أنهم لا يسمعون شيئاً من لغو الكلام. أما أهل النار فهم يتخاصمون في جهنم ويتجادلون، إذ تلعن كل أمة أختها، ويلوم بعضهم بعضاً على الدخول في النار، وكل واحد يعتبر غيره سبباً في ضلاله ودخوله النار، داعياً الله تعالى الزيادة والمضاعفة من عذاب غيره. ويضيف إلى عذابهم توبيخ الملائكة لهم فيزدادون حسرة وندامة على ما فاتت، ولا يفتحهم الندم يومئذ.

وبالجملة فإن الجنة دار قرح واستبشار، والنار دار عذاب وحزن، ولا يخرج أحد من أهلها منهما، بل يقرون فيهما إلى الأبد. تسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهل الجنة الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وينجينا من عذاب النار الملقى بالأحران والمخاوف.

(١) ومعنى ذلك أنه لو ظهر للناظرين في الدنيا من نعيم الجنة قدر ما يستقل بحمله ظفر ويحمل عليه الخيزنيت بسببه جولنب السماوات والأرض.

ينظر: تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى، لأبي العلا المباركفوري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٧/٧.

(٢) أخرجه الترمذى في سننه، كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في صفة أهل الجنة، ص ٥٧٦، حديث رقم ٢٥٣٨، من حديث سعد بن أبي وقاص. وقال الترمذى: هذا حديث غريب لا نعرفه بهذا الإسناد إلا من حديث ابن طيبة. وقد روى يحيى بن أيوب هذا الحديث عن يزيد بن أبي حبيب، وقال: عن عمر بن سعد بن أبي وقاص.

وصححه الألباني وقال إسناده جيد ورجالته ثقات كلهم رجال مسلم.

ينظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، للألباني، ط ١، مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م، ١١٧٤/٧.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة ونعيمها، باب في دوام نعيم أهل الجنة، ص ٢٢٢، رقم ٥١٥٦، من حديث أبي هريرة.

المبحث الرابع:

ذكر النقيضين وما يترتب عليهما

إن من الأساليب التي استخدمها القرآن الكريم في مقارناته بين أمور متعددة ما يمكن أن يُسمى ذكر النقيضين وما يترتب عليهما. والأمران المتناقضان هما الأمران المختلفان اللذان لا يمكن اجتماعهما في وقت واحد، ولا لارتفاعهما في وقت واحد.^(١) وقد قارن القرآن الكريم بين مثل هذه الأمور، وبين الفرق بينهما والآثار المترتبة عليهما في مواضع متعددة، وذلك كما قرن في كثير من الآيات بين الليل والنهار، والربا والإنفاق في سبيل الله، والمؤمن والكافر، ونحو ذلك من الأمور.

❖ أمثلة على هذا الأسلوب للمقارنات:

إن من الأمثلة على استخدام القرآن الكريم لهذا الأسلوب في مقارناته المتنوعة ما يلي:

- ١- قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّعِبْتُمْ فَضُلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾.^(٢)

هذه الآية فيها مقارنة بين الليل والنهار اللذين هما من آيات الله تعالى، إذ جمعت الآية بينهما وذكرت الآثار المترتبة عليهما. فلنذكر أن آية الليل محامها الله تعالى، وجعل آية النهار مشرقة مضيئة، ليسعي الناس ابتغاء الرزق والفضل من الله، كما يفيد اختلاف الليل والنهار في معرفة الأيام والأشهر والسنوات وغيرها من الحسابات التي يحتاج إليها الناس. وهذه هي الآثار التي تترتب على وجود الليل والنهار وتعاقبهما.

■ سياق الآية:

بدأت سورة الإسراء بذكر رحلة الرسول ﷺ من مكة إلى المسجد الأقصى، ثم جاء ذكر مولانا موسى عليه السلام، والكتاب الذي أنزل الله عليه والذي كان هدى لبني إسرائيل. ثم تطرقت الآيات بعدها إلى ذكر غيابة بني إسرائيل في الأرض، وعقاب الله تعالى لهم، وقيل: إن إحسانهم لا يعود بالخير إلا لأنفسهم وكذلك الإساءة، فالله لا يتفقه

(١) وليس المراد بالتناقض هنا ما هو معروف في علم المنطق بأن النقيضين المتناقضين هما المختلفان بالإيجاب والسلب، كما قال الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله: "النقيضان المتناقضان هما المختلفان بالإيجاب والسلب على وجه يقتضي لذاته أن تكون إحداها صادقة، والأخرى كاذبة، فإنا إذا قلنا العالم حادث وكان صادقا، كان قولنا العالم ليس بحادث كاذبا، وكذا قولنا قديم إذا عينا بالقديم نفى الحادث، فبهما دللنا على أحدهما فقد دللنا على الآخر، وبهما قلنا أحدهما فكانا قد قلنا الآخر".

معييار العلم في المنطق، لأبي حامد الغزالي، تحقيق: سليمان دنيا، دار المعارف، مصر، ١٩٦١م، ص ١٢١.

(٢) سورة الإسراء، آية ١٢.

إحسانهم ولا تضره إساءتهم. ثم جاء ذكر القرآن الكريم الذي يهدي الناس للتي هي أقوم، وفيه بشرى للمؤمنين والذار للكفار، كما ذكر أن الإنسان عجول يدعو بالشر كما يدعو للخير. وبعدها ذكرت الآية المذكورة أنها الفرق بين الليل والنهار اللذين هما من آيات الله الدالة على قدرته على الكون ووحدانيته.^(١)

■ تفسير الآية:

هذه الآية فيها بيان لبعض وجوه الهداية، بالإرشاد إلى طريق الاستدلال بالآيات والدلائل الكونية التي كل واحدة منها برهان واضح على قدرة الله. فقد آمن الله تعالى على خلقه بذلك أنه جعل الليل والنهار، بأخوالهما واختلافهما في الطول والقصر، وتعاقبهما على غط واحد مع إمكان غيره، علامتين تدلان على أن لهما إلها واحدا، خالقا قادرا، حكيما عليما. فجعل آية الليل مظلمة محووة الضوء، وجعل آية النهار مضيئة يبصر الناس فيها الأشياء. ووقد اختلف المفسرون في المراد بآية الليل وآية النهار على قولين:

- (أ) الإضافة بيانية، فالليل والنهار آيتان في أنفسهما، والمعنى: الآية التي هي الليل، والآية التي هي النهار.
- (ب) المراد بالآيتين الشمس والقمر، أي: جعلنا نرى الليل والنهار آيتين، أو: جعلنا الليل والنهار ذوي آيتين، وآية الليل هي القمر، وآية النهار هي الشمس، والآية تحتل الوجهين معا.

فجعل الله تعالى الليل مظلمًا وخلق فيه القمر مطموس النور في نفسه ليس له شعاع يُرى به الأشياء، أما النهار فجعله مضيئًا مشرقًا، وخلق فيه الشمس المشرقة التي لها أشعة دائمة يمكن بها رؤية الأشياء. ثم ذكر فائدة ذلك، وهي أن هذا الاختلاف بين الليل والنهار يفيد في طلب الرزق وأسباب المعيشة في ضوء النهار، والسكون في الليل. وأيضًا يفيد اختلاف الليل والنهار وحركتهما في معرفة الأيام والشهور والأعوام، والحساب والآجال المعنية للديون والعبادات والمعاملات. وكل ذلك فيه إقامة لمصالح العباد الدينية والدنيوية. ثم قال: وكل شيء يحتاجون إليه في أمور الدين والدنيا والمعاش والمعاد، يتناه بئانا شافيا يلغا لا الشباس فيه، فأزلنا غللكم وما تركنا لكم حجة علينا.^(٢)

إن الليل والنهار آيتان من آيات الله تعالى الدالة على وحدانيته وعظيم صنعه لما فيهما من اختلاف كبير، ومع وجود هذا الاختلاف لا يطغى أحدهما على الآخر ولا يتجاوز عمله وكيفيته، بل يأتي كل واحد منهما في وقته، ويظل للعدة المعنية التي قررها الله له، ثم يذهب ليعقبه الآخر. وكلاهما فيه فائدة للبشر، إذ لا يمكنهم العيش بأحدهما مع فقدان الآخر، ومع هذا التناوب بينهما إلا أن بينهما فروقا متعددة. فالليل جعله الله مظلمًا، كما جعل علامته، أي: القمر، مطموس الضوء، ليستريح فيه الناس، ويتفرغوا لأداء العبادات والصلوات، وليناموا فينشطوا ليومهم الآتي،

(١) راجع: الآيات ١ - ١٢ من سورة الإسراء.

(٢) يُنظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني، ٣/٢٢٤. الكشف، للزعروري، ٢/٦٥٣. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي،

٣/٤٥٠. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٥/٤٦ - ٤٧. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود، ٥/١٥٩.

- ١٦٠، التفسير المظهر، محمد ثناء الله ٥/٤١٩ - ٤٢٠.

ويستريحوا من همومهم بالدعاء إلى الله تعالى والتضرع إليه، والصلاة له في جوف الليل في الخلوة التي هي أعظم أوقات التقرب إلى الله تعالى.

أما النهار فقد جعله الله مضيئا مشرقا، وجعل فيه الشمس التي تصدر أشعتها لفائدة الناس. وهذا النهار يخرج فيه الناس ابتغاء فضل الله، وطلباً للرزق لأنفسهم وعيالهم، ويتعاملون مع الناس فيه. ولا شك أن هذا أيضا ضروري لاستمرار حياة البشر على وجه الأرض.

وفي تعاقب الليل والنهار وحركتهما فائدة أخرى أيضا وهي معرفة الأيام والأشهر والسنوات، وحساب الأمور الضرورية التي يحتاج إليها الناس في أمور حياتهم اليومية.

ومع هذه الفروق المهمة بينهما إلا أنهما يجتمعان في كونهما خلقا لخدمة البشر وشجرا لفائدتهما، ليستفيد منهما العباد في عبادة الله تعالى وعمارة الأرض، وأداء الواجبات التي وضعها الله تعالى على عاتق البشرية جمعا.

٢- قال الله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبِّا لَيْرَبُّوَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَزَبُّوَا عِنْدَ اللَّهِ ۚ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْطَرِقُونَ﴾ (١).

هذه الآية فيها مقارنة غير صريحة بين الربا والزكاة بأسلوب غير صريح بلكر النقيضين، حيث ذكر الربا والزكاة معا، ثم ذكرت آثارهما من حيث المضاعفة في المال والقبول عند الله تعالى. فبين الله تعالى أن الربا الذي يقصد به الزيادة في الأموال لا يزيد به المال عند الله في حقيقة الأمر، أما الزكاة التي يؤديها الإنسان ابتغاء وجه الله فهي التي تزيد من مال الإنسان، حيث يقبلها الله منه، ويضاعف له في الأجر ويبارك للمعزكي في ماله.

■ سياق الآية:

تحدثت الآيات السابقة لهذه الآية من سورة الروم عن أحوال الناس في السرء والضراء، فذكرت أنهم في الضراء يرجعون إلى الله تعالى، ويطلبون منه كشف الضر، وعند السرء يشركون بالله. وكذلك بينت أنهم يفرحون عند النعم ويقتنون عند المصائب، والله هو الذي ييسر الرزق لمن يشاء ويقدر، وفي كل ذلك آيات للمؤمنين. ثم أمر الله الناس بإعطاء ذوي القربى حقهم والمسكين وابن السبيل، وصرح بأن الذين يفعلون هذا هم المفلحون. ثم قارن في هذه الآية بين الزكاة والربا من حيث الزيادة في المال والقبول عند الله، موضعا حقيقة الأمر، وهي أن الزكاة هي المقبولة عند الله تعالى، وهي التي فيها البركة (٢).

(١) سورة الروم، آية ٣٩.

(٢) راجع: الآيات ٣٣ - ٣٩ من سورة الروم.

■ تفسير الآية:

يعد العزيب في إعطاء المال لذوي الحاجة وصلة الرحم، وذكر ما في ذلك من القلاص، جاء بيان نوع من إعطاء المال لا يُرضى الله سبحانه وتعالى، وهو الربا. فقول: إن الربا الذي تعطون فيه الأموال لتزيد فيها، لا يباركه الله ولا يضاعف أجره. وقد اختلف المفسرون في المراد بالربا في هذه الآية، فذكروا في ذلك قولين:

(أ) أن المقصود به هبات الثواب، والمراد بذلك أن يعطي الإنسان غيره هدية أو هبة يريد بها أن يعوضه من أعطاه أكثر منها، ولا يريد به وجه الله. وهذا ليس بحرام؛ ولكنه وإن كان لا إثم فيه فلا أجر فيه ولا زيادة عند الله.

(ب) أن المراد بذلك الربا المعروف في التجارة، والذي كان متشعرا في الجاهلية. فبعد البحث على نفع ذوي القرى والفقراء ذكر الله أن الربا الذي يريد به الناس الزيادة في أموالهم، لا يزيد عند الله ولا يزكو، بل يكون سببا في الإثم ومحو البركة من المال؛ وذلك لهجتبوا عن التعامل بالربا، لأنها تنافي المواساة، حيث إن فيها استغلال لحاجة الفقير واضطراره؛ وذلك لا يليق بالمؤمن.

وكلا النوعين من أنواع الربا لا بركة فيهما ولا أجر عند الله تعالى، وهما مخالفان للإتفاق في سبيل الله ابتغاء وجهه تعالى. ثم ذكر الله أن الصدقات الواجبة والمستحبة التي يعطيها الإنسان مبتغيا بها وجه الله، طالبا رضاه ورحمته دون رياء وسعة ولا طلب مكافأة من أحد، هي التي يقبلها الله تعالى، ويبارك في أموال أصحابها، ويضاعف له في الأجر والثواب أضعافا مضاعفة. وهذه الصدقات هي التي تنمي المال وتطهره. وجاء بضمير الفصل "هم" لتعصر جنس المضعفين على هؤلاء، وفي استخدام اسم الإشارة الذي للبعيد "أولئك" تنويه بهم، ودليل على أنهم جديرون بالفلاح. (١)

وقال الزمخشري رحمه الله: في قوله "أولئك هم المضعفون" الصفات حسن، كأنه قال ملائكته وخواص خلقه: فأولئك الذين يريدون وجه الله بصلقاتهم هم المضعفون. (٢)

ذكرت الآية بعض الفروقات الأساسية التي تفرق بين الربا وبين الزكاة والصدقات، مع أن كليهما متعلقان بالمال. فالربا يكون بالأخذ من مال الآخرين بغير حق، ويكون فيه استغلال للفقير أو المحتاج، أما الصدقات بجميع أنواعها الواجبة والمستحبة تكون بإعطاء للفقراء والمحتاجين من الأموال التي رزقها الله الأثنياء من البشر، ومساعدتهم في وقت الحاجة، ليخرجوا من ضيقهم، ولا يكون فيه استغلالا للفقير.

(١) يُنظر: المحرر الوجيز، لابن عطية، ٣٣٩/٤. الدر المنصور في علوم الكتاب للكنون، للسمين الحلبي، ٤٧/٩. فتح القدير،

للشوكاني، ٢٦٢/٤. التحرير والتنوير، لابن عاشور، ١٠٥/٢١ - ١٠٧. التفسير المنير، للوحي، ٩٢/٢١ - ٩٤. أيسر التفاسير،

لأبي بكر جابر الجزائري، ١٨٢/٤ - ١٨٣.

(٢) الكشاف، للزمخشري، ٤٨١/٣.

وكذلك فإن الريا يقصد به الزيادة من الأموال في الدنيا، ويكون غرض الإنسان أن يكون غنيا في الدنيا، إذ يكون جل همه في ذلك هذه الدار الفانية. أما الصدقات فتبذل لأجل وجه الله فقط، وطلبها لمرضاته دون طلب مكافأة من أحد، ويكون كل هم المتصدق نيل رضا الله، والحصول على ما عنده من الثواب.

ومن الفروق بينهما أيضا كما ذكرت الآية الكريمة أن الأموال المأخوذة عن طريق الريا لا تزيد في نظير الله، فلا يكون الريا سببا للبركة في المال، ولا في الأجر والثواب أبدا. أما الصدقات فهي التي تبارك في مال الإنسان، ولا تنقص منه أبدا، وإن بدا للإنسان في ظاهر الأمر أنها تنقص من الأموال، فهي لا تنقص منه بل تزيد فيه، كما أخبرنا نبينا عليه الصلاة والسلام،^(١) والصدقات هي التي تقبل عند الله، وهي التي يضاعف الله الأجر والثواب عليها، ويزيد فيها بالبركة والنماء. قال رسول الله ﷺ: "مَا تَصَدَّقَ أَحَدٌ بِصَدَقَةٍ مِنْ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، إِلَّا أَخَذَهَا الرَّحْمَنُ يَمِينِهِ، وَإِنْ كَانَتْ عَمْرَةً، فَغَرَبُوا فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ حَتَّى تَكُونَ أَكْظَمَ مِنَ الْجَبَلِ، كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلَوْهُ أَوْ فَصِيلَةٌ".^(٢) وقد قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الْزَبَا وَالزَّبَا وَيُزِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾.^(٣) فالصدقات هي التي تزيد من مال الإنسان وأجره في حقيقة الأمر، أما الريا فيمحقه الله. وكذلك فإن الريا يفضب الله، أما الصدقات فهي تطفئ غضب الله.

وأعظم من ذلك كله أن الريا يعتبر إيلانا بالحرب من الله ورسوله في الدنيا، والدخول في النار في الآخرة، بخلاف الصدقات التي تطفئ غضب الرب وتؤدي إلى الحصول على مرضاته.

(١) قال رسول الله ﷺ: "مَا تَصَدَّقَتْ صَدَقَةٌ مِنْ قَالٍ، وَمَا رَأَى اللَّهُ عَبْدًا يَغْفُو إِلَّا عَزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ".

أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب استجابات الغفو والتواضع، ص ١٣١ حديث رقم ٦٥٩٢، من حديث أبي هريرة. وأخرجه الترمذي في سننه، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في التواضع، ص ٢٦٧، حديث رقم ٢٠٢٩. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتبرئتها، ص ٤٠٨، حديث رقم ٢٣٤٢، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) سورة البقرة، آية ٢٧٦.

المبحث الخامس

ذكر الفروق بين الطرفين

يعتقد القرآن الكريم مقارنة بين طرفين أحيانا بالتعرض إلى الفروق الواقعة بينهما؛ فيذكر طرفين مختلفين، ثم يبين الفروق التي تجعل أحدهما يختلف عن الآخر، ليتمكن الإنسان من إدراك الفرق بينهما، ويميز بين خيرهما وشرهما، فيختار خيرهما وأنفعهما له في الدنيا والآخرة، ويبتعد عن شرهما وأضرهما به في الدارين.

فمثلا وضح القرآن الفرق بين أصناف الناس المختلفة في التعامل مع القرآن الحكيم، وخاصة الآيات للتشابهات منه، فذكر أن بعض الناس في قلوبهم زيغ، فيتبعون التشابهات طلبا للفتنة، ومقابل هؤلاء يوجد الراسخون في العلم الذين يؤمنون بكل ما أنزل الله من حكم وتشابه، وإن لم يعرفوا محتواه. (١) وأيضا ذكر في مواضع متعددة الفروق بين الإله الحقيقي الذي يستحق العبادة وحده، والآلهة الباطلة التي لا تستحق الألوهية، ونحو ذلك من الأمور المختلفة. فيوضح القرآن الكريم الفروق الواقعة بين هذه الأمور المتنوعة التي تارة تارة بينها، لبيان خيرهما وأنفعهما للعبدة.

❖ أمثلة على المقارنات باستخدام هذا الأسلوب:

إن من الأمثلة على استخدام القرآن الكريم لهذا الأسلوب في مقارناته ما يلي:

- ١- قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ آلَهُ عَلَىٰ مَا فِي قُلُوبِهِمْ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ۖ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ۖ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِفْمِ ۖ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ۚ وَلَيْسَ إِلَهَ الْبَهْدِ ۖ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُفَرِّي نَفْسَهُ إِيغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ رَعُوفٌ بِالْعِبَادِ ۖ﴾. (٢)

تقارن هذه الآيات بين المؤمنين الذين أخلصوا في إيمانهم بالله تعالى، وبين المنافقين الذين يخالف ظاهرهم باطنهم؛ يذكر الفروق بينهما، فذكر أولا أن هناك صنفا من الناس تعجب الناس أقوالهم في الحياة الدنيا، ولكنهم في الحقيقة شديداو العداوة للإسلام والمسلمين، يحبون الفساد في الأرض ويهلكون الحرث والنسل في حين أن هناك صنفا

(١) قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾. سورة آل عمران، آية ٧.

(٢) سورة البقرة الآيات ٢٠٤ - ٢٠٧.

آخر من الناس، وهو يشتمل على المخلصين من المؤمنين الذين يبيعون طلبا لرضا الله عز وجل، فلا يعملون إلا ما يرضي الله في الدنيا، ويتعدون كل البعد عن الفساد في الأرض.

■ سياق الآيات:

وردت الآيات في سياق الحديث عن الحج وأحكامه، حيث أمر الناس بذكر الله تعالى في أيام الحج كذكرهم آبائهم، بل أكثر من ذلك وأشد، ثم قيل إن بعض الناس يطلبون الدنيا فقط، ولا رغبة لهم في الآخرة، وآخرون يطلبون خيري الدنيا والآخرة، وكل له نصيب مما كسب وبما طلب. ثم أمر الله الناس مرة أخرى بذكر الله تعالى في أيام الحج للعبادة كما أمرهم بالتقوى. وبعد ذلك سبقت هذه الآيات لتبين الفروق بين المؤمنين المخلصين، والمنافقين في الحياة الدنيا من حيث أقوالهم وأفعالهم.^(١)

■ تفسير الآيات:

قال الإمام أبو زهرة^(٢) رحمه الله: "ذكر الله تعالى أن الناس فريقان:

(أ) فريق الخير أهل النفاق وهم الداء، وهم ذن الأمة، بل السرطان الذي يقضي عليها إن لم يبتك من أصله.

(ب) الذين يتولون العلاج، وهم الأخيار الذين شروا أنفسهم ابتغاء مرضاة الله".^(٣)

وقد بدأت الآيات الكريمة بذكر أحوال الفريق الأول، وهم المنافقون الذين يظهرون بخلاف ما يظنون، ووضحت صفتهم، فقيل: إن هناك صنفا من الناس يكلمون كلاما حسنا يتعجب منه الناس، والتعجب حيرة تعرض للإنسان لجهله بسبب المتعجب منه، فيؤثر هذا الكلام في نفوس الناس ويعظم فيها، ويكون كله عن أمور الدنيا وأسباب للنفاق. ويصح أن يكون المراد يعجب الناس قلوبهم، وهم في الحياة الدنيا التي يؤخذ فيها بالظواهر لحلاوة القول وفصاحته وحلو المنطق، ولا يكون لكلامهم ذلك الأثر في الآخرة، لأن مثل هؤلاء لا يؤذن لهم في الكلام، وإذا أذن لهم لن يستطيعوا الكلام بسبب الموقف الصعب الذي هم فيه. ومثل هؤلاء يوهمون في الدنيا أنهم من المؤمنين الصادقين، يحبون الله ورسوله ويتقون الله في السر والعلانية، ويحلفون بالله ويستشهدون به على أن ما في قلوبهم موافق لكلامهم، حيث يقولون: الله شاهد على أن ما في قلوبنا موافق لما نقول ونظهره للناس. وهؤلاء في حقيقة

(١) راجع: الآيات ٢٤٠ - ٢٠٧ من سورة البقرة.

(٢) هو محمد بن أحمد أبو زهرة، من أكبر علماء الشريعة في عصره. ولد عام ١٣١٦ هـ. درس العلوم الشرعية والعربية، ثم التحق بكلية أصول الدين. عمل أستاذا في الجامعة، وكيلا لكلية الحقوق بجامعة القاهرة، وعضوا للمجلس الأعلى للبحوث العلمية. توفي عام ١٣٩٤ هـ. كتب كتابا كثيرة، منها: أصول الفقه، الأحوال الشخصية، محاضرات في مقارنة الأديان، وغيرها.

ينظر: الأعلام، للزركلي، ٢٥/٦ - ٢٦.

(٣) زهرة النفاس، لأبي زهرة، دار الفكر العربي، ٦٣٥/٢.

الأمم كاذبون في دعوائهم وهم شديداً العدواة والحصام والجنادل للمسلمين؛ ولكل من يظهرون له المحبة والمودة. ومن صفاتهم أيضاً أنهم إذا تولى أحد منهم في الأرض سعى فيها بالإثم والفساد. وورد في "قول" قولان:

(أ) أذهر وانصرف، وذهب بعد إلانة القول.

(ب) غلب وصار واليا.

وكلا المعنيين صحيحان ولا مانع من اجتماعهما معاً. فالمنافق إذا خرج عن مجلس المسلمين سعى في الأرض ومضى فيها يقطع الأرحام وسفك الدماء وإفساد نظام البيوت، ويستمر في الإفساد، ولو أدى ذلك إلى إهلاك الحرث والنسل، وإذا صار والياً سعى للإفساد في الأرض، بالظلم والعدوان وتخريب العمران، كما يفعل ولادة السوء الظالمين. والله تعالى لا يحب الفساد ولا للفاسدين. ومن صفات هذا الصنف من الناس أنهم إذا أمروا بتقوى الله تعالى استكبروا، حيث تحملهم الأنفة وحمية الجاهلية على الإثم الذي يُنبهون عنه، وتشكّر نفوسهم عن قبول النصيحة. هؤلاء الناس تكفيهم جهنم التي تُحتر أسوأ أنواع الفرائش والمهاد. (١)

وبعد ذكر الذين يعتون داء الجماعات ذكر الصنف الآخر، وهم أهل الفضل الذين يعتبرون دواء هذا الداء وصلاح ذلك الفساد. فذكر أن هناك أناساً يبيعون أنفسهم، أي يتلونّها في طاعة الله من الصلاة والصيام والحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيفقدون دين الله والحق بأنفسهم وبكل ما يملكون، يذل النفس والنفس مع الإخلاص للحق والبراءة من النفاق، طلباً لرضا الله تعالى؛ إذ يملكون رغبة شديدة صادقة في نيل رضا الله الذي يضيئون لأجله بكل ما يملكون. والله سبحانه رؤوف بالعباد، ومن رأفته ورحمته بهم إرشادهم لما فيه رضاه وقبول ثوبتهم وجعل النعيم الدائم جزاء على العمل القليل المنقطع، ومن رأفته أيضاً أنه اشترى من الناس أنفسهم وأموالهم مقابل الجنة، مع أن هذه الألقى والأموال هي في حقيقة الأمر ملك له؛ فاشترى ملكه بملكه تفضلاً منه وإحساناً. (٢)

ذكرت الآية صنفين من الناس الموجودين على وجه الأرض. الأول منهما ظاهره طيب جليل، إذا تكلم في أمور الدين والدنيا أثار في الناس، وتعجب الناس من حسن بَيَانِهِ وحلاوة منطوقه، وهو يظهر المحبة والمودة والإخلاص للمخاطب، وفي خلال كلامه يجعل الله تعالى شهيداً عليه؛ فيحلف بالله أحياناً ويشهده على ما في قلبه أحياناً أخرى، مع أنه في الحقيقة على خلافه؛ إذ هو في الواقع عدو للود للإسلام والمسلمين. وقلبه مليء بالعدواة والبغضاء للإسلام ورسوله وأتباعه، لكنه يظهر خلاف ذلك؛ ليخدع المسلمين، ويؤثر فيهم، ويكسب ثقتهم ومحبتهم؛ وذلك ليسهل عليه الظعن فيهم، وإيقاع الضرر عليهم. ويشهد على كونه عدواً مجادلاً للمسلمين أنه إذا خرج عن مجلس

(١) يُنظر: النكت والعيون، للمؤرخ، ٢٦٥/٩ - ٢٦٦. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للشيخ أبي بكر، ١٣٣/١. مدارك التنزيل وحقائق التأويل، للشيخ، ١٧٤/١ - ١٧٥. كتاب التأويل، للبخاري، ١٢٦/١ - ١٣٩. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للآلوسي، ٤٩١/١ - ٤٩٢. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م، ١٩٦/٢ - ١٩٩. زهرة التفاسير، لأبي زهرة، دار الفكر العربي، ٦٣٥/٢ - ٦٤٧.

(٢) يُنظر: المصادر السابقة.

المسلمين ومشي في الأرض، أو حمار والبنا فيها، أفسد في الأرض باتباع شرع غير الله والقتل والنهب والسلب وسفك الدماء، وإهلاك الحرث والنسل، بإيقاع العداوة والبغضاء بين الناس، وتسعير نار الحرب بينهم. والله لا يحب الفساد، لكن هذا الصنف من الناس لا يهمه رضا الله ومحبتة، بل شأنه شأن أعداء الله الذين يفعلون كل ما يغضب الله سبحانه وتعالى.

أما الصنف الآخر الذي ذكرته الآية فهو يشتمل على المؤمنين المخلصين الذين يستوي ظاهريهم وباطنيهم في الإيمان بالله، بخلاف الصنف الأول المشتمل على المنافقين. هؤلاء يفعلون ما يقولون، حيث تكون أفعالهم أيضا جميلة حسنة، بالإضافة إلى جمال أقوالهم وصدقها. وهم يبيعون أنفسهم طلبا لرضا الله تعالى؛ إذ إن رضا الله يعتبر أممى أمانيتهم. وأهم ما يسعون إليه بل كل ما يسعون إليه، كما أنهم لا يعملون عملا تدعوهم إليه شهواتهم ورغباتهم، بل يفعلون كل ما أمر الله به وكل ما يرضيه، ويبتعدون عن كل ما يغضبه سبحانه، فكأنهم باعوا أنفسهم لله تعالى، وتيقنوا من كونه مالكا لأنفسهم في حقيقة الأمر؛ إذ يعتقدون اعتقادا جازما يكون أنفسهم وأموالهم مملوكة لله تعالى، ومالكها هو الذي يستحق أن يتصرف فيها كما يريد، فتصدق أفعالهم هذا اليقين الجازم. إذ هم راضون قانعون بما أعطى الله، صابرون على كل أنواع البلاء والمصائب، مطمئنون عليها، لأنها من قدر الله، كما أنهم لا يتصرفون في أموالهم بأنفسهم إلا تصرفا يرضي الله، مع اجتناب كل ما يغضبه سبحانه.

وبهذه المقارنة البديعة انجلي الفرق بين عباد الله المخلصين والمنافقين، وتدعو الله تعالى أن يجعلنا من الأولين ويحبنا عن اتباع طريق الآخرين.

٢- قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ ءَاتَيْنَهُمُ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَبْدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ إِلَّا غُرُورًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَا ۖ إِنَّ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ۚ إِنَّهُ كَانَ خَلِيفًا عَفُورًا ۝﴾ (١).

قارنت الآية الكريمة بين الشركاء الذين يدعواهم المشركون من دون الله وبين الإله الحقيقي الذي هو الله الواحد للأحد، مبينة بعض الفروق المهمة بينهما. فذكر الشركاء أولا، وأشار إلى أنهم لم يخلقوا شيئا في الأرض ولا في السماء، كما أنهم لم يشاركوا الخالق في خلق شيء منهما. ثم ذكر أن الله تعالى وحده هو خالق السماوات والأرض، وهو ممسكها وما نعهما من السقوط والزوال، ولا أحد غيره يستطيع أن يمنعهما من ذلك. والله هو صاحب الحلم والقدرة؛ إذ لا يسقط السماء على الناس على الرغم من عهباتهم لله تعالى، وإشراكهم معه غيره في العبادة.

(١) سورة فاطر، الآيات ٤٠ - ٤١.

■ سياق الآيتين:

ذكر الله في الآيات السابقة أحوال أهل الجنة وأهل النار بقدر من التفصيل، ثم وضع أنه عالم غيب السماوات والأرض، وهو العالم بما يخفيه الناس في صدورهم وقلوبهم، وهو الذي يجعل الناس خلائف في الأرض، ولا ينفعه إيمان أحد كما لا يضره كفر آخر، بل إن كفر الإنسان يرجع بالخسارة عليه؛ لأنه يزيد من غضب الله على الإنسان، ومن غضب الله عليه فقد عسر كل شيء. ثم قارنت هاتان الآيتان بين الله تعالى خالق كل شيء وصاحب القدرة المطلقة، وبين الشركاء أصحاب العجز المطلق الذين لم يخلقوا شيئا في الأرض ولا في السماء. (١)

■ تفسير الآيتين:

بدأت الآيتان بذكر عجز الشركاء وضعفهم، والاحتجاج على الكفار في بطلان أمر أصنامهم فقال ابن عطية رحمه الله: "وقفهم النبي ﷺ بأمر ربه على أصنامهم وطلب منهم أن يعرضوا عليه الشيء الذي خلقته آلهتهم، لنقوم حججهم التي يزعمونها، ثم وقفهم مع انضاح عجزهم عن خلق شيء على السماوات هل لهم فيها شرك وظاهر أيضا. وبعد هذا وقفهم هل عندهم كتاب من الله ليبين لهم فيه ما قالوه". (٢)

لقد خاطب الله تعالى للمشركين، وقال لهم: أهيروني وأعلموني عن الذين جعلتموهم شركائي يزعمكم من الأصنام والأوثان وعبدقوهم من دوني، بأي شيء عبدقوهم وجعلتم له شركة في العبادة؟ هل خلقوا شيئا من الأرض؟ أم شاركوا الله عز وجل في خلق السماوات؟ أم أنزلنا عليكم كتابا فيه دلائل واضحة تدل على أن مع الله شريكا يستحق العبادة، أو كتابا كتب فيه أن الله لا يعبدكم على كفرهم وشركهم؟ ولا شك أنه ليس لهم شيء من ذلك، بل إنما يمد الظالمون أنفسهم غرورا، إذ اتبعوا أهواءهم وأمانيهم التي يتمنونها، وهي غرور وباطل، والغرور الذي كانوا يعدونه أنفسهم هو أن الأصنام تقرهم إلى الله تعالى وتشفع لهم عند الله، وأنهم لا يحاسبون ولا يعاقبون، وكل ذلك غرور وخداع لا أصل له. (٣)

وبعد ذكر فساد أمر الأصنام أخبر عن قدرته العظيمة، ليبين الشيء بضده، وتؤكد حقارة الأصنام بذكر عظمة الله تعالى، فأخبر أنه يحسك السماوات والأرض بقوته العظيمة حتى لا تضطربا وتتفلا عن مكانهما ولا تسقطا.

(١) راجع: الآيات ٣٣ - ٤١ من سورة فاطر.

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية، ٤/٤٤٢.

(٣) مظهر: النبكت والعيون، للملودي، ٤/٤٧٧ - ٤٧٨. تفسير القرآن، للسعدي، ٤/٣٦٢ - ٣٦٣. معالم التنزيل، للبغوي،

٣/٢٩٩ - ٧١٠. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية، ٤/٤٤٢ - ٤٤٣. زاد المسير في علم التفسيرة لابن الجوزي،

٢/٥١٤ - ٥١٥. الجلمع لأحكام القرآن، للقرطبي، ٢٤/٣٥٥ - ٣٥٧. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٤/٤٩٤.

وبين أنهما لو زالتا عن أماكنهما لن يقدر أحد على إمساكهما ومنعهما من الزوال إلا الله تعالى. قال السمعاني^(١) رحمه الله: "فإن قيل: ما معنى قوله: ولكن زالتا وهي لا تزول؟ والجواب: أن الله تعالى قد قال: ﴿كَذَٰلِكَ أَلَسْتُمُوهَ يُتَقَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتُجَرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ أن دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَتَا^(٢)، والله بمسكهما عن هذه الأشياء"^(٣). ويصح أيضا أن يكون المراد زوالهما يوم القيامة، فإذا جاء وقت زوالهما يوم القيامة لن يمنعهما أحد من ذلك. ثم ختم الآية ببيان أن الله تعالى حلیم خفور، فلا يعجل العقوبة، بل يرى عباده وهم يحصونه ويكفرون به ومع ذلك يمهلهم، ويغفر لهم ذنوبهم إن تابوا ورجعوا إليه^(٤).

"فإن قيل: فما معنى ذكر الحلم ها هنا؟ قيل: لأن السموات والأرض همت بما همت به من عقوبة الكفار، فأمسكهما الله تعالى عن الزوال لحلمه وغفرته أن يعاجلهم بالعقوبة"^(٥).

إن الفرق بين الله تعالى وبين مخلوقاته عظيم جدا لا يمكننا إدراكه، لأنه لا يمكننا إدراك ذات الله تعالى، ولكن الله تعالى ذكر في آيات من كتابه بعض الفروق التي تساعد الإنسان على فهم شيء من الفرق بين الله تعالى ومركأته، والتي تساعد الإنسان على الوصول إلى الاعتقاد الحق، ومعرفة الذات المستحقة للعبادة وحدها.

لقد ذكر الله تعالى في هاتين الآيتين الفرق بين الله تعالى وبين الشركاء، من حيث خلق السموات والأرض، اللذين هما من أعظم مخلوقات الله، والقدرة عليهما. فذكر أولا أن الأضنام وغيرها من الآلهة الباطلة التي يزعم المشركون أنها تستحق العبادة وتملك نفعتهم وضرتهم، لم تخلق شيئا من الأرض، ولم تكن لهم مشاركة في خلق السموات. والله سبحانه وتعالى وحده هو الذي خلقهما وأوجدهما من العدم، وليس عند الكفار دليل واضح ولا حجة قاطعة تدل على أن هذه الآلهة تستحق العبادة، وكل ما وعد الشيطان الظالمين أو وعده الظالمون بعضهم بعضا غرور وخداع لا حقيقة له.

(١) هو أبو المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني التميمي، الحنفي ثم الشافعي. برع أولا في فقه الإمام أبي حنيفة ثم انتقل إلى المذهب الشافعي، فصار إمام الشافعية بدمشق وبغداد. كان إمام عصره، وعلمًا بالتفسير والحديث والفقه والأصول. توفي عام ٤٨٩ هـ. من كتبه: المنهاج لأهل السنة، تفسير القرآن، القواطع في أصول الفقه، وغيرها.

ينظر: طبقات المفسرين، للناوذي، ٣٣٩/٢ - ٣٤٠. طبقات المفسرين، للأدنه وي، ص ١٤٣ - ١٤٤.

(٢) سورة مريم، الآيتان ٩٠ - ٩١.

(٣) تفسير القرآن، للسمعاني، ٣٦٣/٤.

(٤) ينظر: البكت والعمون، للناوذي، ٤٧٧/٤ - ٤٧٨. تفسير القرآن، للسمعاني، ٣٦٢/٤ - ٣٦٣. معالم التنزيل، للبخاري،

٦٩٩/٣ - ٧٠٠. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية، ٤٤٢/٤ - ٤٤٣. زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي،

٥١٤/٣ - ٥١٥. الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ٣٥٥/١٤ - ٣٥٧. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٤٩٤/٤.

(٥) معالم التنزيل، للبخاري، ٧٠٠/٣.

وبعد ذكر عجز الأصنام وإثبات عدم خلقها ولا مشاركتها في خلق السماوات والأرض، بين الله أنه لم يترك السماوات والأرض بعد خلقهما، بل إنه قادر مهيم عليهما، وهما في قبضته، وهو الذي يمسكهما ويمنعهما من السقوط والزوال عن أماكنهما. قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَيُنْذِرُكَ أَنَّ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾^(١). ولو لم يمسكهما الله لزلتا، ولأنه لا يفكر أحد سوى الله على منعهما من الزوال إن شاء الله زوالهما من مواضعهما، فالله فقط لا غيره هو المانع لهما من السقوط والوقوع على أهل الأرض؛ وما ذاك إلا لحلمه بالناس وغفرانه لذنوبهم ومعاصيهم، مع أن معاصيهم وخاصة الشرك كافية لانشقاق الأرض وانفطار السماء ووقوعها على الناس، نسأل الله معافاته ومغفرته.

(١) سورة الحج، آية ٦٥.

المبحث السادس:

استخدام أسلوب فيه إنكار وتهكم وتوبيخ

❖ معنى الإنكار والتهكم والتوبيخ:

يُخرج الاستفهام في كلام العرب كما سبق بيانه عن معناه الحقيقي الذي هو طلب الإفهام إلى أغراض متعددة، ومنها: الإنكار والتهكم والتوبيخ.

والاستفهام المستخدم في الإنكار هو الذي يكون بمعنى: "النفي مع الإنكار على المثلث كيف أثبت ما هو ظاهر النفي، وكان الواجب عليه أن ينفي، أو مع الإنكار على المخاطب فضيخته وهي باطلة في تصور موجه الاستفهام ... وقد يشرب الإنكار معنى التوبيخ والتقريع".^(١)

وأما الاستفهام الذي غرضه التوبيخ فهو ما يكون فيه "اللوم الشديد والتوبيخ على فعل شيء غير حسن في نظر موجه الاستفهام، أو ترك فعل كان ينبغي القيام به في نظر موجه الاستفهام".^(٢)

ويأتي الاستفهام أيضا بغرض التهكم والسخرية من المخاطب على القيام بأمر واضح البطلان.

لقد استخدم القرآن الكريم في مقارناته أسلوبا جمع بين الإنكار والتهكم والتوبيخ في آن واحد، فأنكر على الناس قيامهم بعمل باطل، وعاتبهم عتابا شديدا ووجههم وعنفهم على القيام به، كما استهزأ وتهكم بهم على أداء هذا الفعل الذي يعرف كل واحد فسادة وبطلانه.

❖ أمثلة على المقارنات باستخدام هذا الأسلوب:

لم تتكرر الأمثلة على استخدام القرآن الكريم لهذا الأسلوب في مقارناته البديعة، إذ إن استخدام القرآن له قليل. ومن الآيات التي ورد فيها هذا الأسلوب:

- قال الله تعالى: ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۚ وَلَقَدْ رَمَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۖ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَقَىٰ ۚ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۖ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۚ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۚ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ۚ أَفَرَأَيْتُمْ أَكَلْتُ اللَّكَّ وَالْعُرَّىٰ ۚ وَمَنْزُةً الْفَالِقَةَ الْأُخْرَىٰ ۚ أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ۚ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ۖ﴾.^(٣)

(١) البلاغة العربية، لجنة المصاحف، ٢٧٦/١، ٢٧٢، بصرف.

(٢) المصدر السابق، ٢٧٤/١.

(٣) سورة النجم الآيات: ١٤ - ٢٦.

هذه الآيات تقارن بشكل غير صريح بين طلاقة القدرة الإلهية ومنتهى عجز الأصنام التي تُعبد من دون الله، بأسلوب فيه إنكار وتحكم وتوبيخ. فذكر أن رسول الله ﷺ وصل إلى سدرة المنتهى في السماء، ورأى جبريل عليه السلام يبصره أكثر من مرة على صورته الحقيقية بفعل القدرة الإلهية القادرة على كل شيء. وبعد ذلك انتقل فجأة إلى ذكر الأصنام بأسلوب فيه إنكار مع توبيخ وتحكم، لبيان عجزها ومنتهى ضعفها أمام الخالق القادر على كل شيء. فالله سبحانه وتعالى قادر على الخروج بعبد إلى السماوات العليا، أما الأصنام فهي غير قادرة حتى على تحريك نفسها، والانتقال من موضع إلى موضع.

■ سياق الآيات:

وردت هذه الآيات في أوائل سورة النجم التي بدأت بالقسم بالنجم على صدق الرسول ﷺ، وكونه بعيداً عن النطق بالهوى، وعلى كون كل ما يقوله وحى يوحى إليه من عند الله تعالى. كما بين الله أن الرسول علمه هذا الوحي من صاحب القوة الشديدة، والذي رآه رسول الله ﷺ على صورته بالأفق الأعلى، واقترب منه كثيراً، ثم أخذ منه وحى الله، والتي ﷺ صادق في كل ما رآه وأخبر به، إذ رأى كل ما ذكر في حقيقة الأمر، ولم يكن ذلك خداعاً للبصر. ثم جاءت هذه الآيات تؤكد رؤية النبي ﷺ لجبريل عليه السلام، وذهابه إلى السماوات، ورؤيته لآيات ربه الكبرى هناك، وقارنت في معرض ذكر هذه الأمور بين طلاقة القدرة الإلهية القادرة على الخروج بعبد ومنتهى ضعف الأصنام العاجزة حتى عن حركة نفسها بله الصعود بأحد إلى السماء العليا.^(١)

■ تفسير الآيات:

بدأت الآيات الكريمة بالاستفهام الذي فيه إنكار على الكفار وتوبيخ لهم على مجادلتهم للرسول ﷺ على ما رأى. فقال الله: أتجادلونه وتجادلون صدقه فيما رآه وأخبر به. ثم أثبت الآيات رؤية النبي لما رأى باستخدام أدوات التوكيد، فقيل: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾.^(٢) وقد اختلف المفسرون في مرجع الضمير في قوله "رآه"، فذكر بعضهم أن النبي ﷺ رأى ربه، وروي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما الذي قال: "رآه بفؤاده مرتين".^(٣)

وقال آخرون إن المراد به جبريل عليه السلام الذي لم يره النبي ﷺ على صورته الحقيقية غير مرتين؛ وروي ذلك عن عدد من الصحابة، منهم السيدة عائشة وأبو هريرة رضي الله عنهما. فعن عائشة رضي الله عنها قالت: "من رآه أن محمداً رأى ربه فقد أعظم، ولكن قد رأى جبريل في صورته وخلق ساد ما بين الأفق".^(٤)

(١) راجع: الآيات ١ - ٢٢ من سورة النجم.

(٢) سورة النجم آية ١٣.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معنى قول الله ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ وهل رأى النبي ﷺ ربه، ص ٩٠، حديث رقم ٤٣٧.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء فوافقت إحداها الأخرى فغير له ما تقدم من ذنبه، ص ٥٣٩، حديث رقم ٣٦٣٤.

وروي عن مسروق^(١) أنه قال: كنت متكئا عند عائشة فقالت: يا أبا عائشة، ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية. قلت: ما هن؟ قالت: من زعم أن محمدا ﷺ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية. قال: وكنت متكئا فجلست، فقلت: يا أم المؤمنين، أنظريني ولا تمجليني، ألم يقل الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ﴾^(٢)، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةَ أُخْرَىٰ﴾. فقالت: ألا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: "إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ - عليه السلام - لَمْ أَرَهُ عَلَىٰ صُورَتِهِ الْبَنِي حُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ الْمَرْتَيْنِ، رَأَيْتُهُ مُنْهَضًا مِنَ السَّمَاءِ سَادًّا عِظْمَ خَلْفِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ".^(٣)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةَ أُخْرَىٰ﴾. ^(٤) قاله: "رأى جبريل".^(٥)

ويبدو أن الأصح أن المراد بهذه الآية جبريل عليه السلام، كما صرح به في حديث عائشة رضوان الله عليها، وتوليداً لأحاديث أخرى رويت في كتب السنة.^(٦) وهذا هو الذي رجحه عدد من المفسرين منهم الدكتور وهبة الزحيلي^(٧)، والإمام الشافعي^(٨) الذي قال: "رأى جبريل النبي ﷺ على صورته مرتين، مرة بالأفق الأعلى في الأرض، ومرة عند

(١) هو أبو عائشة مسروق بن الأجدع الهذلي الكوفي، من أبرز تلامذة ابن مسعود رضي الله عنه. كان من العلماء بالتفسير والفقه. أخذ عن عمر وعلي وابن مسعود وغيرهم رضي الله عنهم، وأخذ عنه الشعبي وإبراهيم وغيرهما. توفي عام ٦٣ هـ. يُنظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي، ٤٠/١. طبقات الحفاظ، للسيوطي، ص ٢١.

(٢) سورة التكاوير، آية ٢٣.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معنى قول الله ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةَ أُخْرَىٰ﴾ وهل رأى النبي ﷺ ربه، ص ٩٠، حديث رقم ٤٣٩.

(٤) سورة النجم، آية ١٣.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معنى قول الله ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةَ أُخْرَىٰ﴾ وهل رأى النبي ﷺ ربه، ص ٨٩، حديث رقم ٤٣٥.

(٦) ومنها ما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال في هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةَ أُخْرَىٰ﴾، قال رسول الله ﷺ: "رَأَيْتُ جِبْرِيلَ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، عَلَيْهِ سِتُّ مِائَةِ جَنَاحٍ، يُنْفَخُ مِنْ رِيشِهِ الْقَهَاقِيلُ: الدُّرُّ وَالْيَاقُوتُ". أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ٣١/٧، رقم ٣٩١٥، وقال المحققون: إسناده حسن. والقهاقيل هي الأشياء المختلفة الألوان.

يُنظر: الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد الشافعي، لأحمد عبد الرحمن البهاء ط ٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ٢٨٧/١٨.

(٧) يُنظر: التفسير المنير، للزحيلي، ١٠٢/٢٧.

(٨) هو أبو إسحاق أحمد بن محمد النيسابوري الشافعي. كان من كبار علماء زمانه بالقرآن الكريم واللغة العربية. روى عن ابن خزيمة وأبي بكر بن هانئ، وغيرهما، وروى عنه الواحدي. توفي سنة ٤٢٧ هـ. من كتبه: الكشف والبيان في تفسير القرآن، العرائس في قصص الأنبياء، ربيع المذكرين وغيرها.

يُنظر: طبقات المفسرين، للسيوطي، ص ٢٨. طبقات المفسرين، للناودي، ٦٦/١ - ٦٧. طبقات المفسرين، للأندلسي، ص ١٠٩.

سدرة المنتهى في السماء. وهذا قول عائشة وأكثر العلماء وهو الاختيار لأنه قرن الرؤية بالمكان والنزول، والله منزله عنهما. (١)

لقد ذكر الله في هذه الآيات أن محمدا ﷺ رأى جبريل على صورته التي خلق عليها وقت نزلة أخرى عند سدره المنتهى، وهو مكان تنتهي إليه المخلوقات، ولا يتجاوزها أحد، لأن ما وراءه لا تطيقه المخلوقات، وإليها ينتهي عالم الخلائق، وما خلفها غيب من كل الوجوه لا يتجاوزها حتى الملائكة، وبجانبها الجنة التي تأوي إليها أرواح المتقين. وقد غشي السدرة ما غشيها، والإمام هنا للتعظيم والتفخيم، إذ تعجز عبارات اللغة كلها عن وصف حسنها وجهالها عندما غشيها من أمر الله ما غشيها. وما مال بصر النبي ﷺ بمينا ولا شمالا وما أخطأ في النظر، فرأى جبريل عليه السلام رؤية عين لا خطأ فيها ولا زيادة على ما وصف، وما تجاوز بصره إلى رؤية مرئي آخر لم يؤمر بالنظر إليه. ثم ذكر الله وأكد على أن رسوله رأى من آياته الكبرى وعجائب ملكوته العظيمة. وقد وصفت هذه الآيات التي رآها بالكبرى "لتجليات مخصوصة في تلك الآيات وكونها مهيطة الرحمة والبركة" (٢). (٣)

وبعد ذكر مظهر القدرة الربانية الذي تمثل في إراءة النبي ﷺ آيات ربه الكبرى انتقل إلى ذكر آلهة المشركين، للجمع بين الضدين والمقارنة بينهما. قال ابن عاشور رحمه الله: "لما جرى في صفة الوحي ومشاهدة رسول الله ﷺ جبريل عليه السلام ما دل على شؤون جليلة من عظمة الله تعالى، وشرف رسوله ﷺ وشرف جبريل عليه السلام، إذ وُصف بصفات الكمال ومنازل العزة كما وصف النبي ﷺ بالعروج في المنازل العليا؛ كان ذلك مما يثير موازنة هذه الأحوال الرفيعة بحال أعظم آلهتهم الثلاث في زعمهم، وهي: الثلاث والعزى ومناة التي هي أحجار مقرها الأرض لا تملك تصرفا ولا يعرج بها إلى رفعة. فكان هذا التضاد جامعا خياليا يقتضي تعقيب ذكر تلك الأحوال بذكر أحوال هاته. فانتقل للكلام من غرض إلبات الوحي على النبي ﷺ إلى إبطال عبادة الأصنام". (٤)

فقد تحدث القرآن الكريم عن هذه الأصنام بأسلوب فيه إنكار وتمكيم وتوبيخ وإهدار لحرمة العقل الذي يخضع لغير الخالق الرزاق ويعبد أحجارا لا تنفع ولا تضر. فقال أرايتم هذه الأصنام التي تعبدونها وتشركونها بالله؟ هي أحجار لا تتكلم ولا تنفع ولا تضر، وليس لها من العلو والرفعة مثل ما ذكرت لله، وهي لا تملك شيئا مما ذكر الله، فكيف تعبدونها مع الله؟ وفي هذا الأسلوب تحقير وذم لها وإبطال لإهبتها. ثم أنكر عليهم جعلهم الأصنام بنات الله تعالى، فقال: كيف تجعلون لله تعالى ولدا، ثم تجعلون ولده أنثى وتجعلون لأنفسكم الذكور؟ ووضح أن هذه فسمة جائرة

(١) يُنظر: الكشف والبيان، للعلوي، ١٤٦/٩.

(٢) التفسير المظهر، لثناء الله، ١١٤/٩.

(٣) يُنظر: الكشف والبيان، للعلوي، ١٣٩/٩ - ١٤٥. تفسير القرآن للسمعاني، ٢٨٩/٥ - ٢٩٣. التفسير المظهر، لثناء الله،

١٠٩/٩ - ١١٤. التحرير والتنوير، لابن عاشور، ٩٨/٢٧ - ١٠٢. التفسير المنير، للزحيلي، ٩٦/٢٧ - ١٠٤.

(٤) التحرير والتنوير، لابن عاشور، ٢٠٢/٢٧.

ظلمة، حيث جعلتم لربكم الإناث التي تكرمونها لأنفسكم، فإذا كنتم تكرمونها لأنفسكم فأولى أن تكرموها لله تعالى.^(١)

لقد قارنت الآيات المباركة بأسلوب غير صريح بين طلاقة القدرة الإلهية ومنتهى ضعف الأصنام وعجزها. فذكرت أولاً ما حصل مع النبي ﷺ ليلة المعراج، إذ عُرج به ﷺ إلى السماوات السبع، فصعد في السماء وأراه الله آياته الكرى التي منها جبريل عليه السلام على صورته الحقيقية، وسدرة المنتهى، وجنة المأوى التي تسكن فيها أرواح المؤمنين المتقين، وكذلك أوحى الله إلى عبده هناك من الوحي ما شاء. وما ذاك كله إلا بفعل قدرة الله تعالى القادر المقتدر، ولولا مشيئة الله وقدرته ما استطاع النبي ﷺ الصعود إلى السماء. وبعد ذكر هذه المظاهر للقدرة الربانية انتقل إلى ذكر الأصنام التي يعبدونها المشركون. وخص بالذكر ثلاثة منها والتي كانت تُعتبر أشهر ألهتهم، وهي اللات والعزى ومناة. فوجه أنظار الناس، وخصوصاً المشركين، إليها وذكرها بأسلوب فيه إنكار وتوبيخ وتذكير، فقال: هل رأيتم هذه الأصنام التي تعبدونها والتي جعلتموها بنات الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً؟ فكانه قال: أين هذه الأصنام التي لا تنفع ولا تضر، ولا تقدر على الحركة والانتقال من موضع إلى آخر ولا تملك لنفسها ولا لغيرها شيئاً، من الله جل وعلا الذي مكّن لعبده رؤية السماوات وما فيها من أمور الغيب متى شاء في لحظة عين.

وبذلك أثبت أن الله سبحانه هو وحده صاحب القدرة المطلقة، وهو وحده الإله والرب الذي يستحق العبادة والمحبة، ولا أحد سواه يستحقها من دونه. فعلى البشر التفكير في هذا الأمر للوصول إلى الحق والصواب.

(١) يُنظر: للكشف والبيان للعلوي، ١٤٦/٩ - ١٤٧. تفسير القرآن، للسماعي، ٢٩٣/٥ - ٢٩٥. التفسير المظهر، لثناء الله، ١١٥/٩ - ١١٧. التمهيد والتوير، لابن عاشور، ١٠٢/٢٧ - ١٠٦. التفسير المنير، للزحيلي، ١٠٨/٢٧ - ١١٠.

الباب الثاني: أهداف المقارنات القرآنية

وفيه:

- الفصل الأول: ما يتعلق بالمولى عز وجل.
- الفصل الثاني: ما يتعلق بالإيمان والكفر والفرغيب والرهيب.
- الفصل الثالث: قضايا متعددة.

◆ مدخل:

لقد استخدم القرآن الكريم في إثبات كثير من الحقائق أسلوب المقارنة بين طرفين، وجاءت هذه المقارنات بأساليب شتى كما سبق ذكرها آنفاً. وكما أن لهذه المقارنات أساليب متنوعة لما أيضاً أهداف تسمى إلى تحقيقها، إذ لا يستخدم القرآن الكريم أسلوباً إلا لسبب وهدف أو أسباب وأهداف معينة، لأن الحكيم لا تخلو أقواله وأفعاله من حكمة، سواء فقهناها أم جهلناها.

هذه الأهداف التي سعى القرآن الكريم إلى تحقيقها متنوعة وكثيرة، فمنها ما يتعلق بالمولى جل وعلا، مثل إثبات وحدانيته وقدرته المطلقة، والدعوة إلى الإيمان به والخوف منه، وبيان سعة علمه ورحمته بالعباد وولايته للمؤمنين ونحو ذلك. ومنها أهداف متعلقة بالإيمان والكفر والترغيب والترهيب، مثل ترسيخ العقائد الصحيحة في الأذهان، وإثبات فضل الإيمان والمؤمن على الكفر والكافر، والترغيب في الإيمان وفي اتباع طريق المؤمنين والتنفير من ضده، وغير ذلك من أمور. وهناك أهداف عامة أخرى أيضاً، مثل إقامة الحجة على العباد، وإظهار الأشياء وتبيينها بذكر أهددها، وتسلية النبي ﷺ وللمؤمنين وما إلى ذلك.

وقد تم تقسيم هذه الأهداف نظراً لموضوعاتها إلى ثلاثة فصول، أولها فصل يجمع أهدافاً متعلقة بالمولى عز وجل، ويليه فصل يجمع أهدافاً تتعلق بالإيمان والكفر والترغيب والترهيب، في حين أن الفصل الثالث والأخير يتضمن أهدافاً أخرى متعلقة بقضايا متعددة ومتنوعة.

الفصل الأول: ما يتعلق بالمولى عز وجل

وفيه:

- المبحث الأول: الدعوة إلى الإيمان بالله وتوحيده.
- المبحث الثاني: الرغبة في التقوى والنجاة من عقاب الله.
- المبحث الثالث: بيان سعة علم الله وقدرته المطلقة.
- المبحث الرابع: الأمن باتباع أوامر الله.
- المبحث الخامس: ذكر رحمة الله وشفقته ومظاهر نعمته على عباده.
- المبحث السادس: ذكر معية الله ولائته للمؤمنين.

المبحث الأول:

الدعوة إلى الإيمان بالله وتوحيده

إن من أهم المقاصد التي يسعى القرآن الكريم إلى تحقيقها، بل التي نزل القرآن الكريم من أجلها هو الدعوة إلى الإيمان بالله سبحانه وتعالى وحده دون شريك ولا نظير ولا متازع، ونيل كل أنواع الشكر الخفي والجلي، فيعتبر هذا الهدف من أهم أهداف القرآن الحكيم ومقاصده عموماً، ومن أهم أهداف المقارنات القرآنية خصوصاً، إذ تدعو الآيات القرآنية علمية بشكل مباشر أو غير مباشر إلى الإيمان بالله الواحد الأحد الذي لا شريك له، ولم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد. فكان هذا الهدف حرياً بأن نبدأ به سلسلة أهداف المقارنات القرآنية، لأن الإيمان بالله سبحانه وتعالى أصل كل خير، ومنبع كل حكمة.

لقد عقدت في القرآن مقارنات كثيرة لأجل الدعوة إلى الإيمان بالله تعالى وتوحيده الكامل دون ليسه بنوع من أنواع الشرك الذي هو أعظم أنواع الظلم. فهناك آيات كثيرة قارنت بين قدرة الله المطلقة، وعجز كل ما يُعبد من دون الله، بهدف الدعوة إلى الإيمان بالله تعالى وعبادته وحده، وهناك آيات مباركة قارنت بين علم الله الواسع المحيط بكل شيء والذي لا حدود له ولا قيود، وجهل كل ما سواه من المخلوقات، بغرض الدعوة إلى الإيمان أيضاً. وكذلك فإن هناك آيات أخرى وردت فيها مقارنات متعددة لأجل تحقيق هذا الغرض الأسمى.

❖ أمثلة على مقارنات تخدم هذا الهدف:

لا شك أن هناك أمثلة كثيرة على المقارنات التي تهدف إلى الدعوة إلى الإيمان بالواحد الأحد وعبادته دون شريك ولا ند، وهذه المقارنات منشورة في ثنايا سور القرآن الكريم وأجزائه المتعددة. ومنها:

- ١- قال الله تعالى: ﴿يُضَاهِي السَّيِّئِينَ نَرَبَابٌ مُتَقَرَّبُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهِ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاءُكُمْ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ۚ إِنْ أَنْصَحْتُمْ إِلَّا لِلنَّفْسِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَلِكَ الَّذِينَ الْقَتَلُوا وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١).

هاتان الآيتان الكريمتان فيهما مقارنة صريحة بين الله الواحد القهار والأرباب المتفرقين الذين يُعبدون من دون الله، باستخدام أسلوب الاستفهام الإنكاري. وقد وردت على لسان سيدنا يوسف عليه السلام الذي خاطب صاحبيه في السجن، وأنكر عليهم اتخاذ أربابهم متفرقين من دون الله الواحد القهار. وهدفها كما يظهر من ألفاظها هو

(١) سورة يوسف، الآيتان: ٣٩ - ٤٠.

الدعوة إلى الإيمان بالله تعالى وحده لا شريك له، وترك عبادة كل ما يُعبد من دون الله تعالى، والذي لا حقيقة له أمام الله، ولم ينزل الله تعالى دليلاً ولا حجة على مشاركته الله في شيء.

■ سياق الآيتين:

وردت هاتان الآيتان في سياق قصة سيدنا يوسف عليه السلام الذي أُدخل السجن لمُحَابَبَتِهِ الْفَاحِشَةِ، وَإِنْكَارِهِ الدَّعْوَةَ إِلَيْهَا. وفي السجن سأله صاحبان له عن تأويل رؤيا لهما، فدعاهما يوسف عليه السلام قبل تأويل الرؤيا إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، واتباع دين آباؤه إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام، الذين القِيمَ الذي يرضاه الله لعبادته. وفي معرض دعوتهم إلى الله وجه لهم استنهماً إنكارياً قائلاً: هل الأرباب المشرِّقون خير أم الله الواحد القاهر فوق عباده؟^(١)

■ تفسير الآيتين:

اشتملت الآيتان على دعاء إلى التوحيد على أتم وجه، حيث خاطب سيدنا يوسف عليه السلام صاحبيه بأسلوب فيه تلمظ كما في إرشادهما إلى الحق والهدى، وأبرز لهما ما يدل على بطلان ما هما عليه بصورة الاستفهام الإنكاري، حتى لا تنفر طباعهما من المفاجأة بإبطال ما فعلاه زمنًا، ومضى عليه أسلافهما. فقال لهما سيدنا يوسف عليه السلام: يا ساكني هذا المثل الشاق الضيق، إني ذاكر أمرًا فقولوا فيه الحق، وهو: أعبادة أرباب متعددين كثيرين يختلفي الأجناس والطباع والأشكال والألوان خير وأنفع، أم عبادة الله سبحانه الواحد الغالب الذي لا يحتاج إلى غيره ويقهر بقدرته وإرادته كل شيء؟^(٢) وقال ابن عطية رحمه الله: "في وصف الأوثان بالتفرق، ووصف الله بالوحدة والقهر تلمظ حسن، وأخذ ييسر الخجة قبل كثيرها الذي ربما نفرت منه طباع الجاهل وعاندته، وهكذا الوجه في حاجة الجهلة أن يؤخذ بدرجة يسيرة من الاحتجاج بقبلها، فإذا قبلها لزمت عنها درجة أخرى فوقها، ثم كذلك أبدأ حتى يصل إلى الحق. وإن أخذ الجاهل بجميع المذهب الذي يساق إليه دفعة أباه للحين وعالده"^(٣) ثم بيّن لهما سيدنا يوسف عليه السلام حقيقة آفتهما، فقال: إن الآلهة التي تعبدونها هي مجرد أسماء فارغة لا وجود لها ولا مطابق لها في الواقع، وقد جعلتموها أئمة وآباؤكم آلهة بمنحصر الجهل والضلالة، ولم ينزل الله حجة ولا برهاناً يدل على صحتها وكونها مستحقة للعبادة. والحقيقة أن الحكم والتصرف لله فقط، وهو الذي أمر ألا يعبد الناس إلا إياه، وعبادته وحده هي الدين المستقيم الثابت الذي دلّت عليه البراهين، والذي يحبه الله ويرضاه للناس جميعاً، ولكن الناس لجهولهم لا يعلمون أن هذا هو الدين القيم.^(٤)

(١) راجع: الآيات ٣٦ - ٣٨ من سورة يوسف.

(٢) المحرر الوجيز، لابن عطية، ٣/٢٤٥.

(٣) يُنظر: المحرر الوجيز، لابن عطية، ٣/٢٤٦. مفاتيح الغيب، للرازي، ١٨/٤٥٧ - ٤٥٩. روح المعاني، للألويسي، ٧/٧٢٣.

(٤) ٤٣٤/٦ - ٤٣٥. للتفسير الوسيط، للزحيلي، ط ١، دار الفكر، دمشق، ١٤٢٢هـ، ٢/١١٠.

جرت هذه المقارنة الموجزة البليغة على لسان سيدنا يوسف عليه السلام، فلما رأى أن صاحبيه يستمعان إليه ويريانه من المحسنين استغل الفرصة ليدعوهم إلى الإيمان بالله والتوحيد الكامل. وكذلك ينبغي للدعاة أن يستغلوا الفرص للدعوة إلى دين الله. وفي ذلك إشارة أيضا إلى أهمية المقارنة بين الأمور، لأنها توقظ العقول وتوضح الأشياء بتكرار أضدادها لذا استخدمها الأنبياء في مهماتهم الدعوية. فاستخدم سيدنا يوسف عليه السلام استفهاما إنكاريا وسألهم: هل المتهورون لتتفرقون من الآلهة خير أم الله الواحد القاهر القادر على كل شيء؟ والجواب بلا شك هو أن الله تعالى خير وأفضل من كل ما سواه، لذا ينبغي الإيمان به وعبادته دون شركه ولا مقابل. وبذلك حققت هذه المقارنة هدف الدعوة إلى الإيمان بالله وحده، وترك كل ما سواه.

٢- قال الله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُبْسِكُمْ ثُمَّ يُخَيِّصُكُمْ ۖ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ۖ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(١).

جاءت في هذه الآية الكريمة مقارنة غير صريحة بين الإله الحقيقي وهو الله الخالق الرازق المحيي للميت، وبين الشركاء الباطلين غير القادرين على شيء من هذه الأمور. فذكرت الآية أن الله خلق الناس أول الأمر ثم رزقهم، وهو الذي يميتهم عند انتهاء أجالهم، ثم يحييهم مرة أخرى، ثم وجهت سؤالا إلى أصحاب الآلهة الباطلة، قائلة لهم: هل يوجد بين شركائكم من يقدر على شيء من هذه الأمور؟ ولا شك أنه لا يوجد من يفعل ذلك غير الله، والله منزّه عن كل ما يشركونه به. وهدف هذه المقارنة أيضا هو الدعوة إلى الإيمان بالله جل وعلا، وعبادته وحده دون شركه، وترك كل الآلهة سواه، والتذكير بنعم الله على عباده مما يبحث في النفس محبة الله، والشوق إلى طاعته، واتباع أوامره سبحانه وتعالى.

■ سياق الآية:

ورد في الآيات السابقة أمر بإتداء ذوي القربى والسفاهين والمساكين حقهم، ثم جاءت مقارنة بين الربا الذي يقصد به الزيادة المحضة في الأموال، والزكاة التي يقصد بها وجه الله تعالى. ثم جاءت هذه المقارنة بين الله الخالق الرازق المحيي للميت، والشركاء عاجزين عن ذلك.^(٢)

■ تفسير الآية:

قارنت الآية بين الله تعالى والآلهة الباطلة، حيث أئنت له تعالى لوازم الألوهية، ونفنها عن الشركاء من الأصنام والأوثان وغيرها، كما أنها يئنت التوحيد، إذ ذكرت أن الله تعالى هو المختص بالخلق والرزق والإماتة والإحياء. ثم طلبت من المشركين الإنصاف بتوجيه الاستفهام الإنكاري إليهم قائلة: هل يوجد بين شركائكم من الأصنام التي

(١) سورة الروم، آية ٤٠.

(٢) راجع: الأيتان ٣٨ - ٣٩ من سورة الروم.

زعمتم أنها شريكة لله في العبادة من يقدر على شيء مما يقدر عليه الله من الخلق والرزق والإماتة والإحياء؟ ولماذا هذا الاستفهام ببيان أنه ليس من شركائكم من يفعل شيئا من ذلك، وأضيف الشركاء إليهم تحكما بهم، وإشارة إلى أنهم زعموهم شركاء، وما هم بشركاء في حقيقة الأمر. ومعلوم أنهم معجزون عن الإجابة عن هذا السؤال فتقوم عليهم الحجة. ثم جاءت خاتمة الآية بصيغة الغالب إغراضا عن خطائهم باستخدام الالتفات^(١)، وفيها نزه سبحانه وتعالى نفسه وذكر أنه فعال عن أن يجوز عليه شيء مما نسب إليه المشركون. وفي الآية أيضا تهديد للمشركين، فكأنه قيل لهم: كيف تتوكلون على شركائكم وهم لا يملكون شيئا مما يملكه الله؟ وهل يقدرون على نصرتكم إذا أراه الله عقابكم؟^(٢)

قرنت الآية بين الإله الحقيقي والآلهة الباطلة، وخلصت إلى نتيجة معلومة لكل عاقل، وهي أن الله سبحانه وتعالى لا شريك له في العبادة، ولا منازع له في ملكه وأمره، وهو منزع عن كل ما يقوله المشركون عنه، وهو المستحق للعبادة وحده جل وعلا.

وهذه المقارنة حققت أهدافا عدة؛ أهمها: الدعوة إلى الإيمان بالله وحده وعبادته دون شريك، وإقامة الحجة على المشركين، حيث أثبت أن شركائهم لا يقدرون على شيء من خصوصيات الرب جل وعلا. وفيها أيضا تهديد للكفار والمشركين الذين يطمنون إلى عبادة أصنامهم وأوثانهم، بحجة أنها تشفع لهم عند الله تعالى، وتنجيهم من عذاب الله إذا أَرَادَ الله أن يعذبهم. وأيضا فإن هذه المقارنة أثبتت أحقية الله سبحانه بالعبادة والمحبة، وذكرت مظاهر رحمته وعنايته بعباده، وأشارت إلى نعمة الكثير عليهم، وذلك مما يبعث في القلب محبة الله، والرغبة في عبادته، ومحاولة إرضائه بثل ما في وسع الإنسان من جهود.

(١) الالتفات هو "التحويل في التعبير الكلامي من اتجاه إلى آخر من جهات أو طرق الكلام الثلاث: "التكلم، والخطاب، والغية"، مع أن الظاهر يقتضي الاستمرار وفق الصيغة المختارة أولا دون التحول عنها".

ينظر: البلاغة العربية، لعبد الرحمن الميداني، ٤٢٩/١.

(٢) ينظر: تفسير القرآن، للسماعني، ٢١٦/٤. مدارك التنزيل، للسنفي، ٧٠٢/٢ - ٧٠٣. غرائب القرآن و رغائب الفرقان، للنيسابوري، ٤١٧/٥. فتح القدير، للشوكاني، ٢٦٢/٤ - ٢٦٣. محاسن التأويل، للقاسمي، ٢٨/٨. تدهر قرآن، لأمين أحسن الإصلاح، ط ٨، فاران غلوندیشن، لاهور، باكستان، ١٩٩٨م، ١٠٥/٦.

المبحث الثاني:

الترغيب في التقوى والتحذير من عقاب الله

لقد وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة تهدف إلى الترغيب في تقوى الله تعالى، والتحذير من عقابه القديد في الدنيا والآخرة. والتقوى كما قيل: "الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والرضا بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل".^(١) وعقاب الله تعالى قد ينزل على الناس في الدنيا في صورة طوفان أو صيحة أو زلزال أو غير ذلك من أمور، كما نزلت على المكذبين من الأمم السابقة، وهو بانتظار الكفار في الدار الآخرة في صورة جهنم وما فيها من صنوف العذاب.

فهناك آيات كريمة جاءت في معرض الإنكار على الذين لا يتقون الله، ويخشون غيره من المخلوقات، فمثلاً جاء في موضع: ﴿أَفَقَمِرَ اللَّهُ تَتَقُونَ﴾.^(٢) كما ورد في القرآن الكريم إنكار على من لا يخاف أن يناله عقاب الله وبأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين، قال الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ۚ وَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضَعْفَىٰ وَهُمْ يُلْعَبُونَ﴾.^(٣) ويهدف هذه الآيات وأخرى مثلها هو الترغيب في التقوى من الله، وبعث الخوف من عقابه ليحذر الإنسان، وبالتالي يعمل الطاعات ويتجنب المعاصي، استعداداً ليوم الرحيل ولقاء الله عز وجل.

وإلى جانب هذه الآيات التي تحض على التقوى وتخوف الناس من عذاب الله تعالى بشكل مباشر، وردت في القرآن الكريم مقارنات هدفها الترغيب في التقوى الذي يساعد الإنسان على فعل كل ما يرضي الله تعالى، وتجنب كل ما يفضيه ويغضبه، والتحذير من عقاب الله تعالى الذي لا فرار منه للمجرمين، والذي يلحقهم لا محالة في الدنيا كما أنه بانتظارهم في الدار الآخرة التي يجد فيها كل امرئ جزاءه بحسب أعماله.

❖ أمثلة على مقارنات تخدم هذا الهدف:

توجد في القرآن الكريم مقارنات كثيرة ترغيب الناس في التقوى، وتحذيرهم من بأس الله الذي يواجهه الظالمون، ومن هذه المقارنات:

(١) تُسبب هذا القول في بعض الكتب إلى سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولكن لم أستطع العثور على سند له في كتب المتقدمين. كما أنه ورد في بعض الكتب بصيغة الجاهول. ويغض النظر عن قائله، فإن هذا التعريف للتقوى تعريف جامع وحسن.

يُنظر: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، محمد يوسف الشامي، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٣م، ١/٤٢١.

(٢) سورة النحل: آية ٥٢.

(٣) سورة الأعراف، الآيتان ٩٧ - ٩٨.

١- قال الله تعالى: ﴿أَقِمْنَ أَسْوَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنَ أَسْوَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانَهَارٍ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ٥﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ^(١).

قارنت الآيتان بين الذي يؤسس بناءه على أساس من تقوى الله عز وجل ولأجل الحصول على رضوانه، والذي يؤسس بناءه على أساس من الكفر والفسوق، ويكون كمن يؤسس البناء على حافة بحر لم يُن بالحصانة متهدم فيسقط بالهوان في نار جهنم. وجاءت هذه المقارنة بأسلوب صريح مستخدمة استفهاما تقريرا لإثبات أن المتقي الذي يفعل أفعاله على أساس التقوى خير من الذي يسقط مع أفعاله وبيانه في نار جهنم. وفي هذه المقارنة نرغب في التقوى حيث وجه الاستفهام الناس إلى التفكير والتدبر في خير الفريقين، ولا شك أنه بالتدبر يصل القارئ إلى النتيجة الصحيحة، وهي أن أداء الأعمال مع التقوى خير ومحجوب عند الله ويلون التقوى تُعتبر هذه الأعمال، كأنها واقعة على حافة نار جهنم، وسرعان ما تسقط بصاحبها فيها.

■ سياق الآيتين:

وردت الآيتان في معرض الحديث عن مسجد الضرار الذي بناه المنافقون فسادا في الأرض واضراراً بالتي ^١ والمؤمنين، فبين الله هدف المنافقين من بنائه مع أنهم في الظاهر يريدون أنهم أرادوا بيناته الحسنى للمؤمنين، لكنهم كاذبون في دعواهم. وقد منع الله رسوله ^٢ من الصلاة في هذا المسجد، وأمره بالصلاة في المسجد الذي بني على للتقوى. ثم جاءت هذه المقارنة لبيان أن الأفعال المبنية على أساس التقوى خير من التي أساسها الكفر والفساد في الأرض^(٣).

■ سبب النزول:

رُوي عن سعيد بن جبيرة^(٤) قال: ذكر أن بني عمرو بن عوف^(٥) اجتأوا مسجدا، فبعثوا إلى رسول الله ^٦ أن يأتيهم فيصلي في مسجدتهم، فلما أن رأى إخوتهم بنو غنم بن عوف حسدوهم، فقالوا: نبي نحن أيضا مسجدا كما اتقى

(١) سورة التوبة، الآيتان ٦٠٩ - ٦١٠.

(٢) راجع: الآيات ١١٢ - ١١٣ من سورة التوبة.

(٣) هو أبو عمير سعيد بن جبيرة الكوفي المقرئ، من الفقهاء والمفسرين ومن أبرز تلامذة ابن عباس رضي الله عنهما. أخذ عن ابن عباس، وابن عمر وعدي بن حاتم وغيرهم رضي الله عنه. وأخذ عنه الأعشي وعطاء بن السائب، وغيرهما. توفي عام ٩٢ هـ أو ٩٥ هـ رحمه الله.

ينظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي، ٦٠/١ - ٦٦. طبقات الحفاظ، للسيوطي، ص ٣٨.

(٤) بطن من بطون الأنصار من الخزرج.

إخواننا، ورسّل إلى النبي ﷺ، ولعلّ أباه صابر^(١) أن يمرّ بناءً فيصلي فيه، فبنوا مسجداً، وأرسلوا إلى رسول الله ﷺ أن يأتيهم، فيصلي في مسجدهم كما صلى في مسجد إخوانهم، فلما جاءه الرسول قام ليأتيهم أو هم أن يأتيهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢) إلى قوله: ﴿لَا يَزَالُ بُتْنُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾^(٣). (٤)

■ تفسير الآيتين:

بمات الآية باستفهام تقرير، إذ وجهت سؤالاً إلى المخاطبين، وهو: أيّ هذين الفريقين تحمّر؟ وأيّ البنائين أثبت؟ أمّن أسس بناءه على أساس من طاعة الله وتقواه، وطلباً لرضوانه خيراً، أم الذي أسسه ضراباً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين، وإرساداً (أي: انتظاراً وتربحاً) لمن حارب الله ورسوله، وكان كمن يبني بناءه على قاعدة ضعيفة، وعلى

(١) هو عمرو بن سفيان، من الأوس، والد الصحابي الجليل حنظلة رضي الله عنه. كان يعرف بالراهب، وينتظر البعثة ودين الحنيفية، ولما بعث رسول الله ﷺ حسده، وخرج من المدينة، وشارك مع المشركين في غزوة أحد. ولما انتشر الإسلام خرج إلى بلاد الروم ومات فيها. وقد سماه رسول الله ﷺ القاسق.

يُنظر: الطبقات الكبرى، لابن سعد، تحقيق: محمد عبد القادر عطاء، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، ٤٠٨/٣. الإعلام، للزركلي، ٧٩/٥.

(٢) سورة التوبة، آية ١٠٧.

(٣) سورة التوبة، آية ١١٠.

(٤) أخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار، ١٧٣/١٢، رقم ٤٧٣٩، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ط١، مؤسسة الرحالة، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م. وأخرجه ابن شبة في تاريخ المدينة، ٥٢/١، تحقيق: فهد شلقوت، ١٣٩٩هـ. وانظر: أسباب النزول، للواحدي، تحقيق: عصام الحفيدان، ط٢، دار الإصلاح، الدمام، المملكة العربية السعودية، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، ص ٢٥٩. وقال المحقق: إسناده ضعيف جداً من أجل داود بن الزرقان فإنه معزوك. لكن صحت القصة من طريق آخر، فأخرجه ابن جرير وغيره من طريق علي بن طلحة عن ابن عباس نحوه وإسناده صحيح.

فروي أنه أقبل رسول الله ﷺ - يعني: من ثبوك - حتى نزل بلدي لؤان - بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار -، وكان أصحاب مسجد الضراب قد أتوه وهو يتجهّز إلى ثبوك، فقالوا: يا رسول الله، إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة واليلة المطيرة واليلة الشائية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه. فقال: إني على جناح سفر وحال شغل، ولو قد قدّمنا أتيّاكم إن شاء الله، فصلينا لكم فيه. فلما نزل بلدي لؤان، أتاه خير المسجد، فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم، أخا بني سالم بن عوف، ومعن بن عدي - أو أخاه: عاصم بن عدي - أخا بني العجلان، فقال: انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرقاه. فخرجتا سريعتين حتى أتيا بني سالم بن عوف، وهم رطط مالك بن الدخشم، فقال مالك لمعن: أنظري حتى أخرج إليك بناء من أهلي، فدخل (إلى) أهله، فأخذ شعثاً من النخل، فأشعل فيه نارا، ثم خرجا يشندان حتى دخلا المسجد وفيه أهله، فحرقاه وهدماه، وتفرقا عنه. ولول فيهم من القرآن ما نزل.

أخرجه الطبري في جامع البيان، ٤٦٨/١٤. والمطوي رواية أخرى أيضاً أخرجه في تفسيره، يُنظر: جامع البيان، ٤٧٠/١٤.

طرف حفيرة، فأدى به لضعفه وقلة استمساكه إلى الوقوع في النار. ولا شك أن الأول خير من الثاني، وهذا ما قرره الآية. والله لا يهدي الظالمين إلى ما فيه صلاحهم وفلاحهم.^(١)

قال البيضاوي رحمه الله: "وإنما وضع شفا الجرف، وهو ما جرفه الوادي الهائل، في مقابلة التقوى تمثيلا لما ينوون عليه أمر دينهم في البطلان وسرعة الانطماس، ثم رشحه بأنميائه في نار جهنم، ووضعه في مقابلة الرضوان، تنبيها على أن تأسيس ذلك على أمر يحفظه من النار، ويوصله إلى رضوان الله، ومقتضياته التي الجنة أودناها، وتأسيس هذا على ما هم بسببه على صدد الوقوع في النار ساعة فساعة، ثم إن مصيرهم إلى النار لا محالة".^(٢)

ثم قيل إن هذا البناء الذي بنوه سيظل سبب شك ونفاق في قلوبهم، يحسبون أنهم كانوا في صناعه محسنين، حتى تقطع قلوبهم فيموتوا. والله عليم بأعمال خلقه وليأثم جميعا، وحكيم في تدبير خلقه ومجازاتهم على أعمالهم من خير وشر، وحكيم أيضا فيما أمر بهم بمسجدهم.^(٣)

لقد أثبتت الآية الكريمة أن كل الأعمال المبنية على التقوى، والتي غايتها الحصول على رضا الله تعالى خير من جميع الأعمال التي تؤدي على أساس من الكفر، وإن بدت في ظاهرها جيلة حسنة. والأعمال التي أساسها الكفر والفسوق مثلها مثل الذي يبني بناءً على حافة جرف ساقط لا ثبات له ولا أساس منون، فهو سرعان ما يسقط بينائه ويأنيه في نار جهنم التي هي حسبه وكافية. ومن ذلك أنهم أن الأعمال التي يكون أساسها التقوى والرضوان تؤدي بصاحبها إلى نيل السعادة في الدنيا، ورضا الله والفوز بثوابه ونعيمه في الآخرة. فيكون صاحبها مطمئنا، مثل صاحب البناء القوي المحكم المثلين، بعكس صاحب البناء الثاني الذي يبقى متحيرا خائفا من سقوط عمارته وعدمها في أي لحظة وحين. فصاحب التقوى يظل مطمئنا البال مرتاحا، وصاحب الكفر والنفاق يبقى حائرا قلقا مضطربا. حققت هذه المقارنة أهدافا عدة، منها:

- (١) التوجيه في التقوى، والتأكيد على جعلها أساس كل عمل.
- (٢) بيان أن المتقي يبقى في حياته مطمئنا مرتاحا، وللمنافق يبقى قلقا مضطربا.
- (٣) التخويف من عقاب الله وعذابه الذي أعده للكفار الذين يؤثرون أعمالهم محاربة لله ورسوله.

(١) يظفر: جامع البيان، للطبري، ٤٩١/١٤ - ٤٩٢. زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي، ٣٠١/٢. الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ٢٦٣/٨ - ٢٦٤. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي، ٩٨/٣. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ١٩٠/٤.

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي، ٩٨/٣.

(٣) يظفر: جامع البيان، للطبري، ٤٩٥/١٤. زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي، ٣٠١/٢ - ٣٠٢. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي، ٩٨/٣. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ١٩٠/٤.

(٤) بيان أهمية التقوى، وإثبات أن الأعمال التي يكون أساسها التقوى لها البقاء، قال القرطبي رحمه الله:
"في هذه الآية دليل على أن كل شيء ابتدئ بنية تقوى الله تعالى، والقصد لوجهه الكريم فهو الذي
يقبى ويسعد به صاحبه، ويصعد إلى الله ويرفع إليه". (١)

(٥) الحث على الاستعداد الدائم للموت، ولقاء الله تعالى بالأعمال الصالحة المستمرة بنية صالحة.

(٦) كشف حقيقة المسجد الذي بناه المنافقون، وإطلاع المؤمنين على نواياهم الخبيثة، ومدح أصحاب
المسجد الذي بُني على التقوى.

٢- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ۖ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى
وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ۖ إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ۖ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ
كُلْجٍ بِالْبَصَرِ ۖ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ
فِي الزُّبُرِ ۖ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُنْتَظَرٌ ۖ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ۖ فِي مَقْعَدِ
صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ۖ﴾ (٢)

هذه الآيات فيها مقارنة غير صريحة بين المجرمين والمتقين وجزائهم في الدار الآخرة، باستخدام أسلوب الربط بين
الترهيب والترهيب والوعيد والوعيد. فبينت الآيات أن المجرمين ضالون في الدنيا، وهم يدخلون النار يوم القيامة
ويسحبون فيها على وجوههم، ويقال لهم: ذوقوا مس النار. أما المتقون فهم في الآخرة في جنات فيها أنهار، وهي
مكان مرضى بالقرب من الله الملك القادر على كل شيء. وتهدف الآيات إلى الحث على تقوى الله واتباع طريق
المتقين، وفي الوقت نفسه تحذر الناس من عذاب الله الذي يلحق المجرمين.

■ سياق الآيات:

وردت الآيات في خاتمة سورة القمر التي ذكرت فيها إشارات مختصرة إلى قصص الأنبياء السابقين وتكذيب أقوامهم
لهم وأخذ الله لهم. ولخصت هذه الإشارات بالإشارة إلى تكذيب فرعون وآله لآيات الله تعالى، وأخذ الله لهم أخذ
عزيز مقدر. وبعد ذلك خاطب الله الكفار المعاصرين وقال لهم: استغفركم خير من هؤلاء الذين أهلكهم الله! ثم
هددهم بالساعة التي هي موعدهم، ثم جاءت هذه الآيات لتقارن بين جزاء المجرمين والمتقين في الآخرة. (٣)

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ١/٢٦٥.

(٢) سورة القمر، الآيات ٤٧ - ٥٥.

(٣) راجع: الآيات ٤١ - ٤٦ من سورة القمر.

■ سبب النزول:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء مشركو قريش يحاصمون رسول الله ﷺ في القدر، فنزلت: ﴿يَوْمَ يُسْعَوُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُقُوا مِنَّمَسْ سَقَرَ﴾ ٥ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ٦ (١)

■ تفسير الآيات:

إن المجرمين - أي: الكفار من الأولين والآخرين - في حيرة وضلال وبعد عن الهدى والصواب في الدنيا، وفي اجتراف ونيران مستعرة في النار الآخرة. هؤلاء يسحبون في النار على وجوههم للإهانة والإذلال، ويقال لهم يوم يسحبون فيها توبيخاً وتقرعاً: ذوقوا حر النار وآلامها وشدة عذابها، وسقر عَلمَ لجهم. ثم أوضح الحق تعالى أن جميع ما يحدث في الكون، ومنه أفعال الناس، مخلوق لله، يتقلد بتقدير معلوم وفضاء اقتضته حكمة الله على وفق المكتوب في اللوح المحفوظ، ثم أوضح نفاذ مشيئته وقدرته على المخلوق، فقال إن أمرنا بإيجاد الأشياء يكون مرة واحدة، وبكلمة واحدة وهي "كن"، ويتخذ كالمح البصر (وهو إغماض العين وفتحها) في سره وسرته. قال القنوجي (٢): "فكما أن لمح أحدكم يبصره لا كلفة عليه فكذلك الأفعال كلها عندنا، بل أسر". (٣) ثم تبه الكفار قائلاً: لقد أهلكنا أمهالكم وأشباهكم في الكفر يا معشر قريش من الأمم السابقة المكذبين بالرسول، وتقلد عليكم كما قدرنا عليهم، فهل من منعظ يتعظ بذلك؟ ثم بين الله أن جميع ما فعله السابقون، ويفعله اللاحقون من خير أو شر، مكتوب على التفصيل في دواوين الحفظ، وكل صغير وكبير من الأقوال والأفعال مكتوب في كيب خاصة وهي اللوح المحفوظ وكتب الملائكة. (٤)

(١) سورة القمر، الآيات ٤٨ - ٤٩.

(٢) أخرجه حطيم في صحيحه، كتاب القدر، باب كل شيء بقدر، ص ١١٥٧، رقم ٦٧٥٢. وأخرجه الرمزي في سنته، كتاب التفسير، باب ومن سورة القمر، ص ٤٧٤، رقم ٣٢٩٠. وقال الرمزي: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) هو أبو الطيب محمد صديق حسن خان القنوجي الهندي. ولد عام ١٢٤٨ هـ في قنوج، ونشأ وتعلم في دهلي. كان من علماء اللغة والتفسير، ومن رجال الإصلاح الإسلامي. درس على يد الشيخ ولي الله الدهلوي وغيره. توفي عام ١٣٠٧ هـ. من كتبه: أبعاد العلوم، فتح البيان في مقاصد القرآن، عون الباري وغيرها.

ينظر: الأعلام، لخبر الدين الزركلي، ١٦٢/٦ - ١٦٨. الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير والإقراء والنحو واللغة، لوليد الزبيدي وآخرين، ٢٥٥٧/٣ وما بعدها. معجم المفسرين، لعادل نويس، ٥٣٩/٢.

(٤) فتح البيان في مقاصد القرآن، لأبي الطيب القنوجي، للمكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا، بيروت، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢، ٣٠٩/١٣.

(٥) ينظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل، للتبسي، ٤٠٧/٣. التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي الكلبي، ٣٢٥/٢ - ٣٢٦. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود، ١٢٤/٨ - ١٢٥. فتح البيان في مقاصد القرآن، للقنوجي، ٣٠٧/١٣ - ٣٠٩. التفسير الوسيط، للرحيلي، ٢٥٥٠/٣ - ٢٥٥١.

وبعد ذكر حال الكفار أبعده بذكر حال المتقين، قال أبو السعود: "لما كان بيان حال الكفرة مما يستلعي بيان حسن حال المؤمنين، ليتكافأ الترهيب والترغيب، بين ما لهم من حسن الحال بطريق الإجمال".^(١) فقال: إن أهل التقوى والإيمان والصلاح في جنات عظيمة الشأن، فيها أنهار متدفقة، في مجلس حق ومكان مرضي، لا لغو فيه ولا كذب ولا تأثيم، وهو الجنة التي صدقوا بها، وهذا المكان (أي: الجنة) يوجد عند الملك العظيم القادر على ما يشاء، وهو الله. و"عند" هنا لبيان الكرامة، وشرف المنزلة، وتقريب الرتبة.^(٢)

قارنت الآيات بين المجرمين للمشركين والمتقين المؤمنين، وبيّنت جزاء كل منهما يوم القيامة. فالجرمون ضالون عن الطريق الصواب في الدنيا، والمتقون مهتدون إلى الصواب، سالكون الطريق الحق الموصل لرضاء الله تعالى. وقد ترتب على اختلاف طريقهم في الدنيا اختلاف جزائهم في الآخرة. فالجرم الضال عن الحق المنكر لفضل الله عز وجل وقضائه يسخل النار، ويسحب فيها على وجهه، ويقال له توبخا وتقربا: ذق مس النار التي كنت تشكركا في الدنيا، فليجتمع له العذاب الحسي مع العذاب المعنوي. أما المتقي المهتدي المؤمن بقضاء الله وقدره، فهو في الآخرة في مكان آمن مرضي، لا كذب فيه ولا لغو، يعيش فيه بعز وكرامة، ويكون بالقرب من الملك القادر على كل شيء، والذي هو الله الذي آمن به وبقضائه في الدنيا.

لقد حققت هذه المقارنة أهدافا متعددة، منها:

- (١) ألحث على تقوى الله في السر والعلانية، بالقرب منه تعالى في الدار الآخرة، والحصول على المنزلة الرفيعة والمكان المرضي عند الله.
- (٢) التحذير من عذاب الله الشديد الذي يدخله كل مجرم ضال عن الطريق الحق في الدنيا، والذي يجزر فيه الداخل على وجهه، وينال فيه ألوانا من العذاب الحسي والمعنوي.
- (٣) بيان أهمية الإيمان بالقضاء والقدر، حيث إن إنكار القضاء والقدر يجعل الإنسان كافرا يستحق العقاب الشديد.
- (٤) تهديد الكفار والمشركين ببيان أن الله تعالى أهلك أمثالهم في الكفر والضلال، وهو قادر أيضا على إهلاكهم، وفيه أيضا توبيخ للضعفاء الذين يتبعون كبراءهم في الكفر، ظنا منهم أنهم يتصرونهم من عذاب الله يوم القيامة.
- (٥) إحياء الشعور بمراقبة الله تعالى في السر والعلانية، والحث على الأعمال التي ترضي الله والتي تليق بالمتقين؛ إذ إن كل صغير وكبير من الأقوال والأفعال مكتوب في الصحف، فلا يخفى على الله شيء في الأرض ولا في السماء، وهو محاسب الناس يوم القيامة على ما فعلوا في الدنيا.

(١) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود، ١٢٥/٨.

(٢) يُنظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود، ١٢٥/٨. فتح البيان في مقاصد القرآن، للفتاوي، ٣١٠/١٣.

التفسير الوسيط، للرحيلي، ٢٥٥٦/٣.

المبحث الثالث:

بيان سعة علم الله وقدرته المطلقة

إن من أهم المقاصد التي يسعى القرآن الكريم إلى تحقيقها هو الإيمان بالله تعالى وتوحيده كما مر سابقا. فالقرآن التحكيم يدعو الناس دائما إلى الإيمان بالله تعالى، وتوحيده الذي هو أساس الدخول في الدين الخفيف. والإيمان الصحيح بالله تعالى لا يكفي الإيمان بوحده وعبادته وحده فقط، بل ينبغي إثبات جميع صفات الكمال له جل وعلا، والتي منها صفة العلم والقدرة؛ فيجب الإيمان الكامل بعلمه الواسع والاعتراف التام بقدرته المطلقة، كما يجب الخوف منه تعالى ومن عقابه، واتباع أوامره، والرغبة في ثوابه، إلى غير ذلك من أمور واجبة على المؤمن ليكمل إيمانه بالله تعالى.

وهناك آيات كثيرة أثبتت لله تعالى العلم الواسع المطلق، كما أثبتت طلاقة القدرة الإلهية، فوصف سبحانه وتعالى بأنه علام الغيوب في كثير من الآيات المباركة، كما ذكر أنه أحاط بكل شيء علماً، وأنه عالم الغيب والشهادة وما إلى ذلك. ومن أبرز الآيات التي تثبت لله تعالى العلم الواسع الذي لا يمكن لأحد غير الله أن يدعيه قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ١١﴾.

كذلك كثرت في القرآن الكريم آيات تثبت لله تعالى القدرة المطلقة، فذكر في موضع أنه القاهر فوق عباده^(٢)، وأنه على كل شيء قدير^(٣) وغير ذلك. وكل ذلك لإثبات أنه تعالى هو المستحق للعبادة وحده دون شريك.

وقد وردت في القرآن الكريم مقارنات كثيرة تهدف أيضا إلى إثبات العلم الواسع لله تعالى المحيط بكل شيء، حيث ورد في موضع إنكاره على من ادعى أن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى بقوله: ﴿قُلْ مَا أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾^(٤). فسلولوا باستفهام إنكاري: هل هم أكثر علما من الله تعالى؟ ولا شك أن هذا لا يدعمه عاقل. وكذلك وردت مقارنات بهدف إثبات طلاقة القدرة الإلهية، والتأكيد على عجز كل ما سواه مما يُعبد وما لا يُعبد، فكل ما سوى الله عاجز أمام الله، وإن جعله السفهاء شركاء له في ملكوته.^(٥)

(١) سورة الأنعام، آية ٥٩.

(٦٧) قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾، سورة الأنعام، آية ٦٨.

(۳) قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. سورة البقرة، آية ۲۸۲.

(١) سورة البقرة، آية ١٤٠.

(هـ) ومن المقررات التي تهدف إلى إثبات طلاقة القدرة وسعة العلم الإلهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ خُذُوا مِثْلَ مَا تُسْمِعُونَ﴾ لَقَدْ إِنْ
الَّذِينَ كَذَّبُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْ يَحْلُلُوا ذُنُوبَهُمْ وَلَوْ أَجْتَمَعُوا لَهُمْ ۖ وَإِنْ يَسْتَأْذِنُوا فَمَا لَهُمْ مِثْلَ مَا تُسْمِعُونَ ۚ وَالَّذِينَ
يَسْتَأْذِنُوا ۚ إِنْ لَكُم مِّنْ عِلْمٍ مِّنْ شَيْءٍ فَلْيُحْلِلُوا لَهُمْ ۚ وَلَئِنْ لَّمْ يَكُنْ لَهُمْ كَلِمَةٌ فَاصْحَبُوا لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ يُفْتِنُواهُمْ فَلْيُغْلِبُوا لَهُمْ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۚ

❖ أمثلة على مقارنات تخدم هذا الهدف:

إن الأمثلة على مقارنات تخدم هذا الهدف كثيرة، منها:

١ - قال الله تعالى: ﴿قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ ۖ إِنْ كُنْتُ ثُلَّةً فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۖ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ۝ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا إِلَهًا رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مِمَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۚ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝﴾ (١).

جاءت في هاتين الآيتين الكريمتين مقارنة غير صريحة على لسان سيدنا عيسى عليه السلام، بين علمه وعلم الله تعالى. فقال سيدنا عيسى عليه السلام مخاطباً ربه: إنك تعلم ما في نفسي، ولكني لا أعلم ما في نفسك، لأنك علام الغيوب، كما أنه ذكر أنه كان يعلم أحوال قومه وما هم عليه من الطاعة أو العصيان ما دام موجوداً بين أظهرهم، أما الله تعالى فهو الرقيب عليهم دائماً، وعلى كل إنسان غيرهم، وهو عالم بأحوال جميع البشر؛ إذ لا يخفى عليه مثقال ذرة من أعمالهم. وبم هذه المقارنة أثبت عيسى عليه السلام سعة علم الله تعالى، في حين نفى عن نفسه هذه الخصوصية.

■ سياق الآيتين:

وردت هاتان الآيتان في سياق قصة سيدنا عيسى عليه السلام الذي طلب منه الحواريون أن يسأل الله تعالى أنزال مائدة من السماء، فدعا ربه بذلك، فقال الله: إني متردد، ولكن من كفّر بعد إنزالها يُعَذَّب عذاباً لم يُعَذَّب مثله أحد. ثم جاءت هاتان الآيتان اللتان ذُكر فيهما حوار بين الله تعالى وسيدنا عيسى الذي سأله ربه: لأنك قلت للناس اتخلّوني وأمي إلهم من دون الله؟! فيجيب عليه السلام منزها ربه عما لا يليق به، ويذكر أنه لم يقل لهم إلا ما أمر بقوله، كما يذكر أن الله عالم بما قاله لقومه، ويقارن في هذا الصدد بين علم الله تعالى الواسع وعلمه الناقص كما جاء في الآيات المكية أعلاه. (٢)

سَمِعَ عِيسَى ۝ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۚ قَالَ أَلَا تُرْجَعُ الْأُمُورُ ۝ سورة الحج، الآيات ٧٣ - ٧٦. وقد ورد الحديث

عن هذه المقارنة فيما مضى.

(١) سورة المائدة، الآيات ١١٦ - ١١٧.

(٢) راجع: الآيات ١١٤ - ١١٦ من سورة المائدة.

■ تفسير الآيتين:

تحدث الآيات عن سؤال الله تعالى لمحمدنا عيسى عليه السلام عما قاله لقومه. وقد اختلف المفسرون في زمن هذا السؤال، فقال بعضهم: إنه سئل ذلك حين رفعه الله إلى السماء، وقال آخرون: إنه يُسأل عن ذلك يوم القيامة على رؤوس الخلائق، فيعلم الكفار أن ما كانوا عليه باطل، وهذا هو الذي عليه الجمهور ويؤيده السياق^(١).

فيقول الله لسيدنا عيسى عليه السلام لتوبيخ النصارى الذين اتخذوه إلهاً على شركهم، وليقر عيسى عليه السلام على نفسه بالعبودية لله تعالى، فيسمع قومه ويظهر كذبهم: أنت قلت للناس اجعلوني وأمي معبودين من دون الله؟ فينفي عيسى عليه السلام على الفور ويترده قائلاً: تنزيها لك وتقديساً عن أن يكون لك شريك، وعن أن يقال عنك هذا، كما ينكر قوله لهذا الكلام الفظيع، فيقول: ليس لي أن أدهي وأذكر ما لا يحق لي، وما ليس مستقراً وثابتاً لي. ويظهر سيدنا عيسى غاية أدبه ومسكته وفضله في حضرة الجلال، ويقوض إليه الأمر؛ فيقول: إن كنت قلته فقد علمته يا ربي، فأنت تعلم ما أخفي، ولا أعلم ما تخفيه أنت ولا تطلعنا عليه^(٢). ثم يقرر كلامه بقوله: إنك علام الغيوب، فلا يعلم الغيب أحد غيرك. ثم يخبر أنه لم يتعد أمر الله في الأمر بعبادته، فيقول: ما قلت لهم إلا ما أمرتني بقوله، وهو: اعبدوا الله ربي وربكم وحده، ولا تشركوا به شيئاً. وبعد ذلك يظهر ضعفه، قائلاً: وكنت شهيداً رقيباً عليهم ما دمت موجوداً بين أظهرهم، أمنعهم من الشرك والباطل، فلما توفيتني برفعي إليك، كنت أنت الرقيب الشهيد عليهم، تحفظ أعمالهم لتجازيهم عليها، وأنت شهيد على كل شيء^(٣).

وقد ورد في الحديث أن الله هو الذي يعلم سيدنا عيسى هذه الحجة يوم القيامة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: يُلقي عيسى حجته ولقاء الله في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ آلُ الْعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَلَيْكَ الْغَنِيُّ وَأَنْتَ الْكَاسِي الْخُجْرِيُّ وَأَنْتَ الْغَنِيُّ مِنَ دُونِ آلِكَ﴾^(٤). قال أبو هريرة عن النبي ﷺ، فلما قال الله: ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾^(٥)،^(٦)

(١) يُنظر: البحر المحيط، لأبي حيان، ٤١٦/٤.

وقد ورد قبل آيات ذكر جمع الله للرسول يوم القيامة، وسؤالهم عما حدث معهم، ورد قومهم على دعوتهم، في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَمْعُجُّ إِلَهُ الرَّسُلِ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا ۚ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾. (سورة المائدة، آية ١٠٩). ثم فصل الله القول في سؤال سيدنا عيسى عليه السلام.

(٢) وقد نسبت النفس إلى الله تعالى في الآية على جهة التلذذ.

(٣) يُنظر: تفسير الراغب الأصفهاني، ٥٠٠/٥ - ٥٠٣. معالم التنزيل، لليقوي، ١٠٥/٢. البحر المحيط، لأبي حيان، ٤١٥/٤ - ٤١٩. الدر المنثور، للسمين الحلبي، ٥١١/٤ - ٥١٨. أيسر التفاسير، للجزائري، ٣١/٢ - ٣٢.

(٤) سورة المائدة، آية ١١٦.

(٥) سورة المائدة، آية ١١٦.

(٦) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المائدة، ص ٦٩٠، رقم ٣٠٦٢، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

فحينما يُسأل سيدنا عيسى عليه السلام يوم القيامة: أهو الذي أمر قومه باتخاذ أمه إلهين من دون الله، ينزه الله تعالى عما لا يليق بجلاله وعظمته، وعن أن يقول عنه أحد ما لا يحق له ولا يطابق الواقع، ثم يقارن بين علمه المحدود وعلم الله تعالى الواسع، فيذكر أنه لو قال شيئا من ذلك لما خفي على الله، لأن علمه يحيط بكل شيء، وهو الذي يعلم الجهر والسر وأخفى، ويعلم ما يخفيه البشر في نفوسهم وما يظهرونه، أما البشر فهم لا يعلمون إلا ما أطلعهم الله تعالى عليه، وإن كانوا في مرتبة سيدنا عيسى عليه السلام، ولا سبيل لهم ولا حيلة إلى معرفة ما يخفيه الله عنهم. والله عالم بالغيب والشهادة، وأما البشر ومنهم سيدنا المسيح وغيره من الرسل لا يعلمون من الغيب إلا ما شاء الله. وتثبت الآيات أيضا أن علم الله تعالى يحيط بجميع الأزمنة والأمكنة، أما المسيح عليه السلام والبشر عموما فلا يعلمون إلا عن الزمان والمكان الذي يعيشون فيه، وبعد ارتحالهم من الدنيا لن يعلموا شيئا مما حدث فيها. والله شهيد على كل شيء، وعليم بما يعمل به الناس، رقيب عليهم دائما وأبدا، يجازيهم على أعمالهم يوم القيامة، وليس في مقبور البشر شيء من ذلك، ولو خلق أحدهم كما خلق عيسى عليه السلام بكلمة من الله وروح منه، فلا يرفع ذلك من حقيقته البشرية.

إن الهدف الرئيسي لهذه الآية هو إثبات سعة علم الله تعالى وإحاطته بكل شيء، ومعرفة بما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة. وإلى جانب هذا الهدف حققت هذه المقارنة أهدافا أخرى، أهمها:

- (١) بيان أن أحدا من البشر، وإن كان بدرجة عيسى عليه السلام الذي هو روح الله وكلمته، لا يستطيع أن يصل إلى ما يهتدي علم الله، ولا يعلم من العلم إلا ما شاء الله.
- (٢) الرد على ألوهية سيدنا عيسى عليه السلام وأمه وإثبات بشريتها وعجزهما أمام الله.
- (٣) توبيخ التصاري على اتخاذ ابن مريم إلها يعبد.
- (٤) تهديد الكفار والمشركين والعاصين خصوصا والبشر عموما بذكر أن سيدنا عيسى عليه السلام مسؤول أمام ربه عما فعل في الدنيا، وهو نبي معصوم من الخطأ، فكيف بمن هو دونه من البشر.
- (٥) تنزيه الله عن كل ما لا يليق بجلاله، ومنه اتخاذ صاحبة أو ولدا أو شريكا في الملك.
- (٦) إثبات صدق الرسل وبيان أنهم لا يقولون إلا الحق، وليس بوسعهم القول على الله بغير حق، وإثبات أنهم لا يقولون إلا ما أمروا بقوله من عند الله تعالى.
- (٧) بيان أن الرسل - والناسعين إلى الله مثلهم - هم الدعوة إلى الله فقط، والهداية ليست بيدهم، وهم لا يملكون شيئا بعد الوفاة. والله هو الرقيب الشهيد الدائم على الناس من الأزل إلى الأبد.

٢- قال الله تعالى: ﴿قَالُوا تَعْبُدُوا أَصْنَامًا فَنُظَلُّ لَهَا عَكِفِينَ ۖ﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ

إِذْ تَدْعُونَ ۖ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ۖ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ

يَفْعَلُونَ ۖ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ۖ أَأَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ

الْأَقْتَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيَ إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾
وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ
يَحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ (١)

هذه الآيات فيها مقارنة بين الآلهة الباطلة والآلهة الحقيقية الذي هو الله رب العالمين، بأسلوب غير صريح على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام. فذكر سيدنا إبراهيم عليه السلام أن الآلهة الباطلة لا تسمع الدعاء، ولا تقدر على النفع والضرب، ثم ذكر بعض صفات الرب سبحانه وتعالى الدالة على طلاقه قدرته، وهي الخلق والهداية والرزق والشفاء من الأسقام ومغفرة الذنوب يوم القيامة، وهي أمور لا يقدر عليها غير الله سبحانه وتعالى. وجاءت هذه المقارنة لإثبات طلاقة القدرة الإلهية والمعجز المطلق للأصنام والأوثان.

■ سياق الآيات:

وردت هذه الآيات في سياق قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام التي جاءت في معرض قصص الأنبياء السابقين. فذكر الله سبحانه أن إبراهيم عليه السلام خاطب أباه وقومه في شأن الأصنام التي هم عاكفون عليها، فسألهم: ما تعبدون، فأجابوا قائلين: نعبد أصناما فنظل لها عاكفين. فبين لهم سيدنا إبراهيم عليه السلام حقيقة آلتهم، ووضح لهم زيفها، وأثبت طلاقة القدرة الإلهية، كما أثبت كون الله تعالى مستحقا للعبودية والوحدانية، بإجراء مقارنة غير صريحة بين الطرفين. (٢)

■ تفسير الآيات:

خاطب سيدنا إبراهيم عليه السلام أباه وقومه، وسألهم عن معبوداتهم ليرى بهم أن ما يعبدونه لا يستحق العبادة، فقال: ماذا تعبدون؟ فأجابوه افتخارا وابتهاجا بفعلهم أنهم يعبدون أصناما، وسيظلون مقيمين على عبادتها. فوجه لهم إبراهيم عليه السلام استفهاما عن حال هذه الأصنام، تنبها على انتفاء الإلهية عنها؛ لأن الرب هو الذي يلجأ إليه عند مواجهة الشدائد، والذي لا ينفع في الشدائد لا يستحق أن يسمى ربا. فقال إبراهيم عليه السلام: هل تسمع هذه الأصنام دعاء الداعين؟ وهل تنفع إذا أطيعت وتضر إذا عصيت؟ فأق تعبدون من لا يسمع ولا يملك نفعا ولا ضرا؟ ولما صجر القوم عن دفع هذه الحججة قالوا: إنهم ورثوا عبادة هذه الأصنام عن آباؤهم. فأراد سيدنا إبراهيم أن يبينهم على خطيئهم، فقال: أفكرتم فعلمتم حقيقة ما تعبدون أنتم وآباؤكم؟ ثم أظهر قلة أكتراثه بهذه الأصنام، فقال: إنهم عدو لي، وأنا أبيضهم. وذكر ذلك لأنه أيقن بأن سلامته بعد ذلك تدل على أن الأصنام لا تضر، وإلا ضرته

(١) سورة الشعراء، الآيات ٧٦ - ٨٢.

(٢) راجع: الآية ٦٩ وما بعدها من سورة الشعراء.

لأنه عدوها. وقد استثنى رب العالمين من بين معبوداتهم^(١)، ثم ذكر صفاته، فقال: هو الذي خلقني جسدا وعقلا، ويهديني إلى الطريق المستقيم، وبذلك جمع خير الدين والدنيا، وهو الذي يوفر لي الطعام والشراب، ويبيده الشفاء من الأمراض^(٢)، وهو الذي يميتني ثم يحييني يوم الجزاء، وهو الذي أرجو أن يغفر لي ذنوبي يوم القيامة. وأطلق الطمع علي رجاء المغفرة تواضعا لله، وتعبرا عن شدة خوفه منه، وتأكيد المغفرة بيوم الدين، لأنه اليوم الذي يظهر فيه أثر العفو. وهذه الألفاظ جمع سيدنا إبراهيم عليه السلام جميع نعم الله من أول الخلق إلى آخر الأبد^(٣).

لا شك أن ثمة فرق كبير بين الله الإله الحقيقي وبين المعبودات الباطلة، وهذا ما لا يتأتى لعقل إلكاره. وقد ذكر سيدنا إبراهيم عليه السلام في حاجة قومه بعض هذه الفروق كما جاءت في هذه الآيات المباركة. فإله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الإنسان، وأوجده من العدم، وهو الذي يترأس أسباب الهداية، ليختار الطريق المستقيم للوصول إلى السعادة، وهو الذي وفر للإنسان جميع أنواع الرزق من المأكولات والمشروبات وغيرها، وهو الذي بيده الشفاء من الأمراض الروحية والجسدية، وهو وحده الذي يملك مغفرة الذنوب لمن يشاء من عباده يوم الحساب، حين يُحشر إليه الناس كلهم. أما الأصنام التي يعبدونها الكفار فهي لا تملك شيئا من هذه الأمور، بل هي أضعف من أن تقدر على أمور أبسط وأقل شأنًا منها، فهي لا تسمع دعاء الداعين، ولا تجيب، كما أنها غير قادرة على نفع أحد أو ضره، بل هي غير قادرة على جلب النفع لنفسها ودفع الضر عنه. ولا يعبدونها الناس إلا سفها وحماقة بحجة تقليد الآباء الأقدمين، ولو عملوا عقولهم لما عبدوها أبدا، والعقل هو من يعبد الله وحده بلا شريك.

لقد أثبتت هذه المقارنة قدرة الله المطلقة القادرة على جميع الموجودات، قائلة هو القادر على كافة خلقه، ولا يخرج عن قبضة قدرته شيء من مخلوقاته. ومن مظاهر قدرته على النفس أنه يوجدهم من العدم، ويوفر لهم الرزق والهداية، وهو الذي يجمعهم يوم الحساب، ويجازيهم على أعمالهم يوم القيامة.

وإلى جانب إثبات طلاقة القدرة، حققت هذه المقارنة أهدافا أخرى أيضا، أهمها:

(١) الدعوة إلى عبادة الله الواحد الأحد دون شريك، ونبتذ الشرك وجميع أنواع الألهة الباطلة.

(٢) إثبات منتهى عجز الأصنام وضعفها.

(١) في الاستثناء هنا قولان. أحدهما أنه منقطع، و"إلا" بمعنى "لكن"، هذا إذا كان رب العالمين غير مشمول لعبادتهم، إذ الظاهر أنهم ما كانوا يعترفون بالخالق، ولم يكونوا يعملون آلهتهم شركاء لله. وقد يكونون معترفون برب عظيم خالق للأكوان، وإنما جعلوا الأصنام شركاء له، وجعلوا هذا يكون الاستثناء متصلا.

يُنظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، ١٤١/١٩.

(٢) وأسند المرض إلى نفسه في قوله "مرضت" تأديبا مع الله تعالى.

(٣) يُنظر: الجواهر الحسان، للفيافي، ٢٢٩/٤. مفاتيح الغيب، للرازي، ٥١٠/٢٤ - ٥١٣. التحرير والتنوير، لابن عاشور،

١٣٩/١٩ - ١٤٤. المتيح في تفسير القرآن الكريم، للجنة من علماء الأزهر، ط ١٨، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر،

١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م، ص ٥٤٩.

- (٣) بيان مظاهر نعم الله على عباده، لتبعث في قلوبهم حبه والشوق إلى طاعته.
- (٤) بيان ضلال وسفه الذين يتبعون آباءهم على ضلال دون أعمال العقول.
- (٥) توجيه العقول نحو التفكير والتدبير للوصول إلى الحقائق، والتمييز بين الحق والباطل، وإدراك الطريق الصواب.

المبحث الرابع:

الأمر باتباع أوامر الله

إن من الأهداف التي سعت المقارنات في القرآن الكريم إلى تخفيفها الأمر بطاعة الله سبحانه وتعالى، واتباع أوامره التي جاءت في القرآن الكريم والسنة النبوية للشرف على صاحبها أفضل الصلاة والسلام. وقد ذكر الله في آيات القرآن الكريم أوامر وأحكام كثيرة فرضها على عباده، وأمر في آيات أخرى باتباع هذه الأوامر. فجاء الأمر بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله الكريم ﷺ في كثير من الآيات بشكل مباشر، منها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾^(١) كما جاء الأمر المباشر باتباع ما أنزل الله تعالى من الأوامر والأحكام، قال الله عز وجل: ﴿وَأَطِيعُوا أَمْرًا مَّا أَنزَلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾^(٢).

وإلى جانب مثل هذه الأوامر المباشرة بطاعة الله واتباع أحكامه، هناك مقارنات قرآنية تهدف إلى الحث على اتباع أوامر الله تعالى. واتباع أوامر الله تعالى يشمل طاعته فيما أمر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، واتباع هدى الله تعالى الذي فيه نجاة الموه في الدنيا والآخرة.

❖ أمثلة على مقارنات تخدم هذا الهدف:

هناك العديد من الأمثلة على مقارنات تخدم هذا الهدف في القرآن الكريم، ومنها:

- ١ - قول الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَّن يَهْدِي إِلَى الْخَلْقِ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۖ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي إِلَى الْخَلْقِ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۖ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ۝ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ۖ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ۖ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾^(٣).

قارنت الآيتان الكريمتان مقارنة صريحة بين الله سبحانه وتعالى وبين الشركاء الذين يعبدتهم المشركون من دون الله، باستخدام استفهام تفريري وتوبيخي. فقد وجه الله أولاً إلى المشركين استفهاماً إنكارياً، وهو: هل يوجد بين شركائكم من يهدى إلى الخلق ويعيده؟ ثم أمر رسوله ﷺ بالإجابة بقوله إن الله تعالى وحده هو الذي يفعل ذلك. ثم وجه لهم سؤالاً آخر وهو: هل يوجد بين شركائكم من يهدي الناس إلى الحق؟ وأمر رسوله ﷺ بالقول بأن الله تعالى هو الذي

(١) سورة محمد، آية ٣٣.

(٢) سورة الزمر، آية ٥٣.

(٣) سورة يونس، الآيتان ٣٤ - ٣٥.

يهدي إلى الحق. ثم جاء في نهاية الأمر استفهام ثالث توبيخاً للمشركين، فقيل لهم: هل الذي يهدي الناس إلى الحق أحق بالاتباع أم الذي لا يملك الهداية لنفسه ولا لغيره؟ ولا شك أن الأول وهو الله أحق بالاتباع.

■ سياق الآيتين:

وردت هاتان الآيتان في سياق الحديث عن مظاهر قدرة الله تعالى ودلائل ربوبيته وألوهيته ووجدانيته سبحانه وتعالى، فقيل: من الذي يرزق الناس من السماء والأرض، ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، ومن يدبر الأمور كلها؟! ولا شك أن هذه الأمور كلها لا يفعلها إلا الله تعالى. ثم وضح الله أنه هو الرب الحق، ولكن الفاسق لا يؤمنون به ولا يوحدونه. وبعد ذلك جاءت هذه المقارنة البديعة تثبت كون الله أحق بالعبادة والاتباع.^(١)

■ تفسير الآيتين:

أبطل الله دعوى المشركين فيما أشركوا به غيره، وعبدوا من الأصنام، فخطب رسوله ﷺ، وأمره بسؤال المشركين عن الذي بدأ الخلق قائلاً: قل للمشركين من الذي بدأ خلق السماوات والأرض، وأنشأ ما فيهما من الخلائق؟ ومن يقدر أن يعيد الخلق خلقاً جديداً؟ هل يستطيع أحد غير الله ذلك، سواء كان صنماً أو وثناً أو غير ذلك؟ ولا شك أن الله وحده هو الذي يفعل كل هذه الأمور ويستقل بها. فكيف يصرف المشركون عن طريق الحق إلى الباطل؟ ثم أمر الله بسؤال المشركين سؤالاً آخر، وهو: هل من شركائكم من يهدي إلى الحق؟ ثم أمر رسوله ﷺ بإخبارهم أن الله هو الذي يهدي إلى الحق بما أوجده من الأدلة والبراهين، وأرسل من الرسل وأنزل من الكتب، وهو الذي يهدي الحيارى ويقلب القلوب من الغي إلى الرشاد ثم يحكمهم الله تعالى على مخالفة أوامره، ووجه إليهم استفهاماً تقريرياً قائلاً: من أحق باتباع قوله وطاعة أمره؟ أم الذي يهدي إلى الحق والرشاد والإيمان أم الذي لا يهدي إلى شيء إلا أن يهديه غيره ولا ينتقل من مكانه إلا أن ينقله غيره؟ وهنا يشمل جميع الشركاء. وذكر ذلك بأسلوب الاستفهام بنفويض الجواب إلى المسؤول، ليكون أبلغ وأوقع في القلب. ثم تعجب من مذهبهم الفاسد، وقال: فما بالكم كيف تقضون لأنفسكم وتسبون بين الله وخالقه وتحكمون بجواز عبادة غير الله؟^(٢)

وقد ذكر السمعاني نكتة لطيفة في تفسير هذه الآية، إذ قال: "كيف قال: إلا أن يهدي" والأصنام لا يتصور فيها أن تهدي ولا أن تهدي؟ والجواب من وجهين: أحدهما: أن معنى الهداية هنا هنا هي النقل، يعني: لا تنتقل من مكان إلى مكان إلا أن تنقل. والوجه الثاني: أن هذا مذكور على سبيل المجاز، فإن المشركين كانوا يعتقدون في الأصنام أنها تسمع وتفعل وتهدي، فذكر ذلك في الأصنام على وفق ما يعتقدون، وجعلها بمنزلة من يفعل في هذا الخطاب، ولثبت عجزها عن الهداية".^(٣)

(١) راجع: الآيات ٣١ - ٣٣ من سورة يونس.

(٢) يحظر: الكشف والبيان، للثعلبي، ١٣١/٥ - ١٣٢. مفاتيح الغيب، للرازي، ٢٤٨/١٧ - ٢٥٦. تفسير القرآن العظيم، لابن

كثير، ٢٣٣/٤. التفسير المنير، للزحيلي، ١٦٩/١١ - ١٧٢.

(٣) تفسير القرآن، للسمعاني، ٣٨٢/٢ - ٣٨٣.

وردت في الآية الكريمة مقارنة بين الله تعالى وبين الشركاء من الأصنام والأوثان العاجزة عن كل ما يملكه الله ويقدر عليه. فالله وحده هو الذي يرزق الناس، ويملك القدرة التامة عليهم، وهو القادر على خلقهم لأول مرة، وإعادة خلقهم من جديد يوم البعث والنشور. ولم يترك الله البشر بعد خلقهم سدى، بل وفر لهم أسباب الهداية، فأنزل الكتب وأرسل الرسل لهدايتهم إلى الرشى والصواب، وهو وحده القادر على هدايتهم وإرشادهم إلى الدين الحق الذي يؤدي إلى رضوانه والجنة. أما الأصنام فهي غير قادرة على شيء من الخلق والبعث والرزق والإحياء والإماتة، ولا الهداية. وهي أعجز من ذلك، حيث إنها لا تملك الهداية لنفسها، بل ولا تستطيع أن تعقل نفسها من مكان إلى آخر إلا أن يقوم لها غيرها بذلك، فكيف لها أن تمهدي غيرها وتنفعه وتضره؟ ثم وجهت الآية استفهاما توبيخيا وتفهيميا يثبت استحسان الله تعالى للطاعة والاتباع، لأنه يهدي الناس إلى الحق والصواب، وعدم امتحاق الأصنام لشيء من ذلك.

إن أول أهداف هذه المقارنة هو الأمر بالاتباع أوامر الله تعالى والخض على طاعته سبحانه، وسلك طريق هدايته الذي رضيه للبشر، وبيان أنه وحده هو الذي يستحق الطاعة والاتباع. وإلى جانب هذا الهدف حققت هذه المقارنة أهدافا أخرى أيضا منها: إثبات وحدانية الله سبحانه وتعالى، واستحقاقه للعبادة والطاعة وحده دون شريك ولا منازع، وإثبات عجز الأصنام المطلق، وكونها لا تستحق شيئا من العبادة والطاعة والاتباع، وإثبات ذلك يؤدي إلى إقامة الحجة على المشركين. ومن أهدافها أيضا بيان مظاهر قدرة الله تعالى ونعمه الكثيرة على عباده والتي من أبرزها الخلق والهداية، وذكر هذه النعم يبعث في القلب محبة الله، وبالتالي تسهل على العبد طاعته سبحانه واتباع أوامره.

٢- قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْنَا آيَاتٍ ۖ فَذَكِّرْ ۚ يَوْمَ نَضْزِقُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۚ وَيَوْمَ نَنفُخُ فِي الصُّورِ ۚ إِنَّ هَذَا يَوْمُ الْوَعْدِ ۖ هُوَ الْحَقُّ ۖ وَهُمْ فِي الْيَقِينِ ۚ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ۚ﴾ (١).

قارنت الآيات الكريمتان بين الذي يتبع هدى الله وأوامره وبين الذي لا يتبع أوامر الله ويعرض عنها وعن ذكر الله. فذكرت الآية الأولى أن الذي يتبع هدى الله تعالى لا يضل ولا يشقى في الدنيا ولا في الآخرة، أما الذي يعرض عن هدى الله وعن ذكره في الدنيا فله عيشة ضيقة شقية في الدنيا، ونحشُر يوم القيامة أعشى لا يهتدي إلى طريق الجنة. ومن خلال هذه المقارنة سعت الآية إلى الأمر بالاتباع هدى الله وأوامره.

■ سياق الآيتين:

وردت هاتان الآيتان في سياق قصة سيدنا آدم عليه السلام الذي خرج من الجنة بعد أن وسوس إليه الشيطان، وأوقعه في مخالفة أمر الله سبحانه وتعالى. فأمره الله تعالى بالهبوط إلى الأرض، كما أمره وذريته التي تأتي بعده بالاتباع

(١) سورة طه، الآيات ١٢٣ - ١٢٤.

هدى الله الذي يأتهم عن طريق أنبيائه ورسله بين كل حين وآخر. ثم قارنت هذه الآيات بين الذي يتبع هدى الله وأوامره، والذي يعرض عن ذكره وأوامره تعالى، وبين أحوالهما في الدنيا والآخرة.^(١)

■ تفسير الآيتين:

بعد أن أمر الله تعالى آدم عليه السلام بالهبوط إلى الأرض أخيره بأنه سيرسل إليه هدى من عنده في صورة كتب منزلة ورسل مرسلين. ثم أخيره بأن الذي يتبع هدى الله، فليزِم شرعه، ويمطِيع أحكام كتابه وسنة رسوله، لا يضل عن طريق الحق ولا يشقى في الدنيا ولا في الآخرة. ووضع الظاهر موضع الضمير مع الإضافة إلى ضميره تعالى في قوله "هداي" لتشريف الهدى والمبالغة في إيجاب اتباعه. وبعد أن أخبر حال من اتبع هداه، أخبر حال من أعرض عنه ولم يتبعه، فقال إن من أعرض عن الهدى الذّاكر لي والداعي إليّ، وكفر بي وبالقرآن الذي هو الذكر ولم يتبعه، فإن له في الدنيا معيشة ضيقة شاقة نكدية، ويُحشَر يوم القيامة أعمى فاقداً بصره. وهذا الشقاء يلحق كل من أعرض عن هدى الله الذي بعث به خاتم الأنبياء، ولم يستجب له، لأن الاعتقاد بالدين الحق فيه راحة الأنفس والضمائر، وكل من لم يؤمن بالله، ولم يتبع دينه يكون في ضيق صدر وهووم لا يجد منها مخرج إلا بالدين الحق.^(٢)

قال أبو السعود مبيناً سبب كون عيشة الكافر ضيقة: "ذلك لأن مجامع هنته ومطامح نظره مفسورة على أعراض الدنيا، وهو متهالك على ازديادها، وخائف من انتقاصها، بخلاف المؤمن الطالب للآخرة، مع أنه قد يضيق الله بشوم الكفر وبوسع ببركة الإيمان".^(٣)

لقد وضحت الآيتان الفرق بين الذي يتبع هدى الله تعالى الذي أنزله في صورة هذا القرآن الكريم والرسول الذي أتى به من عند الله، وبين الذي يعرض عن هذا الهدى - الذي سُمي بالذكر في مواضع من القرآن - في الدنيا والآخرة. فبيّنت أن للّتيح لهدى الله تعالى لا ينحرف في الدنيا عن جادة الصواب، بل يظل على الطريق الحق الذي أمر الله باتباعه والمؤدي إلى الجنة، ولا يشقى في الدنيا، حيث يكون فيها منشراح الصدر مطمئن البال، لكونه على الدين الصحيح والعقيدة الصائبة. كما أنه لا يشقى في الآخرة، حيث يكون له فيها النعيم السرمد الذي أعدّه الله لعباده الصالحين المهتدين. بينما المعرض عن هدى الله وعن أوامره له في الدنيا العيش الضيق النكد الذي لا خير فيه ولا راحة ولا اطمئنان، ولليء بالحيرة والقلق والاضطراب؛ وذلك لإعراضه عن الدين الصحيح، واتباعه الدين الفاسد والعقيدة الباطلة. وبالإضافة إلى شقائه في الدنيا يواجه الشقاء الدائم في الآخرة، حيث يُحشَر فيها أعمى.

(١) ولجمع: الآيات ١١٥ - ١٢٣ من سورة طه.

(٢) يُنظر: تفسير التيسري، تحقيق: محمد باصل عيون السود، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٣ هـ، ص ١٠٣. معالم التنزيل، للبخاري، ٢٧٨/٣ - ٢٧٩. احرر الوجيز، لابن عطية، ٦٨/٤. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود، ٤٧/٦ - ٤٨.

(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود، ٤٨/٦.

لنسيانه آيات الله في الدنيا، ولا يهتدي إلى طريق الجنة بل يُكَبَّ على وجهه في نار جهنم التي يواجه فيها العذاب المولم الدائم.

إن من أبرز أهداف هذه المقارنة ما يلي:

- ١) الحث على اتباع أوامر الله التي جاءت في كتابه الذي أنزله، وعلى لسان رسوله الذي أرسله.
- ٢) التشويق للجنة والتخويف من النار.
- ٣) الدعوة إلى الإيمان بالله تعالى وطاعته للفوز برضوانه في الدنيا والآخرة.
- ٤) الترغيب في دوام ذكر الله تعالى وعدم الإعراض عنه وعن أوامره.
- ٥) بيان فضل الإيمان والدين الصحيح وثمراته وبركاته، ومقاسد الكفر وأضراره في الدنيا والآخرة؛ حيث إن بالإيمان يعيش المرء مطمئن النفس في الدنيا، ويفوز بالتعيم المقيم في الآخرة. أما بالكفر فيعيش الإنسان حياة مضطربة قلقة لا راحة فيها ولا اطمئنان في الدنيا، ويواجه العذاب الدائم في الآخرة.

المبحث الخامس

ذكر رحمة الله وشفقته ومظاهر نعمه على عباده

إن الله تعالى رؤوف رحيم بعباده، يحبهم ويشفق عليهم ويرعاهم، لذا لم يتركهم بعد خلقهم تائهين ضالعين في الدنيا بل اقتضت رحمته أن يوفر لهم أسباب العيش في هذه الحياة الدنيوية، وينزل لهم الهداية التي تيسر لهم تهيئ الغرض الاسمى، وهو رضا الله تعالى وثوابه في الدار الآخرة.

فهو سبحانه وتعالى أرحم الراحمين، ووسعت رحمته كل شيء، وقد وردت في القرآن آيات وفي السنة النبوية أحاديث توضح رحمته الواسعة المحيطة بكل شيء. فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾^(١). وقال رسول الله ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ لَمَّا فَطَرَ الْخَلْقَ، كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي"^(٢). وقد وضع المصطفى ﷺ في حديث آخر أن الله تعالى أرحم بعباده من الأم بولدها الرضيع، فروي عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قدم على النبي ﷺ مَسيحٌ فإذا امرأة من الشَّعْبِ تَحْلُبُ ثَدْيَهَا تُسْقِي، إذا وجدت صبيًا في السَّيِّءِ أَخَذَتْهُ، فَأَلَصَقَتْهُ بِيَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ، فقال لنا النبي ﷺ: "أَتَرُونَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟" قلنا: لا، وهي تقدر على ألا تطرحه. فقال ﷺ: "اللَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا"^(٣). فهو الرحمن الرحيم، المحب لعباده، الشفيق عليهم، والمنعم عليهم بأنواع النعم الكثيرة التي لا تُعدُّ ولا تُحصى. قال الله تعالى: ﴿وَأَن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾^(٤). وهناك آيات كثيرة ذكرت بعض هذه النعم بشكل مباشر^(٥)، كما أن هناك مقارنات أشارت إلى بعض هذه النعم بطريق مباشر وغير مباشر.

لقد وردت في القرآن الكريم مقارنات هدفها بيان بعض مظاهر هذه الرحمة الإلهية والشفقة على العباد، وذكر مظاهر نعم الله الكبيرة على العباد؛ وذلك لتوجيه الأنظار نحو نعم الله تعالى، حتى يقوم المرء بطاعة الله واتباعه. يباعث المحب للمولى عز وجل، وعن طيب نفس منه. فمثلا جاءت في القرآن مقارنات بين جزاء المحسن والمسيء، فلنذكر أن الذي

(١) سورة الأعراف، آية ٦٥٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب وكان عرشه على الماء، ص ١٢٧٧، رقم ٧٤٢٢، عن أبي هريرة.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانفته، ص ١٠٥٠، حديث رقم ٥٩٩٩.

(٤) سورة النحل، آية ١٨.

(٥) منها قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۚ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَتَمَّتْ أَنْثَا وَتَمَّتْ إِلَى جِوْنٍ ۖ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْهَا خَلْقًا ظَلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَبِيلَ قَبِيصٍ وَتَبِيصٍ وَتَبِيصٍ قَبِيصٍ وَتَبِيصٍ قَبِيصٍ ۚ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾. سورة النحل، الآيات ٨٠ - ٨٩.

يأتي يوم القيامة بحسنة واحدة يجازيه الله بعشر من أمثالها، أما الذي يأتي بالسيدة فلا يجازيه الله إلا بمثلها^(١)، وما ذاك إلا مظهر من مظاهر رحمته بالعباد.

❖ أمثلة على مقارنات تخدم هذا الهدف:

إن من الأمثلة على المقارنات التي تسعى إلى تحقيق هذا الهدف ما يلي:

١ - قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾^(٢).

هذه الآية فيها مقارنة بين الله تعالى وبين الشياطين الذين يتبعون الشهوات، فيضلون بأنفسهم ويضلون غيرهم. فذكرت الآية أن الله تعالى يريد من الإنسان أن ينيب إليه ليتوب الله عليه، أما الذين يتبعون الشهوات فيريدون من غيرهم أن يميلوا وينحرفوا عن جادة الصواب، ليتعلموا عن الله تعالى. ولا شك أن المقارنة أشارت بهذا إلى رحمة الله وشفقته وحبه لعباده، إذ يريد منهم الرجوع إليه، ليغفر لهم ويتوب عليهم، وهذا هو ما فيه صلاحهم وفلاحهم في الدين والدنيا.

■ سياق الآية:

جاءت الآية بعد بيان المحرمات من النساء على الرجال، وذكر بعض أحكام النكاح، وتحريم اتخاذ الأخدان. فبعد أن ذكر الله تعالى هذه الأحكام قال إنه يريد أن يوضح للناس الأحكام الصحيحة، ويريد التوبة عليهم. ثم جاءت هذه المقارنة البديعة بين ما يريد الله للبشر وما يريد الطواغيت لهم.^(٣)

■ تفسير الآية:

فرقت الآية بين إرادة الله وإرادة المتبعين للشهوات، إذ ذكرت أن الله وحده هو الذي يريد أن يتوب على الناس بأن يحرضهم على التوبة والإقلاع عن المعاصي، وقدم المستند إليه "الله" ليبدل على التخصيص الإضائي. أما الذين يتبعون الشهوات وهم الكفرة والفسقة الذين تغلبهم شهواتهم على مخالفة ما شرعه الله لهم ولا ينتظرون في عواقب الذنوب ومفاسدها وعقوبتها، بل يرضون شهواتهم الداعية إليها، هؤلاء يريدون من الناس الميل والانصراف عن الحق إلى المعاصي ميلا عظيما، بالبعد عن الرشاد وأحكام الشرع والطعن فيها، والخروج عن قصد السبيل. وأكد فعل الميل بالمصدر ووصفه بالعظيم للمبالغة؛ "كما أنه بإطلاق لفظ الميل على أن الكفار يريدون من الناس الميل عن العدالة

(١) قال الله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾. سورة

الأنعام، آية ١٦٠.

(٢) سورة النساء، آية ٢٧.

(٣) راجع: الآيات ٢٣ - ٢٦ من سورة النساء.

على أي وجه كان، إفراطاً أو تفريطاً^(١). والشهوات هي كل ما يغلِب على النفس محبتها وهوها، واتباعها (أي: الإتيان لها) مذموم؛ أما إذا كان الاتباع من حيث العقل أو الشرع فلذلك اتباع لهما لا للشهوات.^(٢)

قرنت الآية الكريمة بين إرادة الله تعالى وإرادة الكفرة الفسقة المتبعين للشهوات. فبيّنت أن الله تعالى يريد من عباده التوبة والإنابة إليه، ليتوب عليهم، ويغفر لهم ذنوبهم؛ وذلك ليتمكنوا من الحصول على الراحة والاطمئنان في الدنيا، ورضوان الله وثوابه في الدار الآخرة. لذا فهو يريد من عباده البقاء على الطريق المستقيم الحق الوسط الذي يوصل إلى الجنة دون ميل وانحراف عنه. وقد وصّى الله تعالى عباده بذلك قائلاً: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَكْفُرُوا السَّبِيلَ فَتَقَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَرَسُولُكُمْ يَوْمَ لَأَعْلَنُ تَتَكْفُرُونَ﴾.^(٣) أمّا الكفار والفساق والطواغيت الذين همم باتباع الشهوات والجري وراءها دون نظر إلى العقل والشرع، فهم لا يكفون بكونهم على الضلال والفساد، بل يريدون من غيرهم أيضاً أن ينحرفوا عن صراط الله المستقيم، ويميلوا عنه ميلاً عظيماً، لئلا يتمكنوا من الحصول على مغفرة الله ورضوانه. فهؤلاء يضلون أنفسهم ويدعون غيرهم إلى طريق الغواية الذي يبعد عن الله، فينبغي الاجتناب عنهم.

إن من أهم الأهداف التي حققتها هذه المقارنة:

(١) بيان رحمة الله تعالى وشفقته بعباده، حيث إنه يريد لهم البقاء على الطريق المستقيم كما يريد منهم الإنابة إليه، حتى يتوب عليهم، ويغفر لهم ذنوبهم كلما قدموا على أفعالهم، وطلبوا من الله للمغفرة والرضوان. فينبغي للعباد أيضاً أن يرجعوا إلى الله دائماً وطلبوا منه المغفرة ويتقوه، لأنه أهل التقوى وأهل المغفرة. ومن حبه لعباده وشفقته عليهم أنه يريد منهم الإصلاح، حتى يدخلهم دار كرامته ومستقر رحمته، ولا يريد منهم الكفر والعصيان المؤدي إلى الطرد عن رحمته والدخول في عذابه.

(٢) بيان إرادة الطواغيت الفساق، وأضرار وجودهم في المجتمع، وتوضيح أنهم يحاولون إضلال غيرهم مع أنفسهم. قال الشعالي^(٤) رحمه الله: "مقصد هذه الآية الإخبار عن إرادة الذين يتبعون الشهوات، فقد سمت إرادة الله تعالى توطئة مظهرة لفساد إرادة متبعي الشهوات".^(٥)

(١) تفسر الراغب الأصفهاني، ١١٩٨/٣.

(٢) يُظفر: تفسر الراغب الأصفهاني، ١١٩٤/٣ - ١١٩٨. أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبهضوي، ٢٠/٢. البحر المحيط، لأبي حيان، ٦٠٣/٣. التحرير والتنوير، لابن عاشور، ٢١/٥.

(٣) سورة الأنعام، آية ١٥٣.

(٤) هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الشعالي الجزائري، من كبار علماء الجزائر وفسريها. ولد عام ١٧٨٦هـ. تعلم من علماء كبار في تونس ومصر وغيرها. توفي عام ١٨٧٥هـ. من كتبه: الجواهر الحسان في تفسير القرآن، روضة الأنوار ونزهة الأخبار، الإرشاد في مصالح العباد، وغيرها.

(٥) يُظفر: الأعلام للزركلي، ٣٣١/٣. معجم المفسرين، لعادل توبهضي، ٢٧٦/١. معجم المؤلفين، لعمر رضا كحالة، ١٩٦/٥.

(٥) الجواهر الحسان في تفسير القرآن، للشعالي، ٢٢٣/٢.

(٣) التحذير من اتباع الشهوات وطاعة المتبعين لها. قال ابن عاشور رحمه الله: "القصود من التعرض لإرادة الذين يتبعون الشهوات تنبيه المسلمين إلى دخائل أعدائهم؛ ليعلموا الفرق بين مراد الله من الخلق، ومراد أعوان الشياطين وهم الذين يتبعون الشهوات". (١) ويُفهم من الآية أيضًا أنه يجب على المرء أن يهتم بالصحة الصالحة التي تقره من الله تعالى، ويتبعد عن الصحبة السيئة التي توقعه في اتباع الشهوات وتجعله ينفرد عن شرع الله ودينه ويميل عن طريقه.

٢- قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنَا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. (٢)

قارنت الآية بين الليل والنهار اللذين هما من آيات الله تعالى الدالة على قدرته، ومظاهر نعمه على عباده بأسلوب غير صريح. فقد ذكر الله تعالى أنه جعل الليل مظلمًا ليرتاح فيه الناس، بينما جعل النهار مضيئًا مبصرًا ليعملوا فيه ويتنعموا من فضل الله تعالى. وللليل والنهار كلاهما نعمة من نعم الله على العبد، وتدلان على رحمته به، حيث وفر له كل ما يحتاج إليه في الحياة الدنيا.

■ سياق الآية:

وردت الآية في معرض الحديث عن أهوال يوم القيامة حين يُحشر الناس إلى الله تعالى، ويُسأل المكذبون عن تكذيبهم بهذه الآيات، فلا يستطيعون النطق أمام الله تعالى. ثم انتقلت هذه الآية إلى ذكر دلائل قدرة الله تعالى التي منها الليل والنهار، واللذان فيهما آيات للمؤمنين الذين يتفكرون في آيات الله ويتدبرون فيها ويتعقلون. وبعد هذه المقارنة بين الليل والنهار جاء ذكر الصور الذي يُفصح فيه يوم تقوم الساعة. (٣) فكانت هذه المقارنة وسط أهوال يوم القيامة جاءت للعبية وإيقاظ العقول وتوجيهها نحو التدبر، لأخذ العظة والعبرة من مخلوقات الله تعالى والاستعداد للبعث والنشور، "وهكذا نقلنا السياق من جو اليوم الآخر إلى ذكر الدليل عليه ثم يعود لينقلنا إلى جو اليوم الآخر". (٤)

■ تفسير الآية:

بعد توبيخ الكفار وهم في ساحة الحشر انتقلت السورة إلى توبيخهم على فعلهم حين كانوا في الدنيا، فوبيخهم الله على غفلتهم، إذ يعيشون في هذا الكون، لياكلوا ويشربوا ويتمتعوا دون أن يعتبروا أو يتفكروا. فقال الله ألا يرون بثقلهم وعقولهم أنا قد خلقنا لهم الليل مظلمًا ليسكنوا فيه، ويطمئنون في ظلامه، ويستريحوا من نصب التعب في نهارهم، وخلقنا النهار مضيئًا مشرقًا، ليتصرفوا في المعاش والتكاسب والأسفار والتجارات وغير ذلك من شئوهم

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور، ٢١/٥.

(٢) سورة النمل، آية ٨٦.

(٣) راجع: الآيات ٨٢ - ٨٧ من سورة النمل.

(٤) الأسس في التفسير، لسعيد حوى، ٤٠٤/٧.

التي يحتاجون إليها. وذكر الله أيضا أنه جعل الليل والنهار بهذا المقدار لتيسر لهم أسباب الحياة والراحة، فكيف لم يهتدوا إلى أن هذا الكون خالقا حكيما قادرا؟ وقال الألويسي رحمه الله: "المشهور أن في الآية صنعة الاحتياك"^(١)، والتقدير: جعلنا الليل مظلما ليسكنوا فيه والنهار مبصرا ليتشعروا فيه"^(٢) ثم ذكر الله أن في ذلك الذي جعلناه لهم من وجود الليل والنهار بهذه الطريقة لآيات واضحة على وحدانيتنا وقدرتنا، لقوم يصدقون بأن الله هو الإله الحق الواحد الخالق لكل شيء، فيحتبرون بها، ويخصص المؤمنين بالذكر لأنهم المنتفعون بهذه الآيات.^(٣)

إن الليل والنهار كما أنهما من آيات الله الدالة على وحدانيته وقدرته الواسعة، هما أيضا من مظاهر نعم الله الكثيرة على عباده؛ إذ يُستلأن للإنسان العيش على الأرض، وهما من ضروريات حياته، لأنه يحتاج في حياته إلى عمل وسعي، كما يحتاج إلى راحة وسكون. فخلق الله الليل مظلمًا، ليرتاح فيه الإنسان ويسكن فيه بالنوم، والنهار مضيئا مشرقا، ليحصل فيه، ويطلب من رزق الله تعالى الذي كتبه له.

هذه الآية قارنت بين الليل والنهار وذكرت الفرق بينهما؛ فالليل مظلم والنهار مضيء، كما أن الليل خلق للراحة والنوم، بينما خلق النهار للكد والعمل. وفي كليهما آيات للمؤمنين الذين يصدقون فيعتبرون. وقد حققت المقارنة بين الليل والنهار وذكر الفرق بينهما أهدافا متعددة، أهمها بيان مظاهر رحمة الله وشفقته بعباده، وذكر بعض مظاهر نعمه الكثيرة عليهم. فالليل والنهار من النعم الكثيرة التي خلقها المولى عز وجل لخدمة البشر وتيسير أسباب العيش لهم على الكرة الأرضية. ولو أن الله خلق الليل فقط أو النهار فقط لاستحالت الحياة على المعمورة، ولضائق على الإنسان سبل العيش.

وإلى جانب هذا الهدف الأساسي هناك أهداف أخرى أيضا، منها:

١) إثبات طلاقة القدرة الإلهية القادرة على كل ما في هذه الحياة، فالله هو الذي بيده الأمور كلها، وهو الذي يقلب الليل والنهار كما يريد، ولا يملك ذلك أحد غيره. قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّيْلُ نَهَارًا﴾

(١) الاحتياك نوع من أنواع الإنجاز بالحذف. وهو "أن يحذف من الأوائل ما جاء نظيره أو مقابله في الأخير، ويحذف من الأخير ما جاء نظيره أو مقابله في الأوائل". ومثاله قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَاتُ فِي أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَقُولَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَخْرَجَ كَافِرًا يَزْوِجُهُمْ وَتَلْنِيهِمْ وَأَيُّ الْقَيْنِ﴾. (سورة آل عمران، آية ١٢) فحذف من الجملة الأولى لفظ "مؤنة" ومن الجملة الثانية عبارة "تقاتل في سبيل الطاغوت"، لدلالة أحدهما على الآخر، وتقدير الحذف: فئة مؤنة تقاتل في سبيل الله، وأخرى كافرة تقاتل في سبيل للطاغوت.

يُنظر: البلاغة العربية، لعبد الرحمن حنكة المبداني، ٥٤/٢ - ٥٥.

(٢) روح المعاني، للألويسي، ٢٣٩/١٠.

(٣) يُنظر: لبابه التأويل في معاني التنزيل، لعلاء الدين الحارثي، ٣/٣٥٤. فتح الرحمن في تفسير القرآن، لخير الدين المقدسي الحنبلي، ج ١، دار الفوائد، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م، ١٦٤/٥. روح المعاني، للألويسي، ٢٣٩/١٠ - ٢٤٠. الأسامي في التفسير، لسعيد حوى، ٤٠٤٧/٧. التفسير الوسيط للقرآن الكريم، فهدى سيد طنطاوي، ط ١، دار تحفة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ١٩٩٨ م، ١٠/٣٦ - ٣٦١.

الَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْفَيْتَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَضِيَاءٌ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٥﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ
اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْفَيْتَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا
تُبْصِرُونَ ﴿٦﴾

(٢) إثبات وحدانية الله تعالى وكونه أحق بالعبادة والربوبية والألوهية دون غيره. جاء في التفسير الوسيط: "من تأمل في تعاقب الليل والنهار بتلك الصورة البديعة المطردة، وفي اختلافهما طولاً وقصراً وظلمة وضياء أيقن بأن لهذا الكون لها واحداً قادراً على إعادة الحياة إلى الأموات، ليحاسبهم على أعمالهم." (٣)

(٣) ذكر مظاهر الرحمة الإلهية، وبيان نعمه تعالى على العباد يبعث في القلب محبة الله تعالى والشوق إلى لقائه، وبالتالي يستعد المرء لهذا اللقاء بالتقوى والأعمال الصالحة.

(٤) الاستدلال على البعث والنشور، فالذي خلق الليل والنهار وفرق بينهما، والذي هو قادر على تغيير الليل والنهار وتقليبهما كيفما شاء قادر على بعث الناس بعد الموت بشكل أولي. قال الخازن (٥) رحمه الله: "وفي الآية دليل على البعث بعد الموت، لأن القادر على قلب الضياء ظلمة والظلمة ضياء قادر على الإعادة بعد الموت." (٤)

(١) سورة القصص، الآيات ٧١ - ٧٢.

(٢) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي، ٣٦٦/١٠.

(٣) هو علي بن محمد بن إبراهيم علاء الدين البخارادي الصوفي، المعروف بالخلاون. من فقهاء الشافعية، والعلماء بالتفسير والحديث. ولد عام ٦٧٨ هـ. كان خازن الكتب بالمدرسة السمسماطية فيها، فاشتهر بالخازن. توفي عام ٧٤١ هـ. من كتبه: لباب التأويل في معاني التنزيل، مقبول المنقول، عدة الأفهام في شرح عمدة الأحكام، وغيرها.

ينظر: طبقات المفسرين، للدواودي، ٤٣٦/١ - ٤٣٧، الأعلام، للزركلي، ٥/٥. معجم المفسرين، لعادل نويس، ٣٧٩/١.

(٤) لباب التأويل في معاني التنزيل، للخازن، ٣٥٤/٣.

المبحث السادس:

ذكر معية الله وولايته للمؤمنين

إن الله ولي المؤمنين الصالحين وحاميهم وناصريهم، وهو الذي يتولى كافة أمورهم في الدنيا والآخرة، ومن كان الله وليه وناصره فلا يحتاج إلى حميم ولا ولي آخر. قال الله تعالى: ﴿وَكُنْ بِٱللَّهِ وَكِيلًا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾^(١). وللحصول على ولاية الله والظفر بمعيته يجب الإيمان به وطاعته وسلوك سبيل التقوى والصلاح، لأنه لا ينصر ولا يتولى إلا الصالحين، فقد جاء في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ وَلِيَ ٱللَّهِ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَآبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾^(٢). فهو ينصرهم في الشدائد، ويكون معهم يعينهم وينصرهم في البأساء والضراء كما يكون معهم في النعماء. وولايته للصالحين ليست محصورة في حياة الدنيا فقط، بل تكون لعباده الصالحين في الدنيا وفي الآخرة، حيث إنه يأخذ بيدهم ويثبتهم على الصراط المستقيم في الدنيا، كما يثبتهم على الصراط الذي يُنصب على جهنم يوم القيامة، ويبقى معهم حتى يدخلهم الجنة بفضلته ورحمته. وهناك مقارنات كثيرة في القرآن أثبتت هذه الولاية التي يحظى بها المؤمنون في الدارين.

❖ أمثلة على مقارنات تخدم هذا الهدف:

إن من الأمثلة على المقارنات التي تسعى إلى تحقيق هذا الهدف ما يلي:

١ - قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾^(٣).

هذه الآية الكريمة فيها مقارنة بأسلوب غير صريح بين المؤمنين والكفار من حيث ولاية الله تعالى لهما. فذكرت أن المؤمنين يتولاهم الله، ويرعى أمورهم، فيخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان. أما الذين كفروا فلا يتولاهم الله، بل يتركهم لولاية الطاغوت الذي يخرجهم من نور الإيمان إلى ظلمات الكفر والضلال يخطبون فيها.

■ سياق الآية:

بعد ذكر صفات الله تعالى في آية الكرسي، بين الله تعالى أن الدين ليس فيه إكراه وجبر، لأن الرشد قد انتضح وتبين من الفبي، فمن كفر بالطاغوت وآمن بالله فقد نجا. وبعد ذلك جاءت هذه الآية لتقارن بين المؤمنين بالله الكافرين بالطاغوت، وللمؤمنين بالطاغوت الكافرين بالله، باعتبار ولاية الله تعالى لهما.^(٤)

(١) سورة النساء، آية ٤٥.

(٢) سورة الأعراف، آية ١٩٦.

(٣) سورة البقرة، آية ٢٥٧.

(٤) راجع: الآيات ٢٥٥ - ٢٥٦ من سورة البقرة.

■ تفسير الآية:

ذكر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة أنه ولي المؤمنين، إذ ينجيهم ويتولى أمورهم وينصرهم ويعينهم ويلازمهم بوجه. وقال الإمام البيهقي رحمه الله: "فولاية المؤمنين لإرادته إكرامهم ونصرهم وموتيتهم على التأييد".^(١) ويقتضيه أيضا ثمة ولاية للمؤمنين، وهي: أنه ينجيهم من الشرك، ويخرجهم بعبادته وتوفيقه من ظلمات الجهل واتباع الهوى والوساوس والشبه المؤدية إلى الكفر، إلى نور الهدى الموصل إلى الإيمان. ويقتضيه من الآية أيضا أن طرق الضلال متعددة وطريق الحق واحد، لجمع الظلمات وإفراغ النور. أما الذين كفروا بالله فبتولاهم الطاغوت؛ وهو اسم جنس لكل ما غيى عن نور الله، ولم يضل الناس من الشياطين وبني آدم، والحظ الأكبر من ذلك هو للشيطان. والطاغوت حين يتولى الكفار يخرجهم بالوساوس وغيرها من طرق الإغواء من نور الإيمان الذي هو في أصل الفطرة، إلى ظلمات الكفر والشكوك والشبهات والاضمحام في الغي. وذكر أبو السعود رحمه الله أن الظلمات في الآية أعم من ظلمات الكفر والمعاصي وظلمات الشبه، فهو يعم ما في بعض مراتب العلوم الإنسانية من نوع خفاء بالقبيل إلى مراتبها القوية الجلية، كما أن النور يعم نور الإيمان ونور الإيقان ومراتبه ونور العيان، ثم توعده الله الكفار وأوليائهم من الطاغوت بالنار، فقال: إنهم أصحاب النار وملأوها، بسبب ما لهم من جرائم، وهم يمتنعون فيها أبدا. ولم يذكر وعد للمؤمنين لأن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ تضمن كل ما يتصور من الوعد.^(٢)

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه خصص هذه الآية في أناس معينين، فقال في تفسير هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني قوم كانوا كفروا بعمى فآمنوا بمحمد ﷺ. "وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ": "هم قوم آمنوا بعمى، فلما بعث محمد كفروا به".^(٣) لكن لفظ الآية عام في الجميع، فقال ابن عطية رحمه الله: "لفظ الآية مستغن عن التخصيص، بل هو مترتب في كل أمة كافرة آمن بعضها كالعرب، ومترتب في الناس جميعا. ذلك أن من آمن منهم فالله وليه، أخرجه من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان. ومن كفر بعد وجود الداعي النبي المرسل، فشيطانه ومغويه كأنه أخرجه من الإيمان، إذ هو معد وأهل للدخول فيه".^(٤)

قارنت الآية بين المؤمنين والكفار بالنظر إلى معية الله تعالى وولايته لهما. فالفرق بينهما هو أن الله يتولى المؤمنين بنصره وتأييده ومحبة ومعينته لهم، أما الكفار فيتركهم الله، ليتولاهم الطاغوت الذي يعينهم عن المولى عز وجل.

(١) الأسماء والصفات للبيهقي، ٤٧٩/٢، رقم ٤١٠٦٢ تحقيق: عبد الله محمد الحارثي، ط ١، مكتبة السراي، جدة، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م.

(٢) يُنظر: التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي الكلبي، ١٣٢/١. تفسير ابن رجب الحنبلي، ٤٨٦/١، إرشاد العقل السليم، لأبي اليسر، ٢٥٠/١ - ٢٥١. التفسير المظهر، لفناء الله، ٣٦٤ - ٣٦٥. أضواء البيان، للشنقيطي، ١٥٨/١ - ١٥٩.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ٨٢/١١، رقم ٢١١٤، عن مجاهد.

(٤) المحرر الوجيز، لابن عطية، ٣٤٥/٦.

وهذا الفرق وحده يكفي بين المؤمن والكافر لو لم يكن ثمة فرق آخر، لأن من كان الله معه فلا حاجة له إلى شيء آخر، ومن تركه الله فلا شيء معه في الدنيا ولا في الآخرة. ثم ذكرت الآية ثمار هذه الولاية وبركاتها، وهي أن الله تعالى حينما يتولى للمؤمنين يخرجهم من ظلمات الحيرة والضلال والكفر إلى نور الإيمان واليقين والهداية والمعرفة. ومن ثمار ولاية الله كما جاء في آية أخرى أن الذي يتولاه الله لا يخاف من شيء ولا يحزن أبداً، قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۝ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ (١). وهؤلاء لهم أيضاً النعيم الدائم في الآخرة، أما الكفار فأولياؤهم من الطواغيت وشياطين الإنس والجن يخرجونهم من نور الحق والإيمان والهدى، إلى ظلمات الكفر والجهل والضلال، يتيهون فيها ويتخبطون لا راحة لهم أبداً ولا استقرار، إذ يظلون في خوف وحزن دائم بسبب هؤلاء الشياطين بخلاف المؤمنين المطمئنين المسرورين كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا دَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُفَوِّتُ أَوْلِيَاءَهُمْ﴾ (٢). وفي الآخرة تكون النار من نصيبهم إذ يكون فيها إلى الأبد، وهي التي تتولاهم يوم القيامة، ويقال لهم: ﴿مَأْوَاكُمُ النَّارُ ۖ هِيَ مَوْلَاكُمْ ۖ وَبُئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (٣).

إن من أهم الأهداف التي حققتها هذه المقارنة:

(١) إثبات محبة الله وولايته ومعيته للمؤمنين، وإعراضه عن الكفار ونسليهم إلى الطواغيت والشياطين التي تضلهم.

(٢) بيان فضيلة الإيمان على الكفر في الدنيا والآخرة.

(٣) الدعوة إلى الإيمان بالله وطاعته لتبيل ولاية الله ونصرته ومعيته في الدنيا والآخرة.

(٤) بيان أهمية الصحبة الصالحة، فعلى المرء أن يختار الصحبة الصالحة التي تذكره بالله وتقربه منه، ويتجنب الصحبة السيئة التي تخرجه من النور وتتركه بتيه في ظلمات الكفر والضلال.

٢- قال الله تعالى: ﴿يُتَبِّحُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الْغَابِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي

الْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۖ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ (٤).

قارنت هذه الآية بين المؤمنين والظالمين. الكفار أيضاً بأسلوب غير صريح، من حيث معية الله تعالى وولايته في الدنيا والآخرة. فذكرت أن الله يثبت للمؤمنين على الطريق الحق المستقيم في الدنيا وفي الآخرة، حتى يصلوا إلى الجنة. أما الظالمين الذين لا يتطلعون إلى الهداية، فيضلهم الله ويسلبهم الهداية، ويخذلهم في الدنيا والآخرة، حتى يقعوا في نار جهنم.

(١) سورة يوسف، الآيات ٦٢ - ٦٤.

(٢) سورة آل عمران، آية ١٧٥.

(٣) سورة الحديد، آية ١٥.

(٤) سورة إبراهيم، آية ٢٧.

■ سياق الآية:

وردت الآية الكريمة بعد أن ضرب الله سبحانه وتعالى مثلاً للكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة فجاءت هذه الآية بعد هذا المثل البليغ لتبين مصير أصحاب الكلمة الطيبة وأصحاب الكلمة الخبيثة وأجواهلهم، وتقارن بين معاملة الله لهما في الدنيا والآخرة. (١)

■ تفسير الآية:

ذكر الله سبحانه وتعالى أنه يثبت المؤمنين ويذهبهم على الكلام الثابت الذي لا شك فيه، والحجة الواضحة التي هي الكلمة الطيبة وأقوال القرآن، لأنها صادقة للمعاني واضحة للليل، ويلقي في روعهم الاطمئنان إلى الحق والجزم به، والقول بمقتضاه، والقبول عليه دون شك ولا تردد، ودون ميل وانحراف عنه. وهذا الثبات يكون في الدنيا، وفي القبر، ويوم القيامة. أما الظالمين المشركين فيتركهم المولى عز وجل يسيرون في طريق الضلال، ولا يردهم إلى الحق، بل يضلهم عن حجتهم التي هي القول الثابت، فلا يستطيعون التكلم بها في قبورهم ولا عند الحساب، ولا يثبتون في مواقف الفتن، فيظلمون في اضطراب وحيرة وعسى في الدنيا والآخرة. والمراد بالظالمين الكفار، وكل من ظلم نفسه بالإعراض عن البينات الواضحة، ووصفهم بالظالمين فيه إشارة إلى أنهم يسيرون في طريق الظلم الذي يشمل الظلم في الاعتقاد بالإشراك، والظلم للنفس بارتضاء طريق الشر، والظلم للناس في معاملاتهم، وفتنة الناس في دينهم وإيمانهم في اعتقادهم. ثم ذكر الله أنه يفعل ما يشاء من التثبيت والخذلان لا راد لحكمه، ولا يُسأل عما يفعل، لأنه المختار المريد. وكرر لفظ الجلالة وأظهره في مقام الإضمار، لتربية المهابة وكمال السلطان، ولتأكيد إرادته للمختارة ومشيئته الحكيمة. (٢)

وقال الإمام أبو زهرة رحمه الله في تفسير القول الثابت: "والقول الثابت كما يشمل النصير في العقيدة يدخل في عموم الثبات على الحق في نصيحة الحاكم والامتناع عن قول الباطل مدهانة له". (٣)

لقد ذكرت الآية الفرق بين المؤمنين والمشرك الظالم من حيث ولاية الله ومعيته لهما في الدنيا وفي الآخرة. فللمؤمنون الذين استجابوا لله ورسوله حينما دعاهم الله ورسوله لما يحبه، وتلقوا دعوتهم بالقبول، وأطاعوها، وعاشوا حياتهم على الكلمة الطيبة، لا يتركهم الله أبداً بل يحسب بأيديهم، ويثبتهم في الدنيا عند مواجهة الشدائد، فلا يتزعزع إيمانهم ولا يضعف، بل يقوى ويبرسخ عند كل مصيبة. كما أنه يثبتهم في القبر عند سؤال الملكين، ليتمكنوا من

(١) راجع: الآيات ٢٤ - ٢٧ من سورة إبراهيم.

(٢) يُنظر: المجموع لأحكام القرآن، للقرطبي، ٣/٢٦٣ - ٣٦٤. لباب التأويل، للحازن، ٣/٣٥ - ٣٧. فتح القدير، للشوكاني،

٣/١٢٨ - ١٢٩. التحرير والتنوير، لابن عاشور، ١٣/٢٢٦ - ٢٢٧. زهرة التفاسير، لأبي زهرة، ٨/٤٠٢٢ - ٤٠٢٤.

(٣) زهرة التفاسير، لأبي زهرة، ٨/٤٠٢٣.

مواجهتهما والإجابة عن أسئلتهما، كما روى عن البراء بن عازب^(١) رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: "إِذَا أَقْعَدَ الْمُؤْمِنُ فِي قَبْرِهِ أَبِي، ثُمَّ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يُنْفِثُ إِلَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾"^(٢). ويثبتهم الله وينصرهم أيضا في الحشر والحساب عند رؤية أهوال القيامة وشدائد البعث والحساب ويؤمنهم، فلا يجزئهم الفزع الأكبر، ويكون الله في عونهم حتى يدخلوا الجنة برحمته وفضله.

أما الظالمين المشركين الذين ردوا دعوة ربهم ونبههم، ولم يستجيبوا لهما، ولم يطيعوهما، يتركهم الله تعالى ويخذلهم؛ فلا يكون معهم كما يكون مع المؤمنين، بل يضلهم فلن يتمكنوا من الثبات على الشدائد في الدنيا ولا في الآخرة، ويظنون ضالين منحرفين عن الصواب حتى يدخلوا النار، والله يفعل ما يريد، ولا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون. إن من أهم أهداف هذه المقارنة ما يلي:

- (١) إثبات معية الله وولايته للمؤمنين في كل وقت وحين في الدنيا والآخرة.
- (٢) بيان فضل الكلمة الطيبة والقول الثابت الذي يكون سببا في الثبات على شدائد الدنيا والآخرة. قال الخازن رحمه الله: "إن الله إنما يحبهم في القبر، بسبب كثرة مواظبتهم على شهادة الحق في الدنيا وحبهم لها"^(٣).
- (٣) إثبات أن الله تعالى لا يدع عباده الصالحين، أبدا بل يكون معهم دائما بعونه ونصرته في السراء والضراء، وإن بدت الأحوال غير مرضية في ظاهر الأمر. وقد يواجه المؤمنون الشدائد ابتلاء من الله تعالى، لكن ثباتهم على القول الثابت والإيمان، يكفل لهم سعادة الدارين بإذن الله تعالى ومشيقته.

(١) هو أبو حمزة البراء بن عازب بن الحارث بن عدى الأنصاري رضي الله عنه. غزا مع رسول الله ﷺ أربع عشرة غزوة وشهد كثيرا من المعارك بعد وفاته ﷺ. روى عن النبي ﷺ عددا من الأحاديث، كما روى عن أبي بكر وعمر وغيرهما من كبار الصحابة رضوان الله عليهم. توفي عام ٥٢ هـ.

ينظر: الإصابة، لابن حجر، ٤١١/١ - ٤١٢... الإصباح، لابن عبد البر، ١٥٥/٢ - ١٥٦. أسيد الغابة، لابن الأثير، ٣٦٢/١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما يبيح في عذاب القبر، ص ٢٢٠، رقم ١٣٦٩.

وفي رواية لمسلم عن البراء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ﴿يُنْفِثُ إِلَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾، قال: "نَزَلَتْ فِي عَذَابِ الْقَبْرِ، يُقَالُ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّي اللَّهُ، وَيُبَيِّنُ مُحَمَّدٌ ﷺ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يُنْفِثُ إِلَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ".

أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة والنار عليه وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه، ص ٢٢٤، رقم ٧٢١٩.

(٣) لباب التأويل للخازن، ٣٧/٣.

الفصل الثاني: ما يتعلق بالإيمان والكفر والترغيب والترهيب

وفيه:

- المبحث الأول: إصلاح عقائد البشر.
- المبحث الثاني: بيان أهمية الاستعداد للنار الآخرة وفضلها على دار الدنيا.
- المبحث الثالث: إثبات فضل الإيمان والمؤمن على الكفر والكافر.
- المبحث الرابع: تشجيع التائبين على الحق والحث على اتباع سبلهم.
- المبحث الخامس: الشوق للجنة والخوف من النار.

المبحث الأول:

إصلاح عقائد البشر

إن القرآن الكريم اهتم بإصلاح عقائد البشر اهتماما كبيرا؛ فهو لم يتطرق في بداية نزوله إلا للأمور الأساسية من العقائد والأخلاق؛ إذ كانت السور والآيات المكية معظمها تدور حول إصلاح العقائد الباطلة التي كانت منتشرة في المجتمع الجاهلي المكي. وبعد إصلاح العقائد، انتقل القرآن الكريم إلى الأمور الأخرى من تشريعات وحلال وحرام وحدود وغيرها من الأمور التي نزلت أحكامها في المدينة المنورة.

لقد نزلت آيات كثيرة من القرآن الحكيم تأمر بالتوحيد وعبادة الله وحده، والإيمان به وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وتفصيل هذه الأركان، كما نزل كثير من قصص الأنبياء التي كانت تهدف إلى إثبات أن دعوة الرسل جميعا واحدة، والهدف الأول من بعثتهم كلهم هو إصلاح عقائد أقوامهم.

وإلى جانب هذه الآيات المباركة وردت في القرآن الحكيم مقارنات هدفها إصلاح العقائد، والتأكيد على أهمية هذا الأمر، وترسيخ العقائد الصحيحة في الأذهان. فمثلا قال الله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ لَخُذْ لِهٖ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝﴾^(١). وهدف هذه المقارنة كما هو ظاهر: بيان أهمية التوحيد، وإصلاح العقيدة وترسيخها في الأذهان، لأن المثل يزيد المعنى المقصود بيانه وضوحا، ويثبت في الأذهان.

❖ أمثلة على مقارنات تخدم هذا الهدف:

هناك أمثلة عديدة على المقارنات التي تخدم هذا الهدف في القرآن المجيد، ومنها:

١ - قال الله تعالى: ﴿أَقْمَنَ يَعْلَمُ أَنَّمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ۚ إِنَّمَا يَنْتَظِرُ أَوْلَا الْأَلْبَابِ ۝﴾^(٢).

تقارن هذه الآية مقارنة صريحة بين الذي يعلم أن القرآن الكريم هو الحق المنزل من عند الله تعالى ويؤمن به، والذي لا يؤمن بأن القرآن حق منزل من عند الله تعالى فهو كالأعمى الذي لا يرى شيئا. وجاءت هذه المقارنة بأسلوب الاستفهام الإنكاري، والهدف منها بيان أهمية الإيمان بالقرآن الذي هو ركن من أركان العقيدة الإسلامية.

(١) سورة الزمر، آية ٢٩.

فأقرنت هذه الآية الكريمة بين المشرك والموحد مقارنة صريحة باستخدام أسلوب ضرب المثل؛ فالمشرك مثل العبد الذي يتنازع فيه شركاء وسادة كثيرون، والموحد مثل العبد المخلص السيد واحد. وقد ذكرت دراسة هذا المثل بالتفصيل في الفصل الأول من باب الأساليب.

(٢) سورة الرعد، آية ١٩.

■ سياق الآية:

بعد أن ضرب الله مثلا للحق والباطل، وبيّن الفرق بين الذين يستجيبون لدعوة ربهم والذين لا يستجيبون لها، جاءت هذه المقارنة بين المؤمن بالقرآن والكافر به لتبين أهمية الإيمان بالقرآن المخزل من عند الله، والذي هو أساس كل خير. (١)

■ تفسير الآية:

بدأت الآية باستفهام إنكاري، لتذكر المساواة بين المؤمن بالقرآن والكافر به. فذكر الله تعالى مخاطبا رسوله الكريم ﷺ قائلا له: إن الذي هداه الله فعلم أن نبوتك صادقة، وأن ما أنزل إليك من ربك هو الحق الذي لا شك ولا اختلاف ولا ليس فيه، وهو كله حق وصدق يصدق بعضه بعضا، فيؤمن به ويعمل بمقتضاه، لا يستوي مع الذي لا يبصر ولا يدرك الحق من الباطل، ولا يهتدي إلى خير، ولا يفهمه، ولا يعلم الحق، ولا يعمل به، ويبقى على كفره؛ فلا يؤمن بالرسول ولا بالقرآن الذي جاء به، ولا يتبع أوامرهما، فيصير بكفره مثل الأعمى الذي لا يرى شيئا. فبين هذين من الفرق كما بين السماء والأرض، ولا يشبهه أمر الفريقين على أحد بعد ضرب هذا المثل، لذا فإن على العبد أن يتذكر ويتفكر في خير الفريقين حالا ومالا، ليؤثر طريقه ويسلك سبيله. ثم ذكر الله في آخر الآية أنه ليس كل واحد يتذكر ليدرك النافع من الضر، بل إن أصحاب العقول السليمة الرؤية الكاملة الذين هم لب العالم وصفوة بني آدم، هم الذين يتذكرون ويتعظون ويعتبرون؛ فيؤمنون بالله تعالى وبكتابه، ويطيعون أوامره وأحكامه. (٢)

لقد وضحت هذه الآية الكريمة أهمية الإيمان بالقرآن الكريم وبصدق الرسول الذي جاء به من عند الله تعالى، فذكرت الفرق بين الذي يؤمن بأن ما أنزل من عند الله على نبيه ﷺ حق لا شك فيه، وبصدق بأن الله هو الذي نزل له الفائدة البشر وإصلاح أحوالهم، والذي لا يؤمن به فيصير بكفره كالأعمى الذي لا يرى ولا يبصر شيئا. وقد وجهت الآية استفهاما إنكاريا، بحيث أتكرت كونهما سواء لدى أحد من العقلاء، لأن كل من يستطيع التفرقة بين الأعمى والبصير يدرك الفرق بين هذين أيضا؛ فالذي يؤمن برسول الله وما أنزل عليه من عند الله بصير يدرك الخير من الشر فيتمكن من إصلاح عقيدته، والذي لا يؤمن به أعمى لا يفرق بين الخير والشر ولا بين الحق والباطل، فلا يستطيع أن يصلح عقيدته، ويكون حاله كما قال الله: ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلَّغْهُمْ أَصْلًا ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (٣)، ومن البديهي أن الأول خير من الثاني. وهذه المقارنة لا تعظ بما إلا العاقلون الذين يُعملون عقولهم؛ فيتفكرون ويتدبرون في آيات الله في كونه وفي كتابه، ويتعظون بما في إصلاح أحوالهم وأعمالهم وعقيدتهم.

(١) راجع: الآيات ١٧ - ١٩ من سورة الرعد.

(٢) يُنظر: المظهر الوجيز، لابن عطية، ٣/٣٠٩. تفسير ابن كثير، ٤/٣٨٦ - ٣٨٧. تفسير الجلالين للسيوطي، ص ٣٢٥.

التفسير للظهوري، لثناء الله، ٥/٢٣٠. تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبد الرحمن ناصر السعدي، ص ٤٦٦.

(٣) سورة الأعراف، آية ١٧٩.

جاءت هذه المقارنة بهدف إصلاح عقيدة البشر، والتأكيد على أهمية صلاحها عن طريق بيان الفرق بين المؤمنين بالقرآن وبصاحب القرآن والكافر بهما، وتشبيههما بالبصير والأعمى. ولا شك أن الإيمان بالقرآن الكريم وبالرسول ﷺ الذي جاء به من أهم أركان العقيدة الصحيحة، فلا يصح إيمان الفرد إلا بالإيمان بهما.

وكذلك هناك أهداف أخرى حققتها هذه المقارنة، منها: توجيه العقول نحو التفكير والتدبر في خير الفريقين عن طريق توجيه استفهام يوقظ العقول، وتجعلها تفكر في الجواب، وتوصل إلى الطريق الصواب. ومنها: بيان أهمية الإيمان بالقرآن الكريم، بحيث كان الكافر به مثل الأعمى الذي لا يرى شيئا، والمؤمن به مهل البصير الذي يرى الأشياء ويميز بين الخير والشر؛ وذلك لأن كون القرآن الكريم حقا منزلا من الله أمر واضح لا يخفى على كل من يرى بعينه ويصير الأشياء، إذ إن كل من يقرأ القرآن بعيدا عن التعصب واليأس يؤمن لا محالة بأنه منزل من عند الواحد الأحد، إلا إذا كان أعمى القلب، لا يدرك الأمور على حقيقتها ولا يرى الصواب. ومن أهداف هذه المقارنة أيضا: التأكيد على أهمية العقول السليمة التي تنعظ بالآيات البينات الواضحات، وتقود المرء إلى الإيمان الصحيح بكل أجزائه وأركانه. كما أن هذه المقارنة سعت إلى تحقيق هدف إنكار المساواة بين المؤمنين بالقرآن المقيع له، والكافر به المعرض عنه.

٢- قال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَ سَائِقُكُمْ مِّنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ ۖ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۚ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (١).

جاءت في الآية مقارنة بين الله تعالى والشركاء الذين يدعونهم للمشركون من دون الله تعالى بأسلوب خير صريح. فوضحت المقارنة أن الله سبحانه هو خالق السماوات والأرض والقادر عليهما، والقادر على إيصال النفع والضر للعبيد، أما لعبودات الباطلة فهي لا تقدر على خلق شيء من الأشياء، كما أنها لا تقدر على الوقوف في سبيل النفع والضر اللذين يريد الله إيصالهما إلى عبده من عباده. وكان الهدف من المقارنة هو إصلاح عقيدة التوحيد.

■ سياق الآية:

جاءت هذه المقارنة البديعة بعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى أنه كاف عباده، بينما الشياطين من الإنس والجن يخوفون الناس من سوى الله، مع أنه لا حاجة إلى الخوف مما سوى الله. ثم ذكر الله أن الهداية والضلال بيده وحده، فمن يهده الله فلا مضل له، ومن يضلله فلا هادي له. فجاءت هذه المقارنة بعد ذلك لتبين الفرق بين الله وشركائه. (٢)

(١) سورة الزمر، آية ٢٨.

(٢) راجع: الآيات ٢٦ - ٢٨ من سورة الزمر.

■ تفسير الآية:

أقام الله تعالى في هذه الآية الدليل على وحدانيته بإقرار المشركين أنفسهم بذلك، فقال: إذا سألت المشركين عن خالق السماوات والأرض اعترفوا بأنه هو الله سبحانه، لوضوح الدليل وظهور السبيل، ومع ذلك هم يعبدون الأصنام والأوثان. وإذا كان الله هو الخالق باعترافهم فكيف قبلت عقولهم عبادة غير الخالق، وتشريك مخلوق مع خالقه في العبادة، مع أن هذه المعبودات لا تملك لأنفسها نفعا ولا ضرا. ثم أمر الله رسوله الكريم بسؤالهم تبكيثا لهم وتوبيخا: إذا أقررتم بأن الله تعالى خلق الأشياء كلها، فأخبروني عن المعكم هذه التي تعبدونها من دون الله هل تقدر على كشف ما أراد الله بي من الشدة والضرر والبلاء من مرض أو فقر أو غير ذلك؟! أو هل تستطيع أن تمنع عني ما أراد الله لي من الخير والنعمة والبركة والرخاء؟! وترك الجواب لدلالة الكلام عليه، يعني: فسيقولون: لا، أي: لا تكشف الضر ولا تمنع النفع. وإذا كانت في الواقع لا تملك شفاء ولا قدرة لها على أمر فكيف تجوز عبادتها؟! واستخدم ضمير "هن" للأصنام، للتنبيه على كمال ضعفها وحقرتها ولأنهم كانوا يصفونها بآلئائيت. ثم قال الله مخاطبا رسوله: قل يا أيها النبي يكفيني الله، وهو حسبي في جميع أموري من جلب النفع ودفع الضر، وبه ثقتي الكاملة وعليه اعتمادي، وهو الذي عليه يعتمد المعتمدون، ويثق الواقفون، لعلمهم أن كل ما سواه تحت ملكوته سبحانه وتعالى. (١)

قارنت الآية الكريمة بين الله سبحانه تعالى وبين الشركاء الذين يعبدونهم المشركون من دون الله سبحانه وتعالى. فأنه سبحانه وتعالى هو خالق السماوات والأرض، وهو الذي يملك القدرة عليهم، وهو الذي بيده النفع والضرر، حيث إنه هو وحده الذي يملك القدرة على دفع مخلوقاته وضرتها، فمن أراد ابتلاءه يضر من نقص مال أو نفس أو مرض أو غيرها من أنواع الشدة والبلاء فعل، ومن أراد الإنعام عليه بمظهر من مظاهر رحمته، من نعمة المال أو الرزق أو الصحة فعل ذلك، ولا يستطيع أحد أبدا منعه من شيء من ذلك. أما الآلهة الباطلة من الأصنام والأوثان التي يعبدونها المشركون، فلا تستطيع التدخل في شيء من هذه الأمور، فلا هي خالقة لشيء من السماوات والأرض وما بينهما، ولا هي تملك النفع والضرر لمخلوق من مخلوقات الله، ولا تقدر على أن تدخل في أفعال الله الحكيمة التي بها ينعم على من يشاء برحمته، ويهلك من يشاء بنوع من أنواع الشدة والضرر، فلا هي تستطيع منع رحمة الله عن أحد، ولا كشف ضرره عن أحد كذلك، بل هي أضعف من أن تنفع أو تضر نفسها. فكيف يعبدونها المشركون ويعتمدون عليها، ويدعّون الله الذي يكفي كل إنسان وعليه يعتمد المعتمدون جميعا والذي يستحق العبادة دون كل ما سواه.

إن من أهم الأهداف التي سعت للمقارنة إلى تحقيقها:

(١) يُنظر: معالم التنزيل، للبغوي، ١٢٦/٤. مدارك التنزيل، للنسفي، ١٨١/٣. الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ٢٥٨/١٥ - ٢٥٩. روح المعاني، للألويسي، ٢٦١/١٢ - ٢٦٢. التفسير المنير، للزحيلي، ١٤/٢٤.

(١) إصلاح عقيدة المشركين الذين كانوا يشركون بالله أصناما وأوثانا لا ترفع ولا تضر، ولا دخل لها في خلق الله وتدبيره، ودعوتهم إلى الإيمان بالله والتوكل عليه، وعبادته وحده بلا شريك ولا نظير.

(٢) إقامة الحجة على المشركين الذين يعترفون بكون الله خالقاً لكل شيء، ومع ذلك يعبدون الأصنام، فما دام الله هو الخالق للسموات والأرض وما بينهما وهو القادر المطلق، فهو المستحق للعبادة وحده.

(٣) الاستدلال على بطلان طريق المشركين، وفساد عقيدتهم ودينهم. قال الدكتور الزحيلي رحمه الله: "بعد أن أوضح الله تعالى وحيد المشركين ووعد للموحدين، عاد إلى إقامة الدليل على تزيف طريقة عبادة الأصنام معتمداً على أصلين:

١. أن هؤلاء المشركين مقرون بوجود الإله الخالق القادر العالم.
 ٢. أن هذه الأصنام لا قدرة لها على الخير والشر".^(١)
- (٤) التنبيه على أهمية التوكل على الله تعالى في كافة أمور الحياة، وبيان أنه وحده يكفي دون حاجة إلى غيره.

(١) التفسير المنير، للزحيلي، ١٣/٢٤.

المبحث الثاني:

بيان أهمية الاستعداد للدار الآخرة وفضلها على دار الدنيا

لقد جاء الإنسان في هذه الحياة الدنيا للعمل والسعي والجدد والاستعداد للدار الآخرة التي هي هدف الإنسان وماواه الحقيقي. واهتم القرآن الكريم منذ بداية نزوله بتصحيح عقائد الناس، وخصوصاً عقيدة الإيمان باليوم الآخر، إذ كان أهل الجاهلية ينكرون الآخرة والبعث والمعاد. فأولى القرآن الكريم أمور الآخرة والمعاد اهتماماً كبيراً، حيث وضع في مواضع كثيرة أن هذه الدنيا تافهة لا وزن لها عند الله تعالى، وأن الآخرة هي الأصل التي يجب أن يعمل كل إنسان لأجل الحصول على المكان المرغبي فيها، والابتعاد عن المكان المخزي الذي هو النار. وذكر المصطفى ﷺ أيضاً في أحاديث كثيرة حقيقة هذه الدنيا مقارنة بالآخرة، فقال عليه الصلاة والسلام: "لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَغْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بُعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةً مَاءً" (١) وقال في حديث آخر: "لَرَوْحَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ غُلُودَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَقَابُ قَوْسٍ أَحَدُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ أَوْ مَوْضِعُ قَيْدٍ - يَعْنِي سَوْطَةٌ - خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ لَأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا، وَلَمَّا لَمَتْ رِيحًا، وَلَنَصِيفُهَا عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا" (٢).

فاللذات لا تساوي شيئاً أمام الآخرة، ولو كان موضع سوط في الجنة، والذي لا يتجاوز مكاناً صغيراً، خير من الدنيا كلها بما فيها من مال وجمال، ومن فيها من الأحبة والمشتبهات، فكيف بالجنة كلها، والتي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. فعلياً أن نعمل لأجلها، وندعو بما دعا به رسول الله ﷺ لنفسه ولأصحابه،

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في هوان الدنيا على الدنيا على الله عز وجل، ص ٥٣١، رقم ٢٣٢٠، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه. وقال الترمذي: هذا حديث صحيح غريب من هذا الوجه.

وقال الألباني: والصواب أن الحديث صحيح لغزوه فإن له شواهد تقويه.

سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، للألباني، ٦٢٣/٢.

وروى ابن ماجه عن سهل بن سعد رضي الله عنه أنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ بأيدي الخليفة، فإذا هو بشاة ميتة شائلة أرجلها، فقال: "أَلَرُّونَ عَلَيْهِ هَيْئَةً عَلَى صَاحِبِهَا؟ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَلِهِ عَلَى صَاحِبِهَا، وَلَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَرِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بُعُوضَةٍ، مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا قَطْرَةً أَبَدًا".

أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب مثل الدنيا ص ٦١٠، رقم ٤١١٠ ط ٦، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م. وأخرجه الحاكم في المستدرک، ٣٤١/٤، رقم ٧٨٤٧. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الذهبي: ذكرها بن منظور ضعفه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب المحرور العین وصفتهن، ص ٤٦٣، رقم ٢٧٩٦، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

إذ روي عن سهل بن سعد^(١) رضي الله عنه أنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في الحندق وهو يحفر ونحن نقل القراب، ويمر بنا، فقال: "اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ، فَأَغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ"^(٢).

إلى جانب هذه الأحاديث التي تبين حقيقة الدنيا أمام الآخرة وردت في القرآن الكريم أيضا مقارنات كثيرة وضحت لنا فضل الآخرة على الدنيا، كما أكدّت على أهمية الاستعداد للآخرة التي هي مسكن المؤمنين الحقيقي وموطنهم الأصلي؛ فمثلا قال الله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾^(٣). وقال في موضع آخر: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْقَدُ ۚ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ يَاقُ﴾^(٤). وهدف كلا الآيتين بيان حقارة الدنيا وفضل الآخرة عليها، والحث على الاستعداد للآخرة، بالإكثار من مختلف أنواع الأعمال الصالحة.

❖ أمثلة على مقارنات تخدم هذا الهدف:

إن من الأمثلة على المقارنات التي تسعى إلى تحقيق هذا الهدف ما يلي:

١ - قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَتَّعْتُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾^(٥).

هذه الآية فيها مقارنة صريحة بين الدنيا والآخرة باستخدام أسلوب مباشر، وذلك عن طريق بيان خيرية الدار الآخرة. فقليل إن مناع الحياة الدنيا مهما تعاضم وكثير فهو قليل بالنسبة لما عند الله في الآخرة، وهي خير من الدنيا للمؤمن. يتقون الله تعالى.

■ سياق الآية:

جاءت الآية في سياق الحديث عن القتال في سبيل الله، فحرض الله المؤمنين على القتال، ويثب أن الذي آمنوا يجاهدون في سبيل الله، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت، ثم ويح الله الذين كانوا يستأفنون رسول الله في القتال، ولكن لما فرض عليهم القتال صاروا يمشون الناس كخشية الله أو أشد خشية، كما أصبحوا يسألون الله سبحانه وتعالى تأخير فرضية القتال إلى أجل قريب. فجاء هذا الجزء من الآية يقارن بين الدنيا والآخرة ليبين أن

(١) هو أبو العباس سهل بن سعد بن مالك الساعدي الخزرجي الأنصاري. كان اسمه حزنا، فسماه رسول الله ﷺ سهلا. توفي رسول الله ﷺ وعمره خمسة عشر عاما، ومع ذلك روى عن رسول الله ﷺ. وروى عنه ابنه العباس، وسعيد بن المسيب، وإبراهيم، وغيرهم من الأئمة رحمهم الله. توفي عام ٨٨ هـ، وهو آخر من توفي من الصحابة بالمدينة المنورة.

يُنظر: الإلهاب، لابن حجر، ١/١٦٧. الاستيعاب، لابن عبيد الو، ٢/٦٦٤ - ٦٦٥. لئس الغاية، لابن الأثير، ٢/٥٧٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب لا عيش إلا عيش الآخرة، ص ١١٦، رقم ٦٤١٤.

(٣) سورة الأعلى، الآيات ١٦ و ١٧. وقد سبقت دراسة هاتين الآيتين في الفصل الأول من باب الأساليب.

(٤) سورة النحل، آية ٦٩.

(٥) سورة النساء، آية ٧٧.

هذه الدنيا بكل ما فيها لا تستحق الماطلة في حكم الله من أجلها، وهي لا حقيقة لها في نظر الله، ولا مساواة بينها وبين الآخرة التي هي خير للمتقين. (١)

■ تفسير الآية:

نزلت هذه الآية في جماعة من المسلمين، لقوا بمكة أدنى شديدا من الكفار، فاستأذنوا رسول الله ﷺ في القتال فأمرهم بالعبادة والزكاة، ولم يؤذن لهم بالقتال لعدم توفر الأسباب. ولما فرغ القتال جين فريق من الذين استأذنوا، وطالبوا بتأخير الجهاد، فأنزل الله هذه الآية التي تبين حقيقة الدنيا بالنسبة للآخرة. (٢)

وذهب بعض المفسرين إلى أن المنافقين هم الذين سجنوا لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَتَعَ الدُّنْيَا قَلِيلًا﴾، وهذا يقال لمن كانت رغبته في الدنيا أكثر من الآخرة، وذلك من صفات المنافقين. فأمر الله رسولهم ﷺ أن يقول لهم: عيشكم في الدنيا مهما طابت لكم الحياة، ومهما انتفعت واستمتعتم بها، فهو قليل سريع الزوال والانقضاء. وذكر لهم ذلك ليهون على القلب أمر الحياة فتزول عنه نفرة القتال، وحب الحياة، ويقدم على الجهاد بقلب قوي. ثم بين الله أن ثواب الآخرة خير من ذلك المتاع القليل لمن اتقى الله، بفعل أمره وترك نهي، بعد الإيمان به وبرسوله، وأطاعهما فيما أحب، وفيما كان شاقا، وسوف يجازي الناس على أعمالهم ويجزون بما ولا يظلمون مقدار قتيل، وهو ما في شق النواة من الخيط، فلا ينقص شيئا من ثواب أعمالهم وأجورهم. وهذا فيه تشجيع على القتال، حيث أخبرهم الله أنهم لا يظلمون أبدا بنقص ثواب جهادهم. (٣)

(١) راجع: سورة النساء، الآيات ٧٥ - ٧٧.

(٢) روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن عبد الرحمن بن عوف وأصحابا له، أتوا النبي ﷺ فقالوا: يا نبي الله كنا في عز ونحن مشركون، فلما آمننا صرنا أذلة. فقال: "إني أمرت بالعبادة، فلا تقاتلوا القوم"، فلما حوله إلى المدينة، أمره بالقتال، فكفوا، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ الْكَاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَكْثَرَ خَشْيَةً﴾ (النساء ٧٧).

أخرجه الحاكم في المستدرک، ٢/٧٦، رقم ٢٣٧٧، وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه. وقال الذهبي: على شرط البخاري. وأخرجه النيسابري في مسنده، كتاب الجهاد، باب وجوب الجهاد، ص ٤٢٣، رقم ٣٠٨٨، ط ١، دار السلام للطباعة والتوزيع، ١٤٢٠م - ١٤٢٠هـ.

وقال الشيخ مقبل الوادعي: هذا حديث صحيح، رجاله رجال الصحيح.

الصحيح للمستند بما ليس في الصحيحين، لأبي عبد الرحمن مقبل الوادعي، ط ١، دار الآثار، صنعاء، اليمن، ١/٥٣٢.

(٣) يُنظر: البحر المحیط، لأبي حنيفة، ٣/٧١٥ - ٧١٦. اللباب في علوم الكتاب، لأبي حفص الخليلي، ٦/٥٠٠ - ٥٠٤. إرشاد العقل السليم، لأبي السعود، ٢/٢٠٤. التحرير والتنوير، لابن عاشور، ٥/١٢٤ - ١٢٧. أيسر التفاسير، للجزيري، ١/٥١١.

قال الشيخ أبو حفص الجنيلي^(١): "وإنما كانت الآخرة خيراً، لأن نعم الدنيا قليلة فانية، ونعم الآخرة كثيرة باقية، ونعم الدنيا منقطعة ونعم الآخرة مؤبدة، ونعم الدنيا مشوبة بالهموم والمكاره ونعم الآخرة صافية من الكدورات".^(٢)

لقد وضحت الآية الكريمة أن الدنيا بكل ما فيها من متاع وملذات ونعم ومشتبهات، وإن كثرت وعظمت في أعين الناس وإن كانت ذات قيمة كبيرة ومحبوبة لدى البشر، فهي قليلة وخفيرة، لأنها لا تخلو من العيوب والنقائص والكدورات. وقد تكون عند الإنسان يوماً، وتزول عنه في لحظة عين، وتذهب إلى غيرهِ. أما الآخرة ودارها فهي خير عند الله تعالى، وثوابها أبقي وأفضل لمن أقي الله، فأطاعه فيما أمر واجتنب ما نهى عنه وزجر؛ وذلك لأن نعم الآخرة وملذاتها دائمة لا تنقطع أبداً، وكثيرة لا تقل ولا تزول عن صاحبها، بل تبقى معه دائماً بفضل الله ورحمته.

وتوضيحا للفرق بين الدنيا والآخرة قال رسول الله ﷺ: "وَاللَّهُ! مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِبْصَغَةً هَلْدِهِ - وَأشار يحيى^(٣) بالسَّابَةِ - فِي الْيَمِّ فَلْيَنْظُرْ (أَحَدُكُمْ) يَمَّ تَرْجَعُ؟".^(٤) وأيضاً هناك فرق آخر كبير بين نعم الدنيا والآخرة، وهو أن كل نعمة من نعم الدنيا للتوفرة للإنسان يسأم منها بعد فترة، ويتطلع إلى نعم أخرى غيرها، أما نعم الآخرة وثوابها فلن يسأم منه أحد ولن يود أن يزول عنه أبداً، كما قال تعالى عن الجنة وأهلها: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾.^(٥)

إن من أهم الأهداف التي حققتها هذه المقارنة:

(١) هو أبو حفص عمر بن علي بن عادل، سراج الدين الجنيلي الدمشقي. من العلماء بالفسير، توفي عام ٨٨٠ هـ. من كتبه: الباب في علوم الكتاب، وله حاشية على المحرر في الفقه.

يُنظر: الأعلام، للزركلي، ٥/٥٨. معجم المفسرين، لعادل نويس، ٧/٣٠٠. الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير، لمجموعة من المؤلفين، ٢/١٧٦٢.

(٢) الباب في علوم الكتاب، لأبي حفص الجنيلي، ٦/٥٠٣.

(٣) هو أبو سعيد يحيى بن سعيد بن فروخ القطان البصري، من علماء وأئمة الحديث. كان أستاذاً لعدد من كبار الأئمة منهم: أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وعلي بن المديني، وغيرهم. سمع من مالك، وعشام بن عروة، رحمهم الله. واحتج به الأئمة كلهم. كان من سادات أهل زمانه في العلم والحفظ والورع والعقل والفهم والدين والفضل. توفي عام ١٩٨ هـ.

يُنظر: الثقات، لابن حبان، ط ١، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند، ١٢٩٣ هـ - ١٩٧٣ م، ٧/٦١١. الإرشاد في معرفة علماء الحديث، لأبي علي الخليلي، تحقيق: د. محمد سعيد، ط ١، مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٠٩ هـ، ١/٢٣٧. الكوكب الزهّاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، لمحمد الأمين الهروي، ط ١، دار المنهاج، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م، ٢٥/٥٥٠.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب غناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة، ص ١٢٣٩، رقم ٧١٩٧، من حديث مستورد بن شداد.

(٥) سورة الكهف، آية ١٠٨.

(١) بيان حقارة الدنيا، والتقليل من شأن متاعها الزائل، وتوجيه الأنظار نحو الآخرة؛ وما عند الله من متاع وثواب؛ لأن ما عند الله في الآخرة خير من الدنيا من كل الجوانب والاعتبارات.

(٢) الحث على الاستعداد للدار الآخرة، والتطلع إلى ما عند الله من ثواب، بفعل الطاعات وترك المحرمات وتقوى الله عز وجل.

(٣) بيان أن الدار الآخرة ستكون خيرا للمتقين الطائعين الذين يفرزون برضا الله تعالى ويتألون ثوابه فقط، أما العصاة للمتمردين فلا خير لهم في الآخرة، لأنهم يواجهون فيها العذاب الدائم الذي لا يخفف عنهم ولا يزول، ولا ينقطع أبدا.

(٤) إثبات أن الدنيا بكل ما فيها لا تستحق للماطلة في التزام أولمر الله وأدله أحكامه.

٢- قال الله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا لَهُمْ وَلِئِبَّ ۖ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِی

الْحَيَوَانُ ۖ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾^(١).

قارنت هذه الآية أيضا بين الحياة الدنيا والآخرة بأسلوب غير صريح، ببيان أن الحياة الدنيا بما فيها من ملذات ليست إلا لها ولعها زائلا لا خير فيه، أما الدار الآخرة وحياتها فهي الباقية الدائمة. وهدفها أيضا الحث على التطلع إلى الآخرة ومتاعها الباقي.

■ سياق الآية:

جاءت الآية بعد توبيخ الله للمشركون الذين يعترفون بكون الله الخالق الرازق المحيي المميت، ومع ذلك يشركون به غيره في العبادة. قال الدكتور الزحيلي رحمه الله: "بعد بيان كون المشركين يعترفون بأن الله هو الخالق وهو الرازق وهو المحيي، وهم مع ذلك يتركون عبادته ويعبدون من دونه الشركاء حرصا على زينة الحياة ومكاسيها المادية، أوضح الله أن ما يميلون إليه وهو الدنيا ليس بشيء وأن الحياة الآخرة هي الحياة الحققة النامة التي تستحق الحرص عليها والعمل من أجلها".^(٢)

■ تفسير الآية:

"يقارن الله بين الدنيا والآخرة، ويظهر بأن الدنيا حقيرة زائلة لا دوام لها، وغاية ما فيها هو يتلقى به ولعب يتسلى به، وأما الآخرة فهي دار الحياة الدائمة التي لا تزول ولا تنقضي، بل هي مستمرة أبد الأبد، فلو علموا ذلك لأنزوا ما يقى علي ما يقى".^(٣)

(١) سورة العنكبوت، آية ٦٤.

(٢) التفسير المنير، للدكتور الزحيلي، ٣٥/٢١.

(٣) المصدر السابق، ٣٦/٢١.

هذه الآية فيها تشبيه بليغ^(١)، فقد شبه الله الحياة الدنيا باللعب واللعب، أي: إن الحياة الدنيا كاللغو واللعب، والفرق بين اللغو واللعب هو أن اللغو إغراض عن الحق، واللعب إقبال على الباطل. فالدنيا لمو للبعض ينشغل به ويعرض عن الآخرة ويساهي بالكليّة، وللبعض لعب يشتغل به ويقول: بعد هذا الشغل أشغل بالعبادة والآخرة^(٢). فوضع الله أن الحياة الدنيا إن لمجردت عن حياة القيم التي تأتي بالإنقاذ للنهج لا تبقى إلا لغوا ولعبا، لا خير فيها. أما الحياة في الدار الآخرة فهي الحياة الحقيقية التامة التي لا موت فيها ولا فناء، وهي الحياة المختيرة. والحيوان مصدر حي، كالحياة، ولكن فيه مبالغة ليست في الحياة. ثم أخبر تعالى أن السفهاء لا يعلمون هذه الحقيقة، لأنهم لو علموا لما آثروا الدنيا على الآخرة، ولأقبلوا على منهج ربهم، وسلكوا طريق الطاعة والإيمان، لينالوا هذا العطاء الممتد الباقي^(٣). قال الشيخ الشعراوي رحمه الله: "الحيوان: الحياة الحقيقية التي لا تفوتها ولا تفوتك، ولا يفارقك نعيمها، ولا يتغصه عليك شيء، كما أن التمتع في الدنيا على قدر إمكاناتك وأمبيالك، أما في الآخرة فالتعظيم على قدر إمكانات التمتع سبحانه وتعالى"^(٤).

إن الحياة الدنيا هي مثل لعب الصبيان، وهوهم والذي يرحلون فيه ويفرحون فترة قصيرة، ثم يملون منه ويتجهون إلى شيء آخر. فالدنيا كذلك لا ثبات فيها ولا دوام، بل هي مختلطة بالأحزان والأفراح والأحوال المتقلبة. وأيضا فإن الدنيا يمل منها الإنسان إذا عُمّر طويلا، كما قال الشاعر^(٥): "ومن يعيش ثمانين حولا لا أيا لك يسأم"^(٦). كما أن الدنيا تشغل الناس عن الأمر الحقيقي الذي هو ذكر الله والدار الآخرة. أما حياة الآخرة فهي الحياة الحقيقية الثابتة الدائمة التي لا تنتهي ولا تنقطع، ولا يكثر صفوها شيء، ولا يمل منها أحد لينتج إلى شيء آخر. فينبغي ألا ينشغل الإنسان بالدنيا وينسى الآخرة، فإنها آتية لا محالة: **﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَغُرُّكُمْ الْخَيُوتُ الدُّنْيَا﴾**^(٧). بل يجب أن يكون الإنسان مستعدا للدار الآخرة دائما، وفي نفس الوقت يستفيد من النعم التي أنعم الله عليه بما في الدنيا، ويكون كما جاء في القرآن الكريم: **﴿وَابْتَغِ فِيمَا**

(١) التشبيه البليغ هو التشبيه الذي تحذف منه الأداة ووجه التشبه.

(٢) مفاتيح الغيب، للرازي، ٧٥/٢٥.

(٣) يُظَر: بحر العلوم، للسمرقندي، ٦٤٠/٢. الكشف والبيان، للتحلي، ٢٨٩/٧. شرح السنة البيهقي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ومحمد زهير الشاويش، ط ٢، المكتب الإسلامي، دمشق، سوريا، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م، ١٩٧/١٥. تفسير الشعراوي، ١١٢٥٧/١٨ - ١١٢٦٠. التفسير المنير، للرجلي، ٣٣/٢١ - ٣٦.

(٤) تفسير الشعراوي، ١١٢٥٩/١٨.

(٥) وهو زهير بن أبي سلمى، من شعراء المعلقات في العصر الجاهلي.

(٦) مأخوذ من بيت شعر ورد في معلقته، وهو قوله:

مَنْ مَثَّلَتْ لَكَ لَيْفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَحْيَى ... ثَمَانِينَ حَوْلًا لَا أَيْ لَكَ يَسْأَمُ.

شرح للمعلقات السبع، لحسن النوريني، ط ١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م، ص ١٤٨.

(٧) سورة فاطر، آية ٥.

ءَاتِكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ - وَلَا تَنْسَ لَصِيبِكَ مِنَ الدُّنْيَا^(١). فينبغي لنا أن نستفيد من نعم الله تعالى علينا، ونستخدمها في طاعته جل وعلا، ولا نشغل بها، بحيث تنسينا الآخرة وثوابها بالكلية.

إن هذه المقارنة حققت أهدافا كثيرة، أهمها: بيان أهمية الاستعداد للدار الآخرة وإثبات فضلها على الدنيا. وإلى جانب هذا الهدف والأهداف التي ذكرت في المقارنة السابقة، هناك أغراض أخرى أضاء منها:

(١) تسلية للمؤمنين عموما والفقراء منهم خصوصا، والذين حرموا مال الدنيا ومتاعها الوافر، وإخبارهم أن هذا كله لا يساوي شيئا ولا وزن له عند الله تعالى، وأن ما عند الله خير وأبقى.

(٢) التأكيد على عدم الافتتار بالحياة الدنيا والانشغال بما فيها للمسررات والملذات بالإغراض عن الآخرة، لأنها عبث زائل.

(٣) التأكيد على أهمية العلم النافع الذي يؤدي بالإنسان إلى إظهار الآخرة على الدنيا والعمل والسعي لأجلها.

(٤) الحث على الأطمئنان والقناعة بما يملكه الإنسان في الدنيا وإن قل، والتطلع إلى ما عند الله، لأنه خير للمؤمنين: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾^(٢).

(١) سورة القصص، آية ٧٧.

(٢) سورة الضحى، آية ١.

المبحث الثالث:

إثبات فضل الإيمان والمؤمن على الكفر والكافر

لقد وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة يثبت فضل الإيمان على الكفر، ونفت المساواة بين المؤمن الذي يعيش سعياً لتبليغ رضا الله تعالى والكافر الذي لا يهتم برضا الله تعالى، وذلك لأن هذه القضية من أهم القضايا التي افتتحت بها القرآن والإسلام. ولذا جاءت في القرآن مقارنات كثيرة بمهدف إثبات فضل الإيمان والمؤمن على الكفر والكافر.

ولا شك أن بين الإيمان والكفر فرقاً كبيراً، فالإيمان بحبه الله ويرضاه لعباده والكفر يفضيه الله ولا يرضاه لعباده أبداً. قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَىٰ مَنْ هُوَ الْإِيمَانُ وَرَزَقْنَاهُ فِي قُلُوبِهِمْ وَكُزَّةً حَسَنَةً الْخَيْرُ وَالْفُسُوقُ وَالْعِصْيَانُ﴾^(١). والله تعالى مع عباده المؤمنين ينصرهم في الدنيا والآخرة كما سبق تفصيل ذلك فيما مضى. قال تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢). وكونه تعالى مع المؤمنين يدل على أنه ليس مع الكافرين، بل إنه يتركهم يتيهون في ظلمات الكفر والضلال، ويخذلهم في الدنيا وفي الآخرة حتى يصلوا إلى النار، ويقعوا فيها على وجوههم. ولا شك أن هذا من أهم ما يدل على فضيلة المؤمن على الكافر، والإيمان على الكفر^(٣). فلا مساواة بين المؤمن والكافر، لا في الدنيا ولا في الآخرة، والإيمان والكفر لا يتساويان أبداً، ولا يجتمعان في قلب بشر، لأن الإيمان إذا دخل للقلب ورسخ فيه ثبت الإنسان، فلا تكسره حوادث الدهر وشدائده، ولا تزعزع ثقته بربه، أما الكفر فإنه يُضعف القلب، فلا يثبت الكافر على شيء، بل يظل متردداً متعجباً. وبالإضافة إلى ذلك فإن المؤمن رابح، في حين أن الكافر خاسر في الدنيا والآخرة.

وإلى جانب هذه الآيات المباركة وأخرى غيرها، هناك أمثلة ووقائع كثيرة من التاريخ تشهد على فضيلة المؤمن على الكافر، ومنها قصة ماشطة ابنة فرعون التي أحرقتها فرعون بسبب إيمانها بالله جل وعلا، وسمع النبي ﷺ راتحتها الطيبة ليلة أسري به، بعد قرون من وفاتها^(٤). أما عدوها فرعون الكافر الذي أحرقتها فعات غرقاً في الماء، وسيبقى

(١) سورة الحجرات، آية ٧.

(٢) سورة الأنفال، آية ١٩.

(٣) وما يثبت فضيلة المؤمن على الكافر أيضاً أن النبي ﷺ جعل دية الكافر نصف دية المسلم، قال ﷺ: "دِيَةُ الْكَافِرِ نِصْفُ دِيَةِ الْمُسْلِمِ".

أخرجه الإمام أحمد في مسنده مطولاً، ٢٨٨/١١، رقم ٦٦٩٢، عن ابن عمر رضي الله عنهما. وقال المحققون (شعيب الأرنؤوط وآخرون): صحيح، وهذا إسناد حسن.

(٤) عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: "لَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الَّتِي أُسْرِيَ فِي فِيهَا، أَتَتْ عَلِيَّ رَابِعَةُ طَيِّبَةً، فَقُلْتُ: يَا جَبْرِيلُ، مَا هَذِهِ الرَّابِعَةُ الطَّيِّبَةُ؟ فَقَالَ: هِيَ رَابِعَةُ مَاجِطَةَ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ وَأَوْلَادِهَا. قُلْتُ: وَمَا فَائِئُهَا؟ قَالَ: بَيْنَا هِيَ تَمْسُكُ ابْنَةَ فِرْعَوْنَ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ سَقَطَ الْجَنْدِيُّ مِنْ يَدَيْهَا، فَقَالَتْ: بِسْمِ اللَّهِ. فَقَالَتْ لَهَا ابْنَةُ فِرْعَوْنَ: أَيُّ؟ قَالَتْ: لَا، وَلَكِنْ رَبِّي وَرَبُّ أَبِيكَ

في عذاب إلى قيام الساعة، وسوف يُعْلَب في الآخرة في نار جهنم، قال الله تعالى: ﴿الْكَاثِرُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾^(١).

وعما يشهد لذلك أيضا قصة بلال بن رباح رضي الله عنه مع سيده الكافر أمية بن خلف. فقد عذبه أمية بسبب إيمانه بالله تعالى، ولكن سيدنا بلالا ثبت بإيمانه على هذه الشدائد التي واجهها، فرجع الجنة، حيث جمع النبي ﷺ فرع نعاله في الجنة^(٢). أما أمية فقد خسرنا مينا، إذ قُتل في أول معركة وقعت بين المؤمنين والكفار، ودخل النار التي كانت بانتظاره في الدار الآخرة.

وقد وردت في القرآن صفات كثيرة تميز المؤمنين عن غيرهم وتبين فضلهم على الكفار، منها: أنهم يصلون بحشوع، ويؤدون الزكاة، ويعرضون عن اللغو، ويحفظون فروجهم عن المحرمات، ويراعون أماناتهم وعهودهم، ويؤدون الشهادات على وجهها، ويخلقون بكل الأخلاق الفاضلة التي أمر الله بها. وهم يؤدون كل هذه الطاعات ابتغاء وجه الله، ومع ذلك يخافون ألا تقبل منهم، إذ يظنونها حقيرة في جناب الله. أما الكفار فهم لا يؤدون شيئا من الطاعات لوجه الله تعالى، ومع ذلك يحسبون أنهم يحسنون صنعا، فيخسرون الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين.

منه هي بعض الأمور التي تثبت فضيلة الإيمان والمؤمن على الكفر والكافر، وهما لا يستويان أبدا في نظر الله تعالى، ولا في نظر أحد من أولي الألباب. وقد وردت في القرآن الكريم مقارنات كثيرة توضح هذا الأمر لتسوي العقول السليمة، حتى يتعظوا ويعتبروا، ويسلكوا سبيل الإيمان، ويتركوا سبيل الكفر.

الله. قالت: أخبرت بذلك قالت: نعم. فأخبرته فذاعها، فقال: يا فلانة، وإن لك ربا غري؟ قالت: نعم، ربي وربك الله. فأمر بقرعة من نحاس فأخرجت، ثم أمر بها أن تلقى بين أولادها فيها. قالت لدة: إن لي إليك حاجة. قال: وما حاجتك؟ قالت: أجب أن تجمع عظامي وعظام ولدي في ثوب واحد، وتدفننا. قال: ذلك لك عليتنا من الحق. فأمر بأولادها فألقوا بين يديها، واجدا واجدا، إلى أن انتهى ذلك إلى صبي لما فرغ، كألها تقاعست من أجله، قال: يا أمية، افتحعي، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، فافتحنت.

رواه الإمام أحمد في مسنده، ٣٠/٥، رقم ٢٨٢١، وقال المحققون: إسناده حسن. وأخرجه ابن حبان في صحيحه، ١٦٦٣/٧، رقم ٢٩٠٣، وقال المحقق شعيب الأرنؤوط: إسناده قوي.

(١) سورة غافرة آية ٤٦.

(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لبلال عند صلاة الفجر: "يا بلال، خذني بأرجي غسل عيقتي في الإسلام، فإنني سمعت دف نعليك بين يدي في الجنة". قال: ما عملت عملا أرجي عندي، أي لم أنظف طهورا في ساعة ليل أو نهار، إلا صليت بذلك الطهور ما كتب لي أن أصلي". قال أبو عبد الله: دف نعليك يعني تحريك.

أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التهجد، باب قبيل الطهور بالليل والنهار وفضل الصلاة عند الطهور، ص ١٨٤، رقم ١١٤٩.

الاهتداء، كما تتضمن للمؤمنين الذين هم كالأحياء المتفتحين بالابصار. قال ابن كثير^(١) رحمه الله: "قلل من بصر جميع في نور، عشي على صراط مستقيم في الدنيا والآخرة حتى يستقر به الحال في الجنات ذات الظلال والعيون. والكافر أعمى وأعمى في ظلمات عشي لا خروج منها، بل هو يتيه في غيه وضلاله في الدنيا والآخرة حتى يقضي به ذلك إلى الحرور والسموم والحميم"^(٢). وبعد بيان عدم استواء هذه الأمور رد الله أمر الإيمان والكفر إلى مشيئته، فقال: إن الله يسمع من يشاء أن يسمعه ويهدي من يشاء إلى سماع الحق وقبولها، أما أثرت بما محمد فليس في استطاعتك أن تشيع المجاحدين للمضرين على كفرهم الذين هم أشبه بالملوث في القبور في علم المسامح والانتفاع بالدعوة، فلا حيلة لك فيهم ولا تستطيع هدايتهم. وفي ذلك تسلية للرسول ﷺ عما أصابه من المجاحدين.^(٣)

وقد ذكر الشيخ السمين الحلبي^(٤) بعض اللطائف في تفسير هذه الآية، فقال: "ولم يعد" لا تأكيداً في قوله "الأعمى والبصير" وكررها في غيره؛ لأن منافاة ما بعده أتم، فإن الشخص الواحد قد يكون بصيراً ثم يصير أعمى، فلا منافاة إلا من حيث الوصف بخلاف الظل والحرور والظلمات والنور، فإنها متنافية أبداً، لا يجتمع اثنان منها في محل، فالمنافاة بين الظل والحرور وبين الظلمة والنور دائمة... فإن قيل: الحياة والموت بمنزلة العمى والبصر، فإن الجسم قد يكون متصفاً بالحياة ثم يتصف بالموت، فالجواب: أن المنافاة بينهما أتم من المنافاة بين الأعمى والبصير، لأن الأعمى والبصير يشتركان في إدراكات كثيرة ولا كذلك الحي والميت... وأفرق الأعمى والبصير لمقابلة الجنس بالبصير، لأن التفاوت بين الجنس مطلق به لا بين الأفراد، والأحياء لا يساويون الأموات سواء قابلت الجنس بالجنس أم الفرد بالفرد"^(٥).

(١) هو أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي. من العلماء البارزين في التفسير والحديث والتاريخ وغيرها من العلوم الشرعية. درس على يد الحافظ المزني، والشيخ ابن تيمية، والقاسم بن غياث وغيرهم. رحمه الله. توفي عام ٧٧٤هـ. من كتب: تفسير القرآن العظيم، البداية والنهاية، الأحكام على أبواب التوبة، وغيرها.

يُنظر: طبقات المفسرين، للداودي، ١/١١١ - ١١٣. طبقات المفسرين، للأدنه وي، ص ٢٦٠ - ٢٦١.

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٦/٤٨٠.

(٣) يُنظر: المحرر الوجيز، لابن عطية، ٤/٤٣٥ - ٤٣٦. التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي الكلبي، ٢/١٧٤. تفسير القرآن العظيم،

لابن كثير، ٦/٤٨٠ - ٤٨١. التفسير الوسيط، لطباطوي، ١/٣٤٠ - ٣٤١.

(٤) هو أبو العباس أحمد بن يوسف شهاب الدين الحلبي، المعروف بالسمين. من فقهاء الشافعية العالمين بالنحو والتفسير والقراءات. كان من تلامذة أبي حبان الملازمين له. توفي عام ٧٥٦هـ. من كتبه: الدر المنصون في علوم الكتاب المكنون، القول الوجيز في أحكام الكتاب العزيز، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، شرح الشاطبية، وغيرها.

(٥) يُنظر: طبقات المفسرين، للأدنه وي، ص ٢٨٧. معجم المفسرين، لعادل تويهض، ١/٨٤. الموسوعة ليسرة في تراجم أئمة التفسير، لمصنوعة من المؤلفين، ١/٤٥٥.

(٥) الدر المنصون، للسمين الحلبي، ٩/٢٢٥ - ٢٢٦، بتصرف.

أثبتت الآيات فضيلة الإيمان على الكفر والمؤمن على الكافر في الدنيا وفي الآخرة. فذكرت أن الكافر مثل الأعمى الذي لا يميز بين الخير والشر، ولا يرى الطريق الحق من الصواب، بل يتخبط في حياته في الكفر الذي هو مثل الظلمات التي لا يسترشد الإنسان فيها إلى الطريق الصواب الموصول إلى الهدف والغرض المنشود. وبالإضافة إلى ذلك فإن الكافر مثل الميت الذي فقد كافة حواسه، فلا يستطيع أن يستفيد من حاسة منها لمعرفة الطريق الحق والوصول إلى الغاية المنشودة، فلا طمع في هدايته وعودته إلى الله تعالى وإلى دينه، فهو بالإضافة إلى عدم رؤيته للصواب، لا يسمع أيضا منادي الإيمان بدعوه إلى ما فيه خيره وصلاحه، ويظل طيلة حياته كفلث حتى يصل إلى النهاية إلى مكان الجحيم الشديد والسموم الذي لا راحة فيه ولا طمأنينة لأحد، وهو نار جهنم والعياذ بالله.

لا شك أن من كانت هذه حالته في الدنيا والآخرة لا يستوي مع المؤمن الذي هو ضده تماما. فقد شبه الله المؤمن بالبصير الذي يستفيد من بصره وبصيرته للتمييز بين الحق والباطل، ومعرفة الطريق الصواب من الخاطئ، فيختار السلوك في الطريق الصحيح المستقيم الموصول إلى الهدف المنشود من الحياة، فيكون في نور دائم، وهو نور الإيمان الذي يساعده في التغلب على مشكلات الحياة، والثبات على الصراط المستقيم. وبالإضافة إلى كونه بصيرا، هو حي بالمعنى الصحيح، حيث يسمع الدعوة إلى الخير فيستجيب لها، ويستفيد من كل الخواص التي أنعم الله بها عليه ليسلك الطريق الصواب. وإيمانه نور ينير له ولغيره الطريق، فهو كالنبي الذي فيه فائدة للناس جميعا، إذ يرشدهم إلى الحق ويدعوهم إلى الله، وهذا هو ما فيه صلاحهم وفلاحهم. وبعد هذه الحياة المليئة بالخير يحصل في الآخرة على المكان الذي فيه ظل ظليل لا شمس فيه ولا زمهرير، وهو الجنة التي أعدها الله لعباده المؤمنين به الصالحين.

لقد حققت هذه المقارنة أهدافا عدة؛ أهمها: القطع بنفي المساواة بين المؤمن والكافر وبين الإيمان والكفر، وبالتالي إثبات فضيلة الإيمان على الكفر والمؤمن على الكافر في الدنيا والآخرة. ومن أهدافها أيضا: التوجيه نحو التفكير والتدبر في خير الفريقين (المؤمنين والكافرين) باستخدام هذه التمثيلات والاستعارات البليغة للفريقين ومصيرهما، وهذه الأمور مما يدعو إلى التفكير والتدبر، ويرسخ المعنى في الأذهان.

ومن أهدافها أيضا: الدعوة إلى سلوك طريق المؤمنين، الطريق الحق الذي يسلكه الأحياء أولو الأبصار، واجتناب طريق الكفار الذي لا يسلكه إلا من كان أعمى فاقد البصيرة، ميتا فاقد الحواس.

٢- قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ آلَتُهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۖ فَوَيْلٌ لِلْفُتَيَّةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ ۖ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(١).

(١) سورة الزمر، آية ٢٢.

قارنت هذه الآية بين الذي شرح الله صدره للإسلام فأسلم، وكان على نور الهداية من الله، وبين الذي لم يشرح الله صدره للإسلام فكان في ظلمات الغي. والمقارنة في الآية غير صريحة جاءت بأسلوب إيجاز الحذف، فذكر الفريق الأول وهو الذي شرح صدره للإسلام، بينما حذف الفريق المقابل له، وهو الذي لم يشرح صدره للإسلام.

■ سياق الآية:

جاءت للمقارنة بعد ذكر مظهر من مظاهر قدرة الله تعالى الذي تمثل في إنزال الماء عن السماء، والذي له دوره في إخراج زرع مختلف ألوانه، والذي يصفر بقدرة الله حينما ينتهي أجله، فيصير حطاماً، وفي ذلك موعظة وذكرى لأصحاب العقول. فجاءت للمقارنة بعد هذا لتفريق بين الذين يستفيدون من عقولهم قيوماً، والذين لا يستخدمونها فلا يصلون إلى الإيمان^(١).

قال النيسابوري^(٢) رحمه الله: "وحيث بالغ في تقرير البيانات الدالة على وجوب الإقبال على طاعة الله والإعراض عن الدنيا الفانية، بَيَّنَّ أن ذلك البيان لا يكمل الانتفاع به إلا إذا شرح الله صدره ونور قلبه"^(٣).

■ تفسير الآية:

في الآية إيجاز بالحذف لدلالة ما بعده عليه، وتقديره: أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه كمن طبع على قلبه نقسا ولم يهتد؟ ويمكن أن يكون تقدير المخلوف: كمن حق عليه كلمة العذاب فهو في ظلمة الكفر. وشرح المصدر للإسلام تكميل الاستعداد له، والاستفهام هنا إنكاري. والمعنى: أفمن وسع الله صدره للإسلام وتخلقه مستعداً له، وبقي على الفطرة الأصلية، ولم يغير بالعوارض الفادحة فيها، فقبل الإسلام ولهتدى بهديه فهو بسبب هذه الهداية مستقر على بصيرة وتور^(٤) عظيم من ربه، كمن قسا قلبه بسبب تبديل فطرة الله وسوء اختياره وغفلته وجهالته فصار في ظلمات الجهل والضلالة، وأعرض عن الآيات فلم يتذكر بها؟ والمراد بالآية بيان عدم استواء المهتدي الموفق للإسلام والحق مع قاسي القلب البعيد عن الحق. ثم ذكر الله عقاب قساة القلوب، فلهم العذاب الشديد، لأنهم لا تلين قلوبهم ولا تتجشع عند ذكر الله، بل يشتمرون عند ذكر آياته، ويعرضون عنها فتزداد قلوبهم قسوة، وهؤلاء القسوة^(٥) في بعد واضح عن الحق. "فإن قيل: كيف يقسو القلب من ذكر الله عز وجل؟ فالجواب:

(١) راجع: الآيات: ٢١ - ٢٢ من سورة الزمر.

(٢) هو نظام الدين الحسن بن محمد القسي النيسابوري، من كبار العلماء ومن المفسرين الأفاضل. توفي عام ٨٥٠ هـ. من كتبه: غرائب القرآن ورجائب الفرقان، لب التأويل، أوقاف القرآن، وغيرها.

ينظر: طبقات المفسرين، للأدنه وي، ص ٤٢٠. معجم المفسرين، لعادل تويجس، ١/١٤٥. الموسوعة الميسرة، ٦/٧٢٧.

(٣) غرائب القرآن ورجائب الفرقان، للنيسابوري، ٥/٦٢٢.

(٤) والتور في الآية مستعار للمهدي ووضوح الحق، لأنه ياتر تنجلي الأشياء، ويخرج المبصر من غياهب الضلالة، وهو نور كامل من عند الله لا تخالطه ظلمة.

ينظر: التحرير والتبوير، لابن عاشر، ٢٣/٣٨١.

(٥) قسوة القلب هنا مبيحار لقلبة تأثر العقل بما يسدى إلى صاحبه من مواضع.

أنه كلما تلى عليهم ذكر الله الذي يكذبون به قست قلوبهم عن الإيمان به، وإنما قست قلوبهم من شكر الله، لأنهم جعلوه كذبا فأنسى قلوبهم^(١).

قال النيسابوري: "عندي بـ"من" لأن قسوة القلب تدل على خلوه من فوائد القرآن. ويجوز أن يكون "من" للتعليل. وذلك أن جواهر النفوس مختلفة، فبعضها تكون مشرقة بنور الله، يزيد بها نور القرآن بهاء وضياء، وبعضها تكون مظلمة كدرة لا ينعكس نور الذكر إليها، ولا تظهر صورة الحق فيها كالمرآة الصدفية^(٢).

لا شك أنه لا يستوي أبدا من شرح الله صدره فوسعه للإيمان به والاهتداء بهديه، فدخل في الإيمان والإسلام وصار يستفيد من نور الله الذي منحه الله إياه، وهو هدايته الموجودة في كتابه وسنة رسوله ﷺ، ومن طبع الله على قلبه بسبب إعراضه عن الهداية والإيمان، وعدم رغبته في قبول دين الله، فقسا قلبه عن ذكره وقبول آياته، فلم ينشرح صدره ولم يقشعر لسماع آيات القرآن الكريم، بل كلما دُعي إلى الإيمان بالله وتليت عليه آياته ازداد قسوة في قلبه وبعدا عن الإيمان والإسلام.

لا يستوي الأول مع الثاني أبدا، فالأول منشرح الصدر مطمئن القلب، معه نور الله الذي يهديه، ويأخذ بيده في كافة الأوضاع الصعبة، فيخرجه منها، ويضيء له الطريق في الدنيا وفي الآخرة، فيمضي بين الناس بهذا النور الذي أنعم الله به عليه، فيستفيد منه بنفسه ويفيد غيره، قال الله تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِثْقَا فَاخِيتِنَّ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ۚ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٣). ويظل هذا النور معه حتى يدخله الجنة بإذن الله، وينير له ظلمات الحشر، ويخفف له من شدائد الآخرة، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَانُكَمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(٤).

أما الكافر فيبقى في دياجي الظلام، فاسي القلب لا يلين قلبه ولا يخشع لذكر الله، ولا يطمئن في حياته، بل يكون في الدنيا كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِذْ أَنْ يُضْلَعُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَبًّا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾^(٥). كما أنه لا نور له يخرجه من الأوضاع الصعبة في الدنيا، ويساعده في الوصول إلى الجنة في الآخرة، بل يظل في غياهب الظلام حتى يقع في جهنم التي تكون مولاه ومصيره.

المصدر السابق، ٢٣/٣٨٦.

(١) محظر: زاد السير في علم التفسير، لابن الجوزي، ٤/١٣ - ١٤. إرشاد العقل السليم، لأبي السخود، ٦/٢٥٠. التحرير والتبوير،

لابن عاصم، ٢٣/٣٧٩ - ٣٨٦. الأساس في التفسير، لسعيد حري، ٩/٤٨٦٩. التفسير المنير، للرحلي، ٢٣/٢٧٦ - ٢٧٨.

(٢) غرائب القرآن ورجائب الفرقان، للنيسابوري، ٥/٦٢٢.

(٣) سورة الأنعام، آية ١٢٢.

(٤) سورة الحديد، آية ١٢.

(٥) سورة الأنعام، آية ٢٢٥.

إن من الأهداف التي حققتها هذه المقارنة البليغة ما يلي:

- (١) إثبات فضيلة المؤمن والمسلم على الكافر والمشرِك، والإمتكار على من يظنهما سواء، فكلُّ من منشَرِج الصدر مطمئن البال يعيش في نور الإيمان والهداية، والكافر ضيق الصدر يعيش في ظلمات الكفر والضلال.
- (٢) إثبات أن الهداية بيد الله ينعم بها على من يشاء، فعلينا أن لسأل الله الهداية دائماً، لأنه لا يعطيها إلا لمن طلبها وسعى لأجل الحصول عليها.
- (٣) دعوة المؤمنين إلى شكر الله على شرح صدورهم، وهدايتهم إلى الإيمان، ومنحهم نور الهداية، وإنجائهم من ظلمات الكفر والضلال.
- (٤) إيقاظ العقول ودعوتها إلى التدبر في ضد الفريق المذكور، والذي حُذِفَ لِيَتَفَكَّرَ الإنسان ويسلك مسيل الطائفة التي هي على الصواب.
- (٥) بيان علامات الهداية والضلال، "فذكرت في الآية علامات الاهتداء به وعلامات الضلال عنه" (١).

(١) الأساس في التفسير، لمسجد حوى، ٤٩٨/٩.

المبحث الرابع:

تشجيع الثابتين على الحق والحث على اتباع سبيلهم

لقد شجع القرآن الكريم المؤمنين الذين ثبتوا على الحق واستقاموا عليه في آيات كثيرة؛ للمؤمنين الذين لما آمنوا دخل الإيمان قلوبهم، فلم ينحرفوا عنه بل صدقوا ما عاهدوا الله عليه، ففي القرآن الكريم آيات كثيرة مدحت مثل هؤلاء المؤمنين الصادقين الذين آمنوا بالله تعالى حق الإيمان، ثم ثبتوا على إيمانهم هذا واستقاموا على الدين الحق؛ وقد مدحتهم هذه الآيات وشجعتهم على صفاتهم الحسنة وأفعالهم الصالحة التي يودونها، لكي يصيروا أشد ثباتاً عليها ولا ينحرفوا عنها قيد أنملة، ولكي يتبع الناس خطاهم ويعملوا مثل أعمالهم. فمثلاً قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلَتِهِمْ مَعْزُومُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ لَمَنِ ابْتَنَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتَنِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ۝ الَّذِينَ يَرْتُونَ الْغُرُوثَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(١). هذه الآيات شجعت المؤمنين لثباتهم على الحق وأدائهم لهذه الأفعال الصالحة، وأعلنت فلاحهم ودخولهم الجنة في الآخرة؛ وذلك ليتبع الآخرون سبيلهم ويفوزوا بسعادة الدارين مثلهم. وكذلك شجعت آيات سورة الفرقان الأخيرة عباد الله الصالحين المستقيمين على الحق على ثباتهم وتحققهم بأخلاق فاضلة، وصرت بهم يأتممون الخوف العالية في الجنة على صبرهم ولباتهم^(٢). وأيضاً من الآيات التي تشجع الثابتين على الحق المستقيمين عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ۝ نَحْنُ أَوْلِيَٰ الْأَمْرِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ۝ لَوْلَا رِزْقُ غُفُورٍ رَجِيمٍ﴾^(٣).

ومثل هذه الآيات كثيرة في القرآن الكريم، كما وضع الله تعالى في آيات أخرى أن الذي يثبت الإيمان في قلبه ويستقيم على الحق، يثبت الله تعالى وينصره في الدنيا والآخرة. وقد وردت آيات وأحاديث تأمر بالاستقامة والثبات

(١) سورة المؤمنون، الآيات: ١ - ١١.

(٢) واجع: سورة الفرقان، الآيات ٦٣ - ٧٦.

(٣) سورة فصلت، الآيات ٣٠ - ٣٢.

على الحق، منها قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا﴾ (١) وروى أنه قيل لرسول الله ﷺ: يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك. قال: "قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ، ثُمَّ اسْتَقِمْ" (٢).

فالاستقامة على الطريق الحق والنجاة على الدين القويم له أهمية كبرى في الحياة، ولا فائدة لإيمان المرء ما لم يثبت عليه؛ وذلك لأن المرء يُكْتَسَبُ له السعادة ويُكْتَسَبُ عليه الشقاء حسب حالته، فإن لحِمَّ عليه بخير كان من أهل السعادة الفائزين بالجنة، وإن لَحِمَّ عليه بِشَرٍّ كان من أهل الشقاء الخالدين في النار. ولهذا السبب كانت للنيات على الحق أهمية عظيمة، ولأجل ذلك شجّع القرآن الناجين عليه، ودعا غيرهم إلى اتباع سبيلهم للفوز بسعادة الدارين. لقد وردت في القرآن الكريم مقارنات بهدف تشجيع المسلمين الناجين على الحق حتى يستمروا على ثباتهم واستقامتهم، وحتى يتبع غيرهم سبيلهم.

❖ أمثلة على مقارنات تخدم هذا الهدف:

ومن الأمثلة على مثل هذه المقارنات ما يلي:

٢- قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَذَرَهُمْ فِي عَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۖ أَتَيْتَهُمْ أَنَا نُنِيئُهُمْ بِمِثْلِ مَالٍ وَيَنِينَ ۖ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ۚ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ۖ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ۖ وَالَّذِينَ هُمْ بِقَائِلَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۖ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۖ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۖ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا شَاقِقُونَ﴾ (٣).

تقارن الآيات للكرامة مقارنة غير صريحة بين الكفار الناكثين في الحياة المشغولين بالأموال والبنين عن الله سبحانه وتعالى ودينه الحق، وبين المؤمنين بالله تعالى الذين يشعرون بهم ولا يشركون به، ويستقيمون على الدين الصحيح. وقد ذكرت صفات المؤمنين بقدر من التفصيل في حين أعرض القرآن عن ذكر صفات الكفار واكتفى بذكر أنهم منشغلون بالأموال والبنين عن الله والدار الآخرة. ومن خلال صفات المؤمنين المذكورة يمكن معرفة صفات الكفار.

(١) سورة هود، آية ١١٢.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب جامع لوصاف الإسلام، ص ٣٩، رقم ١٥٩. والبيهقي هو سليمان بن عبد الله الثقفي.

وروى الترمذي عن سليمان أنه قال: يا رسول الله حدثني بأمر أعتصم به، قال: "قُلْ رَبِّيَ اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقِمْ".

أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الزهد، باب ما جاء في حفظ اللسان، ص ٥٤٩، رقم ٢٤٦٠، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وقد روي من غير وجه عن سليمان بن عبد الله الثقفي.

(٣) سورة المؤمنون، الآيات: ٥٤ - ٦١.

الذين هم على النقيض من هؤلاء، وفيه إيجاز حذف، إذ ذكر القرآن الكريم الطرفين، وبين صفات أحدهما، وأعرض عن ذكر صفات الآخر.

■ سياق الآيات:

ورد في الآيات السابقة ذكر سريع لبعض الأنبياء الذين أرسلهم الله تعالى، ولحتم ذكرهم بعرض مختصر لقصة سيدنا موسى وهارون عليهما السلام وإرسالهما إلى فرعون وتكذيبه لهما، وهلاكه بسبب هذا التكذيب، كما وردت إشارة إلى كون سيدنا عيسى عليه السلام وأمه آيتين من آيات الله تعالى. وبعد ذلك أمر الرسل جميعاً بالأكمل من الطيبات وأداء صالح الأعمال، وكان الأمر بواسطة الرسل إلى أتباعهم. ثم أخبر الله أن أمتنا هذه أمة واحدة وربها واحد، فيبني للأمة أن تبقى ربها وتبقى متحدة فيما بينها، ولكن أفرادها تقطعوا فيها بينهم وافترقوا شيعاً وأحزاباً، وكل حزب فرج بما لديه خيراً كان أو شراً.^(١) وبعد ذلك قدمت هذه الآيات مقارنة بين الكفار والمؤمنين بذكر صفات المؤمنين بالتفصيل والإعراضي عن صفات الكفار.

■ تفسير الآيات:

خاطب الله تعالى نبيه في بداية الآيات المذكورة، وأمره بتترك الجاهلين في حيرتهم وضلالهم، حتى يأتيهم الموت أو العذاب، فقال: دع هؤلاء الكفار في غمرتهم أي: ضلالهم وجهلهم^(٢) إلى حين هلاكهم بالسيف أو الموت. وفي ذلك وعيد لهم بعذاب الدنيا والآخرة، وتسلياً لرسول الله ﷺ. ثم أنكر عليهم تكبرهم وغرورهم بما عندهم من المال باستخدام استفهام فيه إنكار مع تفرع، فقال: هل يحسبون أن الذي أعطيتهم من الأموال والبنين في الدنيا مسارعة لهم في الخيرات، وأتينا أتعنا عليهم بهذه النعم ثواباً لهم، لمرضاتنا عنهم؟! ثم أضرب عن ذلك فقال: ليس الأمر كذلك، بل إن هؤلاء لا يشعرون ولا يعلمون الحقيقة، وهي أن هذه النعم استدراج لهم، ولا تبدل على رضا الله عنهم. وهم كالبهائم لا عقل لهم ولا شعور، حتى يفكروا في نعم الله لديهم أهمل استدراج لهم، أم مسارعة في الخيرات.^(٣)

وبعد ذم من تقدم ذكره من الكفار، بين بعده صفات المؤمنين الذين يسارعون في الخيرات حقيقة، فقال: إنهم يخشون الله تعالى ويخافون من عقابه وعذابه، ويصدقون بآيات الله تعالى التي تتضمن آيات كونه وآيات كفايه، ولا

(١) راجع: الآيات ٤٥ - ٥٣ من سورة المؤمنون.

(٢) والغمرة في الأصل ليل الذي يغمر القامة، والغمر الماء الذي يغمر الأرض، ثم استعمل ذلك للجحالة. والمادة أيضاً فيها معنى الغطاء والاستتار. شرب لجهالتهم وصلهم مثل.

يُنظر: الباب في علوم الكتاب، لأبي حفص الخليلي، ٢٢٩/١٤. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي، ٨٩/٤.

(٣) يُنظر: الوجيز، للواحدي، تحقيق: صفوان عدنان داودي، ط ١، دار القلم، دمشق، سوريا، ١٤٦٥ هـ، ص ٧٤٩. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي، ٨٩/٤ - ٩٠. الباب في علوم الكتاب، لأبي حفص الخليلي، ٢٢٧/١٤ - ٢٣٠. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود، ١٣٩/٦.

يشركون بالله تعالى شركا جليا ولا خفيا. وليس المراد من نفي الشرك عنهم، ذكر إيمانهم بالتوحيد ونفي الشرك لله تعالى لأنه داخل في قوله: "والذين هم بآيات ربهم يؤمنون"، بل المراد منه نفي الشرك الخفي، وهو الإخلاص التام في العبادة والقُدوم عليها لوجه الله وطلب رضوانه. ومن صفات هؤلاء المؤمنين أيضا أنهم يفعلون ما يفعلون من الطاعات وقلوبهم خائفة ألا تقع منهم هذه الطاعات على الوجه اللائق، فلا تحبل منهم ويواخذون بها. فمن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَاوا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾. قالت عائشة: أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: "لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصنعون ويتصدقون، وهم يخافون ألا يقبل منهم". ﴿أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾^(١). وفي نهاية ذكر هذه الصفات التي تميز المؤمنين عن الكفار، ذكر أن هؤلاء هم الذين يسارعون في فعل الخيرات، ويسبقون الناس إليها، يرضيهم الشديدة فيها، وهم الذين يسبقون الناس أيضا في دخول الجنة في حقيقة الأمر، لا الكفار البتة الذين في جهنم وضلالهم^(٢).

(١) أخرجه الترمذي في سننه كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المؤمنين، ص ٧١٨، حديث رقم ٢٢٧٥، وقال الترمذي: وقد روي هذا الحديث عن عبد الرحمن بن سعيد عن أبي حازم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بهذا.

وأخرجه ابن ماجه في سننه بنحوه، كتاب الزهد، باب التوفي على العمل، ص ٦١١، حديث رقم ٤١٩٨.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله ﷺ، قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَاوا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾. أهو الرجل يذيق ويسرق ويشرب الخمر وهو مع ذلك يخاف الله عز وجل؟ قال: "لا، ولكنهم الرجل يصوم ويصلي ويتصدق وهو مع ذلك يخاف الله عز وجل".

أخرجه الحاكم في المستدرک، ٤٢٧/٢، حديث رقم ٣٤٨٦، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الذهبي: صحيح.

وعنها أيضا أنها قالت: يا رسول الله ﷺ، ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَاوا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾، أهم الذين يحفظون ويعملون بالمعاصي؟ فقال: "لا، يا عائشة، هم الذين يصومون، ويتصدقون، وقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ".

أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، ١٩٥/٤، رقم ٣٩٦٥.

والحديث صحيح لغيره.

ينظر: ترميز أحاديث وآثار في ظلال القرآن لسيد قطب، بعلي السقا، ط ٢، دار الهجرة للنشر والتوزيع، ١٤٢٦ هـ - ١٩٩٥ م، ص ٣١٥.

وقال الألباني: وإسناد حديث عائشة رجاله كلهم ثقات... وفيه غلطة وهي الانقطاع بين عبد الرحمن وعائشة، فإنه لم يشركها كما في الغالب، لكن بقية حديث أبي هريرة الذي أشطر إليه الترمذي، فإنه موصول.

سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، للألباني، ٣٠٥/١.

(٢) ينظر: الوجيز، للواحدي، ص ٧٤٩. أثمار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي، ٨٩/٤ - ٩٠. للباب في علوم الكتاب، لأبي حفص الهبلي، ٢٣٠/١٤ - ٢٣٢. الجواهر الحسان في تفسير القرآن، للنعالي، ٤٥٣/٤ - ٤٥٥. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود، ١٣٩/٦ - ١٤٠.

ذكرت الآيات الكريمة صفات المؤمنين بالله عز وجل العاملين للمصالحات في معرض المقارنة بين عباد الله الصالحين الثابتين على الحق، والكفار العاصين لله سبحانه وتعالى.

فقال الله تبارك وتعالى إن للمؤمنين بالله تعالى يخافون منه ومن عذابه، ويؤمنون به وآياته المنزلة المشتملة على آيات كونه وآيات كتابه، وهم لا يخلطون بإيمانهم بأدنى درجة من درجات الشرك، فيعتلون كل البعد عن جميع أنواع الشرك جلياً كان أو خفياً. ثم إنهم لا يفترون بما يؤدون من طاعات وعبادات، ولا يطمعون بأعمالهم، بل يقومون بكل ما في وسعهم من عبادات وطاعات، وتبقى قلوبهم مع ذلك خائفة ألا تقبل منهم هذه الطاعات في جناب الله لما تشتمل عليه من عيوب ونقص، فلا يجنون ثواباً يوم يرجعون إلى ربهم. فهم مع أدائهم للطاعات ليس عندهم أدنى ذرة من التكبر على إيمانهم وصلاحهم وأعمالهم الصالحة، فلا يطمعون بما ظنوا أنها تكفي وأنهم أدوا حق الله عليهم، بل إنهم يخافون من الله تعالى، مع كونهم راجين في رحمته، داعين منه قبول أعمالهم، فيبقون بين الخوف والرجاء. هؤلاء هم الذين يسارعون في الخيرات حقيقة ويتسابقون في أعمال البر والخير، لنيل رضا الله وثوابه وجزائه الموعود على الأعمال الصالحة في الدنيا وفي الآخرة، وسيجلون ثوابهم عند ربهم يوم المعاد.

أما الطرف الآخر، وهم الكفار، فاكتمى القرآن بذمهم، وأمر الرسول ﷺ بتركهم فيما هم فيه من الجهل والضلال، ووضح أن نعمة المال والبنين التي أعطاها الله لإيمانهم ليست مسرعة لهم في الخيرات، بل إنها استدراج لهم. ولم تذكر صفاتهم التي تقابل صفات المؤمنين، لأنها غير قابلة للذكر وهي مفهومة من السياق، ولأن المقصود بالمقارنة هنا تشجيع المؤمنين، والدعوة إلى اتباع سبيلهم. فيفهم من الآيات أن الكفار لا يخافون من الله تعالى ولا من عذابه، ولا يؤمنون بالله تعالى وآياته حتى الإيمان، بل يشركون به غيره، ويظنون ذلك هو الدين الحق والصواب. وهم مع إشراكهم بالله لا يفعلون الطاعات رغبة في ثواب الله، ولو فعلوا شيئاً من أفعال البر لا تكون تبتهم خالصة لوجه الله. وبالإضافة إلى الإشراك بالله وعدم الإخلاص له في أفعال الخير، يتكبرون على أدائها، ويدخل نفوسهم العجب رغم حقارة هذه الأفعال، فيظنون أنها كافية لنجاتهم (كما كانت قريش تفتخر وتتكبر لولاية البيت، وسقاية الحجيج، وكما يفتخر اليهود بالإيمان بموسى). فهؤلاء لا يسارعون في أعمال الخير، ولا يسبقون الناس إليها، بل يتكاسلون عن الخيرات، ويتقدمون الناس في أعمال الشر والمعصيات. وسيعاقبهم الله تعالى على ما قدموا يوم القيامة، كما يجازي المؤمنين على ما قدموا كما وعد كلاً منهما. ندعو الله أن يجعلنا من المؤمنين السابقين في الخيرات.

إن من أهم الأهداف التي حققتها هذه المقارنة ما يلي:

- (١) تشجيع المؤمنين الثابتين على الحق والإيمان المستقيمين عليه، ومدحهم على أعمالهم الصالحة.
- (٢) الحث على اتباع سبيل المؤمنين والاتصاف بأوصافهم الحسنة.
- (٣) الأمر بعدم الاغترار بالأعمال الصالحة والدعوة إلى الخوف الدائم من الله عز وجل الذي بيده قبول الأعمال وردها، فعلى الإنسان أن يدعو الله أن يتقبل منه أعماله الصالحة وينيبه عليها.

(٤) بيان حقيقة المسارعة في الخيرات؛ حيث إن أداء الأعمال الصالحة والاستقامة عليها هي في واقع الأمر مسارعة في الخيرات لا الزيادة في المال والبنين.

(٥) توبيخ الكفار على الاغترار والتكبر على زيادة الأموال والبنين، وبيان أن ذلك لا ينجي من عذاب الله الذي يلحق المكذبين ولا يُرد عنهم أبدا.

٣- قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكْفُرَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ٥٧ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُرِي مَا أُرِي مُوسَى ٥٨ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُرِي مُوسَى مِنْ قَبْلُ ٥٩ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَذِبٍ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٦٠ فَإِنْ لَمْ يَنْتَهِبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُتْلَعُونَ أَحْوَاءَهُمْ ٦١ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ ٦٢ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ٦٣ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ٦٤ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ٦٥ وَإِذَا يُغْنَى عَنْهُمْ قَالُوا عَآمَّآ بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ٦٦ أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَذَرُهُنَّ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ٦٧ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلِّمْ عَلَيْكُمْ لَا تَتَّبِعِ الْجَاهِلِينَ ٦٨﴾ (١)

هذه الآيات فيها مقارنة بين المؤمنين والكفار (وخاصة من أهل الكتاب) من حيث إيمانهما بالله تعالى، وبيان موقفهما من الآيات التي ينزلها الله عز وجل. فذكر أن غير المؤمنين طلبوا إرسال الرسل وإنزال الآيات، ولكن حينما جاءهم الحق كفروا به، لأنهم يتبعون أهواءهم ولا أحد أهدى ظلما من الذي يرجح هواه على هدى الله. ثم ذكرت صفات المؤمنين من أهل الكتاب، فقل إنهم يؤمنون بالقرآن الكريم ورسوله، ويذعنون له عند سماع آياته، ويعرضون عن اللغو وعن الجاهلين، ويذعنون السيئة بالحسنة، فلهم أجرهم مرتين عند الله.

■ سياق الآيات:

وردت هذه الآيات في معرض بيان قصة سيدنا موسى عليه السلام، فبعد ذكرها قيل للنبي ﷺ إنه لم يكن موجودا حينما وقعت هذه الأحداث مع سيدنا موسى عليه السلام، ولكن الله أوحى إليه وأجبره بهذه الأمور وهي دليل

على صدق نبوته. (١) ثم ذكر حال الكفار والمؤمنين في الإيمان بالقرآن الكريم، فقورن بينهما وبين موقفهما منه، ومن النبي الذي جاء به من عند الله، كما ذكرت بعض الصفات التي تفرق بين الاثنين.

■ تفسير الآيات:

ذكرت الآيات أولاً أن الله تعالى أرسل رسوله لإقامة الحجة على البشر، ولكي لا تبقى للناس حجة على ربه، ولأنهم يقولوا عند رؤية العذاب بسبب أعمالهم السيئة: هلا أرسلت إلينا رسولا يبين لنا صحة الإيمان والتوحيد ويوضح لنا نظامك الشرعي، فنؤمن بك وتبغ شريعتك. فبعث الله هذا الرسول ليجيب للناس ما يحتاجون إليه في حياتهم، وقطع بذلك أعذارهم. (٢) وحينما أرسل الله الرسول انقسم الناس إلى صنفين.

الصنف الأول هو الفريق الكافر الذي كفر بالرسول الذي أرسله الله والكتاب الحق الذي أنزله الله. فقال هؤلاء حينما وصل إليهم الكتاب والرسول على وجه الثغث والعناد والتمادي في الكفر: هلا أوتي هذا النبي مثلما أوتي موسى قبله من المعجزات والآيات الكثيرة، كالعصا واليد وانفلاق البحر، وغيرها من الآيات التي أجراها تعالى على يد موسى حجة له وبرهانا على صدقه. ولكن هذا محض تكبر وعناد وفرار من الإيمان، حيث كفر المعاندون من البشر بهذه الآيات التي أوتيتها موسى عليه السلام، وهذا هو شأن المعاندين دائماً. وقد كفر هؤلاء الكفار المعاصرون بموسى ومحمد ﷺ، وقالوا عنهما إنهما ساحران تعاونا على التدمير والتضليل وصدق كل منهما الآخر، ونحن كافرون بكل منهما، فتعبداهم الله بالإيمان بكتاب من عند الله يكون أهدي من التوراة والقرآن، وأكثر نفعاً للإنسانية منهما، يتبعونه ويتبعه الرسول ﷺ معهم، إن كانوا صادقين في دعواهم، وفي اتهامهم موسى ومحمد عليهما السلام وكتابهما بالسحر. ولكنهم لم يقدروا، ولن يقدروا على الإيمان بكتاب آخر، وهذا لا يعني إلا أنهم يتبعون أهواءهم بلا دليل ولا حجة من عند الله، وليس ثمة أحد أحد ضاللاً ممن يتحرف عن طريق الهدى، ويسير مع هواه بغير حجة ولا دليل من عند الله. والله تعالى لا يهدي الظالمين المشركين إلى طريق الإيمان والرشاد، ولا يوفقهم إلى الحق. ولقد أنزل الله القرآن موصلاً بعضه ببعض لتذكير فريش، حسب المصلحة والحكمة، لعلمهم وأمثالهم من البشر يتعظون ويتنبهون إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم، فيؤمنون بالقرآن ومن أنزل عليه. (٣)

وبعد ذكر هؤلاء، ذكر الصنف الآخر المشتمل على المؤمنين من أهل الكتاب الذين عاشروا النبي ﷺ، وآمنوا به لمطابقته لكتابهم، وذكر موقفهم من رسول الله، والكتاب الذي أنزل عليه. فقيل: إن هؤلاء حينما جاءهم هذا الكتاب الحق من عند الله آمنوا بكونه كلام الله الحق، وإذا قرئ عليهم هذا القرآن قالوا: إنه الحق من ربنا، وإيماننا به قديم، إذ قرأ آباؤنا الأولون ما في الكتاب الأول وأعلمونا بذلك، فنحن مسلمون لله مخلصون له، مستجيبون

(١) راجع: سورة القصص الآيات ٤٤ - ٤٦.

(٢) انظر: التفسير القيم، لابن قيم الجوزية، ص ٤٢٥.

(٣) انظر: البحر المحيط، لأبي حيان، ٣١٠/٨ - ٣١٥. الدر المنون، للسمين الحلبي، ٦٨٢/٨ - ٦٨٣. التفسير المنير، للرحلي،

للدعوة القرآن قبل نزوله وتلاوته علينا. هؤلاء لهم نواب مضاعف مرتين، جزاء لهم على إيمانهم بكتابهم وبالقرآن، وثباتهم على الإيمانين، وعلى صبرهم على تكاليف الشرائع كلها، وعلى ما يلقون من الأذى. وهم مع الإيمان بالله متصفون بالأخلاق الرفيعة، حيث يدفعون السيئة بالحسنة، وينفقون مما رزقهم الله خللا طيبا، وإذا سمعوا من المشركين أو غيرهم اللغو والفسح من الكلام، من أذى أو سب وشتم أعرضوا عن أهله، كما أنهم يعرضون عن الجاهلين، فلا يخالطونهم ولا يريدون معاشرتهم، فيقولون لهم: لنا أعمالنا ونحن مسؤولون عنها، ولكم أعمالكم وأنتم مسؤولون عنها، ويسلمون عليهم، أي: يؤدّبونهم ويتركونهم، ويطلبون من الله لهم السلامة مما هم فيه.^(١)

قارنت الآيات المباركة بين الكفار والمؤمنين وموقف الاثنين من القرآن الكريم، ووضحت الفرق بين صفات كل منهما. فذكرت أن الله تعالى أرسل الرسل لإقامة الحجة، وحينما أرسل الله الرسول، وأنزل عليه الكتاب الحق الذي لا شك فيه، جحد به الكفار للمعاندون، وطالبوا تأييد هذا النبي ﷺ بمعجزات حسية كالتي أيد الله بها موسى عليه السلام. أما المؤمنون فآمنوا بالكتاب حينما وصل إليهم، وأيقنوا بأنه الحق من عند ربهم، وأنه الكتاب الذي ذكر خبره في كتبهم. وكذلك فإن الجاحدين الكفار لا يتبعون إلا أهواءهم التي لا علاقة لها بالإيمان والهدى الذي أنزله الله، ولا أحد أضلّ منهم، ولا أهل في عودتهم إلى الإيمان. وليس كذلك المؤمنون، فإنهم يؤمنون بالكتاب والرسول، ويتبعون أحكامه، ويطيعون الله في كل صغيرة وكبيرة. هؤلاء المؤمنون من أهل الكتاب يؤتون أجرا مضاعفا، لإيمانهم بنبيهم وكتابهم، وإيمانهم بهذا القرآن والرسول الذي جاء به. ويظهر أثر إيمانهم في أخلاقهم أيضا، حيث يصبرون على جميع أنواع الشدائد، ويدفعون السيئة بالحسنة، وينفقون من مال الله الذي رزقهم، ويعرضون عن اللغو من الكلام فلا يخوضون فيه ولا يجادلون الجاهلين بالباطل، بل يقون على أعمالهم، وأخلاقهم الحسنة، ولا يتحرفون عنها عند لقاء الجاهلين الجاهلين عشا، فيؤثرون فيهم ولا يتأثرون بهم. أما الكفار فهم على النقيض من ذلك، إذ يؤذون غيرهم، ويمسكون ما لهم عن الإنفاق ويخوضون في الباطل واللغو، وسيجدون عقابهم عند الله.

ومن أهم أهداف هذه المقارنة:

- (١) تشجيع الثابتين على الحق من أهل الكتاب المستقرين على الثبات والإيمان، ومدحهم على صبرهم وإيمانهم.
- (٢) الدعوة إلى سلوك سبيل هؤلاء الثابتين المستقرين على الحق، والتخلق بمثل أخلاقهم، وأداء أفعال كآفعالهم، لتلهم الجزاء الأمثل عند الله كما نال هؤلاء، وللإجماع بهم في دار الخلود.
- (٣) بيان صفات الثابتين على الحق، والتي كانت سببا في استحقاقهم الجزاء الحسن عند الله، وبيان أن من طمع في دخول الجنة فعليه التخلق بمثل هذه الأخلاق.
- (٤) بيان فضيلة الصبر والثبات على الحق، لأن ذلك يكون سببا في مضاعفة الأجر عند الله.

(١) مظهر: أنوار التنزيل، للبيضاوي، ٦٨٠/٤ - ١٨١. البحر المحيط، لأبي حيان، ٣٦٠/٨ - ٣١٥. الكشف والبيان، للعليني، ٢٥٢/٧ - ٢٥٤. التفسير المنير، للزحلي، ١٢٤/٢٠ - ١٢٧. التفسير الوسيط، للزحلي، ط ١، دار الفكر، دمشق، سوريا، ١٤٢٢ هـ، ٢٠٠١ م.

٥) الحث على الإعراض عن الجاهلين، واتخاذ صحبة الصالحين الأبرار الذين يشجعون الإنسان على الأعمال
الحسنة، ويثبتونه عند مواجهة الشدائد.

المبحث الخامس:

التشويق للجنة والتخويف من النار

إن من الأمور التي اهتم بها القرآن الكريم كثيرا التشويق للجنة والتخويف من النار، واللجنة والنار من الأمور التي لا تذكر في القرآن الكريم إلا مقترنة، حيث إن القرآن كثيرا ما يربط بينهما وبين الوعد والوعيد، وهذه المعاني لا تكاد تفترق في هذا الكتاب الكريم. والهدف من ذكرهما معا بين كل حين، وآخر الحث على الإيمان بالآخرة والاستعداد لها، والتشويق للجنة ونعيمها والتخويف من النار وعذابها، والدعوة إلى الإيمان بالله تعالى وطاعته، والابتعاد عن الكفر والفسوق والعصيان.

ولا شك أن الجنة والنار لا تتساويان أبدا، بل إن بينهما فرقا كبيرا، فتشتركان في أن كليهما من مخلوقات الله تعالى، خلقهما الله وأعدهما لمجازاة عباده، فالجنة مظهر رحمة الله وثوابه، في حين أن النار عذاب الله ومظهر غضبه. قال رسول الله ﷺ: "تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أُوتِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُعْجَبِينَ. وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: مَا لِي لَا يَدْخُلْنِي إِلَّا ضَعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ؟ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحِمِي أَرْحَمُ بِكَ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابُ أَغْلِبَ بِكَ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مَلُؤَهَا. فَأَمَّا النَّارُ: فَلَا تَمْتَلِي حَتَّى يَصْنَعَ رَجُلٌ قَتْلَ قَتْلٍ قَطُ قَطُ قَطُ، فَهَنَالِكَ تَمْتَلِي وَتُزَوَّى بِنَفْسِهَا إِلَى نَفْسٍ، وَلَا يَطْلُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا، وَأَمَّا الْجَنَّةُ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنْشِئُ لَهَا خَلْقًا".^(١)

وقد وردت آيات وأحاديث كثيرة جدا تشوق للناس إلى الجنة دار النعيم التي أعدّها الله لعباده الصالحين، والتي فيها كما قال ﷺ: "مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَافْرَأُوا إِنَّ هَيْئَتَكُمْ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾".^(٢)

فالجنة يدخلها عباد الله الصالحون الأبرار، الذين من بينهم الأنبياء والصديقون والشهداء. هؤلاء يساقون إلى الجنة زمرا، ولما يصلون إليها تُفتح لهم أبوابها السماوية وتسلم عليهم الملائكة هنالك، وترحب بهم، ثم يُقَلَّمُ لضيوف الرحمن ثولا من غفور رحيم، ويجلس في الجنة أهلها على سرر متقابلين لا غِلَّ في قلوبهم ولا حقد ولا حسد، ويتمتعون معا بنعيم الجنة الذي قال الله عنه: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ قَوْمًا رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾.^(٣)

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله تعالى "وتقول عمل من مزيد"، ص ٨٥٨، رقم ٤٨٥٠، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سورة السجدة، آية ١٧.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأهلها مخلوقة، ص ٥٤٦، رقم ٣٢٤٤، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) سورة الإنسان، آية ٢٠.

وقد وردت أيضا آيات وأحاديث كثيرة تخوف الناس من جهنم التي تنتظر الأشقياء الفجار، بأبوابها السبعة، ليدخلها هؤلاء، وهي تنفس غيظا وغضباً على أعداء الله، وترمي ﴿بِقَصْرِ كَالْقَصْرِ﴾ كأنه جهنم صفر^(١). يلقى الله أصحابها فيها، لا يفرح بمقدمهم أحداً، ولا يجلدون فيها تكريماً وترحيباً، بل إن أصحاب النار حينما يدخلون فيها يجتمعون بخاصمون فيما بينهم، ويلعن بعضهم بعضاً، ويسألون الله لبعضهم عذاباً شديداً مضاعفاً، كما أن الملائكة تؤججهم وتعنفهم على ما صنعوا في حياتهم الدنيوية.

ومن أهم الفروق التي تميز بينهما أيضا أن أهل الجنة يلبسون ثياباً فاخرة من حرير وسندس وإستبرق، ويستظلون بظلال الأشجار التي يسير الراكب فيها مائة عام لا يقطعها، والتي قربت منهم ثمارها ليقطفوها كما يشاءون، ويتلذذون بالثمار للناء واللبن والتمر والعسل. أما أهل النار فثيابهم من نار، وسرايلهم من فطران، ويأكلون من شجرة الرقوم التي لا تسمن ولا تقي من جوع، بل يزيد أكلها في عذابهم وألمهم. ويُدبَح الموت فيرداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم، ويرداد أهل النار حزناً إلى حزهم.

فلا تستوي الجنة والنار أبداً، ولا يستوي أصحابهما، وصدق الله العظيم حين قال: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾^(٢).

وهناك مقارنات كثيرة بينت هذه الفروق العظيمة بين الجنة والنار تشويقاً للجنة، وترغيباً في الأعمال الصالحة المؤدية إليها، وتخويفاً من النار، وتحذيراً من الأعمال المؤدية إليها، فليتعظ أولو الألباب، وليحذروا من اقتراء العذاب الأبدي مقابل نعم الدنيا الفاني؛ فيحرموا من هذا النعيم السرمدي الذي لا يمكن إدراكه في الدنيا.

❖ أمثلة على مقارنات تخدم هذا الهدف:

إن الأمثلة على مثل هذه المقارنات كثيرة منتشرة في القرآن الكريم كله، ومن هذه الأمثلة ما يلي:

١- قال الله تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ وَالْجَنَّةِ فِي النَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰ إِذَا طَارَ كُلُّهَا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَيْنَاهُمْ لِأُولَئِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَتَاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ ۖ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ۝ وَقَالَتْ أُولَئِهِمْ لِأُخْرَيْنَهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فذوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ۝ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْتُحُ لَهُمُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ

(١) سورة المرسلات، الآيات ٢٣ - ٣٣.

(٢) سورة الحشر، آية ٢٠.

الْخِيَاطُ ۖ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ⑤ لَّهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ
غَوَاشٍ ۖ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ⑥ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا
نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ⑦ وَنَزَعْنَا
مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ فَخَرَّى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ۖ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا
لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ۖ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبِّنَا
بِالْحَقِّ ۖ وَتُودُّونَ أَنْ تُلْغِمُ الْجَنَّةَ أَوْرَثَتُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ⑧

قارنت الآيات المباركة بين الجنة والنار، وحال أصحابهما، وما يلقون في مواضعهما من النعيم والعذاب بقدر من التفصيل، مستخدمة أسلوباً غير صريح؛ وذلك عن طريق الربط بين الترغيب والترهيب، فبيّنت أولاً حال أصحاب النار، وموقفهم من بعضهم البعض، ودعاءهم لله تعالى، ثم وضحت حال أصحاب الجنة، وموقفهم من أصحابهم وأحبابهم فيها، تشويفاً للجنة وترهيباً من النار.

■ سياق الآيات:

خاطب الله تعالى بني آدم وأمرهم بالتقوى والصالح؛ واتباع الرسل الذين يقصّون عليهم آيات الله، ثم بيّن أنه لا أحد أظلم ممن يفترى الكذب على الله، أو يكذب بآياته التي أنزلها للهداية. وهؤلاء يضيع عنهم عند موتهم شركائهم الذين كانوا يدعونهم من دون الله في الدنيا، فلن تنفعهم عبادتهم شيئاً، ويقال لهم ادخلوا النار. ثم جاءت هذه المقارنة بين الجنة والنار وما فيه أصحابهما من النعيم والعذاب. (١)

■ تفسير الآيات:

يشول الله للكفار المجرمين عن طريق اللامعة: ادخلوا النار مع الكفار من أمثالكم من الجن والإنس الذين سيقتولكم إليها، وكلما تدخل جماعة منهم أثار وترى ما فيها من العذاب والحري والنكال، تلعن أختها في الدين والملة التي سبقتها إلى النار، والتي كانت سبباً في ضلالها، إذ ضلت عن الطريق بالافتداء بها. فلما تدرك هذه الأمم بعضها في النار، ويجتمع فيها جميعاً، يقول الآخرون دخولا وهم الأتباع، عن المتقدمين دخولا وهم القادة والرؤساء: يا ربنا هؤلاء السادة أضلونا عن ذيلك الحق، فاقبلنا بهم، فضاغف لهم في العذاب، فيجيبهم الله، ويخبرهم بأن لكل من القادة والأتباع عذاباً مضاعفاً لأنهم جميعاً كفار، ولكن لا يعلم أحد مقادير العذاب، وصور التعذيب، ومقدار ما لكل فريق منهم من العذاب. فأما للقادة فسبب ضلالهم بأنفسهم وإضلال غيرهم، وأما للأتباع فسبب كفرهم وضلالهم، وبسبب تقليد السادة وإهمال عقولهم. ويخاطب السادة والقادة الأتباع قائلين: إن كنا قد أضللناكم فليس لكم علينا فضل، حتى يخفف الله العذاب عنكم ويزيد في عذابنا، لأنكم كفرتم مثلنا، فكلنا سواء في الضلال

(١) سورة الأعراف، الآيات ٣٨ - ٤٣.

(٢) راجع: الآيات ٣٥ - ٣٧ من سورة الأعراف.

واستحقاق العذاب عليه، فذوقوا العذاب الإلهي الذي كان من نصيبكم بسبب ما كنتم تعملون من الأعمال، وتكسبون من المعاصي التي كان الشريك أعظمها. ثم وضع الله استحالة دخول الكفار الجنة، قائلا: إن الذين كذبوا بآيات الله تعالى وحججه الدالة على توحيدِهِ وصدقِ رسَلِهِ، وترفَعوا عن الإيمان بها والإذعان لها، لا يصعد لهم عمل صالح، ولا تفتح لأعمالهم ولا دعائهم أبواب السماء أبداً كما تفتح للمؤمنين، لأنها خبيثة، ولا يدخلون الجنة حتى يدخل الجمل في ثقب الإبرة^(١)، وذلك مستحيل، لذا فليس لكافر بالله أن يطمع في دخول الجنة. ومثل ما ذكر الله من العذاب يجزي الله كل من أجرم وكذب بالآيات. هؤلاء المجرمون لهم من نار جهنم فراش يفترونه تحنهم، ومن نارها أيضا غطاء من فوقهم، والمراد بذلك أن النار تحيط بهم من كل جانب، فلا يستطيعون النجاة منها، فهي مثل الفراش تحتهم، واللحاف الذي يغطون به، وهكذا يجزي الله كل ظالم. وسامعهم ظالمين نارة ومجرمين نارة أخرى للإخبار بأنهم بسبب تكذيبهم بالآيات، استحقوا هذه الأوصاف الذميمة.^(٢)

وبعد بيان وعيد الكافرين أتبعه الله بذكر ما للمؤمنين الطائعين من الثواب كما هي عادته في الجمع بين الوعد والوعيد. فأخبر الله تعالى أن الذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا الأعمال الصالحة، بامتنال الأوامر واجتناب النواهي، هم أهل الجنة دون غيرهم. وجاءت الجملة الاعتراضية "لا نكلف نفساً إلا وسعها" بين المبتدأ وخبره، للتنبيه على أن الجنة مع عظم مكانتها سهل الوصول إليها عن طريق الإيمان والعمل الصالح، وهو أمر سهل لا مشقة فيه ولا كلفة لأحد، ولا زيادة على مقدور البشر؛ لأن الله لا يكلف الإنسان إلا بما في وسعه، وما لا يعجز عنه، وفيه أيضا ترغيب في اكتساب النعيم للقيم بما يسهل على البشر. فالمؤمنون خالدين في الجنة، يجزي الأضمار من تحت غرفهم ويساتونهم النظرة التي يحسون قبها. ومن نعم الله عليهم سلامة صدورهم وصفاء نفوسهم، حيث تقى الله قلوبهم من جميع أنواع الغل والحقد الذي كان بينهم في الدنيا، فلا يبقى بينهم إلا الحب والمودة؛ وذلك حتى لا يكلمهم شيء، ولا يقع بينهم شر. وبعد أن يستقر المؤمنون في منازلهم في الجنة يحمدون الله تعالى ويشكرونه على نعمته وفضله عليهم، قائلين: الحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا في الدنيا إلى الإيمان، ووفقنا إلى الأعمال التي كان ثوابها هذا.

(١) وهذا أسلوب شائع بين العرب للدلالة على الاستحالة، فالتعليق على مستحيل يدل على كون الأمر مستحيلاً.

ينظر: التفسير الوسيط، للرحيلي، ٦/٦٥٩.

وقال ابن الجوزي رحمه الله: "فإن قال قائل: كيف خص الجمل من دون سائر الدواب وفيها ما هو أعظم منه؟ فته جوابان. أحدهما: أن ضرب المثل بالجمل يحصل المقصود، والمقصود أنهم لا يدخلون الجنة كما لا يدخل الجمل في ثقب الإبرة، ولو ذكر أكبر منه أو أصغر منه جاز... والثاني: أن الجمل أكبر شأننا عند العرب من سائر الدواب فإنهم يقدمونه في القوة على غيره، لأنه يوقر بحمله فينهض به دون غيره من الدواب".

زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي، ٢/١١٩، بتصرف.

(٢) ينظر: الكشف والبيان، لأبي إسحاق العلي، ٤/٢٣٢، التفسير الوسيط، للواحدي، ٢/٣٦٦ - ٣٦٨. زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي، ٢/١١٧ - ١٢٠. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي، ٣/١٢٢ - ١٢٣. التفسير الوسيط، للدكتور الرحيلي، ١/٦٥٢ - ٦٦٠.

النعيم، وما كان من شأننا أن نهندي إليه بأنفسنا لولا هداية الله وتوفيقه لنا، وقد جاءت رسل ربنا بالحق والصدق، فاهتدينا بمواعظهم، وهذا مصداق وعده الله صلى لسان رسله. هؤلاء يقولون ذلك سرورا بأن ما علموه يقينا في الدنيا صلر لهم عين اليقين في الآخرة. حيث لا تناديهم الملائكة وتسلم عليهم، وتقول لهم: هذه هي تلك الجنة التي وعدهم الله إياها في الدنيا، وقد حصلت عليكم عليها جزاء على أعمالكم الطيبة. ومميت الجنة مرثاة، لأنهم دخلوها برحمة الله، وليست عوضا عن أعمالهم، وللميراث ما يؤخذ بغير عوض^(١).

ذكرت هذه الآيات بعضا من الفروق الكثيرة التي تفرق بين الجنة والنار، وهي:

○ أن النار يدخلها الكفار المكذبون بآيات الله للمكبرون عنها، المعرضون عن الحق، بينما الجنة يدخلها عباد الله الصالحون المؤمنون بالله تعالى الخاضعون له، المطيعون لأوامره، المذنبون للحق، العاملين للصالحات ابتغاء مرضاته.

○ أن أهل النار حينما يدخلون النار لا يرحب بهم أحد، بل يجتمعون مع أمثالهم من الكفرة الفجرة في النار، ويتخاصمون فيها ويتجادلون مع بعضهم، وتلعن كل أمة أخوتها الكافرة من الأمم، ويدعو الأنبياء الله أن يضاعف للعقاة من العذاب، لأنهم أضلواهم عن الهدى، ويحبب القادة على هذا الدعاء بتوبيخهم وإخبارهم بأنهم جميعا سواء في العذاب، وليس لأحد فضل على الآخر، فيزجرهم الله ويقول لهم: إنكم جميعا في العذاب المضاعف. فهؤلاء لا يرقه عنهم ولا يطمئنهم أحد، ولا يخفف عنهم العذاب، بل إنهم بدل أن يخففوا عن بعضهم يزيدون في عذابهم بمجادلاتهم ومخاصمتهم التي لا طائل لها سوى اجتماع العذاب المعنوي مع الحسي. أما أهل الجنة فيدخلون في الجنة إخوانا متحابين متقابلين، يسلم بعضهم على بعض، وترحب بهم الملائكة هناك، وينزع الله من قلوبهم كل حقد وحسد كان بينهم في الدنيا، فلا يبقى في الجنة إلا حب والتمام، وهذا يزيد النعيم نعيما ولذة، وبالتالي يجمع لهم مع النعيم الحسي النعيم المعنوي.

○ وكذلك فإن أهل النار تحيط بهم النار من كل جانب حتى تصير كالقراش لهم وكالحاف الذي يغطون به، ولا يجدون شيئا ينجهم من العذاب، ويحول بينهم وبين النار التي ﴿تَطْلُعُ عَلَى الْأَقْمِدَةِ ۖ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّاةٌ﴾^(٢). أما أهل الجنة فلم يفرش خريبة جميلة يتكئون عليها، كما قال تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَاطِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾^(٣). كما أن لهم سرورا مرفوعة ناعمة عليها وسائد مصفوفة^(٤).

(١) يُنظر: الكشف والبيان، للعلامة، ٢٢٣/٤ - ٢٣٤. التفسير الوسيط، للوحيد، ٣٦٨/٢ - ٣٦٩. زاد المسير في علم التفسير،

لابن الجوزي، ١٢١/٢ - ١٢٢. أنوار التنزيل وأمراض التأويل، للبيضاوي، ١٢/٣. التفسير الوسيط، للزحيلي، ٦٦١/١ - ٦٦٢.

(٢) سورة المزة، الآية ٧ - ٨.

(٣) سورة الرحمن، آية ٥٤.

(٤) قال تعالى: ﴿فِيهَا شُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۖ وَأَشْرَابٌ مُّذَوَّبَةٌ ۖ وَتَمَارِقٌ مَّصْفُوفَةٌ ۖ وَزَوَاجٌ مُّبْنُونَةٌ﴾. الفاشية، الآيات ١٣ - ١٦.

○ أن أهل النار يدعون الله تعالى بالموت والقضاء عليهم، حتى يسرعوا من العذاب الدائم: ﴿وَنَادَوْا بِحَبْلِكَ لِيقْضِ عَلَيْنَا رَحْمَتُكَ﴾^(١)، كما أنهم يدعون الله تعالى طالبين منه مضاعفة العذاب لبعضهم البعض. أما أهل الجنة فيحمدون الله تعالى ويشكرونه على نعمة الهداية والتوفيق للأعمال الصالحة التي نالوا بسببها هذا الجزاء، ويشكرونه على تصديقهم للرسول التي جاءت بالحق.

○ وأيضاً فإن الملائكة حينما تخاطب الكفار تزجرهم وتوجههم على صنيعهم في الدنيا، وذلك عما يزيد من حسرتهم وعذابهم المعنوي، قال تعالى: ﴿كَلِمَاتٍ آلَتْنِي فِيهَا قُوجُ سَأَلْتُهُمْ حَزَنَتْهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾^(٢)، فيذكرون ما فعلوا في الدنيا ويندمون على ما فات، ولا ينفعهم الندم حينئذ. أما أهل الجنة فتسلم عليهم الملائكة، وترحب بهم، وتقول لهم: هذه الجنة حصلتكم عليها جزاء على أعمالكم الصالحة، فتنعم بحقي الدار.

إن أول أهداف هذه المقارنة البديعة هو التشويق للجنة، والتنعم بما فيها من النعيم الدائم الذي لا مثيل له ولا نظير في الدنيا، والتخويف من النار وما فيها من صنوف العذاب التي لا صبر لبشر عليها. كما أن هنالك أهدافاً أخرى سعت للمقارنة إلى تحقيقها، وهي:

(١) الترغيب في الإيمان بالله والأعمال الصالحة التي تؤدي إلى رضا الله والدخول في الجنة والتي تحفظ الإنسان من الحسرة والندم يوم لا ينفعان.

(٢) الحث على الاجتناب عن الكفر والتكذيب والاستكبار الذي يجعل الدخول في الجنة مستحيلاً، ويدخل النار، كبلوق الإنسان فيها العذاب المهيئ.

(٣) بيان أن الغل والحقد والحسد والخصام والجدال من أنواع العذاب ومن خصوصيات أهل النار، وأن المحبة والمودة والبرام، والبعد عن الغل والحسد والخصام، من أنواع النعيم، ومن خصوصيات أهل الجنة؛ فعلى الإنسان الاعتماد عن خصوصيات أهل النار والاتصاف بخصوصيات أهل الجنة، حتى تصير حياته الدنيوية آمنة مطمئنة، وحتى ينال النعيم المقيم في الآخرة.

(٤) توجيه الأنظار نحو ما عند الله تعالى من النعم التي لا زوال لها ولا انقطاع، والفرح في الدنيا وملذاتها، حتى لا يتحسر الإنسان على ما فاتته من مسرات الدنيا، ولا يبقى كئيهاً على ما واجه من المصوم، بل يظل متطلعاً دائماً إلى ما عند الله الذي هو خير وأبقى.

(٥) بيان أن الدخول في الجنة يكون بسبب الأعمال الصالحة لا عوضاً عنها، والتصريح بأن هذه الأعمال التي تكلف بها الإنسان ليست خارجة عن وسعه وطاقته، بل هو يستطيع أدائها بكل يسر وسهولة؛ فلا يخدع الإنسان نفسه بظن أن الإيمان والعمل الصالح أمرٌ صعب لا يمكن الوصول إليه.

(١) سورة الزمر، آية ٧٧.

(٢) سورة الملوك، آية ٨.

(٦) الدعوة إلى التفكير والتدبر وإعمال العقول للتمييز بين الرشيد والغي والهدى والضلال، واجتناب التقليد الأعمى الذي يؤدي بالإنسان إلى الهلاك والعذاب الدائم.

٢- قال الله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ ١ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ٢ فَوَكِيلٌ ٣ لَهُمْ مُكْرِمُونَ ٤ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ٥ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ٦ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ ٧ بَيْنَهُمَا لَدَوْنِ الشَّجَرَيْنِ ٨ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ٩ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ١٠ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ١١ فَاقْبَلْ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ١٢ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ١٣ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصْذِقِينَ ١٤ أَوَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أُنَّا لَمَدِيدُونَ ١٥ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطْلَعُونَ ١٦ فَأُطْلِعَ قَرْنَاهُ فِي سَوَادٍ أَحْجِيمٍ ١٧ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتُ لِتُزَيِّنَ ١٨ وَلَوْلَا بَعَثَ رَبِّي لَكَتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ١٩ أَفَمَا نَحْنُ بِمَبْتَلِينَ ٢٠ إِلَّا مَرْتَنًا أَوَّلَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ٢١ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ٢٢ لِيُثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ٢٣ أَذَلِكَ خَيْرٌ تُزَلَا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ٢٤ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ٢٥ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْحَجِيمِ ٢٦ ظَلَعَهَا كَأَنَّهَا رُغُوسٌ ٢٧ الشَّيَاطِينِ ٢٨ فَإِنَّهُمْ لَكَائِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ٢٩ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حِمِيرٍ ٣٠ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْحَجِيمِ ٣١ (١)

فارست الآيات الكريمة مقابلة صريحة بين الجنة والنار أيضا، وخصوصا من حيث الرزق الذي يُقدَّم لكليهما. ففصلت أولا القول فيما يقدم لأهل الجنة من أنواع المأكولات والمشروبات وأنواع النعم الأخرى، ثم وجهت سؤالا تقريريا توبيخيا وهو: أهذا خير أم شجرة الزقوم؟! ثم جاءت تفاصيل ما يُقدَّم لأهل النار من الطعام والشراب.

■ سياق الآيات:

جاءت هذه الآيات بعد بيان موقف المجرمين من كلمة التوحيد، وذكر تكبرهم عليها وإنكارهم لها. فقبل لهم: إنكم ستلقون العذاب الأليم الذي لا ينجو منه إلا عباد الله المخلصين. ثم جاءت المقارنة بين ما هو لأهل المخلصين وما للمجرمين في الآخرة. (٢)

(١) سورة الصافات، الآيات ٤٠ - ٦٨.

(٢) راجع: سورة الصافات، الآيات ٣٤ - ٤٠.

■ تفسير الآيات:

يقول الله سبحانه وتعالى: إن عباده المخلصين المؤمنين الموحدين مستثنون من العذاب. ولهم رزق معلوم عندهم، يُقدّم أمامهم يكرة وعشياً. وهذا الرزق يشتمل على فواكه لذينة، وهي الثمار كلها رطبها ويابسها، والفواكه هي ما يؤكل للتفكه واللذة لا لسد الجوع وحفظ الصحة؛ وسبب تخصيص طعامهم بالفواكه هو أنهم مستثنون عن حفظ الصحة بخلق أجسامهم للأبد. وأهل الجنة مكرمون بثواب الله، يتمتعون بحبات النعيم، جالسين على سرر متقابلين، لا يرى بعضهم ظهور بعض. ويظرف عليهم في الجنة الخدم يحمر مأخوذة من الأنهار الجارية، يضاء ذات لذة للشاربين بخلاف خمر الدنيا الكريهة، لا داء فيها ولا وجع ولا صباغ ولا فساد، ولا تذهب بالعقول. وعندهم حور عيون، وهن نساء جيلات ذات عيون كبيرة حسناء، حاسيات الأعين غاضات الجفون، لا ينظرن إلى غير أزواجهن، كأنهن في صفاء لونهن كالبيض المصبون المستور يريش النعام من الريح والغبار، وهذا أحسن ألوان النساء. وهم في الجنة يمسكون عصا مرمية في الدنيا. وهذا السؤال يكون تساؤل راحة وتعم حيث يتذكرون أمرهم في الدنيا وحال الطاعة والإيمان فيها، فيقول قائل منهم: إني كان لي صاحب في الدنيا كافر بالبعث، يزجرني على الإيمان ويقول: أنت من المصدقين بالبعث؟ فإذا متنا وصرتنا تراباً أينا نحاسبون ونجزى بآعمالنا؟ ثم يقول هذا الرجل لأصحابه في الجنة: هل أنتم مطلعون على النار لتظهر منزلة صاحبي؟ فيطلع هذا الرجل للمسلم إلى النار فيرى صاحبه الكافر وسط النار، فيخاطبه قائلاً: تالله لقد كدت تهلكني ونضلي، ولولا نعمة ربي ورحمته وفضله علي لكنت من المحضرين معك في النار. ثم يقول للملائكة سروراً وتحديداً بنعمة الله من تأييد الحياة وعدم التعذيب: أفلا تموت بعد الموت الأولى التي متها في الدنيا ولا تعذب أبداً؟ لا شك أن هذا هو الفوز العظيم، ونثل هذا المنزل ونثل هذا النعيم فليعمل العاملون.^(١)

وبعد ذكر نعيم أهل الجنة قال الله: أذلك الذي ذكر من نعيم الجنة خير أم شجرة الزقوم التي هي نزل أهل النار^(٢)؟ والزقوم ثمرة شجرة خبيثة مرة كريهة الطعم، لا مثل لها في الدنيا، يُكره أهل النار على تناولها، فهم يتزقموه^(٣) على أشد كراهية، هذه الشجرة جعلها الله فتنة للظالمين، إذ افتتنوا بها وكذبوا بوجودها، فقالوا: كيف يمكن أن تكون في النار شجرة والنار تحرق الأشجار؟ فأخبر الله أنها شجرة تنبت في قعر جهنم، ثمارها مثل رؤوس الشياطين في الفبح وكراهية المنظر^(٤)، والكفار أكلون منها على الرغم من كرههم لها، لشدة جوعهم، فيملؤون بطونهم منها، وبعد أكلها

(١) يُنظر: الوجيز، للواحدي، ص ٩٠٨ - ٩١٠. تفسير القرآن، للسماعي، ٣٩٨/٤ - ٤٠١. معالم التنزيل، للبخوي، ٣٩/٧ -

٤٢. الجواهر الحسان، للزمخشري، ٢٨/٥ - ٣٢. تفسير الجلالين، ص ٥٩٠ - ٥٩١.

(٢) قال السمعاني: "كيف قال خير ولا خير في الزقوم أصلاً؟ والجواب: أنه أراد تقرير الأمر للمخاطب أنه لا خير إلا في أحدهما".

تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني، ٤٠١/٤.

(٣) تزقم الشيء، يعني ابتلعه، والتزقم: التلقم. ويقال: تزقم الطعام إذا تناوله على كره وشدة وبسقة.

يُنظر: معالم التنزيل، للبخوي، ٤٢/٧. لسائر العرب، لابن منظور، ٢٦٨/١٢.

(٤) والشياطين لا تُرى ولكن فبحها متصور في النفوس، فشبهها بما استقر في النفوس من هيتها.

يشربون من ماء حار شديد الحرارة. ومصير الكفار ومرجعهم هو الجحيم الذي يجمع هذه الأشياء، وكلمة "مرجعهم" تفيد أنهم يخرجون من النار لشرب الحميم وأنه خارجها. (١)

قارنت الآيات بين الجنة والنار، وألقت الضوء بشكل خاص على الطعام والشراب اللذين يُقدَّمان لكليهما. ومن الفروق بينهما في ضوء المقارنة المذكورة في الآيات ما يلي:

○ أن عباد الله للمخلصين الموحدين من أهل الجنة لهم رزقهم في الجنة بكرة وعشيا. وهذا الرزق مشتمل على فواكه تُقدَّم لهم ويُكرَّمون بها، وهذه الفواكه تشتمل على العنب والطلح والرمان والتمر وغيرها من الفواكه الطيبة التي يأكلها أهل الجنة للتلذذ، لا جوعاً ولا حفظاً لأجسادهم. أما أهل النار فهم يأكلون من ثمار شجرة الزقوم الشبيهة بالشياطين، الكريهة الطعم والنظر، يأكلونها مكرهين على أكلها، لأنهم يجوعون فلا يجدون ما يسد الجوع إلا الزقوم، وطعام من غسيل، قال تعالى: ﴿وَلَا طَعَامَ إِلَّا مِنْ غَسِيلٍ ۖ لَا يَأْكُلُوهَ إِلَّا﴾ الخيطون. (٢)

○ أما ما يتعلق بشراب أهل الجنة فلهم الخمر الصافية التي تخرج من أنهار جارية لا ضرر فيها ولا أذى، بل هي لذينة يستمتع شاربوها بها، كما أن لهم اللبن والعسل والماء الصافي المأخوذ من الأنهار الجارية الجميلة. وأما أهل النار فلهم شراب من حميم، وهو الماء الحار شديد الحرارة الذي لا يفيد في تروية الظمأ، ولا يخفف من مرارة الزقوم، كما أنهم يشربون من الصديد الذي يسيل من جلودهم. (٣)

○ وأهل الجنة يجلسون على سرور متقابلين مسرورين مع أهلهم وأحبهم، ومعهم الخمر العنق البيضاء الجميلات اللاتي لم يطمئن إنس قبلهم ولا جان. أما أهل النار فلا يتصورون الأنس بالأهل والأحبة.

○ وما يزيد من نعيم أهل الجنة أنهم يذكرون حالهم في الدنيا وحال أصحابهم، فيحمدون الله على هدايته لهم ولجنتهم من مصير أهل النار الذي يستطعون النظر إليه متى شاء الله، ولا شك أن رؤية الجبابرة الذين غلبوهم في الدنيا وحاولوا إضلالهم، يعلمون في النار مما يزيد أهل الجنة سروراً إلى سرورهم. أما أهل النار فيزيد تذكرهم الدنيا نداماً إلى ندمهم وحسرة إلى حسرتهم.

○ ويفرح أهل الجنة بالخلود وانتهاء الموت، بينما يزيد هذا الأمر في حزن أهل النار وغمهم؛ لأن غاية ما يتمنونه هو الموت، والقضاء عليهم.

يُنظر: معالم التنزيل، للبغوي، ٤٦/٧. الجواهر الحسان، للتعالي، ٣٢/٥.

(١) يُنظر: الوجيز، للواحدي، ص ٩١٠. تفسير القرآن، للسعدي، ٤٠٠/٤ - ٤٠٢. معالم التنزيل، للبغوي، ٤٢/٧ - ٤٣. الجواهر الحسان، للتعالي، ٣٢/٥ - ٣٣. تفسير الجلالين، ص ٥٩١.

(٢) سورة الحاقة، الآيتان ٣٦ - ٣٧. والفيلين هو صديد أهل النار. (المصنف المفسر، للشيخ حسين مخلوف، ٥٦٨).

(٣) قال تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۖ إِلَّا حِيمًا وَغَسَّاقًا﴾. سورة النبأ، الآيتان ٢٤ - ٢٥.

لقد حققت هذه المقارنة أيضا أهدافا شبيهة بالأهداف التي حققتها أختها السابقة، ومن أهم هذه الأهداف بإختصار:

- (١) التشويق للجنة والتخويف من النار.
- (٢) التأكيد على الحرص على اتخاذ الصحة الصالحة التي تساعد الإنسان على القيام بأعمال صالحة ثوابها الجنة والحث على البعد عن الصحة السيئة التي توقع صاحبها في الحسرات الشديدة يوم القيامة.
- (٣) الحث على التصديق بالبعث والجزاء والاستعداد له بالإيمان والعمل الصالح.
- (٤) التنبيه على عدم السخرية من آيات الله الواردة في عذاب المكذبين، لأنها تسبب في زيادة العذاب.
- (٥) الترغيب في التطلع إلى ما عند الله من النعيم السرمدي، وعدم التحسر على ما فات من نعيم الدنيا الغاني.

الفصل الثالث: قضايا متعددة

وفيه:

- المبحث الأول: إقامة الحجة على العباد.
- المبحث الثاني: كشف الحقائق وإظهار الأشياء. بل ذكر أضرارها.
- المبحث الثالث: بيان اختلاف أحوال الناس.
- المبحث الرابع: الدعوة إلى التدين وتوضيح الفرق بين طرفي المقارنة.
- المبحث الخامس: تصليية النبي ﷺ والمؤمنين وبيان فضلهم على من سواهم.
- المبحث السادس: بيان ثبات الحق ودوامه ونزول الباطل واضمحلاله.

المبحث الأول:

إقامة الحجة على العباد

وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة بغرض إقامة الحجة على العباد عموماً، وخاصة المشركين الذين كانوا يعترفون بكون الله الخالق الرزاق الحي المميت، ومع ذلك يشركون به غيره في العبادة. فتعجب القرآن الكريم في كثير من الآيات من عقيدتهم الباطلة هذه التي لا وزن لها، ولا قيمة عند الله تعالى، ويوهمهم في كثير من المواضع عليها، كما استخدم اعترافهم بهذه الأمور حجة عليهم، لعلهم يرجعوا إلى التوحيد ويبتغيوا الشرك الذي لا يليق أبداً بمن يعترف بهذه الأمور. ثم إن الله عز وجل ذكر أيضاً في كتابه العزيز أنه أرسل الرسل وأنزل الكتب لإقامة الحجة على البشر، ولعلنا تبقى للناس حجة على الله، قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَيِّنِينَ لِقُلٍّ يَحْكُرُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةً بَعْدَ الرُّسُلِ﴾. (١) إقامة الحجة على العباد هو من أهم أهداف القرآن الكريم كله، ومن بعثة الرسول ﷺ الذي جاء به أيضاً، إذ إن الله أنزل الكتاب وأرسل الرسول حتى لا يبقى للناس بعد ذلك عذر في الشرك والكفر، والبعث عن التوحيد والإيمان.

فآيات القرآن الكريم ودلائله وبراهينه كلها تقيم الحجة على المشركين الذين يشركون بالله غيره، وعلى الذين لا يؤمنون به على الإطلاق، وكذلك على الناس الذين يرتكبون المعاصي والذنوب بعد أن بين الله في كتابه كل شيء. فإن الله تعالى أئذّر الناس جميعاً عقوبة الذنوب والمعاصي، وقد أعزّر من أئذّر.

وأيضاً فإن القرآن الكريم استدلل على التوحيد والبعث والمعاد بدلائل كلها تقيم الحجة على العباد، ومن هذه الأدلة قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهُ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾. (٢) فأخبر الله تعالى في هذه الآية الكريمة أن في الكون بسمائه وأرضه إلهاً واحداً فقط لا غير، ولو كان في السماء والأرض آله غير الله لفسد نظامهما، لأن الاثنين لا بد وأن يختلفا في أمر من الأمور، ولا يمكن وجود هذا الصنع الحكيم المتقن إلا بخلق إله واحد حكيم وتقديره وتقديره. وبذلك أقيمت الحجة على المشركين والكفار.

وهكذا توجد في القرآن الكريم مقارنات جاءت بمحذوف إقامة الحجة على العبيد، بل يصح القول بأن معظم المقارنات الواردة في القرآن الكريم سعت إلى تحقيق هذا الهدف؛ إذ إنه هدف عام يشعرك فيه عدد كبير من المقارنات القرآنية.

❖ أمثلة على مقارنات تخدم هذا الهدف:

إن الأمثلة على المقارنات التي نحقق هذا الهدف كثيرة جداً، ومنتشرة في القرآن الكريم كله، ومن أهمها:

(١) سورة النساء، آية ١٦٥.

(٢) سورة الأَنْبِيَاء، آية ٢٢.

١- قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ۖ قُلْ أَفَأَتَّخِذُكُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ۚ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝﴾ (١)

هذه الآية الكريمة فيها تقارن بين الله تعالى والشركاء الذين يدعونهم المشركون من دون الله، وبين الإيمان والكفر، وبين المؤمن والكافر. وجاءت هذه المقارنات كلها بأسلوب صريح مستخدمة أسلوب الاستفهام التقريري والإنكاري. فوجهت للمشركين استفهامات عدة بهدف المقارنة بين الأمور المذكورة، وبالتالي إقامة الحجة على المشركين الذي يدعون من دون الله شركاء لا يملكون شيئا.

■ سياق الآية:

جاءت هذه الآية في معرض إثبات قدرة الله تعالى المطلقة، وذكر دلائل كونه أحق بالوحدانية والعبادة، فذكر أنه يُري البرق ويُرسل الصواعق، وأن الملائكة والرعد يسبحان بحمده، وأنه هو الذي يستحق الدعاء، وله يسجد من في السماوات والأرض، أما من سواه فلا يملك شيئا ولا يستجيب دعاء الداعين. وخلال بيان هذه الأمور جاءت هذه المقارنة بين الله وشركائه، وبين الإيمان والكفر، وبين المؤمن والكافر. (٢)

قال الشيخ الحريري (٣) رحمه الله: "إن الله سبحانه وتعالى لما بين أن كل من في السماوات والأرض خاضع لقبوته، منقاد لإرادته بالغدو والأصالي، وفي كل وقت وحين، طوعا أو كرها، بحسب ما يريد، أعاد الكلام مع المشركين، ليأثمهم الحجة، ويقنعهم بالدليل، ويضيق عليهم باب الخوار، حتى لا يستطيعوا الفرار من الاعتراف بوحدانيته، ويحمول قدرته وإرادته، وأنه لا معبود سواه، ولا رب غيره." (٤)

■ تفسير الآية:

أمر الله تعالى نبيه أن يخاطب المشركين، ويسألهم عن رب السماوات والأرض، فقال: قل يا محمد طوِّلا المشركين الذين يعبدون غير الله: من خالق السماوات والأرض، ومدبرها ومالكها ومتولي أمورهم؟ والاستفهام تقريري، لأنهم

(١) سورة الرعد، آية ١٦.

(٢) راجع: سورة الرعد، الآيات ١٢ - ١٦.

(٣) هو أبو ياسين محمد أمين بن عبد الله الحريري. ولد عام ١٣٤٨ هـ في الحبيشة. توفيت والدته وهو صغير، فرباه والده. تعلم القرآن وهو صغير، ثم درس العلوم الشرعية والعربية، واشتغل بالتدريس والتأليف. من كتبه: حقائق الروح والريحان في روائع علوم القرآن، هداية الطالب المعدم على دياجة صحيح مسلم، هدية الأذكاء على طيبة الأسماء في توحيد الأسماء والصفات، وغيرها.

يُنظر: مقدمة حقائق الروح والريحان، ص ٥ وما بعدها.

(٤) حقائق الروح والريحان في روائع علوم القرآن للأمين الحريري، ١٤/٢٠٤ - ٢٠٥.

كانوا يعترفون بأن الله خالقهم وخالق السماوات والأرض. ثم أمره أن يقول لهم: هو الله إلزاما للحجة، إن لم يقولوه؛ لأنه لا جواب سواه فأجاب به وأقام الحجة عليهم به، لأنه من الواضح أنه ليس مما يعبدونه شيء يمكن أن يكون ربا للسماوات والأرض. ثم ونحتم على عبادة الأصنام والزمهم الحجة أيضا على عبادتهم لها، فأمر نبيه أن يقول للمشركين: أيعد أن أقدم بربوبيته تعالى عبيدكم من دونه أصناما، واتخذتموها أنصارا لكم وتركتم الله تعالى، وهذا أمر منكرو بعيد عن مقتضى العقل. ثم ذكر صفة هذه الأصنام فيتن أن لا تقدر على أن تجلب لنفسها نفعا، أو أن تدفع ضرا، فكيف تتولى أمور الناس وتقدر على إيصال الخير إليهم ودفع الضر عنهم؟ وفيه أيضا دليل على ضلالتهم وفساد رأيهم؛ حيث إنهم اعترفوا بكون الله الخالق، ومع ذلك آثروا عليه غيره وعبدوه من دونه. ثم هرب لهم مثلا فقال: كما لا يستوي الأعمى والبصير، فكذلك لا يستوي المؤمن الذي يصبر الحق ويهتدي السبيل، والكافر الذي لا يصبر الحق ولا يهتدي سبيلا؛ وكما لا تستوي الظلمات والنور، فكذلك لا يستوي الإيمان والكفر. ويمكن أن يكون الأعمى هنا مثلا لما عبد من دون الله، والبصير مثلا لله تعالى، ويكون مراد الآية أنه لا يستوي الله البصير المطلع على أحوال البشر مع الألهة الغافلة التي لا ترى شيئا. ثم أنكر عليهم اتخاذهم شركاء، فقال: هل أمجّلوا الله شركاء خالقين مثله حتى يشابه عليهم خلق الله وخلق شركائه؟ والمعنى: هل رأوا غير الله خلق شيئا فاشتبه عليهم بخلق الله بخلق غيره؟ والاستفهام هنا إنكارى، أي: ليس الأمر كذلك حتى يلتبس عليهم الأمر، ويظنوا أن الشركاء يستحقون العبادة مثل الله، لأنهم خلقوا كما خلق الله. بل إنهم إذا تفكروا بعقولهم وجعلوا أنفسهم اتخذوا شركاء عاجزين، لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق، فضلا عما يقدر عليه الخالق، والله وحده هو المتفرد بخلق كل الأشياء، والشركاء مخلوقون له أيضا لا يخلقون شيئا، وهذا لزمتهم الحجة. ثم أمر الله نبيه أن يقول لهم: إن الله خالق كل ما يشاء، مما يصح أن يكون مخلوقا، فلزم أن يعبد كل شيء، لأنه لا يستقيم في منطق الحق أن يكون له شريك في العبادة، ولا شريك له في الخلق. وختم الآية ببيان أن الله هو الواحد المتفرد بالخلق، المتوحد بالربوبية واستحقاق العبادة، الغالب على كل شيء، لا يقاومه شيء. (١)

(١) يحظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ٣٠٣/٩ - ٣٠٤. لباب التأويل في معاني التنزيل، للحازن، ١٢/٣. التفسير المظهر، لنساء الله، ٢٢٧/٥ - ٢٢٨. حقائق الروح والروحاني، للمهرى، ٢٢٨/١٤ - ٢٣٠. الأسس في التفسير لسعيد حوى، ٢٢٣٦/٥ - ٢٧٣٧.

قال الشيخ سعيد حوى^(١): "ومن كان هذا شأنه فهو الحري وحده بالطاعة والعبادة، فهو يعلم الحق ويقرره ويبينه، ويطالب به ويلزم به، ويعاقب عليه".^(٢)

ذكرت الآية بعض الفروق بين الله تعالى وشركائه في معرض المقارنة بينهما، وهي فروق لا تخفى على كل عاقل بصير، وقد ذكرها الله تعالى لإثبات وحدانيته، وإقامة الحجة على المشركين، ومن هذه الفروق:

○ أن الله هو رب السماوات والأرض، وخالقهما ومديرها ومدير شؤونهما، ورب كل ما بينهما، وهذا ما يعترف به المشركون أنفسهم. وأما ما سواه فلا يملك شيئا من ذلك، ولا يسميه أحد رب السماوات والأرض، لأنه لا يملك مقال ذرة منهما ولا مما بينهما.

○ أن الله تعالى هو القادر على إيصال النفع والضرر لمن شاء من مخلوقاته، أما الشركاء الذين اتخذهم المشركون أولياء من دون الله لا يملكون النفع والضرر لأنفسهم، فكيف يملكونها لغيرهم؟!

○ ومنها أن الله هو السميع البصير، إذ يرى كل شيء، ويحيط به علما، أما الشركاء فهم عميان لا يرون شيئا، ومن البديهي أن الأعمى والبصير لا يستويان أبدا.

○ أن الله تعالى هو خالق كل شيء من المخلوقات الموجودة في الكون، أما غيره فلم يخلق شيئا حتى يشبه الأمر على الكفار ولا يستطيعوا التمييز بين خلق الله وخلق شركائه. فكل ما يُعبد من دون الله مخلوق، ومادام الله وحده هو الخالق فهو وحده المستحق للعبادة.

إن من أهم الأهداف التي حققتها المقارنة:

- (١) إقامة الحجة على المشركين الذين يعتزقون بكون الله الخالق الرازق المحيي المميت، وكونه وحده الرب المدير للأمور الكون، ومع ذلك يشركون به غيره في العبادة. قال سعيد حوى: "قامت عليهم الحجة، إذ اتخذوا له شركاء عاجزين، لا يقدر على ما يقدر عليه الخالق، فضلا عن أن يقدر على ما يقدر عليه الخالق".^(٣)
- (٢) إثبات وحدانية الله تعالى، وكونه مستحقا للعبادة والطاعة وحده دون غيره.
- (٣) الدعوة إلى الإيمان بالله تعالى وحده، وطاعته وامتناله أمره ونهيه كل ما يُعبد سواه.

(١) هو الشيخ سعيد بن محمد ديب حوى. ولد عام ١٣٥٤ هـ. من المفسرين وكبار الدعاة المتسبين إلى جماعة الإخوان المسلمين، وكان عضوا لقيادة الإخوان المسلمين في سوريا لفترة. درس على يد عدد من المشايخ، منهم: الشيخ محمد حامد وعبد الكريم الرفاعي وغيرهما. توفي عام ١٤٠٩ هـ. من كتبه: الأساس في التفسير، الأساس في اللغة، الأساس في السنة وفقهها، وغيرها.

ينظر: الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير، ٩٦٣/١ وما بعدها. تمته الأعلام، محمد خير ومهنا يوسف، (٢٠٧/١ - ٢٠٩).
تكملة معجم المؤلفين، محمد رمضان، ص ٢١٠ - ٢١٢.

(٢) الأساس في التفسير، سعيد حوى، ٢٧٣٦/٥ - ٢٧٣٧.

(٣) الأساس في التفسير، سعيد حوى، ٢٧٣٧/٥.

- (٤) البحث على اتخاذ الله وحده ولياء لأنه هو المستحق للولاية، وولايته لا يمكن الحصول عليها إلا بالتقوى والصلاح، فهو لا يتولى إلا الصالحين.
- (٥) بيان عجز الشركاء المطلق، حيث إنهم لا يملكون شيئا من النفع والضرر لأنفسهم ولا لغيرهم، كما لا يقدرון على شيء من الخلق، فكيف يجوز عاقل عبادهم مع الله.
- (٦) بيان أن الخالق القادر المالك هو الذي يستحق التذلل والعبادة والطاعة دون غيره.
- (٧) نفى المساواة بين الله وشركائه وبين الإيمان والكفر، وبين المؤمن والكافر، وبالتالي إثبات فضيلة أول هذه الأمور على آخرها.

٢- قال الله تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمْ لِلَّهِ رَبِّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۚ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ۚ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۚ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ۝﴾ (١)

قارنت الآيات بين الله تعالى والمعبودات الباطلة التي يعبدونها المشركون من دون الله بأسلوب غير صريح. فالله هو الذي له الملك، ويده كل شيء، وهو الذي يقبب الليل والنهار، أما من سواه فلا يملكون شيئا، ولا يسمعون دعاء الداعين، بل يتركونهم ويتراون منهم يوم القيامة.

■ سياق الآيتين:

جاءت هاتان الآيتان في سياق الحديث عن بعض مظاهر قدرة الله تعالى، فلذكر الله أنه خلق الناس من تراب ثم من نطفة ثم جعلهم أزواجاً، وهو عالم بما تحمل كل أنثى وما تضع، وعالم بأصوار الناس. وهو الذي خلق البحرين مع ما فيهما من اختلاف، فأحدهما صالح والآخر عذيب، وكلاهما فيه فائدة للبشر. ثم ذكر الليل والنهار والشمس والقمر التي هي أيضا من مظاهر القدرة الربانية، وقارن بين الله وشركائه التي لا تملك شيئا من هذه الأمور التي يملكها الله سبحانه وتعالى. (٢)

■ تفسير الآيتين:

ذكر الله تعالى مظاهر قدرته التامة وسلطانه العظيم، فقال: إنه يدخل الليل في النهار، ويدخل النهار في الليل، حيث يأخذ من طول هذا فيزيده في قصر هذا فيعتدلان، ثم يأخذ من طول هذا فيزيده في الآخر، فيطول أحدهما ويقصر الآخر، وهكذا يستمران. وهو الذي سخر الشمس والقمر، وذللهما لخدمة البشر نعمة منه ورحمة، وبهما

(١) سورة فاطر، الآيتان ١٢ - ٢٤.

(٢) راجع: الآيات ١١ - ١٤ من سورة فاطر.

يعرف للبشر عدد السنين والحساب. وكل واحد من هذه الأمور يسير بمقدار معين، وعلى طريق محكم إلى أجل معلوم مقدر عند الله، وهو يوم القيامة. ثم أشار إلى أن القائم بهذه الأفعال هو الله، فقال: إن الذي فعل هذا هو الرب العظيم المالك المصلح الذي لا إله غيره، والذي بيده الملك التام، فلا شيء إلا وهو في ملكه وتحت سلطانه، فينبغي للبشر أن يعرفوا توحيدَه ويدعوه ولا يدعوا غيره. ثم ذكر أن ما يعبد المشركون من دونه من الأصنام والأوثان، لا يملك شيئاً من السماوات والأرض، ولو كان بمقدار القطمير الذي هو لفافة الثوب^(١)، والمراد بذلك أنهم لا يقدرُونَ حتى على أتفه الأشياء. هذه الآلهة لا تسمع دعاء الداعين، لأنها جماد، ولو سمعت على سبيل الفرض والتمثيل ما استجابت لهم ولا كشفت عنهم شيئاً، لأنها لا تقدر على شيء مما يطلبون منها، كما أنها تفتقر من عبادة شركائهم لها يوم القيامة فكيف يمكن لماعل أن يعبد من دون الله من هذه صفته؟! ثم ذكر الله تعالى أنه لا يمكن لأحد أن يخبر الناس بعواقب الأمور وما لها وما نصير إليه مثل من هو خبير بما هو الله، لأن الخبر بالأمور هو وحده الذي يخبر بالحقيقة. ومعنى ذلك أن ما أخبر الله به من حال الأوثان هو الحق الذي لا شك فيه، لأن الله هو الخبير بما يخبر به.^(٢)

لقد اتضحت بهذه المقارنة فروق تفرق بين الله الواحد الأحد والأصنام والأوثان التي يظن السقهاء أنها تستحق العبادة والشركة مع الله. ومن هذه الفروق:

○ أن الله تعالى خلق الليل والنهار، وهو يخلقها كيفما يشاء، ويزيد وينقص من طولهما كيفما يريد، وهو الذي خلق الشمس والقمر وسخرهما لخدمة البشر وفائدتهم. وكل هذه الأمور تجري إلى أجل معلوم ومقدر عند الله، حتى يأتي يوم القيامة الذي به ينتهي كل شيء، ويوجد لهذه الحياة الدنيا، لبداً الحياة الأخرى بإذن الله الواحد القهار، والله هو المالك لكل شيء، وهو الذي خلق هذه الأمور كلها، وهو الذي يديرها بحكمة وإتقان، وينهيها إذا جاء أجلها. أما من سواه من الأصنام والأوثان فهي لا تملك شيئاً من هذه الأمور، بل إنما لا تقدر على شيء يُقَدُّ من أتفه الأمور ومن سقط المتاع، وهو القطمير، فهي لا تملك قطميراً، فكيف بما هو فوق ذلك؟!^(٣)

○ والله هو السميع الذي يسمع دعاء المضطرين ويستجيب لهم، أما الأصنام فهي لا تسمع دعاء أحد، لأنها جماد لا حياة فيها ولا حركة، ولو سمعت الدعاء على سبيل الفرض، فهي لا تستطيع الإجابة، لأنها لا تملك شيئاً، بل إنما لا تقدر حتى على الحركة بنفسها والانتقال من مكان إلى آخر.

(١) وهو القشرة الرقيقة الملتفة على الثوب، وهذا مجاز للقليل.

(٢) يُنظر: جامع البيان للطبري، ٤٥٠/٢٠ - ٤٥٣. بحر العلوم، للسمرقندي، ١٠٣/٣. الكشاف، للزمخشري، ٦٠٥/٣ - ٦٠٦. البحر المحیط، لأبي حيان، ٢١/٩ - ٢٢. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٤٧٨/٦ - ٤٧٩. التفسير المبسوط، لشيخنا من أساتذة التفسير، ط ٢، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، السعودية، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م، ص ٤٣٦.

○ والله هو الذي يجمع الناس يوم الحشر ويعاقبهم على سيئاتهم ويثيبهم على حسناتهم، ولا يترك المؤمنين به العابدين له، بل يثيبهم وينصرهم، ويبقى في عوهم حتى يدخلوا الجنة. أما الأصنام فهي تبتلى من عبدها يوم القيامة، وتكفر بكونهم يعبدونها في الدنيا، فتتركهم عذولاً لا ناصر لهم، حتى يكبههم الله تبارك وتعالى في النار على وجوههم. قال تعالى: ﴿كَلَّا سَيَعْبَثُونَ بِبِئَادَتِهِمْ وَيَصْخَبُونَ عَنْهُمْ ضِدًّا﴾^(١).

○ والله هو الخبير بكل الأمور العاجلة والآجلة، وأما ما سواه فلا علم له ولا خير بشيء.

ومن أهم أهداف هذه المقارنة ما يلي:

- ١) إقامة الحجة على العباد عموماً وللمشركين خصوصاً، بذكر مظاهر طلاقة القدوة الإلهية وضعف الأوثان لطلاق. وهذا أمر يعترف به المشركون، ومع ذلك يعبدونها ويتدللون لها.
- ٢) الدعوة إلى البراءة من عبادة الأصنام قبل فوات الأوان، إذ إنها تبتلى من عبدها يوم القيامة، وتكفر بعبادتهم لها، فعلى العقلاء أن يتعظوا ويتبرؤوا منها قبل أن تبتلى منهم.
- ٣) التذكير بنعم الله على العباد، وذلك مما يعث في النفوس محبة الله تعالى، وبالتالي يرغب البشر في الإيمان به وطاعته، ويشتاقون إلى لقائه، ويشدون الهمة للاستعداد لهذا اللقاء.
- ٤) الدعوة إلى التوحيد الخالص والإيمان السليم، ونهذ كل أنواع الشرك وأهله.
- ٥) بيان حقيقة الأصنام، والفرق الشاسع بينها وبين الخالق الحقيقي.

(١) سورة مريم، آية ٨٢.

المبحث الثاني:

كشف الحقائق وإظهار الأشياء بذكر أضدادها

إن هدف معظم المقارنات التي وردت في القرآن الكريم، بل كلها تقريبا هو توضيح الحقائق وتبيين الأشياء بذكر أضدادها، بل يصح القول بأن هذا هو هدف كل مقارنة أينما وردت، إذ إنه من فوائد المقارنة بشكل عام؛ وذلك لأنه بضدها تبين الأشياء. وأيضا فإن من الأساليب البلاغية التي تُستخدم للزيادة من جمال الكلام ما يُعرف بالطباق الذي يُذكر فيه ضدان معا، بغرض إبراز المعنى وتوضيحه. وكذلك فإننا نستخدم الأضداد لبيان معاني الكلمات الصعبة في كل اللغات. وهذا يعني أن إظهار الأشياء وتوضيحها بذكر أضدادها أمرٌ معروف لدى الجميع؛ فمن لم يعرف الظلام لم يفهم حقيقة النور، ومن لم يذوق طعم المرض لم يدرك أهمية الصحة، وهكذا يكون في الأمور كلها.

لذا كان لذكر الأضداد أهمية كبرى في توضيح الحقائق وتبيين الأشياء، ولهذا السبب ورد في القرآن الكريم ذكر لكثير من الأمور المتضادة مع بعضها البعض، بغرض توضيحها وإظهارها. فقد قرن القرآن الكريم في آيات كثيرة بين الظلمات والنور، والسماء والأرض، والإيمان والكفر، والجنة والنار، والحى والميت، والخير والشر وغيرها من الأمور المتضادة.

وكذلك ورد في الحديث النبوي الشريف ذكر للأضداد بهدف كشف الحقائق، فمثلا قال ﷺ: "مَثَلُ الْبَيْتِ الَّذِي يُذَكِّرُ اللَّهَ فِيهِ وَالْبَيْتِ الَّذِي لَا يُذَكِّرُ اللَّهَ فِيهِ، مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ".^(١) فقد قارن رسول الله ﷺ في هذا الحديث الشريف بين البيت الذي يُذكر الله فيه والذي لا يُذكر الله فيه؛ فشبه الأول بالحى والثاني بالميت، وباستخدام الضدين (الحى والميت) اتضح الفرق بين الطرفين كما اتضحت أهمية ذكر الله تعالى في البيوت.

❖ أمثلة على مقارنات تخدم هذا الهدف:

إن هذا الهدف يمكن اعتباره من الفوائد العامة للمقارنة بشكل عام كما ذكرت آنفا، لذا فهو هدف يشترك فيه عدد كبير من المقارنات؛ ولأجل ذلك كثرت الأمثلة عليه في القرآن الكريم. ومن هذه الأمثلة ما يلي:

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة النافلة في بيته وجوازها في المسجد، ص ٣١٧، رقم ١٨٢٣، من حديث أبي موسى الأشعري.

١- قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَغْلُصْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّما يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ ۚ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(١).

يقارن القرآن الكريم في هذه الآية المباركة بين المهتدي الذي شاء الله هدايته والضال الذي شاء الله ضلاله، لرغبة كل منهما الداخلية في الهداية والضلال. فبين الله أن المهتدي الذي يريد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام، فيدخل في الإسلام منشراح الصدر مطمئن البال. أما الضال الذي يريد الله أن يضلّه يجعل صدره ضيقاً، فيصير حاله مثل حال الذي يحاول الصعود في السماء، حيث يقلّ الأوكسجين؛ فيشعر الإنسان بضيق في التنفس. وهكذا يكون الضال غير مطمئن النفس والبال.

■ سياق الآية:

ورد في الآيات قبل هذه الآية من سورة الأنعام ذكر تفصيلي لتحريم ما أهل به لغير الله. ثم جاءت مقارنة بين المؤمن والكافر، بذكر أن المؤمن مثل الحي له نور، والكافر مثله مثل من يعيش في الظلمات لا يخرج منها. ثم ذكر الله تعالى أنه جعل في كل قرية مجرمين يمكرون فيها ويضرون أنفسهم، كما أنه ردّ على الذين يعترضون على اختيار الله الرسل لإنزال الرسالات عليهم، فقال إنه أعلم أين يجعل الرسالة ومن يستحقها، والمجرمون لهم عذاب شديد عند الله تعالى.^(٢) وبعد ذلك جاءت هذه الآية تبين الفرق بين حال المهتدي وحال الضال في الدنيا؛ فالأول مطمئن منشراح الصدر، والثاني قلق متوتر لا يجد إلى الاطمئنان سبيلاً.

■ تفسير الآية:

ذكر الله تعالى في الآية الكريمة أولاً حال الذي يريد الله هدايته، فقال: إن من أراد الله أن يوفقه للإيمان به وبرسوله وبما جاء من عنده، ويهديه لدينه ويعرفه طريق الحق، يوسع قلبه للإسلام؛ فيتسع صدره له وينفتح، فيدخل فيه نور الإسلام وحلاوته، ويضيء صدره بقبول الإيمان. وفي ذلك كناية عن جعل النفس قابلة للحق، مهينة لحلوله فيه خالية عما يمنعه وينافيه. أما من يريد إضلاله عن سبيل الهداية يشغله بكفره ويصرفه عن الإيمان، ويجعل صدره ضيقاً لا يتسع للإيمان شاكاً فيه؛ فيبتعد عن الحق ويهرب منه ولا يقبله أبداً؛ فلا تدخل صدره موعظة، ولا يصل إليه نور الإيمان لغلبة الشرك والكفر عليه.^(٣) ولا شك أن توسيع الصدر غير ممكن على سبيل الحقيقة كما ذكر صاحب

(١) سورة الأنعام، آية ١٢٥.

(٢) راجع: الآيات ١١٩ - ١٢٤ من سورة الأنعام.

(٣) يُنظر: جامع البيان، للطبري، ٩٨/١٢ - ١٠٩. بحر العلوم، للسمرقندي، ٤٨٠/١ - ٤٨١. الكشف، للزمخشري، ٦٤/٢.

إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود، ١٨٣/٣ - ١٨٤. محاسن التأويل، للقاسمي، ٤٨٧/٤.

تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان قائلا: (١)، "إن ها هنا معنى، وهو: أنه إذا اعتقد الإنسان في عمل من الأعمال أن نفعه زائد وخيره راجح ماله طبعه إليهم وقوي طلبه ورغبته في حصوله، وظهر في القلب استعداد شديد لتحصله؛ فتشقيت هذه الحالة سعة الصدر. وإن حصل في القلب علم أو اعتقاد أو ظن يكون ذلك العمل مشتملاً على ضرر زائد ومفسدة راجحة، دعاه ذلك إلى تركه، وحصل في النفس نبوة عن قبوله؛ فيقال لهذه الحال ضيق الصدر، لأن المكان إذا كان ضيقاً لم يتمكن الداخل من الدخول فيه، وإذا كان واسعاً قدر على الدخول فيه".

وبعد أن ذكر الله تعالى حال المهتدي والضال باعتبار سعة الصدر وطيقته، شبه حال الضال الذي ضاق صدره للإيمان بحال من يحاول الصعود في السماء. وقد ذكر المفسرون أن هذا التشبيه فيه مبالغة في ضيق صدره، حيث شبه الضال بمن يحاول الصعود في السماء، ولا يمكنه ذلك، فهو كمن يزاول أمراً غير ممكن؛ فكما أن الصعود إلى السماء غير ممكن كذلك لا يمكن دخول الإيمان في قلب الكافر الذي أضله الله. وقد روي عن ابن عباس رحمه الله مثل هذا القول، قال رضي الله عنه: "كما لا يستطيع ابن آدم أن يبلغ السماء، فكذلك لا يقدر أن يدخل الإيمان والتوحيد قلبه حتى يدخله الله عز وجل في قلبه". (٢) وذكر في الآية معنى آخر وهو أن حال الضال مثل حال من يصعد إلى السماء هروباً من الحق وتباعداً عن الإيمان. ثم قيل الله إنه هكذا يجعل العذاب والخذلان على الكافرين. (٣)

فخلاصة أقوال المفسرين القدامى تفيد أن الآية تشير إلى أن دخول الإيمان في قلب الكافر غير ممكن، كما أن الصعود إلى السماء أمر غير ممكن. ولكن اكتشف العلماء في العصر الحديث أن التصاعد في السماء صار أمراً ممكناً، إذ تمكن البشر من الذهاب إلى طبقات الجو العليا، وعلى ذلك فإن الآية تتضمن معنى آخر، وهو أن الكافر يكون صدره ضيقاً مثل صدر الإنسان الذي يصعد إلى السماء، حيث يقل الأوكسجين، ويصعب عليه التنفس. قال الدكتور زغلول السجار (٤): "إذا تجاوز الإنسان ارتفاع الثمانية كيلومترات فوق مستوى سطح البحر فإنه يتعرض لمشكلات عديدة منها صعوبة التنفس لنقص الأوكسجين، ونقص ضغط الهواء... فلا يستطيع جسم الإنسان القيام بوظائفه الحيوية فتبدأ في التوقف الوظيفة تلو الأخرى. وهنا يمكن تفسير ضيق الصدر الذي يمر به الإنسان عند الصعود إلى تلك المرتفعات بغير استعدادات وقائية كافية، فبدأ بالشعور بالإجهاد الشديد والصداع المستمر".

(١) وهو الإمام النيسابوري. يُنظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان، للنيسابوري، ١٥٩/٣.

(٢) الإبانة الكبرى، لأبي عبد الله ابن بطنة، ٢٨٠/٣، رقم ١٢٠١، تحقيق: عثمان آلوي وآخرون، ط ٢، دار الراجية للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤١٥ هـ.

(٣) يُنظر: جامع البيان، للطبري، ٩٨/١٢ - ١٠٩. بحر العلوم، للسمرقندي، ٤٨٠/٦ - ٤٨١. الكشف، للزنجشيري، ٦٤/٢. غرائب القرآن ورغائب الفرقان، للنيسابوري، ١٥٩/٣ - ١٦٠. إرشاد العقل السليم إلى عزاب الكتاب الكريم، لأبي الصعود، ١٨٢/٣ - ١٨٤. محاسن التأويل، للقاسمي، ٤٨٧/٤.

(٤) هو الدكتور زغلول راجب السجار، من العلماء المعاصرين. ولد عام ١٩٣٣ م ونشأ في بيت علم وفضل. تخصص في علم الجيولوجيا. كتب عدة دراسات وأبحاث علمية في علم الجيولوجيا وفي العلوم الإسلامية. اهتم بدراسة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم. له كتب كثيرة، منها: السماء في القرآن، الجبال في القرآن، مفهوم علم الجيولوجيا في القرآن، وغيرها.

وبالرغبة في النوم، ويحدث ضيق شديد في التنفس. فتتأثر رؤية الشخص ويختل توازنه ويصاب بصداخ شديد، ثم بإغماء كامل أو بصدمة عصبية أو بتشلل جزئي أو كلي، وبزرقة في الجسم تنتهي بالوفاة بسبب توقف كل من القلب والرئتين واختيار الجهاز العصبي، وفشل كامل في وظائف بقية أعضاء الجسم. ولعل هذا هو المقصود بهذه الآية^(١). لقد بينت الآية الكريمة أن الفرق بين المهتدي والضال أو الكافر والمؤمن لا ينحصر في التصرفات الظاهرة فقط، بل إن بينهما فرقا كبيرا في الباطن أيضا. فالمهتدي الذي يوقفه الله للمهداية لرغبته فيها وتطلعه إليها، ينشرح صدره للإسلام والإيمان، فبدخل في الإسلام منشرح الصدر، ويعيش في هذه الحياة مطمئنا مرتاح البال، لإيمانه الكامل بالله وثقته به ورضاه بالقضاء والقدر؛ فلا يحزنه الماضي ولا يهجمه المستقبل، بل يوكل كل أمره لله، فيعيش هادئا مرتاحا.

أما الضال الذي أراد الله إضلاله، لعدم رغبته في الهداية وعدم تطلعه إليها، يجعل الله صدره ضيقا حرجا لا يتسع للإسلام والإيمان بالله تعالى. ومثل هذا الإنسان يعيش في هذه الحياة الدنيا حائرا قلقا لا يطمئن قلبه ولا يرتاح باله، وحالته تكون شبيهة بحالة من يصعد إلى السماء؛ فيتنفس بصعوبة لقلته، الأوكسجين وزيادة الضغط في طبقات الجو العليا. فكذلك الضال يبقى في هذه الحياة قلقا مضطربا، يحزن لماضيه أحيانا، ويغتم لمستقبله أحيانا أخرى، لعدم اليقين بخيرية ما عند الله، ولا راحة في حياته ولا سكون ولا استقرار، في الدنيا ولا في الآخرة.

لقد حققت هذه المقارنة أهدافا عدة؛ من أهمها: بيان الفرق الحقيقي بين الهدى والضلال وبين المهتدي والضال، وإثبات فضل الهداية وصاحبها على الضلال وصاحبها، يذكر الضالين معا، والتأكيد على أن فضيلة المهتدي على الضال لا تكون في الآخرة وثوابها وعقابها فقط، بل تكون في الحياة الدنيا أيضا من حيث راحة البال وطمأنينة النفس. كما أن الآية تهدف إلى الدعوة إلى الدخول في الإسلام الذي هو دين الله، والذي فيه طمأنينة القلب وانشرح الصدر، وترك كل دين سواه، لأنه دين ضلال وبعد عن الهدى، يكون الإنسان فيه ضيق الصدر غير مرتاح البال. لذا فإن حلى الإنسان أن يؤمن بالله ويطيعه، ليبقى مطمئنا مرتاحا في الدنيا والآخرة.

٢ - قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾^(٢).

قارنت الآيةان بين من زكى نفسه وهذبا بالطاعات ومن دساها، أي: أهمل تزكيتها وأفسدها بالشر والمعاصي، وبينت جزاء كل منهما؛ فالزكى مفلح قاتر، وضده خائب خاسر.

(١) السماء في القرآن الكريم، للملك زغلول النجار، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م، ص ٤٠٣، ينصرف.

(٢) سورة الشمس، الآيةان ٩ - ١٠.

■ سياق الآيتين:

أنقسم الله في سورة الشمس بأشياء متعددة، وهي: الشمس والقمر والنهار والليل والسماء والأرض، ومن بين هذه الأمور، وهو الله جل وعلا، والنفس الإنسانية التي وضع الله فيها دواعي الخير والشر. ثم جاءت هاتان الآيتان جواباً للنقسم المذكور، ونشتملان على مقارنة بين المركزي لنفسه وغير المركزي لها.^(١)

■ تفسير الآيتين:

هاتان الآيتان وقعتا جواباً للنقسم، وقد ذكر الله فيهما جزاء ما تختاره النفس الإنسانية، كما أن فيهما تحقيقاً لفلاح المؤمنين وخيبة المشركين، وبينهما مقابلة. فذكر الله تعالى أنه قد أفلح، أي: فاز بكل مطلوب وظفر بكل محبوب ونجا من كل مكروه، من زكى نفسه واختار لها ما به كمالها ودفع الرذائل عنها؛ فهذا ونماها وأعلاها باتباع التقوى قولاً وعملاً. وخاب، يعني خسر، من أضل نفسه وأغواها وأهلها وحال بينها وبين فعل الخير؛ فلم يهذبها بالطاعة والعمل الصالح، بل اختار الفجور والكفر، بعد أن ألهمه الله التمييز بين الخير والشر. وللقصود في الآية الفلاح والخيبة في النار الآخرة.^(٢)

قال ابن عاشور رحمه الله: "وقدم الفلاح على الخيبة لمناسبة التقوى"^(٣)، وأردف بخيبة من دسى نفسه لتهيئة الانتقال إلى الموعظة بما حصل لشهود من عقاب^(٤) على ما هو أثر التدسية"^(٥).

قارنت الآية بين الذي يزكى نفسه بالإيمان والطاعات والعمل الصالح، وبين الذي يفسدها ويضلها ويغويها بالكفر والفسوق والعصيان وارتكاب المحرمات. ويثبت الفرق بينهما، وهو بكل بساطة أن الأول ناجح فائز بالجنة، والثاني خائب خاسر، لم يظفر بالمعاد، بل كان من أهل النار الذين هم الخاسرون الخاسرون في حقيقة الأمر. ويذكر الضدين معاً، واستخدام المقابلة التضح الأمر للمخاطبين.

ومن أهم الأهداف التي حققتها هذه المقارنة:

(١) توضيح الفرق بين المؤمن الذي يهذب نفسه ويكفيها بالطاعات، والكافر الذي يفسد نفسه بالمعاصي والفجور؛ فالأول له الفلاح والثاني له الخسران.

(٢) الدعوة إلى الإيمان والتزكية، للظفر بالمطلوب والنجاة من المكروه يوم القيامة.

(١) راجع: الآيات ١ - ١٠ من سورة الشمس.

(٢) يُنظر: (إرشاد العقل السليم، لأبي السعد، ١٦٤/٩، روح المعاني، للألوسي، ٣٦٠/١٥، فتح القدير، للشوكاني، ٥٤٧/٥، المحرر والتميز، لابن عاشور، ٣٧٠/٣٠ - ٣٧٢، التفسير المنير، للزحيلي، ٢٥٧/٣٠، ٢٦٠.

(٣) في قوله تعالى قبل ذلك: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا. سورة الشمس، الآيتان ٧ - ٨.

(٤) وذلك في قوله تعالى: ﴿كَذَّبْتَ ثُمَّ وَقَفَّوَاهَا﴾. سورة الشمس، آية ١١.

(٥) التحرر والتميز، لابن عاشور، ٣٧١/٣٠.

٣) بيان حقيقة الفلاح والحياة، فالفلاح الأصلي والخسرات الأصلي ما كان في الآخرة لا ما كان موقفا في الدنيا زائلا.

٤) كشف الجقائق بذكر أضرارها، فقد تبين بهذه المقارنة أصل الفلاح والتزكية، كما تبين أصل الحياة والخسرات بذكر الضدين معا.

المبحث الثالث:

بيان اختلاف أحوال الناس

لقد وردت في القرآن الكريم مقارنات متعددة هدفها بيان أحوال الناس المختلفة، وإثبات أنهم ليسوا على درجة سواء، فالناس فيهم المحسن والمسيء وفيهم الصالح والطالح. ففي كل أمة أصناف وأنواع مختلفة من البشر، إذ لا يمكن اعتبار كل الأفراد من أمة سواء، ولا يصح الحكم عليهم بحكم واحد. وهذا من مقتضيات العدل والقسط؛ ولأجل ذلك اهتم القرآن ببيان هذا الاختلاف ولم يحكم على جميع أفراد أمة، أيًا كانت بحكم واحد.

فقد بين القرآن الكريم في مواضع مختلفة أن الناس فيهم المؤمنين والكافرين، وفي المؤمنين من هو مطيع ومن هو عاصي، كما أن من بين المؤمنين المقربين، وأصحاب اليمين الذين هم أدنى منزلة من المقربين، وإن كان الكل من أصحاب الجنة. وأيضاً ذكر القرآن أن الكفار فيهم المشركون وفيهم أهل الكتاب، وقد راعى القرآن الفرق بينهما في كثير من الأحكام، كما أمر المؤمنين باختيار هذا الفرق في التعامل معهم، وفي تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية عليهم، مع أن كليهما يشتركان في الكفر بالله ولستمحقاق النار في الآخرة.

وكذلك فإن القرآن الكريم ذكر عن أهل الكتاب أن فيهم القانت المطيع لله، وفيهم عكس هؤلاء، فليس كل أهل الكتاب سواء في التكبر والعصيان والتمرد؛ قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً ۚ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۖ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ أُولَٰئِكَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾^(١). فإلى جانب ذم القرآن الكريم للمتمردين من أهل الكتاب في كثير من المواضع أعطى القرآن الصالحين منهم، حقهم وراعى وجودهم في تلك الأمة، إذ وضع أن فيهم المنتصف بالصفات الحميدة، والقائم بالأعمال الصالحة المرضية لله، ومثلهم في أكثر من موضع.

وبالإضافة إلى ذلك وردت في القرآن الحكيم مقارنات بهدف بيان الأحوال المتقلبة للناس عموماً والمشركين خصوصاً، إذ وضحت هذه المقارنات أنه الناس متقلبون في حياتهم، فأحياناً يرجعون إلى الله تعالى ويؤمنون به وحده، وأحياناً يشركون به غيره. فقد بين القرآن في أكثر من موضع أن الإنسان خلق هلوفاً، إذا مسه الخير يفرح ويمنع الناس هذا الخير، وإذا مسه الشر يفرح ويتخذ من رحمة الله، ولا يبقى على حالة واحدة ثابتة على إيمانه بالله تعالى وثقته به. ومن الأمثلة على هذه المواضع قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَكْفَأْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا ۚ وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَبَاقُ لَدَعْمَتِ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَفْتَنُونَ﴾^(٢). فمن خلال المقارنة بين موقف الإنسان من السراء وموقفه من الضراء في هذه الآية

(١) سورة آل عمران، الآيات ١١٣ - ١١٤.

(٢) سورة الروم، آية ٣٦.

وأخرى أمثلها، وضح القرآن الكريم تقلب أحواله بين الفرح والقنوط، وبين الإعراض عن الله والرجوع إليه، وعدم ثباته على حالة واحدة من الإيمان واليقين.

❖ أمثلة على مقارنات تخدم هذا الهدف:

إن من الأمثلة على المقارنات الكثيرة التي سعت إلى تحقيق هذا الهدف:

١- قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَّهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّيهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَّهُ بِدِينَقَارٍ لَا يُؤَدِّيهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ۚ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتِ سَبِيلٌ وَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(١).

قارنت الآية الكريمة بين صنفين من أهل الكتاب، أحدهما يتصف بالأمانة يحافظ عليها ويؤديها إلى صاحبها مهما علت قيمتها، والآخر يتصف بالخيانة، فلا يحافظ على الأمانة ولا يؤديها إلى صاحبها مهما قلت قيمتها. والهدف من المقارنة بيان عدم سواعة أهل الكتاب.

■ سياق الآية:

جاءت هذه الآية في سياق الحديث عن أهل الكتاب الذين ويختم الله في الآيات التي سبقت هذه الآية على الكفر وتلبس الحق بالباطل، وعلى حث بعضهم البعض على عدم الإيمان برسول الله ﷺ. ثم وضح الله تعالى أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، وهو يختص من يشاء برحمته^(٢). وبعد ذلك جاءت هذه المقارنة بين صنفين من أهل الكتاب عدلاً وقسطاً وإعطاءً للمحسنين منهم وحفهم.

■ تفسير الآية:

قسمت الآية الكريمة أهل الكتاب إلى قسمين: الأول، يبلغ الغاية في الأمانة، فيعطيها عند طلبها مهما علت قيمتها ومهما كانت نفاستها، فقال الله عنهم: إِنْ أَمْسَالُ هَؤُلَاءِ لَوْ أَتَيْنَ بِقِنطَارٍ مِنَ الذَّهَبِ أَدَاهُ إِلَى صَاحِبِهِ مِنْ غَيْرِ إِنكَارٍ وَنَقْصٍ، وعبر عن الكثرة بالقنطار. ولم يذكر كونه من الذهب، لأنه مفهوم من السياق؛ وذلك أن الدينار لا يكون إلا من الذهب، فلا بد أن يكون القنطار من الذهب أيضاً. وقال الإمام أبو زهرة عن هذا الصنف من أهل الكتاب: "هذا القسم الذي يكون على هذا القدر من الأمانة هو الذي يجيب داعي الحق ويؤمن به، إذا دعي إليه، لأن التسليم بالحق في الماديات لا ينشأ إلا من نبوع النفس التي تؤمن بالحق في المعنويات. بل إن هذا في الحق ينتهي إلى معنى الأمانة، لأن نصر الحق والإدعان له بعد قيام الدليل عليه نوع من الأمانة إذ إن الله سبحانه أودعنا هذه

(١) سورة آل عمران، آية ٧٥.

(٢) راجع: الآيات ٧١ - ٧٤ من سورة آل عمران.

القوى المدركة لنجعلها للحق والنفع".^(١) وأما القسم الثاني المقابل للقسم الأول، فهو الذي يبلغ الغاية في الخيانة، بحيث إنه إن الثمين يدينار جحد الأمانة وأنكرها، ولم يؤدّها إلى صاحبها إلا إذا استمر صاحبها قائما على رأسه يطالبه بالتقاضي، ويُلح عليه في الطلب. ومثل هؤلاء لا يستبعد منهم الخيانة مع الله بمجرد الحق، وكتمان ما أمر بإظهاره. ثم ذكر علة الخيانة قائلا: هذا الاستحلال لأموال الناس والخيانة، بسبب أنهم يقولون إنه ليس علينا فيما أخذنا من أموال العرب الأميين الذين هم ليسوا على ديننا عتاب ومواخلة، فأموالهم حلال لنا.^(٢) فردّ القرآن على تأويلهم هذا، وقال: هؤلاء يقولون على الله الكذب بادعائهم ذلك، لأنه كلام لا أصل له في شرع سماوي، وهم يعلمون أنهم كاذبون في دعوائهم، وأن التوراة لا تجيز لهم أموال العرب.^(٣)

ذكرت الآية الكريمة صنفين متقابلين من أهل الكتاب وقارنت بينهما. فالصنف الأول هو الأمين الذي يؤدي الأمانة إلى صاحبها ولا يخون فيها أبدا، وإن كانت ذات قيمة كبيرة. وأدائه الأمانة في الماديات يقوده إلى الأمانة في المعنويات، فلا يقول إلا الحق ولا يكذب على الله، بل يستجيب للحق ويؤمن به إذا دُعي إليه. ومن أبرز الأمثلة على هذا النوع: مؤمنو أهل الكتاب، كما مثال عبد الله بن سلام رضي الله عنه وغيره من الأجلاء الموجودين في كل زمان.

أما الصنف الآخر فهو الخائن الذي لا يؤدي الأمانة إلى صاحبها بل يخذلها وينكرها، وإذا طالب بها صاحبها أنكر أنها كانت عنده، ولو كانت قليلة الشأن، ولا يؤديها إلا إذا ألح صاحبها في الطلب، واستمر واقفا على رأسه يطلب منه أدائها. هذا الصنف تقوده الخيانة في الماديات إلى الخيانة في المعنويات أيضا، فيجحد الحق ويكذب على الله، ويترفع الأدلة والتأويلات الباطلة الكاذبة على خيائته، وهي تأويلات لم يتزل الله بها من سلطان، وهو عالم بأن هذا كذب واقتراء لا علاقة له بالدين الإلهي الحق. والأمثلة على هذا الصنف أيضا موجودة في كل زمان ومكان.

إن من الأهداف التي حققتها هذه المقارنة:

(١) بيان أحوال أهل الكتاب المختلفة وكيفية ليسوا على درجة سواء؛ فبعضهم الأمين ومنهم المفسد.

(١) زهرة التفاسير، لأبي زهرة، ١/٣٢٨٩.

(٢) وقال الشيخ رشيد رضا: "كانه يقول إن استحلال هذه الخيانة جعلهم من القروى بشعبهم والغلو في دينهم، فإن ذلك يستتبع احتقار المخالف احتقارا يهضم به حقه الثابت في المعاملة".

تفسير المنار، لرشيد رضا، ٣/٢٧٩.

(٣) يُنظر: أنوار التنزيل، للبيضاوي، ٢/٢٣ - ٢٤. روح البيان، لأبي الفداء إسماعيل حقي الإسطنبولي، دار الفكر، بيروت، لبنان.

٥١/٢. محاسن التأويل، للقاسمي، ٢/٢٣٦. تفسير المنار، لرشيد رضا، ٣/٢٧٩. زهرة التفاسير، لأبي زهرة، ٣/١٢٧٩ - ١٢٨٢.

- (٢) الإنصاف في الكلام عن أهل الكتاب، وإعطاء الصالحين من أهل الكتاب حقهم؛ إذ لم يذم القرآن الكريم أهل الكتاب جميعاً، ولم يحكم عليهم بحكم واحد، بل أعطى كل واحد حقه. قال رشيد رضا^(١): "وانظر كيف أنصفهم الكتاب فبين أن منهم الوفي والخائن، ولا يكون أفراد جميع الأمة خائنين"^(٢).
- (٣) بيان أهمية الأمانة، حيث إن أهل الكتاب أيضاً استحقوا المدح لوجود هذه الصفة فيهم، ويجب أن يكون المؤمن كذلك أيضاً، لأن الأمانة من الدين كما قال ﷺ: "لا إيمانَ لمن لا أمانةَ له"^(٣).
- (٤) حث المؤمنين على التعامل مع الجميع بالعدل والإنصاف والأمانة، والتأكيد على إعطاء كل ذي حق حقه وإن كان من أتباع الديانات الأخرى، لأن دين الله أكرم المؤمنين أن يكون صادقا أميناً في التعامل مع الجميع، دون تحديد دين أو مذهب. قال الإمام أبو زهرة رحمه الله: "وما قالوه من أنه ليس عليهم في الأسيرين سبيل كلام لا أصل له في شرع سماوي، فهو ليس دينا... والحق الثابت المقرر أن الفضائل الدينية هي حق على المؤمن لكل إنسان، ويأثم إذا لم يؤدها لكل إنسان"^(٤).

٢- قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِجَنَانِهِ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ

فَذُوْ دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾.^(٥)

قارنت الآية الكريمة بين حال الإنسان في السراء عند مواجهة النعم، وحاله في الضراء عند مواجهة الشدائد؛ فذكرت أن الإنسان ينسى الله تعالى ويعرض عن ذكره في السراء، في حين أنه إذا مسه الشر عاد إلى الله تعالى وصار يدعو وحده، فلا يبقى على حال واحدة ثابتاً على إيمانه.

(١) هو محمد رشيد علي رضا القلموني، إمام عالم بالتفسير والحديث والأدب والتاريخ، ومن كبار الدعاة إلى التجديد والإصلاح في العالم الإسلامي. ولد عام ١٢٨٢ هـ. كان من أبرز تلامذة للشيخ محمد عبده. أصدر مجلة لئار لنشر آرائه، والتي كانت أشهر المجلات العربية والإسلامية. توفي عام ١٣٥٤ هـ. من كتبه: تفسير القرآن الوحي الحملي، ذكرى المولد النبوي، وغيرها.

يُنظر: الأعلام، الزركلي، ١٢٦/٦. معجم المفسرين، لعادل نويس، ٥٢٩/٢، الموسوعة الميخرة، ٣/٢٥٣٨ وما بعدها.

(٢) تفسير المنار، لرشيد رضا، ٢٧٩/٣.

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه بترتيب ابن بلبانة (٤٢٢/١)، رقم ١٩٤، من حديث أنس بن مالك. وقال المحقق: إسناده حسن في الشواهد.

وأخرجه الإمام أحمد في مسنده، ٤٢٤/٢٠، رقم ١٣١٩٩، من حديث أنس بن مالك وقال المحققون: حديث حسن.

(٤) زهرة التفاسير، لأبي زهرة، ١٢٨١/٣ - ١٢٨٣، بتصرف.

(٥) سورة فصلت، آية ٥٤.

■ سياق الآية:

جاءت الآية في معرض الحديث عن بعض صفات الإنسان، فذكر الله أنه يخط من رحته إذا واجه الشر، وإذا أنعم الله عليه بنعمة من عنده يتكبر وينسى الساعة؛ ثم توعد الله من هذه صفته من الكفار غنايا غليظا يوم القيامة. وبعد بيان ذلك قارنت هذه الآية بين أحوال الإنسان (وخاصة الكافر) المتقلبة في السراء والضراء.^(١)

■ تفسير الآية:

ذكر الله تعالى خلقاً من أخلاق الإنسان الذميمة، وهو خلق موجود في الإنسان بشكل عام، ولكنه متمكن في الكافر بشكل أخص، لأن المؤمن يشكر عند النعمة في الغالب، وكثيراً ما يصير عند الشدة. فقال الله: إنه إذا أنعم على الإنسان بنعمة من نعمه الكثيرة من صحة وعافية وسعة عيش ونحو ذلك، أعرض عن الطاعة واستكبر عن الانقياد لأوامر الله، وابتعد بنفسه عن الله؛ ففسى للنعم ولم يشكره ولم يطعه. أما إذا ابتلاه الله بنوع من أنواع الشدائد، كالفقر والمرض وغيرهما، صار يدعو الله ويتضرع إليه ويطلب في الدعاء والإنابة إليه سبحانه، لعله يكشف عنه هذه الغمة برحمته. واستعار العرض لكثرة الدعاء ودوامه، والمراد بذلك أنه يدعو دعاءً كثيراً دائماً، لأن العرض يقتضي الطول ويتضمنه.^(٢) قال سلطان العلماء^(٣): "عرض يعني تام بإخلاص الرغبة أو كثير للنوام الموصلة. واستعمل العرض، لأن العرض يجمع عرضاً وطولاً، فكان أعم".^(٤)

قارنت الآية بين حال الإنسان - وخصوصاً الكافر - في السراء والضراء، وموقفه من النعم والشدائد. فهو حينما يحصل على رحمة الله ونعمة من عنده، يستكبر ويظن أنه حصل عليها بعلمه وجهده، وليس لله فضل عليه؛ فلا يشكر الله ولا يعترف بفضل الله عليه، بل يعرض عن ذكره ويستكبر، ويتفاخر بالنعمة ويحتقر الآخرين، كما ينشغل في النعمة عن الطاعات والصلوات. أما إذا واجه مصيبة أو شدة لجأ إلى الله تعالى، وصار يدعو بكشف هذه المصيبة عنه، وأصبح يتصرف بطريقة كأنه لم ينس الله البتة؛ حيث يدعو دعاءً طويلاً حتى يكشف الله المصائب عنه.

(١) راجع: الآيات ٤٩ - ٥١ من سورة فصلت.

(٢) يُقَرَّر: معالم التنزيل، للذهبي، ١٣٧/٤. المحرر الوجيز، لابن عطية، ٢٣/٥. مدارك التنزيل، للتعليقي، ٢٤٢/٣. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ١٢٠/٧. تفسير المصفي، ٦/٢٥ - ٩.

(٣) هو أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام الملقب بشيخ الإسلام ولسطان العلماء. أصله من المغرب وولد في دمشق عام ٥٧٧هـ. كان ماهراً في الفقه، إذ بلغ رتبة الاجتهاد، كما كان عالماً باللغة العربية ويضرب به المثل في العلم والزم. كان لا يخالف في الله لومة لائم. توفي عام ٦٦٦هـ. من كتبه: تفسير القرآن، قواعد الإسلام، مقاصد الصلوة وغيرها. يُنظر: طبقات للقسرين، للداودي، ٣٦٥/١ وما بعدها. طبقات القسرين، للأدنه وي، ص ٢٤٢. معجم للقسرين، لعادل تويهم، ٢٨٧/١ - ٢٨٨.

(٤) تفسير القرآن، لسلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام السلمي، تحقيق: د. عبد الله الوهي، ط ١، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، ١٣٥/٣.

ومثل هذه الآيات التي تضمنل على مقاومة بين حال الإنسان في السراء والضراء، وتأكيده على قلب أطواره كثيرة. منها قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِ دَعَا أَلْهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِ إِذَا هُمْ يُفْسِكُونَ﴾ (١). فهذه الآية فيها ذكر حال المشركين بالأخص، حيث إنهم يدعون الله وحده إذا واجهوا شدة، وهم يركبون الفلك في البحر، فإذا نجاهم الله من هذه الشدة أشركوا به غيره في الدعاء والعبادة. ومن الأمثلة على هذه الآيات أيضا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَا لِحِثْوِيهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَابِئًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّهِ مَسَّهُ ۚ كَذَلِكَ زَيَّنَ لِلْمُشْرِكِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢). وهذا هو حال كثير من المؤمنين أيضا، حيث يتذكرون الله ويرجعون إليه في الضراء وينسونه في النعماء.

أما حال المؤمن الحقيقي المخلص لله تعالى فنبقى أن يكون كما قال للمصطفى ﷺ: "عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَخِي إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَصَابَتُهُ سَرَّاءٌ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتُهُ ضَرَّاءٌ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ" (٣).

لقد حققت هذه المقابلة أهدافا عدة، أهمها:

- (١) بيان أن الإنسان متبدل الأحوال متقلبا في السراء والضراء، وذم هذا الغلب والاختلاف.
- (٢) الحث على الشكر عند النعمة والصبر عند المصيبة، لأن هذا هو الذي يليق بالمؤمن.
- (٣) بيان أن التوحيد والرجوع إلى الله وحده كامر في الفطرة البشرية، فالإنسان لا يرجع في الضراء إلا لمن يحبه ويثق به، والرجوع إلى الله في هذه الحالة يشير إلى أن حب الله والثقة به موجودتان في فطرة الإنسان مهما أفكر أحد ذلك.

(١) سورة العنكبوت، آية ٦٥.

(٢) سورة يونس، آية ١٢.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرفاق، باب المؤمن أمره كله خير، ص ١٢٩٥، رقم ٧٥٠٠، من حديث صحيح للرومي رضي الله عنه.

المبحث الرابع:

الدعوة إلى التفكير والتدبر

لقد نزل القرآن الكريم لهداية البشر إلى ما فيه صلاحهم في الدنيا وفلاحهم في الآخرة، وقد دعت كثير من آيات القرآن الكريم إلى التدبر والتفكير فيه لأخذ العظة والعبرة، والاستفادة من المواعظ التي وردت فيه لأخذ الهداية منها، ثم الإيمان بالله تعالى والامتثال بأوامره جل وعلا، وذلك للحصول على هدف صلاح الدنيا وفلاح الآخرة. ومن الآيات التي أمرت بشكل مباشر بالتدبر في آيات الذكر الحكيم قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانُ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَفْئَالًا﴾^(١) وقال عز وجل في آية أخرى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانُ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾^(٢).

والهدف من دعوة القرآن الكريم الناس إلى التدبر في آياته كما ذكرنا هو الاستفادة مما فيها من حكم ودروس وأحكام، وأخذ العظة والعبرة منها، وبالتالي الإيمان بهذه الآيات والامتثال بالأوامر التي وردت فيها. فمن لا يتدبر في آيات القرآن الحكيم لا يتأثر بها، ومن لم يتأثر بها لا يسهل عليه التصديق بما بقلبه، والعمل بالأوامر التي جاءت بها عن ثقة ورضاء وتسليم كامل للأمر الإلهي.

وإلى جانب هذه الآيات التي تحث بشكل مباشر على التدبر في آيات القرآن، وردت في القرآن الكريم أيضا أمثال ومقارنات كثيرة بهدف الدعوة إلى التدبر. بل إننا لا نخطئ إذا قلنا إن المقارنات كلها بشكل عام، وخصوصا تلك التي استخدم فيها أسلوب ضرب المثل والتشبيه والاستعارة والاستفهام وغيرها من الأساليب البلاغية، وردت في القرآن لأجل إيقاظ العقول وتوجيهها نحو التدبر، والوصول إلى ما يريد القرآن الكريم بيانه من خلالها، وذلك لأنها أمور لا يمكن فهمها وإدراك ما جاء فيها من الدروس والعبر إلا بإيقاظ العقول واستخدامها في التدبر في هذه الأمور، وبالتالي الوصول إلى النتيجة التي يريد القرآن الإيصال إليها.

وكذلك فإن المقارنات التي استخدم فيها أسلوب إنجاز الحذف - وذلك بذكر طرف وحذف الطرف الآخر - هدفها أيضا إيقاظ العقول وتنبهها، ودعوة الإنسان إلى التفكير والتدبر، لمعرفة الطرف الآخر المخنوف، وفهم وجه المقارنة، والفروق بين الطرفين اللذين قرن القرآن بينهما، ثم الوصول إلى النتيجة المطلوبة، والتي هي بيان خير الأمور لا اتباعه، واجتناب كل ما سواه. ومن المدهي أن من لم يعرف الطرف الآخر لن يدرك أنه ثمة مقارنة بين شيئين. فلنحذف إذاً بوقف العقول ويشوقها إلى معرفة المخنوف وتقديره، فيقوم الإنسان بالتفكير والتدبر في الآية القرآنية،

(١) سورة محمد، آية ٢٤.

(٢) سورة النمل، آية ٨٢.

وبالتالي يصل إلى مطلوب القرآن ومقصوده. والأمثلة على مثل هذه المقارنات منتشرة في القرآن، وقد مر ذكر بعضها في المباحث السابقة.

❖ أمثلة على مقارنات تخدم هذا الهدف:

إن من الأمثلة الكثيرة على المقارنات التي تخدم هذا الهدف ما يلي:

٣- قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾^(١).

قارنت الآية الكريمة مقارنة صريحة بين المؤمن والكافر المشبهين بالبصير والأعمى، باستخدام أسلوب الاستفهام الإنكاري؛ حيث نفت المساواة بينهما، وأنكرت على من يظن أنهما متساويين. ومعنى الآية أنه كما لا يستوي الأعمى والبصير، كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن.

■ سياق الآية:

وردت الآية في معرض الإنكار على المشركين الذين استوت عندهم جميع الآيات، فلا يؤمنون ولا يصدقون بالرسول. فخوفتهم الآيات السابقة من عذاب الله تعالى الذي قد يأتي بغتة أو جهرة، ولا يهلك إلا الظالمين الفاسقين. ثم خاطب الله تعالى في بداية هذه الآية النبي ﷺ، وأمره بأن يوضح للكفار أنه ليس بيده الإتيان بالعذاب، ولا هو يعلم الغيب، بل هو بشر يتبع ما يوحى إليه، فمن شاء آمن به ومن شاء كفر، ولا يستوي المؤمن به والكافر أبداً تماماً كما أنه لا يستوي البصير والأعمى.^(٢)

■ تفسير الآية:

ذكرت الآية الكريمة أنه لا يستوي المؤمن بالله والكافر به أبداً تماماً كما لا يستوي الأعمى الذي لا يرى شيئا، ويضطرب في حياته، مع البصير الذي يستطيع أن ينظر ويرثب أمور حياته، ويعرف إلى أين يتجه في حياته. فعلى الكفار أن يفكروا في الأمر ويتنظروا، ويتبعوا رسول الله ﷺ؛ فلا يكونوا كالعميان المرتضين في ظلمة فقد البصر، والذين هم بحاجة إلى قائد مبصر يأخذ بأيديهم. قال قتادة رحمه الله^(٣): «الأعمى: الكافر الذي قد عمي عن حق

(١) سورة الأنعام، آية ٥٠.

(٢) راجع: الآيات ٤٧ - ٥٠ من سورة الأنعام.

(٣) هو أبو الخطاب قتادة بن دعامة السدوسي البصري. كان حافظاً عالماً من مفسري التابعين. وكان مع علمه بالتفسير والحديث عالماً باللغة وأيام العرب وأخبارهم. روى عن أنس بن مالك وغيره. كان يضرب به المثل في الحفظ. توفي عام ١٢٧ هـ.

ينظر: طبقات المفسرين للداودي، ٤٧/٢ - ٤٨. طبقات المفسرين للأدنه وي، ص ٦٤. معجم المفسرين لعادل تويهض، ٤٣٥/١ - ٤٣٦.

الله وأمره ونعمه عليه. والبصير: العبد للمؤمن الذي أبصر بصرا نافعا، فوجد الله وعمل بطاعة ربه وانتفع بما آتاه الله". (١)

فقد صرحت الآية بعدم المساواة بين من ابتلاه الله بفقد البصر - لحكمة يعلمها الله - فهو لا يرى شيئا وبين البصير الذي يرى الأشياء ويميز بينها. ويصح أن يكون المراد بالأعمى والبصير المذكورين في الآية الضال والمهتدي، والجاهل والعالم، والمرضى عن الوحي الحق والمتبع له، والكافر والمؤمن، ومدعي المستحيل كالألوهية ومدعي المستقيم كالنبوة - وغير ذلك من المعاني المختلفة الواردة في التفاسير المتعددة. ودعاهم إلى التفكير في آيات القرآن الكريم الواضحة الصريحة التي لا تترك مجالاً للشك والريب في نفوس الناس، فقال "أفلا تفكرون" أي: مالكم معرضون عن استخدام عقولكم والتفكير والتدبر في القرآن للوصول إلى الحق والصدق الذي هو التوحيد والإسلام وثبوت النبي محمد ﷺ التي فيها كمال الحق وكمال الصدق. (٢)

قال أبو السعود رحمه الله في تفسير هذه الآية: "مثل للضال والمهتدي على الإطلاق، والاستفهام إنكاري. والمراد إنكار استواء من لا يعلم ما ذكر من الحقائق ومن يعلمها. وفيه من الإشارات بكمال ظهورها ومن التنفير عن الضلال والتغيب في الاهتداء ما لا يخفى". (٣)

وقال ابن عاشور رحمه الله: "تكوّنت حالة من لا يفقه الأدلة ولا يفكر بين المعاني المتشابهة بحال الأعمى الذي لا يعرف أين يقصد ولا أين يضع قدمه. وشبهت حالة من يميز الحقائق ولا يلتبس عليه بعضها ببعض بحالة القوي البصير، حيث لا تختلط عليه الأشباح، وهذا تمثيل لحال المشركين في فساد الوضع لأدلتهم وتعمق أقيستهم، ولحال المؤمنين الذين اهتموا ووضعوا الأشياء مواضعها، أو تمثيل لحال المشركين التي هم متكبرون بها والحال المطلوبة منهم التي تفروا منها، ليعلموا أي الخالين أولى بالخلق". (٤)

لقد تبه الله تعالى المشركين على ضلالهم وأنكر عليهم كفرهم بالنبي محمد ﷺ الذي جاء بالآيات الواضحة البينة التي لا يمسح الإنسان إلا الإدعاء لها، والإيمان بكونها حقا من عند الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد، ثم بين لهم أن الضال والمهتدي والكافر والمؤمن لا يستويان أبدا كما لا يستوي الأعمى والبصير، فهذا البيان من قبيل الاستشهاد بالمحسوس لإثبات غير المحسوس. ولا شك أن بين الاثنين من الفرق في الدنيا والآخرة ما لا يخفى.

وقد حققت هذه المقارنة أهدافا عدة، من أهمها: الدعوة إلى التفكير والتفكير والتدبر لمعرفة خير الفريقين، وبالتالي اتباع سبيلهم واختيار خير الأمرين من الإيمان والكفر. فمن استخدم عقله وصل لا محالة إلى كون الإيمان خير من الكفر، وكون المؤمن خير من الكافر. ومن أهداف هذه المقارنة أيضا: تقي المساواة بين المؤمن والكافر، والإنكار

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر الطوسي، ٣٧١/١١.

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب، للرازي، ٥٣٩/١٢. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي، ١٦٣/٢.

(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود، ١٣٧/٣.

(٤) التحرير والتنوير، لابن عاشور، ٢٤٣/٧.

على من يظنهما سواء، وبالتالي إثبات فضل المؤمن على الكافر، ويؤكد أنه الفرق بينهما كالفرق بين الأعمى الذي لا ينظر ولا يهتدي سبيلاً والبصير الذي ينظر ويدرك الأمور ويميز بين الخير والشر ويهتدي للسبيل الصحيح، وهذا ما لا يخفى على عاقل، فكذلك ينبغي أن يكون الفرق بين المؤمن والكافر.

٤- قال الله تعالى: ﴿أَقِمْنَ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ عَمَلِهِمْ قِرَاءَةَ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ أَلَّةَ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ ۚ إِنَّ أَلَّةَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (١).

هذه الآية فيها مقارنة غير صريحة بين الذي زين له الشيطان عمله السيئ فراه حسناً، وبين الذي لم يُزَيَّنْ له عمله السيئ باستخدام أسلوب إيجاز الحذف؛ حيث ذكر الطرف الأول وحذف الطرف الآخر. قال الدكتور الزحيلي رحمه الله: "حذف الجواب لدلالة اللفظ عليه، أي: كمن لم يزین له سوء عمله؟ وهل على المحذوف بقية الآية" (٢).

■ سياق الآية:

بين الله تعالى فيما مضى أن وعده بقيام الساعة حق لا شك فيه؛ فعلى الإنسان أن يحذر الشيطان ويتخذ حذواً له، فلا يطيعه ولا يأذن له بأن يعثره؛ وذلك لأنه يخضع الناس ويحاول أن يدخلهم النار. ثم وضع سبحانه أن الكفار لهم عذاب شديد، وأن المؤمنين لهم أجر كبير ومغفرة من الله (٣). وبعد ذلك جاءت هذه المقارنة للفرقة بين من يعمل سوءاً ظناً منه أنه يعمل حسناً، والذي يميز بين الحسنة والسيئة، فيعمل للحسنة ويجتنب السيئة.

■ تفسير الآية:

بين الله تعالى الفرق بين حذفين من الناس، وهما المحسنون والمسيئون، وأنكر المساواة بينهما فليس من عمل سيئاً كمن عمل صالحاً. فقال: هل يكون الفجار الذين زين لهم الشيطان أعمالهم السيئة من كفر وعصيان، فيرونها أعمالاً حسنة، ويعتقدون أنهم يحسنون صنعاً، كالذين لم يُزَيَّنْ لهم، بل كانوا على بينة وهدى من ربهم ويعلمون أنهم على الحق؟ والمراد بالذين زين لهم سوء عملهم كفار قريش وأمثالهم من الكفرة الفجرة في كل زمان ومكان. ثم بين الحق سبحانه أنه الهدى والضلال بيد الله وحده وبمشيئته سبحانه؛ فابلاً: إن الله يضل من يشاء إضلاله، لاستجابته الضلال وصرف اختياره إليه، ويهدي من يشاء هدايته، بصرف اختياره إلى الهدى، لما يملك من الحجة البالغة والعلم التام باستعداد النفوس للخير والشر؛ فيجيب التسليم لأمر الله تعالى وقضائه. وبعد ذلك سلك رسول الله ﷺ الذي حزن من كفر قومه وإصرارهم على الكفر والفسوق بعد رؤية الآيات والحجج، فقال له: لا تقم ولا تهلك نفسك.

(١) سورة فاطر آية ٨.

(٢) التفسير المنير، للزحيلي، ٢٢/٢٢٨.

(٣) راجع: الآيات ٥ - ٧ من سورة فاطر.

حسرة وهما على عدم إيمانهم وثباتهم على الكفر والضلال. وجمع الحسرات^(١) للدلالة على شدة اغتمامه ﷺ على أحوالهم، وكثرة قبائح أعمالهم الموجبة للتحسر والتأسف. ثم توعدهم بالكفار بالعقاب على سوء صنيعهم قائلا: إن الله عليم بهم وبما يعملون من المنكرات والقبائح، فلا تخفى عليه خافية، وسوف يجازيهم عليها بما يستحقون. وهذا الوعيد كاف لمن أدرك حقيقته.^(٢)

قال الرازي رحمه الله في تفسير هذه الآية: "الذي زين له السيئ دون من أساء وعلم أنه مسيء. فإن الجاهل الذي يعلم جهله، والمسيء الذي يعلم سوء عمله يرجع ويتوب إلى الله، والذي لا يعلم يصّر على الذنوب. والمسيء العالم له صفة ذم بالإساءة وصفة مدح بالعلم، والمسيء الذي يرى الإساءة إحسانا له صفنا ذم: الإساءة والجهل".^(٣)

لقد بيّن الله تعالى في هذه الآية الفرق بين المحسن والمسيء، وأنكر المساواة بين الذي يعمل سيئا ظنا منه أنه يعمل حسنا، والذي يدرك الحسنة من السيئة فلم يزين له الشيطان أعماله السيئة، بل يعرف الحسنات ويعملها ويرجو من الله الثواب عليها. ولا شك أنهما لا يستويان. فكما لا تستوي الحسنة والسيئة كذلك لا يتساوى المحسن مع المسيء وإن ظن أنه يعمل صالحا. قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾.^(٤)

فالذي زين له الشيطان سوء عمله يعمل السيئات ويتبع أهواءه من غير علم ولا بينة، وبحسب أنه يحسن صنعا. أما المقابل له وهو المؤمن الصالح فهو على بينة وبرهان من عند ربه، لا يتبع هواه ظنا منه أنه يحسن صنعا، بل يتبع ما أنزل الله، ويطيع أوامره ولا ينخدع بالشهوات والأهواء، ولا يغتره الشيطان لبوقعه في السيئات التي ظاهرها مزين، وباطنها يؤدي إلى معصية الله تعالى واستحقاق عقابه الأبدي. ووردت مثل هذه المقارنة أيضا في قوله تعالى: ﴿أَقَمْنِ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كُنْ زَيْنَ لَهُ سَوْءَ عَمَلِهِمْ وَاتَّبِعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾.^(٥)

فالمسيء يتبع أهواءه وأمانيه بتزيين الشيطان له الهوى والشهوات التي حجبت بها النار التي يقع بها في النهاية، أما المحسن فهو على بينة وبرهان من ربه، يعرف السيئة والحسنة في حقيقة الأمر، فيتبع أوامر الله، ويتحمل التكاليف والمكاره التي حجبت بها الجنة التي تكون مصيره في نهاية الأمر.

ومن أهم أهداف هذه المقارنة:

(١) في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾.

(٢) يُنظر: مفاتيح الغيب، للرازي، ٢٦/٢٢٤. التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي الكلبي، ٢/١٧٢. البحر المحيط، لأبي حيان، ٩/١٤ - ١٥. إرشاد العقل السليم، لأبي السعود، ٧/١٤٤ - ١٤٥. التفسير المنير، للزحلي، ٢٢/٢٣١.

(٣) مفاتيح الغيب، للرازي، ٢٦/٢٢٤، بتصرف.

(٤) سورة فصلت، آية ٣٤.

(٥) سورة محمد، آية ١٤.

(١) إيقاظ العقول ودعوتها إلى التنبير والتفكير في الفرق بين الحسنة والسيئة والخير والشر، والتمييز بينهما، ثم اتباع طريق المحسنين الذين يحبهم الله.

(٢) إثبات أن الخير والشر يكون بحكم الله وبحسب ما أخبر به الله، وليس بهوى الإنسان. فليس كل ما يظنه الإنسان حسناً فهو خير وحسن في حقيقة الأمر، وليس كل ما يظنه سيئاً يكون كذلك في حقيقة الأمر، بل ذلك تابع لأحكام الله وأوامره. قال تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ (١) ويان أن الله عليم بما يصنعون فيجازيهم عليه.

(٣) إثبات فضيلة المتبع لما أنزل الله على النبي الذي زين له سوء عمله واتباع شهواته. قال الزحيلي: "هناك فرق واضح بين المسيء والمحسن، فلا يسوى بين من زين له الشيطان عمله السيئ فأطاعه وبين من هداه الله للخير فاتباع أوامر الله". (٢)

(٤) بيان سعة علم الله وإحاطته بكل ما يصنعه البشر، والتخويف من جزائه الذي يناله البشر لا محالة، والحشد على الاستعداد للقائه.

در سورة البقرة، آية ٢١٦.

(١) التفسير المنير، للزحيلي، ٣٣٣/٢٢.

المبحث الخامس:

تسليّة النبي ﷺ والمؤمنين وبيان فضلهم على من سواهم

لقد نزلت في القرآن الكريم آيات كثيرة هدفها تسليّة النبي ﷺ والمؤمنين، وحثهم على الصبر على ما يلقونه من أذى من كفار قريش. فلم يكتف القرآن الحكيم بأمر المؤمنين بالإيمان بالله وطاعته سبحانه وتعالى والصبر على كل أنواع البلاء والأذى والشدائد التي يواجهونها في سبيل إيمانهم؛ بل اهتم بتسليتهم في كثير من المواضع، وإخبارهم بأن الله تعالى عليهم بما يصنع كفار قريش، وهو سبحانه بهم على صنيعهم.

ولعل سبب اهتمام القرآن الكريم بهذا الأمر هو أنه جاء يدين فطرة، إذ إنه يراعي عواطف الناس ومشاعرهم ولا يقضي عليها البتة، بل يهتم بضبط هذه المشاعر وتوجيهها إلى الاتجاه السليم، ولذا خفف القرآن في كثير من المواضع من حزن النبي ﷺ وأسفه الشديد على عدم إيمان قريش، وعدائهم لهذا الدين وتعرضهم له بالسب والنشتم والأذى الشديد لأصحابه.

ومن الآيات التي قصدت تسليّة رسول الله ﷺ وطمأنته قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّكَ لَإِلَهِ يَقُولُونَ ۖ قَالَهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَئِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾^(١) ومنها أيضا قوله تعالى: ﴿قَدْ كَرِهَ اللَّهُ لَكَ أَنْ تَتَمَتَّ رِبَّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مُجْتَوٍ﴾^(٢) ففي هذه الآية تسليّة للرسول الحبيب ﷺ على تكذيب الكفار له، ورميهم إياه بالكهانة والمجون، ورفع لهذه الاتهامات عنه.

وكذلك فإن الآيات التي وعد الله المؤمنين فيها بالجنة، وتوعد الكفار بالنار تتضمن فيما تتضمن تسليّة للنبي ﷺ والمؤمنين، وهذا هو شأن الآيات التي ذكرت فيها قصص الأنبياء السابقين وتكذيب أقوامهم لهم، وإهلاك الله إياهم. فهذه الآيات تشمل إلى جانب الدروس والعبر الأخرى، تسليّة للمصطفى المختار ﷺ، حين تخبره بأن هذا الكذب والافتراء لا ينحصر في قومه عليه الصلاة والسلام، بل هو شأن المكذبين في كل عصر ومصر. قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ يَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَالْزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْأُنِيرِ ۖ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾^(٣)

إن هذا الهدف يظهر في المقارنات القرآنية أيضا، حيث وردت في القرآن الحكيم مقارنات كثيرة بهدف طمأنة النبي للمصطفى عليه الصلاة والسلام، ومن معه من أصحابه المؤمنين، وتسليتهم وحثهم على الصبر على أذى قريش، وبيان فضلهم على الكفار، بسبب إيمانهم بالله تعالى، وصبرهم على الشدائد في سبيل تطبيق دينه جل وعلا.

(١) سورة الأنعام، آية ٢٣.

(٢) سورة الطور، آية ٢٩.

(٣) سورة فاطر، الآيتان ٢٥ - ٢٦.

❖ أمثلة على مقارنات تخدم هذا الهدف:

إن من الأمثلة الكثيرة على هذا النوع من المقارنات ما يلي:

١ - قال الله تعالى: ﴿لَا يَعْرَنُكَ ثَقُلُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ ۖ مَتَّعْ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ۖ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۖ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ۖ﴾ (١).

قارنت الآيات مقارنة غير صريحة بين الكفار والمتقين، وما ينالونه عند الله من الجزاء في الدار الآخرة. فأما الكفار فمصيرهم نار جهنم، وأما المؤمنون المتقون فهم ينالون النعيم المقيم نزلاً من عند الله تعالى. وتتضمن الآيات تسليية للرسول ﷺ ولأصحابه المؤمنين.

■ سياق الآيات:

جاءت الآيات بعد ذكر عدد من الأدعية التي ينبغي أن يدعو بها المؤمنون ربهم، وذكر الله بعدها أنه يستجيب للمؤمنين دعواتهم، ويتقبل منهم عباداتهم كلها، ولا يضيع أجر من عمل صالحاً سواء كان ذكراً أم أنثى، بل يوفي كل عامل أجره يوم القيامة. (٢) ثم خاطبت هذه الآيات الرسول ﷺ ووضحت له ولغيره جزاء الكفار مع جزاء المؤمنين المتقين.

■ سبب النزول:

نزلت الآية في مشركي مكة، حيث كانوا في رخاء ولين من العيش وكانوا يتجرون ويتنعمون، فقال بعض المؤمنين: إن أعداء الله فيما نرى من الخير، وقد هلكنا من الجوع والجهد؛ فنزلت هذه الآية. (٣)

■ تفسير الآيات:

خاطب الله تعالى نبيه ﷺ، والمراد من الخطاب أمته خاصة، وبالأخص كل من يمكن أن يغره حسن حال المشركين في الدنيا، ونهى الله هؤلاء جميعاً عن النظر إلى ما فيه الكافرون من السعة، والاعتزاز (٤) بما هم عليه من قوة وجاه وسلطان دنيوي، وتصرفهم في الأرض حسب مشيئتهم في الحروب والتجارات والمكاسب، ومشيمهم في البلاد

(١) سورة آل عمران، الآيات ١٩٦ - ١٩٨.

(٢) راجع: الآيات: ١٩١ - ١٩٥ من سورة آل عمران.

(٣) أسباب النزول، للواحدي، ص ١٣٩.

(٤) والغرور الإطماع في أمر محبوب على نية عدم وقوعه، أو إظهار الأمر المضّر في صورة النافع.

يُنظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، ٢٠٥/٤. التفسير الوسيط، لطنطاوي، ٣٧٩/٢.

مسيطرين عليها مستغلين لثرواتها وخيراتها. ويَبَيِّنُ أن تصرفهم هذا لن يستمر طويلا، بل سيبقى مدة قليلة يتمتعون فيها بمتاع الدنيا القليل الزائل، ثم يزول عنهم كل شيء. ووصف هذا المتاع بالقلة لقصره، ولكونه فانيا، حيث كان معدوما من الأزل وسيصير معدوما إلى الأبد، ولكونه مختلطا بالآفات والأكدار، ولأنه يؤدي إلى المضرة العظيمة، بخلاف ما للمتقين عند الله فإنه دائم لا يزول. وبعد التمتع القليل بهذا المتاع يرجعون إلى خالقهم، فيعذبهم العذاب الأكبر، وهو عذاب جنهم التي هي مأواهم ومستقرهم، وتصير مهادا لهم، وبئس المهاد جهنم. وبعد بيان عاقبة الكفار بيّن الله تعالى حسن عاقبة المتقين، وافتتح ذلك بحرف الاستدراك "لكن"، لأن مضمونها ضد الكلام الذي قبلها، فهناك مقابلة بين عاقبة الفجار وعاقبة الأخيار. فقال: إن الذين اتقوا ربهم وخافوه، ونهوا أنفسهم عن الهوى والشهوات، ليسوا كذلك، فقد أعد الله لهم جنات تجري من تحت قصورها ومبانيها وأشجارها أنهار لأنواع الشراب اللذيذ الذي يشربونه ويتمتعون به، وهم خالدون في هذا النعيم خلودا أبديا، لا انقطاع له ولا زوال. وهذه الجنات مهية لهم من عند الله على سبيل الإكرام والتشريف، كما يُعَدُّ الطعام للضيف تكريما له. وقد وضع الله أيضا وصرّح بأن ما عنده لعباده الصالحين الأبرار العاملين للصالحات خير مما عند الكافرين من متاع قليل زائل، وخير مما فيه المؤمنون في الدنيا. فأين مصير أولئك الأشرار من مصير هؤلاء الأبرار؟! (١)

قارنت الآيات مقارنة غير صريحة بين المؤمنين والكفار، وما لكليهما عند الله من الجزاء في الدار الآخرة. فالكفار يعيشون في الدنيا ويتصرفون فيها كما يشاءون، ويتقلبون في أرض الله حسب ما يريدون، ويحصلون على خيرات الدنيا ومنافعها، من المكاسب والأرباح والأموال الكثيرة وما إلى ذلك. أما المؤمنون فهم كانوا في ضيق من العيش، إذ لا يملكون ما يملكه الكفار من الأموال الهائلة، وإذا أعطاهم الله مالا لا يتصرفون فيه كما يشاءون، بل يتصرفون حسب حكم الله وإرادته.

وبعد تمتع الكفار بهذا النعيم الدنيوي يزول عنهم هذا المتاع القليل الفاني، ويكون مصيرهم النار التي يدخلونها يوم القيامة، فتصير فراشا لهم ومهادا لا يزول عنهم، ولا يحول بينهم وبينها شيء. أما المؤمنون فلهم عند الله النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، المشتمل على الجنات الواسعة التي عرضها السماوات والأرض، والتي تجري من تحت قصورها ومبانيها أنهار الماء واللبن والعسل. وهؤلاء خالدون فيها خلودا أبديا لا يخرجهم منها أحد. وهم في الجنة ضيوف الرحمن، إذ أعد الله لهم نزلا من عنده. وأول ما يُقَدَّم لهم من هذا النزل الذي أعده الله لضيوفه زيادة كبد حوت، قال ﷺ: "وَأَمَّا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فَرِزَادَةُ كَبِدِ حُوتٍ". (٢)

(١) يُنظر: المحرر الوجيز، لابن عطية، ٥٥٨/١. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي، ٥٦/٢. الباب في علوم الكتاب، لأبي حفص الحنبلي، ١٢٩/٦ - ١٣٣. التحرير والتنوير، لابن عاشور، ٢٠٥/٤ - ٢٠٧. التفسير الوسيط، لطنطاوي، ٣٧٩/٢ - ٣٨١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه مطولا، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم صلوات الله عليه وذريته، ص ٥٥٣، حديث رقم ٣٣٢٩، من حديث أنس رضي الله عنه.

ثم صرح الله تعالى بأن ما عنده من النعيم السرمدي خير لعباده الصالحين الأبرار مما فيه الكفار في الدنيا من سعة العيش ومما فيه المؤمنون من ضيق ومصاعب. وصدق الله العظيم، لأنه لا يشك أحد في أن الباقي الخالص خير من الفاني المنغص بالأكدار.

ومن الأهداف التي حققتها المقارنة:

- (١) تسلية النبي ﷺ والمؤمنين، وبيان فضلهم على الكفار في الدنيا والآخرة. قال الشيخ طنطاوي^(١): "وفي هذا تعزية للمؤمنين وتسلية لهم عما يرونه من غنى وجاه وسلطان للمشركين، وتحريض للأخبار على أن يجعلوا همهم الأكبر في العمل الصالح الذي يوصلهم إلى رضوان الله الباقي".^(٢)
- (٢) الحث على عدم النظر إلى ما عند الكفار من نعم الدنيا، وعدم التحسر على ما عند الكفار من سعة عيش، وقدرة على التصرف في البلاد حسب مشيئتهم، لأن هذا كله زائل فاني فلا ينبغي النظر إليه.
- (٣) الحث على التطلع إلى ما عند الله والاستعداد له بالإيمان والتقوى والعمل الصالح والزهد في الدنيا، حتى يكون الإنسان يوم القيامة ضيف الرحمن؛ فنعم الضيف ونعم المضيف.
- (٤) إثبات فضل المؤمن على الكافر، وفضل الآخرة على الدنيا.

٢- قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ

الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾.^(٣)

تقارن الآية مقارنة صريحة بين الشخص الذي وعده الله تعالى الوعد الحسن وهو الجنة التي أُعدت للمتقين، وبين من أعطاه الله متاع الدنيا الزائل ليستمتع به في الدنيا، ويكون يوم القيامة من المحضرين في النار. وجاءت المقارنة باستخدام أسلوب الاستفهام الإنكاري، نافية للمساواة بينهما، منكرة على من ادعى التسوية.

■ سياق الآية:

ذكر الله تعالى فيما مضى أنه أهلك كثيرا من القرى المكوبة لرسالتها، وبين أنه لم يسكن أحد مساكن هذه القرى بعد أهلها، كما صرح بأنه لا يهلك قرية إلا بعد إرسال الرسول إليها، وإقامة الحججة على أهلها، كما أنه لا يهلك

(١) هو المفسر المشهور محمد سيد طنطاوي، مفتي جمهورية مصر العربية. اشتغل بالتدريس، وكان عميدا لكلية أصول الدين وكلية الدراسات الإسلامية والعربية. حصل على الدكتوراه في التفسير والحديث من كلية أصول الدين بجامعة القاهرة. من كتبه: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، جوامع الدعاء من القرآن والسنة، معاملات البنوك، وغيرها.

يُنظر: الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير، لمجموعة من المؤلفين، ٣/ ٢١١١ - ٢١١٢.

(٢) التفسير الوسيط، لطنطاوي، ٢/ ٣٨٠.

(٣) سورة القصص، آية ٦١.

إلا الظالمين. وبعد ذلك ذكر أن ما عند الله في الآخرة خير وأبقى من متاع الحياة الدنيا الفاني وزينتها الزائلة. ثم جاءت هذه المقارنة بين فريقين أحدهما أعطي متاع الدنيا، والآخر يجد موعوده عند الله يوم القيامة. (١)

■ تفسير الآية:

بعد أن أنكر الله التشابه بين متاع الدنيا وما عند الله، ويُنْ ما بينهما من التفاوت والاختلاف، أنكر التشابه بين أهل الدنيا وأهل الآخرة، فكأنه قال: أبعد هذا التفاوت الظاهر يُسَوَّى بين الفريقين، وهما أبناء الدنيا وأبناء الآخرة. فقال تعالى: أقمن هو مؤمن مصدق بوعد الله تعالى وثوابه بالجنة على صالح الأعمال، فهو مدركه وصائر إليه لا محالة، لاستحالة الخلف في وعده تعالى، ولكونه يجتهد في سبيل الحصول على هذا الموعود بالإيمان والعمل، كمن هو كافر مكذب بقاء الله ووعدته ووعدته، فهو يتمتع بمتاع الدنيا الزائل المشوب بالنقائص والأكدار أياما قليلة، ثم يكون في الآخرة من المحضرين في النار؟! لا يستوي هذا وذاك، فمن كان يواجه الشدائد في الدنيا، وهو على دين الله، خير ممن له سعة وفرج، وهو على الشرك والكفر. (٢)

وقد بين العلامة أبو السعود رحمه الله سبب استخدام الجملة الاسمية في قوله: ﴿فَهُوَ لَقِيْهِ﴾ في قوله ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾، فقال: "جاء بالجملة الاسمية المفيدة لتحقيقه البتة ... فإثبات الجملة الاسمية للدلالة على التحقق حتما". (٣)

لا شك أنه لا مساواة بين الذي يعيش في الدنيا في ضيق وصعوبة، لكن متيقنا من وعد الله الحسن له في الدار الآخرة، ويجد ثواب إيمانه وطاعته الموعود في الآخرة في صورة الجنة ونعيمها، وبين من يتمتع بمتاع الدنيا الحقيق الفاني الزائل يوما من الأيام لا محالة، والمنغص بالأكدار والنقائص، وهو بالإضافة إلى ذلك يكون يوم القيامة من المعذبين في النار. فلا مساواة بينهما أبدا، بل لا يشك أحد في أن الأول خير وأسلم طريقا من الثاني، وإن كان يبدو في ظاهر الحياة الدنيا أنه مسرور يتمتع بنعم الله عليه في هذه الحياة الفانية. فالذي يحصل على النعيم الأبدي الموعود خير وأفضل من الذي يتمتع بمتاع ناقص زائل ويدخل العذاب الأبدي، وإن واجه الأول بعض الشدائد في حياته الفانية، فالباقى خير من الزائل، ولأجله فليعمل العاملون.

ومن الأهداف التي حققتها المقارنة:

(١) تسلية الرسول ﷺ والمؤمنين، وحثهم على الصبر على مصائب الدنيا، وعدم النظر إلى ما عند الكفار من النعيم، لأنه فاني زائل عنهم.

(١) راجع: الآيات ٥٨ - ٦١ من سورة القصص.

(٢) يُنظر: بحر العلوم، للسمرقندي، ٦١٥/٢. الكشف، للزحاشي، ٤٢٥/٣. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٢٢٤/٦. إرشاد العقل السليم، لأبي السعود، ٢١/٧. روح المعاني، للألويسي، ٣٠٦/١٠.

(٣) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود، ٢١/٧، بتصرف.

(٢) بيان فضل الرسول ﷺ والمؤمنين معه، وفضل المؤمنين بشكل عام علي الكفار من فريش والكفار من كل زمان ومكان.

(٣) الدعوة إلى الشكر والتدبر في جواب الاستفهام الوارد في الآية والنوصول إلى خير الفريقين، وبالتالي اتباع سيئلتهم، ثم الحصول علي وعد الله الحسن الذي يتظر عباده الصالحين.

(٤) الترهيد في الدنيا ومتاعها الزائل، والحث علي التطلع إلى ما عند الله، والاجتهاد في سبيل الحصول عليه.

المبحث السادس:

بيان ثبات الحق ودوامه وزوال الباطل واضمحلاله

لقد وضع الله تعالى في مواضع عدة من كتابه أن الحق ثابت دائم، وهو الذي له الظهور والنصر، وإن علا عليه الباطل لفترة من الزمان. فالبقاء الحقيقي والثبات الدائم يكونان للحق لا محالة، أما الباطل فأمره إلى زوال وفناء واضمحلال، وإن بدا له الظهور والتفوق على الحق في يوم من الأيام، أو لفترة من الزمان، لكنه في نهاية الأمر يضمحل ويذول ليأخذ الحق مكانه الحقيقي ويستقر فيه. قال الله تعالى: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ (١).

والأمثلة من وقائع التاريخ كثيرة على هذا، وهي تدل على صدق ما أخبرنا به الله سبحانه وتعالى عن زوال الباطل وثبات الحق وانتصاره. فكفار مكة كانوا على الباطل، وكان لهم الظهور والاستعلاء على المؤمنين أهل الحق الذين كانوا ضعفاء في العهد المكي، بينما كانت السيطرة والنفوذ لكفار قريش. ولكنهم في نهاية الأمر زالت عنهم تلك السيطرة والقوة والنفوذ والاستعلاء، كما هو شأن الباطل وأهله دائماً، وآلت القوة والسيطرة إلى المؤمنين الذين هم أهل الحق، وثبتت فيهم، فأحق الله الحق بكلماته على الرغم من كره الكافرين أهل الباطل له، ووقفهم ضده، وأزال الباطل وأبطله، وقطع دابر الكافرين المنتصرين له. وهكذا سوف يحدث في كل عصر، بشرط أن يعتصم المؤمنون بحبل الله ويثبتوا على إيمانهم. قال الله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَغْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٢).

والصراع بين الحق والباطل قائم منذ قديم الزمان، وقد وقعت بينهما معارك كثيرة منذ زمن سيدنا آدم عليه السلام، ولا زالت مستمرة إلى يومنا هذا. فمثلاً وقع صراع بين ابني آدم هابيل وقايل اللذين كانا يمثلان الحق والباطل (٣)، كما وقعت حروب كثيرة بين الكفار والمؤمنين زمن النبي ﷺ. وربما ينتصر أهل الباطل على أهل الحق في بعض الأحيان لبعض الأسباب كما انتصر الكفار على المؤمنين في غزوة أحد، لكن النصر الحقيقي في نهاية الأمر يكون للمؤمنين الذين هم أهل الحق.

وقد بينت المقارنات في القرآن الكريم هذه الأمور أيضاً، حيث قارنت بين الحق والباطل، ووضحت الفروق بينهما، وصرّحت بثبات الحق ودوامه، وزوال الباطل وفنائه واضمحلاله.

(١) سورة سبأ، آية ٤٩.

(٢) سورة آل عمران، آية ١٣٩.

(٣) وردت قصة هابيل وقايل في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَأْتَلَّ عَلَيْهِمُ نَبَأُ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ۖ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ إِنَّي أَخَافُ أَلَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ ۖ وَإِنْ أُرِيدُ أَنْ نَبُنِيَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ۖ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ۖ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. سورة المائدة، الآيات ٢٧ - ٣٠.

❖ أمثلة على مقارنات تخدم هذا الهدف:

ومن الأمثلة على المقارنات التي جاءت لتحقيق هذا الغرض ما يأتي:

١- قال الله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَهُ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ ۗ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ۚ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾^(١).

هذه الآية الكريمة فيها مقارنة بين الحق والباطل باستخدام أسلوب ضرب المثل. فبين الله تعالى أن الباطل مثل الزبد الذي يعلو الماء السائل في الأودية، ومثل الزبد الذي يعلو المعادن الموقدة على النار، أما الحق فهو مثل الماء ومثل المعدن الذي يبقى لينفع الناس. وكان الهدف من هذه المقارنة بيان ثبات الحق وزوال الباطل.

■ سياق الآية:

جاءت هذه الآية في سياق إقامة الحجة على عباد الله تعالى. فذكر الله تعالى أنه له دعوة الحق، وكل من سواه لا يسمعون دعاء الداعين ولا يستجيبون له، والله يسجد كل من في السماوات والأرض. ثم أمر الله نبيه ﷺ بسؤال المشركين عن رب السماوات والأرض، وتعجب من اتخاذهم أولياء من دونه لا ينفعون ولا يضررون مع اعترافهم بكون الله خالق السماوات والأرض وربهما، ثم أنكر المساواة بين الإيمان والكفر وبين المؤمن والكافر. وبعد ذلك جاءت هذه المقارنة البليغة بين الحق والباطل، لتبين حقيقة ومصير كل منهما.^(٢)

■ تفسير الآية:

ضربت الآية الكريمة مثلين للحق والباطل موضحة ثبات الحق وفناء الباطل، فقال الله تعالى: إنه أنزل من السماء مطرا، فأخذ كل واد من مياه هذا المطر بمقدار صغره وكبره، فسال مياه هذه الأودية بمقدار المياه التي وسعها الوادي، وكان فوق هذه السيول من الماء في حال نزولها زبدا يعلوه، والزبد هو خبث الماء الذي يربو ويطفو على سطح الماء. ثم ذكرت الآية أن مثل هذا الزبد والخبث يكون فوق الذهب والفضة أيضا، حينما يوقد الناس تحتها النار، لصنع أنواع الحلبي والزينة، وأيضا فوق النحاس والحديد وغيرها من المعادن التي تذاب لأجل صنع أنواع من الأمور التي ينتفع الناس بها، مثل آلات الحرب والحرث والأواني ونحوها.^(٣) وذكر ابن عاشور رحمه الله أن هذا التمثيل جاء

(١) سورة الرعد، آية ١٧.

(٢) يرجع الرجوع إلى: الآيات ١٤ - ١٦ من سورة الرعد.

(٣) قال جمال الدين القاسمي: "سر التعبير بالموصول في قوله "ومما يوقدون عليه في النار ابتيغاء حلية أو متاع" الزبد يذوب في النار به المشعر بأنه كالخطب الخسيس وصوره بحالة هي أحط بحالته"

لتقريب التمثيل لقوم لم يشاهدوا مبول الأودية من سكان القرى مثل أهل مكة، وكان لهم في مكة صواغوناء تقرب إليهم تمثيل عدم انتفاعهم بما انتفع به غيرهم بمثل ما يصهر من الذهب والفضة.^(١) ثم ذكر الغرض من بيان هذا المثل، قائلا: يمثل هذه الأمثال يبين الله الحق والباطل. ثم وضع ذلك، فذكر أن الزبد والحيت يهترق ويتمزق وتفسده الرياح، ولا ينتفع به أحد، إذ يفتى، فلا يثبت مع الماء ولا مع الذهب والفضة وهكذا يفتى الباطل ويترول. وأما الماء الصافي والمعدن الثقي، فيبقى في الأرض ويحكث، وينتفع به الناس في حياتهم، وكذلك الحق يبقى لينتفع به الناس. فالزبد، وإن علا، يذهب بطفه، أي: ضائعا يرمى به، وكذلك الباطل وإن علا الحق لفترة، لكنه في النهاية مصيره إلى زوال وهزيمة، والنصر والثبات يكون للحق، ويبقى الحق كما يبقى الماء والمعدن الصافي لضع الناس. وفي ذلك وعيد وتحذير للمشاركين بأنهم سيستهي أمرهم بالقتل. وختم الله الآية ببيان أنه هكذا يبين الأمثال للناس، فهذه الحقائق لم تذكر لمجرد تشخيص دقائق القدرة الإلهية والصنع البديع، بل ولضرب المثل.^(٢)

وقد وضع العلامة ابن عاشور هذا المثل قائلا: "شبه إترال القرآن الذي به الهدى بإترال الماء الذي به النفع والحياة من السماء. وشبه ورود القرآن على أسماع الناس بالسيل يمر على مختلف الجهات، فهو يمر على التلال والجبال، فلا يستقر فيها، ولكنه يمضي إلى الأودية والوهاد فيأخذ منه كل بقدر سعته. فيذهب الزبد غير منتفع به ويبقى الماء الخالص الصافي ينتفع به الناس... وبقدرها: حال من الأودية، وذكره لأنه من مواضع العبرة، وهو أن كانت أحاديث الأودية على قدر ما تحمله من السيول، بحيث لا تفيض عليها، وهو غالب أحوال الأودية. وهذا الحال مقصود في التمثيل، لأنه حال انجراف الماء لنفع لا ضرر معه، لأن من السيول جواحف مضرة، وفيه دلالة أيضا على تفاوت الأودية في مقادير المياه، ولذلك حظ في التشبيه، وهو اختلاف الناس في قابلية الانتفاع مما نزل من عند الله، كما تختلف الأودية في قبول الماء على حسب ما يسيل إليها من مصاب السيول.^(٣)

لا شك أنه لا يمكن التسلوي بين الحق والباطل، لأن الحق هو الذي ينتصر ويبقى ويثبت، لينتفع الناس في الدنيا والآخرة. والحق له مظاهر متعددة، فهو الإيمان الذي فيه صلاح المؤمنين في الدنيا والآخرة، وهو يمثل في أهل الإيمان والتوحيد الذين ينفعهم إيمانهم الثابت في الدنيا والآخرة، وهم ينفعون الآخرين بأقوالهم وأفعالهم، ويحكون في الأرض لمنفعة البلاد والعباد، وتبقى آثارهم بعد رحيلهم مصدر خير ونفع للناس. ويمثل الحق أيضا في الأعمال الصالحة التي يفوز بها الإنسان برضا الله تعالى ويرث الجنة. كما أن من أعظم مظاهر الحق يشمل القرآن الكريم الذي أنزله

محاسن التأويل، للقاسمي، ٢٧٧/٦.

(١) التحرير والتوير، لابن عاشور، ١١٨/١٣.

(٢) يُنظر: معالم التنزيل، للبغوي، ١٤/٣. زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي، ٢٩٦/٢. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير،

٣٨٤/٤. محاسن التأويل، للقاسمي، ٢٧٥/٦ - ٢٧٧. تفسير ماجدي، لعبد الماجد دريايادي، ط ٤، تاج كميني، لاهور، باكستان،

٢٠٠١ م، ص ٥١٦.

(٣) التحرير والتوير، لابن عاشور، ١١٦/١٣ - ١٢٢، بتصرف.

الله تعالى لهداية البشر وفائدتهم، وهو ماكت باقٍ في الأرض لينفع الناس إلى قيام الساعة. والنصر والثبات والاستقرار يكون دائما للحق بهذه المظاهر التي يشملها كلها.

أما الباطل فهو كالزبد الذاهب الزائل الذي لا خير فيه ولا منفعة، فهو وإن علا الحق لفترة، وإن انتصر أهله على أهل الحق في زمن من الأزمنة، لكن مصيره إلى الزوال والانقطاع والفناء في نهاية الأمر، وليس فيه خير ولا نفع لأحد، تماما مثل الزبد والخبث الذي يعلو الماء والمعدن. فهو في ظاهر الأمر فوق الشيء الأساسي، لكنه لا حقيقة له ولا فائدة. والباطل أيضا له مظاهر مختلفة، فهو يتمثل في الشرك والكفر اللذين لا خير فيهما للعباد في الدنيا ولا في الآخرة، كما يتمثل في أهل الشرك والكفر الذين لا نفع فيهم لأنفسهم ولا منفعة فيهم لغيرهم، بل هم مصدر ضرر لأنفسهم ولغيرهم؛ حيث يصيرون إلى سخط الله تعالى والنار، ويقودون غيرهم إليهما. والباطل يشمل أيضا الشبهات والافتراءات الباطلة المثارة حول القرآن ودين الإسلام، وهي تظهر وتعلو فترة من الزمن وينخدع بها الناس، لكنها في نهاية الأمر تضمحل وتزول ويظهر زيفها، ويبقى القرآن هو الحق الثابت النافع للناس.

ومن الأهداف التي حققته المقارنة:

- (١) بيان ثبات الحق ودوامه واستقراره، وزوال الباطل وفنائه واضمحلاله.
- (٢) تسلية المؤمنين وحثهم على الصبر عند رؤية الباطل يعلو الحق. قال البغوي رحمه الله: "هذا تسلية للمؤمنين، يعني: أن أمر المشركين كالزبد يرى في الصورة شيئا وليس له حقيقة، وأمر المؤمنين كالماء المستقر في مكانه له البقاء والثبات".^(١)
- (٣) بيان مصارعة الباطل للحق ومصاحبتة الدائمة له، ووجودهما معا في كل زمان. فكما أن الزبد يصاحب الماء والمعدن، كذلك يبقى الباطل مع الحق يصارعه حتى يزول ويفنى في نهاية الأمر.
- (٤) الحث على نفع الناس وإيصال الخير لهم، لأن ما ينفع الناس يمكث ويبقى في الأرض.
- (٥) الدعوة إلى التفكير والتدبر لإدراك الفرق بين الحق والباطل، والتزام سبيل الحق والبقاء مع أهله.

٢- قال الله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾.^(٢)

هذه الآية فيها مقارنة غير صريحة بين الحق والباطل، لبيان أن الحق يعلو حتما ويبقى، وله النصر وإن تأخر مجيئه، أما الباطل فهو زاهق وزائل، وهذا هو مصيره دائما.

(١) معالم التنزيل، للبغوي، ١٤/٣.

(٢) سورة الإسراء، آية ٨١.

■ سياق الآية:

أمر الله نبيه ﷺ بإقامة الصلاة، وقراءة القرآن الكريم وقت الفجر، وأمره بالتهجد في الليل نافلة له ليعتبه الله تعالى المقام المحمود يوم القيامة، كما أمره أن يدعو الله أن يدخله مدخل صدق، ويخرجه مخرج صدق، ويجعل له سلطاناً نصيراً. ثم أمره في هذه الآية ببيان الفرق بين الحق والباطل، بعقد مقارنة بينهما.^(١)

■ تفسير الآية:

أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأن يعلن بوضوح وصراحة، تهديداً ووعيداً للمشركين، أن الحق قد أتى من عند الله لا شك فيه ولا مرية، حيث سطع نور الإسلام وضياؤه، وهلك الباطل - وهو كل ما لا تنال به غاية نافعة - واضمحل هو وأنصاره. فالباطل لا استقرار له ولا ثبوت ولا بقاء له مع الحق، إذ يضمحل ويتلاشى دائماً، وإن كانت له صولة وجولة، فإنه يتلاشى كشعلة النار تشتعل ثم تنطفئ سريعاً، وهذا هو شأنه في كل زمن، فلن تبق الآن وثنية ولا شرك مع نور الإيمان والتوحيد. وقد وردت للمفسرين أقوال في الحق والباطل، فقالوا: هو القرآن والشيطان، والجهاد والشرك، والإيمان والكفر، والتوحيد والشرك، وعبادة الله وعبادة الشيطان. والصحيح أن الحق والباطل في الآية على عمومها، إذ يشملان كل هذه المعاني. قال ابن عطية رحمه الله: "والصواب تعميم اللفظ بالغاية الممكنة، فيكون التفسير: جاء الشرع بجميع ما انطوى فيه، وزهق الكفر بجميع ما انطوى فيه".^(٢)

ونزلت هذه الآية بمكة، حيث وعد الله رسوله فيها بالنصر والغلبة ووفى بوعده يوم فتح مكة، فتلاها النبي ﷺ يوم الفتح. فقد روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: "دخل النبي ﷺ مكة وحول البيت ستون وثلاث مائة نصب فجعل يطعنها بعود في يده، ويقول: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾".^(٣) ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾".^(٤) (٥)

إن الحق في الآية الكريمة يشمل كل أنواع الحق بما فيها الإسلام والإيمان والقرآن والأعمال الصالحة المرضية لله وما إلى ذلك، كما تشمل أهل الحق الذين هم المؤمنون الثابتون على الصراط المستقيم، كما أن الباطل يشمل كل أنواع الباطل بما فيها الكفر والشرك واللهو واللعب والطواغيت والأصنام وأعمال الفسق والفجور ونحوها من مظاهر الباطل. هذه المظاهر للباطل كلها لا ثبات لها أمام الحق بجميع مظاهره، فإذا جاء الحق ظهر وعلا، وزال الباطل.

(١) يرجع الرجوع إلى: الآيات ٧٨ - ٨١ من سورة الإسراء.

(٢) المحرر الوجيز، لابن عطية، ٤٨٠/٣. ويُنظر: مدارك التنزيل، للنسفي، ٢٧٣/٢. البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان، ١٠٣/٧.

بيان القرآن، للتهانوي، ٣٨٨/١ - ٣٨٩. التفسير المنير، للزحيلي، ١٥/١٤٠، ١٥/١٤٨ - ١٤٩. صفوة التفاسير، للصاوي،

ط ٢، دار الصابوني للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، ١٥٨/٢.

(٣) سورة الإسراء، آية ٨١.

(٤) سورة سبأ، آية ٤٩.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب: "وقل جاء الحق وزهق الباطل"، ص ٨١٧، رقم ٤٧٢٠.

وانمحي واضمحل وفني، ولم يثبت ولم يستقر إلا الحق وأتباعه. قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾^(١).

إن من أهم الأهداف التي سعت هذه المقارنة إلى تحقيقها ما يلي:

- ١) التصريح بثبات الحق واستقراره الدائم، وفناء الباطل وانقطاعه واضمحلاله في كل عصر ومصر.
- ٢) الحث على قراءة هذه الآية المباركة عند تغلب أهل الحق على أهل الباطل تحديثاً بنعمة الله تعالى وشكراً له على النصر والغلبة.
- ٣) التأكيد على عدم تمكن الباطل من مواجهة الحق والتغلب عليه لفترة طويلة.
- ٤) تسلية المؤمنين وحثهم على عدم التحسر عند رؤية الباطل يعلو الحق، لأنه يضمحل في النهاية لا محالة، ويعلو الحق ويثبت.

(١) سورة الأنبياء، آية ١٨.

الباب الثالث: الدراسة التطبيقية لمواضع المقارنات في القرآن

وفيه:

- الفصل الأول: المقارنات من أول القرآن الكريم إلى آخر سورة الكهف.
- الفصل الثاني: المقارنات من أول سورة مريم إلى آخر القرآن الكريم.

◆ مدخل:

لقد ذكرتُ فيما مضى أن القرآن الكريم استخدم أساليب كثيرة متنوعة، صريحة وغير صريحة في عقد المقارنات بين شتى الأمور، وتم تفصيل القول في هذه الأساليب مع ذكر الأمثلة عليها في الباب الأول. وقد وضحتُ أيضاً أن هذه المقارنات البليغة والكثيرة التي وردت في القرآن الكريم واشهرت في ثنايا سورة وآياته، سعت إلى تحقيق أهداف وأغراض كثيرة، من أهمها: تصحيح العقائد، والدعوة إلى الإيمان بالله وتوحيده، وإقامة الحجة على الفباد، والدعوة إلى إنقاذ العقول وتوجيهها نحو التدبر والتفكير للوصول إلى الصواب، وغيرها من الأهداف الكثيرة التي تم ذكرها مع أمثلتها في الباب الثاني من هذه الدراسة.

وبتعيين هذه الأساليب للمقارنات، واستخراج الأهداف منها، نكون قد وضعنا قواعد وأصول ندرس في ضوءها المقارنات المنتشرة في القرآن الكريم كله، بحيث يتم في هذه الدراسة تطبيق ما ذكر في البابين الأول والثاني من الأساليب والأهداف، والتي تم تفصيلها فيما مضى. فإني سأقوم في هذا الباب بتتبع مواضع المقارنات الموجهة في القرآن الكريم من أول القرآن إلى آخره، وأوضح وجه المقارنة فيها، كما أيقن أسلوب كل مقارنة وهدفها في ضوء الدراسة النظرية السابقة. ويكون ذلك بحسب ترتيب السور في القرآن الكريم من أوله إلى آخره، بتوزيع المقارنات إلى فصلين: الأول من القرآن في فصل ونصفه الآخر في فصل آخر. ويكون توزيع السور على مباحث هذين الفصلين وفق مواضع المقارنات الواردة في السور، حتى تبقى المباحث متوازنة في الطول والحجم.

الفصل الأول: المقارنات من أول القرآن الكريم إلى آخر سورة الكهف

وفيه:

- المبحث الأول: المقارنات من أول القرآن إلى آخر سورة البقرة.
- المبحث الثاني: المقارنات من أول آل عمران إلى آخر سورة الأنعام.
- المبحث الثالث: المقارنات من أول سورة الأعراف إلى آخر سورة هود.
- المبحث الرابع: المقارنات من أول سورة يوسف إلى آخر سورة الكهف.

المبحث الأول:

المقارنات من أول القرآن الكريم إلى آخر سورة البقرة

١- قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۝ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ۝ يُخَذِّعُونَ اللَّهَ وَلِذِينَ يَقُولُ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ۖ﴾ (١).

وردت هذه الآيات في بداية سورة البقرة، إذ ذكر الله تعالى أن هذا الكتاب الذي أنزله من عنده ليس فيه شك ولا ريب، وفيه هدى للمتقين. (٢) ثم ذكر صفات المتقين في هذه الآيات، وأتبعها بذكر صفات أضدادهم وهم الكفار والمنافقون.

■ نظرة تفسيرية:

بدأت الآيات الكريمة بصفات المؤمنين المتقين، فذكر الله سبحانه وتعالى عنهم أنهم يصدقون تصديقا جازما بكل ما غاب عنهم، ولا يدرك بالحواس الخمسة، كالله سبحانه وتعالى، وملائكته، والجنة والنار وما إلى ذلك، كما أنهم يؤمنون إذا غابوا وخلوا بأنفسهم، على العكس من المنافقين. ويؤدون الصلوات بخشوع في أوقاتها، مع مراعاة أركانها وشروطها وآدابها، وينفقون مما آتاهم الله تعالى من مال وعلم وغيرهما من أنواع الرزق؛ حيث يتصدقون من ما لهم في وجوه البر والخير، ويؤدون الصدقات الواجبة والمستحبة، ويعلمون غيرهم مما عندهم من العلم وغير ذلك. ومن صفاتهم أيضا أنهم يصدقون بالوحي الذي أنزل إلى الرسول محمد ﷺ، وهو القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ويصدقون بما أنزل الله تعالى على من قبله من الأنبياء والرسل، ويؤمنون بالحياة الآخرة، وما فيها من بعث وحساب وجزاء، يقينا جازما لا يمكن أن يدخله شك ولا ريب. ثم ذكر الله تعالى أن هؤلاء الموصوفين بهذه الصفات الخمسة هم على نور الهداية من رحم جل وعلا، إذ هداهم الله للإيمان والعمل الصالح، ووهبهم الاستقامة عليه، وهم الفائزون

(١) سورة البقرة، الآيات: ٣ - ١٠.

(٢) راجع: الآيات ١ - ٢ من سورة البقرة.

بالمطلوب، وهو الجنة ودرجاتها العالية والنجاة من النار يوم القيامة. ثم ذكر الله صفات الكفار لعقد مقارنة بين أهل الإيمان وأهل الكفر، فقال الله عنهم: إن الذين كذبوا بالله وجحدوا بما جاءت به رسله عنه لا فائدة من إنذارهم، حيث يستوي عندهم الإنذار - وهو التخويف من عاقبة الكفر والظلم والفساد - وعدمه، لأنهم لا يتأثرون به، فقلوبهم مغلقة، قد طبع الله عليها حتى لا تفقه، كما طبع على آذانهم حتى لا تسمع، وجعل الغشاوة على أعينهم حتى لا تبصر؛ وذلك بسبب تكبرهم وعنادهم وإصرارهم على الكفر، ولهم العذاب العظيم الشديد يوم القيامة، واستحقوه بسبب كفرهم بالنبي ﷺ. وبعد بيان صفات الكفار ذكر الله تعالى صفات صنف ثالث وأحواله، وهو المشتمل على المنافقين، قائلا: ومن الناس من يقول صدقنا بالله، وأما بكونه ربا وإله سواه، وصدقنا بالبعث والجزاء يوم القيامة، وهم في الحقيقة ليسوا بمؤمنين، وإن تظاهروا بالإيمان، لأنهم يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر في قلوبهم، وبذلك يحاولون أن يخدعوا الله والمؤمنين، وهم في حقيقة الأمر لا يخدعون إلا أنفسهم؛ لأن عاقبة خديعتهم لا تعود إلا على أنفسهم، وهم لا يعلمون ذلك، ولا يشعرون به. هؤلاء الناس في قلوبهم مرض الشك والنفاق وفساد العقيدة، فزادهم الله في هذا المرض، ولهم عذاب مؤلم يوم القيامة، بسبب كفرهم وتكذيبهم.^(١)

■ وقفة مع المقارنة:

قارن الله تعالى في هذه الآيات الكريمة بين المؤمنين المتقين وبين أضدادهم من الكفار والمنافقين، مقارنة غير صريحة بذكر صفات الأصناف الثلاثة. فذكر أولا صفات المؤمنين، وهي، الإيمان بالغيب، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإنفاق في الصدقات المستحبة، والإيمان بالكتاب المنزل على رسول الله ﷺ والكتب المنزلة على الأنبياء قبله، والإيمان اليقيني الذي لا شك فيه ولا مرية بالآخرة. وبين الله تعالى أن أصحاب هذه الصفات هم المفلحون، وهم على نور الهداية من ربهم، لتقواهم وطاعتهم له. أما الكفار فبسبب إعراضهم المستمر عن الله تعالى وتكذيبهم الدائم لآياته، سلب الله منهم الهداية، وختم على قلوبهم وسمعهم، وجعل على أبصارهم غشاوة، بسبب علمه بعدم استعدادهم للإيمان، ولهم الحية والخسران والعذاب العظيم في الآخرة. وكذلك المنافقون يقولون بألسنتهم أنهم مؤمنون بالله تعالى واليوم الآخر، ولكن إيمانهم ليس مثل إيمان المؤمنين اليقيني بالغيب، بل هو دعوى باللسان فقط، وهم في الحقيقة ليسوا بمؤمنين، بل إنهم يحاولون بإظهار الإيمان مخادعة الله والمؤمنين، ولكن جزاء خديعتهم لا تعود إلا عليهم. فهم بخلاف المؤمنين ليس في قلوبهم اليقين الذي يبعثهم على الاستعداد للآخرة، بل في قلوبهم مرض الشك والنفاق، فزادهم الله في هذا المرض، وهو سيجازيهم بالعذاب المؤلم الموجه يوم القيامة.

وبالجملة فإن المؤمنين مؤمنون بالقلب واللسان، وعلى الهداية في الدنيا، وفي الجنة في الآخرة. والكفار كافرون بالقلب واللسان، محتوم على قلوبهم وأسماعهم في الدنيا، ولهم العذاب العظيم الشديد يوم القيامة. والمنافقون مؤمنون باللسان كافرون بالقلب، مريضة قلوبهم، ولهم العذاب المؤلم في الآخرة.

(١) يُنظر: المحرر الوجيز، لابن عطية، ٨٤ - ٩٢. التفسير المنير، للزحيلي، ٧٣/١ - ٨٢. أيسر التفاسير، للجزائري، ٢٠/١ -

لقد حققت هذه المقارنة عدة أهداف، منها:

- (١) الحث على الإيمان، واتباع سبيل المؤمنين، والاتصاف بصفاتهم، للظفر بالمطلوب في الدنيا والآخرة.
- (٢) التحذير من اتباع سبيل الكفار والمنافقين، والإصرار عليه، والتخويف من عاقبتهم الوخيمة.
- (٣) تسلية الرسول ﷺ، وبيان أن عاقبة صنيع الكفار والمنافقين تعود عليهم ولا ذنب له في عدم إيمانهم. قال الزحيلي رحمه الله: "فيه تسلية للنبي ﷺ عن تكذيب قومه له، فلا تحسر عليهم ولا طمع في إيمانهم، ولا لوم عليه فيهم".^(١)

(٤) التحذير من الكذب والخيانة والخديعة، وبيان أنها من صفات المنافقين، والحث على الاتصاف بصفات المؤمنين المناقضة لها، وهي: الصدق، والإخلاص، والثبات، والاستقامة على الحق.

٢- قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ۗ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ ۖ وَأَنُوتَا بِهِ مُتَشَابِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.^(٢)

ورد في الآيات السابقة ذكر لبعض مظاهر نعم الله تعالى على عباده، وأمرهم بعبادته وحده لا شريك له، كما جاء تحذير الكفار بالإتيان بسورة مثل القرآن الكريم بمساعدة من شاءوا أخذ المساعدة منه. ثم بيئت هذه الآيات أنهم لم يقدرُوا على ذلك، ولن يقدرُوا عليه أبداً، وقد توعدت هذه الآيات الكفار بالنار، وقرنته بوعده المؤمنين بالجنة كما هي عادة القرآن الكريم.^(٣)

■ نظرة تفسيرية:

خاطب الله تعالى الكفار، وقال لهم: إنكم إذا اجتهدتم في معارضة القرآن، وعجزتم جميعاً عن الإتيان بما يساويه ويدانيه ولم تأتوا بمثل سورة منه، ولن تفعلوا ذلك أبداً، ظهر أنه معجز، والتصديق به واجب، فآمنوا به واتقوا النار التي حطبها التي توقد به الناس والحجارة^(٤)، وهذه النار هيها الله وأعدّها لتعذيب الكافرين به وبرسوله. وبعد أن ذكر ما أعدّه لأعدائه من الأشقياء الكافرين به وبرسله من العذاب والحزى، ذكر حال أوليائه من السعداء المؤمنين

(١) التفسير المنير، للزحيلي، ٧٨/١.

(٢) سورة البقرة، الآيتان ٢٤ - ٢٥.

(٣) راجع: الآيات ٢١ - ٢٥ من سورة البقرة.

(٤) والحجارة كما ذكر المفسرون تشمل أحجار الكبريت الشديدة الاشتعال، والأصنام التي صنعها الكفار وعبدوها من دون الله طمعاً في نيل الشفاعة.

به وبرسله الذين صدقوا إيمانهم بأعمال صالحة حسنة. فأمر الله رسوله بأن يشرهم^(١) بأن لهم جنات تجري من تحت أشجارها وغرفها الأنهار، يرزقون فيها بأنواع الثمار الطيبة، وكلما يُطعمون فيها من ثمارها، يقولون هذا الذي أكلنا مثله من قبل في الدنيا لو في الجنة لأن طعامها مثاليه في الصورة والاسم، يختلف في الطعم. ولهم في الجنة أيضا أزواج مطهرة من كل ما يستقذر ويذم من النساء. ومن تمام السعادة أنهم خالدون دائمون في هذا المقام الأمين، لا موت فيه ولا انقطاع لنعيمه، بل هو سرمدي موجود على الدوام لا خروج منه.^(٢)

■ وقفة مع المقارنة:

هاتان الآيتان فيهما مقارنة بين أهل الجنة من المؤمنين وأهل النار من الكفار. فالكفار لهم النار التي تتوقد بالناس الداخلين فيها، وبالجملة التي تزيد من حرها وبها، وبالأصنام التي تزيد من حمرة أهل النار وتكتمهم على عبادتهم إياها، وهي مهينة جاهزة تنتظر الكفار المكذبين بالله وبرسله مع أنواع من العذاب المؤلم. أما المؤمنون العاملون الصالحات، فلهم نعيم الجنات التي فيها أنهار جارية، يتلذذون برؤيتها والشرب منها، وفيها الثمار الكثيرة التي تشبه ثمار الدنيا في الأشكال والأسماء فقط، إذ هي لذ وأطيب بكثير مما في الدنيا، ولهم الأزواج المطهرة من جميع أنواع القذر والأذى، وهم خالدون في هذا النعيم السرمدي لا خروج منه ولا زوال له. وجاءت هذه المقارنة بأسلوب غير صريح، وذكرت فيها صفات للمؤمنين وما لهم بقدر من التفصيل، في حين ذكر ما للكفار باختصار، ليفهم الباقي من السياق وما ذكر للمؤمنين. فالكفار محرومون من هذا النعيم الذي يتمتع به المؤمنون، وكل ما لهم هو العذاب والإهانة والخزي.

ومن أهم أهداف هذه المقارنة: الدعوة إلى الإيمان بالله تعالى، وبالكتاب الذي نزل على رسوله والذي هو حق لا شك فيه، ولا يمكن لأحد الإتيان بمثله أبدا. ومن أهدافها أيضا: التحذير من الكفر والتكذيب، والتخويف من عقابه الشديد، والتشويق للجنة والعمل والسعي لأجل التمتع بما فيه من أنواع النعيم الدائم من المأكولات والمشروبات وصحبة الأزواج المطهرة الصالحة وغيرها من أنواع النعيم.

٣- قال الله تعالى: ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾.^(٣)

وردت هذه المقارنة على لسان سيدنا موسى عليه السلام الذي طلب منه قومه أن يدعو الله أن يرزقهم مما تنبت الأرض من البقل والقوم والعنبر والبصل، لأنهم لا صبر لهم على نوع واحد من أنواع الطعام، وهو الحن والسلوى،

(١) والبشارة هي الخبر السار، وأصله من البشارة، لأن الإنسان إذا فرح وأخبر يظهر أثر سروره في البشارة.

ينظر: الكشف والبيان، للعلامة، ١/٢٦٩. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي، ١/٥٩. الصحاح، للجوهري، ٢/٥٩٠.

(٢) ينظر: الكشف والبيان، للعلامة، ١/٢٦٩ - ١٧٢. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي، ١/٥٨ - ٦١. تفسير ابن كثير،

١/١٠٨ - ١١٤.

(٣) سورة البقرة، الآية ٦١.

حيث سمعوا منه، ويريدون الآن أنواعا أخرى من المأكولات. فأنكر عليهم سيدنا موسى عليه السلام ذلك، ووضع لهم أن الذي عندهم خير مما يطلبون.^(١)

■ نظرة تفسيرية:

خاطب سيدنا موسى عليه السلام بني إسرائيل، وقال لهم منكرا عليهم: أتسألون لأنفسكم الذي هو أقرب منزلة وأحط قدرا، سهل المثال وسهل الحصول، لعدم كونه مرضويا فيه، وكونه مرذولا قليل القيمة، بمقابل ما هو خير وأفضل وهو المن والسلوى؟؟ ومعنى عيرية هذا المأكول (المن والسلوى) غلاء قيمته، وطيب لذته، والنفع الكبير في أكله، وعدم المشقة في الحصول عليه والخلو من الشبهة في كونه حلالا. وفي الاستبدال للخير بالأدنى إشارة إلى حماقتهم وسوء اختيارهم، والاستفهام للإنكار، وفيه أيضا توبيخ وزجر شديد لهم.^(٢)

■ وقفة مع المقارنة:

قارنت الآية الكريمة بين نوعين من الطعام مقارنة صريحة باستخدام أسلوب الاستفهام الإنكاري، حيث أنكر سيدنا موسى عليه السلام على بني إسرائيل طلب الخضراوات، من القثاء والثوم والبصل والعسل وغيرها مما تخرج الأرض، بدلا من المن والسلوى النازل عليهم من السماء. فبين لهم سيدنا موسى أن المن والسلوى خير وأعلى منزلة من هذه الأنواع التي يطلبونها.

وأسباب فضيلة المن والسلوى على تلك الأنواع ظاهرة، منها: أنه نازل عليهم من السماء من عند الله يحصلون عليه دون أدنى تعب ومشقة، أما ما تخرج الأرض فهم يتعبون في زرعه، ثم رعايته حتى ينبت وينضج، ثم قطفه وطبخه وأكله، وكل ذلك فيه جهد ومشقة، ولا يمكن أكله دون بذل هذه الجهود. ومنها أيضا: أن المن والسلوى من النعم التي خصهم الله بها دون سائر الأمم، وما طلبوه يأكله الجميع من غير تخصيص قوم دون قوم. وبما يثبت أهمية المن والسلوى وفضله على ما طلبوه أيضا أن السلوى من أنواع اللحوم، واللحم أفضل وأعلى شأنا من الخضراوات، ويدل على ذلك غلاء سعره في كل الأزمنة والأمكنة، كما يدل على ذلك أن أنواع الطعام المذكورة لأهل الجنة فيها ذكر لأنواع اللحوم (مثل لحم الطير^(٣) وكبد الخوت^(٤))، وليس فيها ذكر للقمم والعسل والبصل وغيرها من أنواع ما طلبوه من الخضراوات. لهذه الأسباب وغيرها كان المن والسلوى أفضل وخيرا مما طلبه بنو إسرائيل.

(١) راجع: الآية ٦٦ من سورة البقرة.

(٢) يُنظَر: (إرشاد العقل السليم، لأبي السعدي، ١/١٠٧. روح المعاني، للألبوسي، ١/١٧٥ - ٢٧٦، التحرير والتنوير، لابن عاشور، ٥٢٣/١).

(٣) قال الله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾. سورة الواقعة، آية ٢١.

(٤) قال رسول الله ﷺ: "وَلَمَّا أَوَّلَ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فَرِيذَةُ كَبِدِ خَوْتٍ".

لترجمه البخاري في صحيحه مطولا، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم صلوات الله عليه وذريته، ص ٥٥٣، حديث رقم ٣٣٣٩، من حديث أنس رضي الله عنه.

ومن أهم الأهداف التي حققتها المقارنة: بيان خيرية المن والسلوى الفازل من السماء على ما تثبت الأرض من أنواع الطعام، وإن كان الكل من نعم الله وفي الجميع خير وفائدة للبشر. ومنها: الحث على شكر الله تعالى على نعمه التي أنعم بها على عباده، والقناعة بما وهب الله الإنسان منها.

٤ - قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١).

وردت الآية الكريمة في سياق الحديث عن اليهود وبيان أحوالهم السيئة، فقبل للمؤمنين: أنطمعون في إيمانهم وفيهم من يحرف كلام الله بعد فهمه وعلمه. لم يثبت هذه الآية حالهم مع المؤمنين وحالهم عند الخلوة مع أوليائهم. (٢)

■ نظرة تفسيرية:

تحدث الآية عن منافقي اليهود الذين كانوا يأمرؤن الناس بالر وبنسون أنفسهم، فقالت عنهم: إنهم إذا لقوا للمؤمنين المخلصين من أهل المدينة، قالوا لهم: صدقنا بأن رسولكم هو المبشر به في التوراة، وآمنا به كإيمانكم، وذلك قولاً بالاستهتة وليس في قلوبهم شيء من الإيمان. أما إذا رجعوا إلى رؤسائهم وأشرافهم وخلوا معهم لا موهم على ذلك، وقال بعضهم لبعض: أتحدثونهم بما علمه الله وبيته لكم في التوراة أن محمداً حق وقوله صدق، ليحاضكم أصحاب محمد يوم القيامة، ويحتجوا عليكم، فيقولوا: قد أقرتم بصدق محمد وصدقتم بأنه هو النبي الذي بشرت به التوراة ومع ذلك كفرتم به ولم تتبعوه. ويصح أن يكون المراد أنه يقول بعضهم لبعض في الخلوة: أنظفرون لهم الإيمان وتجهروهم أنكم مثلهم فيكون ذلك حجة لهم عليكم، فيقولوا: إنهم قد أقروا بأن ما نحن عليه حق وما هم عليه باطل، فيحتجون عليكم بذلك عند ربكم. ويوبخ بعضهم بعضاً أيضاً على عدم تعقلهم قائلين: أفلا يكون لكم عقل، فتتركون ما هو حجة عليكم؟ (٣)

■ وقفة مع المقارنة:

فارتبت الآية بين حال المنافقين من اليهود أمام المؤمنين وعند خطوتهم مع أصحابهم مقارنة غير صريحة، فيثبت تناقض أحوالهم في المقامين. فهم عند لقاء المؤمنين يدعون الإيمان بالاستهتة، مع أنهم لا علاقة لهم بالإيمان الصحيح الخالص، إذ إنهم كفار في حقيقة الأمر. وتظهر حقيقةهم هذه عندما يخلو بعضهم مع بعض، فيقولون فيما بينهم: لماذا تحدثون المؤمنين بما فصح الله عليكم وبيته لكم، وتتركون لهم الحجة عليكم عند الرب سبحانه وتعالى، ويدعو بعضهم بعضاً

(١) سورة البقرة، الآية ٧٦.

(٢) راجع الآيات ٧٥ - ٧٦ من سورة البقرة.

(٣) يحظر: معالم التنزيل، للبغوي، ١/ ١١٣ - ١١٤. التفسير المظهر، للقاضي تاء الله، ١/ ٨٦ - ٨٧. تفسير الكرم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي، ص ٥٦.

إلى العقل وعدم فعل ذلك. والعقل عندهم هو الكفر مع أن الكفر تقيض العقل، لأن من استخدم عقله استخدمها صحيحا وصل إلى الإيمان لا محالة.

ومن أهم الأهداف التي سعت للمقارنة إلى تحقيقها: الكشف عن سوء حال اليهود وإظهار حقيقتهم أمم للزمنين، ليأخلوا حذرهم منهم، ويحفظوا في التعامل معهم. وكذلك التحذير من اتباع طريقهم في الحياة، والدعوة إلى الثبات على موقف واحد من الإيمان، والاستقامة عليه.

٥- قال الله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾^(١).

وردت هذه الآية أيضا في سياق الحديث عن اليهود وقضايلهم، فخطبهم الله تعالى في الآيات السابقة قائلا: إن كنتم ترعون أن النار الآخرة خالصة لكم فتمنوا الموت. ثم بين أنهم لن يتمنوه أبدا، بسبب ما قلعت أيديهم من الأعمال الحسنة، وهم حريصون على الحياة الدنيا محبوب لها.^(٢)

■ نظرة تفسيرية:

يقول الله تعالى مخاطبا رسوله ﷺ: لتجدن اليهود أشد الناس حرصا على الحياة في الدنيا، وأشدهم كراهية للموت، فهم أحرص من جميع الناس، وأحرص من المشركين الذي لا يؤمنون بالبعث والجزاء على الحياة، بحيث يتمنى أحدهم لو يعيش في هذه الحياة ألف سنة، مع أن طول العمر لا ينتجيه ولا يبعده من عذاب الله، بل ولا يؤثر فيه أقل تأثير؛ لأنه لا يلد للعمر، وإن طال، من نهاية، ومصير الإنسان في آخر الأمر إلى الله. واليهود يكرهون الموت بسبب علمهم بما أعد الله لهم في الآخرة على كفرهم من الخزي والهوان. ثم ذكر الله أنه بضر علم بما يعملون، لا يخفى عليه شيء من أعمالهم، بل هو محيط بها، وعالم بنياتهم، وسيجازيهم عليها يوم القيامة. وأقر المشركين بالذكر للدلالة على تمييزهم من بينهم بشدة الحرص، للمبالغة في توبيخ اليهود، فإن في كونهم أكثر حرصا من المشركين على الحياة مع اعتناقهم بالجزاء وإنكار المشركين له، دليل على معرفتهم بمصيرهم إلى النار.^(٣)

■ وقفة مع المقارنة:

قارنت الآية الكريمة بين حرص اليهود على الحياة الدنيا وحرص سائر الناس والمشركين منهم بشكل خاص عليها، مقارنة صريحة مباشرة، باستخدام صيغة "أفعل" التفضيل. فبيّنت أن اليهود أحرص من جميع الناس ومن المشركين على الحياة الدنيا، وأشدهم كراهية للموت، وهم أكثر الناس حبا لطول العمر مع ادعائهم الإيمان بالله واليوم الآخر. فهم بدل أن يستعملوا للآخرة ولقاء الله تعالى يودون العيش طويلا في هذه الحياة، ويتمنى أحدهم أن يعيش في الدنيا

(١) سورة البقرة، الآية ٩٦.

(٢) راجع: الأيتان ٩٤ - ٩٥ من سورة البقرة.

(٣) يُنظر: جامع البيان للطبري، ٣٦٩/٢ - ٣٧٦. تفسير القرآن، للسماعاني، ١/١١١. مجازي التأويل، للقاسمي، ١/٣٥٥ - ٣٥٦.

ألف سنة ولا يأتيه الموت، لأنه يعلم أن له الخزي والهوان والعذاب عند الله تعالى. وهم في ذلك أشد حماقة من المشركين الذين لا يؤمنون أصيلاً بالبعث والجزاء، ومع ذلك أقل حرصاً على الحياة الدنيا منهم. وبين الله تعالى أن طول العمر لا ينجي اليهود من العذاب الذي أعدّه الله لهم، فلو عاش الإنسان ألف سنة أو أكثر منها سيموت ويلقى الله تعالى في يوم من الأيام، والله عالم بصير بأعماله كلها، وسيجازيه عليها.

حققت هذه المقارنة عدة أهداف، منها: بيان حرص اليهود على الحياة الدنيا، وحبهم الشديد لها وكرههم للموت. وبيان أن طول العمر لا يغني عن الله شيئاً، وللموت آت لا محالة. ومن أهدافها أيضاً: الحث على الاستعداد للدار الآخرة ولقاء الله تعالى والعمل لأجل النجاة من العذاب الأبدي، فمجرد تمني الحياة الطويلة لا يجدي شيئاً، وكذلك فإن في المقارنة توبيخ لليهود على كونهم أحرص من المشركين على الحياة، مع ادعاء الإيمان بالله والآخرة.

٦- قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَهْدُوا حُبًّا لِلَّهِ﴾. (١)

جاءت هذه الآية الكريمة بعد ذكر بعض مظاهر قدرة الله تعالى الدالة على وحدانيته، وعلى إنعامه على عباده ورعايته لهم، فذكر الله أن في خلق السموات والأرض والفلك وإنزال المطر من السماء وتصريف الرياح آيات للمؤمنين يعقلون. وهذه النعم مما يبعث في النفس محبة الله تعالى، فجاءت هذه المقارنة المتعلقة بمحبة الله بعد بيان هذه النعم. (٢)

قال أبو حيان رحمه الله: "لما قرر للتوحيد بالدلائل الباهرة أعقب ذلك بذكر من لم يوفق، واتخاذ الأنداد من دون الله، ليظهر تفاوت ما بين المنهجين". (٣)

■ نظرة تفسيرية:

بعد بيان الآيات التي تدل على وحدانية الله سبحانه وقدرته، ذكر الله في هذه الآية الكريمة أنه مع وجود هذه الآيات القاهرة لأصحاب العقول، يوجد من الناس صنف لم يهتد بهذه الآيات مع وضوحها، بل أعرض عن التوحيد واتخذ من دون الله أنداداً من الرؤساء والأنبياء. وهذا الصنف يشمل جميع الكفار من عبدة الأوثان وأهل الكتاب، والمراد بالأنداد باعتبار أهل الكتاب هم رؤسائهم وأتباعهم، حيث اتبعوهم في الأوامر والنواهي وخالفوا أوامر الله ونواهي، والأنداد باعتبار عبدة الأوثان هي الأصنام والأوثان التي عبدوها من غير الله. هؤلاء يحبون هذه الأصنام والأوثان وغيرها من الأنداد ويعظمونها كما يحبون الله تعالى ويعظمونه، إذ أشركوها مع الله، فسووا بين الله وأوتانهم في المحبة على الرغم من كمال قدرته وعزته، وذلة الأصنام وعجزها. ثم ذكر الله تعالى أن الذين آمنوا أشد حبا منهم لله، بمعنى

(١) سورة البقرة، آية ١٦٥.

(٢) راجع: الآيات ١٦٤ - ١٦٥ من سورة البقرة.

(٣) البحر المحیط، لأبي حيان، ٨٤/٢.

أن حب المؤمنين لله أشد من حب أهل الأوثان وأوثانهم والتابعين لمبتوعهم وذلك لأن المؤمنين لا يعدلون عن الله تعالى إلى غيره، بل يقبلون عليه ويرجعون إليه في السراء والضراء أما المشركون فلا يثبتون على شيء واحد إذ يخضعون لله أحياناً وللشركاء أحياناً أخرى. (١)

■ وقفة مع المقارنة:

قارنت الآية الكريمة بين حب الكفرة للأصنام والأوثان والرؤساء وغيرهم من اتخذوهم شركاء مع الله تعالى، وبين حب المؤمنين لله تعالى، مقارنة صريحة باستخدام صيغة "أفعل" التفضيل، فصرحت بكون المؤمنين أشد حبا لله من حب الكفرة لأصنامهم وأوثانهم. وليس في ذلك أدنى شك إذ إن المؤمنين يحبون الله تعالى أكثر من أنفسهم ويرجعون إليه في السراء والضراء ويعظمونه ويخضعون إليه دائماً، يرضون برضاه ويسخطون بما يسخطه، بل ويقدمون رضا الله تعالى على أنفسهم حيث يضحون بأنفسهم ما يملكون وهو حياتهم، طلباً لرضا الله وإعلاء لكلمته، ولا يجعلون بينه وبينهم وساطة، بل يتواصلون معه مباشرة بالدعاء والعبادة في السراء والضراء. وهم أيضاً يحاولون دائماً التقرب إليه بالطاعات، والبعد عن المناسي، حبا له وطمعا في الحصول على محبته ورضوانه، ولا يرغبون عنه أبداً إلى غيره. وما ذاك كله إلا دليل وبرهان على حبهم الشديد له. أما حب الكفرة لأندادهم، فلا يصل إلى مقدار هذا الحب، بل ولا يقرب منه، حيث إنهم يعرضون عنهم إلى الله تعالى عند مواجهة الشدائد ويدعونه وحده في الضراء والشدائد، ولا يوقروهم ولا يخضعون لهم كما يخضع المؤمنون لله تعالى.

ومن أهم أهداف هذه المقارنة: إثبات حب المؤمنين الشديد لله، وتفوقه على حب الكفرة لأندادهم، والبحث على حب الله تعالى، وترك كل ما يحول بين العبد وربه من الأصنام والأوثان والرؤساء وغيرهم.

٧- قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْعِلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنَىٰ وَالَّذِينَ كَانُوا يُنْفِقُوا مَالَهُمْ رِيقًا ۚ وَالَّذِينَ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِآلِهِ ۚ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ۚ فَمَقْلُهُمْ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْتًا ۚ لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّنْهُ ۚ كَذَّبُوا ۚ وَالَّذِينَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَثَلِ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيْتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَفَاقَتْ أَكْطَافَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِيبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ ۚ وَالَّذِينَ لَا يَتَعَمَلُونَ بَصِيرَةً ۚ﴾ (٢)

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ٢/٢٠٣ - ٢٠٤. مدارك التنزيل وحقائق التأويل، للسندي، ١/١٤٨. البحر المحيط،

لأي حبان، ٢/٨٤ - ٨٨.

(٢) سورة البقرة، الآيتان ٢٦٤ - ٢٦٥.

وردت الآيتان في سياق الحث على الإنفاق في سبيل الله، فأمر الله تعالى المؤمنين بالإنفاق، ونهاهم عن إتباع الإنفاق بليلن والأذى، ويؤن أن قول المعروف خير من صدقة فيها أذى للمتصدق عليه، وخير من صدقة يقوم بها الإنسان رياء وسمعة. ثم جاءت هذه المقارنة لتوضح هذا الأمر أكثر.^(١)

■ نظرة تفسيرية:

نحى الله سبحانه وتعالى المؤمنين عن إبطال أجر الصدقات بليلن على السائل والأذى له، ويؤن أنه الذي يمن على السائل ويؤذيه صدقته باطلة، مثل صدقة الذي ينفق ماله رياء وسمعة، ليرى الناس نفقته ويقولوا عنه إنه سخى كريم، وهو لا يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يتصدق لأجل وجه الله. وفيه إشارة إلى أن الذي يتصدق رياء لا يؤمن بالله واليوم الآخر، لأن المؤمن لا يتصدق إلا لوجه الله. ثم ضرب الله مثلا لهذا المرائي والذي يمن ويؤذي مع الإنفاق وهما سواء في بطلان الصدقة، فقال: مثل صدقته كمثل حجر أملى عليه تراب فأصابه مطر شديد كغيره، فترك المطر هذا الحجر صلبا أملى لا تراب ولا شيء عليه. فهذا مثل الخفق رياء والذي يمن ويؤذي بصدقته، إذ يرى الناس في الظاهر له عملا صالحا كما يرى التراب على الحجر، ولكنه لا أجر له يوم القيامة، حيث يبطل عمله ويحول كما أزال المطر التراب من الحجر وتركه خاليا لا شيء عليه. هؤلاء لا يجنون ثواب شيء مما أنفقوه عند الله، ولا ثواب لهم يوم القيامة، لأن أعمالهم لم تكن لله. والله تعالى لا يهدي الكافر مادام مصمما على طريق الكفر، لا يطمع في الهداية والإيمان. ثم ذكر الله تعالى مثلا للذي ينفق ماله طلبا لرضا الله تعالى، وتثبيتا لنفسه على طريق الإيمان، وتصديقا بوعده الله، ويقينا بثوابه ويكون ما أخرج خير له مما ترك. فقال إن مثل نفقة هذا كمثل بستان بمكان مرتفع عن الأرض - ويكون النبات في مثل هذا المكان أحسن وأجل -، هذا البستان يصيبه مطر شديد فيؤتي ثمره ضعفين بالنسبة إلى ثمار البساتين الأخرى، وإن لم ينزل عليه مطر شديد يكفيه طل وهو المطر الخفيف الضعيف. فهذا البستان يؤتي ثمرًا مضاعفا عند نزول المطر الشديد، وثمرًا عاديا عند نزول المطر الخفيف. فكما أن هذه البجة تؤتي أكلها في كل حين، سواء قل المطر النازل عليها أم كثر، كذلك يضاعف الله عمل المؤمن المخلص في صدقته وإتاقه الذي لا يراني ولا يمن ولا يؤذي، ويعطيه ثوابه سواء قل عمله أم كثر. وفي النهاية يؤن الله أنه بصير بكل شيء، لا يخفى عليه شيء من أعمال عباده ونياتهم.^(٢)

■ وقفة مع المقارنة:

قارن الله سبحانه وتعالى في هاتين الآيتين بين الذي يبطل صدقاته بليلن والأذى والذي ينفق ماله رياء وسمعة، وبين الذي ينفق ماله ابتغاء رضا الله تعالى وتصديقا بوعده وثوابه، باستخدام أسلوب تشبيه التمثيل^(٣). فذكر مثلا لنفقة

(١) راجع: الآيات ٢٦١ - ٢٦٥ من سورة البقرة.

(٢) يُنظر: معالم التنزيل للبخاري، ١/٣٦١ - ٣٦٣. لباب التأويل، للبخاري، ١/٢٠٠ - ٢٠١. الأساس في التفسير، لستيد، حوى،

١/٦١٥ - ٦١٧.

(٣) تشبيه التمثيل هو التشبيه الذي يكون وجه التشبه فيه صورة متزعة من متعدد.

المراعي والمتبع صدقته منا وأذى، ثم ذكر مثلاً لتفقه المنفق لأجل وجه الله تعالى وطلباً لمَرْضَاتِهِ. ولا شك أن بين الاثنين بون شاسع، فالأول يتفق أمام الناس ليقال شهرته حسنة، ولكي يقال عنه إنه مسخي كريم، ويقال عنه ذلك في الدنيا، ولا أجر له عند الله تعالى. ومثله في بطلان الصدقة للمنفق الذي يتصدق على الآخرين، ثم يمن عليهم ويؤذيهم بأقواله وأفعاله، ويظهر أنه أعلى شأنًا منهم، مع أن المال الذي أنفق منه مال الله استخلفه الله فيه ابتلاء واختباراً. هذان الاثنان وإن كانت لهما في ظاهر الأمر أعمال البر والخير، وخصوصاً النفقات على الفقراء، إلا أنهما لا أجر لهما عند الله، وإن عظمت هذه الأعمال وكثرت في أحيان الناس، إذ إنما تذهب هباءً منثوراً في الآخرة، تماماً كما يزل المطر الشديد التراب من الصخر الأملس عند أول نزوله، تاركاً الصخر خالياً لا شيء عليه، فكذلك هؤلاء لا يحصلون على ثواب شيء من أعمالهم، لأنها لم تكن خالصة لله تعالى.

أما الذي يتفق ماله سرا وعلائية بنية خالصة، طلباً لرضا الله تعالى، وإيماناً به، وتصديقاً بوعده وثوابه، ولا يمن على من أنفق عليه، ولا يؤذيه، بل يرى أن أخذه من صدقاته إنعام من الله عليه، وسيكون سبباً لرفع درجاته عند الله، كما يظن أنه لا فضل له عليه، لأن المال كله لله من شاء أعطى، ومن شاء منع. فأمثال هؤلاء يخلف الله عليهم غيراً مما أنفقوا في الدنيا، كما يعطيهم ثواب أعمالهم، ومنها النفقات، أضعافاً مضاعفة. ومثلهم كمثل الجنة التي تكون في مكان مرتفع، والتي تعطي ثمرًا مضاعفاً بفعل المطر الشديد، وتعطي ثمرًا عادياً بسبب المطر الخفيف، فكذلك هؤلاء يحصلون ثواب أعمالهم عند الله قلت صدقاتهم أم كثرت، لأن الأجر عند الله بحسب النيات، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

ومن أهم أهداف هذه المقارنة:

- (١) الخث على الإنفاق في سبيل الله بإخلاص ونية حسنة.
- (٢) التحلُّل من الرياء والسمعة وإبداء للتفق عليه، وبيان أن هذه الأمور سبب في إبطال الصدقات. بل إن الذي يؤذي بصدقته ومن على من تصدق عليه لا يكلمه الله يوم القيامة ولا ينظر إليه قال رسول الله ﷺ: "ثَلَاثَةٌ لَا يَكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الْفَقِيرُ الَّذِي لَا يُعْطَى شَيْئًا إِلَّا مَنَّةً، وَالْمُنْفِقُ سِلْعَتُهُ بِالْخُلْفِ الْفَاجِرُ، وَالْمُسْبِلُ إِزَارَةً".^(١)
- (٣) بيان أهمية النية، والتصريح بأن الأجر عند الله تعالى يكون وفق النيات قلت الأعمال أم كثرت. فمن تصدق بتمرة بنية خالصة لله يجد ثوابه عند الله مضاعفاً، ومن تصدق بمثل أحد ذهباً رياء وسمعة لا أجر له عند الله، لأن العمل لم يكن لله.

البلاغة الواضحة، لعلي الحارث ومصطفى أمين، ص ٣٥.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان غلط تحريم الإسبال ولين بالعطية وتنفيق السلعة بالخلف وبيان الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكهم ولم يذهب إليهم، ص ٥٩، رقم ٢٩٩٤ من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

المبحث الثاني:

المقارنات من أول سورة آل عمران إلى آخر سورة الأنعام

١ - قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (١).

وردت الآية في أوائل سورة آل عمران، التي ذكر الله تعالى في بدايتها أنه أنزل هذا الكتاب على رسوله محمد ﷺ، وهو كتاب فيه آيات محكمات وآيات متشابهات (٢)، ثم بين في هذه الآية مواقف الناس المختلفة إزاء هذه المتشابهات (٣).

■ نظرة تفسيرية:

تحدث الآية الكريمة عن موقف الناس من الآيات المتشابهة الواردة في القرآن الكريم، وطريقتهم في التعامل معها. فقال الله: إن الذين في قلوبهم ميل والمخرف عن الحق، يتركون المحكم الذي يكفيهم، ويتبعون المتشابه طلباً للفتنة والفساد، بإبعاد الناس عن الدين الصحيح، ووردهم إلى الانحراف والزيغ، وطلباً لتأويله على آرائهم ومذاهبهم الفاسدة. وتشمل الآية كل الذين في قلوبهم زيغ والمخرف، من الكفار من أهل الكتاب والمشركون، والجهال وأصحاب البدع، وتقتضيهم على هذا الصنيع ثم بين الله تعالى أن تأويل المتشابه لا يعلمه على وجه الكمال إلا الله سبحانه وتعالى (٤)، كما ذكر أن الراسخين في العلم، وهم الثابتون فيه، يؤمنون بالمتشابه، ويتبعون اتباعه، إذ يقفون حيث وقفوا،

(١) سورة آل عمران، آية ٧.

(٢) اختلف العلماء في تعيين المراد بالمحكم والمتشابه على عدة أقوال، منها:

١ - المحكم ما اوضح للمراد منه، والمتشابه ما استأثر الله بعلمه.

٢ - المحكم ما لا يشمل من التأويل إلا وجهها واحداً والمتشابه ما احتجل عدة أوجه.

٣ - المحكم ما استقل بنفسه، والمتشابه ما لا يستقل بنفسه إلا يردده إلى غيره. إلى أقوال أخرى.

وهي كلها أقوال متشابهة، يجمع بينها أن المحكم هو الواضح البين، والمتشابه ما كان فيه نوع من الخفاء.

ينظر: الإتيان في علوم القرآن، للسيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤م - ١٣٩٤هـ، ٤/٣.

(٣) راجع: الآية ٧ من سورة آل عمران.

(٤) اختلف المفسرون في تفسير هذه الآية إلى قولين، ومنشأ الخلاف هو الوقف، فقال بعضهم: إن الوقف يكون على لفظ الجلالة، "والراسخون" بعده مبتدأ خبره: "يقولون"، وعلى هذا يكون معنى الآية: أنه لا يعلم تأويل المتشابه إلا الله، والراسخون في العلم يؤمنون به. وقال آخرون: إن الواو في "والراسخون" واو العطف ولا وقف على لفظ الجلالة، وعلى هذا يكون معنى الآية: إن الله يعلم تأويله، والراسخون في العلم يعلمون تأويله قائلين آمناً به.

ويقولون إن القرآن الكريم كله بمحكمه ومتشابهه من عند ربنا، نؤمن به، ونقر بأنه ما جاء في القرآن الكريم إلا لحكمة، وإن جهلنا معناه. (١) وخص الله الراسخين في العلم، لأن التمييز بين ما للإنسان سبيل إلى معرفته مما لا سبيل له إلى معرفته هو من علوم الراسخين؛ وذلك أن الحكماء الثابتين في العلم هم للذين يستطيعون التمييز بين ما يمكن علمه وبين ما لا يمكن علمه، كما أنهم هم الذين يعلمون الغاية التي يجب أن يقف عندها طلاب العلم. وختم الله الآية ببيان أن أصحاب العقول السليمة الراجعة هم الذين يتذكرون ويتعطلون، ويستفيدون من آيات القرآن البليغة. (٢)

■ وقفة مع المقارنة:

قارن الله تعالى في هذه الآية المباركة مقارنة غير صريحة بين موقف الذين في قلوبهم زيغ وانحراف عن الحق، وبين موقف الراسخين في العلم من الآيات المتشابهات الواردة في القرآن الكريم. فذكر سبحانه أن الذين في قلوبهم مرض وانحراف عن الحق يتبعون متشابه القرآن، لأجل فتنة الناس، وصدهم عن الإيمان به، وإبعادهم عن القرآن، ويتكلمون الآيات المحكمة التي هي أكثر آيات القرآن الكريم وأصله وأمه، والتي فيها كفاية لهم. هؤلاء يخوضون في المتشابهات التي استأثر الله بعلمها، وبذلك يبتعدون بأنفسهم عن هداية القرآن، ويبتعدون غيرهم، ويوقعونهم في الشبهات والفتن. وأيضا فإنهم يقولون هذه المتشابهات وفقا لهواهم وميولهم النفسية المنحرفة، ويضلون به عن طريق الهدى، كما يكونون سببا في ضلال غيرهم. وقد حذر رسول الله ﷺ من اتباع أمثال هؤلاء قائلا: "إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ تَمْنَى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ". (٣) أما الراسخون في العلم فهم يعلمون تأويل بعض أنواع المتشابهات دون بعضها التي استأثر الله بعلمها، ويؤمنون بجميعها حتى الإيمان، ويعملون بالآيات المحكمة الواضحة الأصلية من الكتاب. هؤلاء يؤمنون بالمتشابهات، ويقرّون بكونها من عند الله، وإن لم يعلموا معناها، ويقفون بكونها وردت في القرآن لحكم وفوائد، وإن لم يدركوا حقيقتها. وبذلك يبتعدون بأنفسهم، ويبتعدون غيرهم إلى طريق الهداية الواضحة التي توجه إليها الآيات المحكمة من القرآن الحكيم.

ومن أهم الأهداف التي حققتها هذه المقارنة: بيان مواقف الناس المختلفة من المتشابهات، وتوضيح الفرق بين الموقف الصائب والخطأ منه، والتحذير من اتباع المتشابهات، والتوجيه إلى ردة أمرها إلى الله إن لم تُعرف معانيها،

(١) ومن الحكيم التي ذكرها العلماء لاشتغال القرآن على التشابه؛ فميز الصادق الإيمان من غيره، وإعطاء الفرصة لعقل المؤمن للبحث والنظر والتفكير حتى يصل إلى العلم الصحيح، وإثبات ضعف الإنسان وعجزه بذكر ما لا سبيل له إلى معرفته وإدراكه.

ينظر: التفسير الوسيط للرحيلي، ١/١٧٥.

(٢) تفسير الراغب الأصفي، ٢/٤١٣ وما بعدها، الجواهر الحسان، للعلامة، ٢/١١ - ١٢، التفسير الوسيط، للرحيلي، ١/١٧٤.

- ١٧٥.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب العلم، باب النهي عن اتباع متشابه القرآن والتحذير من متبعيه والفتن عن الاختلاف في القرآن، ص ١٦٦، رقم ٦٧٧٥، من حديث عائشة رضي الله عنها.

والدعوة إلى سلوك سبيل الراسخين؛ وذلك بالإيمان بكون الجميع من عند الله. ومن أهدافها أيضا: إثبات عجز البشر ونقص علمهم، وإثبات علم الله الكامل المطلق، والدعوة إلى الإيمان بكل ما نزل من عند الله وبكونه لفائدة البشر، عرفت معانيها وحكمها أم لم تُعرف.

٢- قال الله تعالى: ﴿رَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْمَنْطَرِ الْمُنْتَظَرِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَمِ وَالْخَرْبِ ۚ ذَلِكَ مَتْنُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَابِ ۝ قُلْ أُوتِيتُكُمْ بِخَيْرٍ مِمَّنْ دَالِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۝﴾ (١)

وردت الآيات بعد ذكر ما للكفار من عذاب يوم القيامة، ويان أن للناس آية في التقاء فتين للقتال، إحداهما كافرة تقاتل في سبيل الطاغوت، والأخرى مؤمنة تقاتل في سبيل الله، والله ينصر من يشاء، وفي ذلك عبرة وموعظة لأصحاب البصائر. ثم جاءت آيات الإيمان ليبان ما للمؤمنين عند الله. (٢)

■ نظرة تفسيرية:

بين الله تعالى في الآيات السابقة غرور المشركين بأموالهم وأولادهم وكثرتهم، وأشار إلى غرور آل فرعون بسلطتهم، وفي هذه الآية بين مصير هذا الغرور وأسبابه. فقال: إن الناس رُبَّتْ لهم حب الشهوات، وعبر عنها بالشهوات إشارة إلى شدة حرص الناس عليها، ومبالغة في كونها مرغوبا فيها. وهذه الشهوات أنواع كثيرة زين الله في قلوب البشر جميعا حبها، ابتلاء للناس واختبارا لهم، إذ هي أمور فطر الإنسان على الميل إليها، وهي زينة الحياة الدنيا ومصير الخير وأكثر فيها، حيث إنما طريق الجنة للأبصار وطريق النار للأبصار. وقد بين الله الأنواع الأساسية من هذه الأمور المحبوبة إلى القلوب، وبدأها بذكر النساء، لشدة ميل النفوس إليهن - وذكر حب الرجال للنساء فيه إشارة إلى علاقة المحبة المتبادلة بين الفريقين، وتنبيه على محبة المرأة للرجل، واكتفى بذكر حب الرجل لأنه أوضح وأشد - ، ثم ذكر للبنين، والمراد بهم الأولاد جميعا ذكورا وإناثا. كما ذكر من الأمور المرغوبة المصنوع الكثير من الذهب والفضة، والخيول التي عليها علامات تميزها عن غيرها وتجعلها حسنة جميلة المنظر، والأنعام من الإبل والبقر والغنم، والخمر، وهو اسم لكل ما يحرث، ومنه يؤخذ اللباس والطعام والزينة. واكتفى بذكر هذه الأمور، لأنها أوضح من غيرها وفيها إشارة إلى ما سواها من أنواع المتع. ثم وضح الله تهيئتها في الدنيا وترغيبا في الآخرة أن هذه الأمور المذكورة أمور يتمتع بها الناس في الدنيا فترة قليلة، ثم تذهب ولا تبقى، والله عنده حسن المرجع، وهو الجنة للمؤمنين. ثم أمر الله رسوله أن يخاطب الناس ويوجه إليهم استغفاما للتنبيه، وهو: هل أخيركم بما هو خير لكم من هذه المستلذات؟! ثم

(١) سورة آل عمران، الآيات ١٤ - ١٥.

(٢) راجع: الآيات ١٢ - ١٥ من سورة آل عمران.

يُتَنَبَّهُ بقوله: هو جنات للذين اتقوا، تجري من تحت أشجارها وغرفها الأنهار، وفيها أزواج مطهرة من كل أنواع الأذى، يتال فيها الملقون رضوان الله الذين هو أكبر النعم، وهم خاللون في هذا النعم، لا يخرجون منه. هذه نعم الآخرة ومنعها، وهي أعلى مقامًا من نعيم الدنيا. ثم ختم الآية بقوله: والله علم بأحوال العباد يبصرها، ويعلم خفائها ودقائقها ونواياها، وسيجازيهم عليها يوم القيامة، إن خيرا فخير وإن شرا فشر. (١)

■ وقفة مع المقارنة:

قارنت الآيات الكريمتان مقارنة صريحة بين مشتهيات وملذات الحياة الدنيا الفانية، من النساء والبني والجمع الكبير من الذهب والفضة والخيول والأنعام والحريث، وبين ما عند الله للمتقين من جنات تجري من تحتها الأنهار، ونعيمها الذي منه صحة الأزواج المطهرة، إلى جانب الرضوان من الله والخلود في هذا النعم المقيم، ببيان خيرية ما عند الله تعالى. فأسلوب المقارنة مباشر، حيث صرح الله بأن ما أعدّه للمتقين خير من ملذات الدنيا كلها.

وأسباب خيرية نعيم الآخرة على كل ما في الدنيا من ملذات مذكورة في الآية وغير مذكورة فيها واضحة جلية؛ فكل ما في الدنيا فإن منخص بالاعتبار، وفيه عيوب تعكر صفوه، يحصل عليه الإنسان بتعب ومشقة، كما أنه موضع حساب، إذ يحاسب الله الإنسان عليه ويعاقبه إن حصل عليه بطريق حرام أو صرفه في حرامه ويجازيه خيرا إن حصل عليه بطريق حلال وأدى حق الله فيه. وإلى جانب ذلك كله فإن هذا المتاع بكل أنواعه زائل يزول عن الإنسان يوما من الأيام لا محالة، وإن طال بقاءه عنده. أما ما عند الله للمتقين من جنات وما فيها من أزواج وغيرها من أنواع النعم، فهو بالإضافة إلى كونه أعلى وأعلى شأنًا وأرفع قدرا مما في الدنيا، ليس فيه ما يعكر صفوه من العيوب والتفاني، وهو باق مع الإنسان لا يزول عنه أبداً، وهذا البقاء والخلود نعمة في حد ذاته. ومع ذلك كله يحصل الإنسان على هذا النعم إنعاما من الله ونزلا من عنده، بعد الفوز برضوانه الذي هو أعظم أنواع النعم. فهذه الأنواع من النعم ليست موضع حساب ولا خوف فيها من عدم أداء حق الله، ولا معاقبة عليها، لأنها يصحبها رضوان الله الدائم الذي لا سخط بعده، وهو نزل من غفور رحيم، يتمتع به الإنسان كيف شاء ومتى شاء، من غير زوال وانقطاع.

ومن أهم الأهداف التي حققتها المقارنة: إثبات خيرية ما عند الله من نعيم للمتقين على ما في الدنيا من أنواع الملذات، والحث على التطلع إلى ما عند الله بالإيمان والتقوى والعمل الصالح، والتزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة. ومن أهدافها أيضا: تسلية الفقراء الذين لا يجدون في الدنيا ما يكفي حاجتهم، وبيان أن الحصول على ملذات الدنيا ليس حراما ما لم يكن بطريق حرام، فهي أمور زينها الله في قلوب البشر وفطرهم على حبها.

(١) انظر: تفسير الجلالين، للمصطفي والسيوطي، ص ٦٧. فتح القدير للشوكاني، ١/ ٣٧٠ - ٣٧١. زهرة التفاسير، لأبي زهرة، ١١٣١/٣ وما بعدها.

٣- قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(١).

وردت هاتان الآيتان في سياق ذكر بعض الأوامر الموجهة إلى أمة سيدنا محمد ﷺ، إذ أمرت هذه الأمة بالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونُهي عن الفرقة والاختلاف بعد رؤية البيانات. وبين الله بعد ذلك أن الذين يختلفون بعد مجيء البيانات لهم عذاب عظيم، ثم وضحت هاتان الآيتان الفرق بين الكفار الذين يواجهون العذاب العظيم يوم القيامة، والمؤمنين الداخلين الجنة^(٢).

■ نظرة تفسيرية:

ذكر الله تعالى الناس في هاتين الآيتين يوم القيامة، وهو اليوم الذي تَبْيَضُّ فيه بعض الوجوه، وهي وجوه المؤمنين، وتَسْوَدُّ وجوه أخرى، وهي وجوه الكفار. فالمؤمنون تكون وجوههم بيضاء بالنور، يظهر منها الفرح والسرور؛ وفي ذلك تشريف لهم وإظهار لآثار أعمالهم في ذلك الجمع، بينما تكون وجوه الكفار سوداء مظلمة، يظهر منها الحزن والخوف. ويكون البيض والسود لجميع الجسد، وأسنداً إلى الوجوه، لأن الوجه أشرف أعضاء الجسد، وهو أول ما يرى من الإنسان. ثم ذكر تفصيل حال الفريقين، والذي بدأ بذكر حال الكفار التحذير من حالهم، وليكون الابتلاء والاختتام بما يستر الطبع ويشرح الصدر من أحوال المؤمنين. فذكر سبحانه أنه يقال للذين اسودَّت وجوههم تعنيفاً وتوبيخاً لهم: أكفرتُم بعد أن آمنتم، وذلك حين أخذ عليكم الميثاق، وأقرتم بربوبية الله وأنتم في صلب آدم، فذوقوا العذاب المجهود الموصوف الذي كذبتم به، جزاء كفركم وتكذيبكم، وبذلك جمع لهم بين التعنيف بالقول والعذاب. ثم بين مصير المؤمنين الذين ابْيَضَّت وجوههم، فهؤلاء مستقرون في رحمة الله، وهي الجنة التي هم ما كانوا فيها أبناء، لا زوال منها ولا انتقال ولا يغفون عنها حولا. وأشار بذكر الرحمة إلى عناية الله بهم، وإلى أنهم يدخلون الجنة برحمة الله لا بأعمالهم وطاعتهم، وإن كثرت^(٣).

■ وقفة مع المقارنة:

فلرنت الآيتان مقارنة غير صريحة بين حال المؤمنين والكفار يوم القيامة، وبينت أنهم من وجوههم وحالهم في ميدان الحشر تظهر للناس حقيقتهم في الآخرة، كما تبين مصيرهم الذي هم صابرون إليه. فالكفار تكون وجوههم سوداء عليها غيرة، بسبب كفرهم ومعاصيهم، وخوفهم من العذاب والجزاء الفظيع الذي ينتظرهم، ويجمع لهم مع العذاب

(١) سورة آل عمران، الآيتان ١٠٦ - ١٠٧.

(٢) راجع الآيات ١٠٤ - ١٠٧ من سورة آل عمران.

(٣) يُظهِر: البحر المحيط، أبي حيان، ٢٩٢/٣ - ٢٩٦. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٧٩/٢. روح المعاني، للآلوسي، ٢٤١/٢.

الحسي العذاب المعتوي، حيث يؤمنون ويعتفون على صنيعهم في الدنيا، وعلى كفرهم بعد الإيمان والإقرار بربوبية الله، ويقال لهم: ذوقوا العذاب الموعود جزاء كفركم وتكذيبكم. أما المؤمنون فتكون وجوههم بيضاء مشرقة مسفرة، فرحا وسرورا بإيمانهم وأعمالهم الصالحة التي منها للوضوء الذي يكون سببا في تطويل الغرة البيضاء يوم القيامة^(١)، وشوقا إلى رضا الله تعالى والجنة، فيظهر من وجوههم الرضا والاطمئنان بما فعلوا في الدنيا، ويدخلون الجنة بفضل الله وبرحمته، ويخلدون فيها أبدا، قلن ينزل عنهم نعيمها ولن يفنى.

لقد سعت هذه المقارنة إلى تحقيق أهداف عدة، ومن أهمها: إثبات فضل الإيمان والمؤمن على الكفر والكافر، والحث على اتباع سبيل المؤمنين والتحذير من سبيل الكفار. ومن أهدافها أيضا: التشويق للجنة والحث على الاستعداد لها بالإيمان والعمل الصالح، والتخويف من عذاب الله والعمل لأجل النجاة منه. كما أن في هذه المقارنة بيان أهمية الإيمان، وإثبات أنه موجود كامن في الفطرة البشرية، وكل من يكفر بالله يعرض عن هذا الإيمان الموجود في فطرته.

٤ - قال الله تعالى: ﴿وَلِيَخْصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾^(٢).

وردت الآية الكريمة في سياق الحديث عن غزوة أحد التي انهمر فيها المسلمون، فبين الله تعالى أن المؤمنين هم الأعلون إن صدقوا في إيمانهم، وهذه الأيام تتداول بين الناس، وأراد الله بهذه الهزيمة أن يتميز المؤمن للخلص من غوره، كما أراد أن يتخذ من المؤمنين شهداء، لذا صُغِبَت على المؤمنين الأوضاع في هذا الغزو. وجاءت هذه المقارنة خلال هذا الحديث لبيان سر من أسرار الهزيمة يوم أحد^(٣).

■ نظرة تفسيرية:

ذكرت الآية الكريمة سرا من أسرار البلايا التي يتعرض لها الناس، إذ بينت أن هذه الابتلاءات تأتي ليظهر الله الذين آمنوا من ذنوبهم ويزيلها عنهم وينقيهم منها، أما الكفار فتصيبهم الشدائد بغرض نقصانهم واستعصامهم. وقابل تمحيص المؤمنين بمحق الكافرين، لأن تمحيص المؤمنين بإهلاك ذنوبهم نظير محق الكفار بإهلاك أنفسهم، وهي مقابلة لطيفة في المعنى. والمراد بالكافرين في الآية طائفة مخصوصة منهم، وهم الذين حاربوا الرسول ﷺ يوم أحد؛ وذلك أن الله لم يحق الكفار كلهم، بل بقي منهم كثير على كفره. فالآية تصرح بأن الغلبة في القتال إن كانت للكفار كان المراد تمحيص المؤمنين وتخليصهم من ذنوبهم ومن كل ما يضرهم، وإن كانت للكفار فالمراد محو آثار الكفار. وفي الآية إشارة إلى أن كل بلاء يصيب المؤمن فهو تطهير لقلبه وكفارة لذنوبه، وما يصيب الكافر يكون سببا في

(١) قال رسول الله ﷺ: "إِنَّ أُنْثَى لَتَذْعُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا تُحْجَلِينَ مِنْ أَثَرِ الْوُضُوءِ، فَخِي اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيلَ غُرَّتُهُ فَلْيُفْعَلْ". أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، باب فضل الوضوء وأثر المتجملون من آثار الوضوء، ص ١٢٩، رقم ١١٢٦ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سورة آل عمران، آية ١٤١.

(٣) راجع: الآيات ١٢٩ - ١٤١ من سورة آل عمران.

كفره ومزيد طغيانه. فالبلاء كما قال النيسابوري رحمه الله لأهل الولاء تطهير للقلوب عن ظلمات العيوب وتنويرها بأنوار الغيوب، ومحو لصفات نفوسهم الكافرة وأخلاقهم الفاجرة.^(١)

■ وقفة مع المقارنة:

قارنت الآية الكريمة مقارنة غير صريحة بين ما يريد الله للمؤمنين وما يريد للكافرين، حينما يواجه كليهما المصائب والشدائد، خاصة في الحروب والمعارك. فبين الله تعالى أن المؤمنين عندما يواجهون شدة من هزيمة في معركة أو خسائر مالية أو نفسية أو غيرها من أنواع المصائب، تكون هذه المصائب حاملة في طيها خيرا للمؤمنين، إذ إنها ابتلاء واختبار لهم لم تأت لتضرهم، بل جاءت لتكون سببا في تطهيرهم من الذنوب والآثام، وبالتالي ترفع درجاتهم عند الله تعالى، إذا صبروا على هذه المصائب، وأنابوا إلى الله تعالى. أما الكفار فتكون مثل هذه المصائب شرا لهم، تضيف إلى أوزارهم ومصائبهم؛ حيث يكون الغرض منها محققهم أي: إهلاكهم واستئصالهم حتى لا يبقى لهم أثر سعي في المجتمع. وبالجمله فإن المصائب والمهزائم تكون عقابا من عند الله للكفار، بهدف إهلاكهم وسحق لدرجاتهم، في حين أنها للمؤمنين ابتلاء، يرفع من درجاتهم، ويكفر عنهم من سيئاتهم.

ومن أهم الأهداف التي حققتها هذه المقارنة الموجزة: إثبات فضيلة المؤمن على الكافر، والحث على الصبر عند الشدائد، لأنها وسيلة لرفع الدرجات، وبيان أن المصائب نعمة للمؤمن ونقمة على الكافر.

٥- قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ إِلَى اللَّهِ ۚ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝﴾^(١).

جاءت الآيتان بعد بيان عاقبة الذي يرتكب الفاحشة من الرجال والنساء؛ وذلك لبيان أن الله تعالى يقبل التوبة من عباده الذين يرتكبون السوء ثم يعودون إلى الله، ويطلبون منه الغفران.^(٢)

■ نظرة تفسيرية:

ذكر الله في الآية الكريمة أنه جعل قبول التوبة كالمحتوم الواجب عليه بمقتضى وعده للنادمين على أفعالهم. فهو يقبل التوبة بفضله من الذين يعملون للمعاصي والقبائح، وهم جاهلون، إذ لا يقدرون الآثار والنتائج والمخاطر، ثم لا يصبرون عليها، بل يتلمنون على صنيعهم، ويهربون إلى الله، ويطلبون منه المغفرة في زمن قريب، أي: قبل أن ينزل بهم

(١) غرائب القرآن، للنيسابوري، ٢/٢٦٦. ويُنظر: مفاتيح الغيب، للرازي، ٩/٣٧٤ - ٣٧٥. تفسير الشراوي، ٣/١٧٨٥.

(٢) سورة النساء، الآيتان ١٧ - ١٨.

(٣) راجع: الآيات ١٥ - ١٧ من سورة النساء.

الموت، وسمّاه قريبا، لأن أجل الحياة قريب. هؤلاء كتب الله لهم على نفسه أن يغفر لهم ويقبل منهم توبتهم، لأنه عليهم بضعف الإتيان وبإخلاص العائدين في التوبة، حكيم في قبول التوبة وعدم معاقبة التائب. وبعد بيان من يقبل توبتهم ذكر حال أصدادهم، فسوّى بين من يتوب عند حضور الموت من الكفار والفاسق، وبين من يموت على الكفر في عدم قبول التوبة من هذين مبالغة في عدم الاحتكام بها وانتفاء فائدتها. فقال الله: إنه لا يقبل التوبة من الذين يستمرون في عمل السيئات. وارتكاب الذنوب. إلى أن يأتي أجلهم للكتاب، فيقولون عند رؤية الملائكة لقبض الروح: تنوب الآن. فلا فائدة للتوبة حينئذ، ولا أمل في الإصلاح. كما أنه لا يقبل التوبة من الذين يموتون على الكفر، إذ لا ينفعهم التلم ولا التوبة في الآخرة. وهذان الصنفان أعد الله لهم عذابا مؤلما موجعا، جزاء لهم على ما كسبت أيديهم من المعاصي مع الإصرار عليها إلى الموت. وفي ذلك تأكيد على عدم قبول توبتهم، وبيان أن الله أعد للكفار غير التائبين عذابا يعدّهم به متى شاء، لا يمنعه شيء من ذلك. (١)

• وقفة مع المقارنة:

قارنت الأيتان مقارنة غير صريحة بين الذين يقبل الله توبتهم والذين لا يقبل الله منهم التوبة. فالذين يقبل الله توبتهم هم الذين يقعون في المعاصي والسيئات خطأ بجهالة، وسرعان ما يندمون على صنيعهم، فيرجعون إلى الله تعالى، ويتوبون من الذنوب قبل أن يحضر أجلهم، كما أنهم لا يصرون على المعاصي، بل كلما وقعوا في معصية ندموا على فعلهم، وأتابوا إلى الله تعالى، وطلبوا منه المغفرة والثبات على الطاعات، وعدم الرجوع إلى الذنب. هؤلاء يقبل الله توبتهم ويغفر لهم، وإن وقعوا في الذنب مرة بعد أخرى. قال رسول الله ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُفْرَغْ". (٢) ومن قبل الله توبته تجاه من العذاب وأدخله الجنة بعلمه وحكمته ورحمته. أما الذين يصرون على السيئات والمعاصي من الكفر والشرك ونحو ذلك، ولا يتوبون إلا عند حضور الموت وكشف الغيبات، لا يقبل الله منهم التوبة ولا الإيمان عند حضور الموت؛ لأنه في ذلك الوقت لا يبقى الغيب غيبا بل يصير شهادة ولا معنى للإيمان حينئذ.

(١) زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي، ٣٨٣/٦ - ٣٨٤. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي، ٦٥/٢. التفسير الكبير للرحبي، ٢٩٣/٤ - ٢٩٥.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الدعوات، باب إن الله يقبل توبة العبد ما لم يفرغ، ج ٦، ص ٨٠، رقم ٣٥٣٧، من حديث ابن عمر رضي الله عنه. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

وقال العجلوني: رواه الترمذي بسند حسن.

كشف الخفاء للعجلوني، تحقيق: عبد الحميد بنسلاوي، ط ١، المكتبة العصرية، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م، ٢٨١/١.

وقال الميمني: رواه أحمد، ورجال رجال الصحيح غير عبد الرحمن، وهو ثقة.

مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للنهشي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للنهشي، تحقيق: حسام الدين القاسمي، مكتبة القدسي، القاهرة، مصر، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م، ١٩٧/٢٠.

وحسنه الألباني.

يُنظر: صحيح الجامع الصغير وزيادته، للألباني، طبعة المكتب الإسلامي، ٣٨٦/٦.

وذلك مثل إيمان فرعون وتوبته التي لم يقبلها الله منه لقوات الأوان، فقال تعالى عنه: ﴿حَقَّقْ إِذَا أَذْرَكَ الْقَرْقُ قَالَ
عَافَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي عَافَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ٥ عَالَمٌ وَكَذَّ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكَذَّ
مِنَ الْمُتَسِيدِينَ﴾^(١). ومثل هؤلاء في علم قبول التوبة الذين يموتون وهم كفار، فلا ينفعهم الندم والاستغفار، ولا
يقبل منهم إيمان ولا توبة في الآخرة. هذان الاثنان لهم عذاب مؤلم في الآخرة، يكون الكافر مخلدا فيه والمؤمن العاصي
غير النائب يدخله بمشيئة الله بقدر ذنوبه، ثم يخرج منه.

ومن أهم أهداف هذه المقارنة: الحث على المسارعة إلى التوبة، والإقلاع عن الذنوب والمعاصي قبل قوات الأوان،
لأن الموت يفاجئ الإنسان في أي وقت، ويبان رحمة الله وشفقته بعباده، إذ ترك لهم باب التوبة مفتوحا حتى للموت.
ومنها أيضا: بيان أن الندم والتوبة لا ينفعان الإنسان بعد الكشف عن الغيبات، بل إن لهذه الأمور وقتا محددًا
ينتهي بانتهاء عمر الإنسان، ولا يقبل منه بعد ذلك إيمان ولا توبة. وفي المقارنة أيضا تسلية للعاصين الملتزمين ببيان
أن الله تعالى يقبل التوبة عن عباده، فعليهم ألا يتحسروا على ما فات، ويجهدوا فيما هو آت.

٦- قال الله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا
وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيْكَا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الَّذِينَ َ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا
سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ
بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٢).

وردت الآية في سياق الحديث من اليهود الذين ذكر الله تعالى عنهم أنهم يشتركون الضلالة بأنفسهم، ويريدون من
المسلمين أيضا أن يضلوا، لكن الله عالم بأعداء المسلمين، وهو ولي المؤمنين وناصرهم، إذ ينصرهم ويكون في عونهم
ضد أعدائهم. ثم جاءت هذه المقارنة تبين شيئا من أفعال اليهود السيئة.^(٣)

■ نظرة تفسيرية:

يتحدث القرآن الكريم في هذه الآية عن اليهود، فقال: إن من هؤلاء اليهود قوم يتلون كلام الله في التوراة، ويزيلونه
عن مواضعه، ويفسرونه بغير مراد الله تعالى، إذ غيروا أحكام الرجم وصفة الرسول ﷺ من التوراة، ويقولون للرسول
ﷺ إذا دعاهم للإيمان: سمعنا قولك وعصينا أمرك، وسمع ما تقول لا سمعت شيئا (ويقصدون به الدعاء على رسول
الله ﷺ بالصميم، أي: لا أسمعك الله). وهم أيضا يقولون في أثناء خطابهم له ﷺ: "راعنا"، وهي كلمة سب، من
الرعوننة ومعناها الحق، فكانوا استهزاء به يتكلمون معه بكلام يحتمل الشتم والاحترام، فيظهرون به الاحترام والخير،
ويطعنون في أنفسهم الشر. هؤلاء يفعلون ذلك كله ميلا بالكسب عن الحق، وتحريفا إلى الباطل، وقدحا في الدين.

(١) سورة يونس، الآيات ٩٠ - ٩١.

(٢) سورة النساء، آية ٤٦.

(٣) راجع: الآيات ٤٤ - ٤٦ من سورة النساء.

إذا يقولون لو كان نبيا لعلم أننا نسبه بإعلام الله له ذلك. ولو أنهم قالوا قولاً لطيفاً مثل "سمعنا وأطعنا"، بدل قولهم الذئبع "سمعنا وعصينا"، وقالوا "اسمع وانظرنا" (أي: افهمنا ولا تعجل علينا) بدل قولهم راعنا، لكان خيراً لهم عند الله، وأعدل وأصوب مما قالوه، لما فيه من سوء الأدب والذم، لكنهم لم يسلكوا هذا الطريق، ولم يفعلوا ما هو خير لهم، لهذا أبعدهم الله عن الهدى وعن رحمته، وعذبهم بسبب كفرهم، فلا يؤمن منهم إلا قليل، لئلا فلا يؤمنون إلا إيماناً قليلاً لا يستحقون به اسم الإيمان.^(١)

■ وقفة مع المقارنة:

قارنت الآية الكريمة مقارنة صريحة مباشرة بين موقف اليهود من النبي ﷺ وكتابه ودينه، وبين ما ينبغي أن يكون موقفهم من هذه الأمور، ببيان خيرية ما ينبغي أن يكون موقفهم وحالهم في التعامل مع رسول الله ﷺ وما جاء به من عند الله. فثبتت الآية أنهم يحرفون كلام الله المنزل في التوراة، ويقولونه تأويلات باطلة مخالفة للحق الذي نزل به الله، ويقولون للنبي ﷺ: سمعنا قولك وعصينا لأمرك، ويخاطبونه خطايا مليكة بالسخرية والاستهزاء وقلة الأدب، بعيداً عما يليق به من الاحترام والتقدير، باعتبار كونه رسولاً مبعوثاً من الله، فيقولون له: اسمع لا سمعت شيئاً، وينسبون إليه الرعونة، وغرضهم بذلك الطعن فيه وفي الدين الذي جاء به، ومحاولة الانتفاص من شأغهم، مع أن شأن الإسلام ونبي الإسلام - عليه أفضل الصلوات وأتم التسليمات - لا ينتقص مهما حاولوا النيل منه، لأن الله هو الذي رفع شأنهم، فلا يمكن لبشر الخط من ذلك.

ثم صرحت الآية بأنهم لو احترمو رسول الله ﷺ وسمعوا قوله وأطاعوه، وخاطبوه باحترام وتبجيل، لكان خيراً لهم وأصوب طريقاً، لأن الاحترام يساعد على سماع للكلام وفهمه، وذلك يؤدي إلى طاعته والدخول في دينه الحق. ولا شك أن الدخول في الدين الحق خير للإنسان في الدنيا والآخرة. لكن كفر هؤلاء اليهود وإعراضهم عن سماع الحق، وعدم احترامهم للرسول ﷺ كان سبباً في عدم إيمانهم، وإبعادهم عن رحمة الله ودينه الحق.

ومن أهم أهداف هذه المقارنة: الدعوة إلى احترام الرسول ﷺ وسماع قوله، لأن فيه خير للإنسان، وبيان أن عدم احترام الرسول ﷺ وعدم طاعته سبب في الطرد عن رحمة الله، والبعد عن دينه الحق. ومن أهدافها أيضاً: الحث على عدم مخاطبة الرسول ﷺ بما يحتمل المدح والذم، وإن نوى الإنسان المدح، بل يجب احترامه باستخدام ما لا يحتمل إلا الخير والتقدير. وهكذا يجب أن يكون الإنسان مع أولياء الله ومعلمي الدين، لأن الاحترام يساعد على سماع الكلام وفهمه حق الفهم، ثم العمل به على الوجه الصواب.

٧- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ ۖ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ۖ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَبِيعَةً فَتُهَاجَرُوا

(١) يُنظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ٢٤٣/٥ - ٢٤٤. فتح البیان فی مقاصد القرآن، للفتاوى، ١٣٦/٣ - ١٤٠. صفوة التفسير، للصائبي، ٢٥٦/١ - ٢٥٧.

فِيهَا ۖ فَأُولَٰئِكَ مَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٣٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ
وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٣٨﴾ فَأُولَٰئِكَ عَسَى
اللَّهُ أَنْ يَغْفُو عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَفْوًا غَفُورًا ﴿٣٩﴾ وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ
وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُوَدِّعْهُ الْمَوْتَ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا
رَحِيمًا ﴿٤٠﴾ (١)

وردت الآيات بعد بيان فضيلة المجاهدين في سبيل الله، والتصريح بعدم المساواة بين المجاهدين والقاعدين من غير
أولي الضرر، وتوضيح أن المجاهدين لهم درجات ومغفرة ورحمة من عند الله. فبعد بيان فضيلة المجاهد والجهاد جاءت
هذه المقارنة لبيان فضيلة الهجرة والمهاجر؛ وذلك للتأكيد على أن الهجرة لا تقل أهمية وشأنًا عن الجهاد في الدين
الإسلامي. (٢)

■ نظرة تفسيرية:

بيّنت الآيات حال القاعدين عن الهجرة بعد بيان حال القاعدين عن الجهاد، فبدأت بالحديث عن قوم عاشوا في
دار الكفر ولم يهاجروا في سبيل الله، فقال الله: إن الذين تقبض الملائكة أرواحهم، وهم ظالمون أنفسهم، بترك الهجرة
والبقاء في بلاد الكفر والشرك ومجاورة الكفار الموجبة للإخلال بأمور الدين، تخاطبهم الملائكة وتقول لهم توبيخا
وتقريعا لهم على تقصيرهم: فيم كنتم؟! أي: في أي شيء كنتم من أمور دينكم؟ أكنتم في المشركين أم في المسلمين؟!
فيعتذرون بكونهم ضعفاء في الأرض، عاجزين عن مقاومة أهل الشرك، وعن القيام بواجبات الدين بين أهل الكفر،
ولكن اعتذارهم هذا غير صحيح، لأنهم كانوا يعرفون الطُّرُق ويستطيعون الحِيل. فتقول لهم الملائكة إبطالا لعذرهم:
ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها من موضع الخوف إلى موضع أمن تقدرون فيه على إقامة الدين؟! ثم ذكر
الله أن أولئك الذين ذكرت أحوالهم الشنيعة مصيرهم في الآخرة جهنم، وهم من أهلها، كما أن مأواهم في الدنيا دار
الكفر، وساءت جهنم مصيرا لهم. ثم استثنى منهم الذين كان استضعافهم حقيقيا من ضعاف الرجال والنساء
والولدان الذين لا يستطيعون التخلص مما هم فيه، فلا قدرة لهم على أسباب الهجرة، من قوة على السفر ونفقة ولا
يعرفون طريقا إلى دار الهجرة. هؤلاء رجّاهم الله بالعفو عنهم بذكر لفظ "عسى"، وعسى من الله واجبة بمنزلة الوعد،
وجيء بلفظ الرجاء والعفو للإشارة إلى وجوب الهجرة وكون تركها ذنبا، يجب طلب العفو عليه. ثم ذكر الذين
يهاجرون في سبيل الله ترغيبا في الهجرة وبياناً لفضلها، فقيل: إن الذي يهاجر ويترك وطنه لأجل الله يجد في الأرض
مواضع كثيرة ينتقل إليها، كما يجد سعة في الرزق والصدر وغيرها من أنواع السرور. ثم بيّن الله أن من خرج من بيته

(١) سورة النساء، الآيات ٩٧ - ١٠٠.

(٢) راجع: الآيات ٩٥ - ١٠٠ من سورة النساء.

بغرض الهجرة، وتوفي في الطريق قبل الوصول إلى هدفه، فقد ثبت أجره على الله ثبوت الأمر الواجب، والله غفور
يغفر ما فرط من الذنوب، رحيم يرحم بأكمل ثواب الهجرة.^(١)

■ وقفة مع المقارنة:

قارنت الآيات الكريمة مقارنة غير صريحة بين الذي لا يهاجر في سبيل الله، ويظل في ديار الكفر، ولا يتمكن من أداء شعائر دينه، وبين الذي يهاجر في سبيل الله، فيترك بيته ووطنه لأجل الله جل وعلا. فبين الله تعالى أن الذي لا يهاجر مع القدرة على الهجرة وتوفر أسبابها، فيبقى في دار الكفر يظلم نفسه بالعيش بين الكفار؛ وذلك لأنه بالمقام في دار الكفر يتأثر الإنسان بالبيئة الكافرة الموجودة حوله، وبالتالي يفتنه الكفار عن دينه، فلا يتمكن من أداء شعائر هذا الدين على الوجه المطلوب، ومن ثم يعيش ظالماً نفسه بالبعد عن طاعة الله، وعدم أداء حق أوامره، كما يموت ظالماً نفسه. وتوبخه الملائكة عند الموت على ترك الهجرة، فيعتذر بالضعف، فترد عليه هذه الدعوى، ويقال له: لم لم تهاجر إلى بلاد أخرى في أرض الله الواسعة. أمثال هؤلاء يدخلون جهنم خالدين فيها كفاراً، غير خالدين فيها عصاة. وقد استثنى الله من هؤلاء المستضعفين في حقيقة الأمر، الذين ليست لهم حيلة ولا يعرفون طريقاً إلى دار الهجرة، ووعدهم بالعفو، لأنه عفو غفور.

أما الذي يهاجر في سبيل الله فراثاً بدينه يجد في أرض الله سعة، فيعيش حياة مطمئنة سعيدة متسعة من حيث الدين، فلا حرج ولا ضيق عليه في إقامة شعائر دينه وأداء أوامر ربه، ويوسع الله عليه في دنياه أيضاً فيعيش مطمئناً مرتاح البال. وأيضاً فإن هذا المهاجر الذي يخرج من بيته بنية الهجرة أوجب الله أجره على نفسه، سيعطيه إياه وإن لم يصل إلى هدفه ومات في الطريق، فله الجزء الحسن في الآخرة.

لقد حققت هذه المقارنة أهدافاً عدة، أهمها: الحث على الهجرة، وإثبات فضيلة المهاجر على غيره، وبيان أن المهاجر له أجر حسن في الدنيا في صورة سعة العيش، وفي الآخرة في صورة الرحمة والمغفرة من الله، والتأكيد على أنه لا عذر في عدم أداء أوامر الله بحجة الضعف في الأرض، وعدم القدرة عليها في دار الكفر؛ وذلك أن الإنسان مكلف بأداء أحكام الإسلام أينما كان، فإن لم يقدر على أدائها في موضع وجبت عليه الهجرة إلى موضع آخر. كما أثبتت المقارنة أن الضعف الحقيقي عذر مقبول عند الله، فمن كان مستضعفاً لا قدرة له على الهجرة في حقيقة الأمر لا يؤاخذ الله على ترك الهجرة. ومن أهدافها أيضاً: إثبات أن الأمور بنياتها، فمن خرج بنية الهجرة إلى الله ورسوله نال أجره وإن لم يصل إلى مطلوبه ومقصوده. ولا شك أن في ذلك إثباتاً لرحمة الله وشفقته بالعباد، إذ إنه يراعي ضعفهم وعجزهم في كل أحكامه.

(١) يُنظر: الوجيز، للواحدي، ص ٢٨٣ - ٢٨٤. المحرر الوجيز، لابن عطية، ١٠٠/٢ - ١٠٢. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود، ٢٢٢/٢ - ٢٢٤.

٨- قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝﴾ (١).

وردت هذه الآية في معرض الحديث عن أهل الكتاب الذين خاطبهم الله تعالى وبين لهم أنهم قد جاءهم رسول من عند الله، يبين لهم ما يخفون من كتابهم، أرسله الله ليهدي به إلى سبل السلام. وهذا الرسول يخرج الناس من الظلمات إلى النور، ويهدي إلى صراط مستقيم. ثم وضحت هذه المقارنة أن الذين يدعون ألوهية المسيح عليه السلام كفار، والله هو الإله الحق الذي يجب أن يُعبد. (٢)

■ نظرة تفسيرية:

تحدث الآية الكريمة عن قوم من النصارى كانوا يقولون عيسى هو الله، إذ يذهبون إلى القول بعقيدة الحلول، أي: أن الله حلّ في عيسى، (كما أن النصارى بشكل عام يعتقدون أن عيسى يحيى ويميت، فعقيدتهم تؤدي إلى هذا القول). فقد حكم الله على هؤلاء النصارى بالكفر، وأمر رسوله ﷺ بأن يقول للذين يعتقدون هذا تبكيئا لهم وإظهارا لفساد قولهم: من يستطيع إمساك شيء من قدرته تعالى، أو يقدر على منعه إن أراد أن يميت كل من في الأرض بمن فيهم عيسى عليه السلام الذي دعوه إلهًا وأمه؟ وذكر إرادة إهلاك الجميع، لتحويل الأمر وإظهار كمال العجز، ببيان أن كل شيء تحت قدرته وملكوته، فلا يقدر أحد، ومنهم عيسى عليه السلام، على دفع ما أراد الله إنزاله به فضلا عن دفع ما أراد إنزاله بغيره. وفيه أيضا إشارة إلى أن المسيح مثل سائر المخلوقات في العبودية والعجز، وعدم استحقاق الألوهية، وكونه عرضة للهلاك، كما أن فيه حجة على أصحاب هذا الاعتقاد. ووجه الاحتجاج هو أن المسيح لو كان إلهًا كما يقولون، لقدر على دفع أمر الله إذا أراد الله إهلاكه وإهلاك أمه. ثم ذكر الله أن له ملك السماوات والأرض وما بينهما من المخلوقات والعجائب، ومنها عيسى عليه السلام وأمه، وفيه إثبات الألوهية له بعد نفيها عن سواه. وهو يخلق ما يشاء من أنواع الخلق كما يشاء، من ذكر وأنثى أو من أنثى بلا ذكر كما خلق عيسى أو من ذكر بغير أنثى كما خلق حواء، أو من غير ذكر وأنثى كما خلق آدم عليهم السلام. وهو على كل شيء من الخلق والتدبير والثواب والعقاب قدير، ولا يعجزه شيء، فلا اعتراض لأحد من خلقه عليه، لأنه الفعال لما يريد. (٣)

(١) سورة المائدة، آية ١٧.

(٢) راجع: الآيات ١٥ - ١٧ من سورة المائدة.

(٣) يُنظر: مدارك التنزيل، للنسفي، ٤٣٦/١ - ٤٣٧. لباب التأويل، للخازن، ٢/٢٥. محاسن التأويل، للقاسمي، ٩٣/٤ - ٩٤.

■ وقفة مع المقارنة:

قارنت الآية الكريمة بين الله - الإله الحقيقي - وبين المسيح عيسى بن مريم الذي اتخذ النصارى إلهًا مقارنة غير صريحة. فبيّنت الآية أن عيسى عليه السلام ليس إلهًا، لأنه لا يملك شيئًا مما يملكه الإله المطلق الحقيقي، وقد كفر الذين قالوا إنه إله. وهو بشر مثل سائر البشر، لا يقدر على دفع الضر عن نفسه. فإن الله إذا أراد أن يهلكه ويهلك أمه ويهلك من في الأرض جميعًا، لا يقدر عيسى عليه السلام على منعه من تنفيذ هذه الإرادة، إذ لا قدرة له على النفع والضرر، لأنه لا يستطيع دفع الضر عن نفسه، فكيف يدفعه عن غيره. أما الله سبحانه وتعالى فهو الإله القادر المطلق الذي بيده الحياة والموت والنفع والضرر، ويده ملكوت كل شيء، يملك ما في السماء وما في الأرض وما بينهما من أنواع المخلوقات، قادر قدرة كاملة عليها. وهو الذي يخلق ما يشاء من المخلوقات، ويوجدتها من العدم في لحظة عين، لا يصعب عليه شيء من أنواع الخلق، يقدر على الخلق من غير أب ومن غير أم ومن غير أب وأم ومن أب وأم، وكل المخلوقات تأتي إلى حيز الوجود بقدرته وإرادته، فهو خالقها ومدبر أمرها والمهيمن عليها، وهو الذي يميتها متى شاء، فهو وحده القادر على كل شيء من الخلق والتدبير والثواب والعقاب وما إلى ذلك. أما ما سواه فلا يملك شيئًا في ملكوته.

ومن أهم أهداف هذه المقارنة: إثبات انفراد الله تعالى بالخلق والتدبير والقدرة والملك، والدعوة إلى الإيمان به وتوحيده، ونبذ الشرك والكفر بكل أنواعه. وفي هذه المقارنة أيضًا: بيان حقيقة المسيح عيسى عليه السلام الذي هو بشر مخلوق لله، والله ربه وخالقه كما هو رب سائر الخلق وخالقها.

٩- قال الله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ

يَتَّقُونَ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣١﴾﴾. (١)

جاءت الآية الكريمة خلال الحديث عن الآخرة التي ذكر الله تعالى عن الكفار فيها أنهم يقفون على ربحهم يومها، ويسألون عما فعلوا في الدنيا، ويقال لهم: ذوقوا العذاب بسبب كفركم وتكذيبكم. ثم ذكر أن المكذّبين بقاء الله هم الخاسرون يوم القيامة، ويتحسرون يومئذ على ما فرطوا في الدنيا، ويحملون أوزارهم فيها. ثم بيّن الله في هذه الآية حقيقة الدنيا بمقابل الآخرة. (٢)

■ نظرة تفسيرية:

ذكر الله في الآية مصير الدنيا ومنتهاى أمرها، فعقد مقابلة بين الحياة الدنيا والآخرة، لتوضيح أن الحياة الآخرة هي العالية السامية، أما الحياة الدنيا فهي إلى زوال وانتهاء. فقال الله: إن الحياة الدنيا شبيهة باللغو واللعب اللذين لا يدومان ولا فائدة لهما، فكذلك الدنيا لا تدوم وغالبها لا فائدة لها. واللعب هو العمل الذي لا يقصد به مقصدًا

(١) سورة الأنعام، آية ٣٢.

(٢) راجع: الآيات ٣٠ - ٣٢ من سورة الأنعام.

صحيحاً من حصول على نفع ودفع ضرر، والله هو طلب ما يصرف عن معالي الأمور، وعما بهم الإنسان ويعنيه. فالحياة الدنيا هو ولعب لمن اتخذها فرصة للتكاثر والتفاخر، وجمع الأموال من حرام، ولم يهتم بالأعمال الصالحة التي كلف الله بها، ولم يستعد لما بعد الدنيا من حيلة أخرى فيها الحساب والجزاء، وفيها النعيم المقيم لمن اتقى ربه والعذاب الدائم لمن لم يتق. أما بالنسبة للمتقين فالدنيا وسيلة للظفر يرضا الله يوم القيامة. والدار الآخرة خير من الدنيا للذين يتقون الشرك، لأن المؤمنين الفاسق وإن دخل النار إلا أنه يدخل الجنة في نهاية الأمر فتصير الآخرة خيراً له من الدنيا. وكانت الآخرة خيراً من الدنيا، لأن ما يحصل عليه للتقون من نعيم مقيم هو خير من الدنيا وما فيها، لأن خيرات الآخرة مبرأة من العيوب، وخيرات الدنيا موصوفة بها. ثم جاء الحث على التندر والتفكر في الدنيا والآخرة فقيل: أفلا تعقلون أن الآخرة خير من الدنيا؛ فترهبون في الدنيا وترغبون في الآخرة.^(١)

■ وقفة مع المقارنة:

قارنت الآية الكريمة مقارنة صريحة مباشرة بين الدنيا والآخرة، ببيان خيرية الدار الآخرة للذين يتقون الكفر والشرك والمعاصي. فقد صرحت الآية بأن الحياة الدنيا، بكل ما فيها من مسرات وملذات ومُتَع، مجرد هو ولعب لا فائدة منها ولا نفع فيها لأحد، فهي فانية زائلة، وكل مسراتها ومتعتها ناقصة مُعْتَصَة بالكدار والعيوب. أما الآخرة فهي خير بالنسبة للمتقين الذين قالوا رضا الله تعالى وفازوا بالجنة، وهي خير لهم، لأن لهم فيها النعيم المقيم الذي لا نقص فيه ولا عيب، والذي لا ينقطع ولا يزول أبداً، بل هم ما يكون فيه إلى الأبد. أما بالنسبة للكفار غير المتقين فلا خير لهم في الآخرة، بسبب ما لهم من العذاب المولم الشديد الذي لا يزول عنهم.

فالأخرة خير للمؤمن من الدنيا، والدنيا خير للكافر من الآخرة. قال رسول الله ﷺ: "الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ".^(٢) فعلى المؤمن أن يجتهد في الدنيا لينال جزاءه في الآخرة، وتكون الآخرة في حقه خيراً من دنياه. ومن كانت آخرته خيراً من دنياه فقد فاز فوزاً عظيماً، لأنما هي الباقية، والفوز فيها هو الفوز الحقيقي.

ومن أهم أهداف هذه المقارنة: التصريح بفضيلة الآخرة على الدنيا للمؤمن المتقي، والحث على التطلع إلى الآخرة وما عند الله فيها والتزهد في الدنيا، وتسلية الفقراء من المؤمنين الذين لا يجدون في الدنيا ما يكفيهم من مال ومتاع. فرغبتهم الآية بهذه المقارنة إلى توجيه الأنظار نحو الآخرة، والتطلع إلى ما عند الله فيها للأبرار، لأن ما عند الله خير لهم من الدنيا بكل ما فيها.

(١) يُظَر: البحر المحيط، أبي حيان، ٤/٤٨٤ - ٤٨٦. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٣/٢٢٣. التفسير الوسيط، لطباطبائي، ٦٤/٥.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرفق، باب الدنيا سجن للمؤمن وجنة للكافر، ص ١٢٨١، رقم ٧٤١٧، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

المبحث الثالث:

المقارنات من أول سورة الأعراف إلى آخر سورة هود

١- قال الله تعالى: ﴿وَالْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ۖ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٥ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ (١).

تحدث الله تعالى قبل هاتين الآيتين عن بعض القرى التي أهلكتها الله، والتي اعترفت بظلمها بعد أن جاءها بأس الله. ثم ذكر أنه يسأل المرسلين والمرسل إليهم يوم القيامة، ويخبرهم ما فعلوه في الدنيا، والذي لم يخف عن الله شيء منه. ثم بيّنت هاتان الآيتان أن الأعمال توزن يوم القيامة، ويجازى كل واحد وفق أعماله؛ فلا يظلم أحد عند الله. (٢)

■ نظرة تفسيرية:

يقول الله تبارك وتعالى إن وزن الأعمال، والتميز بين الراجع منها والخفيف والجيد والردى، حق ثابت يوم يكون السؤال والقصر. وصحائف الأعمال هي التي توزن عند الله، أو توزن الأعمال التي تأتي بصورة محسوسة، إذ تظهر الأعمال الحميدة بصورة حسنة والأعمال السيئة بصورة سيئة، يميزان ينصبه الله تعالى له لسان وكفتان، كل كفة يقدر المشرق والمغرب، لينظر إليه الخلاق؛ وذلك إظهاراً للعدل وقطعاً للعدو، وإقامة للحجة على الخلق. وأيضاً يسأل الناس عن أعمالهم، فتتطرق بها أيديهم وأرجلهم. (٣) ثم جاء تفصيل للأحكام المترتبة على الوزن، فقال الله: إن الذين ثقلت ورجحت كفة حسناتهم على سيئاتهم في الميزان، هم المفلحون الذين يفوزون بالمطلوب وينجون من المكروه، وعرف المفلحين للإشارة إلى أنهم الناس الذين بلغك أنهم مفلحون. وأما الذين خفت كفة حسناتهم ورجحت كفة سيئاتهم، هم الذين خسروا وغبنوا أنفسهم، بتضييع فطرة الإسلام التي يولد عليها كل مولود، والتي هي فطرة الخير التي جبل عليها الإنسان؛ وذلك بسبب ظلمهم مع آيات الله، بتكذيبهم بها وجحودهم لها. (٤)

(١) سورة الأعراف، الآيات ٨ - ٩.

(٢) راجع: الآيات ٤ - ٩ من سورة الأعراف.

(٣) قال الإمام الألوسي رحمه الله: "الوزن يومئذ الحق هو عند كثير من الصوفية اعتبار الأعمال. وذكروا أن لسان ميزان الحق هو صفة للعدل، وإحدى كفتيه هو عالم الحسن والكفة الأخرى هو علم العقل، فمن كانت مكاسبه من المعقولات الباقية والأخلاق الفاضلة والأعمال الخيرية المفرونة بالنية الصادقة ثقلت، أي: كثرت فاقدر الله، فاز بالتعظيم الدائم، ومن كانت مقتنياته من المحسوسات الفانية واللذات الزائلة والشهوات الفاسدة والأخلاق الردية خفت، وخسر هو نفسه لخروان التعظيم وهلاكه".

روح المعاني، للألوسي، ٣٣٧/٤، بتصرف.

(٤) يُنظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني، ١٦٥/٢ - ١٦٦، معالم التنزيل، للبهقي، ١٨٠/٢ - ١٨١. روح المعاني، للألوسي،

■ وقفة مع المقارنة:

قارنت الأيمان بين صنفين من الناس مقارنة غير صريحة باعتبار موازين أعمالهم يوم القيامة، فذكرت أن الذين ثقلت كفة حسناتهم هم الفائزون بالمطلوب وهو الجنة في الآخرة. هؤلاء هم الذين كانوا في الدنيا يستعملون لهذا الموقف العظيم، ويبدلون جهودهم كلها في سبيل رضا الله تعالى، ولكي تثقل حسناتهم يوم القيامة فيكونوا من الفائزين. هؤلاء هم المؤمنون العاملون الصالحات المتبعون لأوامر الله. أما الذين خفت كفة حسناتهم وثقلت كفة سيئاتهم يوم القيامة هم الخاسرون الظالمون لأنفسهم، والمستحقون للحرمان من الجنة والدخول في النار. ويستحقون هذا الجزاء بسبب ظلمهم بآيات الله في الدنيا وتكذيبهم لها وجحدتهم بها، وعدم اتباع أوامر الله وعدم الإيمان به تعالى. هؤلاء لا ترجع كفة حسناتهم بل ترجع كفة سيئاتهم في الآخرة، وبالتالي يحكم عليهم بالخسران وهو الخلود في النار والعياذ بالله.

ومن أهم الأهداف التي حققتها هذه المقارنة: الحث على الاستعداد للآخرة والزيادة من الأعمال الصالحة التي تكون سببا في ثقل الموازين في الآخرة، وبالتالي يظفر الإنسان بمطلوبه وهو الجنة، والتحذير من تكثير السيئات التي تكون سببا في خفة الموازين الموجبة للخسارة الدائمة في الآخرة.

٢- قال الله تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ وَيَأْتِي رَبِّهِ ۖ وَالَّذِي خَبَثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَجَسًا ۚ كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْقَائِلَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ (١).

ذكر الله تعالى فيما مضى أنه يرسل الرياح الدالة على رحمته، وهذه الرياح تسوق سحابا تقالا تنزل المطر على بلد ميت فتخرج منها الثمار، وهكذا يخرج الله الموتى من الأرض، فعلى الإنسان أن يتذكر ويتعظ. ثم جاءت هذه المقارنة بين ما يخرج من البلد الطيب بفعل المطر وما يخرج من الخبيث. (٢)

■ نظرة تفسيرية:

هذه الآية تشمل تفصيلا لمضمون جملة "فأخرجنا به من كل الثمرات"، حيث بين الله فيها اختلاف حال البلاد التي ينزل عليها ماء السحاب. فمثل هناك إخراج الثمرات بإخراج الموتى من الأرض يوم البعث، ومثل هنا باختلاف حال إخراج النبات من الأرض اختلاف حال الناس الأحياء في الانتفاع برحمة هدى الله، حيث ينتفع بالهدى من كانت فطرته طيبة ويحرم ذو الفطرة الخبيثة، كما تنتفع بالمطر الأرض الطيبة ولا تنتفع به الأرض الخبيثة. فالكلام يجمع العبرة بصنع الله والموعظة بما يماثل أحواله. فوضح الله أن الأرض الموصوفة بالطيب، أي: التي تكون ترجعها طيبة مناسبة لإخراج النبات الصالح والزرع والغرس، إذا نزل عليها مطر تنتفع به، فيخرج منها نباته الذي هو مستعد للخروج بأمر الله ومشيئته وإذن عناية وتكريم خاص منه. أما الذي خبث من الأراضي فلا يخرج منها بعد كد ومشقة

(١) سورة الأحزاف، آية ٥٨.

(٢) راجع: الآيات ٥٧ - ٥٨ من سورة الأحزاف.

إلا نباتا خبيثا غير نافع وغير صالح، يكون فيه شر وضرر بمن يستعمله كما لا تكون فيه بركة. وهكذا يستفيد المؤمن بالموعظة فتدخل قلبه ويتنفع بها، أما الكافر فحين يسمع الموعظة لا ينتفع بها ولا يعمل بالطاعة. ثم ذكر الله تعالى أنه يذكر أنواعا من الأدلة الدالة على عظيم القدرة المقتضية للوحدانية، ويضرب الأمثال للمؤمنين الذين يشكرون ربهم باعتراف نعمه والإقرار بها واستخدامها فيما يرضي الله، فهم المنتفعون بالآيات. (١)

■ وقفة مع المقارنة:

قارنت الآية المباركة بين البلد الطيب الذي ينتفع بسقوط المطر عليه وبين البلد الخبيث الذي لا ينتفع بمياه المطر النازلة عليه مقارنة غير صريحة. فذكرت الآية أن البلد الطيب حينما ينزل عليه ماء المطر يستفيد أرضه من هذا الماء؛ فيخرج منه نباتا طيبا نافعا برعاية الله تعالى وإذن خاص منه. هذا النبات ينفع الناس إذ يأكلون منه ويستفيدون منه في منافع أخرى مثل الاستفادة بظل الأشجار ونحو ذلك. أما البلد الخبيث فلا ينتفع بماء المطر إذا سقط عليه؛ إذ لا يخرج منه نبات، لأن أرضه غير صالحة للإنبات، ولو خرج منه نبات يكون خبيثا لا نفع فيه لأحد، فلا هو صالح للأكل ولا هو نافع في غير الأكل من المنافع الأخرى.

وفي الآية مثل للمؤمن والكافر، وذلك أن المؤمن مثل الأرض الطيبة والكافر مثل الأرض الخبيثة. فكما أن الأرض الطيبة تنتفع بماء المطر النازل عليها وتنبت زرعاً طيباً، كذلك المؤمن يستفيد بالدعوة إلى الإيمان والمواظب التي يسمعها، وبآيات الله في كونه وكتابه، فيؤمن بها ويعمل بمقتضاها، ويستفيد منه الآخرون حيث يتعامل معهم معاملة طيبة، ويدعوهم إلى دين الله الذي فيه صلاحهم في الدنيا وفلاحهم في الآخرة. وكما أن الأرض الخبيثة لا تستفيد بماء المطر النازل عليها ولا تخرج نباتاً إلا الخبيث غير النافع منه، كذلك الكافر لا ينتفع بالمواظب وآيات الله النازلة في كتابه والمنصوبة في كونه، فلا يؤمن ولا يستجيب للدعوة إلى الهدى؛ بل إن كل ما يخرج منه خبيث كالصد عن سبيل الله، وإيذاء الداعي إلى الله والوقوف في سبيله بكل ما أوتي من قوة ووسيلة. فلا هو ينتفع بنفسه بالهدى ولا ينفع غيره، إذ لا يؤمن ولا يدعو غيره للإيمان. وقد وضع رسول الله ﷺ هذا المثال توضيحاً بليغاً قائلاً: "مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتْ الْمَاءَ، فَأَنْبَتَ الْكَلَّا وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَفَنَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرَبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيَاحٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً، وَلَا تُنْبِتُ كَلًّا. فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقِهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ، فَعِلِمَ وَعِلْمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ". (٢)

(١) يُنظر: بحر العلوم، للسمرقندي، ٥٢٤/١. التحرير والتنوير، لابن عاشور، ٨ - ب/١٨٤ - ١٨٧. تيسير الكريم الرحمن في

تفسير كلام المنان، للسعدي، ص ٢٩٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب فضل من علم وعلم، ص ١٩، رقم ٧٩، عن أبي موسى الأشعري.

ومن أهم الأهداف التي حققتها هذه المقارنة الموجزة: الاستدلال على قدرة الله المطلقة، وبيان الفرق بين الطيب والخبث من الأراضي ومن الناس وإثبات فضل الطيب على الخبيث، والدعوة إلى الاستفادة بالمواظب والمقدي الذي أنزله الله لأنه عمل الطيبين والتحليل من الإعراض عنه لأنه عمل الخبيثين.

٣- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيََّ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ ۖ وَهُوَ يَقُولُ الصَّالِحِينَ ۖ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾^(١).

جاءت الآية بعد بيان حقيقة الأصنام التي يعبدونها المشركون، فوضح الله تعالى أنهم عبادة ضعفاء مثل الناس الذين يعبدونهم وينصرونهم، فلا قدرة لهم على شيء. وأمر الرسول ﷺ بدعوتهم مع شركائهم وطلب العون منها، والتعاون معها للكميد بالرسول ﷺ والحق الضري، وفي ذلك إثبات لعجزهم. كما أمر ببيان أن الله وليه وولي الصالحين، وأما أولياء الكفار فلا يقدرعون على نصرتهم أبدا.^(٢)

■ نظرة تفسيرية:

بعد أن بين في الآيات السابقة أن الأصنام لا قدرة لها على النفع والنصر، بين بهذه الآية أن الواجب على العقلاء عبادة الله، لأنه هو الذي يتولى متلفع الدين والدنيا، فأمر رسول الله ﷺ بالتصريح بأن الله حسي وكافي، وهو الذي يتولى حفظي ونصرتي ويمنع عني الضرر وعليه أتوكل وإليه ألقأ، وهو الذي أنزل القرآن الكريم للشتمل على هذه العلوم والخافع لليلة النافعة في الدنيا والآخرة، وهو ولي في الدنيا والآخرة وولي كل صالح بعدي بحيث يحفظهم وينصرهم فلا تضربهم عدوة من عاداهم. ثم جاء ذكر للأصنام مرة أخرى للفرق بين من يعبون عبادة ومن لا تجوز، ولبيان أن ما يعبدونه لا يملك نفعاً ولا ضراً، فقل: إن الذين تدعون من دون الله لا يملكون نصرتكم ولا ينصرون أنفسهم. ويرى الناس هذه الأصنام مقبلة بوجهها إليهم تقابلهم بعيون مصورة كأعما تنظر ولكنها لا تبصر شيئاً. واستخدم صيغة من يعقل لأن الخير جرى على فعل من يعقل.^(٣)

■ وقفة مع المقارنة:

فلاننت الآيات مقارنة غير صريحة بين الله الواحد الأحد وولي المؤمنين الصالحين، وبين الأصنام التي يدعونها المشركون من دون الله. فذكر الله تعالى على لسان رسوله أو أمره بأن يبين للكفار، أن الله وليه وهو الذي يحفظه وينصره ويتولى كافة أموره، ويعصمه من الناس فلا يضرونه إلا بشيء كتبه الله عليه، وهو الذي يعينه في أداء واجبات الدين ويوفقه إليها، وهو الذي نزل عليه الكتاب الذي فيه هدايته إلى الخير والصالح. والله وليه في الآخرة حيث ينصره

(١) سورة الأعراف، الآيات ١٩٦ - ١٩٧.

(٢) راجع: الآيات ١٩٤ - ١٩٨ من سورة الأعراف.

(٣) يُنظر: صفات الغيب، للرازي، ٤٣٣/١٥ - ٤٣٤. الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ٣٤٣/٧ - ٣٤٤. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٤٧٩/٣.

ويحفظه من أهوال الآخرة. ويأخذ بيده إلى أن يدخله الجنة. وهكذا يتولى الله للمؤمنين الصالحين جميعاً رعايتهم ويحفظهم من كيد الكائدين ويعتني بأمورهم ويكشف عنهم كرب الدنيا، وينجيهم في الآخرة من شدائد الحشر والحساب ويدخلهم الجنة. فيتولاهم بحفظه ونصرته ويكون في عونهم في كل مرحلة من مراحل الحياة. أما أولياء المشركين وهي الأصنام التي يعبدونها من دون الله، ويَدْعُونَهَا عند مواجهة الشدائد والمصائب لا تستطيع نصرتهم أبداً في الدنيا ولا في الآخرة، ولا تكشف عنهم شيئاً من الكربات بل هي أضعف من أن تحفظ وتنصر نفسها فكيف تنصر غيرها؟ وكذلك لا قدرة لها على سماع دعاء الداعين بله الاستجابة لهذه الدعوات. وهي لا تنظر ولا تبصر شيئاً وإن كانت في صورة أشياء حية لها أعين وأذن وما إلى ذلك، لكنها جماد لا قدرة لها على شيء أبداً.

ومن أهم أهداف هذه المقارنة: تسلية النبي ﷺ والمؤمنين ببيان أن الله معهم يحفظهم وينصرهم ويتولى أمورهم في الدنيا والآخرة، وبيان حقيقة الأصنام ومنتهاى ضعفها وعجزها والدعوة إلى البراءة منها، والدعوة إلى الإيمان بالله والتقرب إليه بالطاعات لنيل ولايته في الدنيا والآخرة والتي هي مصدر كل خير في الدارين.

٤- قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (١).

تحدثت الآية الكريمة عن حدث الهجرة الذي نصر الله فيه رسوله ﷺ، فقال إن الله نصر رسوله حينما أخرجه الكفار من بلده، وكان مع صاحبه في الغار يسلمه ويؤمنه بمعية الله لهما، فأنزل الله سبحانه على رسوله وأيده بجنود لا يراها الناس، وبذلك جعل كلمة الكفار السفلى وكلمة الله العليا الغالبة. (٢)

■ نظرة تفسيرية:

ذكر الله أنه جعل كلمة الذين كفروا، وهي كلمة الشرك والكفر والدعوة إليهما، مقهورة مغلوبة، وذلك بصد إيلاء الكفار للرسول ﷺ، وإعاقته على التخليص منها والوصول إلى المدينة، وتأييده بالملائكة في كثير من المواطن وبحفظه ونصرته في كل موقف. وصرح الله بأن كلمته، وهي كلمة التوحيد والدعوة إلى الإسلام والإيمان، هي الغالبة والظاهرة. وفي ذلك (أي: في الإيمان بكلمة الله مبتدأ) إشعار بأن كلمة الله عالية بنفسها، وإن علا غيرها فلا ثبات لعلوها، كما أن فيه تأكيد على فضل كلمة الله في العلو، وأنها هي المختصة به دون سائر الكلمات. وقد تم نصر رسول الله وارتقاء دولته، وهزمت كلمة المشركين وذلت دولة الشرك وأظهر الله دينه على كل الأديان. وختم الآية ببيان أن الله عزيز قاهر غالب في ملكه وانتقامه وانتصاره يحمي من لجأ إليه من ضرر الأعداء، حكيم في صنعته وأقواله وأفعاله يضع الأشياء في مواضعها ولا يفعل إلا الصواب. (٣)

(١) سورة التوبة، آية ٤٠.

(٢) راجع: الآية ٤٠ من سورة التوبة.

(٣) يُنظر: البحر المحیط، لأبي حيان، ٤٢٢/٥. التفسير المظهر، لنساء الله، ٢١٩/٤. التفسير المنير، للزحيلي، ١٠/٢١٢ - ٢٢٣.

■ وقفة مع المقارنة:

قارنت الآية المباركة بين كلمة الكفار التي هي كلمة الشرك والكفر والدعوة إليهما والدعوة إلى الكيد بالإسلام والمسلمين، وبين كلمة الله التي هي كلمة الإيمان والتوحيد والدعوة إليهما مقارنة غير حيادية. فصريح الله تعالى بأن كلمة الكفار - وهي كلمة الشرك والكفر - هي السفلى والمغلوبة الخاسرة لأن الله جعلها كذلك، فمضجها البذلة والمزعة، وإن فاق الكفار المسلحين في زمن من الأزمنة إلا أن مصيرهم ومصير كلمتهم إلى زوال وفناء ومزعة. وأما كلمة الله - الإيمان والتوحيد - فهي العليا الغالبة، والمؤمنون ببركة هذه الكلمة هم الأعليون إن كانوا متمسكين بها في حقيقة الأمر، وكلمتهم هي المنتصرة الغالبة على كل الكلمات والأديان، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (١).

وهذا ما حدث بالفعل زمن رسول الله ﷺ حيث كانت للكفار وكلمتهم الغلبة في أول الأمر، لكن الله جعلها المغلوبة والسفلى، وظهرت عليها كلمة الله وعلا للمتمسكون بها في نهاية الأمر، فارتقت دولة الإسلام وانتصر الدين الإسلامي على سائر الأديان. وسيكون كذلك في هذا العصر أيضا إذ تكون الغلبة للمؤمنين بإذن الله إن تمسكوا بكلمة الله واعتصموا بحبله.

ومن أهم أهداف هذه المقارنة: الدعوة إلى التمسك بكلمة الله وبيان غلو مرتجها، والتحذير من كلمة الشرك والكفر وبيان انحطاط منزلتها. كما أن من أهدافها بيان فضيلة الإيمان على الكفر والمؤمن المعتصم بكلمة الله على الكافر المعتصم بكلمة الكفر.

٥- قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ﴾ (٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ (٣).

وردت الآيات في معرض الحديث عن المنافقين الذين يخلفون بالله أنهم من المسلمين وما هم منهم، ويحاولون الهروب من الإسلام بكل طريق ممكن. ثم بينت هذه الآية موقف فريق منهم من الصدقات التي يوزعها رسول الله ﷺ بأمر من ربه. (٣)

■ نظرة تفسيرية:

يقول الله تعالى مخاطبا نبيه ﷺ إن من المنافقين فريق يعيبك ويطعن عليك في قسمة الصدقات وتوزيعها، وهي أموال الزكاة المفروضة، فيزعمون أنك تعطي من تشاء من الأقارب وأهل المودة ولا تراعي العدل في ذلك. فإن أعطاهم

(١) سورة الصف، آية ٩.

(٢) سورة التوبة، الآيات ٥٨ - ٥٩.

(٣) راجع الآيات ٥٦ - ٥٨ من سورة التوبة.

النبي ﷺ منها شيئا ولو بغير حق رضوا بهذه القسمة واستحسنوا فعله، وإن لم يعطهم منها غضبوا عليه وسخطوا وإن لم يكونوا مستحقين للعطاء. وفيه دلالة على أن المنافقين لا هم لهم إلا المنفعة الدنيوية، وأن رضاهم وسخطهم دائما للدنيا لا للدين، ولأنفسهم لا للمسلمين. ثم ذكرت الآية أنهم لو رضوا بما أعطاهم الله ورسوله ﷺ من الغنمة والصدقة وغيرها - وذكر الله للتعظيم والتنبيه على أن ما فعله الرسول ﷺ كان بأمره - ، وطابت به نفوسهم من غير نظر إلى ما أوتي غيرهم، وقالوا يكفينا الله في كل حال، وهو مبعطونا من فضله من غنمة أو صدقة أخرى لأن فضله لا ينقطع، ويعطينا رسوله أكثر مما آتانا وهو لا يبخس أحدا شيئا يستحقه، وقالوا نحن راغبون إلى الله في أن يوسع علينا ويغنينا من فضله عن الصدقة وغيرها. والآية شرط وجوابه محذوف تقديره: لو فعلوا ذلك كله لكان خيرا لهم من الطمع وبز الرسول ﷺ. (١)

■ وقفة مع المقارنة:

قارنت الآيتان مقارنة غير صريحة بين موقف المنافقين من الصدقات التي يوزعها رسول الله ﷺ بأمر ربه، وبين ما هو خير لهم مما ينبغي أن يكون موقفهم من قسمة الرسول ﷺ. فلذلك الآية أنهم يعيرون رسول الله ﷺ ويظنون فيه حينما يوزع الصدقات، ويقولون عنه إنه يوزع كيف شاء ولا يعدل في القسمة ويحابي أهل بيته وأصدقائه ولا يعطي غيرهم، مع أنه لا يفعل ذلك إلا بأمر ربه. هؤلاء يرضون إذا أعطوا شيئا من الصدقات كانوا يستحقونها أم لم يستحقوها، ويغضبون إذا حرموا منها، فكل همهم نيل المال ولا ينظرون إلى العدل والإنصاف ومقتضياتهما، والتي يريها رسول الله ﷺ في القسمة. ولا يهتمون بمصالح الإسلام والمسلمين بل كل همهم فالذئمة ومصلحتهم لما يرضون ويسببها يغضبون. ثم بينت الآية بعدها باستخدام أسلوب إيجاز الحذف أنهم لو رضوا بقسمة الله ورسوله وبما أعطاهم رسول الله ﷺ وقالوا يكفينا الله ولا حاجة لنا إلى مزيد من الأموال بعد حبة الله ومعينه، وتوكلوا على الله واطمأنوا بما يعطيهم من فضله، وارتاحت نفوسهم بقسمة الرسول وبما يعطيهم، ورغبوا إلى الله وتطلعوا إليه ووجهوا أنظارهم نحوه لكان خيرا لهم وأصوب وأهدى سبيلا في الدنيا والآخرة. فكانوا مطمئنين قانعين مرتاحي البال راضين بقسمة الله ورسوله في الدنيا، ومعداء في الآخرة بما يعطيهم الله من الجزاء الحسن على قناعتهم وصبرهم، فكان الله كافيا لهم في الدنيا والآخرة.

ومن أهم أهداف هذه المقارنة: الكشف عن خبث أحوال المنافقين والتحذير من اتباع سبلهم، والحث على الرضا والتسليم الكامل لفضل الله وقسمة رسوله ﷺ، والثقة الكاملة بخبر ما يفعله رسول الله ﷺ لأنه لا يفعل إلا ما يؤمر به من عند الله، ويأن أن الله يكفي المتوكلين عليه في الدنيا والآخرة. كما أن في المقارنة "إيماء بأن المؤمن يجب

(١) ينظر: ألبان التتيل وأسرار التأويل، للبيضاوي، ٨٥/٣، تفسير المازني، ١٤٠/١٠ - ١٤٢. أيسر التفاسير، محمد عبد اللطيف الخطيب، ط٦، المطبعة المصرية ومكتبتها، ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٤ م، ص ٢٣١ - ٢٣٢.

أن يكون قانعا بكسبه وبما يتأله بحق من صدقة ونحوها مع توجيه قلبه إلى ربه، ولا يرغب إلا إليه في الحصول على رغبته التي وراء كسبه وحقوقه الشرعية^(١).

٦- قال الله تعالى: ﴿الْمُتَّقُونَ وَالْمُتَّقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَنْكِرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيُقِيمُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ٣٧ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ٣٨ كَذَلِكَ مِنْ قَبْلِكَ كَانُوا أَفْكَرَ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأُولَئِكَ فَاسْتَغْنَوْا فَاِئْتَمْتُمْ بِحُكْمِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِحُلِيِّكُمْ كَمَا أَسْتَمْتَعِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِحُلِيِّهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ٣٩ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمَ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ٤٠ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ٤١ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٤٢ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرُسُلَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ٤٣ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٤٤ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِينٍ ظَنِيَ أَنْ فِي جَنَّاتٍ عَذَبٍ ٤٥ وَرِضْوَانٍ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ٤٦﴾

جاءت هذه الآيات الكريمة في معرض الحديث عن أحوال المنافقين وبيان أعمالهم الخبيثة، فذكر الله تعالى أنهم يستهزئون بآيات الله، ويعتدرون عن الاستهزاء بالخوض واللعب. ثم وضح الله أنهم كفارون وسيعذب الله المجرمين منهم الذين بقوا على نفاقهم ولم يتوبوا إلى الموت. ثم جاءت هذه الآيات تذكر بعضا من صفاتهم الخبيثة بقدر من التفصيل مقترنة بذكر صفات أعضادهم وهم المؤمنون^(٢).

(١) تفسير المازني، ١٤٢/١٠.

(٢) سورة العنكبوت، الآيات ٦٧ - ٧٢.

(٣) راجع: الآيات ٦٥ - ٧٢ من سورة التوبة.

■ نظرة تفسيرية:

أخبر الله عن المنافقين وعن حكم الله عليهم، فقال: المنافقون والمنافقات بعضهم على دين بعض لا ولاية ولا محبة بينهم، يأمرون بالمعكر - وهو كل ما يبيحه الشرع كالكفر والعصيان - ، وينهون عن المعروف - وهو كل ما حسنه الشرع كالإيمان والطاعة لله والرسول - ، وفيه دليل على فساد قلوبهم حيث يأمرون بعكس ما يأمر به العقلاء، ويمسكون أيديهم عن الصدقة فلا ينفقون في سبيل الله، ويمسكون أيديهم أيضا عن فعل الخير. هؤلاء نسوا الله فتركوا الإيمان به وطاعته والعمل بشرعه، فنسيهم الله بأن تركهم محرومين من كل هداية ورحمة ولطف ولم يمنع عنهم عذاب النار، وعبر عن النسيان بالترك مبالغة. ثم حكم عليهم بالفسق فقال هم الفاسقون الكافرون الخارجون عن طاعة الله والمستحقون للقب الفسق في الحقيقة. ثم ذكر جزاءهم، فقال: وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم التي تكفيهم، وتكفي جرمهم جزاء ونكالا، ولعنهم الله فأبعدهم عن رحمته، ولم يبق في الآخرة عذاب دائم لا يزيد ولا ينفي. وفيه أشد أنواع الوعيد لهم حيث توعدهم الله بالنار وبالعذاب المقيم الذي لا يتركهم لحظة، وذلك بعد أن لعنهم الله وطردهم من كل رحمة وخير. ثم خاطب الله المنافقين وقال لهم: أنتم أيها المنافقون كأولئك الذين من قبلكم، كانوا أشد منكم وأعظم فأملِكُوا فأنتم أخرى بالهلاك لغصيانكم. هؤلاء استمتعوا بنصيبيهم في الحياة ونسوا الآخرة كما استمتعتم أنتم بما كتب لكم في هذه الحياة، وخضتم في الباطل مثلهم، كما أن هؤلاء حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة فلم يستمتعوا منها بشيء، وهم خامسون وأنتم مثلهم لأنكم على منهجهم وطريقهم في الكفر والتكذيب. ثم قال: ألم يأت هؤلاء المنافقين خير الأمم السابقة التي جاءتها رسلها بالمعجزات والحجج الواضحة، فعصت الله بتكذيب رسله فأهلكها الله، وما ظلمها الله بما أنزل عليها ولكنها ظلمت أنفسها بالكفر، وأنتم أيها المنافقون سينزل بكم ما نزل بهم إن لم تتوبوا. وبعد ذكر صفات المنافقين وأحوالهم ذكر صفات المؤمنين ترغيبا في الإيمان، فقال: إن المؤمنين والمؤمنات يوالي بعضهم بعضا في المحبة والنصرة والتعاون، يأمرون بالمعروف من الإيمان والعمل الصالح، وينهون عن المنكر من الشرك والمعاصي، ويقومون الصلاة على وجهها الكامل ويؤتون الزكاة، ويطيعون الله ورسوله. أولئك الموصوفون بما ذكر سرّحهم الله، والله عزيز غالب في نصره حكيم في تدبيره يصنع كل شيء بحكمة. ثم ذكر أن الله وعد المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحت غرفها وأشجارها الأنهار، ووعدهم قصورا طيبة في غاية الجمال وطيب الرائحة في جنات الإقامة. كما أنه يحل عليهم رضوانه وهو أكبر من جميع ما تقدم ذكره، وهذه الأمور المذكورة هي الفوز العظيم^(١).

■ وقفة مع المقارنة:

قارنت الآيات مقارنة غير صريحة بين المؤمنين والمنافقين بتكرار صفات الطرفين وأحوالهما، لتوضيح الفروق بين الاثنين، ولا شك أن بين المؤمنين والمنافقين يوتن شاسع، فالمؤمنون أولياء متحابين في الله، يدعو بعضهم لبعض، ويتعاونون

(١) يُظهِر: تفسير القرآن المسيحي، ٢/٣٢٤ - ٣٢٨. نحر الوجه، لابن عطية، ٣/٥٦ - ٥٩. أمير التفسير، للجزايري،

في أعمال البر والخير والتقوى، ويكون بعضهم في عون بعض. أما المنافقون فهم على دين وطريقة واحد من الكفر والقسوة لا محبة ولا مودة بينهم مثل المؤمنين. والمؤمنون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، والمنافقون على العكس منهم يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف فلا يفعلون الخير بأنفسهم ولا يتركون غيرهم يفعلون الخير، بل يمنعون غيرهم من فعله. والمؤمنون يقيمون الصلاة ويؤدون لوجه الله بنية خالصة بكامل أركانها وخشوعها وواجباتها، ويؤتون الزكاة وينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله في الصدقات الواجبة والمستحبة. أما المنافقون فلا يؤدون الصلاة، وإن أُجبروا على القيام إليها قاموا كسالى يراؤون الناس لا بنية خالصة ولا يذكرون الله في صلاتهم إلا قليلا، كما أنهم يحسبون عن الإنفاق بسبب البخل والشفح فلا يؤدون الزكاة الواجبة ولا يتصدقون تطوعا.

ومن الفروق بين الاثنين أيضا أن المؤمنين يطيعون الله ورسوله ويطبّقون أحكام الشرع فينظرون إلى أوامره في كل صغيرة وكبيرة فلا يخرج شيء من حياتهم عن أوامر الله ورسوله ﷺ، أما المنافقون فلا يهتمون بأحكام الله والرسول ولا يطيعونها، بل ينسون أحكام الله ويتجاهلونها، كما يعرضون عن طاعة الرسول ﷺ، وينهون كتاب الله وراء ظهورهم. كما أن المؤمنين يرحمهم الله في الدنيا فينعم عليهم بأنواع النعم ويكون في عونهم، ويدخلهم الجنة برحمته في الآخرة، أما المنافقون فتسببهم الله من رحمته وكرمه وفضله لأنهم نسوا تطبيق أوامر الله، وهم الخارجون عن طاعة الله مستحقون لللعنة منه تعالى. وبيّنت الآيات الفرق بين جزائهما في الآخرة أيضا، فالمؤمنون وعلمهم الله جنات تجري من تحتها الأنهار المختلفة الجميلة، ومسكن طيبة للعيش، والخلود في هذا النعيم اللقيم، وفوق ذلك كله يحل الله عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبدا. قال رسول الله ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ يَقُولُونَ: لَيْسَ لَكَ رِئَا وَسَعَتُكَ. فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى وَقَدْ أُعْطِينَا مَا لَمْ نَعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ. فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطِيتُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ. قَالُوا: يَا رَبِّ وَآيَ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلَّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا". (١) في حين أن المنافقين وعندهم الله بنار جهنم التي تكفيهم مأوى لهم، ولهم معها اللعنة من الله والسخط الدائم والخلود في هذا العذاب الدائم الذي لا انقطاع له ولا زوال.

ومن أهم أهداف هذه المقارنة: توضيح الفرق بين المؤمن والمنافق في الدنيا والآخرة، وإثبات فضيلة المؤمن على المنافق في الدارين، والرغيب في اتباع طريق المؤمنين والاتصاف بصفاتهم للفوز بمثل فوزهم العظيم، والتحذير من سلوك سبيل المنافقين والاتصاف بصفاتهم الخبيثة، والتخويف من عاقبتهم الوخيمة. وفيها أيضا التأكيد على أهمية رضوان الله الذي هو أكبر النعم وأعظمها، والحث على السعي في سبيل الحصول عليه.

٧- قال الله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، ص ١٣٤، رقم ٦٥٤٩، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

سَيِّئَةٌ يَفْعِلُهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ غَاصِبٍ ۚ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ^(١)

ذكر الله تعالى أنه يدعو الناس إلى دار السلام الذي هو الجنة، ويهدي إلى صراط مستقيم يوصل إليها. ثم بين في هذه الآيات جزاء المتبعين لهذا الصراط والمعرضين عنه^(٢)

■ نظرة تفسيرية:

يقول الله تعالى الذين أحسبوا في الحياة الدنيا أنهم آمنوا بالله ورسوله وعبدوا الله كما أمر وعملوا أعمالاً حسنة على الوجه اللائق بما لهم بالثبوت الحسن، وهي الجنة، وزيادة عليها وهي النظر إلى وجه الله تعالى، وهي زيادة أعظم من جميع ما أعطاهم الله بفضلهم ورحمته. ولا تغشى وجوههم غير ولا سواد من الكآبة والحزن، ولا أثر ذلة وهوان، فلا يغشى أهل الجنة شيء مما يغشى أهل النار من الحزن وسواد الوجوه لا في أهوال الحساب ولا بعدها، ولا إهانة لهم في الظاهر ولا في الباطن. وتكبر "قتر وقلة" للتحقير، أي: لا يغشاهم شيء منها، وفي ذلك بيان لأمتهم من المكابر بعد بيان فوزهم بالمطالب. ثم ذكر أن أولئك المذكورين المتصفين بالصفات الجميلة المذكورة الفائزين بالثبوت الحسن هم أصحاب الجنة خالدون فيها بلا زوال ولا انتقال. ثم ذكر حال أعدائهم وهم الكافرون فقال والذين عملوا السيئات من الشرك والمعاصي يحزون بمثل ما عملوا، فلهم بسينة سيئة ملها لا يزداد عليها كما يزداد في حسنات المحسنين، ويصيبهم الحزن والهوان، فتحيط بهم وتغشاهم ذلة عظيمة من معاصيهم وخوفاً من عقابها، وليس لهم من الله مانع يمنع عنهم عذاب الله ويعصمهم من سخط الله. وتكون وجوههم لقرط سوادها وظلمتها كأنما ألبيست أغطية من سواد الليل في حال ظلمته. أولئك الموصوفون بما ذكر من الصفات الذميمة أصحاب النار وهم خالدون فيها^(٣).

■ وقفة مع المقارنة:

قارنت الآيات مقارنة غير صريحة بين حال المؤمنين والكفار عند الوقوف بين يدي الله للحساب، وبينت ما يناله كل منهما من الجزاء من عند الله. فذكر الله تعالى أن للمؤمنين المثوبة الحسنة جزاء لهم على إيمانهم وعملهم الصالح فيدخلون الجنة، ولهم زيادة على كل ما في نعيم الجنة، وهي النظر إلى وجه الله تبارك وتعالى الذي لا شك أنه أكبر وأجل من الجنة وكل ما فيها من نعيم، وهم يتلذذون بهذه الرؤية كما صرح بذلك رسول الله ﷺ مفسراً الزيادة بالرؤية. فمن صهيبي رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله: «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنِهِمْ وَزِيَادَةٌ»، قال: "إذا

(١) سورة يونس، الآيات ٢٦ - ٢٧.

(٢) راجع: الآيات ٣٥ - ٢٧ من سورة يونس.

(٣) يُنظر: التفسير الوسيط للواحدي، ٥٤٥/٢. إرشاد العقل السليم لأبي السعود، ١٣٨/٤ - ١٣٩. الأساس في التفسير،

لسميد جوي، ٢٤٤٨/٥.

دَخَلَ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ نَادَى مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَرْغَدًا وَبَرِيدًا أَنْ تُنَجَّرُ كَمْثُوهُ. قَالُوا: أَلَمْ يَبَيِّنْ وَجْهَنَا وَيُنَجِّبْنَا مِنَ النَّارِ وَنُدْخِلَنَا الْجَنَّةَ؟ قَالَ: فَبُكِّشَفَ الْجَحَابُ، قَالَ: قَوْلَ اللَّهِ مَا أَعْطَاهُمُ اللَّهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ^(١). أما الكفار فلهم جزاء سيئ وفاقا للأعمال السيئة التي كسبوها من الشرك والكفر والعصيان، فلهم النار التي يُعَذَّبُونَ فيها، كما أنهم لا يرون ربحهم يوم القيامة بل يُحْجَبُونَ عنه ويُحْرَمُونَ لذة الرؤية ونعيمها، قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَخْجُورُونَ﴾^(٢).

وأيضاً يمتنع الآفة أن المحسنين تكون وجوههم ناعمة مسفرة مستبشرة لا يغطاها سواد بسبب حزن أو خوف، ولا يُرى في وجوههم نوع من ذلة وإهانة، بل تكون وجوههم بيضاء لامعة مشرقة عند الحساب والبحث وبعده عند دخول الجنة، أما الكفار فتغطيهم ذلة وهوان، وتكون وجوههم سوداء خوفاً من العقاب وحسرة على ما فُتِلُوا في الدنيا، كأنما غشيها قطعة من الليل المظلم بسبب شدة خوفهم وهوانهم، وتكون عليهم هذه الذلة من البحث عند الحساب إلى حين دخول النار التي تُلْفَح وجوههم. وبما يفرق بين الصنفين اللذين قارن الله بينهما أيضاً أن أهل الجنة يكفر الله عنهم سيئاتهم ويدخلون الجنة برحمته وشفاعة نبيه ﷺ ويخلدون فيها إلى الأبد. أما أهل النار فليس لهم ولي ولا حميم ولا تنفعهم شفاعة شافع، ولا يرحمهم الله فلا يمنع عنهم عذابهم، ولا عاصم لهم من أمر الله، ويخلدون في النار حيث ينتظرهم العذاب المقيم الذي لا ينقطع ولا يزول.

ومن أهم أهداف هذه المقارنة: إثبات فضيلة المؤمن على الكافر باعتبار حاله ومظهره وجزائه في النار الآخرة، وإثبات رؤية المؤمنين لربهم وحرمان الكفار من هذا النعيم العظيم، والدعوة إلى الإيمان والإحسان والترغيب في جزائه الحسن، والتحذير من الكفر وكسب السيئات والتخويف من جزائها السيئ.

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب التفسير، باب ومن سورة يونس، ص ٧٠١، رقم ٣١٠٥. وقال أبو عيسى: حديث حماد بن سلمة، هكذا رواه غير واحد عن حماد بن سلمة مرفوعاً. وروى سليمان بن المغيرة هذا الحديث عن ثابت، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قوله، ولم يذكر فيه عن صهيب عن النبي ﷺ. وأخرجه ابن ماجه في سننه بنحوه، كتاب السنة، باب فيما أنكرت الجهمية، ص ٢٨، رقم ١٨٧، وفيه أن صهيباً قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية، وقال، ثم ذكر الحديث. وأخرجه مسلم في صحيحه بنحوه، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى، ص ٩٢، رقم ٤٤٩.

(٢) سورة المطففين، آية ١٥.

المبحث الرابع:

المقارنات من أول سورة يوسف إلى آخر سورة الكهف

١- قال الله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ أَحْسَنُ ۖ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۖ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾. (١)

جاءت الآية الكريمة بعد مثل ضربه الله للحق والباطل، ذكر فيه أن الحق مثل الماء الصافي والمعدن النقي، والباطل مثل الزبد الذي يعلوهما، والحق هو الذي يبقى لينفع الناس مثل الماء والمعدن، وأما الباطل فهو زائل لا محالة مثل الزبد. ثم بينت هذه الآية جزاء المنتفعين بالأمثال القرآنية المستجيبين لدعوة الله والمعرضين عنها. (٢)

■ نظرة تفسيرية:

بعد توضيح الحق والباطل أخبر الله تعالى في هذه الآية عن حال أهل كل منهما في الآخرة تكميلاً للدعوة وترغيباً وترهيباً، فذكر أن الذين أجابوا ربهم إلى ما دعاهم إليه من الحق والتوحيد والشرعة بأساليب مختلفة، فأطاعوه وامتثلوا لأوامره وصدقوا أخباره كلها، لهم المثوبة الحسنة في الآخرة وهي الجنة. أما الذين لم يجيبوا ربهم إلى ما دعاهم إليه فعاندوه ولم يطيعوه، يتمنون يوم القيامة لو يكون لهم ما في الأرض من أصناف المال جميعاً ومثله معه ليجعلوه فداء لأنفسهم ويتخلصوا مما هم فيه من العذاب - وفيه تحويل لا يمكن بيانه -، ولكن الله لا يقبل منهم شيئاً، لأنه لا يُقبل منهم يوم القيامة عدل ولا تنفعهم شفاعاة. هؤلاء يحاسبون حساباً سيئاً فلن تقبل منهم حسنة ولن تكفر عنهم سيئة، ويناقدون على ذنوبهم كلها ولا يُفقر لهم منها شيء. ومرجعهم جهنم، وبئس المستقر جهنم. (٣)

(١) سورة الرعد، آية ١٨.

(٢) راجع: الآيتين ١٧ - ١٨ من سورة الرعد.

(٣) يُنظر: التفسير الوسيط، للواحدى، ١٣/٣. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٣٨٦/٤. روح المعاني، للألوسي، ١٢٥/٧ - ١٢٦.

وقال الألوسي رحمه عند ذكر ما هو من باب الإشارة في الآيات: "الذين استجابوا لربهم: بتصفية الاستعداد عن كدورات صفات النفس. الحسنى: المثوبة الحسنة وهو الكمال الفائض عليهم عند الصفاء. والذين لم يستجيبوا له تعالى وبقوا في الرذائل البشرية والكدورات الطبيعية، لو أن لهم ما في الأرض: الجهة السفلية من الأموال والأسباب التي انجذبوا إليها بالهبة فأهلكوا أنفسهم بها. لافتدوا به: مما يناههم من الحجاب والحرمان. سوء الحساب لوقوفهم مع الأفعال في مقام النفس. وجهنم: الحرمان".
روح المعاني، للألوسي، ١٣١/٧.

■ وقفة مع المقارنة:

قارنت الآية الكريمة مقارنة غير صريحة بين المستجيبين لدعوة ربهم والمعرضين عنها عن طريق الربط بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد، فذكر الله تعالى أن الذين استجابوا لدعوة الله ورسوله وهي دعوة الإيمان والإسلام فآمنوا بهما وأطاعوها وطبقوا أحكام الشريعة الإسلامية لهم في الآخرة مثوبة حسنة على استجابتهم الحسنة، وتلك المثوبة الحسنة هي الجنة التي أعدها الله للمتقين، والتي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. أما الذين أعرضوا عن هذه الدعوة ولم يستجيبوا لها، فبقوا على شركهم وكفرهم ولم يطيعوا الله ورسوله ولم يطبقوا أحكام الشرع لهم في الآخرة حساباً عسيراً إذ محاسبهم الله تعالى ويناقشهم على كل ما فعلوا في الدنيا ولا يترك من أعمالهم شيئاً، ومن نوقش الحساب عذب. (١)

ومن أهم أهداف هذه المقارنة: الدعوة إلى الاستجابة لله ورسوله وطاعتهما والعمل بأحكام الشريعة، والتحذير من الإعراض عن دعوة الإسلام والإيمان، والترغيب في الجنة والترهيب من النار، وبيان أنه لا شيء ينفع عند الله يوم القيامة إلا الأعمال الصالحة والاستجابة لدعوة الله والرسول ﷺ.

٢- قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ

إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۖ﴾ (٢).

وردت الآية على لسان سيدنا موسى عليه السلام، الذي أرسله الله تعالى بآياته ليخرج قومه من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، فذكر موسى عليه السلام بني إسرائيل بنعم الله عليهم والتي منها النجاة من آل فرعون. ثم حثهم على الشكر في هذه الآية. (٣)

■ نظرة تفسيرية:

خطب سيدنا موسى عليه السلام بني إسرائيل قائلاً: اذكروا نعمة الله عليكم واذكروا حين تأذن ربكم (٤)، أي: تكلم كلاماً علناً واضيحاً لا يبقى معه شك، حيث كلم الله موسى بما تضمنته هذه الآية على مسيح من جماعة من بني إسرائيل. والتأذن: مبالغة في الأذن. فأعلن الله تعالى مؤكداً كلامه باستخدام أدوات التأكيد المختلفة: لكن شكرتم يا

(١) عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: "مَنْ نُوَلِّشَ الْحِسَابَ غُلِبَ". قالت: قلت: أليس يقول الله تعالى: ﴿فَقَسَوْفَ يَنفَحُ نَفْخًا فَسَاءَ مَا يَكْسِبُونَ﴾. (الأنعام: ٨) قال: "فَلَيْكَ الْقَرْصُ".

أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب من نوقش الحساب عذب، ص ١١٣٢، رقم ٦٥٣٦.

(٢) سورة إبراهيم، آية ٧.

(٣) راجع: الآيات ٥ - ٧ من سورة إبراهيم.

(٤) وذكر النعمة لأن الجزاء عن شكر النعمة بالزيادة فيها نعمة وفضل من الله تعالى، وذلك لأن شكر النعم واجب ولا يستحق جزاء لولا سعة فضل الله.

التحريم والتنوير، لابن عاشور ١٣/١٩٣.

بني إسرائيل النعم التي أنعمت بها عليكم والتي منها الإنجاء من آل فرعون وإهلاك العدو وغيرها من النعم، وقابلتم هذه النعم بالإيمان والطاعة، لأزيدنكم في النعمة والثواب. وحذف مفعول "شكرتم" و"أزيدنكم" ليُقَدَّرَ عاما في الاثنين. ولئن كفرتم نعمتي وجحدتموها فلم تشكروها، فإن عذابي شديد لمن كفر وأنتم منهم فعسى أن يصيبكم منه شيء. والمراد بالكفر في الآية كفر النعمة وهو مقابلة المنعم بالعصيان، وأعظم أنواعه جحد الخالق أو عبادة غيره معه. وجاء ذكر العذاب بصيغة التعريض لأنها أوقع في النفس، ولأن من عادة الكرام التصريح بالوعد والتعريض بالوعيد، فكيف بأكرم الأكرمين؟! (١)

■ وقفة مع المقارنة:

قارنت الآية الكريمة مقارنة غير صريحة بين جزاء الشكر على النعم وكفرائها. فصرح الله تعالى وأكد باستخدام عدد من أدوات التأكيد على أن الشكر يزيد من نعم الله تعالى على العبد، أما الكفر وهو جحود النعمة وعدم الاعتراف بها فإنه يكون سببا في التعرض لعذاب الله الشديد. فالذي يشكر الله تعالى على نعمه التي لا تُعدُّ ولا تُحصى، والتي منها نعمة الإيمان والصحة والعافية والنعم المادية والمعنوية الأخرى، بحيث يعترف بكونها من عند الله تعالى، ويخضع لله ويتذلل له، ويطيعه ويصرف هذه النعم كلها في طاعته وعبادته يزيد الله فيها لا محالة. فمن شكر على نعمة الإيمان والهداية زاده الله هداية وتوفيقا إلى الصلاح والطاعة، ومن شكر على نعمة الصحة والعافية زاده الله صحة وقوة في جسده. وهذا ما نلاحظه في الحياة بشكل عام، بحيث نرى البركة والزيادة عند كل شاكر لما عنده من نعم الله، معترف بها غير ساخط على ما ليس عنده، منفق منها على غيره من المستحقين الذين لا يجدون منها ما يكفي حاجتهم.

أما الذي يجحد النعمة ويكفر بها، فلا يعترف بكونها من عند الله بل يظن أنه أوتيها على علم عنده، ولا يصرفها في طاعة الله وفيما أمر به، ولا يؤدي حق الله فيها، تُسَلَّب منه هذه النعم ويُحرم من البركة فيها، فيرى كل ما عنده من الخير قليلا لأنه حرم بركته، وبالإضافة إلى ذلك يتعرض لسخط الله تعالى وعذابه ومقته الشديد. ونشاهد هذا في حياتنا أيضا، إذ نرى أن الذي لا يشكر ربه ويظل شاكيا من قلة المال والمتاع متبرما من حياته، لا ينال المزيد، ويُحرم من البركة فيما يملك، كما يعرض نفسه لزوال النعم التي أنعم الله بها عليه ونقصاتها، ويظل يعاني ضيقا وقلة وحرمانا في حياته.

لقد حققت هذه المقارنة أهدافا متعددة، ومن أهمها: الحث على شكر الله تعالى على نعمه، والتحذير من جحودها وكفرائها، وبيان جزاء كل من الشكر والكفر، والتصريح بأن الشكر قيد الموجود وصيد المفقود، والكفر فقد الموجود.

(١) يُنظر: معالم التنزيل، للبغوي، ٣/٣١. إرشاد العقل السليم، لأبي السعود، ٥/٣٤ - ٣٥. التحرير والتنوير، لابن عاشور،

٣- قال الله تعالى: ﴿تَبَيَّنَ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿١﴾.

جاءت الآيات بعد ذكر موجز للنار والجنة، فذكر الله سبحانه أن للنار سبعة أبواب يدخل من كل باب صنف من الكفار. أما المقيمون في جنات يدخلونها بأمن وسلام بعد أن يترج الله من صدورهم كل غل وحسد، وليس لهم في الجنة تعب ولا مشقة، ولا يخرجهم منها أحد. وبعد هذا البيان الموجز جاءت هاتان الآيتان كاخاتمة له، إذ بين الله فيهما أنه غفور رحيم وعذابه شديد للعاصين المتمردين. (١)

■ نظرة تفسيرية:

في هاتين الآيتين تأكيد وتقرير لما سبق ذكره قبلهما من الوعد والوعيد والجنة والنار، فاقترضى هذا الذكر تنبيه الناس بهاتين الآيتين اللتين فيهما ترجية وتخويف. فخطب الله نبيه ﷺ وقال له: أَلْحِرْ وَأَعْلِمْ عِبَادِي يَا مُحَمَّدُ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الَّذِي أَسْرَ ذُنُوبَهُمْ إِذَا تَابُوا مِنْهَا وَرَجَعُوا عَنْهَا فَلَا أَفْضَحَهُمْ، وَأَغْفِرَ لَهُمْ فَلَا أَعَاقِبُهُمْ عَلَيْهَا، لِلرَّحِيمِ بِهِمْ أَنَّ أَحَدَهُمْ بَعْدَ التَّوْبَةِ مِنْهَا. وَأَلْحِرْ لَهُمْ أَيْضًا أَنَّ عَذَابِي لِمَنْ أَصْرَ عَلَى الْعَاصِي وَدَاوَمَ عَلَيْهَا وَلَمْ يَتُبْ مِنْهَا هُوَ الْعَذَابُ الْمَوْلَمُ الشَّدِيدُ الَّذِي لَيْسَ مِثْلُهُ عَذَابٌ آخَرُ. وَفِي وَصْفِ ذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى بِالْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ دُونَ التَّعَذُّبِ تَرْجِيحٌ لْجَانِبِ الْوَعْدِ وَتَأْكِيدٌ لَهُ. وَفِي الْآيَتَيْنِ تَحْذِيرٌ مِنَ الْعَاصِي وَأَسْرٌ بِالْإِنَابَةِ وَالتَّوْبَةِ. (٢)

■ وقفة مع المقارنة:

فارتب الآيتان الكريمتان بين مغفرة الله تعالى وعقابه مقارنة غير صريحة، فوضحت أن الله تعالى غفور يغفر الذنوب عن عباده وإن كثرت وبلغت غنان السماء، وهو رحيم مبالغ في الرحمة على العباد في الدنيا والآخرة. فرحمته تشمل الكفار والمؤمنين في الدنيا، في حين أنها خاصة بالمؤمنين في الدار الآخرة. ففي الدنيا يرحم الله العباد ويسبب رحمته عليهم بمرزقهم ويدفع عنهم أنواع البلاء المختلفة على الرغم من ذنوبهم ومعاصيهم، ويرحم المؤمنين في الآخرة لئلا يحلهم

(١) سورة الحجر، الآيتان ٤٩ - ٥٠.

(٢) راجع: الآيات ٤٣ - ٥٠ من سورة الحجر.

(٣) يُنظر: جامع البيان، للطبري، ١١١/١٧. المحرر الوجيز، لابن عطية، ٣٦٤/٣. التفسير المظهر، للقاضي ثناء الله، ٣٠٦/٥ - ٣٠٧.

وقد وردت في سبب نزول هاتين الآيتين رواية ضعيفة، فمن عبد الله بن الزبير أنه قال: مرَّ رسول الله ﷺ بضر من أصحابه وقد عرض لهم شيء، فضعفهم، فقال: "أضعفكون وذكر الجنة والنار بين أيديكم؟" فنزلت هذه الآية.

أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ١٠٤/١٣، رقم ٢٤٨.

وقال الميثمي: رواه الطبراني وفيه موسى بن عبدة وهو ضعيف.

مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للميثمي، تحقيق: حسان الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، مصر، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.

الجنة التي هي مظهر من مظاهر رحمته ولا يدخلها أحد إلا برحمة الله. ثم بين الله تعالى أنه مع هذه الرحمة والمغفرة العظيمة شديد العقاب، حيث أعد للعاصين المتمردين عذاباً أليماً مؤلماً يدخلونه في الآخرة ويواجهون فيه الشقاء الدائم. فالرحمة والمغفرة أوسع من العقاب والعذاب.

ومن أهم أهداف المقارنة: بيان سعة مغفرة الله ورحمته وشدة عذابه، والحث على البقاء بين الخوف والرجاء فعلى الإنسان أن يعيش حياته راجياً العفو والمغفرة والرحمة من الله خائفاً من عذابه وغضبه، كما أن فيها حث على الطاعة وتحذير من المعصية.

٤- قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝ لِيُخِيلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ۝ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهَ بُنْيَانُهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَنَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ۝ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ۖ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ۝ الَّذِينَ تَتَوَفَّيْهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ۖ قَالُوا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ ۖ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَيْشَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ۝ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا خَيْرًا ۖ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۖ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ۝ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ۖ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ۝ الَّذِينَ تَتَوَفَّيْهُمْ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ ۖ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝﴾ (١).

بعد إثبات وحدانية الله تعالى ذكر الله أن المجرمين مستكبرون، والله يعلم سرهم وعلايتهم، وهو لا يحب المستكبرين. ثم ذكر الله تعالى في هذه الآيات موقف هؤلاء المجرمين مما نزل الله مقترنا بموقف المتقين منه. (٢)

(١) سورة النحل، الآيات ٢٤ - ٣٢.

(٢) راجع: الآيات ٢٢ - ٣٢ من سورة النحل.

■ نظرة تفسيرية:

يقول الله تعالى عبراً عن شدة تكذيب المشركين بآيات الله: إذا سئل هؤلاء المجرمون الذين سبق ذكرهم عن القرآن الكريم والوحي الذي هو أكبر نعم الله تعالى على عباده: ماذا أنزل ربكم؟ وما هو قولكم عنه؟ فيجيبون بقولهم إنه كذب افتراه محمد ﷺ وما هو إلا قصص وأكاذيب الأقدمين التي يرويها الناس. هؤلاء بسبب مقاتلتهم هذه يحملون أثقال ذنوبهم التي أقاموا عليها كاملة يوم القيامة فلا يكفر لهم منها شيء، وأثقال ذنوب أتباعهم الذين دعواهم إلى هذه المقالة وصدوهم عن الإيمان بالقرآن، فقلدهم الاتباع دون علم ودليل، فيحملون أوزارهم بسبب دعوتهم إلى الضلال؛ وبسبب ما يحملون من الذنوب التي أثقلت ظهورهم. ثم ذكر الله أنه قد أشرك الذين كانوا قبلهم ومكروا برسولهم فأقلع الله مكروهم من أمساسه ورد وبال مكروهم وضرره عليهم، فجاءهم العذاب من الجهة التي كانوا آمنين منها. هؤلاء يمينهم الله يوم القيامة ويفضحهم على رؤوس الخلائق ويدين كذبهم ويقول لهم: أين الشركاء الذين كنتم تعادون الله وتحاربون المؤمنين لأجلهم وتزعمون أنهم شركاء لله فلن يدافعوا عنكم اليوم، وحيث لن يكون لهم جواب إلا الاعتراف بضلالهم وعنادهم. وينطق العلماء الربانيون بالحق يومئذ ويكون قولهم معتبر عند الله، ويقولون: إنه العذاب والهوان اليوم على الكافرين. ثم ذكر ما يفعل بهم عند الموت فقال: هؤلاء تقبض للملائكة أرواحهم في حال كفرهم وكثرة ظلمهم لأنفسهم، فيستسلمون ويتقادون لملك الموت، ويدركون ما للظالمين من العذاب فينكرون أنهم كانوا يشركون بالله ويفعلون سوءاً. فيقال لهم: بلى كنتم تعملون السوء والله عليم بكل شيء ولن يفيدكم الإنكار والجحود أبداً، فادخلوا جهنم من أبوابها، وبسبب منزلهم نار جهنم لأنها تورث الحسرة والندم، وهي منزل الشقاء والألم وبعد ذكر موقف المكذبين ذكر موقف المتقين من آيات الله، وهو أنهم اعترفوا وأقروا بأن ما أنزله الله نعمة وخير عظيم من الله على العباد، فقبلوا تلك النعمة وشكروا عليها وعملوا بها. والذين أحسنوا منهم في عبادة الله وأحسنوا إلى عباد الله، لهم في الدنيا رزق حسن وعيشة هنية وراحة قلب وأمن وسرور وكرامة من الله. والدار الآخرة وما فيها من أنواع الملذات والمشتريات خير لهم من نعيم الدنيا القليل الزائل. هؤلاء يدخلون جنات عدن تجري فيها الأنهار، ولهم فيها ما يشاءون مما تشتهيه أنفسهم على أكمل الوجوه وأنعمها، فلا يطلبون شيئاً إلا وهو حاضر لديهم. وهكذا يجازي الله المتقين القائمين بالفرائض التاركين للمنهييات، والذين تقبض للملائكة أرواحهم بسهولة، وهم مؤمنون طاهرون من كل نقص يخل في إيمانهم، وتسلم عليهم الملائكة وتحببهم وتقول لهم: قد سلمتم من كل آفة ومكروه فادخلوا الجنة جزاءً على إيمانكم وأعمالكم الصالحة. (١)

■ وقفة مع المقارنة:

قارنت الآيات المباركة بين موقف المتقين وموقف المجرمين مما نزل الله تعالى وجزائهما يوم القيامة. مقارنة غير صريحة. فذكرت الآيات أن المجرمين إذا سئلوا عما نزل الله تعالى يقولون عنه إنه قصص وأساطير الأولين اختلقها محمد ﷺ

(١) يُنظر: تيسر الكريم الرحمن، للمصدي، ص ٤٣٨ - ٤٣٩. تفسير القرآن، للسعدي، ١/٦٦ - ١٧٠. الكشف والبيان، للقمي، ١٣/٦ - ١٥.

والعباد بالله وتسبها إلى الله تعالى، فلا يؤمنون بهذا القرآن ولا يكتفون بعلم الإيمان بل يمنعون غيرهم أيضا من الإيمان ويصدونهم عن سبيل الله ويدعونهم إلى الضلال، فبذلك يحملون يوم القيامة أوزار ذنوبهم مع أثقال ذنوب الذين أضلّوهم عن سبيل الله. أما المتقون فهم إذا سئلوا عما أنزل الله قالوا عنه إنه خير، فيحملون به ويدعون غيرهم إلى الإيمان والعمل به فيحصلون على أجورهم وأجور من دعواهم إلى الهدى.

ثم ذكرت الآيات الفرق بين جزائهماء بالكفار لهم في الآخرة الخزي والهوان وليس لهم ولي ولا حميم ويضل عنهم شركاءهم الذين عبدوهم من دون الله في الدنيا، فلن تنصرهم يوم القيامة ولن تدفع عنهم عذاب الله. أما المتقون فهم بسبب إحسانهم وعملهم الصالح لهم في الدنيا عيش طيب هنيء، وفي الآخرة لهم جنات عدن تجري فيها الأنهار ولم فيها كل ما يشتهون ويطلبون وهي أكبر وأعظم مما لهم في الدنيا.

أما ما يتعلق بحالهم عند الموت، فهو كما ذكرت الآيات أن الظالمين تقبض الملائكة أرواحهم في حال ظلمهم وشركهم ويقائمهم على الكفر وتوحيهم على صنيعهم في الدنيا، ويقال لهم: ادخلوا النار من أبوابها فدخلوها ويخلدون فيها إلى الأبد لا يخرج لهم منها. أما المتقون فأرواحهم تقبض وهي طاهرة طيبة بالإيمان والعمل الصالح، وتكون وفاتهم سهلة على العكس من وفاة المجرمين، وتسلم عليهم للملائكة عند الموت وترحب بهم وتقول لهم: ادخلوا الجنة التي هي جزاء لأعمالكم الحسنة الصالحة.

وأهم أهداف هذه المقارنة: الدعوة إلى الإيمان بالقرآن الكريم، والعمل بأحكامه والتحذير من الإعراض عنه، والتخويف من دعوة الناس إلى الضلال لأنه يزيد من أوزار الإنسان يوم القيامة، والتحذير الشديد من نسبة الكذب إلى القرآن وصاحب القرآن، وبيان أن الدار الآخرة خير للمؤمن من الدنيا والحمت على التطلع إليها. كما أن فيها تشويقا للجنة وتخويفا من النار.

٥- قال الله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُونَ ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾﴾ (١).

بعد ذكر بعض مظاهر نعم الله تعالى على عباده ذكر الله أن المشركين يعبدون من دون الله ما لا يقدر على شيء في السماء والأرض، ثم نهاهم عن ضرب الأمثال له لأنه يعلم والناس لا يعلمون، ثم ضرب هذا المثل ليعلم الناس كيف تضرب الأمثال الصحيحة لقائلة البتة (٢).

(١) سورة النحل، آية ٧٥.

(٢) راجع الآيات ٧٢ - ٧٥ من سورة النحل. ويظهر: التفسير الجليل، ١٤/١٨٧.

■ نظرة تفسيرية:

بعد أن بين الله تعالى ضلال المشركين في إشراكهم بالله غيره ممن لا يجلب نفعا ولا ضرا لنفسه ولا لمن يعبد، ضرب لبيان فساد عبادة الأصنام مثلا لحالة الأصنام بالمقارنة مع ذاته تعالى، لتوضيح أن المشركين في الإشراك بالله كمن يسوي بين عبد مملوك وبين حر التصرف في ملكه. فضرب مثلا لعبد مملوك لغيره (وقيد العبد بالمملوك للتمييز من الحر الذي هو أيضا عبد لله) عاجز عن شيء من التصرف في المال مطلقا لعدم ملكه، وحر غني رزقه الله مالا كثيرا فهو يتصرف فيما آتاه الله وينفق منه سرا وجهرا كما يريد. والأول وهو العبد مثل للأصنام، والثاني وهو الحر مثل لله تعالى. ثم وجه استفهاما قائلًا: هل يستوي هذا وذاك؟! وذلك لبيان أنه إذا كان هذان لا يعقل بدهاة التسوية بينهما مع كونهما من جنس واحد ومشركين في الإنسانية، فكيف يمكن التسوية بين الإله القادر وهذه الأصنام المقهورة التي لا قدرة لها ولا إرادة، ولبيان أن موجد الكون لا يمكن أن يشبهه شيء من خلقه ولا يمكن لعاقل أن يشبهه به غيره، فاحتج بامتناع التسوية بينهما على امتناع التسوية بين الله والأصنام. ثم قال نتيجة لهذه المقارنة: الحمد الثام والشكر الجزيل لله على بيان هذا الأمر وعلى خضوع الخصم له وعلى ظهور الحجة، فالله هو المستحق للحمد الكامل لأنه المنعم المطلق دون ما يُعبد من دونه، ولا نعمة للأصنام حتى تشكر عليها. وختم الآية بذكر أن أكثر الناس لا يعلمون الحق حتى يتبعوه ولا يعرفون المنعم الحقيقي حتى يخصوه بالعبادة والحمد والشكر.^(١)

■ وقفة مع المقارنة:

قارنت الآية الكريمة مقارنة صريحة بين الله المالك الحقيقي والقادر المطلق، وبين الأصنام العاجزة عن كل شيء باستخدام أسلوب ضرب المثل. فضرب الله تعالى للأصنام العاجزة مثل عبد مملوك لسيده عاجز عن التصرف في شيء، لا يملك شيئا من المال والرزق، فهو وماله ملك لسيده. وكذلك هي الأصنام في عجزها وضعفها؛ فهي لا قدرة لها على شيء فلا تملك مالا ولا رزقا حتى تنفع أحدا، ولا تستطيع أن تضر أحدا، ولا هي قادرة على الحركة وأداء الأفعال بنفسها، بل إنها مثل العبيد الذين لا يفعلون شيئا إلا بأمر أسيادهم ولا اختيار لهم في شيء. فكذلك الأصنام لا تقوم بنفسها بعمل إلا أن يقوم لها غيرها بذلك.

ومثل الله لنفسه برجل حر رزقه الله من عنده رزقا طيبا واسعا ومالا كثيرا فهو ينفق منه كما يشاء ويتصرف في هذا المال كما يريد، سرا وعلانية وصباحا ومساء. كذلك الله سبحانه وتعالى - بل أكثر من ذلك فلا مقارنة بينه وبين خلقه - إذ يملك الخيار الكامل والقدرة المطلقة على الأشياء كلها، بيده الملك والأمر، يتصرف في ملكه كما يريد، ويعطي من يشاء ويمنع من يشاء، وينفع من يريد ويضر من يريد، لا يمنعه أحد من التصرف في ملكه والإنفاق من ماله على من يشاء وكيف يشاء.

(١) يُنظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي، ٢٣٤/٣ - ٢٣٥. البحر المحيط، لأبي حيان، ٥٦٩/٦ - ٥٧٠. التفسير المنير،

للزحيلي، ١٨٤/١٤ - ١٨٧.

ولا شك أن العبد المملوك العاجز لا يساوي الحر المتصرف في ماله؛ فكذلك لا تستوي الأصنام المخلوقة المقهورة مع الله الخالق القاهر القادر. وكل الحمد له على توضيح الأمور بالأمثال البليغة.

ومن أهم أهداف المقارنة: إصلاح عقائد البشر، ونرسخ عقيدة التوحيد في أذهان الناس، والحث على التفكير والتدبر للوصول إلى الطريق الصواب، والدعوة إلى عبادة الله وتوحيده وشكره لأنه الرب المالك المنعم المتصرف، ونبد الشك وتجنب عبادة الأصنام، وبيان منتهى ضعف الأصنام وعجزها.

٦- قال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهُهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ۖ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(١).

بعد أن نهي الله تعالى عن ضرب الأمثال له علم الناس طريقة ضرب الأمثال، بذكر مثلين، أحدهما سبق بيانه آنفاً، وهذا هو المثل الثاني.

■ نظرة تفسيرية:

هذا أيضاً مثل ضربه الله عز وجل لنفسه وللأصنام يدل على ما دلَّ عليه ما قبله أيضاً؛ فالأصنام مثل رجل وُلِدَ أخرس، لا قدرة له على النطق فلا يُفْهَم من غيره ولا يُفْهَم ما في نفسه، ولا يقدر على شيء من الأمور، وهو عيال وثقيل على من يلي أمره ويعوله من قريب أو صديق لعدم قدرته على مصالح نفسه، حيثما يرسله ويصرفه في طلب حاجة أو كفاية مهمة لم ينفع ولم يأت بخير ونجاح البتة، وكذلك الأصنام التي هي أموات لا تنفع ولا تضر، وتحتاج إلى نقل وخدمة ولا يأتي منها خير. ثم وجه استفهاما توبيخيا قائلاً: هل يستوي هذا ومن هو بليغ سليم الحواس نافع ذو خير يأمر الناس بالعدل الشامل لجميع الفضائل، وهو في نفسه مع نفعه العام على سيرة صالحة ودين قويم، لا يتجه إلا لمطلب إلا ويلغيه بأسهل سعي. وهذا مثل لله تعالى ولما يفيض على عباده من آثار رحمته ونعمه الدينية والدنيوية.^(٢)

■ وقفة مع المقارنة:

قارنت الآية المباركة مقارنة صريحة بين الله تعالى والأصنام، باستخدام أسلوب ضرب المثل. فضرب الله تعالى للأصنام مَثَل رجلٍ أخرس لا يتكلم ولا يقدر على شيء، وهو عبء على من يرعاه ويتولى أموره، ولا ينفعه في شيء من المصالح، فإذا أرسله سيده لأداء أمر والقيام بمهمة لن يكفيها ولن يتمكن من أدائها على الوجه المطلوب ولا يعود بخير أبداً. وهكذا هي الأصنام، فهي لا تتكلم ولا تسمع شيئاً لكونها جماد لا حياة فيها ولا حركة، كما أنها لا تملك

(١) سورة النحل، آية ٧٦.

(٢) يُنظر: الكشف، للزخشري، ٦٢٣/٢. المحرر الوجيز، لابن عطية، ٤١١/٣. محاسن التأويل، للقاسمي، ٣٩١/٦.

القدرة على شيء من أشياء الكون، فلا تستطيع التصرف في ملك الله ولا تحرك فيه بمقدار ذرة، إذ هي عاجزة عجزاً مطلقاً لا دخل لها في ملكوت الله. وبالإضافة إلى ذلك فهي لا تملك شيئاً من النفع لصاحبها بل هي عبء عليه، لأن صاحبها يجب عليه أن يرعاها ويقوم بحمايتها وتنظيفها وخدمتها ولا يأخذ منها شيئاً مقابل هذه الخدمة، فهي ثقل عليه دون فائدة ومصلحة تعود عليه منها، كما أنه إذا طلب منها تحصيل نفع أو دفع ضرر لا تستجيب لدعائه ولا تأتيه بخير البتة.

ثم ذكر الله تعالى لنفسه مثلاً رجل سيرته صالحة ودينه قويم، ويمشي على صراط مستقيم ويهدي الناس إليه ويأمرهم بالعدل الشامل لكل ما فيه خيرهم وصلاحهم. فإله سبحانه وتعالى هو صاحب القدرة التامة الشاملة ويده النفع والضرر، وهو الذي يسمع الدعاء ويأتي بالخير للناس بخلاف الأصنام. كما أنه ليس عبئاً على أحد بل الناس كلهم يعتمدون ويتوكلون عليه فيكفيهم ولها ونصيراً. والله على صراط مستقيم يأمر الناس بالعدل والقسط، فحرم الظلم على نفسه وعباده، وهو يهدي البشر إلى الصراط المستقيم الذي فيه صلاحهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة. ولا شك أن الله تعالى لا يستوي مع الأصنام العاجزة، كما أن الرجل الأخرس الثقيل على مولاه والذي لا نفع فيه ولا خير لا يستوي مع الذي يمشي على طريق صحيح ويهدي الناس إليه ويأمرهم بالعدل، فينفع نفسه وينفع غيره. ومن أهم أهداف هذه المقارنة البليغة: إصلاح عقائد الناس وترسيخ العقائد الصحيحة في الأذهان، فإن المثل يزيد المعنى وضوحاً ويثبت في الأذهان، وإقامة الحجة على العباد عموماً والمشركون خصوصاً بذكر ما هو واضح يعترف به العقلاء جميعاً، والدعوة إلى التفكير والتدبر، وتوضيح بطلان الشرك وبيان حقيقة الشركاء وإثبات عجزهم المطلق، مع إثبات توحيد الله تعالى واستحقاقه للعبادة وحده دون شريك.

٧- قال الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلِيهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ١٨ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ١٩ كَلَّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ٢٠ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ٢١﴾ (١).

بعد أن ذكر الله تعالى أنه أهلك قروناً كثيرة بعد قوم نوح عليه السلام، وبعد بيان أنه خير بصير بذنوب عباده، ذكر أنه يعطي الدنيا لمن يعمل من أجلها ويعطي الآخرة لمن يسعى ويعمل لأجل ثوابها. (٢)

(١) سورة الإسراء، الآيات ١٨ - ٢١.

(٢) راجع: الآيات ١٧ - ١٩ من سورة الإسراء.

■ نظرة تفسيرية:

يقول الله تعالى: من كانت منفعة الدنيا همه فأراد بعمله الدنيا ولم يرد غيرها تفضل الله عليه بالإعطاء من منافعتها بما يشاء الله، لمن يريد أن يعجل له بمشيئته وإرادته؛ وهكذا هي الحال فنرى كثيرا من الناس يتمنون من الدنيا ما يتمنون ولا يعطون إلا بعضا منه، وكثير منهم يحرمون البعض أيضا؛ فيجتمع عليهم فقر الدنيا وحرمان الآخرة. وله في الآخرة جهنم يدخلها ممقوتا مطرودا من رحمة الله. وفي ذلك ذم لمن أراد بعمله الدنيا وبيان أنه لا يحصل منها إلا ما قُدِّرَ له ثم يدخل النار في الآخرة. أما من أراد الآخرة وعمل لها العمل الصالح الموافق لقوانين الشرع والعقل، وأدى حقها من السعي، وهو مؤمن تقي مصدق لله في وعده ووعدته، يكون سعيه مقبولا عند الله تعالى مثابا عليه. وشكر الله يكون بثوابه للعاملين وثناؤه عليهم ومعاملتهم معاملة تدل على كونهم معظمين عند الله، فشروط قبول العمل عند الله ثلاثة، وهي: إرادة الآخرة، والإيمان الثابت، والسعي لأداء الأعمال الصالحة. ثم ذكر الله تعالى أن كل واحد من الفريقين يعطيه الله من رزقه ويزيده من عطائه، وهو لا يقطع عطائه عن أحد إذ يرزق المطيع والعاصي والبرّ والفاجر جميعا على وجه التفضل، فعطاء الله ورزقه ليس ممنوعا عن عباده وإن عصوا، ورزق الله يعم المؤمن والكافر في الدنيا ويخص المؤمنين في الآخرة. ثم أمر الله تعالى نبيه وكل من له أهلية النظر والاعتبار بالنظر بعين الاعتبار إلى عطائه للفريقين، وكيف أن الله فضل بعض الناس على بعض في المال والجاه والسعة والكمال، فأوصل هذه الأمور إلى أناس دون آخرين ليكون بعضهم تحت تسخير بعض، وكذلك فضّل الله بين الناس في العمل الصالح، فمنهم موفق للعمل ومنهم ممنوع منه. وفي ختام الآية بيّن الله أن الآخرة أكبر درجات، حيث إن نسبة التفاضل في درجات الآخرة إلى درجات الدنيا كنسبة الآخرة إلى الدنيا.^(١)

■ وقفة مع المقارنة:

قارنت الآيات مقارنة غير صريحة بين مريد الدنيا ومريد الآخرة. فقال الله إن من أراد الحياة الدنيا وزينتها وعمل لأجلها كل الأعمال يعطيه الله من زينة الحياة الدنيا ومالها ومتاعها ما يشاء لمن أراد الله إعطاءه. فليس كل من يعمل لأجل الدنيا يحصل على ما يريد من متاع الحياة الدنيا وبهجتها، بل إن الأمر تابع لمشيئة الله تعالى وإرادته، فمن شاء أعطى ومن شاء حرّم، وما شاء أعطى وما شاء منع. ثم يدخل مريد الدنيا في الآخرة جهنم مطرودا من رحمة الله ومخذولا لا ناصر له من عذاب الله تعالى. فقد يتمتع مريد الدنيا والساعي لأجلها في الدنيا من مالها ومتاعها ويدخل نار جهنم في الآخرة، وقد يحرمه الله في الدنيا أيضا، فيجتمع له حرمان الدنيا والآخرة، وذلك لأن الأمر تابع لمشيئة الله وإرادته.

أما طالب الآخرة المؤمن المصدق بوعد الله وثوابه، والعامل لأجل نيل الجزاء فيها والساعي للحصول على مرضاة الله تعالى وثوابه، يكون سعيه مشكورا، فيشكر الله أعماله الصالحة، وذلك بتسجيلها في اللوح المحفوظ صغيرة كانت

(١) يُنظر: زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي، ١٦/٣ - ١٧. مدارك التنزيل، للنسفي، ٢٥٠/٢ - ٢٥١. غرائب القرآن،

للتيسابوري، ٣٣٤/٤ - ٣٣٦.

أو كبيرة، ثم مجازاته الجزاء الحسن عليها في الدنيا والآخرة، فإن الله لا يظلم مثقال ذرة، ولكن يُحَرِّم ثواب الآخرة من عمل لأجلها. ومن الفروق التي تتبين بين مريد الدنيا والآخرة من خلال الآيات أيضا ما ذكر الإمام النيسابوري قائلا: "في استخدام صيغة الماضي في قوله "من أراد الآخرة" وصيغة المضارع في قوله "من كان يريد العاجلة" إشارة إلى أن مريد نفع الدنيا لا يكون مذموما إلا إذا كان غالبا في ذلك ثابت القدم فسيح الأمل، ومريد الآخرة محمود بأدنى التفاته بعد وجود الشرط".^(١)

وقد صرح الله تعالى بأن عطاءه ليس ممنوعا عن عباده، بل يسعهم جميعا، ينال منه البعض حظه في الدنيا وآخر ينال حظه في الآخرة، ولكل واحد درجات تختلف عن الآخر في الدارين. وفي الأخير جاءت مقارنة موجزة أيضا بين درجات الدنيا والآخرة، فبين الله تعالى أن درجات الآخرة أكبر وأعظم من درجات الدنيا، وهي الأصلية والحقيقية، فينبغي العمل والسعي لنيل الدرجات العليا في الآخرة.

ومن أهم أهداف هذه المقارنة: الحث على التطلع للآخرة والسعي لأجل الحصول على المثوبة الحسنة فيها، والتزهيد في الدنيا ومتاعها الفاني، وبيان أن الآخرة أفضل وأعظم من الدنيا، وهي التي تستحق العمل والسعي لأجلها. ومنها أيضا: بيان أن طالب الدنيا قد يحصل على مراده وقد يُحَرِّم منه والأمر كله تابع لمشيئة الله تعالى، أما مريد الآخرة فيفضل الله عليه بالمثوبة الحسنة إن كان مؤمنا ساعيا لأجل رضا الله عاملا لجزاء الآخرة.

٨- قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۚ بِثَسِّ الشَّرَابِ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ۖ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۖ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُجَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ۖ نِعَمَ الْقَوَابِ وَحَسَنَتْ مُرْتَفَقًا ۖ﴾.^(٢)

ذكر الله تعالى أن هذا القرآن الكريم هو الحق النازل من عند الله؛ فمن شاء آمن به ومن شاء كفر، ثم ذكر جزاء المؤمنين به والكافرين به في الدار الآخرة.^(٣)

(١) غرائب القرآن ووعائب الفرقان، للنيسابوري، ٣٣٥/٤.

(٢) سورة الكهف، الآيات ٢٩ - ٣١.

(٣) راجع: الآيات ٢٩ - ٣١ من سورة الكهف.

■ نظرة تفسيرية:

يقول الله تعالى: إنا هيأنا وأعددنا للمشركين نارا عظيمة محيطة بالكفار مثل السرادق، والسرادق هو ما أحاط بالشيء كالسور والجدار. وهي هنا استعارة مكنية فشبه ما يحيط بهم من النار بالسرادق مبالغة في إحاطة دار العذاب بهم. وإن يطلب الكفار في النار ما يخفف عنهم شدة العذاب والحر ويزيل عنهم العطش، يعطون ماء كالْمُهْل، وهو دردي الزيت في اللون وشدة الحرارة، يشوي وجوههم من حرارته، وخص الوجه لأنه أكثر الأعضاء تألما من النار. ثم يَبِّنُ شناعة هذا الشراب، فقال: ينس الشراب ذلك الماء مشروبا ومغتسلا، وساءت جهنم متكأ للكفار؛ وسميت النار بالمرتفق - وهو مكان استراحة - تمكما، ولمشكلة قوله "وحسنت مرتفقا"، وإلا فلا ارتفاق ولا اتكاء ولا راحة لأهل النار. وبعد بيان حال الكفار جاء ذكر حال المؤمنين مراعاة لحال السامعين منهم، لأنهم بعد سماع ما للمشركين تتشوق نفوسهم إلى معرفة ما أعدّه للمؤمنين. فقال: إن الله لا يضيع أجر الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فمن أحسن لا يُجرم أجر عمله. ثم يَبِّنُ ما أجمل وأهم من عدم إضاعة أجرهم، فقال: أولئك الموصوفون بالصفات المذكورة آنفا لهم جنات عدن تجري فيها الأنهار المختلفة، ويجدون أنفسهم فيها محلّين بتزيين الله بأساور في أيديهم بلغت الغاية في الحسن والجمال، مصنوعة من ذهب وفضة، مرصعة بأصناف البواقيت، مختلفة الأنواع والأشكال، ويلبسون ثيابا خضرا، وهو أعدل الألوان وأنفعها عند البصر وكان من شعار الملوك، مصنوعا من سندس وهو رقيق الديباج مما يلبس مباشرة للجلد، واستبرق وهو غليظ الديباج مما يلبس فوق الثياب المباشرة للجلد، ويجلسون في الجنة متكئين على أسرة وفرش جميلة، جلسة راحة وترف، وخصّ الاتكاء لأنه هيئة المنعمين والملوك على أسرّتهم. ثم حُتِمَت الآيات بذكر أن هذا الثواب نعم الثواب، وحسنت الجنات مرتفقا ومتكأ.^(١)

■ وقفة مع المقارنة:

قارنت الآيات المباركة مقارنة غير صريحة بين جزاء المشركين والمؤمنين في الدار الآخرة عن طريق الربط بين الترهيب والترهيب والوعد والوعيد، تشويقا للجنة وتخويفا من النار. فذكر الله أنه أعد للمشركين نارا تحرقهم وتحيط بهم، فتكون حولهم من جميع الجوانب كالسور الذي يحيط بالبناء من كافة جوانبه، وإن طلبوا الفوْث والنجاة مما هم فيه من شدة الحرارة والعطش يُعْطَوْنَ ماءً كالْمُهْل، وهو المعدن المذاب أو الزيت الحار، والذي لا يزيدهم إلا عطشا وحرارة، بل يشوي وجوههم ويغلي في بطونهم غلي الحميم، وهو شراب سيئ لا يفيد ولا يغني من حرّ وعطش. ولا راحة للظالمين في النار ولا اطمئنان ولا متكأ، بل كل ما فيه عذاب وحميم وألم وسخرية وتهكم، حيث يُجمع لهم بين العذاب المعنوي والعذاب الحسي، ليزيد من ألمهم وحسرتهم.

أما أهل الجنة الذين آمنوا بالله حق الإيمان وصدقوا بإيمانهم بأعمال صالحة لن يضيع الله أجرهم، بل يجازيهم بالحسنات إحسانا وبالسيئات عفوا وغفرانا. هؤلاء لهم جنات تحيط بهم فيها أنواع النعيم المختلفة، ففيها أنهار وعيون للماء

(١) يُنظر: الكشف، للزمخشري، ٧١٩/٢ - ٧٢٠. التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي الكلبي، ٤٦٥/١. الجواهر الحسان، للثعالبي،

٥٢٢/٣ - ٥٢٣. التحرير والتنوير، لابن عاشور، ٣٠٨/١٥ - ٣١٤.

والخمر والعسل، ولا يطلبون فيها غوثا ولا عوناً لأن لهم فيها كل شيء يشتهونه ويريدونه، ويلبسون فيها لباساً من الحرير الرقيق والغليظ، لونه أخضر يسرّ العيون ويهيجها، ويتحلّون بأساور ذهبية وفضية مرصعة بالجواهر والياقوت واللاقي. هؤلاء يجلسون في هذه الجنات مطمئنين مرتاحين، على فرش مصنوعة من حرير خضر كما يجلس الملوك وأهل الترف والغنى، لا ينقص راحتهم شيء ولا يحزنهم أمر، بخلاف أولئك الذين في النار والذين لا راحة لهم ولا سكون. نعم الثواب ثواب أهل الإيمان والطاعة، وساء العذاب عذاب أهل الكفر والمعصية، وحسنت الجنة مرتقفا للأبرار وساءت النار مرتقفا للفجار.

ومن أهم أهداف هذه المقارنة: التشويق للجنة والتخويف من النار، والدعوة إلى الإيمان والعمل الصالح، ونبذ الشرك والكفر، وتشجيع المؤمنين الثابتين على إيمانهم والحث على سلوك سبيلهم، وبيان فضيلة أهل الإيمان على أهل الكفر في الدار الآخرة. كما أن فيها تسليّة للنبي ﷺ والمؤمنين وخصوصاً الفقراء منهم، وحث لهم على التطلع إلى ما عند الله للأبرار وعدم الحزن والتأسف على ما فاتهم من متاع الدنيا القاني.

الفصل الثاني: المقارنات من أول سورة مريم إلى آخر القرآن الكريم.

وفيه:

- المبحث الأول: المقارنات من أول سورة مريم إلى آخر العنكبوت.
- المبحث الثاني: المقارنات من أول سورة الروم إلى آخر سورة غافر.
- المبحث الثالث: المقارنات من أول سورة فصلت إلى آخر الحديد.
- المبحث الرابع: المقارنات من أول سورة المجادلة إلى آخر القرآن الكريم.

المبحث الأول:

المقارنات من أول سورة مريم إلى آخر سورة العنكبوت

١- قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۝ ٥٩ ۝ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ۖ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ۝﴾ (١).

جاءت الآيتان بعد ذكر موجز لعدد من الأنبياء عليهم السلام، مثل موسى وإسماعيل وإدريس عليهم السلام، وأعمالهم الحسنة. ثم جاءت هاتان الآيتان لبيان إنعام الله على هؤلاء الأنبياء، وحالة خلفهم السيئة. (٢)

■ نظرة تفسيرية:

أشارت الآية الأولى إلى الأنبياء الذين سبق ذكرهم في هذه السورة، وهم عشرة، أولهم في الذكر زكريا عليه السلام وآخرهم إدريس عليه السلام، فقالت: أولئك هم الذين أنعم الله عليهم بالنبوة من ذرية آدم عليه السلام، ومن الذين حملهم الله مع نوح في السفينة، ومن ذرية إبراهيم ويعقوب عليهم السلام. وهم الذين هداهم الله إلى طريق الحق وهو الإسلام واجتباهم واختارهم من الخلق لحمل رسالته ووحيه وشرح شريعته وكشف حقيقته. وقد جمع الله هؤلاء جملة من المزايا، منها: الأعمال الصالحة والمناقب الحميدة، ومنها: كونهم من نسل المصطفين الأخيار، وأنهم هداهم الله واصطفاهم لحمل رسالته. ثم بين الله رقة مشاعرهم وشدة تأثرهم عند سماع آياته؛ فمن صفاتهم أنهم إذا تلى عليهم آيات كتب الرحمن المنزلة المشتملة على تعظيمه وتمجيده وحججه سقطوا على وجوههم ساجدين باكين؛ خوفا من الله تعالى وخشوعا وخضوعا، وتعظيما له ورجاء منه ورغبة فيه، وفيه دليل على أن لآيات الرحمن أثرا في القلوب. وجمع بين السجود والبكاء للإشعار بأنهم مع تعظيمهم الشديد لمقام ربهم أصحاب قلوب رقيقة وعواطف جياشة بالخوف من الله. ثم تحدث عن خلفهم الذين جاءوا بعد هؤلاء المنعم عليهم، والخلف هم الأولاد، ويطلق بسكون اللام على الأشرار وبفتح اللام على الأخيار، والمراد به في الآية اليهود والنصارى وغيرهم من المشركين الذين جاءوا بعد أنبيائهم وخالفوا شريعتهم وأهملوا أوامرهم، ويكون في هذه الأمة أيضا من هذه صفته. فذكر أنه جاء من بعد هؤلاء الأخيار خلف سوء وشر، تركوا الصلاة المفروضة ولم يؤدوها في أوقاتها بكامل حقوقها على الوجه المشروع، واتبعوا الشهوات واللذات التي جعلتهم ينهمكون في المعاصي ويسارعون في عمل المنكرات. هؤلاء المضيعون للصلوات

(١) سورة مريم، الآيتان ٥٨ - ٥٩.

(٢) راجع: الآيات ٥١ - ٥٩ من سورة مريم.

المتبعون للشهوات سيلقون خسارنا وشرا في دنياهم وأخرهم، جزاء لهم على ضلالهم وانحرافهم عن الصراط المستقيم. وذكر القرطبي ورجح أن الغي اسم لواد في جهنم سمي به لأن الغاوين يصيرون إليه.^(١)

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: "يَكُونُ خَلْفَ مَنْ بَعْدَ سِتِّينَ سَنَةً أَضَاعُوا الصَّلَاةَ، وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ، فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا، ثُمَّ يَكُونُ خَلْفَ يَفْرَأُونَ الْقُرْآنَ، لَا يَعْدُو تَرَاقِيَهُمْ، وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ ثَلَاثَةَ: مُؤْمِنٌ، وَمُنَافِقٌ، وَفَاجِرٌ".^(٢)

■ وقفة مع المقارنة:

قارنت الآيات الكريمة مقارنة غير صريحة بين الأنبياء الذين أنعم الله عليهم والأولاد السوء الذين جاءوا بعدهم. فذكر الله تعالى أن الأنبياء الذين سبق ذكرهم أنعم الله عليهم، وهم من ذرية آدم ومن حمل الله مع نوح عليه السلام في السفينة ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل. هؤلاء هداهم الله ووقفهم إلى الإيمان والإسلام واصطفاهم من بين سائر خلقه لهذا الشرف العظيم والمنصب الكبير الذي هو منصب النبوة والرسالة، لما رأى فيهم من الصلاحية والاستعداد لذلك؛ فهو أعلم حيث يجعل رسالته. هؤلاء كانوا يعظمون الله تعالى حق التعظيم، ويتقونه حق التقاة، ويطيعونه في كل أوامره ونواهيه، وبسبب تعظيمهم لله كانوا يعظمون آياته التي تنزل وتلى عليهم ويقرؤها، فلا يعملون بما فيها من أحكام ويعتبرون بما فيها من مواعظ وعبر فقط، بل تتأثر قلوبهم وتتشعر أبدانهم حينما تتلى عليهم آيات الرحمن، إذ يكونون ويخترون على وجوههم سجدًا تعظيما لله وتأثرا بآياته العظيمة. ولهم في الآخرة أعلى درجات الجنان.

أما الخلف الذين جاءوا بعدهم فلم يتأثروا بآيات الله ولم تشعر منها قلوبهم فحسب، بل إنهم فعلوا أكبر من ذلك إذ تركوا العمل بأحكام الله وأوامره في كتبه المنزلة، وأضاعوا صلواتهم فلم يؤدوها حق الأداء ولم يحافظوا على إقامتها في أوقاتها، وساروا خلف شهواتهم النفسية بدل أن يسيروا مسيرة آبائهم ويتبعوا ما نزل الله في كتبه وعلى السنة رسله. هؤلاء ضالون ومصيرهم في الآخرة الهلاك والخسران وأودية النار التي تنتظرهم لتذيقهم ألوانا من العذاب، ويُسْتثنى منهم الثابتون المؤمنون العاملون للصلاحات؛ إذ يدخل هؤلاء الجنة مع سلفهم الصالحين من آبائهم وأجدادهم.

وقد حُققَت بهذه المقارنة أهداف متعددة، من أهمها: الدعوة إلى التمسك بسيرة الأنبياء الصالحين المنعم عليهم، وبيان أهميتهم وفضلهم على من سواهم، والتأكيد على أنهم أحق بالافتداء ليكون الإنسان معهم في الدار الآخرة وحسن أولئك رفيقا، والتحذير من ترك الصلاة واتباع الشهوات مع الحث على أن يكون الإنسان خير خلف لخير سلف وألا يكون مصدر ندم وحسرة لأسلافه.

(١) يُنظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ١٢٠/١١ - ١٢٥. مدارك التنزيل، للنسفي، ٣٤٢/٢ - ٣٤٣. التفسير الوسيط، لطنطاوي، ٤٩/٩ - ٥١.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ٤٤٠/١٧، رقم ١١٣٤٠، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. وقال المحققون: إسناده حسن. وأخرجه ابن حبان في صحيحه بترتيب ابن بلبان، ٣٢/٣، رقم ٧٥٥. وصححه الألباني.

٢- قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۚ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ ۖ أَلْعَلَّ ۚ جَنَّاتٌ عَذْنٌ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ۖ﴾ (١).

وردت هذه الآيات في سياق ذكر قصة سيدنا موسى عليه السلام الذي آمن به السحرة على مرأى من فرعون وقومه، وطلبوا من الله المغفرة من ذنوبهم وخطاياهم والتي منها السحر. وبعد هذا البيان جاءت هذه الآيات لتقرير مصير المؤمنين والكفار في الدار الآخرة، ثم أكملت قصة سيدنا موسى عليه السلام في الآيات بعدها. (٢)

■ نظرة تفسيرية:

أتم السحرة كلامهم واعظين فرعون ومخبرين له من عذاب الله ومرغبين له في الجنة، فقالوا: إن الذي يلقي الله مجرماً أي: كافراً عاصياً له عند الله جهنم لا يموت فيها فينقضي عذابه ويستريح، ولا يحيا حياة طيبة تنفعه، ولا يبطل عنه إحساس الألم. أما من لقي ربه يوم المعاد مؤمناً مصداقاً به قد مات على الإيمان والتصديق، وصدق إيمانه بالأعمال الصالحة وأتى بالطاعات، له المنازل الرفيعة والدرجات العالية والغرف الآمنة والمسكن الطيبة، في جنات إقامة تجري فيها الأنهار، يمكث فيها أصحابها ويدومون إلى الأبد. وهذا هو جزاء كل من تطهر من دنس الكفر والمعاصي الموجبة للنار بالإيمان والأعمال الصالحة. أما عصاة المؤمنين الذين ليسوا من أهل النار فإنهم يموتون فيها ثم يُخْرَجُونَ منها بشفاعة الشافعين. (٣)

■ وقفة مع المقارنة:

قارنت الآيات بين جزاء من لقي ربه مجرماً، أي: كافراً آثماً وبين من لقيه مؤمناً به عمل الصالحات ومات على الإيمان مقارنة غير صريحة. فكما أن بينهما بونا شاسعاً في الدنيا بينهما فرق كبير في الآخرة أيضاً؛ ففي الدنيا يعيش المجرم حياته متبعاً هواه مخالفاً لأوامر الله كافراً به سبحانه وتعالى، والمؤمن يعيش حياته وفق أوامر الله تعالى محاولاً نيل رضاه وثوابه.

والفرق بين جزائهما في الدار الآخرة أن من مات على الكفر ولقي الله يوم الحساب كافراً مجرماً يعاقبه الله تعالى ويدخله جهنم التي يُعَذَّبُ فيها إلى الأبد، فلا يموت ليستريح من العذاب وألمه، ولا يحيا حياة طيبة نافعة تنفعه، بل

(١) سورة طه، الآيات ٧٤ - ٧٦.

(٢) راجع: الآيات ٧٠ - ٧٧ من سورة طه.

(٣) يُنظر: فتح القدير، للشوكاني، ٤٤٥/٣ - ٤٤٦. محاسن التأويل، للقمي، ١٣٦/٧. الأساس في التفسير، لسعيد حوى، ٣٣٧٣/٧.

يظل يتعذب ويتألم. قال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾^(١). وتشير هذه الآية أيضا على أن عذاب أهل النار لا يخف ولا يزول أله عنهم أبدا.

أما الذي مات على الإيمان ولقي الله مؤمنا به مصدقا لإيمانه بالأعمال الصالحة والطاعات، فله الدرجات العليا في جنة الإقامة التي تجري فيها الأنهار، وتكون هذه الجنات جزاء له على تطهره من دنس الكفر والذنوب والمعاصي وإيمانه بالله وطاعته. وقد ذكر المصطفى ﷺ هذه الدرجات قائلا: "فِي الْجَنَّةِ مِائَةُ دَرَجَةٍ مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ مِائَةُ غَامٍ"^(٢). وقال ﷺ: "فِي الْجَنَّةِ مِائَةُ دَرَجَةٍ مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَالْفِرْدَوْسُ أَعْلَاهَا دَرَجَةٌ، وَمِنْهَا تُفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ الْأَرْتَعَةُ، وَمِنْ فَوْقِهَا يَكُونُ الْعَرْشُ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَسَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ"^(٣).

ومن أهم أهداف هذه المقارنة الموجزة: الحث على الإيمان بالله وباليوم الآخر، والدعوة إلى الإيمان بالله مع الترويح في ثوابه تعالى العظيم، والتحذير من الكفر والإجرام في حق الله تعالى مع التخويف من عقابه الشديد.

٣- قال الله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ۚ لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ إِلَهًا مَا وَرَدُوهَا ۚ وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ۚ لَهُمْ فِيهَا زَوْجٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ۚ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۚ وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ۚ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَقُ ۚ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّيْنَهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾^(٤).

جاءت الآيات المباركة في سياق الحديث عن يوم القيامة، فذكر مجيء يأجوج ومأجوج، ثم صرح الله بقرب الوعد الحق الذي تشخص فيه أبصار الكفار، فيعترفون بظلمهم أنفسهم. ثم جاءت هذه الآيات لتبين مصير الكفار ومعبوداتهم الباطلة يوم القيامة.^(٥)

■ نظرة تفسيرية:

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في سبب نزول هذه الآية: لما نزلت ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾. قال المشركون: الملائكة وعيسى وعزير يُعبدون من دون الله؟ فقال: لو كان

(١) سورة النساء، آية ٥٦.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في صفة درجات الجنة، ص ٥٧٤، رقم ٢٥٢٩، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في صفة درجات الجنة، ص ٥٧٥، رقم ٢٥٣١، من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

(٤) سورة الأنبياء، الآيات ٩٨ - ١٠٣.

(٥) راجع: الآيات ٩٦ - ١٠٣ من سورة الأنبياء.

هؤلاء الذين يُعْبُدُونَ آلهة ما وردوها، قال: فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾. عيسى وعزير والملائكة.^(١)

خاطبت الآيات الكريمة الكفار وصرّحت بمآلهم فقالت لهم: إنكم يا أيها الكفار وكل ما تعبدونه سوى الله تعالى من الأصنام والأوثان وقود جهنم وصغار الحجارة التي تُرْمَى فيها والتي تهيج به النار، وكلكم داخلون فيها. ولو كانت هذه الأصنام والأنداد التي عبدتموها من دون الله آلهة في حقيقة الأمر، كما زعمتم، لما دخلت النار وما وردتها، ولكن كل من العابدين والمعبودين خالدون في النار باقون فيها إلى الأبد، يتنفسون ويعيشون فيها، ولا يسمعون شيئاً يسرهم لشدة الهول وفظاعة العذاب. ويدخل الكفار النار مع معبوداتهم ليزيد حزنهم وغمهم برؤية آلهتهم معذبة مثلهم؛ وقد كانوا في الدنيا يرجون شفاعتها. وبعد ذكر أهل النار وما لهم من عذاب بسبب شركهم بالله عطف بذكر السعداء من المؤمنين بالله ورسوله، وهم الذين سبقت لهم من الله السعادة وعملوا الأعمال الصالحة من المعبودين مثل المسيح وعزير، وغيرهم من عامة الناس، وكان لهم الجزاء الحسن على أعمالهم الحسنة. فقال: أما الذين سبقت لهم من الله الرحمة والسعادة والمنزلة الحسنة، فهم مُبْعَدُونَ من العذاب حاصلون على جزييل الثواب. واستخدم اسم الإشارة "أولئك" للإشارة إلى علو منزلتهم في الفضل والشرف، أي: أولئك المنعوتون بما ذُكر مبعدون عن جهنم، لأنهم في الجنة وشتان ما بينها وبين النار. هؤلاء لا يسمعون صوت النار وحريقها في الأجساد، بل هم خالدون فيما تشتهيهم أنفسهم من النعيم؛ إذ سلمهم الله من المحذور وأعطاهم المطلوب والمرغوب. ثم بيّن نجاحهم من الفرع بالكلية، فذكر أنهم لا يحزنهم ولا يخيفهم الفرع الأكبر، وهو الموت أو النفخة في الصور، حيث تستقبلهم الملائكة بالرحمة والسلام، وتبشرهم إذا خرجوا من قبورهم، فتقول لهم: هذا يومكم الذي كنتم توعدون في الدنيا مجيئه، فلکم اليوم ما يسركم من المثوبة على الإيمان والطاعة.^(٢)

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک، ٤١٦/٢، رقم ٣٤٤٩، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الذهبي: صحيح. وروي أنه لما نزلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ قال عبد الله بن الزبير: أنا أخصم لكم محمداً، فقال: يا محمد أليس فيما أنزل الله عليك: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾؟ قال: نعم. قال: فهذه النصراني تعبد عيسى وهذه اليهود تعبد عزيراً، وهذه بنو تميم تعبد الملائكة، فهؤلاء في النار؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾.

أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ١٥٣/١٢، رقم ١٢٧٣٩، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وقال الهيثمي: رواه الطبراني وفيه عاصم بن مغيرة وقد وثق، وضعفه جماعة.

جمع الزوائد ومنبع الفوائد، للهيثمي، ٦٩/٧.

(٢) يُنظر: تفسير ابن كثير، ٣٣١/٥ - ٣٣٥. تفسير الجلالين، للمحلي والسيوطي، ص ٤٣٠ - ٤٣١. روح المعاني، للألويسي،

■ وقفة مع المقارنة:

قارنت الآيات مقارنة غير صريحة بين الكفار وأهنتهم الباطلة وبين الذين كُتِبَتْ من الله لهم السعادة من المؤمنين. فصرحت الآيات بأن المشركين وكل الأصنام والأوثان والطواغيت التي يعبدونها من دون الله، والتي هي راضية بعبادتهم لها وقود جهنم وهم خالدون فيها. ودخول هؤلاء النار أكبر دليل على بطلان إلهيتها لأنها لو كانت آلهة لحمت أنفسهم وعابديها من عذاب الله الشديد؛ لكن كل العابدين والمعبودين يجتمعون فيها، لتزداد حسرة العابدين برؤية أصنامهم وأهنتهم في النار، وهم كانوا يعبدونها ويخدمونها في الدنيا رجاء أن تنفعهم شفاعتها يوم القيامة، وتدفع عنهم عذاب الله تعالى. فيزدادون غما ونداما وحسرة على عبادتهم لها في الدنيا، وكل ما يرونها يزدادون حسرة على ما فرطوا في الدنيا. هؤلاء كلهم يعيشون في النار ويبقون فيها إلى الأبد ولا يسمعون فيها شيئا يسرهم ويخفف عنهم ألم العذاب، بل كل ما يسمعونه زجر وتوبيخ يزيدهم ألما وحزنا.

أما المؤمنون الذين ما عبدوا غير الله تعالى، ومنهم عباد الله الصالحين الذين لم يرضوا بعبادة الكفار لهم، كالنبي عيسى عليه السلام، يبعدهم الله تعالى عن النار فلا يسمعون صوتها المؤذي المؤلم، بل يدخلون الجنة التي فيها ما تشتهي النفس وتلد الأعين وهم فيها خالدون. وأيضاً لا يحزنهم الفزع الأكبر وهي النفخة للقيام من القبور، بل يقومون مطمئنين، وتستقبلهم الملائكة بالرحمة، وتسلم عليهم وتسليهم، وتبشرهم بالخير قائلة: هذا هو اليوم الذي كنتم توعدون في الدنيا ثوابه جزاءه.

ومن أهم أهداف هذه المقارنة: بيان أن الأصنام والشركاء لا تملك لنفسها ولا لمن عبدها شيئا من دون الله، والحث على اتباع سبيل السعداء المحسنين مع الترغيب في الحصول على مثل جزائهم، والتحذير من عبادة الأصنام مع التحذير من جزائهم، والتخويف من أهوال يوم القيامة، والحث على الاستعداد للأخرة والتطلع إلى ما عند الله فيها من الخير الدائم الباقي.

٤ - قال الله تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ۚ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ

لَهُمْ نِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يَصُبُّ مِنْ قَوْقٍ رُّمُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ۝ يَصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ
وَالْجُلُودُ ۝ وَلَهُمْ مَقْلِعٌ مِّنْ حَدِيدٍ ۝ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَيْرِ أُعِيدُوا
فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ۝ إِنَّ أَلَلَّةَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۚ وَلِيَّاسُهُمْ
فِيهَا خَيْرٌ ۝ وَهَدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهَدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ۝ (١)

(١) سورة الحج، الآيات ١٩ - ٢٤.

بعد بيان أن الله تعالى يسجد له كل ما في السماوات والأرض، من الأشجار والدواب والشمس والقمر وكثير من الناس، ذكر أن كثيرا آخرين منهم حق عليهم العذاب، ولا مكرم لمن أهانه الله والله يفعل ما يشاء. ثم بين الله تعالى في هذه الآيات صنفين من الناس اختصموا في ربهم، صنف كفر به والآخر آمن به، وذكر جزاء كل منهما في الآخرة.^(١)

■ نظرة تفسيرية:

روي عن أبي ذر رضي الله عنه أنه كان يقسم قسما: إن هذه الآية ﴿هَٰذَا يَوْمَ يَخَصِمَانِ فِي رَبِّهِمَا﴾ نزلت في حمزة وصاحبيه وعتبة وصاحبيه يوم برزوا في بدر.^(٢) والآية وإن كانت نازلة في هؤلاء بشكل خاص إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فهي تشمل هؤلاء خصوصا وكل المسلمين والكفار عموما، لأن الكفار جميعا داخلون في العذاب، والمؤمنين داخلون في رحمة الله وهي الجنة، والجنة والنار ليستا خاصتين هؤلاء دون غيرهم.

فبعد أن ذكر الله أهل السعادة والشقاء، ذكر ما دار بينهما من الخصومة في دين الله، فقال: هذان خصمان، والمراد بهما المؤمنون والكفار كلهم على العموم، ويدخل فيهم الذين تخاصموا يوم بدر وغيرهم، وتحت كل خصم أفراد لذا قال "اختصموا". هؤلاء اختصموا وتجادلوا في دين ربهم، ثم ذكر ما أعد للكفار، فقال: فأما الذين كفروا بالله من الفريقين فإني أخاف لهم ثياب من نار على الحقيقة أو من نحاس مذاب، أو شبهت النار بالثياب لأنها تكون لباسا لهم تحيط بهم كالثياب. ويصب عليهم من الحميم، وهو الماء الحار الذي انتهت حرارته، ويصل هذا الحميم إلى الباطن فيذيب ما في البطن من الحشا، ويحرق الجلود ويشويها، إذ يتأثر الجلد أيضا بالنار والحميم، وبالإضافة إلى ذلك يُضربون ويُدفعون بمطارق من حديد وسياط من نار. وكلما حاول المُعَذِّبُونَ الخروج من النار بسبب الغم الذي يلحقهم فيها أعيدوا فيها بضرب الزبانية بالمقامع، فيهبون فيها مرة أخرى، ويقال لهم: ذوقوا العذاب المحرق. وبعد ذكر ما أعد لأحد الخصمين من العذاب ذكر ما أعد من الثواب للخصم الآخر، فقال: إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار، يُجْلُونَ فيها بأساور أنشئت من ذهب ويُجْلُونَ لؤلؤا كالمملوك الذين يتزينون بالأساور القيمة، ويلبسون ثيابا من حرير أعلى بكثير مما في الدنيا. هؤلاء هداهم الله ووفقهم إلى الطيب من القول في الدنيا، وهو قول لا إله إلا الله والأقوال الطيبة الأخرى من الأذكار وغيرها، وأرشدتهم إلى طريق الله الحميد، وهو دينه الإسلام، كما أنه يهديهم في الآخرة إلى الطيب من القول، وهو حمدهم وثناؤهم على الله

(١) راجع: الآيات ١٨ - ٢٤ من سورة الحج.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله "هذان خصمان اختصموا في ربهم"، ص ٨٢٦، رقم ٤٧٤٣.

وهم حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث رضي الله عنهم، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة.

صحيح مسلم، كتاب التفسير، باب في قوله تعالى "هذان خصمان اختصموا في ربهم"، ١٣١١، رقم ٧٥٦٢.

وشكروهم له على توفيقه لهم (وليس في الجنة لغو ولا كذب فكل ما يقولونه طيب القول)، ويهديهم يومئذ أيضا إلى طريق الجنة ومنازلها الرفيعة. (١)

■ وقفة مع المقارنة:

قلنت الآيات الكريمة مقارنة غير صريحة بين خصمين تجادلوا في دين ربهم، أحدهما مؤمن والآخر كافر، وذكرت الفرق بين جزاء كليهما في الدار الآخرة. فكما أن الخصمين مختلفان في ربهم ودينه الذي أنزله في الدنيا؛ إذ إن أحدهما متبع له مؤمن به والآخر معرض عنه كافر به، فنتجبا لهذا الفرق بينهما في الدنيا يوجد بين جزائيهما فرق كبير في الآخرة. فالكافرون بالله ودينه الذي أنزله لطاية البشر جميعا، لهم في الآخرة نار جهنم التي يلبسون فيها ثيابا من نار، وتحيط بهم النار من فوقهم ومن أسفل منهم وعن يمينهم وعن شمائلهم، ويُصَبُّ عليهم ماءٌ بلغ منهجه في الحرارة يصل إلى جوفهم فيذيب ما في بطونهم، وتُحَرَّق جلودهم ويُضْرَبُونَ بمطارق من حديد. وهم يحاولون بسبب شدة عذابهم وخمهم الخروج من النار والتخلص من عذابها، ولكن لا يُؤْذَن لهم، بل إنهم يعادون فيها رخصا عنهم، وتزبد لهم الملائكة ألما وحسرة حين توبخهم، فتقول لهم: ذوقوا هذا العذاب المحرق الذي كنتم تكذبون به في الدنيا. فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: "إِنَّ الْحَمِيمَ لَيُصَبُّ عَلَيْهِ رُؤُوسُهُمْ فَيَنْفُذُ الْحَمِيمُ حَتَّى يَخْلُصَ إِلَى جَوْفِهِ فَيَسْلِتَ مَا فِي جَوْفِهِ، حَتَّى يَخْرُقَ مِنْ قَدَمَيْهِ وَهُوَ الصَّهْرُ، ثُمَّ يُعَاذُ كَمَا كَانَ". (٢)

أما الفرق أو الخصم الآخر المتبع لدين ربه المطيع له، فله جنات تجري من تحتها الأنهار، يلبس فيها لباسا من حرير رقيق وخليط، ويُحَلَّى بأساور مصنوعة من ذهب وفضة ولؤلؤ وكل ما يستحسنه الناس. ويشكر أهل الجنة ربهم على هذا النعم، وعلى أن هداهم الله للعمل الصالح الذي كان جزاؤه هذا التيمم الكبير. وقد أرشد الله هؤلاء إلى القول الطيب في الدنيا بالشهادة وغيرها من الأقوال الطيبة، وفي الآخرة بالبعد عن جميع أنواع القول اللائقي الخبيث، كما هداهم إلى طريق الإسلام في الدنيا وإلى طريق الجنة في الآخرة. وهؤلاء بخلاف أهل النار لا يريدون أبدا التحول والانتقال من مكانهم؛ ولا يحاولون الخروج منها أبدا، بل يقفون في الجنة راضين مرضيين يتلذذون بقرب الرحمن وبكل ما فيها من نعيم لا يريدون منزلا غيرها. كمال تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾. (٣)

ومن أهم أهداف هذه المقارنة: الدعوة إلى الإيمان والعمل الصالح والترغيب في ثوابه، والتحذير من الكفر والشرك وعقابه، والتشويق للجنة والتخويف من النار، وتسلية المؤمنين ووعدهم بالجزاء الحسن يوم القيامة.

(١) يُنظَرُ تفسير القرآن، للسجستاني، ٤٢٩/٣ - ٤٣١. الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ٢٩/١٢ - ٣١. البحر المحيط، لأبي حيان، ٤٩٥/٧ - ٤٩٧.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب صفة جهنم، باب ما جاء في صفة شراب أهل النار، ص ٥٨٦، رقم ٢٥٨٢، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب. وأخرجه الحاكم في المستدرک بنحوه، ٤١٩/٢، رقم ٣٤٥٨، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وقال الذهبي: صحيح.

(٣) سورة الكهف، آية ١٠٨.

٥- قال الله تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (١).

وردت الآية المباركة في سياق الحديث عن قصة الإفك، حيث برأ الله سبحانه السيدة عائشة رضي الله عنها مما قاله المنافقون عنها، وبين شناعة هذا الجرم وجزاءه في الآخرة، وختم هذه الآيات بهذه الآية مبينا أن الخبيث لا يليق به إلا الخبيث مثله، والطيب لا يليق به إلا الطيب مثله. (٢)

■ نظرة تفسيرية:

بين الله تعالى باستخدام أسلوب المقابلة أن النساء الزانيات الخبيثات للخبيثين من الرجال، والخبيثون الزناة من الرجال للخبيثات من النساء، لأن اللائق بكل من الطيب والخبيث ما يشبهه في الأقوال والأفعال والأخلاق، والتشابه في الطبائع من مقومات الألفة ودوام العشرة. وبما أن رسول الله ﷺ أطيب الطيبين وخيرة الأولين وآخرين فالصديقة أيضا من أطيب الطيبات، لأنها لو لم تكن طيبة لما صلحت لمصاحبة النبي ﷺ. وهكذا يبطل ما قاله عنها أهل الإفك من القول الشنيع، إذ هو قول لا يطابق حالها في الطيب والعفة. وهناك معنى آخر للآية، وهو أن الخبيثات من الكلمات، يعني كلمات الذم والتحقير ونحوها، يستحقها الخبيثون من الناس، والخبيثون من الناس يستحقون الذم والكلام الخبيث، والطيبات من الكلمات من المدح والثناء يستحقها الطيبون، والطيبون من الناس يستحقون الطيبات من الكلمات، وعائشة رضي الله عنها تستحق المدح والثناء لا ما قيل فيها من الإفك والبهتان. ثم وضع الله تعالى أن أولئك الطيبين والطيبات مثل صفوان رضي الله عنه والسيدة عائشة رضي الله عنها، بعداء مبرؤون مما يقوله أهل الإفك والبهتان الخبيثون عنهم، ولهم مغفرة من ذنوبهم وورق كريم من عند الله في جنات النعيم. (٣)

■ وقفة مع المقارنة:

قارنت الآية المباركة مقارنة غير صريحة بين الطيبين والخبيثين من الرجال والنساء. فذكر الله أن الخبيثين من النساء لا يناسبهن إلا الخبيثون من الرجال، وأن الخبيثين من الرجال لا يناسبهم إلا الخبيثات من النساء. أما الطيبون من الرجال والنساء فهم يناسب بعضهم بعضا، فالطيب لا يليق به إلا أن يتزوج طيبة مثله ليكون ذلك أدعى للألفة وحسن العشرة والمودة التي هي أساس الأسرة الصالحة التي هي الوحدة الأساسية في المجتمع البشري. فكل واحد من

(١) سورة النور، آية ٢٦.

(٢) راجع: الآيات ١١ - ٢٦ من سورة النور.

(٣) يُنظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبعضاوي، ١٠٣/٤. التفسير المظهر، للشيخ ثناء الله، ٤٨٤/٦ - ٤٨٥. التفسير المنير، للزحيلي، ١٩٢/١٨، ١٩٦/١٨ - ١٩٨.

الرجال والنساء لا يليق به التزوج إلا بمن هو مثله في الطيب والخبث. ولا يضر الطيبين ما يقوله الخبيثون فيهم فهم مبرؤون مما يقولونه فيهم، كما أن السيدة عائشة وسيدنا صفوان رضي الله عنهما مبرؤون مما قاله أهل الإفك فيهم، فالله يحفظهم من قول الخبائث، ويغفر لهم عن زلاتهم ويعطيهم رزقا كريما وهو الجنة في الآخرة. أما الخبيثون فلا شيء لهم عند الله تعالى، لأن الجزاء الطيب يكون للطيبين فقط، وليس للخبيثين إلا جزاء خبيث يناسب أقوالهم وأعمالهم وطبائعهم.

ومن أهم أهداف المقارنة: التصريح ببراءة السيدة عائشة رضي الله عنها وصفوان رضي الله عنه من قول أهل الإفك، وبيان أن الطيب يناسب طيبا مثله والخبيث يلائمه خبيث مثله، فالمرأة الطيبة تتزوج الرجل الطيب والعكس، والخبيثة تتزوج الخبيث والعكس، وبيان أن الكلمة الطيبة والجزاء الطيب يستحقها أهل الطيب، والكلمة الخبيثة والجزاء الخبيث يكون لأهل الخبث قولاً وعملاً وعقيدة.

٦- قال الله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٥٠﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٥١﴾﴾. (١)

وردت هاتان الآيتان خلال قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام الذي دعا ربه بعبدة دعوات، منها عدم الخزي يوم لا ينفع مال ولا بنون. ثم جاء ذكر يوم القيامة وحال الجنة والنار في ذلك اليوم. (٢)

■ نظرة تفسيرية:

اقتضى الخروج إلى تصوير هذه الأحوال مقام الدعوة إلى الإيمان بالرغبة والرغبة، لأن إبراهيم عليه السلام بدأ الدعوة بإلقاء السؤال على قومه عما يعبدون إيقاظاً لبصائرهم، ثم أبطل إلهية أصنامهم. وبعد ذلك بين صفات الإله الحق رب العالمين الذي يملك التصرف في الأجسام والأرواح، ثم صور لهم عاقبة التقوى والغواية بذكر دار الجزاء. فقال: وقربت الجنة للمتقين عن الكفر والمعاصي، بحيث يشاهدونها من موقفهم، ويرون ما فيها من محاسن ويفرحون بأنهم داخلون فيها. وأظهرت النار للموصوفين بالغواية، وهم المشركون الضالون عن طريق الحق، طريق الإيمان والتقوى، بحيث يرونها مع ما لها من الأهوال المرعبة، ويوقنون بأنهم واقعون فيها لا مفر لهم منها. واستخدم صيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع وتقرره. (٣)

■ وقفة مع المقارنة:

قارنت الآيتان مقارنة غير صريحة بين حال الجنة والنار في الدار الآخرة. فالملتقون تُقَرَّب لهم الجنة حتى يدخلوها ويصلوا إليها بسهولة دون مشقة وكلفة، لأنهم تعبوا في الدنيا واجتهدوا في سبيل أداء الطاعات وإرضاء الرب سبحانه

(١) سورة الشعراء، الآيتان ٩٠ - ٩١.

(٢) راجع: الآيات ٨٣ - ٩١ من سورة الشعراء.

(٣) يُنظر: المحرر الوجيز، لابن عطية، ٢٣٦/٤. إرشاد العقل السليم، لأبي السعود، ٢٥١/٦. التحرير والتنوير، لابن عاشور،

وتعالى، فلا تعب لهم ولا مشقة ولا كلفة في الدار الآخرة؛ بل إنهم ينالون جزاء عملهم في الدنيا يومئذ، فتقرب إليهم الجنة ليدخلوها بأمن وسلام ويجدون فيها الترحيب والسعادة والسلامة.

أما الغاؤون، وهم الضالون المشركون، فالجحيم تكون ظاهرة بارزة لهم ينظرون إليها ويوقنون أنهم واقعون فيها، فيزيد ذلك من خوفهم وحزنهم، ويتألمون برؤيتها قبل الدخول فيها، فيزدادون حزنا إلى حزنهم وغما إلى غمهم، في حين أن رؤية المؤمنين للجنة يزيد المؤمنين فرحا إلى فرحهم وسعادة إلى سعادتهم.

ومن أهم أهداف هذه المقارنة الموجزة: التشويق للجنة والتخويف من النار، والحث على التقوى، والتحذير من الضلال والغواية.

٧- قال الله تعالى: ﴿لِيُذَكِّرَ أَشْكُرَ أَمْ أَكْفُرُ ۚ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌ كَرِيمٌ ٥٠﴾ (١).

وردت هذه الآية على لسان سيدنا سليمان عليه السلام في معرض بيان قصته مع ملكة سبأ، إذ طلب سليمان من الحاضرين بين يديه إحضار عرش الملكة قبل وصولها، فلما رأى هذا العرش مستقراً عنده في لحظة عين شكر الله تعالى، وبين حكمة ابتلائه بهذه القوة والملك العظيم في هذه الآية. (٢)

■ نظرة تفسيرية:

قال سيدنا سليمان بعد أن رأى العرش حاضرا بين يديه: هذا من فضل ربي ونعمه علي وليست لي فيه يد أبدا؛ وقد أعطاني هذا ليختبرني بذلك أشكر الله على نعمته علي أم أكفره، ومن شكر ربه فإنما يشكر لنفسه، أي: أن فائدة الشكر تعود عليه بحفظ النعمة وبقائها وثواب الشكر عليها، ومن كفر النعمة فإن الله غني عن العباد وعن شكرهم وليس مفتقرا إليهم، كريم بحيث قد يكرم الكافر للنعمة فلا يسلبها منه بل يبقها له على كفره، كما أنه كريم في نفسه حيث إن عظمتها ليست مفتقرة لأحد. (٣)

■ وقفة مع المقارنة:

قارنت الآية مقارنة غير صريحة بين الشكر والكفر، وبيّنت أن النعمة من الله على العبد تكون ابتلاء منه واختبارا. فالشكر عليها يعود بالنفع على الإنسان نفسه، لأنه بالشكر تزداد النعم وتبقى مع الإنسان طيبة مباركة، كما يحصل الإنسان على الجزاء الحسن من الله تعالى. والله غني عن شكر عباده فلا يزيد في ملكه شكر العباد ولا يُنقص منه كفرهم. والشكر لا يكون بالقول فقط، بل يكون بالقلب والعمل أيضا، فبالقلب يكون الشكر بالاعتراف بكون النعم من الله ومن فضله، وبالعقل بإنفاق النعمة واستخدامها في طاعة الله وفيما يرضيه والإنفاق على من حُرِم

(١) سورة النمل، آية ٤٠.

(٢) راجع: الآيات ٣٨ - ٤٠ من سورة النمل.

(٣) يُنظر: التفسير الوسيط، للواحدي، ٣/٣٧٨. تفسير ابن كثير، ٦/١٧٤. أيسر التفاسير، للجزائري، ٤/٢٢.

منها. وأما الكفر فهو أيضا يعود وباله على الإنسان، إذ يُعرض الإنسان نفسه بالكفر لعذاب الله الشديد جزاء له على كفره، ويكون سببا في زوال النعمة وعدم البركة فيها. وكذلك فإن الكفر لا يُقَص من ملك الله شيئا، والله كريم في نفسه، غني بملكه لا يضره كفر العباد ولا ينفعه شكرهم. والكفر أيضا يكون بالقلب والقول والعمل، وذلك بكل قول وعمل يخالف مقتضيات الشكر لله.

إن من أهم أهداف هذه المقارنة ما يلي: بيان حكمة النعم والنقم من الله تعالى وهي الابتلاء والاختبار، والحث على الشكر والتحذير من الكفر، وبيان أن الشكر يعود بالنفع على الإنسان والكفر يعود بالضرر عليه في الدنيا والآخرة، والتصريح بأن الله غني كريم لا ينفعه شكر العباد ولا يضره كفرهم فلا حاجة له إلى العباد أبدا، بل العباد هم الفقراء إليه، وبيان أنه كريم في نفسه حلیم فقد لا يعاقب بالحرمان عند كفران النعمة.

٨- قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ۝ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُنَىٰ عَنْ صَلَاتِهِمْ ۖ إِنَّ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْمِعُونَ ۝﴾ (١).

لقد ذُكر فيما مضى أن هذا القرآن يخبر بني إسرائيل ويبيّن لهم أكثر الأمور التي اختلفوا فيها، وفيه هداية ورحمة للمؤمنين. والله هو الذي يقضي بين الناس، ثم أمر الله رسوله ﷺ بالتوكل عليه، وسلاه وطمأنه بالتأكيد على أنه على الحق الواضح. ثم بيّن له في هذه الآيات أنه لا يؤاخذ بمن يعرض عن دعوته، فهو لا يقدر على هداية الأعمى الأصم الميت. (٢)

■ نظرة تفسيرية:

لما كان الكفار لا يفهمون ما يستمعون من آيات الذكر الحكيم ولا ينتفعون به شبههم الله بالموتى، لأن حالهم كحال الموتى في عدم سماع النداء، وشبههم أيضا بالصم والعمي لأنهم لا ينتفعون بما يسمعون من الحق ولا بما يرون من الآيات. فقال الله مخاطبا رسوله: كما لا تُسْمِع الميت كذلك لا تسمع الكافر لأنه مثله، ومعنى الآية: أنهم لفرط إعراضهم عما يُدْعَوْنَ إليه من التوحيد والدين كالميت الذي لا سبيل إلى إسماعه وإعلامه شيئا، وكالأصم الذي لا يسمع ولا يفهم. وقال أيضا: ما أنت بمُرشد من أعماه الله عن الهدى وأعمى قلبه عن الإيمان، فأنت لا تستطيع هداية هؤلاء الكفرة المعاندين لشدة عنادهم وإعراضهم عن الحق. وذكر الإدبار بعد ذكر كونهم أصم للتأكيد والمبالغة، لأن الأصم إذا كان حاضرا قد يسمع برفع الصوت أو يفهم بالإشارة، ولكن إذا ولى لم يسمع ولم يفهم شيئا. ثم قال

(١) سورة النمل، الآيتان ٨٠ - ٨١.

(٢) راجع: الآيات ٧٦ - ٨١ من سورة النمل.

الله نبيه: إنك لا تسمع سماع قبول وتفهم إلا من يؤمن بالقرآن الكريم ويصدق بأنه من عند الله فهو مسلم بخلص بتوحيد الله، لأنه فتح سمعه لسماع القرآن وقلبه لفهمه^(١)

■ وقفة مع المقارنة:

قارنت الآيتان مقارنة غير صريحة بين الذي يسمع دعاء رسول الله ﷺ ويستجيب له وبين الذي لا يسمع ولا يستجيب. فشبّه الله تعالى المعرضين عن دعوة الرسول ﷺ إلى الإسلام بالموتى في عدم السماع والانتفاع. فكما أن الميت لا يسمع شيئاً ولا يتفهم بالدعاء كذلك كفار مكة حين يعرضون عن الحق ولا يستفيدون من دعوة الإسلام والقرآن. وكذلك شبّه الله هؤلاء بالأصم الأعمى، فكما أن الأصم لا يسمع شيئاً يتفهمه، كذلك الكافر يكون حاله حينما يدعى إلى ما يحبه، وهو الإيمان بالله ورسوله وكتابه المنزل من السماء، ومبالغة في إعراض هذا الكافر أضاف إلى الأصم كونه موكلاً مدبراً، وذلك لأن الأصم قد يفهم بإشارة اللفظ ما يقال له فيستفيد شيئاً من القول، لكنه إذا ولى مدبراً لم يبق أمل في سماعه وانتفاعه. وكذلك هذا الذي يعرض عن قبول دعوة النبي إذ لا أمل في سماعه ثم انتفاعه بدعوة الهادي إلى الله تعالى. وكذلك فكما أن الأعمى لا يهتدي طريقاً يوصله إلى المطلوب، كذلك المعرض عن آيات الله كالأعمى الذي لا يدري ما يوصله إلى الهدف المنشود من حياته، وهو رضا الله تعالى. والكافر يكون كالأعمى عن رؤية آيات الله وبراهينه الساطعة، فلا يراها ولا يهتدي بها في حياته، ومثل هذا لا تنفع معه الحجج والبراهين الساطعة، كما قال الشاعر^(٢):

لقد أسمعيت ليو ناديت حياً لكن لا حياة لمن تنادي^(٣)

أما المستجيب لدعوة الله، والذي يقدر الرسول ﷺ على إيصال دعوة الإسلام إليه ونفعها به، هو الذي عنده استعداد لقبول الحق، فيصدق بأن القرآن نازل من عند الله، ويرى آيات الله في كونه وكتابه، ويؤمن بما، ويتفهم بما، فيؤمن ويسلم لله ويخلص في دينه لله. هذا هو حال الذي يستطيع الرسول ﷺ إسماعه، فهو يستفيد من حياته وسمعه ونصره في الوصول إلى الحق، ويملك فطرة سليمة واستعداداً لقبول الدين الحق، لا مثل الكافر الأصم الأعمى.

(١) يُنظر: التفسير البسيط، للواحدى، ط ١، عمادة البحث العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٣٠هـ، ١٧/١٢٩٦ - ٣٠١، لياب الطويل في معاني التبريل، للمحزون، ٣/٣٢٥. أوضح التفاسير، محمد عبد اللطيف الخطيب، ط ٦، المطبعة المصرية ومكيتها، ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م، ص ٤٦٦.

(٢) تُجيب هذا البيت إلى عدة شعراء في كتب الأدب؛ حيث إنه منسوب إلى فضالة بن عبيد في الحماسة البصرية، في حين أن الراغب الأصفهاني نسب إلى بشار بن برد.

(٣) يُنظر: الحماسة البصرية، لأبي الحسن البصري، ٣٠٠/٤ - ٣٠١. محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني، ط ١، شركة داء الأرقم، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ، ١/٦٤٧.

(٤) محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني، ١/٦٤٧. المعجم الفصل في شواهد العربية، للدكتور إميل بدوي يعقوب، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م، ٣/٣٤٤.

ومن أهم أهداف هذه المقارنة: الحث على قبول دعوة الرسول ﷺ والقرآن، وتسلية الرسول ﷺ وطمأنته ببيان أن علم انتفاع الكفار بدعوته الحق يعود سببه إلى أنفسهم ولا تقصير له في ذلك، وتوضيح أنه لا ينتفع بالدعوة إلى الحق والآيات إلا صاحب الفطرة السليمة الذي يستفيد بحواسه وبذلك استعدادا لقبول الحق.

٩- قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ ۖ أَمْ لَا تَسْمَعُونَ ۝ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝﴾ (١).

بعد بيان طلاقة القدرة الإلهية وذكر أنه يخلق ما يشاء ويعلم السر والعلني وله الحكم في الدنيا والآخرة، ولا إله غيره، ذكرت في هذه الآيات بعض مظاهر نعم الله على عباده وقدرته في الكون، وهي الليل والنهار (٢).

■ نظرة تفسيرية:

في هذه الآية امتنان من الله على عباده يدعوهم به إلى شكره والقيام بحق عبوديته، فنبههم المولى إلى نعمة الليل والنهار قائلا: لو جعل الله الليل دائما إلى يوم القيامة (أي: جعل جميع الدهر الذي تعيشون فيه ليلا لا نهار معه)، من إله غير الله برغمكم يستطيع أن يأتي بنهار فيه ضياء؟ أفلا تسمعون مواعظ الله سماح تفهم وقبول وانقياد؟ ثم قال: أرايتم إن جعل الله النهار دائما إلى يوم القيامة لا ليل معه تستريحون فيه من طلب للعاش، هل هناك إله غير الله يستطيع أن يغير ويأتي بليل؟ أفلا تبصرون هذه المنفعة العظيمة وما فيها من مواقع العبر ومواضع الآيات فتستفيد بصائرهم وتسلطوا الطريق المستقيم وتركوا ما أنتم فيه من الشرك والباطل؟ فإذا أقروا بأنه لا يقدر عليه إلا الله لزمهم الحجة وبطلت شبهتهم الساقطة. ووجه مصلحة الليل في الدنيا أنها لا تخلو من عمل وتعب، لذا يحتاج الناس إلى ليل للاستراحة، ولا ليل في الجنة لأنها ليس فيها تعب فلا حاجة إلى راحة. وقال في الليل "أفلا تسمعون" وفي النهار "أفلا تبصرون" لأن السمع أبلغ في الليل من البصر وعكسه النهار. ثم ذكر أنه من رحمته وفضله بعباده جعل لهم الليل ليسكنوا فيه ويستريحوا من تعب العمل في النهار، وخلق النهار ليهتفوا فيه من فضل الله وينتشروا لطلب أرزاقهم ومعايشهم في ضيائه، لعلهم يشكرون نعم الله عليهم. هذه الآيات فيها أيضا تنبيه إلى أن العبد يجب عليه أن يتدبر نعم الله عليه ويفكر فيها وفي حال عدمها، لأنه إذا قارن بين وجودها وعلمها فتدبر عقله إلى النعمة وشكر الله

(١) سورة القصص، الآيات ٧١ - ٧٣.

(٢) راجع: الآيات ٦٨ - ٧٣ من سورة القصص.

عليها. ومن جرى مع العوائد ورأى أن هذا الأمر لا يزال مسعرا، عمي قلبه عن الافتقار إلى الله والثناء عليه بنعمه كل وقت، ولن تبعث فيه هذه الأمور فكرة شكر ولا ذكر. (١)

■ وقفة مع المقارنة:

قارنت الآيات الكريمة مقارنة غير صريحة بين الليل والنهار، بذكر التقيضين وآثارهما، وهما الليل والنهار. فذكر الله تعالى أنه خلق الليل مظلماً، ليسكن فيه الناس ويرتاحوا من تعب النهار؛ فالليل لباس يستر الناس، ويوفر لهم السكون والراحة، ليرتاحوا فيه ويشطروا للعمل في اليوم. أما النهار فخلق الله مضيئاً ليسعى فيه الناس في طلب أرزاقهم في ضوء الشمس، ويوفروا لأنفسهم ولأهاليهم عيشاً طيباً هنئاً، وذلك بالسعي والجد والعمل بما أباح الله. وفي الآية أيضاً مقارنة غير صريحة بين الله الإله الحقيقي القادر المطلق وبين من سواه من الأصنام والأنداد. فذكر أن الله تعالى هو الذي خلق الليل والنهار بتعاقبان ويسيران بنظام معين حكيم، ولا أحد غيره يستطيع أن يفعل ذلك، ولو جعل الله الليل مستمراً إلى يوم القيامة دون أن يعقبه نهار، فعل ولم يكن هناك من يأتي للناس بنهار يعملون فيه، ولو شاء فعل العكس. فالله هو القادر على التصرف في الليل والنهار حسب مشيئته وحكمته. ولا يقدر على ذلك أحد غيره، لأن كل ما سواه في منتهى الضعف والعجز ولا يملك أحد التصرف في ملك الله.

ومن أهم أهداف هذه المقارنة: إثبات القدرة الإلهية المطلقة والدعوة إلى عبادته وحده، وذكر مظاهر رحمته تعالى وشقيقته ونعمه على عباده، وإقامة الحجة على العباد بتوجيه عقولهم إلى ما يروونه كل يوم ويعترفون به، والدعوة إلى التفكر والتدبر في خلق الله ونعمه، والحث على شكر الله وعبادته.

١٠ - قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ ۖ وَأَشْكُرُوا لَهُ ۚ إِنَّهُ يُرْجِعُ عَنِ ۖ﴾ (٢).

وردت الآية في سياق قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام الذي دعا قومه إلى تقوى الله وعبادته وحده، والذي فيه خير لهم، ثم بين سيدنا إبراهيم عليه السلام حقيقة الأوثان التي يعبدونها في هذه الآية المباركة. (٣)

(١) يُحْطَر: تفسير القرآن، للصمعي، ١٥٣/٤ - ١٥٤. فتح البيان في مقاصد القرآن، للفتوح، ١٠/١٤٥ - ١٤٦. تفسير

السعدي، ص ٦٢٣.

(٢) سورة العنكبوت، الآية ١٧.

(٣) راجع الآيات ١٦ - ١٧ من سورة العنكبوت.

■ نظرة تفسيرية:

في الآية بطلان لدينهم ومذهبهم بأبلغ الوجوه، ويان لكونه شرًا في نفسه بعد بيان كونه شرًا بالنسبة إلى الدين الحق؛ وذلك أن المعبود يُعبد إما لكونه مستحقًا للعبادة، وإما لكونه نافعًا في الحال، وإما لكونه نافعًا في المستقبل، وفي الآية بيان لكونها لا تستحق العبادة في ذاتها حيث إنما أوثان لا شرف لها، وإشارة إلى عدم منفعتها في الحال فهي لا تملك شيئًا من الرزق، ويبان عدم منفعتها في المال. ويَبَيَّن أن هذا كله حاصل من الله تعالى؛ لذا فهو الذي يستحق العبودية وحده. فقال: إنما تعبدون من دون الله تعالى أوثانًا وأصنامًا هي في نفسها تماثيل مصنوعة لكم، ليس فيها وصف غير ذلك، وتكذبون على الله كذبًا حيث تصنعون بأيديكم أصنامًا وتسمونها آلهة، وتَدْعُونَ أَنهَا شفعاءكم عند الله. ثم يَبَيِّن شرية ما يعبدونه من حيث إنه لا يعود عليهم بالنفع، فقال: إن ما تعبدون من دون الله لا يقدر على أن يرزقكم شيئًا من الرزق، فاطلبوا الرزق للموجود به من الله، لأنه هو الرزاق ذو القوة المتين^(١)، واعبدوه وحده لكونه مستحقًا للعبادة، واشكروا له على نعمه العظيمة الكثيرة، وهو الذي تُرجعون إليه بالموت ثم البعث لا إلى غيره؛ فافعلوا ما أُمِرتم به واستعدوا للقاءه بالعبادة والشكر على نعمه^(٢).

■ وقفة مع المقارنة:

قارنت الآية الكريمة بين الإله الحقيقي وهو الله الواحد الأحد وبين الآلهة الباطلة وهي الأصنام والأوثان، مقارنة غير صريحة، بل تكر عدد من الفروق بين الطرفين. ومن الفروق الشاسعة التي تتضح من الآية المباركة ما يلي:

- أن الله وحده هو الإله الحقيقي وما سواه باطل لا يستحق من الألوهية والعبودية شيئًا.
- أن الله هو الموجود بنفسه وهو خالق كل شيء سواه، أما الأصنام والأوثان فيسميها المشركون آلهة كذبًا وزورًا، وهي ليست آلهة، إذ إنما مخلوقة للبشر، حيث يصنعها العابدون ويحتونها بأيديهم ثم يسمونها آلهة، وكيف يُعقل أن يكون الإله مخلوقًا لعباده.
- أن الله وحده هو الذي يملك الرزق كله، فينبغي الرجوع إليه وطلب الرزق منه، أما الأوثان فهي لا تملك شيئًا من الرزق والنفع لنفسها ولا لغيرها، فكيف يُعقل طلب الرزق منها وهي لا تملكه.
- أن الله هو الذي ترجع إليه الخلائق كلها يوم الحشر، وهو الذي يحاسبهم على أعمالهم، ويجازيهم بالخير بخيرًا وبالشر شرًا، أما الأصنام والأوثان فلا يرجع إليها شيء يوم الحشر ولا في يوم آخر، بل هي محشورة

(١) نكر الرزق ثم عرفه؛ لأن الرزق من الأصنام غير معلوم فلا رزق عندهم أصلاً، والرزق من الله معلوم معروف، فكأنه قال كل الرزق عنده فاطلبوا منه، وهو وحده الرزاق لا يرزق غيره شيئًا.

مفاتيح الغيب للرازي، ٣٩/٢٥. الكشف، ٧٧٤/٣. بمصرف.

(٢) ينظر: معالم التنزيل للبغوي، ٥٥٣/٣. الكشف، للمحشري، ٤٤٧/٣. مفاتيح الغيب للرازي، ٣٩/٢٥ - ٣٩. إرشاد العقل السليم، لأبي السعود، ٣٤/٧.

مع عايدتها أمام الله يوم القيامة، حيث قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُنْظَرُونَ﴾. (١) كما أنها تغلب معهم في النار.

○ أن الله هو المستحق للعبادة والشكر وحده، لأنه هو الذي بيده النفع والضرر وملكوته كل شيء، أما الأصنام والأوثان فهي لا تستحق شيئاً من العبادة والشكر، لأنها لا تملك شيئاً من النفع والضرر ولا قدرة لها على شيء البتة.

ومن أهم أهداف هذه المقارنة البليغة:

- (١) الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وبناء عبادة كل ما يُعبد من دونه الله.
- (٢) الحث على شكر الله على جميع نعمه العظيمة وآلائه الجسيمة.
- (٣) بيان حقيقة الشركاء والآلهة الباطلة، وإثبات منتهى عجزها وضعفها.
- (٤) الدعوة إلى التفكير والتعقل للوصول إلى الطريق الصواب، والاستقامة على هذا الطريق.
- (٥) إقامة الحجة على المشركين الذين يعترفون بكون الله الخالق الرازق، ثم يشركون معه في العبادة من هذه حقيقته وصفته.

(١) سورة يس، الأيتان ٧٤ - ٧٥.

المبحث الثاني:

المقارنات من أول سورة الروم إلى آخر سورة غافر

١- قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۖ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(١).

وردت الآية المباركة في سياق زجر الكفار وتوبيخهم، فذكر الله قبلها أنهم يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا، لكنهم غافلون عن الحياة الحقيقية التي هي حياة الآخرة، ثم حثهم على التفكير في أنفسهم وفي خلق الله من حولهم. ثم جاءت هذه الآية لتوجه أنظارهم إلى مصير السابقين رجاء أن يتعظوا ويستفيدوا منهم.^(٢)

■ نظرة تفسيرية:

يوضح الله الكفار ويذمهم على أنهم ساروا في الأرض ولكن لم ينتفعوا بهذا السير، لأنهم لم يتعظوا ويعتبروا من مصير الكفار قبلهم، وذكر ابن عطية أنه لا يمكن لمن لم يسر من الكفار أن يعترض على ذلك، لأن كافة أخبار من سار منهم نقلت إلى من لم يسر، فاستوت المعرفة، وحصل اليقين للكل، وقامت الحجة، وهذا أمر واضح. فيقول الله منكرا على الكفار موجها لهم: أولم يسيروا في الأرض فينظروا إلى عاقبة الذين عاشوا قبلهم من الأمم التي أهلكها الله كعاد ونمود، ويتعظوا ويعتبروا من مصيرهم. كان هؤلاء أقدر منهم على التمتع بالحياة الدنيا، وأشد منهم قوة، وأثاروا الأرض، أي: قلبوها للحراث والزراعة واستنباط المياه واستخراج المعادن وغيرها من المنافع، وعمروها بأنواع من الأبنية والعمارات، وأقاموا بها، أكثر من عمارة هؤلاء الكفار إياها وإقامتهم فيها^(٣)، وجاءتهم رسلهم بالبينات والآيات الواضحة، فكذبوهم فأهلكهم الله؛ ولم يهلكهم ظلما بغير جرم منهم، بل هم ظلموا أنفسهم باختيار للعاصي التي أوجبت هلاكهم بمقتضى الحكمة. ثم بين الله عاقبة المستبين، فقال: إن عاقبتهم سيئة، وهي العذاب والنار، وذلك لتكذيبهم بآيات الله واستهزاءهم بها.^(٤)

(١) سورة الروم آية ٩.

(٢) راجع: الآيات ٧ - ٩ من سورة الروم.

(٣) يقول الألوسي رحمه الله: "وفي ذكر 'أفعل' حكم مهم، إذ لا مناسبة بين كفار مكة وأولئك الأمم المهلكة؛ فإنهم كانوا معروفين بالنهاية في القوة وكثرة العمارة، وأهل مكة ضعفاء، مثلجأون إلى واد غير ذي زرع، يخافون أن يتغلبهم الناس. وكانوا مشهورين أيضا بطول الأعمار، وأعمار أهل مكة قليلة بحيث لا مناسبة يعتد بها بينها وبين أولئك المهلكين".

روح المعاني، ٢٩/١١.

(٤) ينظر: معاني القرآن للفراء، تحقيق: أحمد يوسف النجاشي وآخرون، ط ١، دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، ٣٢٢/٢. المحرر الوجيز، لابن عطية، ٢٣٠/٤. روح المعاني للألوسي، ٢٥/١١.

■ وقفة مع المقارنة:

ثمة مقارنة بين كفار مكة وبين كفار الأمم التي مضت قبلهم، صريحة باستخدام صيغة "أفعل" التفضيل. حيث صرح الله تعالى بأن الأمم السابقة التي كذبت رسلها كانت أشد قوة من كفار مكة، وعثر هؤلاء الأرض أكثر مما عمرها هؤلاء. فعاشت الأمم السابقة في الأرض أكثر مما عاش كفار مكة، وكانوا أشد قوة في الأيدان من هؤلاء، وحملوا الأرض للزراعة والاستفادة من مواردها الأخرى، وعمروها ببناء أنواع مختلفة من المباني والعمارات، حتى إن بعضهم كانوا ينحتون من الجبال بيوتا بسبب قوتهم التي يملكونها، ويغتر آخرون بقوتهم فيقولون: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾^(١) وبقوا مستكبرين يفسدون في الأرض بغير الحق، وكذبوا الرسل التي أرسلها الله إليهم بالآيات والمعجزات البينة الواضحة، ولم يستجيبوا لدعوة الله ورسوله، ولم يؤمنوا ويطيعوا، فعذبهم الله وأهلكهم بسبب كفرهم وظفائهم، وما أغنت عنهم قوتهم شيئا، ولا دفعت عنهم عذاب الله الذي نزل بهم، بل قطع دابر القوم الذين ظلموا، والحمد لله رب العالمين. ولم يكن هذا العذاب ظلما من الله لهم، بل استحقاقه بسبب عصيانهم وتمردهم وظلمهم أنفسهم بالشرك والتكذيب.

وكفار مكة أقل قوة منهم، وأقل عيشا في الأرض وعمارة لها منهم، فلم يستكبروا في الأرض ويظلمون أنفسهم مثلهم؟ فهم إن لم تنفعهم طاقتهم وقوتهم في دفع عذاب الله، فمن سيحامي كفار مكة من عذاب الله إذا نزل بهم وهم ضعفاء أمابهم؟ ولا شك أنه لا أحد سيدفع عنهم هذا العذاب، إن أراد الله إنزاله بهم، فعليهم الرجوع إلى الله والإنابة إليه.

ومن أهم أهداف هذه المقارنة: الحث على الاتعاظ بمصير السابقين وقصص الغابرين، وعدم الاغترار بما عند الإنسان من قوة ومتاع، لأنها لا تعفي شيئا من عذاب الله وغضبه، وقوة الإنسان من الله يزرعها منه متى شاء. ومن أهدافها أيضا: التخويف من عذاب الله، وبيان قدرته على تعذيب كل من كفر به مهما بلغت طاقته وقوته.

٢- قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْتَنَّى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسِّنَةِ جِدَادٍ أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ ۚ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَخْبَطَ اللَّهُ أَغْمَلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ۝ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ۚ وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَاءِكُمْ ۚ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قُتِلُوا إِلَّا قَلِيلًا ۝ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۚ وَلَمَّا

(١) وهم عاد قوم هود، الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ (سورة فصلت، آية ١٥).

رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۖ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾^(١)

وردت الآيات الكريمة في معرض الحديث عن أحداث غزوة الأحزاب، ففضح الله المنافقين خلال بيان هذه الوقائع وصرح بأنه يعلم المنافقين الخائفين من الحروب والموت. ثم بين في هذه الآيات موقف هؤلاء من الأحزاب وموقف المؤمنين منه.^(٢)

■ نظرة تفسيرية:

وصف الله في هذه الآيات جبن المنافقين، فذكر أنهم أشحوا وبخلوا على المؤمنين بالخير وبخلوا في النفقة في سبيل الله. وإذا جاء الخوف، فبدأت المعركة والقتال لاذوا بالنبي ﷺ، وصاروا ينظرون إليه وهم تدور أعينهم في رؤوسهم من الخوف، كما ينظر المغشي عليه من معالجة سكرات الموت. فإذا ذهب ذلك الخوف بدت منهم سلاطة اللسان، فرفعوا أصواتهم على النبي ﷺ والمؤمنين وأذوهم بالكلام الشديد، وتفاخروا بأنهم أهل النجدة والشجاعة كذبا، وهم بالإضافة إلى ذلك أشحوا على الخير (أي: بخلوا على الغنيمة)؛ فلا خير فيهم ولا منهم، إذ إنهم جامعون بين الجبن والكذب. وسبب هذا المرض الشديد هو أنهم لم يؤمنوا بالله ورسوله بقلوبهم، فأبطل الله أعمالهم التي كانوا يأتون بها في الظاهر مع المسلمين، وأحبط ثواب حسناتهم، وكان ذلك الإحباط سهلا هينا على الله بمقتضى عدله وحكمته. وهذه الصفات القبيحة ملازمة لهم، حيث يظنون لشدة خوفهم وفزعهم أن أحزاب الكفر من قريش وغطفان وبني قريظة الذي تجتمعوا للقتال لم يرحلوا عن المدينة، ولم ينهزموا، وهم عائدون إلى الحصار مرة أخرى. وإذا رجع الأحزاب مرة أخرى واستعدوا للقتال تمنى المنافقون ألا يكونوا حاضرين القتال مع المؤمنين، بل تمنوا لو كانوا في البادية ينتظرون هزيمة المؤمنين، ويسألون عن أخبارهم وما كان من أمرهم مع العدو، انتظارا لوقوع الشر بهم. وغرضهم من ذلك أن يسلموا من القتال، ولو كانوا موجودين مع المؤمنين في ساحة المعركة ما قاتلوا إلا قتالا يسيرا، كرها أو رياء، وكل ذلك لجبنهم وخوفهم. وفي هذا إناس للنبي ﷺ وتحقير لشأن المنافقين. ثم قال: لقد كان لكم يا معشر المؤمنين قدوة حسنة صالحة ينبغي اتباعها، وهو رسول الله ﷺ؛ فهو مثل أعلى في الشجاعة والإقدام، إذا كنتم تريدون ثواب الله في الدار الآخرة، وتحشون الله وحسابه، وتذكرونه كثيرا في جميع الأوقات، حبا به وتعظيما له وخشية منه وطمعا في ثوابه ورحمته، وفي ذلك حث للمؤمنين على الصبر مع رسول الله ﷺ في القتال. ثم ذكر الله موقف المؤمنين من الأحزاب المناقض لموقف المنافقين، فحينما شاهد المؤمنون فئات الأحزاب وجموعهم الكبيرة، قالوا تسليما لأمر الله وتصديقا بوعده: هذا ما وعدنا الله ورسوله من الاختبار بمواجهة الأعداء، ثم يعقبه النصر القريب، وصدق الله

(١) سورة الأحزاب، الآيات ١٩ - ٢٢.

(٢) راجع: الآيات ١٨ - ٢٢ من سورة الأحزاب.

ورسوله الوعد، وما زاد المؤمنين تجمع الأعداء وتكاثرهم لحزمهم وصبرهم على البلاء إلا إيماناً بالله ورسوله ووعداً، واستسلاماً لقضائه وقدره، وانقياداً لأمره ونهيه.^(١)

■ وقفة مع المقارنة:

قارنت الآيات مقارنة غير صريحة بين موقف المنافقين والمؤمنين عند رؤية الأحزاب، يذكر عدد من الفروق بينهما، ومن هذه الفروق:

- أن المنافقين جبناء عند القتال، حيث إنه إذا جاء الأحزاب وبدأ القتال، يودون لو كانوا يهينون عن المؤمنين يعيشون في البداية يسألون عن أخبار المؤمنين وأمرهم في القتال، حتى يتعلموا كل البعد عن القتال. أما المؤمنون فهم عند رؤية الأحزاب قالوا: هذا ما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، ثم قاتلوهم بشجاعة وإقدام.
 - أن المنافقين يؤذون الرسول ﷺ والمؤمنين بالسب والشتم وكلامهم السيئ، أحياناً على قسمة الغنيمة، وأحياناً على أمور أخرى. أما المؤمنون فهم يرضون بقضاء الله وقدره، ويطيعون رسول الله ﷺ ويرضون بقسمته بقلوبهم.
 - المنافقون بخلاء أشح على الخير، لا يريدون إيصال الخير والنفعة إلى غيرهم، وخصوصاً النبي ﷺ والمؤمنين، أما المؤمنون فهم متصفون بالكرم، حيث يودون أن يصل الخير إلى الجميع.
 - أن المنافقين لم يؤمنوا بقلوبهم إيماناً صادقاً، فأحبط الله أعمالهم، بسبب عدم الإيمان، والهروب من الأحزاب. أما المؤمنون فهم صادقون في إيمانهم مخلصون فيه، وزادهم رؤية الأحزاب إيماناً بالله وتصديقاً بوعده وثوابه، وتسليماً لأمره وقضائه.
 - أن المنافقين لو حضروا الحرب ما قاتلوا إلا قتالاً قليلاً، رياءً وسمعةً وطلباً للغنيمة. أما المؤمنون فهم يقاتلون بشجاعة وجراءة، لأجل الله ورسوله، وإعلاء لكلمته، وخيلاً له ولدينه، لا رياء ولا سمعة، ولا طمعا في الغنيمة.
- لقد حققت المقارنة عدة أهداف، من أهمها: توضيح الفرق بين المؤمنين المخلصين والمنافقين، وخصوصاً عند القتال ومواجهة العدو، والدعوة إلى الإيمان الخالص والتأسي برسول الله ﷺ، والتحذير من النفاق وعاقبته السيئة التي تظهر في إحباط الأعمال كلها وعدم الحصول على ثواب الله عليها، وبيان أن نتيجة الإيمان الصادق تظهر في الشجاعة والقتال في الحروب، وأن الخوف من صفات المنافقين، وتوضيح أن المؤمن كل هم الطاعة وإعلاء كلمة الله، وهو لا يبالي إن ذهب نفسه في سبيل هذا الغرض الأسمى.

٣- قال الله تعالى: ﴿لَيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ

وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝﴾.^(٢)

(١) يُنظر: الكشف والبيان، للعلامة، ٢١/٨ - ٢٢. تفسير القرآن، للعلامة، ٥٦٦/٢ - ٥٦٧. التفسير الوسيط،

للرحماني، ٢٠٦١/٣ - ٢٠٦٤.

(٢) سورة الأحزاب، آية ٧٣.

جاءت هذه الآية الكريمة في خاتمة سورة الأحزاب، حيث ذكر الله تعالى في نهاية هذه السورة أنه عرض الأمانة على السماوات والأرض، فأبتنَّ حملها وحملها الإنسان، وهو ظلوم جهول، والله سبحانه يحاسب الإنسان على هذه الأمانة؛ فيعذب المنافقين والمشركين، ويتوب على المؤمنين.^(١)

■ نظرة تفسيرية:

في هذه الآية بيان لما أجل في قوله تعالى: "إنه كان ظلوما جهولا"، فكان الإنسان قريين: ظالم جاهل، وراشد عالم. والمعنى: حمل الإنسان الأمانة، ليعذب الله الذين لم يراعوا حقها ولم يقابلوها بالطاعة، وهم المنافقون والمشركون، لعدم وفائهم بالأمانة التي تحملوها في أصل الفطرة، وتضييعهم لها، وانحماكهم في الظلم والذلالت، فكان عاقبة حمل الأمانة أن يعذب الله هؤلاء، لخيانتهم وغرورهم عن الطاعة. وكان عاقبة حمل الإنسان للأمانة أيضا أن يتوب الله على المؤمنين؛ فيغفر لهم من ذنوبهم ويقبل توبتهم، لأنهم وفوا بالأمانة التي تحملوها، ولم يتركوا الطاعة بالكلية، وإن وقعت منهم زلات وأخطاء بحكم الجبلة والفطرة، ولكنهم تابوا منها وأنابوا، ف يرجع الله إليهم بالرحمة والمغفرة، وإعطاء مراتب القرب. وأظهر لفظ "الله" في مقام الإضمار في قوله: "ويتوب الله"، لتربية المهابة، ولزيادة العناية بتلك العبادة. وذكر المنافقات والمشركات والمؤمنات، مع إمكان الاستغناء عن ذلك بصيغة الجمع الشاملة للجميع، للإشارة إلى أن هن شائتا في غزوة الخندق من إعانة الرجال على كيد المسلمين، وبمعكس ذلك كان حال نساء المؤمنين. ثم بشر المؤمنين في خاتمة الآية بأن الله يعاملهم بالرحمة والغفران، لأنه غفور رحيم؛ حيث يبلغ في المغفرة والرحمة، ويتوب ويغفر الزلات، ويثيب بالفوز على الطاعات، ويفيض البركات والتجليات. وفي ذلك إشارة إلى أن الإنسان ظلوم جهول بفطرته، فلا يخلو عن أخطاء، وهو محتاج إلى رحمة الله ومغفرته دائما.^(٢)

■ وقفة مع المقارنة:

بعد بيان عرض الأمانة وحمل الإنسان لها، قارن الله تعالى بين جزاء صنفين من محتملي هذه الأمانة، مقارنة غير صريحة. فالصنف الأول هو المضيع للأمانة المفروض فيها الظالم نفسه، الذي لم يؤد حقها، من المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات. هذا الصنف جزاؤه العذاب الشديد من الله تعالى على عصيانه وخيانته في هذه الأمانة بعد حملها. أما الصنف الآخر فهو المحافظ على الأمانة المؤدي حقها، والذي بذل كل جهوده في سبيل أداء حقها وعدم التفريط فيها من المؤمنين والمؤمنات. هذا الصنف يتوب الله عليه على ما صدر منه من تقصير بغير قصد بحكم ضعفه وجهله في أصل الخلقة فيتوب الله ويغفر له ما دام محسنا محاولا أداء الأمانة قدر المستطاع، ويرحمه بالتفضل عليه بالمثوبة الحسنة، وهي الجنة، ولا يؤاخذ على ما لم يكن في وسعه.

(١) راجع: الآيات ٧٢ - ٧٣ من سورة الأحزاب.

(٢) يُنظر: التفسير المظهر، لثناء الله، ٣٩٦/٧. محاسن التلويل، للقاسمي، ١٢٥/٨ - ١٢٦. التحرير والتنوير، لابن عاشور، ١٣١/٢٢ - ١٣٢.

ومن أهم أهداف هذه المقارنة: بيان أهمية الأمانة التي كلف الله الإنسان بها، والحث على أداء حقها وعدم الخيانة فيها، والدعوة إلى الإيمان، والتحذير من الشرك والنفاق، وبيان مظاهر رحمة الله وشفقته بعباده.

٤- قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ رَعِمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۚ لَا يَمْلِكُونَ مِنْثِقَالَ

ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكَ ۖ وَمَا لَهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ۝^(١)
وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ۚ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ
رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا الْحَقُّ ۖ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ۝^(٢) قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ ۖ قُلِ اللَّهُ ۚ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝^(٣) قُلْ لَا
تُسْأَلُونَ عَنْ أَعْرَافِنَا وَلَا تَسْأَلُنَا عَنْ مَا تَعْمَلُونَ ۝^(٤) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا
بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ۝^(٥) قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَنْفَخْتُمْ بِهِمُ شُرَكَاءَ ۚ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ

اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝^(٦) ﴿١﴾

جاءت الآيات المباركة بعد ذكر قصة سبأ التي كفر أهلها بنعم الله، فعلقهم الله بالجرمان من هذه النعم العظيمة،
واتبع هؤلاء الشيطان وأطاعوه مع أنه لم يكن له عليهم سلطان. ثم خاطبت هذه الآيات مشركي مكة، ووجه
أنظارهم إلى حقيقة الآلهة التي يعبدونها من دون الله. ﴿٢﴾

■ نظرة تفسيرية:

قال الله تعالى مخاطباً رسوله: قل للمشركين: ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة من دون الله من الملائكة والأصنام، ليكشفوا
الضرر عنكم، وفي ذلك تعجيز لهم وإقامة للحجة عليهم. ثم وصف هذه الآلهة فقال: هؤلاء لا يملكون مثقال ذرة
من خير وشر، ونفع وضرر، في السماوات والأرض، وما لهم في السماوات والأرض شركة، ولم يكن لله منهم معين
في شيء من قدرته. ثم وضع أن الذين يظن الكفار أنهم يشفعون لهم عند الله لا تصح منهم شفاعته لهم، لأنهم
كفرة، فقال: لا تنفع الشفاعاة لأحد عند الله إلا لمن أذن له تعالى، أي: لا يشفع عنده إلا لمن أذن له في الشفاعاة،
ولا يشفع للمأخوذ له إلا لمن أذن الله أن يشفع له. فهؤلاء (يعني: للملائكة) ليسوا شفعاء كما ظن الكفار، بل هم
عبدة مستسلمون لأمر الله، وهم يفرعون تعظيماً وهيباً، وتصيبهم غشية إذا سمعوا وحى الله إلى جبريل، حتى إذا
كثيفت الفزع عن قلوبهم، يقول بعضهم لبعض: وجبريل (٣): ماذا قال ربكم، فيقول المسؤلون: قال ربنا الحق، وهو

(١) سورة سبأ، الآيات ٢٢ - ٢٧.

(٢) راجع: الآيات ١٥ - ٢٧ من سورة سبأ.

(٣) وقد ورد في الحديث أن الملائكة يفرعون عند سماع وحى الله تعالى، فقال رسول الله ﷺ: "إِذَا أَرَادَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُوحِيَ بَأَمْرٍ
تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ، فَإِذَا تَكَلَّمَ أَخَذَتِ السَّمَاوَاتُ رَنَقَةً - أَوْ قَالَ رَغْدَةً - حَتَّى يَذْهَبَ غَوْفًا مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِذَا صَبَحَ بِذَلِكَ لَعْلَ

العلي الكبير، المتعالي في صفاته، وفوق الكاملين في ذاته وصفاته. ثم أمر الله نبيه على جهة الاحتجاج وإقامة الدليل على أن الرازي لهم هو الله أن يقول لهم: من يرزقكم من السموات فينزل عليكم المطر، ومن الأرض فيخرج لكم النبات، وأمره أن يقول لهم إن لم يحييوا: إن رزقكم هو الله. ثم تلطف بهم في الدعوة فقال: "وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين"، والغرض بيان أن الضلال مع المخاطبين، وهي جارية على المناصفة في الكلام. ثم أمره بالقول بأنهم لا يسألون عما يفعل المؤمنون، ولا يسأل المؤمنون عما يفعلونه من الكفر والمعاصي، ولكن يجمع الله الجميع يوم القيامة، ثم يحكم بينهم بالحق، وهو الفتاح الحاكم، العليم بوجوه المصلحة. ثم أمر الله نبيه أن يقول لهم تيكيتا وتوييخا: ادعوا الذين هم شركاء الله على زعمكم، وأروني بالحجة والدليل وجه الشراكة، وأعلموني ماذا خلقوا وماذا صنعوا. فإن لم يحييوا بالحق فقل: كلا ليس الأمر كما زعمتم، بل هو الله الذي يفعل ذلك كله، وهو العزيز الغالب على أمره، الحكيم في تدبير خلقه فأني يكون له شريك في ملكه. (١)

■ وقفة مع المقارنة:

في الآيات الكريمة مقارنة غير صريحة بين الإله الحقيقي وبين الآلهة الباطلة، فذكرت بعض الفروق بينهما، ومن هذه الفروق:

○ أن هؤلاء ليسوا بشركاء الله تعالى، ولا يستحقون شيئا من الألوهية، بل هم شركاء يزعم الكفار المشركين الذين لا علم عندهم ولا دليل على كونهم آلهة. وهم إن دعوا هؤلاء في الدنيا أو في الآخرة للحصول على نفع أو دفع ضرر لن يسمعوهم ولن يحييوا لهم. أما الله فهو الإله الحقيقي القادر المطلق، المستحق للألوهية والعبادة، وإن كفر من كفر فإن ذلك لن يضره ولن ينقص من ملكه شيئا، فهو الذي يسمع الدعاء وهو قادر على إيصال النفع للناس، ودفع الضرر عنهم في الدنيا والآخرة، فليدعه الداعون.

السَّمَاوَاتِ صُفُّوْا، وَخَرُّوْا لِلَّهِ سُجَّدًا، فَيَكُوْنُ أَوَّلُ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَيَكَلِّمُهُ اللهُ تَعَالَى مِنْ وَجْهِهِ مَا أَرَادَ، فَيَنْضِي جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، كُلُّهَا مَرَّ بِسَمَاءٍ يَسْأَلُهُ مَلَايِكَتُهَا: مَاذَا قَالَ رَبُّنَا يَا جَبْرِيلُ؟ فَيَقُوْلُ جَبْرِيلُ: قَالَ الْحَقُّ وَهُوَ الْقَلْبُ الْكَبِيرُ. قَالَ: فَيَقُوْلُوْنَ كُلُّهُمْ مَقْلٌ مَا قَالَ جَبْرِيلُ، فَيَنْتَهِي جَبْرِيلُ بِالْوَحْيِ مَخِثَ أَمْرِهِ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ".

أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات، ٥١٩/١، رقم ٤٣٥، من حديث الثوري بن سمعان رضي الله عنه. وأخرجه أبو بكر بن أبي عاصم في السنة، ٢٢٦/١، رقم ٢٥١٥، تحقيق: فاضل الدين الألباني، ط١، للكتب الإسلامية، بيروت، لبنان، ١٤١٠هـ. وقال الميثمي: "رواه الطبراني عن شيخه يحيى بن عثمان بن صالح وقد وثق وتكلم فيه من لم يسم بغير [فادح معين]، وبقيّة رجاله ثقات".

مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للميثمي، ٩٥/٧.

(١) يُنظر: تفسير القرآن، للسمعي، ٣٣٠/٤ - ٣٣٣. اهرز الوجيز، لابن عطية، ٤١٧/٤ - ٤٢٠. اللباب في علوم الكتاب، لأبي حفص، ٥٤/١٦ - ٦٢.

○ الشركاء لا يملكون قدر قوة في السماوات والأرض، ولا يقدرُونَ على التصرف في شيء مما بينهما، وليس لهم شركة في خلق السماوات والأرض وما بينهما. والله هو وحده المنفرد بخلقهما وتدبيرهما، لا معين له في شيء من ذلك، وهو الذي يملك التصرف في ملكه كما يشاء، لا يمنعه من ذلك مانع.

○ أن الآلهة الباطلة التي يزعم المشركون أنها شفعاء عند الله لا تملك الشفاعة عند الله، ولا تحمي ولا تنصر أحدا من غضب الله وعيابه. والله هو الذي يملك الشفاعة، ولا يشفع عنده إلا لمن يأذن له في الشفاعة، ولا يشفع الشافع إلا لمن يأذن الله بالشفاعة له، فهو وحده القاهر المالك يوم الدين.

○ كل من سوى الله، سواء كان من البشر أم من الملائكة، لا يقدر على كشف الضر، وإزالة الفزع عن قلب أحد، والله وحده هو القادر على ذلك. والملائكة التي يزعم بعض الناس كونها أربابا لا تملك شيئا بغير إذن الله، وهي تعترف بالوحي الذي ينزل الله على عباده وتقر بأنه الحق. والله هو المتعالي على خلقه، العظيم الذي ليس قبله ولا بعده شيء، وهو الذي ينزل الوحي على من شاء من عباده.

○ الله هو الذي يحشر الناس يوم القيامة، ويجمعهم عنده، ثم يحكم بينهم بالحق، ويحاسبهم على صنيعهم، ويجازيهم عليه. ولا أحد سواه يقدر على ذلك، ولا يفعله.

○ الله هو الذي يرزق من السماء والأرض، وما سواه لا يقدر على شيء من الرزق. والخلاصة هي أن الآلهة الباطلة عاجزة مطلقة، لا دليل ولا حجة على كونها شريكة في الإلهية أو الخلق أو غير ذلك مما انفرد الله به جل وعلا، والله هو العلي الكبير، الفتاح، العزيز، الحكيم في خلقه وتدبيره.

ومن أهم أهداف المقارنة: الدعوة إلى اتباع الطريق الحق بعبادة الله الواحد الأحد، وبيان حق الله بالعبادة وعدم أهلية الأصنام لها، وبيان حقيقة كل ما يُعبد من دون الله مهما عظم وعلا مقامه؛ فالكل عاجز ضعيف أمام قدرة الله وسطوته. ومن أهدافها أيضا: إقامة الحجة على المشركين الذين يعترفون بكون الله الخالق الرازق ومع ذلك يشركون به غيره، والحث على التفكير والتدبر والوصول إلى الطريق الصواب، وتبيين الأشياء وإظهار الحقائق بذكر تضادها.

٥- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِهِونَ ۝ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرْبَابِ مُتَكَبِّرُونَ ۝ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ ۝ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَجِيمٍ ۝ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ۝ أَلَمْ أَعْهَدَ إِلَيْكُمْ بِبَنِي آدَمَ أَن لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّهُ لَكُمُ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ وَإِنْ أُغْبِئُونِي ۖ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ۝ هَٰذِهِ

جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٧﴾ أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٨﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُغْلِمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ (١)

جاءت هذه الآيات المباركة في سياق الحديث عن اليعث والنشور يوم القيامة، فذكر أن الناس يُعثون ويُنشرون إلى ربهم إذا نفخ في الصور، ويتساءلون عن بعضهم من قبورهم، والكل يحضر عند ربه، ولا تُظلم نفس يومئذ شيئا، بل إن الكل يُجازى وفق أعماله في الدين. ثم ذكرت هذه الآيات جزاء الفريقين وحالهما يوم القيامة بقدر من التفصيل. (٢)

■ نظرة تفسيرية:

يخبر تعالى أن أهل الجنة إذا ارتحلوا من شدائد الوقف في ميدان الحشر، فنزلوا في روضات الجنات، يكونون في شغل عن غيرهم بما هم فيه من النعيم المقيم والفوز العظيم، يفرحون ويتنعمون ويتلذذون بما عندهم، - وفي تشكيير "شغل" وإمامه تعظيم لما فيه من بحجة ولذة، وتنبه على أنه أعلى ما يحيط به الكلام -، متكون على فرش وسرر مزينة في ظلال الأشجار مع أزواجهم. ولهم فيها من كل أنواع الفاكهة، وكل ما يدعونه ويتمنونه لأنفسهم، فمهما طلبوا وجدوا من جميع أصناف اللذات. ولهم أيضا سلام من الله ربهم الرحيم، حيث يسلم الله عليهم بواسطة الملائكة أو بغير واسطة، تعظيما لهم، وذلك ما يطلبون ويتمنون. ثم أخبر تعالى عما يؤول إليه الكفار يوم القيامة، فيأمرهم بأن يجازوا ويفرّدوا عن المؤمنين في موقفهم، ويعزلوا عن كل خير، وذلك حين يسار بالمؤمنين إلى الجنة، ويقول الله للكفرة الذين أطاعوا الشيطان وهو عدو مبين، وعصوا الرحمن وهو خالقهم ورازقهم، تقرعنا لهم وإقامة للحجة عليهم: قد أمرتكم وعهدت إليكم في دار الدنيا بعصيان الشيطان، وأمرتكم بعبادتي وحدي، وهذا هو الصراط المستقيم؛ فسلكتكم غير ذلك، واتبعتم الشيطان، وأطعتموه فيما أمركم به، ووسوس لكم مع أنه لكم عدو مبين. (٣) ثم بيّن معاداة الشيطان مع ظهور عداوته ووضوح إضلاله لمن له أدنى عقل وراي، فقال: ولقد أضل منكم أبها الناس خلقا كثيرا، أفما كان لكم عقل فتتفكرون به، فلا تخالفون أمر ربكم فيما أمركم به من عبادته وحده لا شريك له، ولا تعبدون عنه إلى اتباع الشيطان. ثم يقال للكفرة وقد ظهرت لهم النار توبيخا لهم: هذه جهنم التي حذرتكم الرسل، فكذبتموها؛ فادخلوها، وذوقوا حرها اليوم بسبب كفركم في الدنيا، وإنكاركم لها. ثم أخبر الله أنهم ينكرون ما فعلوا في الدنيا

(١) سورة يس، الآيات ٥٥ - ٦٥.

(٢) راجع: الآيات ٥١ - ٦٤ من سورة يس.

(٣) وعهده إليهم ما نصب لهم من الحجج العقلية والسمعية الأمرة بعبادته للزاجرة عن عبادة غيره وجعلها عبادة الشيطان لأنه الأمر بما والذين لها.

تفسير البضاوي، ٢٧١/٤.

ويحلفون أنهم ما فعلوه؛ فيختم الله على أفواههم، ويمنعها من الكلام، وتنطق جوارحهم، وتخبر ما فعلوا، وتشهد عليهم^(١).

■ وقفة مع المقارنة:

قارنت الآيات المباركة مقارنة خير صريحة بين أصحاب الجنة وأصحاب النار يوم القيامة. ففصلت القول في حال أصحاب الجنة، وهم فيها يتعمون ويخلدون بما فيها من أنواع النعم. فذكرت أنهم مشغولون بما عندهم من نعم من عند الله عن كل ما سواه، يخلدون فيها، جالسون مع أزواجهم متكئين على أثراك عظيمة الشأن بلغت الغاية في الحسن والروعة في ظلال أشجارها الممتدة، إذ لا يرون في الجنة شمساً ولا زمهراً. قال رسول الله ﷺ: "إن في الجنة شجرة، يسير الراكب في ظلها مائة عام، لا يقطعها، وأفراوا إن شئتم: ﴿وَبَطْنٌ مَشْهُودٌ﴾"^(٢). وبأهل الجنة من قواكه الجنة، ومن ثمارها التي منها الطلح والرمان والتمر وغيرها من أنواع الفواكه الطيبة اللذيذة، وهم فيها كل ما يشتهون ويحبون، ويطلبون الحصول عليه، لا يثمنون ولا يجرمون من شيء أبداً. وفوق ذلك كله لهم رضا الله الدائم، وهم فيها رؤيته، وسلام منه سبحانه وتعالى، حيث يرحب بهم، ويلقي إليهم السلام بواسطة ملائكته. وبغير واسطة الملائكة. وما ذاك إلا تشريفاً لهم وتكريماً، وزيادة في إنعامهم وإكرامهم.

أما أهل النار فهم على النقيض من ذلك، إذ يميزون ويفردون عن المؤمنين أهل الجنة، ويجمعون مع أمثالهم من أهل النار أهل الحبث والعصيان، ويوبخهم الله ويزجرهم على طاعة الشيطان وعصيان الرحمن مع أن الله وضح لهم السبيل وبين لهم الطريق، وصرح بعبادته لهم، وأمرهم بعبادته وحده لا شريك له، وطاعته في كل صغيرة وكبيرة، والبقاء على هذا الدأب الذي هو الطريق المستقيم. وأخبرهم أن الشيطان أضل قلوبهم خلقاً كثيراً من الناس، فعلى اللاحقين الاعتبار بمصير السابقين والاستفادة من قصصهم. ويوبخهم أيضاً على عدم استخدام عقولهم كما استخدمها المؤمنون وفازوا بالنعيم المقيم. ثم يظهر لهم جهنم، ويقال لهم: هذه هي النار التي وعدنا الله وأنبيأوه، فادخلوها بسبب كفركم وتكذيبكم للحق الذي جاءكم من عند الله، وذوقوا فيها أنواع العذاب المحرق المولم. والكافر لا يعترف بذنبيه يوم القيامة كما يفعل المؤمن^(٣)، بل يحاول يومئذ جحد إنكاره وكفره في الدنيا، فيختم الله على فمه وتشهد عليه جوارحه

(١) يُقَرَّر: أقوال التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي، ٢٧١/٤ - ٢٧٢. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٥١٨/٦ - ٥٢١. منارك

التنزيل وحقائق التأويل، للنسفي، ١٠٨/٣ - ١٢٠.

(٢) سورة الواقعة، آية ٣٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله "وظل ممدود"، ص ٨٦٥، رقم ٤٨٨١، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) قال نبي الله ﷺ: "يُنَادِي الْمُؤْمِنُ مِنْ رَبِّهِ". وَقَالَ هِشَامٌ: يَدْعُو الْمُؤْمِنُ حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ فَيَقْرَأُ بِذُنُوبِهِ، تَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ يَقُولُ: أَعْرِفُ رَبِّي، يَقُولُ: أَعْرِفُ - مَرَّتَيْنِ -، فَيَقُولُ: مَنْزِلَتِي فِي الدُّنْيَا، وَأَعْلَمُهَا لَكَ الْيَوْمَ، ثُمَّ تَعْلُو صَحِيفَةُ عَسَاتِيهِ، وَأَمَّا الْآخِرُونَ - أَوِ الْكُفَّارُ - فَيُنَادَى عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ".

أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله ويقول: الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا، ص ٨٠٦، رقم ٤٦٨٥، من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

بما صنع، فلن تبقى له حجة، ويُقضى عليه بالعذاب الدائم الذي لا مفر منه. وقد روي عن أنس أنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ فضحك، فقال: "هَلْ تَذَرُونَ مِمَّا أَضْحَكُ؟" قَالَ قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: "مِنْ مَخَاطِبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ! أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟" قَالَ: يَقُولُ: بَلَى، قَالَ: فَيَقُولُ: فَإِنِّي لَا أُجِزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي، قَالَ: فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ (عَلَيْكَ) شَهِيدًا، وَبِالْكَرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا. قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطَبِقِي، قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، قَالَ: ثُمَّ يُحْلَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، قَالَ: فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُخْقًا، فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أَنَا ضِلٌّ".^(١)

إن من أهم أهداف المقارنة: التشويق للجنة والتخويف من النار، والترغيب في الإيمان والعمل الصالح، والتحذير من الكفر والتمرد والعصيان، والحث على الرجوع إلى الله بالتوبة والاعتراف بالذنوب وطلب المغفرة حتى لا يفضح الإنسان يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، والحث على استخدام الجوارح في طاعة الله كيلا تشهد على الإنسان في الآخرة، وبيان حب الله للمؤمنين ومقته للكافرين، وتشجيع المؤمنين والحث على اتباع سبيلهم للحصول على النعيم المقيم الذي هو الفوز العظيم.

٦- قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوًا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۚ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ۖ﴾.^(٢)

ذكر الله تعالى أنه خلق الإنسان من نفس واحدة، وسخر لفائدته ثمانية أزواج من الأنعام، وخلق الإنسان في ظلمات ثلاث. والله هو رب الجميع، وله الملك، يرضى بشكر العباد، وهو غني عن كفرهم ولا يرضى الكفر لعباده. وكل إنسان يحمل حملة يوم القيامة، والكل يرجع إلى الله تعالى ليلقى جزاء أعماله. ثم بينت هذه الآية أحوال الإنسان في السراء والضراء، توبيخا له على ذلك.^(٣)

■ نظرة تفسيرية:

إن الظاهر أن المراد بالإنسان هنا جنس الكافر، ويدخل في الضر جميع أنواع المكروه في جسم أو أهل أو مال. فيقول الله تعالى: إذا مس الإنسان الكافر مكروه في أهله أو جسمه أو ماله من مرض ونحوه، استجار ربه وناداه، ولم يتوقع كشف الضر من أحد سواه، راجعا إليه وحده في إزالة ذلك، تاركا ما كان يدعو به في حالة الرخاء لعلمه بأنه لا يقدر على كشف ضره. وبين بذلك أن الكفار على كل حال يلجأون إلى الله في حال الضرورات. ثم أخبر

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، ص ١٢٨٦، ٧٤٣٩، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) سورة الزمر، آية ٨.

(٣) راجع: الآيات ٦ - ٨ من سورة الزمر.

أن هذا الكافر إذا أعطاه الله وملكه بعد كشف ذلك الضر عنه نعمة من عنده، نسي الضر الذي كان يدعو الله إلى كشفه قبل الحصول على النعمة، أو نسي ربه الذي كان يتضرع ويتهلإله^(١) في كشف الضر، قبل هذه النعمة في زمان الضر. وجعل الله أمثالا وشركاء في العبادة، وهو لا يمكنه يضلّال نفسه، بل يفضل غيره أيضا عن سبيل التوحيد. ثم أمر الله بخطاب مثل هذا الإنسان الكافر الجاعل لله أندادا الضال المضل، فأمر نبيه أن يقول له بيانا لحاله ومآله وتهديدا له: تلكذا واضع ما شئت جعرا وزمانا قليلا، إنك من سكان النار المخلدين فيها للمعذنين فيها على الدوام، وهو تغليل لقلة التمتع وفيه إقناط من النجاة^(٢).

■ وقفة مع المقارنة:

في هذه الآية الكريمة مقارنة غير صريحة بين حال الإنسان عموما والكافر خصوصا، في حال السراء والضراء. فذكر الله تعالى أن الكافر يلجأ إلى الله تعالى إذا مسه ضرر، من مرض أو نحوه، ليكشف الله عنه هذا الضر بفضلته ورحمته، ولكن هذا الإنسان نفسه سرعان ما ينسى الله تعالى، ويترك الرجوع والابتهال إليه إذا كشف الله عنه هذا الضر، وأنعم عليه بنعمة من عنده من نعمة الصحة أو المال أو غير ذلك، فيفتخر بالنعمة، ويدعي أنه حصل عليها بقوته، وهو جدير بما يستحق لها، وهي ليست فضلا من الله عليه.

وهذا هو حال كثير من المسلمين أيضا، إذ لا يتضرعون إلى الله ولا يدعونه إلا إذا مسهم الضر وأصابتهم مصيبة بما كسبت أيديهم. وإذا حصل ذلك لجأوا إلى الله وحده، ونسوا كل ما كانوا يعتمدون عليه قبل هذا الضر من مال وورق وأصحاب وزعماء وغير ذلك من الأمور التي جعلوها أندادا لله تعالى وأشركوها بالله في الحجة والتعظيم. وسرعان ما يستجيب الله دعاءهم، فيكشف عنهم هذا البلاء وينعم عليهم بنعمه العظيمة، ينسون الله، ويصبحون كأن لم يدعوا الله إلى ضرر مسهم، ويصيرون مشغولين في طرهم ولعبهم، مفتخرين بأموالهم وأولادهم، ناسين حق الله عليهم وأنهم عائلون إليه.

والؤمن تلقى هو الذي يلجأ إلى الله تعالى في السراء كما يلجأ إليه في الضراء، ولا ينساه في موقف من مواقف حياته، إن أصابته سراء شكر الله فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له.

ومن أهم أهداف هذه المقارنة: بيان الأحوال المتقلبة للناس وخصوصا الكفار، وإثبات أن التوحيد كامن في أصل فطرة البشر، والحث على العودة إلى الله تعالى في كل حين ووقت وعدم الإعراض عنه في السراء والضراء، وتهديد المعرضين عن الله، وتوعد للمشركين به بالنار للالامة لهم يوم القيامة.

(١) وذلك إما على أن "ما" بمعنى "من" كما في قوله تعالى: "وما خلق الذكر والأنثى" وإما إيدانا بأن نسيانه بلغ إلى حيث لا يعرف مبعوده ما هو فضلا عن أن يعرف من هو. (تفسير أبي السعود، ٢٤٤/٧).

(٢) ينظر: البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان، ١٨٧/٩ - ١٨٨. الجواهر الحسان، للعلامة، ٨١/٥ - ٨٢. إرشاد العقل السليم، لأبي السعود، ٢٤٤/٧ - ٢٤٥.

٧- قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (١).

وردت الآية بعد ذكر صفة من صفات الإنسان الكافر، وهي أنه إذا مسه خير دعا الله تعالى وأتاب إليه، وإذا أنعم الله عليه جمعة نسيه وجعل له أتداداً، وتوعدته الآية بأنه من أصحاب النار. ثم وردت في بداية هذه الآية مقارنة بإيجاز حذف بين القائل لله الخائف من الآخرة ومن هو عكس ذلك، وبعدها جاءت هذه الآية لتقارن بين أولي العلم وغير أولي العلم. (٢)

■ نظرة تفسيرية:

أمر الله نبيه أن يوجه استفهاماً إنكارياً فيقول: هل يستوي الذين اتصفوا بصفة العلم فيدركون حقائق الأشياء كما هي، ويعلمون بعلمهم، مع الذين لا يعلمون، فلا يدركون الأشياء على ما هي، وتختلط عليهم الحقائق، فلا يستطيعون العمل لأجل عدم العلم؟ وفيه إشارة إلى أن المؤمنين هم أهل علم، وأن المشركين أهل جهالة، كما أنه فيه تنويه برقعة العلم ومذمة الجهل. والمقصود بالآية إثبات عدم المساواة بين العالم والجاهل، وبين المؤمن العالم بحق ربه والكافر الجاهل بربه؛ وبالتالي إثبات فضيلة المؤمن العالم على الكافر الجاهل. فالذين يعلمون هم أهل الإيمان، والذين لا يعلمون هم أهل الشرك. وفي الآية إشارة إلى أن الإيمان أخو العلم، لأن كليهما نور، وأن الكفر أخو الضلال لأنهما ظلمات. ثم أثبت التذكير لأولي الأبواب، فذكر أن أهل العلم وأصحاب العقول السليمة هم الذين يتذكرون ويتعظون بوعظ الله لا غيرهم. (٣)

■ وقفة مع المقارنة:

قارنت الآية مقارنة صريحة بين العلماء الذين يعلمون والجاهلين الذين لا يعلمون، مستخدمة استفهاماً إنكارياً، إذ أنكرت على من يستوي بين العالم والجاهل. ولا شك أنهما لا يستويان، فالعالم يتل وسعه في سبيل الحصول على العلم الذي يفيد في الدنيا والآخرة، والذي فيه صلاح معاشه ومعاده، ثم يستفيد من هذا العلم بنفسه حيث يعمل به ويصلح به دنياه، ويحاول به الحصول على فلاح آخرته، كما يستفيد به في الرفع من مكانته ودرجته عند الله تعالى وعند الناس، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (٤). والعالم هو الذي يخشى الله حق الخشية، فالعلم يورث الخشية: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (٥). ومن

(١) سورة الزمر، آية ٩.

(٢) راجع: الآيات ٨ - ٩ من سورة الزمر.

(٣) يُظهِر: الكشف والبيان، للتعليق ٢٢٤/٨، تفسير القرآن، لعبد المصطفى السليمي، ٩٤/٣. الكشف، للوعشري، ١١٢/٤. مبارك

التنزيل، للتسقي، ١٧٢/٣. التحرير والتنوير، لابن عاشور، ٣١٣/٢٣، ٣٤٨/٢٣ - ٣٥١.

(٤) سورة المجادلة، آية ١١.

(٥) سورة فاطر، آية ٢٨.

البديهي أنه لا يخشى الله حق الخشية ولا يعظمه حق التعظيم إلا من عرفه حق المعرفة، ولا يكون ذلك إلا بالعلم. والعلم في الحقيقة هو الذي يقرب الإنسان من الله تعالى، ويساعده في الوصول إليه وإن كان علم العلوم التجريبية والاقتصاد وغيرها، أما ما كان سببا في البعد عن الله وإنكاره فهو جهل محض، وإن كان صاحبه حاصلا على أعلى الشهادات من أعرق الجامعات. ومن أهم ما يبين فضل العلم والعلماء ما قاله رسول الله ﷺ: "مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنَاحَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالْحَيَاتَانِ فِي جَوْفِ الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ، كَفَضْلِ الْقَمَرِ، لَيْلَةَ الْبَدْرِ، عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا، وَلَا دِرْهَمًا، وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَبْطِ وَاقِرٍ".^(١) وبالإضافة إلى ذلك كله يفيد العلم بعلمه غيره؛ إذ يوصل إلى الناس هذا العلم النافع الذي حصل عليه، ويبدل وسعه في إصلاح الناس به حتى تصلح دنياهم وأخراهم.

أما الجاهل فهو الذي لا يحصل على العلم، إذ لا علم له يعينه على صلاح دنياه وأخراه، فلا يستفيد بنفسه بل يحرم نفسه من فضائل العلم الكثيرة، ولا يفيد غيره، لأن فاقده الشيء لا يعطيه.

ومن أهم أهداف هذه المقارنة: إنكار المساواة بين العالم وغير العالم، وبيان أهمية العلم، والحث على طلب العلم الذي فيه خير الدين والدنيا، والتأكيد على التذكر واستخدام العقول، والتوجيه إلى التفكير والتدبر.

٨- قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآخِرَةٍ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾^(٢).

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب العلم، باب في فضل طلب العلم، ص ٥٢٣، رقم ٣٦٤١، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه. ط ١، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٩٩٩م - ١٤٢٠هـ. وأخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب السنة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، ص ٣٤، رقم ٢٢٣.

وقال السخاوي: صححه ابن حبان والحاكم وغيرهما، وحسنه حمزة الكفائي، وضعفه غيرهم بالاضطراب في سنده، لكن له شواهد بتقوى بها.

المقاصد الحسنة، للسخاوي، تحقيق: محمد عثمان الخشت، ط ١، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، ص ٤٥٩.

وصححه الألباني.

ينظر: صحيح الجامع الصغير وزيادته، للألباني، ١٠٧٩/٢.

(٢) سورة الزمر، آية ٤٥.

وردت الآية في سياق الحديث عن قدرة الله وملكه الكامل، فذكر أن ما سوى الله لا يملك شيئاً، والله هو الذي بيده الشفاعة، فلا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، وله الملك وإليه يرجع الجميع. ثم بين حال الكفار عند سماع اسم الله في هذه الآية.^(١)

■ نظرة تفسيرية:

ذكر الله تعالى في هذه الآية هفوة تصدر من المشركين، وتدلل على عجلة عظيمة، وتناقض بين الاعتراف بالألوهية والإنكار. فبين أن المشركين الذين لا يؤمنون بالآخرة والبعث والمعاد، إذا ذكر النبي ﷺ أو المسلمون كلمة التوحيد عندهم، أو ذكر الله أنه إله الناس، ولم يذكر مع الله أصنامهم وكونها شركاء لله اشتمزت قلوبهم. أي: إذا ذكر الله منفرداً، وذكر أنه متفرد بالإلهية، ولم يذكر مع اسم الله اسم أصنامهم، كرهت قلوبهم هذا الأمر ونفرت منه واستكبرت وانقبضت، وامتألت غيظاً وغضباً يرى أثره على الوجوه. وذلك بسبب الاقتصار على ذكر الله؛ إذ لا يرضون بالسكوت عن وصف أصنامهم بالإلهية، وهذا يشير إلى أنهم يسوونها بالله. أما إذا ذكرت أصنامهم وأوثانهم بوصف الإلهية، وذلك حين يسمعون جماعة المشركين يذكرون في أحاديثهم اللات والعزى وإيمانهم بها، ولم يذكر معها اسم الله يستبشرون بذلك، فيفرحون فرحاً شديداً، وتمتلئ قلوبهم سروراً يظهر أثره على بشرتهم ووجوههم. وهذا يدل على أنهم يرجعون جانب الأصنام على جانب الله، إذ يفرحون بمجرد النطق باسمها، كما يدل على فرط افتنائهم بالأصنام ونسيانهم حق الله تعالى. وفي مقابلة الاشتزاز بالاستبشار مطابقة كاملة، لأن الاشتزاز غاية الكراهية، والاستبشار غاية الفرح، وفي ذكر عدم الإيمان بالآخرة إعادة تذكيرهم بيوم القيامة. واستخدم المضارع ليفيد تجدد الاستبشار.^(٢)

■ وقفة مع المقارنة:

قارنت الآية مقارنة غير صريحة بين موقف المشركين وحالهم عند سماع ذكر الله وتفرد به بالإلهية، وحالهم عند سماع ذكر الأصنام والأوثان التي تُعبد من دون الله.

فإنهم إذا ذكر عندهم أن الله واحد لا شريك له، وهو المتفرد بالربوبية والألوهية والخلق والتدبير، وهو المستحق للعبادة وحده دون شريك ولا نظير، اشتمزت قلوبهم ونفرت من هذه الدعوة، وظهرت آثار الكراهية في وجوههم بمجرد سماع هذه الكلمة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِّرْتُ بِرَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ عَلَىٰ أَذْبَرِهِمْ نُفُورًا﴾.^(٣) وهي حق لا شك فيها ولا مرية، لكنهم يحاولون قدر المستطاع، لشدة نفورهم عن هذه الكلمة وكراهيتهم لها، الصد عن سبيلها والقضاء على كل من يدعو إليها. أما إذا ذكرت الأصنام والأوثان التي يعبدونها مع الله، فرح هؤلاء واطمأنوا

(١) راجع: الآيات ٤٣ - ٤٥ من سورة الزمر.

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ٢٦٤/١٥. التحرير والتنوير، لابن عاشور، ٢٩/٢٤ - ٣٠. تفسير المراغي، ١٤/٢٤.

- ١٥ -

(٣) سورة الإسراء، آية ٤٦.

واستبشروا، كأنما سمعوا بشرى سارة ترتاح لها الأبدان وتسعد بها القلوب، وتظهر آثار هذه الكلمة المشتركة في وجوههم، بسبب جبههم الشديد للأصنام، وإصرارهم على الشرك بالله الذي يزعمون أنه الطريق الصواب.

أما المؤمنون فهم تطمئن قلوبهم بذكر الله الواحد الأحد، وبالعامل بطريقته واتباع سنة نبيه ﷺ، وتتميز نفوسهم من كل ما خالف ذلك من البدع والخرافات والمنكرات ونحو ذلك. وكل من اطمأنت نفسه إلى البدع، واستبشرت بفعل ما خالف شرع الله وسنة نبيه ﷺ فهو من هؤلاء الذين ذمهم الله بذكر استمزازهم من ذكر الله وحده، واستبشارهم بذكر الأصنام لعدم إيمانهم بالآخرة. وكل من ضعف إيمانه بالآخرة كان مثلهم في هذا السلوك القبيح. أما المؤمن الحق فهو الذي تطمئن نفسه بذكر الله وحده والعمل بشرعه واتباع سنة رسوله ﷺ. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^(١).

ومن أهم أهداف المقارنة: زجر الكفار وتوبيخهم على الفرار من عقيدة التوحيد، والتنفير من طريقة الكفار، وبيان أحوالهم السيئة من شدة حب الأنداد والنفور من الله الواحد الأحد، والحث على تقوية الإيمان بالآخرة، لأن ضعف الإيمان بالآخرة هو السبب في سلوك مثل هذا السبيل السوء.

٩- قال الله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ۝ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ۝ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ۝ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ۝﴾^(٢).

جاءت هذه الآيات في سياق الحديث عن يوم القيامة، حيث يُنفخ في الصور فيصعق الجميع، ثم يُنفخ مرة أخرى فيقومون، وتشرق الأرض بنور ربها، ويُقضى بين الناس بالحق، وتُؤق كل نفس جزاء ما عملت، والله يعلم ما يفعل الناس، وهو لا يظلم أحدا. ثم ذُكر في هذه الآيات مصير الناس بعد الحساب والجزاء.^(٣)

(١) سورة الرعد، آية ٢٨.

(٢) سورة الزمر، الآيات ٧١ - ٧٤.

(٣) راجع: الآيات ٦٨ - ٧٤ من سورة الزمر.

■ نظرة تفسيرية:

أخبر الله تعالى عن مصير الفريقين بعد الفراغ من الحساب، فقال: إن الذين كفروا تسوقهم الملائكة إلى النار بشدة وعنق، لأنهم لا يريدون الذهاب إليها، في جماعات وأفواج متفرقة بعضها في إثر بعض. ولما يصلون إليها تفتح لهم أبوابها التي كانت مغلقة، كأبواب السجون التي لا تفتح إلا عند مجيء السجناء، وفي ذلك دلّ وهوان لهم، وتقول لهم خزنتها توبخا وتقريعا لهم: ألم يأتكم رسل من أنفسكم يتلون عليكم آيات ربكم المبينة لكم الهدى من الضلال والحق من الباطل، وما يحب ربكم وما يكره. فيجيبونهم قائلين: بلى أئتنا الرسل، وتلت علينا آيات ربنا، ولكن كفرنا، وقد وجبت كلمة العذاب على الكافرين، ونحن منهم، فوجب علينا العذاب، لسوء أعمالنا وكفرنا وضلالنا. حينئذ تقول لهم الملائكة: قبح مأوى المنكبرين في جهنم. أما الذين اتقوا فيساقون إلى الجنة على مراكب كريمة يركبونها، تُسرّع بهم إلى الجنة دار الكرامة، وتسوقهم إليها بلطف وتكريم في جماعات وطبقات مختلفة، منها طبقة الشهداء، والزهاد، والعلماء، والقراء وما إلى ذلك. هؤلاء يصلون إلى الجنة، وقد فتحت أبوابها قبل وصولهم إليها، لاستقبالهم معززين مكرمين، ولأن فيه فرح وسرور لهم. وتقول لهم الملائكة: سلام عليكم طبتم من دنس المعاصي وخبث الخطايا، وطابت أعمالكم، فأبشروا بالسلام من كل الآفات، وطاب لكم المقام، فادخلوا الجنة دار الطيبين ومثوى الطاهرين، خالدين فيها إلى الأبد. فيقولون بعد خلودهم في الجنة ونزولهم في قصورها: الحمد لله الذي صدقنا وعده، وأورثنا أرض الجنة ننزل فيها حيث نريد النزول؛ وفيها أيضا إشارة إلى أنهم ورثوها من أبويهم آدم وحواء، إذ كانت لهم قبل نزولهم إلى الأرض، والآن صارت ملكا لهم يتصرفون فيها كما يشاءون. ونعم ثواب المطيعين العاملين في الدنيا بالإيمان والتقوى، الجنة في العقبى.^(١)

■ وقفة مع المقارنة:

قارنت الآيات مقارنة غير صريحة بين بعض ما يلقي أهل النار من الجزاء، وبعض ما يلقيه أهل الجنة منه، بذكر عدد من الفروق بين الطرفين، ربطا بين الترغيب والوعيد والوعيد. فذكرت الآيات عددا من الفروق التي تفرق بين الطرفين، وتوضح أوجه الاختلاف بينهما، حتى تتضح المقارنة، وينجلي الفرق بين الصنفين. ومن هذه الفروق:

○ أن أهل النار يساقون إلى النار أفواجا وجماعات متفرقة، كل أمة على حدة، تسوقهم الملائكة إليها سوق ذلّ، ومعها سياط يضربون بها أهل النار الكفار. أما أهل الجنة فيساقون إليها في جماعات، فيها النبيون والصدّيقون والشهداء والعلماء، سوق احترام وإكرام، جالسين على مراكب تليق بهم وبالذي نزلوا عنده، وهو الغفور الرحيم. قال الزمخشري رحمه: "سوق أهل النار طردهم إليها بالهوان والعنف، كما يفعل بالأسارى والخارجين على

(١) يُنظر: الكشف، للزمخشري، ١٤٦/٤ - ١٤٧. لباب التأويل في معاني التنزيل، لعلاء الدين الخازن، ٦٥/٤ - ٦٦. أسير التفاسير، للجزائري، ٥١٠/٤ - ٥١١.

السلطان، وسوق أهل الجنة سوق مراكبهم، لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين، وحشها إسراعاً بهم إلى دار الكرامة والرضوان، كما يفعل بمن يشرف ويكرم من الوافدين على بعض الملوك، فشتان ما بين السوقين".^(١)

○ أن النار تبقى أبوابها مغلقة، حتى إذا وصل أهلها إليها تُفتح أبوابها لهم، ويُلقَوْنَ فيها على وجوههم، فتحيط بهم النار من كل جانب، كما تكون أبواب السجن مغلقة، حتى إذا وصل المجرمون تفتح لهم، ثم تُغلق بعد إلقائهم فيها. أما الجنة فتُفتح أبوابها لأهلها قبل وصولهم إليها، ولما يصلون إليها يجدونها بانتظارهم، مفتحة أبوابها لهم، كما قال تعالى: ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُّفْتَتِحَةٍ لَهُمْ الْأَبْوَابُ﴾.^(٢) وفي ذلك إكرام لأهل الجنة واستقبال لهم كما أننا نفتح أبواب المنزل إكراماً للضيوف الأعزاء الذين نكون مشتاقين إليهم، وبأتوننا بعد انتظار طويل، ويظهر من ذلك زيادة تشريف للضيوف وإظهار شوق صاحب المنزل وانتظاره لهم.

○ أهل النار توخهم الملائكة وتقول لهم تقرعاً لهم: ألم يأتكم رسل منكم، ليزدادوا حسرة وتندما على ما فرطوا في الدنيا، ويعترفون حينئذ بذنبهم ووجوب العذاب لهم بما قدمت أيديهم، ولا ينفعهم الاعتراف يومئذ ولا الندم. أما أهل الجنة فتكرمهم الملائكة، وتسلم عليهم، وترحب بهم في الجنة بكلام طيب جميل، فتقول لهم: ادخلوا الجنة خالدين فيها لطيب أعمالكم في الدنيا، في حين أنه يقال لأهل النار ادخلوا جهنم من أبوابها، واخلدوا فيها.

○ أن النار بئس مثوى المتكبرين ومأواهم لا راحة فيها ولا سرور، أما الجنة المليئة بالسعادة والسرور فهي نعم أجر العاملين المؤمنين.

○ يندم أهل النار على ما فعلوا في الدنيا، ويتمنون الرجوع إليها، كما يطلبون التخفيف من العذاب. أما أهل الجنة فيحمدون الله ويشكرونه على نعمة الهداية في الدنيا، وعلى صدق وعد الله، والحصول على الجنة بفضل الله ورحمته في الآخرة، ولن ييغوا عنها حولا.

ومن أهم أهداف هذه المقارنة: بيان فضيلة المؤمن على الكافر، وتوضيح منزلة المؤمن عند الله وإكرامه له وإهانته للكافر، والتشويق للجنة والتخويف من النار، وتشجيع المؤمنين الثابتين على الحق، والحث على اتباع سبيلهم، ودم الكفار والتحذير من سلوك سبيلهم، والترغيب في التقوى والتطلع إلى الجنة، والتحذير من العكس. جاء في أيسر التفاسير ما نصّه: "في الآيات بيان إهانة أهل النار بسوقهم بعنف وتأنيبهم وتوبيخهم، والتنديد بالاستكبار عن عبادة الله وعبادة المؤمنين المتقين له. وبيان إكرام الله لأولياؤه، إذ يُحْمَلُونَ على نجائب رحالها من ذهب إلى الجنة، ويلقون فيها تحية وسلاماً، وإكراماً واحتراماً، وسلاماً وأماناً من كل مكروه".^(٣)

(١) الكشاف، للزمخشري، ١٤٧/٤.

(٢) سورة ص، آية ٥٠.

(٣) أيسر التفاسير، للجزائري، ٥١١/٤.

١٠- قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (١).

بعد بيان أن خلق السماوات والأرض أكبر وأعظم من خلق الناس استدلالاً على البعث والنشور، بين الله تعالى أنه لا يستوي عنده المحسن والمسيء والمؤمن والكافر، لذا فهو يبعث الجميع يوم القيامة ويجازي كل واحد وفق أعماله التي قام بها في الدنيا. (٢)

■ نظرة تفسيرية:

ذكر الله تعالى في هذه الآية مثلاً للكافر الغافل المجادل بالباطل، وشبهه بالأعمى، ومثلاً للمؤمن المتأمل المفكر المجادل بالحجة والبرهان، وشبهه بالبصير. فقال: كما لا يستوي الأعمى والبصير، كذلك لا يتساوى الذي يجادل بالباطل والذي يجادل بالحق، ولا يتساوى الكافر الذي لا يتأمل حجج الله وبياناته فيتدبرها ليقوده ذلك إلى الإيمان، والمؤمن الذي يتفكر بها فيتعظ بها ويؤمن بالله ويعمل صالحاً. فالأول شبهه بالأعمى الذي تعطلت عنده حاسة البصر، والثاني شبهه بالبصير الذي تفتحت عيناه، فتأمل في الكون واتعظ. وكذلك لا يستوي المحسن الآتي بالإيمان والأعمال الصالحة، والمسيء الآتي بالكفر والأعمال الفاسدة الباطلة المستكبر عن عبادة ربه، فما أقل ما يتذكر كثير من الناس، ويتعظ بهذه الأمثال، فيدرك الفرق الواضح بين المؤمنين الأبرار المطيعين لربهم، وبين الكفرة الفجار المخالفين أمر ربهم، وإلا فلو تذكرتم مراتب الأمور، ومنازل الخير والشر، وعرفتكم الفرق بين الأبرار والفجار، لأترتم النافع على الضار، والهدى على الضلال، والسعادة الدائمة على الفانية. ثم بين الله أن الناس وإن كانوا يعلمون أن العمل الصالح خير من الفاسد، إلا أنهم قليلاً ما يتذكرون في النوع المعين من الاعتقاد أنه علم أو جهل، والنوع المعين من العمل أنه صالح أو فاسد، فإن الحسد يعمي قلوبهم، فيعتقدون في الجهل والتقليد أنه محض المعرفة وفي الحسد والكبر أنه محض الطاعة. و"لا" زائدة في قوله ولا المسيء، لأن المقصود نفي المساواة بين المحسن والمسيء فيما له من الفضل والكرامة. (٣)

■ وقفة مع المقارنة:

قارنت الآية المباركة بين المؤمن والكافر، والمحسن والمسيء، مقارنة صريحة مباشرة بنفي المساواة بين الطرفين. فصرّحت بأن المؤمن لا يستوي مع الكافر، تماماً كما لا يستوي البصير مع الأعمى؛ فالمؤمن كالْبَصِير في رؤية الحق، والسير في الطريق الصواب، والتمييز بين ما ينفعه ويضره، والاستفادة من حواسه في الحصول على الهداية والسير في طريقها.

(١) سورة غافر، آية ٥٨.

(٢) راجع: الآيات ٥٧ - ٥٨ من سورة غافر.

(٣) يُنظر: مفاتيح الغيب، للرازي، ٥٢٦/٢٧ - ٥٢٧. التفسير المنير، للزحيلي، ١٤٨/٢٤ - ١٥٠. تفسير السعدي، ص ٧٤٠.

والكافر كالأعمى في عدم الاهتداء إلى الطريق الصواب، وعدم التمييز بين النافع والضار، وعدم القدرة على الوصول إلى الهدف المنشود. فكما أن الأعمى والبصير لا يستويان في الدنيا، كذلك لا يستوي المؤمن والكافر حالا ولا مآلا لا في الدنيا ولا في الآخرة، بل إن المؤمن أعلى مرتبة، وأجوب طريقا، وأقرب منزلة من الرحمن من الكافر.

وكذلك لا يستوي المحسن مع المسيء، فالذي يؤمن بالله ويعمل صالحا، ويكون محسنا في الدنيا، يحسن مع نفسه ومع من حوله؛ فيعمل الأعمال الصالحة بإتقان وإحسان، ويحاول إرضاء ربه ببذل كل ما في وسعه من جهد، ويعامل كل من حوله معاملة حسنة، ويعبد الله كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإنه يراه. ومن كانت هذه حالته في الدنيا، إن لم يلق جزاء في الدنيا وكان كالمسيء فيها، فإنه لا بد وأن يكون فوقه يوم القيامة الذي يلقي فيه جزاء حسنة مرضيا، كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾^(١) ولا يتساوى هذا أبدا مع المسيء الذي أساء إلى نفسه بالإعراض عن الإيمان، والإتيان بالأعمال السيئة، واقتواف الذنوب والمعاصي، فعاش ضيق النفس في الدنيا، ومال جزاء سيئا في الآخرة. وبين الاثنين بون شاسع كما هو واضح في الدنيا والآخرة.

ومن أهم أهداف المقارنة:

(١) نقي المساواة بين المؤمن والكافر المحسن والمسيء، وبين فضيلة الإيمان والمؤمن على الكفر والكافر والمحسن على المسيء.

(٢) الترويب في الإيمان والعمل الصالح، والتحذير من السيئات جملة وتفصيلا.

(٣) الدعوة إلى التذكر والتدبر، واختيار الطريق الصواب الذي ينفع المرء في دنياه وآخرته.

(٤) الاستدلال على البعث والجزاء بالمحسن والمسيء. قد يتساويان في الحياة الدنيا، لكن الله سيجازي كلا منهما في الآخرة وفق عمله، فيظهر التفاوت في حقيقة الأمر.

المبحث الثالث:

المقارنات من أول سورة فصلت إلى آخر سورة الحديد

١- قال الله تعالى: ﴿فَلْيُذِيقُوا الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلْيَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ٢٧﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارِ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ ۖ جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ٢٨ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أُضْلَلْنَا مِنْ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمْ تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونُوا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ٢٩ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ٣١ نَزَّلًا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ ٣٢﴾ (١)

تحدثت الآيات السابقة عن الكفار الذين قبض الله لهم قرنًا من الجن الذين زينوا لهم أعمالهم السيئة، فحق عليهم القول فكانوا من الخاسرين. ثم ذكر موقفهم من القرآن، حيث أمر بعضهم بعضًا بعدم الاستماع للقرآن الكريم، والتشاغل عنه برفع الأصوات. وفي هذه الآيات ذكر جزاء هؤلاء في الآخرة، مع ذكر جزاء المؤمنين به كما هي عادة القرآن الكريم. (٢)

■ نظرة تفسيرية:

ذكر الله تعالى في هذه الآيات أنه سيذيق الذين كفروا عذابًا شديدًا، ووضع الظاهر موضع الضمير في قوله "الذين كفروا" لبيان كفرهم، وللدلالة على أن هذا الحكم شامل لمن سبق ذكرهم، ولغيرهم من الكفار. فهؤلاء سيجازيهم الله جزاء سيئا على كفرهم الذي هو أسوأ ما كانوا يعملون في الدنيا، وذلك العذاب المذكور هو جزاء أعداء الله النار، لهم فيها دار خلد وموضع إقامة، جزاء إنكارهم لآيات الله تعالى. ثم ذكر ما سيقولون في النار بعد ما يُلقون فيها، إذ يقولون بعد دخولها: ربنا أبصّرنا الذين أضلونا من شياطين الإنس والجن، الذين دعونا إلى الضلال والعصيان، نطأها تحت أقدامنا في النار، إذلالًا وإهانة لهم، ليكونوا من الأدلّين، ومن أصحاب الدرك الأسفل الذي هو أشد عذابًا من غيره. وبعد أن فصل القول في الوعيد، أردفه بالوعد، فذكر جزاء المؤمنين المستقيمين، قائلا: إن الذين اعترفوا بربوبية الله، وأقروا بوحديته، واستقاموا على التوحيد والطاعة والإخلاص، والعمل الصالح إلى الموت، تنزل عليهم الملائكة عند الموت، وتقول لهم: لا تخافوا على ما تقدمون من أمر الآخرة، ولا تحزنوا على ما خلقتكم من أهل

(١) سورة فصلت، الآيات ٢٧ - ٣٢.

(٢) راجع: الآيات ٢٥ - ٣٢ من سورة فصلت.

وولد، فإننا نخلفكم في ذلك. وتنزل عليهم عند القيام من القبر أيضا، وتقول: لا تخافوا العقاب، ولا تحزنوا على صدور العصيان، فإن الله يغفر لكم، وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون في الدنيا على لسان الرسل. وفي ذلك إشارة إلى رفع المضار عنهم في الحال والمآل، وإلى تبشيرهم بزوال الخوف والحزن في كل مراحل الآخرة. وتقول لهم الملائكة أيضا: نحن أولياؤكم في الدارين، فكنا معكم نتولاكم في الدنيا، ونحفظكم من الشياطين ونلهمكم الخيرات، ونحن معكم، لا نفارقكم حتى تدخلوا الجنة في الآخرة. ولكم في الجنة ما تشتهي أنفسكم من اللذات والكرامات، ولكم فيها ما تتمنون وتطلبون من الحظوظ الجسمية والمواهب الروحانية، وكل ذلك نزل من غفور رحيم؛ وفيه إشارة إلى أن ما يتمنون بالنسبة إلى ما يعطون مما لا يخطر ببالهم كالنزل، وهو أول ما يُقدَّم للضيف.^(١)

■ وقفة مع المقارنة:

هذه الآيات المباركة فيها مقارنة غير صريحة بين أهل النار وأهل الجنة، عن طريق الربط بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد.

فالكفار لهم عذاب شديد بسبب أعمالهم السيئة التي كانوا يؤدونها في الدنيا من الكفر والمعاصي، إذ يدخلون النار ويقبضون فيها إلى الأبد، لا يخرجهم منها مخرج؛ بسبب جحدهم بالقرآن، وإنكارهم لآيات الله تعالى، وإلغائهم فيها، وعدم الانتفاع من حجج القرآن الكريم وبراهينه. وهم في النار يلعن بعضهم بعضا، ويدعو بعضهم على بعض، ويتخاصمون ويتجادلون، ويدعون الله أن يرهم شياطين الإنس والجن التي أضلتهم عن الطريق الصواب، ليدلوها ويهينوها، ويجعلوها تحت أقدامها لتزداد ذلا وإهانة، وتكون من أصحاب الدرك الأسفل الأشد عذابا من النار. أما الذين اعترفوا بتوحيد الله، واستقاموا على الطريق الصواب، وأدوا الطاعات، واجتنبوا المنكرات، تنزل عليهم الملائكة عند الموت، وتصحبهم عند الحشر والبعث من القبور، وتُطَمِّئُهُمْ، فتقول لهم: لا تخافوا من الآتي، ولا تحزنوا على ما فات، فلا خوف عليكم اليوم، ولا أنتم تحزنون، وتبشروهم بالجنة التي وعدهم الله على لسان رسله على الإيمان والعمل الصالح. كما تسليهم الملائكة، وتذهب عنهم فزع اليوم بقولهم: نحن كنا نتولاكم بالصيانة والحفظ في الدنيا، ونحن معكم اليوم أيضا حتى ندخلكم الجنة. ولهم في الجنة ما يتمنون، وما يطلبون من النعيم والمشتبهات والملاذات، يتنعمون بها، وهم ضيوف للرحمن، الغفور الذي يغفر لهم خطاياهم، الرحيم الذي يدخلهم الجنة برحمته. وفيها يكونون إخوانا على سرر متقابلين، يفرحون برؤية بعضهم، ولا يلعن بعضهم بعضا، ولا يتخاصمون، ولا يتجادلون كأهل النار.

ومن أهم أهداف المقارنة: تشجيع المستقيمين على الحق، والحث على اتباع سبيلهم، والتشويق للجنة والتخويف من النار وأنواع عذاب الله الشديد فيها، والدعوة إلى الإيمان والعمل الصالح، والتحذير من الكفر والعمل السيئ، والتحذير من طاعة الشيطان. كما أن فيها تسلية للمؤمنين وطمأنة لهم، وتوجيه لأنظارهم نحو ما عند الله.

(١) يُنظر: زاد المسير في علم التفسير، ٥٠/٤ - ٥١. غرائب القرآن و رغائب الفرقان، للنيسابوري، ٥٨/٦ - ٥٩. التفسير المظهر،

لثناء الله، ٢٩١/٨ - ٢٩٤.

٢- قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُذَرِّكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ۝ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۚ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ۚ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾^(١).

ذكر الله أن الذين يحاجون في الله بعد أن استجاب الناس لدعوته حجتهم باطلة عند الله، ولهم غضب وعذاب شديد منه. والله هو الذي أنزل الكتاب بالحق، وهو الذي يعلم موعد الساعة، ولعل موعدها قريب، ثم ذكرت هذه الآية موقف الناس منها.^(٢)

■ نظرة تفسيرية:

يتحدث الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات عن الساعة، فيقول: أي شيء يجعلك داريا، أي: عالما بالساعة، فلعل الساعة التي أخبر بها الكتاب الحق قريب إتيانها؛ والمعنى: أن الساعة على وشك الإتيان، فاتبع الكتاب، واعمل بالشرع، وواظب على العدل، قبل أن يفاجئك اليوم الذي توزن فيه أعمالك، وتوفى جزاءك. وتذكير القريب بمعنى أنها ذات قرب، أو لأن تأنيث الساعة ليس بحقيقي؛ فإنها بمعنى الزمان والوقت، ويجوز أن تكون بمعنى البعث والنشور، فالتذكير راجع إلى المعنى. ثم ذكر موقف الناس منها، فقال: يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها، استهزاء بها واستبعادا لقيامها، وتكديها وإنكارا لها. أما الذين آمنوا فهم خائفون وجلون منها، ومن الحساب الموعود والجزاء الواقع على الأعمال فيها رغم غيابها، مع اعتناء بها لتوقع الثواب، ويعلمون أنها الأمر المتحقق الكائن لا محالة. ثم نبه إلى أن الذين يجادلون في الساعة، ويختلفون ويشكون فيها، أو يترددون في أمرها، لفي ضلال وخطأ بعيد عن الحق؛ فإن البعث أشبه الغائبات عن المحسوسات، فمن لم يهتد إلى الإيمان به فهو أبعد عن الاهتداء إلى ما وراءه.^(٣)

■ وقفة مع المقارنة:

قارنت الآية مقارنة غير صريحة بين موقف أهل الإيمان من يوم القيامة، وموقف أهل الكفر منه. فالذين آمنوا باليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب وثواب وعقاب، يؤمنون به حق الإيمان، ويخافون من مجيء الساعة في كل وقت، فلا يستعجلونها، بل يستفيدون من الفرصة التي أعطاها الله تعالى، ليملاؤا صحيفة حسناتهم فينالوا المثوبة من الله. وهذا الخوف يساعدهم على الاستعداد لها، بالإيمان والعمل الصالح، وبذل كل ما في وسعهم لإرضاء الرب جل وعلا الذي سيحاسب الناس في ذلك اليوم، ويعطي كل واحد جزاء عمله في الدنيا. أما الكفار فهم لا يؤمنون بالساعة، وما فيها من ثواب وعقاب وحساب، بل يستهزئون بهذه الأمور، وينكرونها، ويدعون أنها لا توافق العقل،

(١) سورة الشورى، الآيتان ١٧ - ١٨.

(٢) راجع: الآيات ١٦ - ١٨ من سورة الشورى.

(٣) يُنظر: تفسير القرآن، للسمعاني، ٧٠/٥ - ٧١. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي، ٧٩/٥. روح المعاني، للآلوسي، ٢٧/١٣.

ويستعجلون مجيئها إنكارا واستهزاء، واستبعادا لوقوعها، ويجادلون في أمرها، ويشكون في وقوعها، ولا يخافون منها، بل يقولون: ﴿أَوَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾^(١). وبسبب هذا الموقف لا يعملون في الدنيا، ولا يجتهدون استعدادا لتلك الساعة المرعبة؛ وهؤلاء في ضلال بعيد عن الحق.

ومن أهم أهداف هذه المقارنة: الحث على الاستعداد لليوم الآخر بالإيمان والعمل الصالح، والترغيب في الاستفادة من العمر والزمن الذي مُنح الإنسان، والتحذير من استعجال الساعة والقيامة لأنه ديدن الكفار، والتخويف من هول الساعة.

٣- قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَّ بِهَا ۖ وَإِن تَصِبْهُمْ سَيِّئَةً يَبْأَ قَدَمَتِ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَقُورٍ﴾^(٢).

أمر الله عباده بالاستجابة إلى رحم قبل مجيء الساعة، التي لا ملجأ للناس منها ولا نكير ينكر ما بهم ويغيره، ثم خاطب الرسول ﷺ وطمأنه بأنهم إن أعرضوا فليس عليه جناح، وما هو برفيب عليهم، بل إنه عليه البلاغ فقط، فمن شاء أقبل ومن شاء أعرض. ثم بيّن في هذه الآية حال الإنسان في السراء والضراء.^(٣)

■ نظرة تفسيرية:

يخبر الله تعالى في هذه الآية عن حال الإنسان، فيقول: إننا إذا أغنينا ابن آدم، وأعطيناه من عندنا رحمة من سعة وغنى وصحة وعافية وغيرها من النعم، سرّ وفرح بما أعطيناه، وأنعمنا عليه من السعة وكثرة المال. وإن أصابت ابن آدم فقر وفاقة أو ضيق عيش أو مرض، بسبب ما قدمت يده من معاصي الله، عقوبة له على معصيته إياه، كفر وجحد ما تقدم من نعمة الله عليه، وأيس من الخير، لأن الإنسان جحود؛ يعدد المصائب، وينسى بأول شدة جميع ما تقدّم من النعم عليه.^(٤)

■ وقفة مع المقارنة:

قارنت الآية مقارنة غير صريحة بين موقف الإنسان عند الحصول على نعمة من نعم الله، وموقفه عند مواجهة شدة من الشدائد مما كسبت يده. فذكرت أنه إذا أنعم الله عليه بنعمة من نعمه الكثيرة، فرح بهذه النعمة واغتر بها، ولم يشكر الله المنعم عليه، بل تكبر وتبخر، وظن أنه حصل عليها بعلم وقوة من عنده، ولم يؤدّ حق الله من الشكر بالقول والعمل، بصرفها في طاعة الله والإنفاق منها على المحتاجين.

(١) سورة ق، آية ٣.

(٢) سورة الشورى، آية ٤٨.

(٣) راجع: الآيات ٤٧ - ٤٨ من سورة الشورى.

(٤) يُنظر: جامع البيان، للطبري، ٥٥٦/٢١. معالم التنزيل، للبخاري، ١٥٢/٤. تفسير العز بن عبد السلام، ١٤٦/٣.

أما إذا واجه شدة أو مصيبة من المصائب، كفر وجحد نعم الله الكثيرة عليه، وأيس من رحمة الله، وصار كأنه لم يحصل على نعمة أبداً، ولم يصبه خير البتة؛ وما كانت هذه الشدة عليه إلا بأعماله وبما كسبت يده. فلا يحاسب مثل هذا الإنسان نفسه، ولا يستغفر الله على تقصيره، بل ينسى كل نعمه عليه؛ فعند النعمة ينسى الشكر، وعند الشدة ينسى الصبر، وكل ذلك يضره ولا ينفعه.

وهذا هو حال الإنسان عموماً مع ربه ومع نفسه ومع من حوله، إذ يظن النعمة والخير حقاً له، فيأخذها مغتراً دون شكر لربه ولمن جعله الله وسيلة في وصول الخير إليه، مع أن شكر العباد واجب أيضاً، لأن "مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ".^(١) وإذا واجه شدة من عند ربه أو شراً من أحد عباده، جحد كل ما حصل عليه من خير، وتصرف كأنه لم يحصل من هذا المصدر على خير أبداً.^(٢)

ومن أهم أهداف المقارنة: بيان أحوال الناس المتقلبة في السراء والضراء، والحث على الشكر عند النعمة والصبر على المصيبة، لأنه هو الذي فيه خير للمؤمن، وتوبيخ الإنسان على عدم التوجه إلى الخالق عند النعمة والمصيبة.

٤- قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَآ لِهَٰئِنَّا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصَصُونَ ۝ إِن هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَٰءِيلَ ۝﴾.^(٣)

بعد ذكر قصة سيدنا موسى عليه السلام باختصار اتجه القرآن الكريم إلى ذكر سيدنا عيسى عليه السلام، فقال لما ذكر مثل عيسى فرح المشركون وضجوا من هذا المثل، وبين في هذه الآية مقارنتهم بين آلهتهم وعيسى عليه السلام مع بيان حقيقة سيدنا عيسى عليه السلام.^(٤)

■ سبب النزول:

قال رسول الله لقريش: "يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنَّهُ لَيْسَ أَخَذَ يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ فِيهِ خَيْرٌ". وقد علمت قريش أن النصراني عبد عيسى بن مريم، وما تقول في محمد ﷺ. فقالوا: يا محمد، ألسنت تزعم أن عيسى كان نبياً وعبداً من

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك، ص ٤٥٤، حديث رقم ١٩٥٥، من حديث أبي سعيد، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) قال رسول الله ﷺ: "أَبِيتَ النَّارَ فَإِذَا أَكْثَرُ أَهْلِهَا النِّسَاءُ يَكْفُرْنَ". قيل: أَيْكُفِّرْنَ بِاللَّهِ؟ قال: "يَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ، وَيَكْفُرْنَ الْإِحْسَانَ، لَوْ أَخْسَنْتُ إِلَى إِخْدَافِ الدَّهْرِ، ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا، قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ".

أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب كفران العشير وكفر دون كفر، ص ٨، رقم ٢٩، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) سورة الزخرف، الآيات ٥٨ - ٥٩.

(٤) راجع: الآيات ٥٧ - ٥٩ من سورة الزخرف.

عباد الله صالحا، فلئن كنت صادقا، فإن آلهتهم لكما تقولون. فأقول الله: ﴿وَلَكَا حَرِيبُ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾^(١).

■ نظرة تفسيرية:

قال كفار قريش مجادلين بالباطل: آلهتنا خير أم المسيح عليه السلام، وأرادوا بذلك أن يقولوا إن آلهتنا ليست خيرا من عيسى، فإن كان كل معبود من غير الله في النار، فمن نرضي أن تكون آلهتنا مع عيسى وعزير والملائكة. وما قالوا ذلك القول، وما ضربوا هذا المثل طلبا للحق وبخا عنه وتمييزا بين الحق والباطل، بل جدلا وعجاجة للنبي ﷺ؛ فإنهم لا يعتقدون أن عيسى خير من آلهتهم، لكنهم أرادوا أن يحلجوا النبي ﷺ في قوله ليلزموه بالتناقض. ثم بين الله حقيقتهم، فقال: إنهم قوم مجبولون على حب الخصام والجدال، والخصم شديد التمسك بالخصومة واللجاج مع ظهور الحق. ثم صرح بعبودية سيدنا عيسى عليه السلام، إظهارا لفساد رأي الذي ادعوا إلهيته وعبودوه حرصا على الاستدلال للحق، فقال: ما هو إلا عبد أكرمناه وأنعمنا عليه، وفضلناه بنعمة النبوة والرسالة، ولمست له خصوصية على بقية الرسل، وجعلناه مثلا لبي إسرائيل، حيث خلق في بطن أمه دون أن يقرها ذكر، ليكون عبرة عجيبة في بني إسرائيل، يستدلون بها على عظيم قدرة الله. وفيه إبطال لشبهة الذين أطوه بتوهم أن كونه خلق بكلمة من الله يفيد أنه جزء من الله فهو حقيق بالإلهية، كما أن في الآية ذم للجدال بغير إحقاق حق وإبطال باطل.^(٢)

■ وقفة مع المقارنة:

في الآية الكريمة مقارنة بين عيسى عليه السلام وبين أوثان المشركين وأصنامهم وآلهتهم الباطلة، مقارنة صريحة باستخدام أسلوب الاستفهام التقريري، ولا شك أن عيسى عليه السلام خير من آلهة المشركين وأصنامهم الباطلة؛ فهو عبد اصطفاه الله واجتباها، وأنعم عليه بالنبوة والرسالة، وأرسله إلى بني إسرائيل مؤيلا بمعجزات واضحة، كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وغيرها. وقد رفعه الله، وسينزل بالقرب من الساعة، ويعيش في الأرض، ويكمل بقية أيام عمره. وهو من أولي العزم من الرسل، الذين لهم مكانة خاصة ومنزلة رفيعة وفضل على غيرهم. خلقه الله بكلمة ألقاها إلى مريم وروح منه، وله في الآخرة منزلة رفيعة في جنات الخلد. فأين هو من هذه الأصنام التي لا حياة فيها ولا حركة، وقد صنمها العبد بأيديهم، ولا تقدر على شيء لنفسها وعيبتها، وسيلقيها الله في النار مع عابديها يوم القيامة. بالجملة فإن عيسى عليه السلام أفضل بكثير من أصنام الكفار وأوثانهم، وإن كان الجميع يشعرك في عدم استحقاق الألوهية وشيء من العبادة، لأن هذا ما لا يستحقه إلا الله.

(١) سورة الزمر، آية ٥٧.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ٨٦/٥، رقم ٢٩١٨، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وقال المفسرون: إسعاده حسين. وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير بنحوه، ١٥٣/١٦، رقم ١٢٧٤٠، من حديث ابن عباس.

(٣) مظهر: التحرير والتبوير، لابن عاشور، ٢٢٩/٢٥ - ٢٤١. التفسير الوسيط، للرحيلي، ٢/٣ - ٢٣٧٠ - ٢٣٧١. أيسر التفاسير، للجزائري، ٦٥٠/٤.

ومن أهم أهداف المقارنة: إثبات فضيلة عيسى عليه السلام على أصنام المشركين مع بيان حقيقته ومنزلته وشرفه عند الله، وضم الجدال والخصومة بالباطل، وبيان أن الله وحده هو المستحق للالهية والعبادة فلا يستحقها أحد سواه مهما عظم شأنه وارتفعت مكانته عند الله وعند الناس.

٥- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ۖ طَعَامُ الْأَثِيمِ ۚ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ۖ كَغَلِي الْحَمِيمِ ۖ يُخَذُّوهَ فَاعْتِلُوهُ ۖ إِنَّ سَوَاءَ الْجَحِيمِ ۖ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ ۖ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ۖ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ۖ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ۖ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ۖ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ يَلْبَسُونَ مِنْ تَحْتِهَا أَسَدِينَ ۖ وَاسْتَبْرَقَ الْمُتَّقِينَ ۖ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ۖ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ۖ لَا يَذُقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ ۖ وَوَقَّعْنَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ عَذَابِ الْجَحِيمِ ۖ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۖ﴾ (١).

ذكر الله أن موعد جميع الناس يوم الفصل الذي لا يغني فيه أحد عن أحد، ولا ينصر فيه إلا من رحم الله العزيز الغالب الرحيم. ويذكر يوم القيامة اقتضى ذكر جزاء الناس يومئذ، ففصل الله تعالى القول في الفائزين والخاسرين في ذلك اليوم. (١)

■ نظرة تفسيرية:

في هذه الآيات بيان لما سبق من ذكر الفصل والفرق بين الحق والمبطل، فبدأ بأهل النار وبين حالهم وطعامهم يوم القيامة قائلاً: إن شجرة الزقوم (وهي الشجرة التي خلقها في جهنم وسماها الشجرة الملعونة) هي طعام الكافر كثير الإثم والسيئات، تنزل كما ينزل المهل، وهو النحاس المذاب أو دردي الزيت الأسود، فتغلي في بطون الكفار كغلي الماء الحار إذا اشتد غليانه. ويقول الله للربانية: خذوا هذا الكافر الأثيم، وجروه بغلظة، وادفعوه بشدة وعنف إلى وسط الجحيم، ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم صبا يذله، ويجعل رأسه يغلي من شدة حرارة هذا الماء. ثم قولوا له تمكماً به وتقريعاً: ذق شدة هذا العذاب، إنك أنت العزيز الكريم في زعمك، إن هذا العذاب الذي نزل بكم أيها الكافرون، هو ما كنتم تكذبون به، وتشكون وتجادلون فيه في الدنيا، فما قد أصبح حقيقة واقعة فوقكم. وبعد ذكر عقوبة الأثيم، ذكر جزاء المتقين وحسن عاقبتهم، فقال: إن الذين اتقوا الله وتجنبوا كل ما لا يرضيه، سيكونون يوم القيامة في موضع إقامة، يأمن فيه صاحبه من كل خوف وآفة ومكره. تتوسط هذا المكان بساتين وجنات ناضرة وعيون ماء متفجرة، ويلبس المقيمون فيه لباساً حريراً من سندس وإستبرق، ويجلسون متقابلين لينظر ويستأنس

(١) سورة الدخان، الآيات ٤٣ - ٥٧.

(٢) راجع: الآيات ٤٠ - ٥٧ من سورة الدخان.

بعضهم ببعض. والأمر كذلك من أن المتقين لهم هذا النعيم، وزوجهم الله بخور عين، وهن نساء نقيات البياض كبريات العنبر في حسن وجمال، يحار فيهن الطرف من بياضهن وجمالهن وصفاء لونهن. هؤلاء يطلبون في الجنة من كل فاكهة شهوها، فيلبي الخدم طلبهم وهم آمنون في أماكنهم من كل خوف أو ضرر، ومن كل أنواع الأسقام والأوجاع، ولا يذوقون فيها الموت بل يحمون دائماً إلا للموت الأولى التي ماتوها عند نهاية أعمالهم في الدنيا^(١)، ووقاهم الله بعدها عذاب الجحيم الذي حل بالكافرين. ثم بين الله أن المتقين أعطوا كل ذلك فضلاً من ربه وعطاء منه، لا حقاً لهم على الله تعالى، وهذا هو الفوز العظيم الذي لا يساويه فوز، لأنه خلاص عن المكابرة وفوز بالمطالب للأبد^(٢).

■ وقفة مع المقارنة:

قارنت الآيات المباركة مقارنة غير صريحة بين أهل الجنة وأهل النار، عن طريق الربط بين الترغيب والترهيب والوعد والعيد. فذكرت في الآيات كثير من الفروق بين أهل الجنة وأهل النار، كما في سواها من الآيات الكريمة في مواضع مختلفة من القرآن الكريم، لكن هذه الآيات ركزت على طعام وشراب ولباس أهل الجنة وأهل النار، وبين ذلك فيما يلي:

○ أن أهل النار يأكلون من شجرة الزقوم التي تخرج في أصل الجحيم ووسطه، وطلعها يشبه رؤوس الشياطين في القبح، وهي شجرة ملعونة لا تسمن ولا تغني من جوع، بل تزيد من الألم والعذاب، حيث تغلي في بطون الكفار كغلي الماء الحار الذي اشتدت حرارته وضار مثل الحميم. وقد قال رسول الله ﷺ عن هذه الشجرة للملعونة: "لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزُّقُومِ قُطِرَتْ فِي دَارِ الدُّنْيَا لَأَفْسَدَتْ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا مَعَاشَهُمْ، فَكَيْفَ بِمَنْ يَكُونُ طَعَامُهُ؟"^(٣) أما أهل الجنة فيأكلون فيها من ثمار الجنة وفواكهها اللذيذة، ويطلبون فيها ما يشتهون، ويؤثّر لهم كل ما يشاؤون من أنواع المأكولات اللذيذة، التي منها الفواكه واللحوم وغيرها، ولا يضرهم هذا الأكل شيئاً، بل يظلون آمنين من كل أنواع الأوجاع والأسقام.

(١) قال الواحدي رحمه الله: "وامتنع هذه الموت، وهي في الدنيا من موت في الجنة، لأن السعواء حين يموتون يصيرون بلطف الله وقدرته إلى أسباب من الجنة يلقون الروح والريحان، ويرون منازلهم من الجنة، وتفتح لهم أبوابها، فإذا ماتوا في الدنيا فكأنهم ماتوا في الجنة، لا تضلهم بأسبابها ومشاهدتهم إياها".

التفسير الوسيط، للواحدي، ٩٣/٤.

(٢) يُنظر: التفسير الوسيط، للواحدي، ٩١/٤ - ٩٣. التفسير المظهر، لثناء الله، ٣٧٥/٨ - ٣٧٨. التفسير الوسيط، لطنطاوي، ١٣٣/١٣ - ١٣٦.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب صفة جهنم، باب ما جاء في صفة شراب أهل النار، ص ٥٨٧، رقم ٢٥٨٥، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وأخرجه الحاكم في المستدرک بنحوه، ٤٩٠/٢، رقم ٣٦٨٦، وقال الحاكم: وهو صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وأخرجه ابن حبان في صحيحه بترتيب ابن بلبان بنحوه، ٥١١/١٦، رقم ١٧٤٧٠، وقال المحقق شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

○ أهل النار تمسك بهم الزبانية وتجرحهم وتلدغهم بعنف إلى أن يصلوا إلى وسط الجحيم، فيلقون فيها على وجوههم، ويحلولون انقاء النار بالوجوه التي هي أشرف أعضاء جسم الإنسان. أما أهل الجنة فيساقون إلى الجنة بتكريم واحترام ويجدون فيها ترحيبا وسلاما.

○ أهل النار لا تحيط بهم النار من جميع جوانبها فحسب، بل يُضَبُّ عليهم العذاب من فوق رؤوسهم، إذ لا يشربون الماء البالغ الحرارة فقط، بل يُضَبُّ هذا الماء من فوقهم، فيقطع أمعاءهم. أما أهل الجنة فهم في مجلس آمن لا خوف فيه ولا مكروه، تحيط بهم جنات وبساتين خضراء آمنة، وفيها عيون المياه الباردة التي يقجرونها تفجيرا كما شاءوا، والمزوجة بالكافور المسقى سلسيلا، ولهم فيها أيضا أنهار مختلفة للخمر والعسل واللبن والماء. وليس هذا فحسب، بل فيها كل ما يشتهون ويطلبون ويتمنون، وما لا يتخطر لهم على بال.

○ أهل النار يلبسون ثيابا من نلر وقطران، أما أهل الجنة فيلبسون لباس الملوك من حرير رقيق وغلظ أخضر يسر العيون.

○ أهل النار يتخاصمون مع بعضهم البعض، ويتجادلون، ويلعن بعضهم بعضا، ولا أنس لهم في النار ولا كرامة. أما أهل الجنة فينزع الله من صدورهم كل أنواع الفل والحسد فيجلسون مع بعضهم على سرر متقابلين لا متدابرين، يستأنس بعضهم ببعض. ولهم الحور العين البيضاء الجميلات إلى جانب رفائهم من الصالحين ونساء الدنيا.

○ أهل النار لهم عذاب معنوي أيضا إلى جانب هذا العذاب الحسي، في صورة توبيخ الملائكة وتقرعها لهم على ما صنعوا في الدنيا. وبالإضافة إلى ذلك تستهزئ بهم الملائكة، فيقال لأحدهم تحكما: أنت عزيز كريم في زمك، فذل هذا العذاب الذي يليق بك. كما أن المؤمنين يضحكون بهم كما جاء في سورة المطففين: ﴿قَالَتِىْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾^(١). أما أهل الجنة فكل ما يلقونه هو ترحيب وتكريم: ﴿لَا يَسْتَحُونَ فِيهَا لَوْأَ إِلَّا سَلَامًا﴾^(٢) ويعطون كل ما يعطون تفضلا من الله وإنعاما منه، ويفوزون فوزا عظيما، وهو الفوز في حقيقة الأمر، ولقله فليعمل العاملون.

ومن أهم أهداف هذه المقارنة البليغة: التشويق للجنة والتخويف من النار، والدعوة إلى تقوى الله والإيمان به، والتحذير من عقابه الشديد، وتسلية المؤمنين وطمأننتهم، وحثهم على التطلع إلى ما عند الله لأنه خير وأبقى. ومن أهدافها أيضا: بيان أن ما يحصل عليه المؤمن في الآخرة ليس إلا فضلا من الله ورحمته، فلا يدخل أحد الجنة إلا برحمة الله لا بعمله، وبيان حقيقة الفوز والخسارة، وهما ما يكونان في الآخرة لا في الدنيا، لأن ما في الدنيا زائل وما في الآخرة باق دائم.

(١) سورة المطففين، آية ٣٤.

(٢) سورة مريم، آية ٦٢.

٦- قال الله تعالى: ﴿حَقُّ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ۚ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ٥ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ تَقْبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ۖ وَعَدَ الصَّادِقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ٦﴾ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أَتِي لَكُمْمَّا اتَّعَدَانِي أَنْ أَخْرَجَ وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَفِيقَانِ إِلَهُهُ وَيَلْتَمِزُ بَيْنَهُمَا أَنْ يَخْرُجَ وَأَنْ يَخْرُجَ إِلَّا أَسْطَرُجُ ٧ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمْتَرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ٨﴾ (١).

بعد أن وصى الله سبحانه وتعالى الإنسان بوالديه إحساناً، وذكر بالمشاق التي تتحمل الأم في سبيل ولادة طفلها وتربيته والإعتناء به، ذكر ههنا موقفين لصنفين من الناس مع والديهم. (٢)

■ نظرة تفسيرية:

أخبر الله تعالى عن البار بوالديه أنه إذا قوي وشب وبلغ أربعين سنة، فقتضى عقله وكمل فهمه وحلمه، توجه إلى شكر الله والثناء للوالدين، فقال: رب ألممني ما أؤدي به شكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ، وأن أعمل أعمالاً صالحة ترضيك وتقيلها، وأصلح لي في نسلي وعقبى وأكرمهم بالتوحيد، إني أقبلت إليك بالتوبة، وإني من المخلصين الموحدين على دينهم. وفيه إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدد التوبة والإنابة إلى الله، ويشكره ويدعو لوالديه ويحسن إليهما. هؤلاء للتصفون بما ذكر التائبون إلى الله للمنيون إليه، هم الذين يقبل الله منهم الأحسن من أعمالهم (والأحسن كل ما يرضي الله)، ويجازيهم عليها خير الجزاء، ويجاوز عن سيئاتهم، فيغفر الله لهم الكثير من الزلل، ويقبل منهم اليسير من العمل، وهم مع أصحاب الجنة؛ وهذا حكمهم عند الله، كما وعد الله من تاب إليه وأتاب بالثواب على الأعمال الصالحة. وبعد أن ذكر حال الداعين للوالدين البارين بهما، وما لهم عنده من القور والنجاة، عطف بحال الأشقياء العاقين للوالدين، فقال: والذي عقى والديه وتوهم منهما، فقال: أف لكم، (وهذا صام في كل من قال هذا وعقى والديه وكذب بالحق ومات على الكفر)، أتوعداًني أن أبعث وقد مضى الناس من قبلي، فلم يرجع ولم يُبْعَثْ منهم أحد، وهما يستفيضان بالله ويدعوانه أن يهديه، ويقولان لولدتهما: ويلك آمين وصلىك بالبعث فإنه كائن، إن وعد الله حق، فلا يطيعهما، بل يقول: ما هذا إلا قصص الأولين. هؤلاء وجب عليهم القول بالتعذيب في النار، فيدخلوهم مع أشباههم من الكافرين الخاسرين أنفسهم وأهليهم يوم القيامة. ولكل واحد جزاء

(١) سورة الأحقاف، الآيات ١٥ - ١٨.

(٢) راجع: الآيات ١٥ - ١٨ من سورة الأحقاف.

وفق عمله، ويوفيه الله أجور أعمالهم؛ ولا يظلمون مثقال ذرة فما دونها، فلا ينقص من ثواب المحسن شيء، ولا يزداد في عذاب المسيء شيء.^(١)

■ وقفة مع المقارنة:

قارنت الآيات بين المؤمن البار بوالديه، وبين الكافر العاق لوالديه، وجزائهما يوم القيامة. فذكرت أن المؤمن حين يكتمل عقله وتكتمل قواه، ويبلغ أربعين سنة من عمره، يعود إلى الله تعالى بالتوبة والإنابة، ويدعو لنفسه ولوالديه، ويسأل الله تعالى أن يلهمه الشكر على كل النعم التي أنعم بها عليه وعلى والديه، كما يسأله أن يوفقه للأعمال الصالحة التي يرضاها الله ويتقبلها، ويجازي عليها بأحسن الجزاء، ويدعو لذريته بالصلاح أيضا. فيفعل خيرا بنفسه، كما يرشد والديه وذريته إلى الخير والصلاح، ويعود إلى الله تعالى بالتوبة والإخلاص، ويستسلم لأمره. هؤلاء الناس يقبل الله منهم أعمالهم الصالحة الحسنة، ويجازيهم خيرا عليها، ويغفر لهم ذنوبهم، ويعفو عن زلاتهم، ويدخلهم الجنة مع أصحابها، والتي وعدهم الله إياها على الإيمان والعمل الصالح.

أما الكافر العاق بوالديه فهو الذي يكفر بالله وبالبعث، فيسيء إلى ربه وإلى والديه اللذين هما حقوق عظمى عليه. فيتذمر ويتضجر من دعوتهما له إلى الإيمان والخير، ويكذب بدعوتهما، ويحدد البعث والنشور، ويصف هذا الكلام بأنه قصص وأخبار الأولين. ووالداه يدعوان الله له بالهداية، كما يدعوانه إلى الإيمان، ويخبرانه أن البعث حق واقع لا محالة، ولكنه لا يسمع ولا يطيع، بل يتضجر منهما، ويعاملهما معاملة سيئة. وأمثال هؤلاء وجبت عليهم كلمة العذاب من الله تعالى، فيدخلون النار مع أمم أمثالهم مضت من قبلهم من الجن والإنس، وهؤلاء هم الخاسرون في الحقيقة في حين أن الأولين هم الفائزون.

ومن أهم أهداف المقارنة: بيان عظم حق الوالدين بعد الله تعالى، والحث على الإحسان إليهما وطاعتهما ما لم يأمر بالشرك ومعصية الله تعالى، والدعوة إلى الإيمان بالله وبالبعث والجزاء، لأنه واقع لا محالة ولا مفر منه، والحث على الدعاء للوالدين والذرية مع الدعاء للنفس.

٧- قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَقًّا إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ عَافِيًّا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَالَّذِينَ أَهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ۚ﴾^(٢).

(١) يُظَر: بحر العلوم، للسمرقندي، ٢٨٨/٣ - ٢٨٩. تفسير القرآن، للسماعاني، ١٥٤/٥ - ١٥٦. تفسير القرآن العظيم، لابن

كثير، ٢٥٨/٧ - ٢٦٢.

(٢) سورة محمد، الآيتان ١٦ - ١٧.

بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى مَا فِي الْجَنَّةِ مِنْ تَعِيمٍ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَالَّذِي مِنْهُ الْأَنْهَارُ الْمَخْتَلِفَةُ الَّتِي يَتَلَذَّذُونَ بِهَا وَغَيْرُهَا مِنْ أَنْوَاعِ الشَّمَارِ، كَمَا ذَكَرَ مَا لِلْكَافِرِ مِنْ مَاءٍ حَمِيمٍ يَقْطَعُ أَعْمَالَهُ. وَبَعْدَ بَيَانِ ذَلِكَ وَضَحِ اللَّهِ تَعَالَى مَوَاقِفَ النَّاسِ مِنَ الْهُدَى الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ. (١)

■ نظرة تفسيرية:

أخبر تعالى عن حال جماعة من المنافقين، فقال: إِنَّ مِنَ الْمُنَافِقِينَ طَائِفَةً كَانُوا يَحْضُرُونَ مَجْلِسَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَيَسْتَمِعُونَ إِلَى كَلَامِهِ، لَكِنْ لَا يَفْهَمُونَهُ، وَلَا يَرَاعُونَهُ حَقَّ رِعَايَتِهِ، تَهَامُونَا مِنْهُمْ، وَإِذَا سَمِعُوا ذَكَرَ الْمُنَافِقِينَ النَّازِلَ فِي الْقُرْآنِ أَعْرَضُوا، وَبَعْدَ الْخُرُوجِ مِنَ الْمَجْلِسِ، يَسْأَلُونَ أُولَى الْعِلْمِ، وَهِيَ الصَّحَابَةُ: مَا الَّذِي قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ السَّاعَةَ، اسْتَهْزَأَ بِمَا سَمِعَ هَؤُلَاءِ وَتَهَامُونَا بِهِ، وَإِنْ كَانَ بِصُورَةِ الْاسْتِغْلَامِ. أَوَّلُكَ الْمَوْصُوفُونَ بِمَا ذَكَرَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ، فَلَا يَدْخُلُهَا الْهُدَى، لِعَدَمِ تَوَجُّهِهِمْ نَحْوَ الْحَقِّ وَتَكْثِيرِهِمْ عَلَيْهِ، وَقَدْ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمُ الْبَاطِلَةَ لِذَا فَعَلُوا مَا لَا خَيْرَ فِيهِ. أَمَّا الصَّحَابَةُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا إِلَى طَرِيقِ الْحَقِّ وَاتَّبَعُوهُ وَمَشَوْا مَعَ الْحُجَّةِ وَالْبِرْهَانِ، زَادَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى وَآيَاتِهِ الْمُنْزَلَةَ فِي الْقُرْآنِ هُدًى، وَعِلْمًا وَنَصْرًا فِي الدِّينِ وَشَرَحًا لِلصُّنُورِ، وَعَمَلًا بِمَا عَلِمُوا مَا سَمِعُوا، وَأَعَانَهُمْ عَلَى تَقْوَاهُمْ فَبَيَّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ، وَأَعْطَاهُمْ جَزَاءَ تَقْوَاهُمْ. (٢)

■ وقفة مع المقارنة:

فِي الْآيَاتِ مَقَارَنَةٌ غَيْرُ صَرِيحَةٍ بَيْنَ الْمُسْتَمْعِينَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَإِلَى الْآيَاتِ الَّتِي يَتْلُوها مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ. فَالْمُنَافِقُونَ يَسْتَمِعُونَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَكِنَّهُمْ لَا يَفْهَمُونَ وَلَا يَعُونَ شَيْئًا، فَلَا يَتِمَكِّنُونَ مِنَ الْعَمَلِ وَالتَّطْبِيقِ، وَهُمْ كَمَا وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَانَتْهُمْ حُشْبٌ مُسْتَكِدَّةٌ﴾ (٣)، فَهَمُ مِثْلُ الْخَنْسَبِ الَّذِي يَعْجِبُ النَّاسَ، وَلَكِنْ لَا سَمْعَ لَهُ وَلَا عَقْلَ، وَحِينَمَا يَخْرُجُونَ مِنْ مَجْلِسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، يَسْأَلُونَ الصَّحَابَةَ عَمَّا قَالَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَجْلِسِ، تَهَامُونَا بِهِ وَاسْتَهْزَأَ بِمَا قَالَهُ، لَا طَلِبًا لِلْفَهْمِ وَالْعَمَلِ بِهِ. هَؤُلَاءِ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَإِصْرَارِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ وَالْعِنَادِ، وَإِعْرَاضِهِمْ عَنِ الْهُدَى الَّذِي جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ، فَلَا يَتَّبِعُونَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ وَأَحْكَامَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ، بَلْ يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمُ الَّتِي تَقُودُهُمْ إِلَى النَّارِ. أَمَّا الْمُؤْمِنُونَ الْمُخْلِصُونَ فِي إِيْمَانِهِمْ فَهَمُ حِينَمَا يَسْمَعُونَ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ، وَيَسْمَعُونَ كَلَامَ الرَّسُولِ ﷺ، تَزِيدُهُمْ هَذِهِ الْآيَاتُ هُدَايَةً وَتَوْفِيقًا إِلَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الَّتِي تُرْضِي اللَّهَ، كَمَا تَزِيدُهُمْ هَذِهِ الْآيَاتُ تَقْوًى مِنَ اللَّهِ وَخَشْيَةً مِنْهُ، وَبِالتَّالِي يَجْتَهِدُونَ أَكْثَرَ فِي عَمَلِ الصَّالِحَاتِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ، وَيَتَّقُونَ كُلَّ الْيَعْدِ عَنْ كُلِّ مَا يَغْضَبُهُ وَيَقْطَعُهُ.

وَمِنْ أَمَمِ أَهْدَافِ الْمَقَارَنَةِ: بَيَانُ الْفَرْقِ بَيْنَ الْمُخْلِصِينَ فِي إِيْمَانِهِمْ وَالْمُنَافِقِينَ وَمَوْقِفَهُمَا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَكَلَامِ رَسُولِهِ ﷺ. وَبَيَانُ أَنَّ آيَاتِ اللَّهِ لَا تَوَثِّرُ إِلَّا عَلَى مَنْ هُوَ صَادِقٌ فِي إِيْمَانِهِ، يَطْلُبُ فِيهَا مَا يَحْمِلُ بِهِ فِرَاضِي اللَّهِ، أَمَّا الْمُنَافِقُ الَّذِي

(١) وراجع: الآيات ١٠ - ١٧ من سورة محمد.

(٢) يُحْطَر: تَفْسِيرُ الْعَرَبِ بْنِ عَبْدِ السَّلَامِ، ١٩٥/٣. إِرْشَادُ الْعَقْلِ السَّلِيمِ، لِأَبِي السَّعُودِ، ٩٦/٨. مَجَاسِنُ الْفُتُوُحِ، لِلْقَاسِمِيِّ، ٤٧٦/٨.

(٣) الْمُنَافِقُونَ، آيَةُ ٤.

طبع على قلبه فلا يزيد الآيات إلا تكفرا وضلالا. كما أن من أهدافها توضيح أن الله تعالى لا يجبر أحدا على الهدى ولا على الضلال، بل يدفع كلا إلى الطريق الذي يختاره ويرتضيه لنفسه.

٨- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغْضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى ۚ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنَ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝﴾ (١).

جاءت الآيات في سياق الأمر بالتأدب مع النبي ﷺ، حيث بدأت سورة الحجرات بمنع المسلمين عن التقدم أمام الله ورسوله، وأمرت بالتقوى، كما نعت المسلمين عن رفع الأصوات فوق صوت النبي ﷺ، والجهر بالقول له كما يجهر المؤمنون بعضهم لبعض، لأن ذلك يحبط الأعمال. ثم بيّنت هاتان الآيتان أحوال الناس عند الكلام مع رسول الله ﷺ. (٢)

■ نظرة تفسيرية:

بعد أن حذر الله تعالى من خطر المخالفة، وغب في خفض الصوت في مجلس رسول الله ﷺ، فقال: إن الذين يغضون أصواتهم ويحفظونها في أثناء كلام رسول الله وفي مجالسه، إجلالا له ومراعاة للأدب معه وخشية من مخالفة النهي، هم الذين أخلص الله قلوبهم وشرحها وخصها للتقوى، فمحصها وابتلاها بأنواع المحن والتكاليف، ثم جعلها أهلا للتقوى، كما يمتحن الذهب بالنار، فيخرج جيده من رديئه ويسقط خبيثه. فكذلك هؤلاء المتأدبون عند رسول الله ﷺ، إذ طهر الله قلوبهم من كل خبيث، وجعلها خالصة للتقوى، فلم يبق لغير التقوى فيها حق. هؤلاء هم في الآخرة مغفرة للنوحيهم، وثواب عظيم، لخفض أصواتهم عند النبي ﷺ ولسائر الطاعات، والتكبر لصعظيم الشأن. ثم ذم الذين ينادون رسول الله ﷺ من خلف بيوت نسائه، كما يفعل أجلاف الأعراب، فقال: إن الذين ينادونك من بعيد من خارج بيوت نسائك من أمامها أو من خلفها، (وهم جفاة من أعراب بني تميم) أكثرهم (٣) جهال، لا يعقلون الأصول والآداب، ولا يتركون ما يجب لك من التعظيم والاحترام، فلا يجرون مع مقتضى العقل من مراعاة

(١) سورة الحجرات، الآيات ٣ - ٤.

(٢) راجع: الآيات ٦ - ٤ من سورة الحجرات.

(٣) المراد بأكثرهم إما الكل، لأن العرب تذكر الأكثر وتريد به الكل احتياطا واحتراما عن الكذب، أو يكون المراد أنهم في أكثر أحوالهم لا يعقلون، أو لأن منهم من لم يقصد بذلك ترك الأدب بل نادى لأمر ما. ينظر: روح المعاني ٢٣/٢٩٣. التفسير المنور، للزحيلي، ٢٦/٢٦١.

الأدب، لا سيما مع أجل خلق الله. والآية تدل على منع رفع الصوت عند قبره الشريف، وعند قراءة حديثه/ لأن حرمة ميثا كحرمته حيا. (١)

■ وقفة مع المقارنة:

قارنت الآيات بين الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ﷺ، والذين يرفعون أصواتهم عليه وينادونه من وراء الحجرات. فذكر الله تعالى أن الذين يحترمون رسول الله ﷺ ويتأدبون عند الحضور في مجلسه، فلا يرفعون أصواتهم في حضرته، بل يغضونها عنده حتى لا يرتفع صوتهم على صوته، هم المتقون الذين أخلص الله قلوبهم وجعلها أهلا للتقوى لا مكان لغیر التقوى فيها. كما أن هؤلاء مغفرة من الله تعالى لذنوبهم وزلاتهم، وأجر عظيم عند الله تعالى يوم القيامة، جزاء على أعمالهم الصالحة، والتي منها احترام رسول الله ﷺ والتأدب معه في مجلسه. وليس ذلك خاصا بالصحابة الذين صحبوا رسول الله ﷺ وحضروا مجالسه، بل يدخل فيهم الذين يحترمون بعد وفاته أيضا، قال العلامة ابن العربي المالكي: "حرمة النبي ﷺ ميثا كحرمته حيا، وكلامه المأثور بعد موته في الرفعة مثل كلامه المسموع من لفظه، فإذا قرئ كلامه وجب على كل حاضر ألا يرفع صوته عليه، ولا يعرض عنه كما كان يلزمه ذلك في مجلسه". (٢) وبالإضافة إلى عدم رفع الصوت عند سماع حديثه يجب خفض الصوت أيضا عند قبره الشريف، والذين يغضون أصواتهم عند قبره الشريف لهم أيضا مغفرة وأجر عظيم من الله، إن شاء الله.

أما الذين لا يحترمون رسول الله ﷺ، فيرفعون أصواتهم عليه، وينادونه من خارج حجرات نساءه وهو داخلها، هؤلاء لا يعقل أكثرهم، ولو كانوا يعقلون لما فعلوا ما فعلوا. وكذلك لا يعقل من لم يحترم حديث رسول الله ﷺ، ولم يتأدب عند زيارة قبره الشريف. وهؤلاء ليسوا أصحاب التقوى الخالص، مثل الذين يغضون أصواتهم احتراماً لرسول الله ﷺ.

ومن أهم أهداف هذه المقارنة: الأمر بالتأدب مع رسول الله ﷺ، وبيان أن ذلك جزء من الإيمان والتقوى، وبيان أن الذي لا يحترم الرسول ﷺ ليس له عقل يتذكر به فيتعظ. ويهتم من هذه المقارنة أيضا أهمية احترام الأنبياء جميعاء واحترام العلماء أيضا وإكرامهم، لأنهم ورثة الأنبياء (٣)، وخصوصا علماء الحديث النبوي الشريف لنسبتهم إلى كلام رسول الله ﷺ.

(١) يُنظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ٣٠٨/١٦ - ٣١٠. روح المعاني، للأوسى، ٢٩٠/١٣ - ٢٩٣. التفسير المنير، للرحبي، ٢٢٠/٢٦ - ٢٢١.

(٢) أحكام القرآن، لابن العربي المالكي، ط ٣، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م، ١٦٤/٤.

(٣) قال رسول الله ﷺ: "إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ".

أخرجه الترمذي في سننه مطولا، كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، ص ٦٠٨، رقم ٢٦٨٢، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

٩- قال الله تعالى: ﴿قَوْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝ أَفَسِحْرُ هَٰذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝ أَضَلُّوهُمَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا ۖ إِنَّا تُنَجِّزُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ۝ فَمَكِيلِينَ بِمَا عَمِلْتُمْ رَبُّهُمْ وَوَقْلُهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ مُتَّكِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ۖ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ۝ وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ وَخَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝ يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْنِيمٌ ۝ وَيَطْرَفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ۝ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُفْسِقِينَ ۝ فَمَنْ أَلَلَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَّعْنَا عَذَابَ السَّعِيرِ ۝ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ۝﴾ (١).

بدأت سورة الطور بالقسم بجبل الطور، والكتاب المسطور، والبيت المعمور، والسماء والبحر على أن عذاب الله واقع يوم تضطرب السماء وتسير الجبال، ولا يمكن لأحد لأن يدفع عذاب الله تعالى. وبعد بيان ذلك توعدت هذه الآيات المكذبين بالنار، كما وعدت المتقين بالجنة. (٢)

■ نظرة تفسيرية:

تتضمن الآيات ربط المعنى بما سبق وإثبات الويل للمكذبين، فقيل: إن الهلاك والعذاب يوم القيامة يكون للمكذبين الذين يتخطون ويندفعون في الأباطيل والأكاذيب، غافلين جاهلين لا هين. هؤلاء يُدْفَعُونَ يوم القيامة إلى نار جهنم دفعا بشدة وعنف؛ فحزنة النار يغلون أيديهم إلى أعناقهم، ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم، ثم يدفعونهم إلى النار على وجوههم. ويقال لهم إذا دنوا من النار تقرعاً وتوبيخاً: هذه هي النار التي كنتم تكذبون بها، أفسح هذا، أي: كنتم تقولون للوحي هذا سحر، أفسح هذا؟ والمراد: أهذا المصداق أيضاً سحر، أم أنتم لا تبصرون كما كنتم لا تبصرون في الدنيا، فصرغم عمى عن المخبر عنه كما كنتم عمياً عن الخبر، وفيه تقرع وتحكم بهم. ثم يقال لهم لقطع رجائهم: ادخلوا النار، وعذابكم فيها حتم لا يزول عنكم، فسواء صبركم وجزعكم، ولا بد من أن تذوقوا جزاء

(١) سورة الطور، الآيات ١١ - ٢٨.

(٢) راجع: الآيات ١ - ٢٠ من سورة الطور.

أعمالكم^(١) وبعد الفراغ من ذكر عذاب الكفار أتبع ذلك ببيان نعيم المتقين، ليتضح الفرق بينهما ويكون في ذلك ترغيب في الإيمان، فقال: إن للمتقين للشرك مصيرهم إلى الجنات المليحة بالنعيم التي أعدت لهم خاصة. هم فيها فرحون متنعمون معجبون بما آتاهم ربهم من إنعامه ورضاهم عنه، ووقايته لهم عذاب الخلود في الجحيم. يقال لهم: كلوا واشربوا أكلا وشربا هنيئا (وهو الذي لا تنقضى فيه)، جزاء على ما كنتم تعملون؛ فإن رتب الجنة ونعيمها يكون بحسب الأعمال، ولكن الدخول فيها يكون برحمة الله. ويكون للمتقون جالسين يرفاهية على أسرة، صُفِّ بعضها إلى بعض وقيل بعضها ببعض، ولكل فرد فيها زوج. ثم أُشير عن أمر من لهم نعم الله عليهم فقال: إن المؤمنين الذين يتبعهم أولادهم بإيمان، يلحق الله الأولاد بسبب إيمانهم وأعمالهم بالآباء، ويجمعهم في درجات الآباء، وإن قصرت أعمال الدرية عن أعمالهم ولم يكونوا مثلهم في التقوى والعمل الصالح، فهو يُلحق الآباء بمراتب الآباء كرامة للآباء، وما ينقص الله من ثوابهم شيئا، وكل رجل مرهون بنفسه للمؤمن مرهولة بعمله ونمازى به. ويزيدهم الله في وقت بعد وقت بفاكهة ولحم مما يشتهون وإن لم يطلبوا، وهم يعاطون مع جلسائهم لحرا لا لغو في شربها ولا يجري بينهم بما يابل ولا ما فيه إثم. ويطوف عليهم غلمان مملوكون لهم، كأنهم لبياضهم وصفائهم لؤلؤ مكنون في الصدف، لأنه أحسن وأصفى، أو مخزون لأنه لا يخزن إلا الثمين الغالي القِيم. وهم في جملة ما فيه من النعيم يتساءلون عن أحوالهم وما كان من أمرهم في الدنيا وخشيتهم فيها عذاب الآخرة، ويحمدون الله على أن نجاهم من عذاب السموم، وهو البر الذي ير ويحسن بعباده، الرحيم بهم^(٢).

■ وقفة مع المقارنة:

قارنت الآيات مقارنة غير صريحة بين عذاب النار ونعيم الجنة، بالربط بين العزيب والوعيد والوعيد، فذكرت أحوال أهل النار باختصار، وقُصِّل القول في نعيم أهل الجنة. فلما أهل النار فويل لهم يوم القيامة لعلكنيهم بآيات الله، والهلاك مصيرهم يومئذ إذ يُثْفَقُونَ إلى نار جهنم دفعا شديدا فيه إهانة لهم وخزي وإذلال، ويقال لهم توبخا وتقرعنا: هذه النار التي كنتم تكذبون بها في الدنيا، وهذا ليس سحرا كما كنتم تصفون القرآن الذي توعدكم بما، فادخلوها وسواء لكم فيها الصبر والجزع، حيث لا يفيدكم شيء. وهذا الجزاء تستحقونه على أعمالكم السيئة.

وأما أهل الإيمان والتقوى فهم في جنات مليحة بأنواع النعيم، يتلذذون فيها ويتنعمون بما آتاهم وبما حماهم من العذاب، يستريحون فيها على سرر مصفوفة، متقابلين يتحدثون ويسألون مع أحببتهم، ولهم فيها الخور العين الجميلات.

(١) قال الزمخشري رحمه الله: "وعلى ذلك بقوله: 'إنما تجزون ما كنتم تعملون'، لأن الصبر إذاً يكون مزية على الجزع لنفسه في العاقبة، بأن يجازى عليه الصابر جزاء الخير، فأما الصبر على العذاب الذي هو الجزاء ولا عاقبة له ولا منفعة، فلا مزية له على الجزع.

الكشاف، للزمخشري، ٤/٤٠٩.

(٢) ينظر: الكشف والبيان، للعليني، ٩/١٢٧، الكشاف، للزمخشري، ٤/٤٠٩ - ٤١٠. المحرر الوجيز، لابن عطية، ٥/١٨٧ -

١٩٠. مدارك التنزيل، للنسفي، ٣/٣٨٤ - ٣٨٥.

وليس هذا فقط، بل يزيدهم الله مع نعم الجنة الكبرى نعمة أخرى عظيمة، وذلك بأن يجمع معهم أولادهم الذين آمنوا ولم يبلغوا درجتهم في الصلاح، فيلحقهم بأبائهم في درجاتهم، حتى يكتمل النعيم باجتماع الأحبة، ولا يُظلم أحد بتقص شيء من ثواب أعماله. ولهم فيها أنواع الفواكه واللحوم اللذيذة التي يشتهونها، ويشربون فيها خمرًا ويتعاطون مع أحببتهم، هذا يأخذ من هذا وهذا يعطي ذلك، وهذه الخمر لا تذهب بالعقول ولا تؤدي إلى القول بالساقط اللاهي ولا يتم في شربها، ويطوف عليهم خدم مثل اللؤلؤ المكنون في الصفاء والجمال. أين هذا كله مما فيه أهل النار من الحرمان من الأنس بالأحبة وأنواع من العذاب الحسي والمعنوي والألم والويل؟! أعاذنا الله منه.

ومن أهم أهداف هذه المقارنة: التشويق للجنة والخوف من النار وعذابها، وبيان سعة رحمة الله وشفقته بعباده حيث لا يُنقص أجر أحد بل يعطي الإنسان أكثر مما يستحقه، والدعوة إلى الإيمان والتقوى، والتحذير من الكفر والتكليب وعاقبتهم الوخيمة. كما أن فيها تشجيعاً للمؤمنين الثابتين على الحق وجهاً على اتباع سبيلهم، وبياناً لفضل المؤمنين على الكافر عند اللول عز وجل.

١٠- قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۖ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ ۝ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ۖ فَسَلَمٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ۝ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكْذِبِينَ الضَّالِّينَ ۖ فَنُزُلٌ مِنْ حِيمٍ ۝ وَتُصْلِيَةُ جَحِيمٍ ۝﴾ (١).

جاءت الآيات بعد الحديث عن الموت، إذ ذكر الله أن الروح إذا بلغت الحلقوم، وأشرفت على الخروج من الجسد، لم يستطع أحد ردها إلى الجسد غير الله تعالى، وحيثما ينظر الجميع إلى من يفارق الدنيا ولا يملك له شيئاً، والله أقرب منه في هذه الحالة ولكن لا يراه أحد، وقد تحدى الله البشر برده هذه الروح إلى جسدها إن استطاعوا. وبعد ذلك بينت هذه الآيات جزاء الميت الذي يدخل الآخرة بعد أن تفارق روحه جسده. (٢)

■ نظرة تفسيرية:

ذكرت الآيات ثلاثة أحوال هي أحوال الناس عند احتضارهم، فإما أن يكون المتوفى من المقربين، وإما أن يكون من دونهم من أصحاب اليمين، وإما أن يكون من المكذبين الضالين. فإما إن كان المحتضر من السابقين من الأزواج الثلاثة التي مر ذكرها في أول السورة (وعبر عنهم بأجل أوصافهم)، فله استراحة ورحمة وسرور ورزق، وجنة ذات تنعم مع راحة وزين، وتبشره الملائكة بذلك عند الموت. وأما إن كان المتوفى من أصحاب اليمين، تبشره الملائكة بذلك، فتقول له: سلام لك، ولا بأس عليك، أنت إلى سلامة، وأنت من أصحاب اليمين، وله أيضاً سلام من إخوانه من أصحاب اليمين. وأما إن كان من أصحاب المكذبين بالحق الضالين عن الهدى، وعبر عنهم

(١) سورة الواقعة، الآيات ٨٨ - ٩٤.

(٢) راجع: الآيات ٨٣ - ٩٤ من سورة الواقعة.

بذلك ذموا وإخبارا بسبب ما أصيبوا به من العذاب، فله ضيافة من شراب بلغ الغاية في الحرارة، يشربه بعد أكمل الزقوم، وله إدخال في النار التي تحيط به من جميع الجهات وإقامة فيها، ومقاساة الألوان عذابها.^(١)

■ وقفة مع المقارنة:

قارنت الآيات الكريمة مقارنة غير صريحة بين جزاء ثلاثة أصناف من الناس يوم الجزاء. وهي مقارنة موجزة، وكأنها إعادة لتأكيد ما سبق في بداية السورة من المقارنة المفصلة بين هذه الأصناف الثلاثة، وجزائها في النار الآخرة. وبخلاف المقارنات الأخرى التي قارنت بين أهل الجنة وأهل النار، قسّمت هذه المقارنة، ومثلها التي في بداية السورة، أهل الجنة إلى قسمين، ويُنْتِ أحوالهما مع أحوال أهل النار باختصار، وقد قُصِّلَت هذه الأحوال في المقارنة التي وردت في أوائل السورة.

فأما الصنف الأول فهو يشمل على المقربين السابقين إلى الخيرات. هؤلاء لهم راحة ورحمة من الله، واستراحة ورزق طيب وجنات النعيم. هذه الجنات تشتمل على أنواع من الملائك والمشتهيات، منها الفواكه الطيبة ولحوم الطير التي يشتهيها أصحابها، كما يطوف على أهلها فيها ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وخر لا صداع فيها ولا أذى، ولهم فيها الخمر العنق الشبيهة باللؤلؤ المكنون. وهم فيها يتكفون على سرر منسوجة من ذهب، ويجلسون متقابلين مسرورين، ولا يسمعون في الجنات لغو القول وسقطه، بل كل ما يسمعونه سلام لهم. هذا الصنف يشتمل على كثرة من أوائل الناس وقلة من أواخرهم.

وأما الصنف الثاني المشتمل على أصحاب اليمين فهؤلاء لهم سلام من الله ومن أصحابهم، وهم أيضا في الجنة، لكن منزلتهم فيها دون منزلة المقربين. فلهم شجر السدر مقطوع الشوك، واللوز، والأشجار الأخرى الممتدة الظلال، والماء المصبوب، والفواكه الكثيرة التي لا تنقطع عنهم ولا يُمنعون منها. هؤلاء يجلسون فيها على فرش مرفوعة، كما أن لهم فيها نساء محبوبات إلى أزواجهن، أنعم الله بهن بشكل خاص لأصحاب اليمين. وهذا الصنف يشتمل على كثرة من المتقين وكثرة من المتأخرين.

(١) يُحْطَر: تفسر القرآن العظيم، لابن كثير، ٣٥/٨ - ٣٧. إرشاد المفعل السليم، لأبي السعود، ٢٠٢/٨ - ٢٠٢. الأساس في

التفسير، لسفيان حوى، ٥٧٠٣/١٠.

وقد ذكر الإمام الغزالي^(١) رحمه الله فرقا لطيفا بين المقربين وأصحاب اليمين قائلا: "فالأبرار يرتعون في البساتين، ويتنعمون في الجنان مع الحور العين والولدان، والمقربون ملازمون للحضرة عاكفون بطرفهم عليها يستحقرون نعيم الجنان بالإضافة إلى ذرة منه. فقوم بقضاء شهوة البطن والفرج مشغولون، وللمجالسة أقوام آخرون".^(٢)

أما الصنف الثالث والأخير المشتمل على أصحاب الشمال، فلهؤلاء ضيافة من ماء جار، وإدخال في جهنم التي ينشقون فيها أنواعا من العذاب. ولم فيها رياح شديدة الحرارة، وظل من دخان لا ينفع من الحر ولا برد فيه، ويأكلون من شجر الزقوم فيملأون بطونهم منه، ويشربون عليه الحميم شرب الإبل القطاش للماء، ولا يرتوون منه. هذا جزاؤهم في النار الآخرة، وبس الجزءاء، وقانا الله منه.

ومن أهم أهداف هذه المقارنة: الدعوة إلى الإيمان، والمصارعة إلى الأعمال الصالحة، وبيان تفاوت منازل أهل الجنة في الجنة، والتحذير من الكفر والشرك، والتخويف من عقاب الله عليهما، والتشويق للجنة والتخويف من النار.

(١) هو حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، الإمام المتكلم الفقيه الشافعي الصوفي، من منطقة طوس. ولد عام ٤٥٠ هـ. لازم إمام الحرمين الجويني واستفاد منه كثيرا. درس في المدرسة النظامية فترة، ثم ترك التدريس واتجه نحو الإهد والانتقطاع عن الدنيا. توفي عام ٥٠٥ هـ. من كتبه: إحياء علوم الدين، المستصفى، تهافت الفلاسفة، معيار العلم في المنطق، وغيرها.

ينظر: طبقات الفقهاء الشافعية، لابن الصلاح، ٢٤٩/١. وفيات الأعيان، لابن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، ط ١، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٠٧١ م، ٢١٦/٤ - ٢١٩. الوافي بالوفيات، للخليل الصفدي، ٢١١/٦ - ٢١٣.

(٢) إحياء علوم الدين، للغزالي، ط ١، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م، ص ١٣٦٦.

المبحث الرابع:

المقارنات من أول سورة المجادلة إلى آخر القرآن الكريم

١- قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْفَاسِقُونَ ٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ٦ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ٧ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنَّا ۚ وَبَدَّلْنَاهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٨﴾ (١)

ذكر الله فيما مضى أحوال أعداء الله فقال: إنهم إذا بعثهم الله يوم القيامة يحلفون له كما يحلفون للمؤمنين في الدنيا، ويحسبون أنهم على شيء، لكنهم كانوا، فقد استولى الشيطان على قلوبهم وغلب عليها، فأنساهم ذكر الله. ثم ذكر الله أن هؤلاء حزب الشيطان، وهم في خسارة دائمة، وبعد ذكرهم تحدث عن حزب الله الذي يكون الفلاح من نصيبه في الآخرة. (١)

■ نظرة تفسيرية:

ذكر الله تعالى أن الذين استولى عليهم الشيطان، وأنساهم ذكر الله هم أعوان الشيطان وجنده وأتباعه، وهم الذين بلغوا الغاية في الخسران، لأنهم خصموا النعم المؤبد، وعرضوا أنفسهم للعذاب المخلد. هؤلاء يعاندون الله ورسوله، وبسبب ذلك صاروا في جملة من هو أذل خلق الله تعالى، بحيث لا يرى أحد أذل منهم. ثم أخبر الله سبحانه أنه كتب في اللوح المحفوظ، وقضى بأنه ورسوله هم الغالبون المنتصرون على أعدائهم، والله قوي تام القوة، ينصر حزبه، عزيز يتمتع حزبه من اللذ، ولا يقدر أحد على أن يخله. ثم أخبر الناس أنهم لا يجدون قوماً (٢) يصلحون بالله واليوم الآخر، ويحبون الله ورسوله، ويوالون ويتبادلون المحبة مع أعداء الله، ولو كانوا أقرب الناس إليهم من آبائهم أو إخوانهم أو إخوتهم أو عشيرتهم؛ وبدأ بالآباء، لأن الواجب على الأولاد طاعتهم فنهاهم عن مودتهم، ثم ذكر الأبناء، لأنهم أحب الناس إلى الإنسان، ثم أتى بالإخوان ثالثاً، لأن بهم قوة الإنسان، ثم ذكر العشيرة، لأن بها التناصر والمقاتلة

(١) سورة المجادلة، الآيات ١٩ - ٢٢.

(٢) راجع: الآيات ١٨ - ٢٢ من سورة المجادلة.

(٣) والمعنى المراد كما ذكر البضاوي رحمه الله: "لا ينبغي أنه يولد لهم ولو كان المحادون أقرب الناس إليهم".

أنوار التنزيل، ١٩٦/٥.

والغلب على العدو. هؤلاء الذين لا يؤادون أعداء الله، هم الذين أثبت الله الإيمان في قلوبهم، وألهمهم روح منه تعالى وهدى وتور منه عز وجل، ويدخلهم الله جنات تجري من تحتها الأنهار، خالدين فيها لا ينقطع عنهم نعمها، وهم الذين رضي الله عنهم بطاعتهم له، ورضوا عنه بالتسليم لقضائه وبما وعدهم من الثواب، وأحبهم الله وأجود، وهم حزب الله وجنده وأنصار دينه، وحزب الله هم المفلحون الفائزون بخير الدارين^(١).

■ وقفة مع المقارنة:

قارنت الآيات المباركة بين حزب الله وحزب الشيطان، من المؤمنين والمنافقين مقارنة غير صريحة. فحزب الشيطان يشمل على الكفار والمنافقين وكل من عادى الله وأطاع الشيطان ووالاه. وهؤلاء من صفاتهم الكذب والخيانة والخلف بالكذب، والجحود بالحق، والإعراض عن ذكر الله. ولن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا، ولم النار في الآخرة، وهم الخاسرون خسارة حقيقية؛ حيث أثروا القاتل على الباقي، وقدموا النعيم المنقطع على المأمون، فاستحقوا العذاب، وخرموا من النعيم السرمدي. ومن صفاتهم أيضا أنهم يعادون الله ورسوله والمؤمنين، وهم في جملة من أذل الله في الدنيا والآخرة.

أما حزب الله فهو يشمل على المؤمنين المخلصين في إيمانهم، من الأنبياء والرسل والتابعين لهم بإحسان، وهؤلاء لهم النصرة والغلبة من عند الله تعالى، ويؤيدهم الله في كل الموضع بروح منه. وهم يقدمون حب الله على حب كل أحد ولو كان أقرب الناس إليهم، فلا يؤادون ولا يحبون من عادى الله ورسوله، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو غيبرهم من أحبهم، بل يقدمون صالح الإسلام والمسلمين تاركين لأبائهم. هؤلاء أثبت الله في قلوبهم الإيمان، وألهمهم روح منه، وقد رضي الله عنهم، ورضوا عنه، فلهم في الآخرة جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، وبالتالي يحصلون على الفلاح في حقيقة الأمر.

ومن أهم أهداف هذه المقارنة: بيان صفات أفراد حزب الله وصفات أفراد حزب الشيطان، وإثبات أن النصر والغلبة في واقع الأمر لا تكون إلا لأولياء الله للعادين للشيطان، والتحذير من الدخول في حزب الشيطان، والترغيب في الدخول في حزب الله والأصاف بصفات أفراد، وتشجيع العادين للشيطان للوالين الله ورسوله.

٢- قال الله تعالى: ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتُ نُوحَ وَامْرَأَتُ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ۝ وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ أَنِّي لِیْ عِنْدَكَ بَیِّنَاتٌ فِی الْحُجَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي

(١) يُنظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي، ١٩٦/٥ - ١٩٧. البحر المحیط، لأبي حيان، ١٣٠/١٠ - ١٣١. المنتخب في تفسير القرآن، لمجموعة من العلماء، ص ٨١٣.

مِن الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا ذِكْرٌ وَإِسْمٌ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ (١)

بعد أمر المؤمنين بالتوبة النصوح، وترجيئهم في تكفير السيئات وإدخال الجنات، أمر الله نبيه ﷺ بمجاهدة الكفار والمنافقين والغلبة عليهم، ويَقِي مَأْوَاهُمْ، وهو جهنم ويس للصير. ثم ذكر الله تعالى مثلاً لاثنتين من نساء الكفار واثنين من نساء المؤمنين، حثاً على اتباع طريق المؤمنين، وتنفيراً من طريق الكافرات. (٢)

■ نظرة تفسيرية:

جاء هذان المثالان للكفار لبيان أن من كفر لا يغني عنه ولا ينفعه شيء، ولو كان متعلقاً بأقوى الأسباب، وأن من آمن لا يدفعه دافع عن رضوان الله، ولو كان في أسوأ موضع وأهسر خال. فذكر الله أنه ضرب مثلاً للذين كفروا من الناس بامرأة نوح وامرأة لوط، اللتين كانتا تحت عبدين من عباد الله الصالحين، وهما نوح ولوط عليهما السلام، فخانتهما في الدين بالكفر، (أو بنسبة الجنون إلى نوح عليه السلام بالنسبة لامرأته، والدلالة على الضيوف بالنسبة لامرأة لوط عليه السلام لقصد الفاحشة)، فلم يدفع نوح ولوط عليهما السلام عنهما عذاب الله ولم يغنيا عنهما شيئاً لما عاقبهما الله على خيانتهم، فقبل لهما يوم القيامة: ادخلا النار مع الداخلين فيها. ثم ذكر الله أنه ضرب مثلاً للذين آمنوا بامرأة فرعون وهي آسية، التي آمنت بالله ورسوله موسى عليه السلام سر، مع أنها كانت تحت عدو من أعداء الله ولما أظهرت إيمانها لفرعون، ولكنها صيرت ودعت ربما أن يبقى لها بيتا في الجنة، وينجيها من فرعون وكفره وضلاله وظلمه، ويتفدّها من قوم فرعون الظالمين الكافرين بالله ومن غلبهم، فاستجاب الله لما ولم يضرها زوجها الكافر، إذ كانت مؤمنة، ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها وصانته عن الفاحشة، لكمال طهارتها وعفتها، فنفخ جبريل فيها (٣) الروح بأمر من الله، فحملت بعمسى عليه السلام وولدت، وصدقت بكلمات ربها وآياته، وهي ما بشرها الله به من أمر عمسى عليه السلام وصفته وكرامته، كما آمنت بكتبه من التوراة والإنجيل، وكانت من القوم القانتين العابدات لله المطيعين له. (٤)

(١) سورة الصحر، الآيات ١٠ - ١٢.

(٢) راجع: الآيات ٨ - ١٢ من سورة التحريم.

(٣) وفي معنى النفخ فيها قولان، هما:

١- أن جبريل عليه السلام نفخ في جيب النزع الذي كان عليها، فوصلت النفخة إلى مريم فحملت بعمسى.

٢- أنه نفخ في فرجها الذي هو الجارحة.

يُنظر: المحرر الوجيز، لابن عطية، ٣٣٥/٥.

ولا شك أن الأنهم في هذا المجال أن جبريل عليه السلام نفخ فيها، فحملت بعمسى دون أن يمسها ذكر، وهذا هو الذي يعنيه.

(٤) يُنظر: جامع البيان، للطبري، ٤٩٧/٢٣ - ٥٠٠. تفسير القرآن، للسجستاني، ٤٧٨/٥ - ٤٨٠. المحرر الوجيز، لابن عطية،

٣٣٥/٥ - ٣٣٦. تفسير السعدي، ص ٨٧٤.

■ وقفة مع المقارنة:

في الآيات الكريمة مقارنة صريحة بين من بلغ الغاية في الكفر وصار يُضرب به المثل فيه، ومن بلغ الغاية في الإيمان حتى صار يُضرب به المثل فيه. فأما من ضُرب به المثل في الكفر من النساء، كما ذكرت الآيات، فهما امرأتا نبيين من أنبياء الله الصالحين، وهما لوط ولوط عليهما السلام. فهاتان المرأتان عاشتا كل واحدة منهما مع نبي من أنبياء الله ليل نهار، ولكن لم تؤمن، ولم تستفد من الحكمة التي خرجت من بيتها مهد النبوة. فكفرت الاثنتان بالله وعصتا أزواجهما الأنبياء، ولم يستفيدا مما نزل عليهما من الهدى والنور، فلم ينفعهما أزواجهما شيئا في دفع عذاب الله عنهما مع كونهما أقرب الناس إليهما، وعلى الرغم من عظم مكاتبتهم عند الله. وسيقال لهما يوم القيامة: ادخلا النار مع سابق الداخلين فيها، فلن ينجيها من النار فرجهما وعلاقتهما بأنبياء الله. وصارتا مضربا للمثل في الكفر، لقربهما من الأنبياء اللذين هم أعلى الناس درجة وأقربهم منزلة عند الله. وبما أسفى على عدم استفادتهما من هذه الصلحة والعشرة الصالحة وتفريطهما فيها، فلا جرم استحققتا ضرب المثل في الكفر.

أما اللتان ضُرب بهما للمثل في الإيمان والطاعة، فأحدهما آسية امرأة فرعون التي لم تتأثر بفرعون ولم تطعه، ولم تحف منه على الرغم من قوته وسطوته وجبروته الذي جعله يدعي أنه الرب الأعلى. لكن امرأته لم تتبعه في الكفر، بل آمنت بالله وبرسوله موسى عليه السلام، وأطاعت رجا دون خوف من أحد بما فيه فرعون الظالم الجابر. بل دعت الله النجاة من كفره وظلمه وطفغياته، كما دعت أن يبنى لها بيتا في الجنة، فاستجاب الله دعائها، وجعلها مثلا يُقتدى به في الإيمان والتسليم لأمر الله. ولا حجة بعدها لأحد في عدم توفر البيئة المناسبة للإيمان ولحو ذلك من الأعذار النافذة، لأنه إذا كانت امرأة فرعون تستطيع الإيمان وهي زوجة أعدى أعداء الله، فكل واحد يقدر على ذلك.

والمرأة الثانية التي ضُرب بها المثل في الإيمان بالله هي مريم ابنة عمران، إذ ضُرب بها المثل في الإيمان والطاعة والعفة والطهارة، حيث أحصنت وصانت فرجها عن الفاحشة، وحملت بحملى حينما نفخ فيها جبريل، وولدتها، وواجهت في سبيل ذلك من الآلام ما واجهته إذ رماها قومها بالفاحشة، وهي أظهر نساء العالمين، لكنها صبرت ولم تستسلمت لأمر الله، وصدقت بوعده، وآمنت بكتبه ورسله، وكانت من المؤمنين بالله، المطيعين لأوامره للبتسليمين لقضائه وقدره، فحررت بأن يُضرب بها المثل في الإيمان بالله ورسله.

وقد مدح رسول الله ﷺ هاتين المرأتين قائلا: "كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ: إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَإِنْ فَضَّلَ عَائِشَةُ عَلَى النِّسَاءِ فَفَضَّلَ الْفَرِيدَ عَلَى سَائِرِ الطَّلَعِ".^(١)

ومن أهم أهداف هذه المقارنة: إثبات فضيلة آسية ومريم عليهما السلام على سائر النساء، وبيان شناعة كفر امرأة لوط وعليهما السلام مع علمهما لنبيين من أنبياء الله، ودعوة النساء خصوصا وكل من آمن عموما إلى اتباع

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله "وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون" إلى قوله "وكانت من القانتين"، ٢٥٧٣، رقم ٣٤١٦، من حديث أبي موسى الأشعري.

سبيل المؤمنين، والتحذير من اتباع الكافرات، وبيان أن صلاح الأقارب لا يغني عند الله شيئا كما لا يضر فجورهم، فالعبرة عند الله بالإيمان والتقوى فقط، قال تعالى: ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَنُّكُمْ﴾^(١).

٣- قال الله تعالى: ﴿قَامَا مَنْ أَوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَآؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَةَ ۖ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَةَ ۖ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ۖ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ۖ وَأَمَّا مَنْ أَوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَةَ ۖ وَلَمْ أَدْر مَا حِسَابِيَةَ ۖ يَلَيْتَنِي كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ۖ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَةَ ۖ هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيَةَ ۖ خُذُوهُ فَعُلُوهُ ۖ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۖ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ۖ﴾^(٢).

تحدثت الآيات السابقة عن يوم القيامة وما يحدث فيه من النفخ في الصور، ودكّ الجبال وانشقاق السماء، وحمل ثمانية من الملائكة للعرش، ثم صرّح بأن هذا اليوم يُعرض فيه الجميع على الله، ولن يخفى على الله شيء يومئذ. ثم ذكر صنفان من الناس باعتبار كتاب أعمالهما.^(٣)

■ نظرة تفسيرية:

فصّلت الآيات القول فيما يقع يوم العرض على الله تعالى، فبدأت بالإخبار عن سرور من يؤتى كتابه بيمينه وفرحه بذلك، فقيل: إن من يُقضى عليه بالدخول في الجنة من الموحدين المؤمنين يأخذ كتابه بيمينه، فيقول لكل من يلقاه من شدة فرحه: تعالوا خذوا واقرأوا كتابي، لأن الذي فيه خير محض، إني علمت وأيقنت في الدنيا بأن هذا اليوم آت وأني ملاق فيه حسابي. وأمثال هؤلاء يدخلون بعد الحساب عيشة مرضية، وهي جنة عالية مكانا وقدرًا، ما يُجنى من ثمارها قريبة التناول، إذ يقطفها القائم والقاعد والمضطجع من شجرتها. ويقال لهؤلاء تفضلا وإنعاما عليهم: كلوا واشربوا أكلا وشربا هنيئا بما قدمتم من العمل الصالح في أيام الدنيا الماضية. وأما الذي يُعطى كتابه بشماله بعد الحساب فيندم غاية الندم، ويتمنى لما يرى من قبائح أفعاله وما يصير إليه أمره أنه لم يعط هذا الكتاب، كما يتمنى أنه لم يدر حسابه، لكونه مشتملا على ما يسوءه فيه وهو عليه لا له. ويقول: يا ليت الموتة التي متها في الدنيا كانت القاضية عليّ والقاطعة لأمري، فلم أُبْعَث ولم أُعَذَّب بعدها، ويخبر متأسفا عن ماله أنه لم ينفعه شيئا ولم يدفع عنه عذاب الله، كما ضلّت عنه حجته وملكه وجاهه وقوته فلم تنفعه شيئا. ثم يقال للزبانية: خذوا هذا الكافر بعنف، وضعوا في عنقه أغلالا، ثم أدخلوه الجحيم، وأربطوه في سلسلة مقدار طولها سبعون ذراعا، بحيث تلتوي عليه من جميع جهاته لطولها فيبقى داخلها لا سبيل له إلى الخروج منها. ثم ذكر أسباب تعذيبه وهي كفره

(١) سورة الحجرات، آية ١٣.

(٢) سورة الحاقة، الآيات ١٩ - ٣٢.

(٣) راجع: الآيات ١٣ - ٣٢ من سورة الحاقة.

بالله، وعدم حثه على إطعام المسكين؛ فلم يطعم بنفسه ولم يأمر غيره بذلك، وأضاف الطعام للمسكين لأنه يستحق من مال الغني؛ وهو بذلك لم يؤد حق الله ولا حق العباد عليه. فالآن ليس له صديق ملاطف، ولا قريب يشفع له وينقذه من عذاب الله، وليس له هاهنا طعام إلا من صديق أهل النار (وهو غسالة جروحهم وقروحهم) الذي لا يأكله إلا الكافرون الخاطئون، الذي يعلون ضد الصواب عمدا.^(١)

■ وقفة مع المقارنة:

قارنت الآيات المباركة مقارنة خير صريحة بين أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، بإلقاء الضوء بشكل خاص على موقف معين يوم الحساب، وهو وقت توزيع صحائف الأعمال على العباد. وحينها ينقسم الناس إلى قسمين: هما أصحاب اليمين وأصحاب الشمال.

فأما أصحاب اليمين فهم الذين يؤتون كتاب أعمالهم بأيمانهم فيفرحون بذلك أشد الفرح؛ إذ يتنادون الناس ويقولون لهم: تعالوا اقرأوا كتبنا لما فيها من الخير والمغفرة، ولأنه سبب في دخولهم الجنة. وكان هؤلاء في الدنيا موقفين بالحساب والبعث والجزاء في الدنيا، فاستعدوا لهذا اليوم العظيم وهذا الموقف الصعب، ولم يضيعوا الفرصة التي سُنحت لهم في الدنيا، فأدوا حق الله بالإيمان والتوحيد، وحق العباد بإطعامهم والإنفاق عليهم والحث على ذلك. ولأجل عملهم واجتهادهم في الدنيا يدخلون جنة ذات مكانة ومنزلة عالية ودرجات رفيعة، ويعيشون فيها عيشة مرضية ترضيهم إلى الأبد، ولهم فيها أنواع النعيم التي منها: الأشجار الممتدة الظلال، قريبة للثمار يقطفها كل واحد قائما كان أو قاعدا أو مضطجعا، فلا تعب ولا كلفة في قطف الثمار وجمعها كما هو حال الدنيا؛ فالجنة لا تعب فيها ولا نصب ولا مشقة في شيء، ولو كانت يسيرة. ويقال لهؤلاء إكراما لهم وتثنيًا: كلوا واشربوا كما تريدون وتشاءون وما تشتهون، أكلا وشربا هنيئا، بسبب أعمالكم التي عملتموها في أيام الدنيا التي مضت، والتي استفاد منها هؤلاء في الحرث للأخرة. فيحصدون ما زرعوا ولا يحسبون شيئا، بل يُعطون زيادة على ذلك، فضلا من الله ونعمة.

وأما أصحاب الشمال فيعطون صحائف أعمالهم بشنائهم، فيحزنون أشد الحزن ويسخطون، ويتمنون لو لم يُعطوا كتبهم، فيقول أحدهم: يا ليتني لم أوت كتابي، ولم أدر ما حسبي، كما يتمنى لو كان الموت الذي جاءه في الدنيا قاضيا عليه، فلا حياة بعده ولا حساب. ويندم أشد الندم على تكبره وغروره بماله وجهه في الدنيا، حين يعرف أن ذلك لن ينفعه شيئا ولن يدفع عنه العذاب، فيقول: لم يكن عني مالي شيئا، ولم ينفعني جاهي وسطوتي التي كانت لي في الدنيا، وضللت عني حجتي وبرهاني. ولكن لن يستمع أحد إلى كلامه وصريته، ولن يتأثر بهكاته وتدمه موجودة، فلا شفقة عليه ولا رحمة، بل يقال للزبانية: خذوا هذا الكافر واربطوه بالأغلال والسلاسل، واضغطوه إلى النار دفعا عنيفا والقوه فيها، لأنه لم يؤد حق الله بالإيمان به، ولم يؤد حق عباده بتفهمهم وإطعامهم الطعام والحث عليه؛ فلا ينفعه اليوم صديق ولا قريب ولا تنفعه شفاعة شافع. فيفعل خزنة النار ما أمروا به من الله؛ فيدخل هو

(١) يُنظر: معالم التنزيل، للبغوي، ١٤٧/٥ - ١٤٩، البحر المحيط، لأبي حيان، ٢٢٠/١٠ - ٢٦١. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٢٢٩/٨ - ٢٣٢.

وأمناله من الكفار نار جهنم التي تنتظرهم فيها الحريق، ونار تطفى وتتطلع على الأفئدة، وليس لهم فيها طعام يفيد ويغني من جوع، إذ لا يأكلون إلا من عصارة أهل النار، وما يسيل من قروحهم وجروحهم، ومن ضريع وهو شيء من النار كالشوك، ومن شجرة الزقوم طعاما كريه الشكل خبيث الطعم. وهذا الطعام لا يأكله إلا الذين كفروا بالله، وتعمدوا فعل الخطأ، وعصوا ربهم الذي خلقهم وأنعم عليهم.

لقد سعت هذه المقارنة إلى تحقيق أهداف متعددة، من أهمها: إثبات فضيلة المؤمن على الكافر، والحث على الإيمان والاستعداد للجزاء والحساب، والتحذير من الكفر والتكذيب وعقابه يوم القيامة، والحث على الاستفادة من الفرصة التي سُنحت للجميع في الدنيا، والتشويق للجنة والتخويف من النار. كما أن في المقارنة تسليية للمؤمنين وخصوصا الفقراء منهم، وحث لهم على التطلع إلى ما عند الله من الجزاء لأنه خير وأبقى، وعدم النظر إلى ما فيه الكفار في الدنيا من مال وجاه لأنه لا يغني عنهم من الله شيئا، وعدم الجزع من أذى الكفار لأنه زائل لا محالة.

٤- قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ۚ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيَقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا ۚ وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ۚ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ ۚ﴾ (١).

جاءت الآية المباركة بعد الآيات التي توعدت الوليد بن المغيرة - زعيم من زعماء كفار قريش - الذي فُكر وقدر ثم عبس وبسر، ثم وصف القرآن الكريم بأنه سحر بعد فكر طويل، بالنار التي عليها تسعة عشر من الملائكة خزنة عليها. ثم وضحت هذه الآية الحكمة من ذكر هذا العدد من الخزنة وموقف الناس تجاهه. (٢)

■ نظرة تفسيرية:

يقول الله تبارك وتعالى إنه جعل خزنة النار ملائكة لا رجالا آدميين، حتى لا يتمكن الكفار من التغلب عليهم، وحتى يكونوا خلاف جنس المعتدين فلا تأخذهم الرأفة والرقّة، ولأنهم أشد الخلق بأسا. وما جعل هذا العدد قليلا إلا ضلالا وكفرا للذين كفروا، حيث استهزأوا به واستبعدوا أن يتولى هذا العدد القليل تعذيب جميع الكفار، فقالوا ما قالوا. وقد جعل الله هذا العدد لحكمة خاصة، وأفعال الله لا تُعَلَّل ولا يقال فيها لم، وهذا العدد قادر على تعذيب جميع الكفار، لأن الله يعطيهم من القوة والقدرة ما يقدرون به على ذلك، ومن اعترف بكمال قدرة الله زال

(١) سورة المدثر، آية ٣١.

(٢) راجع: الآيات ١١ - ٣١ من سورة المدثر.

عنه الاستبعاد. وقد نبأ الله بهذا العدد^(١) ليستيقن الذين أوتوا الكتاب نبوة رسول الله ﷺ وصدق القرآن، حين يوافق هذا العدد ما في التوراة والإنجيل، فإذا سمعوا بمثله في القرآن أيقنوا أنه منزل من عند الله، وليزداد الذين آمنوا بمحمد إيماناً، لتصدقهم بذلك كما صدقوا سائر ما أنزل، ويزدادوا يقيناً بموافقة أهل الكتاب له، ولا يرتابوا فيه، وفي ذلك تأكيد للاستيقان وزيادة الإيمان. وذكر أيضاً من حكمة ذكر هذا العدد أن يستغرب الكافرون والذين في قلوبهم شك ونفاق من ذلك استغراب المثل؛ حيث إنهم لما استبعدوه ظنوا أنه مثل مضروب، فيقولوا: أي شيء أراد الله بهذا المثل العجيب، وأي معنى أراد في جعلهم تسعة عشر لا عشرين، وغرضهم بذلك إنكار كونه منزلاً من الله بحجة أنه لو كان من عنده لما جاء بهذا العدد الناقص. وكما أضل الله بذكر عدد الخزنة من أنكر ذلك، وهدى من صدق به، كذلك يضل الله من يشاء إضلاله (وهو الذي علم منه الضلال) ويهدي من يشاء هدايته (وهو الذي علم منه اختيار الهدى)، فهو الذي بيده الهدى والضلال. وما يعلم كنه جنود الله وكيفية قوتهم، لفرط كثرتها، إلا هو، فلا يعز عليه تميم الخزنة عشرين، لكن له في هذا العدد حكمة خاصة لا يعرفها البشر، وما سقر وصفتها وعدد خزنة النار وهذه السورة بل القرآن كله إلا تذكرة وموعظة للبشر يتعظون بها.^(٢)

■ وقفة مع المقارنة:

قارنت الآية الكريمة بين مواقف الكفار والمنافقين وبين موقف المؤمنين وأهل الكتاب من عدة خزنة النار من الملائكة. فأما الكفار فيكون هذا العدد فتنة لهم، حيث يستهزئون بكون خزنة النار تسعة عشر من الملائكة، ولا يفهمون الحكمة والغرض من بيان الله لهذا العدد، فيستغربون منه ويقولون كما يقول أمثالهم من المنافقين: ماذا أراد الله بهذا العدد، فيقعون في الشك والفتنة من كون القرآن من عند الله. وبسبب الاستهزاء بذلك يزدادون ضلالاً وكفراً وبعداً عن طريق الإيمان والهدى.

وأما أهل الكتاب فيزيدهم هذا العدد إيماناً لموافقته لما جاء في كتبهم، فيصدقون بكون القرآن الكريم منزلاً من عند الله، فيكون ذلك سبباً وباعثاً لإيمانهم وتصديقهم بالله ورسوله وكتابه. وكذلك المؤمنون يزدادون إيماناً وقرباً من الله لخوفهم من النار ومن خزنتها الشداد الأقوياء، ويصدقون بما أخبر الله به دون سؤال وشك ولا طلب حكمة، لعلمهم بأن كل ما أخبر الله به حق وصدق، وفيه غرض وحكمة، وإن لم نعلمها. وبهذا الموقف يتعدون عن كل أنواع الشك والريبة، ويزدادون إيماناً إلى إيمانهم، ويقيناً إلى يقينهم. وهكذا يكون هذا العدد سبباً في ضلال بعض الناس وهداية

(١) وقد ذكر الإمام النسفي رحمه الله السر في تخصيص خزنة النار بهذا العدد، فقال: "وال تخصيص بهذا العدد - مع أنه لا يُطلب في الأعداد العلل - أن ستة منهم يقودون الكفار إلى النار، وستة يسوقونهم، وستة يضربونهم بمقامع من حديد، والآخر خازن جهنم وهو مالك، وهو الأكبر".

مدارك التنزيل، للنسفي، ٥٦٥/٣.

(٢) يُنظر: مدارك التنزيل، للنسفي، ٥٦٥/٣ - ٥٦٧. لباب التأويل، للخازن، ٣٦٥/٤ - ٣٦٦. التفسير المظهر، للقاضي ثناء الله، ١٢٩/١٠ - ١٣٠.

البعض الآخر منهم، ولا يهدي الله إلا من علم منه الاستعداد للهدى والرغبة فيها، ولا يُضِلُّ إلا من علم منه الإعراض عن الهدى والرغبة في الضلال.

ومن أهم أهداف المقارنة: بيان الفرق بين المؤمن وغيره مما نزل الله وبينه في كتابه وإن بدا مستغنيا في ظاهري الأمر، وبيان أن المؤمن يؤمن بكل ما جاء من عند الله دون طلب حكمة وحرص وتعليل، وميل هذه الصفة الإيمانية، والحث على الإيمان بكل ما جاء من عند الله والخوف من الله وجنوده، لأنه لا يعلم حقيقتها وكنهها إلا هو. والتأكيد على أن الله قادر على تعذيب الكفرة جميعا ولا يملك أحد منعه من ذلك، قل عدد الخزنة أم أكثر، والحث على التذكر والاتعاظ بآيات الله التي تُتلى على الناس، والتجذير من الاستهزاء والسخرية بها.

٥- قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى ۖ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ فَإِنَّ الْحَجِيمَ هُوَ ۖ النَّارُ ۖ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ ۖ النَّارُ ۖ﴾ (١).

بعد ذكر مظاهر القدرة والنعمة الربانية من السماء والأرض والجبال، وما فيها من فوائد جمّة للبشر، ذكر الله تعالى يوم القيامة التي يتذكر الإنسان فيها ما عمل، ويلقى جزاء أعماله، وتظهر الحجيم لمن يراها. ثم ذكر في هذه الآيات جزاء الطاغى والخائف في الدار الآخرة. (٢)

■ نظرة تفسيرية:

بعد وصف حال القيامة قسّمت الآيات المكلفين إلى قسمين، وهما السعداء والأشقياء، وذكرت جزاءهما يوم القيامة. فأما من تكبر وتمرد عن الطاعة، وتجاوز الحد في الكفر والعصيان، وقدم الحياة الدنيا الفانية الزائلة على الدين والآخرة، فاعلمك فيها ولم يستعد للحياة الآخورية الأبدية الباقية بالإيمان والطاعة، فإن النار المحرقة هي مأواه ومثواه ومستقره، لأنها هي التي تليق بمن اتصف بهذه الصفات. (٣) وأما من خاف القيام بين يدي ربه ومالك أمره يوم القيامة، وخاف حكم الله في ذلك اليوم، وأدرك عظمة الله وجلاله، فنهى نفسه عن الميل إلى هواها، وزجرها عن المحاصي والمحرمات التي تشتهر بها، وحملها على الطاعة، ولم يعتد بمناجاة الحياة الدنيا وزخرفاتها وزينتها الفانية، فإن الجنة

(١) سورة النازعات، الآيات ٣٧ - ٤١.

(٢) راجع: الآيات ٢٧ - ٤١ من سورة النازعات.

(٣) يقول الرازي رحمه الله: "في قوله "طغى" بيان فساد حال القوة النظرية، لأن كل من عرف الله عرف حقارة نفسه وعرف استعلاء قدرة الله عليه، فلا يكون له طغيان وتكبر. وفي "آثر الحياة الدنيا" إشارة إلى فساد حال القوة العملية، وإذا كان الإنسان موصوفاً بمذهبن كان بالغاً في الفساد إلى أقصى الغايات، وهو الكافر الذي يكون عقابه مخلداً، وتخصيصه بهذه الحالة يدل على أن الفاسق الذي لا يكون كذلك لا يكون المحجيم مأوى له.

يُنظر مفاتيح الغيب، للرازي، ٤٩/٣٦.

هي المأوى والمستقر له لا غيرها،^(١) والآيات عامة في كل مؤمن وكافر، واستخدمت فيها صيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع، وبين أوصاف أهل الجنة وأهل النار مقابلة.^(٢)

■ وقفة مع المقارنة:

قارنت الآيات مقارنة غير صريحة بين أهل الإيمان وأهل الكفر وجزأتها بإيجاز شديد. ومن أهم الفروق التي تفرق بينهما في ضوء هذه الآيات ما يلي:

○ أن أهل الكفر في ضوء الآيات طغاة متجاوزون الحدود، وأما أهل الإيمان فهم يقفون عند حدود الله ولا يتجاوزونها، ولا يطمعون، بل يخافون ربه ويخشون المقام بين يديه.

○ وأهل الكفر يؤثرون الحياة الدنيا الغانية على الآخرة الباقية، ويتبعون الشهوات، وعرضون عن أوامر الله، أما أهل الإيمان فهم يؤثرون الآخرة على الدنيا، وينهون أنفسهم عن اتباع الهوى والشهوات، ويتبعون ما أمر الله، ويطيعونه ورسوله في كل صغيرة وكبيرة.

○ وأهل الكفر مأواهم الجحيم فلا مأوى ولا مستقر لهم غيرها، أما أهل الإيمان فمأواهم ومستقرهم الجنة، وإليها ينتهي أمر يأذن الله وفضله.

وأهم أهداف هذه المقارنة هي: التشويق للجنة والتخويف من النار، وبيان فضيلة المؤمن على الكافر في الدنيا والآخرة، ومدح للمؤمن وذم للكافر على صفاتهما، والحث على اتباع سبيل المؤمنين المتقين القابضين على الإيمان والطاعة، والتخليع من سلوك سبيل الكفار الطغاة الجبابرة.

٦- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلْحَرُّ ۖ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ۝﴾^(٣).

(١) جاء في مفاتيح الغيب: "هذان الوصفان مضادان للوصفين اللذين وصف الله أهل النار بهما. فالخوف من الله هو السبب المعين لدفع الهوى. لذا قدم العلة على المعلول. ودخل في الصفتين جميع الطاعات والحسنات كما دخل في سابقتيهما جميع أعمال الكفر والعصيان".

يُنظر: مفاتيح الغيب، للرازي، ٥٠/٣١.

(٢) يُنظر: مفاتيح الغيب، للرازي، ٤٩/٣١. إرشاد العقل السليم، لأبي السعود، ١٠٤/٩ - ١٠٥. التفسير المنير للزحيلي،

٤٨/٣٠، ٥١/٣٠ - ٥٢.

(٣) سورة البروج، الآيات ١٠ - ١١.

بعد ذكر قصة أصحاب الأخدود الذين عذبوا المؤمنين بالنار بسبب إيمانهم بالله، توعد الله في هاتين الآيتين كل من يفتن المؤمنين عن دينهم بالنار، كما وعد المؤمنين بالجنة.^(١)

■ نظرة تفسيرية:

تتضمن الآيتان تهديدا للذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات^(٢)، فقال الله فيها: إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات^(٣)، فعذبوهم وعاملوهم بشدة وأوقعوهم في عناء لم يجدوا منه مخرجا لأجل إيمانهم بالله، ثم لم يتوبوا من فعلهم ولم يرجعوا عن دينهم، لهم عذاب جهنم لكفرهم، كما أن لهم عذاب الحريق لتعذيب المؤمنين؛ فلهم عذاب مضاعف، واحد لكفرهم والآخر لفتنتهم. وفي ذلك تعريض للمشركين، بأنهم إن تابوا وآمنوا، سلموا من عذاب جهنم. ثم ذكر الفريق المقابل لهم وهم المؤمنون، لبيان حالهم إن تابوا، فالإيمان والعمل الصالح هو التوبة من الشرك الباعث على فتنه المؤمنين، فقال: إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار. ويجوز أن يكون ذلك اعتراضا بين ما قبلها وما بعدها، لترغيب المنذرين في الإيمان، وتثبيت المؤمنين على ما يلاقونه من أذى المشركين. وذلك المذكور من اختصاصهم بالجنات والأنهار هو الفوز الكبير جزاء لهم.^(٤)

■ وقفة مع المقارنة:

في الآيتين مقارنة غير صريحة بين الكفار المعذبين للمؤمنين، وبين المؤمنين العاملين الصالحات، بذكر جزائهما في الدار الآخرة. فأما الكفار الذين لم يكتفوا بكفرهم وتكذيبهم، بل حاولوا بكل ما أوتوا من قوة صد الناس عن الإيمان بالله وسلوك سبيله، فأدوا المؤمنين والمؤمنات، وعذبوهم حتى يرجعوا عن دينهم الصحيح، ويتركوا الإيمان بالله ورسوله، ثم لم يتوبوا ولم يؤمنوا قبل الموت، فلهم عذاب مضاعف في الآخرة، بسبب كفرهم بأنفسهم وفتنة المؤمنين عن دينهم. أما الذين تابوا فَيُسْتَنْتَوْنَ من هذا الجزاء القبيح. وهذا الوعيد شامل لكل من عذب المؤمنين في قرن من القرون ولم يتب، من أصحاب الأخدود ومن كفار مكة الذين أدوا المؤمنين أشد الأذى، كما فعل أبو جهل مع

(١) راجع: الآيات ٤ - ١١ من سورة البروج.

(٢) ويجوز أن يكون المراد بالذين أصحاب الأخدود خاصة والمراد بالذين آمنوا المطروحون في الأخدود. ومعنى فتنوهم عذبوهم بالنار. ويجوز أن يكون عاما، بحيث يكون المراد بالذين فتنوا مشركي قريش، وبالذين آمنوا المؤمنين عموما. ويرى ابن عاشور وغيره من المفسرين أن هذا أشبه بظاهر الآية، لقوله: "ثم لم يتوبوا" لأنه أشبه بقريش من أولئك وفيه تعريض بالترغيب في التوبة.

ينظر: التحرير والتنوير، ٢٤٥/٣٠. وينظر: الكشف، للزحبي، ٧٣٢/٤. الجواهر الحسان، للثعالبي، ٥٧٢/٥.

(٣) قال ابن عاشور: "وعطف المؤمنات على المؤمنين للتنبؤ بهن، لئلا يظن أحد أن هذه المزية خاصة بالرجال والنساء، ولزيادة نفع طبع الفاتنين بأنهم اعتدوا على النساء، والشأن ألا يتعرض لهن بالغلظة".

التحرير والتنوير، ٢٤٦/٣٠.

(٤) ينظر: بحر العلوم، للسمرقندي، ٥٦٦/٣. الجواهر الحسان، للثعالبي، ٥٧٢/٥. التحرير والتنوير، لابن عاشور، ٢٤٥/٣٠ -

عمار بن ياسر وأهله وأمية مع بلال رضي الله عنه، وغيرها من الكفار في كل حين ومصر، فكلهم لهم عذاب جهنم وعذاب الحريق، لكنهم مع صلهم عن سبيل الله وتجنّب المؤمنين.

أما المؤمنون فهم يؤمنون بالله ويعملون الصالحات، ولا يكفون بأنفسهم، بل هم على العكس من الكفار يؤمنون ويحرمون على إيمان غيرهم أيضا ونجاته من النار، فيدعون إلى الله ويعين بعضهم بعضا على الإيمان، والقيام بالطاعات. كما كان يفعل سيدنا أبو بكر رضي الله عنه، حيث كان أول من آمن، ثم لم يكتف بالإيمان بنفسه، بل بدأ يدعو غيره إلى الإيمان، حتى آمن يدعوته مجموعة من كبار الصحابة من السابقين الأولين، وبالإضافة إلى ذلك كان يحاول قهر المستطاع أن ينجي ضعفاء المؤمنين من أذى الكفار وعذابهم، حيث اشترى بلالا واعتقه، وغيره من أمثالهم، وأمثال هؤلاء من كل زمن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار، وهذا لا شك أنه الفوز العظيم الكبير الذي لا يدانيه وبقره فوز مهما عظم شأنه.

ومن أهم أهداف هذه المقارنة: بيان فضل المؤمن على الكافر، والحث على اتباع سبيل المؤمنين والإعراض عن سبيل الكافر، والتشويق للجنة والتخويف من النار، وحث المؤمنين على الصبر على أذى الكفار وبلائهم، وتسليةهم وطمأننتهم ببيان أن المعذبين في الدنيا معذبون في الآخرة في النار، والمعذبين في الدنيا منعمون في الآخرة في جنات النعيم قريباء والبلاء سيذهب حتما وإن طال. وفي المقارنة أيضا حث على التوبة والإنابة إلى الله تعالى.

٧- قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَيْنَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ

رَبِّي أَكْرَمَنِ ۖ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَيْنَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ۖ﴾^(١).

بعد الإشارة باختصار إلى ما فعله الله مع الذين أكثروا الفساد في الأرض من قوم عاد وثمود وفرعون، صرح الله تعالى بأنه يرقب الناس ويحصى أعمالهم، وسيجازيهم عليها في الآخرة. ثم يبين حال الإنسان عند مواجهة النعمة وحاله عند مواجهة البلاء من الله.^(٢)

■ نظرة تفسيرية:

ذكر الله هنا ما يقوله الناس عموما وكفار قريش خاصة، ويستدلون به على إكرام الله تعالى وإهانتهم لعبده، إذ يرون أن المكرم من عنده الثروة والأولاد، والمهان ضلوه، ولما كان هذا غالبا على الناس وتحووا بذلك، والإنسان في الآية للجنس، فيدخل فيه كل من كان على هذه الصفة. فقال الله تعالى: أما الإنسان إذا اختبره ربه، ليقم الحجة عليه بما يبدو منه، بالغبى واليسر، فأكرمه وبسط له الرزق وأقم عليه بأنواع النعم، ليرى أي شكر نعمه أم يكفرها، قال: ربّي أكرمني وفضلني وأحسن إليّ بما أعطاني من النعم التي أستحقها، ولم يعلم أنّها ابتلاء واختبار له. وأما إذا اختبره بالشر والفقر، فضيق عليه رزقه، ليرى أي صبر أم يجزع، قال غافلا عن الحكمة: ربّي أهانتني بتضييق الرزق عليّ؛

(١) سورة الفجر، الآيات ١٥ - ١٦.

(٢) راجع الآيات ٦ - ١٦ من سورة الفجر.

وذلك لسوء فكره وقصور نظره. وقابل "نعمه" بقوله "فقلتم عليه رزقه"، ولم يقابل "أكرمه" بقوله "أهانته"، لأنه ليس كل من يضيق عليه الرزق كان ذلك إهانة له، فكثير من أهل الصلاح يضيق الله عليهم الرزق، وكذلك فإن التقدير قد يؤدي إلى كرامة الدارين، والتوسعة قد تؤدي إلى الانحماك في حب الدنيا. وقد ذم الله العبد في الحالتين، لأنه يقول "ربي أكرم من" على وجه الفخر والكبر لا على وجه الشكر، ويقول: "ربي أهان من" على وجه الشكوى وقلة الصبر والتسليم لقضاء الله، وأيضا لأنه نظر إلى الدنيا فقط، فاعتبر بسط الرزق فيها كرامة، ونضيقه إهانة، وليس الأمر كذلك، فأنكر الله على الإنسان اعتبار الدنيا والغفلة عن الآخرة. وذكر ابن جزى الكلبي^(١) أن الإنكار للإهانة فقط، لأنه شكوى من الله، وليس للإكرام لأنه اعتراف بالنعمة.^(٢)

■ وقفة مع المقارنة:

قارنت الأيمان مقارنة غير صريحة بين حال الإنسان عند الحصول على نعم الله من المال والجاه والبنين وغيرها من النعم، وعند مواجهة ضيق في الرزق. فثبت أنه، وبخاصة الإنسان الكافر، عند الحصول على نعمة من نعم الله من سعة في المال والرزق، يفتخر ويتكبر ويظن أن ذلك إكرام له، وأنه يستحق هذه النعمة بأعماله وبما أوتي من علم. أما إذا واجه ضيقا في الرزق، ابتلاء من الله، ظن ذلك إهانة له، فجزع وتضجر من ضيق الرزق، وقال: ربي أهان من. فهو فخور عند النعمة، جزع عند الضيق، ولا يعلم أن كليهما ابتلاء واختبار من الله تعالى، والواجب الشكر عند النعمة، والصبر عند المصيبة، والكرامة والفضل في حقيقة الأمر بالتقوى، لا بمال الدنيا وجاهها.

وكان من أهم أهداف هذه المقارنة: بيان أحوال الإنسان للفتنة والإنكار عليها، والتأكيد على أن السعة والضيق كليهما ابتلاء واختبار من الله تعالى لا يدل شيء منهما على الكرامة والإهانة، والحث على الصبر عند المصيبة والشكر عند النعمة، وعدم الجزع والفخر.

(١) هو أبو القاسم محمد بن أحمد ابن جزى الكلبي المالكي، من علماء غرناطة. ولد عام ٦٩٣ هـ. كان فقيها حافظا، عالما بعلوم وفنون كثيرة، منها التفسير والحديث، واللغة العربية، والقراءات، والأدب، وغيرها من العلوم. تلمذ على أبي جعفر بن الزبير، وأبي القاسم قاسم بن عبد الله وغيرهما. وأخذ عنه لسان الدين الخطيب. توفي عام ٧٤١ هـ شهيدا. من كتبه: التسهيل لعلوم التنزيل، أصول القراء الستة غير نافع، الفوائد العامة في حق العامة، وغيرها.

يُنظر: طبقات المفسرين، للناوذي، ٨٥/٢ - ٨٧، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد ابن سالم مخلوف، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م، ٣٠٦/١، الأعلام، للزركلي، ٣٢٥/٥.

(٢) يُنظر: أنوار التنزيل وأسرار العاويل، للبيضاوي، ٣١٠/٥، التسهيل في علوم التنزيل، لابن جزى الكلبي، ٤٧٩/٢ - ٤٨٠. البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان، ٤٧٣/١٠ - ٤٧٤. مشوة الصالحين، للصابوني، ٥٣٠/٣ - ٥٣١.

٨- قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۝ فَسَنِّيْرُهُ ۝^(١) لِلْيُسْرَى ۝ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۝ فَسَنِّيْرُهُ ۝ لِلْعُسْرَى ۝ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ۝﴾^(٢).

أقسم الله تعالى في بداية سورة الليل بالليل إذا يغشى، وبالنهار إذا انكشف، وبالذي خلق الذكر والأنثى على أن مساعي البشر مختلفة. ثم فصل القول في هذا السعي في هذه الآيات المباركة.^(٣)

■ نظرة تفسيرية:

فصلت هذه الآيات القول في سعي الناس، وذكرت جزاءهم على هذا السعي، فبينت أن من أعطى ماله وتصدق منه في سبيل الله، وأدى كل ما وجب عليه فيه، واتقى الله وعذابه في أموره، فاجتنب المعاصي والمحرمات، وصدق بكلمة التوحيد "لا إله إلا الله"، وبعقائد الإسلام الأخرى، وما ترتب عليها من الجزاء في الآخرة، سهل الله عليه أمره وهياه لليسرى، وهي القيام بأعمال الخير والبر التي تؤدي إلى يسر وراحة وترك أعمال الشر، ومن ثم الحصول على رضا الله ودخول الجنة. وأما من بخل بماله، ولم ينفق منه في وجوه الخير وفيما أمر الله بالإنفاق فيه، واستغنى بشهوات الدنيا عن ربه وثوابه في الآخرة، وترك عبودية الله ولم ير نفسه مفتقرا إليه، وكذب بكلمة التوحيد وبعقائد الإسلام الأخرى، وبالجزاء عليها في الآخرة، يسه الله للحالة العسرة والخصال الدميمة، وهي العمل بما يكرهه الله تعالى، وبالتالي الدخول في النار. فالله يجازي من قصد الخير بالتوفيق له، ومن قصد الشر بالخذلان. هذا الرجل البخيل المستغنى عن ربه لا يغني عنه ولا ينفعه ماله الذي أمسكه عن الإنفاق، وبخل به عن الخير، إذا هلك وسقط في العذاب، إذ لا يصحبه بعد الموت إلا العمل الصالح، ويكون ماله وبالا عليه إذا لم يقصد به الآخرة.^(٤)

■ وقفة مع المقارنة:

تقارن هذه الآيات مقارنة غير صريحة بين مساعي الناس المختلفة، والجزاء الذي يستحقونه عليها، وصنفت الناس من هذا الاعتبار إلى صنفين. فأما الصنف الأول فهو الذي يعطي ماله وينفق منه الصدقات الواجبة والمستحبة، ويتقي عذاب الله وعقابه؛ فيتجنب المحرمات، ويترك المنهيات خوفا من ربه، ويصدق بكلمة التوحيد، وثواب الله ووعد الحسن على التقوى، والإنفاق في سبيله سبحانه. هذا الصنف من الناس يجازيه الله بالخير، ويسهل له عمل أهل السعادة، وبالتالي يكون من أهل الجنة.

(١) سورة الليل، الآيات ٥ - ١١.

(٢) راجع: الآيات ١ - ١١ من سورة الليل.

(٣) يُنظر: التفسير الوسيط، للواحدى، ٥٠٣/٤ - ٥٠٤. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٤٠٣/٨ - ٤٠٧. التفسير المظهرى، لغناء الله، ٢٧٤/١٠ - ٢٧٦. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدى، ص ٩٢٦.

أما الذي يبخل بماله ولا ينفق منه في سبيل الله، ولا يعطي الصدقات الواجبة ولا المستحبة، ويستغني عن ربه؛ فلا يطيعه ولا يخشاه ولا يفتقر إليه، بل يظن أنه يقدر على القيام بحاجاته دون رعاية الله وعونه، ويكذب بالتوحيد؛ فيشرك بالله، ويكذب بوعد الله، وهو الحساب والجزاء، يجازيه الله بالشر، فيسهل له هذا الطريق، ويتركه نائها في ظلمات الكفر والضلال، عاملا أعمال أهل الشقاء بكل يسر وسهولة، وبالتالي يدخل النار في الدار الآخرة، ولا ينفعه ولا يغني عنه ماله إذا مات وسقط في حفرة النار.

قال رسول الله ﷺ مفسِّراً هذه الآية: "مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ، وَمَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ"، قالوا: يا رسول الله، أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ قال: "اعْمَلُوا فَكُلُّ مُيَسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ"، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۖ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۖ﴾ (١).

ومن أهم الأهداف التي سعت هذه المقارنة إلى تحقيقها: الحث على الإنفاق وبذل الصدقات، لأنه الذي ينفع في الدنيا والآخرة، وذم البخل والتقتير، وبيان أنه من صفات أهل الشقاء، قال رسول الله ﷺ: "مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبَحُ الْعِبَادُ فِيهِ، إِلَّا مَلَكَانِ يُنْزَلَانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُتَّقًا خَلْقًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ ثَمَسًا تَلَقًا". (٢) ومن الأهداف أيضا: الترغيب في تقوى الله والإيمان به، والتحذير من الاستغناء والإعراض عنه، وبيان الفرق بين أهل اليسرى وهم أهل السعادة، وأهل العسرى وهم أهل الشقاء، وبيان أن الله لا يجبر أحدا على سلوك طريق معين، بل إن من اختار طريقا واتبعه، سهل الله له العمل في ذلك الطريق خيرا كان أو شرا. كما أن في هذه المقارنة بيانا لحقيقة المال، وأنه لن ينفع عند الله إلا إذا صُرف في وجوه الخير، فالأعمال الصالحة هي النافعة فقط في حضرة الملك جل جلاله.

٩- قال الله تعالى: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۖ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ

فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرِ ۖ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ۖ﴾ (٣).

بدأت سورة القدر ببيان أن الله تعالى أنزل القرآن الكريم في ليلة القدر، ثم وجَّه للمخاطبين استفهاما عنها قائلا: وما أدراك ما ليلة القدر، ثم بيَّن أنها في هذه الآيات، ووضَّح فضيلتها على سائر الأيام والليالي. (٤)

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب فسنيسره للعسرى، ص ٨٨٥، حديث رقم ٤٩٤٩، من حديث علي رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى "فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فسنيسره لليسر وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى، ص ٢٣٣، رقم ١٤٤٢، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) سورة القدر، الآيات ٣ - ٥.

(٤) راجع: سورة القدر.

■ نظرة تفسيرية:

بيّنت الآيات بيانا إجماليا لشأن ليلة القدر بعد التشويق إلى دراستها، فذكرت أن الله تعالى فطّل ليلة القدر على ألف شهر، وهي ليلة تنزل فيها الملائكة ومعهم جبريل عليهم السلام، مع البركات التي تحقّقهم، بإذن الله تعالى وأمره إياهم بالنزول، فينزلون بكل أمر قضاء الله تعالى، وحكم به في تلك السنة، من خير وشر ومن رزق وأجل. وفي نزول الملائكة كرامة للمسلمين، حيث أنزل الله لهم في تلك الليلة جماعات من ملائكته وفيهم أشرفهم، ليكون لكل ليلة قدر مثل الفضل الذي حصل في الليلة الأولى عند نزول القرآن. ولفضل هذه الليلة تفضل العبادة فيه على غيرها من أيام السنة ولياليها بأضعاف مضاعفة، فعمل هذه الليلة يحسب لصاحبه عمل ألف ليلة، أي: ثلاث وثلاثين سنة وأربعة أشهر؛ فيضاعف ما يحصل فيها من الأعمال الصالحة، واستجابة الدعوات، ووفرة ثواب الصلوات، والبركة للأمة. ومن فضائلها أيضا أنها سلام من كل شر، فكلها خير محض من غروب الشمس إلى طلوع الفجر، فهي سلام وسلامة من كل شر، إذ لا يقدّر الله فيها إلا السلامة والخير، والسلام يشمل الغفران وإزالة القوابل واستجابة الدعاء بخير الدنيا والآخرة، وثاء الملائكة على أهل ليلة القدر المتحريين لها. والآيات تدل على فضل ليلة القدر، وتُشجّع على العبادة فيها، وتُرغّب في طلبها.^(١)

■ وقفة مع المقارنة:

قارنت الآية المباركة مقارنة صريحة، باستخدام أسلوب مباشر بين ليلة القدر وما سواها من الليالي والأيام والشهور، ببيان خيرية ليلة القدر على ألف شهر سواها. فصرّحت بأن ليلة القدر خير من ألف شهر، لما لها من الفضائل الكثيرة، فمن عمل فيها عملا صالحا جوزي بثواب مضاعف ألف مرة، حيث كان عمله هذا العمل لمدة ألف سنة. فالعمل الصالح في ليلة القدر من قيام فيها وقراءة للقرآن الكريم ونحو ذلك من أعمال الخير، خير من قيام ألف ليلة سواها، وقراءة القرآن في ألف ليلة أخرى. وأسباب فضيلتها على سائر الليالي كثيرة، منها:

- (١) أنها ليلة أنزل فيها القرآن الكريم.
- (٢) تنزل فيها الملائكة مع الروح الأمين جبريل عليه السلام الذي هو أفضلهم إلى الأرض بالخير للمؤمنين.
- (٣) هي السلام وفيها السلامة من كل الشرور والآفات، من بدايتها إلى طلوع الفجر.
- (٤) فيها تُقدّر الأمور وتنزل الأقدار، قال تعالى: ﴿فِيهَا يُفَرَّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾.^(٢)
- (٥) أنها ليلة تقع في رمضان الذي هو شهر من شهور الفضل، والذي يضاعف فيه ثواب الأعمال، وتصفد الشياطين، حتى يتجه الناس إلى ربهم ويرغبوا عن كل شيء آخر.

(١) يُنظر: إرشاد العفل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السجود، ١٧٩/٩ - ١٨٣. التحرير والتنوير، لابن عاشور، ٤٥٩/٣٠.

- ٤٦٥. أسير الغفاسير، للحجازي، ٥٩٨/٥.

(٢) سورة الدخان، آية ٤.

لهذه الفضائل وغيرها كانت ليلة القدر خيرا من ألف شهر، وثوابها جزيلا عند الله تعالى. قال رسول الله ﷺ: "مَنْ يَقُمْ لَيْلَةَ الْقَدْرِ، إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ". (١)

ومن أهم أهداف هذه المقارنة: بيان فضيلة ليلة القدر على ألف شهر سواها، والحث على تحري ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان، والتأكيد على الإكثار من العبادات والأعمال الصالحة فيها. وهذا ما كان يفعله قديونا وأسوتنا رسول الله ﷺ، فروي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: "كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ شَدَّ مِئْزَرَهُ، وَأَحْيَا لَيْلَهُ، وَأَيَّظَ أَهْلَهُ". (٢)

١٠ - قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۖ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ۖ وَأَمَّا

مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۖ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ۖ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ ۖ نَارُ حَامِيَةٍ ۖ﴾. (٣)

بدأت سورة القارعة بالتهويل من أمر القيامة وتسميتها بالقارعة، فليحذر أن الناس يكتفون يومئذ كالمفراش الميثوث في الكثرة والضعف، في حين تكون الجبال كالمهين للنفوس لعظمة هذا اليوم وموله. ثم بينت أصناف الناس حسب أعمالهم وموازينها عند الله تعالى، وجزائهم الذي يستحقونه عليها. (٤)

■ نظرة تفسيرية:

ذكرت الآيات أحوال الناس وجزاءهم على أعمالهم، وقسمتهم إلى فريقين، فريق ثقلت موازينه، والآخر خفت موازينه. فأما من رجحت موازين حسناته وأعماله الصالحة على سيئاته، فهو في عيشة مرضية، يرضاها صاحبها في الجنة التي فيها أنواع النعم. وأما من رجحت سيئاته على حسناته، أو لم تكن له حسنات ذات قيمة، فمسكنه ومأواه جهنم وحماها أمه على التشبيه، لأنه يأوي إليها كما يأوي الطفل إلى أمه، وتسمى هاوية وهي الهالكة، لأن الكافر يهوي فيها ويسقط في عمق قعرها على رأسه، وهي نار لا يدرك قعرها، ثم عظم شأها فتزجها استغفاما غرضه التهويل والتخويف، فقال: وما أعلمك ما هذه النار، لبيان أنها خارجة عن المألوف، بحيث لا يمكن للبشر إدراك كنهها. ثم بينتها، فأخبر أنها نار شديدة الحرارة، قد انتهى حرها وبلغ الغاية في الشدة، حتى جعلها تفوق جميع

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب قيام ليلة القدر من الإيمان، ص ٩، رقم ٣٥، من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضل ليلة القدر، باب العمل في العشر الأواخر من رمضان، ص ٣٢٤، رقم ٢٠٢٤، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) سورة القارعة، الآيات ٦ - ١١.

(٤) راجع: سورة القارعة.

النيران. وقد بينت السورة عاقبة المتقين الذين ثقلت حسناتهم وعاقبة الكافرين الذين لا يقبل منهم عمل، للدعوة إلى الإيمان والعمل الصالح، والتحرر من الكفر والفجور.^(١)

■ وقفة مع المقارنة:

قارنت الآيات الكريمة مقارنة غير صريحة بين الذين ثقل موازينهم يوم القيامة، والذين تخف موازينهم يوم القيامة، وذكرت جزاء الفريقين. فأما الذي عمل صالحا في الدنيا بعد أن آمن بالله وشهد ألا إله إلا هو، وأكثر من صالح الأعمال، فرجحت كفة حسنته يوم القيامة، يؤمر له بالجنة التي يعيش فيها عيشة ترضيه، ويتنعم بنعيمها، ولذلك فيها بالأنس بأصحابه الذين دخلوها معهم. وقد وردت تفاصيل هذا التعيم في عدد من المقارنات للناضية.

أما الذي كفر بالله ولم يشهد أن لا إله إلا هو، وأكثر من الأعمال السيئة فرجحت كفة سيئاته على حسنته يوم القيامة، يؤمر به إلى نار جهنم التي شحيت الهاوية لأنها لا يترك فرعها، وتكون أمة وملجأ ومأواه. ويُعَذَّب فيها بنار حامية بلغت الغاية في الحرارة والسخونة، تلك الحرارة التي لا يمكن أن تصل إليها نار من نيران الدنيا مهما عظمت، وقد وصف رسول الله ﷺ شدة حر نار جهنم قائلا: "نَارُكُمْ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ". قيل: يا رسول الله، إن كانت لكافية. قال: "فَصَلَتْ عَلَيْهِنَّ بِسَعَةِ وَسَبْعِينَ جُزْءًا كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا".^(٢)

ومن أهم أهداف هذه المقارنة:

(١) الحث على الإكثار من الأعمال الصالحة التي تكون سببا في ثقل الميزان يوم القيامة. وأعظم ما يثقل ميزان حسنات العبد يوم القيامة شهادة أن لا إله إلا الله. قال رسول الله ﷺ: "تَوْضِعُ الْمَوَازِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُؤْتَى بِالرَّجُلِ، فَيُوضَعُ فِي كِفَّةٍ، فَيُوضَعُ مَا أَحْصَى عَلَيْهِ، فَيَمَازِلُ بِهِ الْمِيزَانَ"، قَالَ: "فَيُبْعَثُ بِهِ إِلَى النَّارِ، فَإِذَا أُذْبِرَ بِهِ إِذَا صَاحَبٌ يَصْبِحُ مِنْ عِنْدِ الرَّحْمَنِ، يَقُولُ: لَا تَعْجَلُوا، لَا تَعْجَلُوا، فَإِنَّهُ قَدْ بَقِيَ لَهُ، فَيُؤْتَى بِطَافَةٍ فِيهَا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَتُوضَعُ مَعَ الرَّجُلِ فِي كِفَّةٍ، حَتَّى يَمِلَ بِهِ الْمِيزَانُ".^(٣)

(١) يُنظر: لباب التلويل، للخازن، ٤/٤٦٢ - ٤٦٣. التفسير المفيد، للرحبي، ٣٠/٣٧٧ - ٣٧٨. الأساس في التفسير، لسعيد جوى، ١/٦٦٥٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأهلها مخلوقة، ص ٥٤٤، رقم ٣٢٦٥، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ١١/٦٣٧، رقم ٧١٦٦، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، وقال المحققون: وهذا إسناد حسن على خطأ في اسم أحد رواة.

وأخرج الترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: "إِنَّ اللَّهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُغُوبٍ الْخَلِيقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ سَعَةً وَسَبْعِينَ سَجَلًا، كُلُّ سَجَلٍ بِمِثْلِ نَدَى النَّصْرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمْتُكَ كَتَبَتِي الْخَافِظُونَ؟ يَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَفَلَاكُ غُلَزْتُ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ! فَيَقُولُ: قُلِي، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَيُخْرِجُ بِطَافَةٍ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: اخْطُرْ وَتِلْكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ! مَا

- ٢) التحذير من السيئات التي تكون سببا في خفة الميزان يوم القيامة.
- ٣) التحذير من عقاب الله والتخويف من نار جهنم التي تكون شديدة الحرارة وتقطع على الأفتل.
- ٤) التهويل من أمر النار، وبيان عظمة شأنها.
- ٥) بيان فضيلة الأعمال الصالحة، حيث إنما تؤدي بالإنسان إلى عيشة راضية مرضية في نعيم باق.

هَلِوِ الْبَطَاقَةُ مَعَ هَلِوِ الْمِجَالِمِ؟ فَقَالَ: فَإِنَّكَ لَا تُظَلِّمُ. قَالَ: فَتَوَضَّعَ الْمِجَالِمُ فِي كِفَّةٍ وَالْبَطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتِ الْمِجَالِمُ وَثَقُلَتِ الْبَطَاقَةُ، وَلَا يُثْقَلُ مَعَ نَسَمِ اللَّهِ شَيْءٌ.

أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الإيمان، باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله، ج ٥٩٩، رقم ٢٦٣٩، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب. وأخرجه ابن حبان في صحيحه، ٤٦١/١، رقم ٢٢٥، عن ابن عمرو. وقال شعيب الأرتؤوط: إسناده صحيح، وصححه الألباني. وأخرجه الحاكم وصححه، ٤٦/١، رقم ١٩، وقال: "هذا حديث صحيح لم يخرج في الصحيحين، وهو صحيح على شرط مسلم"، ووافقه الذهبي وقال: "هذا على شرط مسلم".

الخاتمة

وفيها:

(أ) النتائج.

(ب) التوصيات.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات؛ فله كل الحمد والشكر على أن وفقني إلى إتمام هذا البحث، ولولا عونہ وتوفيقه لما تمكنت من ذلك. والصلاة والسلام على رسولنا المصطفى المختار ﷺ، وعلى آله وصحبه الأطهار، والتابعين وتابعيهم بإحسان ما تعاقب الليل والنهار.

وبعد؛ فإن من أساليب القرآن الكريم البليغة في عرض الحقائق أسلوب المقارنة الذي أكثر القرآن الحكيم من استخدامه في سوره وآياته، إذ لا يكاد يخلو جزء من أجزاء القرآن من مقارنات بديعة. ولا شك أن هذا الأمر يدل على أهمية المقارنة في توضيح الحقائق وتبيين الأشياء، إذ يقال: "وبضدها تبيين الأشياء". والمقارنة مستخدمة أيضا في الحديث النبوي الشريف على صاحبه أفضل الصلوات وأتم التسليمات، كما أنها مستخدمة في كثير من العلوم الشرعية والتجريبية الأخرى، لفوائدها الجملة وأهميتها الفضوى. ولأجل هذه الفوائد الكثيرة استخدمها القرآن الكريم أيضا، سعيا إلى أهداف معينة تحمل فوائد عظيمة للبشر في دنياهم وأخراهم.

وقد حاولت في هذا البحث المتواضع بذل جهدي في سبيل إعطاء هذا الموضوع القرآني حقه من الاهتمام والتقدير، وفي سبيل إتمام بحثي هذا وإخراجه لفائدة الطلبة والباحثين، ومن خلال دراسة هذا الموضوع القرآني الشيق والممتع توصلت إلى نقاط مهمة، أودّ ذكرها كنتائج وتوصيات، لعلها تكون مفيدة للطلاب والباحثين في العلوم الشرعية عموما والعلوم القرآنية خصوصا.

❖ أولا: النتائج:

- (١) شغلت المقارنات حيزا كبيرا في القرآن الكريم، وهي منتشرة في ثنايا سوره وأجزائه، إذ لا يكاد يخلو جزء من أجزاء القرآن منها.
- (٢) لقد اتبع القرآن الكريم في عقد هذه المقارنات شروطا وضوابط شتى، ومن أهمها: للموضوعية التامة حيث لم يذكر شيئا إلا بكل حياد وموضوعية، ومنها: الدقة في ذكر أوجه الشبه والاختلاف بين طرفي المقارنة، وتوجيه العقول نحو التفكير والنظر بعين الاعتبار نحو الأمور الواضحة الظاهرة أمام أعين البشر. كما أن من هذه الأصول ذكر الفروق بين طرفي المقارنة بصراحة أحيانا وبالتعريض أحيانا أخرى، وعدم ذكر الفروق أحيانا أخرى، وذلك بالإشارة إلى أن لمة فرق بينهما.
- (٣) ومن أصول المقارنة وضوابطها أيضا في ضوء هذه المقارنات إثبات حقيقة واحدة وإظهار شيء واحد بطرق وأساليب شتى، ليظهر الحق جليا أمام القارئ، ويوصل إلى ما يريد القرآن الكريم إيصاله إليه.
- (٤) إن المقارنات القرآنية نوعان، فمنها ما هو صريح، ومنها ما هو غير صريح، ولكل من الصريح وغير الصريح أساليب وأهداف متنوعة.

(٥) إن المقارنات الصريحة كثيرة في القرآن، حيث يتجاوز عددها عن مائة، لكنها أقل عددا من غير الصريحة. أما غير الصريحة فيصعب حصرها وبيان عددها القطعي، لأن الآراء قد تختلف في ذلك؛ فقد يبدو لباحث في موضع من المواضع أن ثمة مقارنة بين طرفين؛ في حين يظن آخر أنه لا مقارنة هنا، بل إن القرآن يتحدث عن أمرين مختلفين.

(٦) إن القرآن الكريم عقد مقارنة بين كثير من الأمور، وقد اتضح من خلال الدراسة أن مجالات للمقارنة وموضوعاتها في القرآن الكريم متنوعة وكثيرة، ومن أهمها: الإله الحقيقي والمعبودات الباطلة، الإيمان والكفر، والمؤمن والكافر، الجنة ونعيمها والنار وعذابها، العالم والجاهل، أنواع مختلفة من الأطعمة (المن والسلوى وما ثبتت الأرض من البقل والقتاء والثوم وغيرها)، المجاهدون والقاعدون عن الجهاد، المهاجرون والقاعدون عن الهجرة، من آمن وأنفق في سبيل الله قبل فتح مكة، ومن آمن وأنفق بعد فتحها من الصحابة، الدنيا ومتاعها الفاني والآخرة ونعيمها الأبدي، وغير ذلك من أمور قارن بينها القرآن، حتى تجعل الفروق الواضحة بينها أمام أعين الناس، ويتوصلوا بذلك إلى الحقائق التي يريد القرآن إظهارها للبشر، والتي فيها صلاح لهم في الدارين والدنيا.

(٧) للمقارنات القرآنية لها أساليب متنوعة، وكلها بليغة، إذ لا يقل أحدها عن الآخر في الفصاحة والبلاغة، كما أنها جميعا تحققة لأهدافها التي وردت لأجلها في القرآن الكريم.

(٨) إن من أساليب المقارنات الواردة في القرآن الحكيم: أسلوب الاستفهام الإنكاري، والاستفهام التقريري والتوبيخي، وأسلوب طرح السؤال والإجابة عليه، وضرب المثل، والتشبيه والاستعارة، والطباق، وللقابلة، والإطناب، ونفي المساواة بين الطرفين، وبيان خيرية أحد الطرفين واستخدام اسم التفضيل. وهذه الأساليب كلها تندرج تحت المقارنات الصريحة. وأكثر هذه المقارنات (أي: الصريحة) استُخدم فيها الأسلوب المباشر، وذلك إما بنفي المساواة، وإما باستخدام اسم التفضيل، وإما ببيان خيرية أحد الطرفين، وأقل هذه الأساليب استخداما أسلوب الإطناب، فأمثلته نادرة في القرآن.

(٩) ومن أساليب المقارنات غير الصريحة: أسلوب إيجاز الحذف، والربط بين الترهيب والتعقيب والوعد والوعيد، والمقارنة باختيار صفة للطرفين، وذكر النقيضين وما يترتب عليهما، واستخدام أسلوب فيه إنكار وتحكم وتوبيخ معا، والمقارنة بذكر الفروق الواضحة بين الطرفين. وأكثر هذه الأساليب ورودا في القرآن أسلوب الربط بين الترهيب والتعقيب، إذ نجد الأمثلة عليه واردة بكثرة في القرآن كله، أما أقلها استخداما فهو أسلوب لجمع بين الإنكار والتهكم والتوبيخ، إذ تقل الأمثلة عليه في القرآن.

(١٠) هذه الأساليب كلها متداخلة، فقد يدخل موضع واحد من مواضع المقارنة تحت أكثر من أسلوب. فمثلا نجد للمقارنة الواحدة استُخدم فيها أسلوب ضرب المثل مع نوع من أنواع الاستفهام (الإنكاري أو التوبيخي أو التقريري)، وقد يكون في المقارنة نفي للمساواة بين أمرين مع أسلوب من الأساليب البيانية التي سبق ذكرها. والأمثلة على ذلك موجودة في القرآن، وسبق ذكرها في مباحث هذه الدراسة.

(١١) إن للمقارنات في القرآن الكريم أهدافاً كثيرة تسعى إلى تحقيقها، بعضها عامة تُعتبر بمثابة الفوائد العامة للمقارنة ويشترك فيها عدد كبير من مواضع المقارنة، وأخرى خاصة يشترك فيها عدد قليل من المقارنات. ولا يمكن حصر هذه الأهداف، لأنه بالدراسة والتفكير تظهر للقارئ أهداف كثيرة لم يُسبق إليها.

(١٢) من أهم أهداف المقارنات في القرآن: الدعوة إلى الإيمان بالله وتوحيده، وإصلاح عقائد البشر، وبيان رحمة الله وشفقته بعباده، وإثبات ولايته للمؤمنين، وبيان سعة علم الله وقدرته المطلقة، وإثبات عجز كل ما سواه، وإثبات فضيلة الإيمان على الكفر والمؤمن على الكافر، وتشجيع الثابتين على الحق، والحث على اتباع سبيلهم، وإظهار الحقائق وتبيين الأشياء بذكر أضرارها، والدعوة إلى التفكير والتدبر، وبيان ثبات الحق ودوامه وزوال الباطل واضمحلاله، وإقامة الحجة على عباد الله، والتشويق للجنة والتحذير من النار، وغير ذلك من الأهداف الكثيرة.

(١٣) لا شك أن استخدام القرآن الكريم للمقارنة يدل على أهميتها العظيمة وفوائدها الكبرى في توضيح الحقائق للبشر، ولولا هذه الفوائد والحجج لما كثر استخدام القرآن لها.

(١٤) إن في القرآن الكريم مقارنات كثيرة يتشابه موضوعها وأسلوبها، لكن هذا لا يعني أن ثمة تكرار دون فائدة، بل إن لكل موضع خصوصية لا توجد في غيره. فمثلاً: قارن القرآن الكريم في مواضع كثيرة بين الجنة ونعيمها والنار وعذابها مستخدماً أسلوب الربط بين الرغبة والترهيب والوعد والوعيد، لكن في كل مقام أمر بميزة عن غيره. ومثل ذلك أنه وردت مقارنة بين نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار في سورة الأعراف وسورة الكهف وسورة الصافات، لكن هذه المقارنات تختلف فيما بينها، ويدرك ذلك كل ذي لب. فأما المقارنة في سورة الأعراف اهتمت بذكر بعض النعيم للعنوي لأهل الجنة مثل نزع الغل من صدورهم، وكونهم إخواناً جالسين على سرر متقابلين، أما آيات سورة الكهف ففيها اهتمام بذكر لباس أهل الجنة والأساور التي يلبسونها، وفيها أيضاً بيان أن أهل النار تكون النار المحيطة بهم كاللبس لهم. وأما آيات سورة الصافات ففيها اهتمام بذكر طعام أهل الجنة وأهل النار وبيان الفرق الشاسع بينهما. وهذا هو الحال في مواضع المقارنات الأخرى.

(١٥) لا شك أن كل من تتبع المقارنات القرآنية ودرسها موضوعية تامة وفهمها حق الفهم يستنتج أن في الإيمان والتوحيد خير وصلاح للبشرية جمعاء في دينها ودنياها. فالإيمان هو الذي يوفر للإنسان عيشة هنيئة مطمئنة في هذه الحياة الدنياء وهو الذي يقوده إلى الفلاح الأبدي في النار الآخرة. أما الكفر ففيه فساد العيشة الدنيوية كما أنه يقود إلى الخسران الأبدي في الآخرة، ولا شك أن ذلك هو الخسران المبين. وهذا هو ما أثبتته القرآن الحكيم بأساليب وطرق شتى.

(١٦) يتجلى بهذه المقارنات البديعة أيضاً أن الحياة الآخرة هي الحياة الحقيقية، وأما الدنيا فهي لا تساوي شيئاً عند الله، فينبغي عدم التكبر والغرور بما يملكه الإنسان من متاع الدنيا الفاني الذي لا يساوي عند الله جراح بعوضة، بل يجب التطلع إلى ما عند الله الذي لا شك في أنه خير وأبقى.

هذه هي بعض النتائج التي تم التوصل إليها من خلال هذا البحث.

❖ ثانيا: التوصيات:

في ضوء هذه الدراسة المتواضعة أود أن أقدم بعض التوصيات للباحثين وطلبة العلم، وهي:

- دراسة المقارنات القرآنية دراسة شاملة وفق ترتيب للمصحف. فهذه الدراسة تُعتبر ابتدائية في هذا الموضوع، ويُرجى أن يُفتح بها المجال لدراسة المقارنات بأساليب ومناهج مختلفة.
- دراسة الأهداف التي سعت المقارنات إلى تحقيقها دراسة مستقلة، لأن لكل موضع هدف خاص، ولا يمكن جمع الأهداف كلها إلا بدراسة مستقلة تُعقد لهذا الغرض.
- دراسة هذا الموضوع باعتبار مجالات المقارنة وموضوعاتها في القرآن الكريم، وهي كثيرة ومتنوعة، وقد ذُكرت بعضها في نتائج هذا البحث.

هذه هي أهم التوصيات التي وددت أن أذكرها، وأرجو أن تكون ذات فائدة للطلاب والباحثين.

هذا، وأدعو الله أن يجعل هذا البحث مقيدا للباحثين وطلبة العلم، كما أدعوه أن يتقبل مني هذه الدراسة المتواضعة ويجعلها في ميزان حسناتي، ويعفو عن الأخطاء والزلات التي صدرت مني فيها، وأن يجعلها من العلم الذي يُنتفع به بعدي.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

٢٣/٩/٢٠٢٠ م.

الفهرس

وتشمل:

- فهرس الآيات القرآنية.
- فهرس الأحاديث النبوية.
- فهرس الأعلام المترجم لها.
- فهرس المصادر والمراجع.
- فهرس الموضوعات.

أولاً: فهرس الآيات القرآنية

رقم الصفحة	رقمها	الآية	
		• سورة البقرة:	
267	٣	الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ	1
267	٤	وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ...	2
267	٥	أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ إِنَّهُمْ عَلَى صُورَةٍ الْمُبِينِ	3
31، ٣٦	٦	إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ	4
٢٦٧	٧	خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ...	5
٢٦٧	٨	وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ	6
٢٦٧	٩	يُخَذِّعُونَ اللَّهَ وَلِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَذِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ...	7
٢٦٧	١٠	فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ...	8
٢٦٧	١٧	مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا	9
٥٢	٢٤	فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ ...	10
٢٦٩، ١٠٩	٢٥	وَيُنذِرَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنْ لَهُمْ جَنَّاتٌ ...	11
٢٦٩، ١٠٩	٢٨	كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ...	12
٣٠	٤٤	أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ	13
٣٠	٦١	قَالَ أَتَشْتَبِلُونَ الَّذِي هُوَ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ	14
٢٧٠	٧٦	وَإِذَا لَعَنُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَاعْتَدْنَا ...	15
٢٧٢	٩٦	وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَخْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوَاتِهِمْ مِنَ الَّذِينَ أُشْرِكُوا	16
٢٧٣	١٤٠	قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ	17
١٦٣	١٦٥	وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ...	18
٢٧٤	١٧٩	وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ	19
١٠٤	٢٠٤	وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ...	20
١٣٧	٢٠٥	وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا ...	21
١٣٧	٢٠٦	وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ...	22
١٣٧	٢٠٧	وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ أُتُفَاءً لِمَتَاتٍ اللَّهِ ...	23
١٣٧	٢١٦	وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ...	24
٢٥١	٢١٧	يَتَّبِعُونَكَ مِنَ الشُّهُرِ الْحُرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ...	25

26	وَلَا تَكْفُرُوا بِالْمُفْرَكَةِ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ ...	٢٢١	٩٦
27	اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ...	٢٥٧	٩١
28	قَالَ أُولَٰئِكَ مُلْكُ اللَّهِ وَلَٰكِن يُعْطَوْنَ عَلَىٰ	٢٦٠	١٨١ ٢٥٠
29	بِأَيِّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صِدْقَ اللَّهِ بِالَّذِي ...	٢٦٤	٥٢
30	وَمَثَلُ الَّذِينَ يُبْذَلُونَ أَنفُسَهُمْ أَتِغَاءَ تَرَضَاتِ اللَّهِ وَتَقِيَّتَا مِنْ أَنفُسِهِمْ ...	٢٦٥	٢٧٥
31	يَتَحَقَّقُ اللَّهُ أَرْبَابًا وَيَتَرَى الصَّدَقَاتِ ...	٢٧٦	٢٧٥
32	وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ	٢٨٤	١٣٦
			١٦٣
	• سورة آل عمران:		
٣٣	هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ فِيهِ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ ...	٧	١٣٧
٣٤	فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ أُتِغَاءَ الْفِتْنَةِ ...	٧	٢٧٨
٣٥	فَدَحَّانَ لَكُمْ ءَايَةً فِي فَتَنِ الْفِتْنَةِ ...	١٣	١٧٩
٣٦	لَهُنَّ لِلنَّاسِ مِثْلُ الشَّهَادَةِ مِنَ النِّسَاءِ وَالَّذِينَ وَالْفَتَنَةِ الْمُفْطَرَّةَ ...	١٤	٢٨٠
٣٧	لَنْ أَرْجِعْكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَ ۖ لِلَّذِينَ آمَنُوا عِنْدَ رَبِّهِمْ ...	١٥	٢٨٠
٣٨	وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنَهُ بِقِطْعَةٍ بِرُؤُودِهِ إِلَيْكَ ...	٧٥	٢٤١
٣٩	يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ...	١٠٦	٢٨٢
٤٠	وَأَمَّا الَّذِينَ أُتْبِطَتْ وُجُوهُهُمْ فَمَن سَبَّحَهُ اللَّهُ فَهُوَ فِيهَا خَالِدُونَ	١٠٧	٢٨٢
٤١	لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ ...	١١٣	٢٤٠
٤٢	يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَهُمْ يُؤْمِنُونَ بِالْمَعْرُوفِ ...	١١٤	٢٤٠
٤٣	وَأَنتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ	١٣٩	٢٥٨
٤٤	وَلِيَتَحَقَّقَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَحَقَّقَ الْكَافِرِينَ	١٤١	٢٨٣
٤٥	ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغِيثُ طَائِفَةً مِّنْكُمْ ...	١٥٤	١٠٩
٤٦	إِنَّمَا فُرِقَتُمُ السُّيُوفُ بِحُجُوبِ أَوْلِيَاءِهِمْ	١٥٧	١٨٣
٤٧	وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ	١٦١	٣٣
٤٨	أَقَمْنِ اتَّبِعْ رِضْوَانِ اللَّهِ حَقٌّ بَاءَ بِسَخَطِ مِنَ اللَّهِ ...	١٦٢	٣٢
٤٩	هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ	١٦٣	٣٢
٥٠	لَا يَغْفِرُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْإِلَهِ	١٩٦	٢٥٣
٥١	فَتَحَّ قَلِيلٌ ثُمَّ مَاؤُنْهَمُ جَهَنَّمَ ۖ وَبَيْنَ الْجِهَادِ	١٩٧	٢٥٣
٥٢	لَكِنِ الَّذِينَ آمَنُوا رَبُّهُمْ هُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ مِّنْ عِندِهَا الْأَنْهَارُ ...	١٩٨	٢٥٣

● سورة النساء:			
١٢٦	١٣	وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ ...	٥٣
١٢٦	١٤	وَمَنْ يُعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَّقْ خُذْ وَهْ ...	٥٤
٢٨٤	١٧	إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ...	٥٥
٢٨٤	١٨	وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمْ ...	٥٦
١٧٦	٢٧	وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ ...	٥٧
١٨١	٤٥	وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ تَصِيرًا	٥٨
٢٨٦	٤٦	يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا يُخْرِجُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ...	٥٩
٣٢٣	٥٦	كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ	٦٠
١٩٤	٧٧	أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ...	٦١
١٩٣	٧٧	قُلْ مَتَعَ الدُّنْيَا قَلِيلًا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى ...	٦٢
٢٤٦	٨٢	أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكْفُرُوا بِاللَّهِ إِذْ كَانُوا مِنْ عِبَدِ اللَّهِ ...	٦٣
٨٠	٩٥	لَا يَسْتَوِي الْقَائِلُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ ...	٦٤
٢٨٧	٩٧	إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْفَالِغَةُ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ ...	٦٥
٢٨٨	٩٨	إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ ...	٦٦
٢٨٨	٩٩	فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا	٦٧
٢٨٨	١٠٠	وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْتَعًا كَثِيرًا وَسَعَةً ...	٦٨
١١٣	١٥٠	إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا ...	٦٩
١١٣	١٥١	أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا	٧٠
١١٣	١٥٢	وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ...	٧١
٢٢٧	١٦٥	رُسُلًا مُبْتَلِينَ لِقَالِ لَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ	٧٢
● سورة المائدة:			
٢٩٠	١٧	لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ...	٧٣
٢٥٨	٢٧	وَأَنَّهُ عَلَيْهِمْ نَبَأُ ابْنَى آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا ...	٧٤
٢٥٨	٢٨	لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِمٍ بِكَ إِلَيْكَ ...	٧٥
٢٥٨	٢٩	إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبْوَأَ بِإِحْسَنٍ وَأُولَئِكَ فَتَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ...	٧٦
٢٥٨	٣٠	فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ	٧٧
٨٦	١٠٠	قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ طَمَرَةٌ الْخَبِيثِ ...	٧٨
١٦٥	١٠٩	يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ...	٧٩

١٦٥	١١٦	وَاذْ قَالَ اللَّهُ يُوسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ إِنَّكَ مُلْكٌ لِلنَّاسِ ...	٨٠
١٦٥ ١٦٤	١١٦	قَالَ سُبْحَنكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ...	٨١
١٦٤	١١٧	مَا قُلْتُ هُمْ إِلَّا مَا أَمَرَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ...	٨٢
• سورة الأنعام:			
١٦٣	١٨	وَهُوَ الْغَافِرُ فَوقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ	٨٣
٢٩١	٣٢	وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ...	٨٤
٢٥٢	٣٣	قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ...	٨٥
٢٤٧	٥٠	قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ	٨٦
١٦٣	٥٩	وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ...	٨٧
٦٧	١٢١	وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجِدُواكُمْ	٨٨
٢٠٥ ، ٢٦٦ ، ٢٥	١٢٢	أَوْ كُنْ كَانَ مِثْلًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ...	٨٩
٢٣٥	١٢٥	فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ...	٩٠
٢٣٥ ، ٢٠٥	١٢٥	وَمَنْ يُرِدِ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا مَلِكًا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ	٩١
١٧٧	١٥٣	وَأَنْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ ...	٩٢
١٧٦	١٦٠	مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَلِهَا ...	٩٣
• سورة الأعراف:			
٢٩٣	٨	وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ۖ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ	٩٤
٢٩٣	٩	وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ...	٩٥
٢١٧	٣٨	قَالَ أَفْعَلُوا لِيَ أَمِمْ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْحَيِّ وَالْإِنْسِ ...	٩٦
٢١٧	٣٩	وَقَالَتْ أُولَهُنَّ لِأَخْرَجْنَهُنَّ مِمَّا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ ...	٩٧
٢١٧	٤٠	إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَآمَنُوا بِهَا ...	٩٨
٢١٨	٤١	لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ	٩٩
٢١٨	٤٢	وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ...	١٠٠
٢١٨	٤٣	وَنَرْزُقُهَا مَائًا مِنْ صُنُوبِهِمْ مِنْ خِلْفِ بَحْرٍ مِنْ تَحْتِهِمْ أَلَّا تَهْتَرُوا ...	١٠١
٢٩٤	٥٨	وَالَّذِينَ ظَلَمُوا نُجِزُهُمْ فِي عَذَابِهِمْ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ...	١٠٢
١٥٦	٩٧	أَوَافِينَ أَفْعَلُ الْقُرَىٰ أَنْ يُأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ	١٠٣
١٥٦	٩٨	أَوَافِينَ أَفْعَلُ الْقُرَىٰ أَنْ يُأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَنُونَ	١٠٤
١٧٥	١٥٦	وَرِجْنِي وَسِعَتْ كُلُّ شَيْءٍ	١٠٥
١٨٨	١٧٩	أُولَٰئِكَ سَجَّاتُ الْعَرْشِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاقِلُونَ	١٠٦

٢٩٦، ١٨١	١٩٦	١٠٧	وَإِنِّي إِلَهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ
٢٩٦	١٩٧	١٠٨	وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لِمُحَرِّكَكُمْ...
			• سورة الأنفال:
١٩٩	١٩	١٠٩	وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ
			• سورة التوبة:
٤٥، ٢٥	١٩	١١٠	أَجْعَلْكُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ...
٤٥	٢٠	١١١	الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ...
٤٥	٢١	١١٢	يُؤْتِيهِمْ رِزْقَهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَيَرْضَوْنَ وَجَّهَتْ لَهُمْ فِيهَا نِعَمٌ مُبِينٌ
٤٥	٢٢	١١٣	خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ
٢٩٧	٤٠	١١٤	وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ...
٢٩٨	٥٨	١١٥	وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا ...
٢٩٨	٥٩	١١٦	وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا ءَانَهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ...
٣٠٠	٦٧	١١٧	الْمُتَّقِينَ وَالْمُتَّقِينَ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ...
٣٠٠	٦٨	١١٨	وَعَدَ اللَّهُ الْمُتَّقِينَ وَالْمُتَّقِينَ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ ...
٣٠٠	٦٩	١١٩	كَانَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً ...
٣٠٠	٧٠	١٢٠	لَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمَ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ...
٣٠٠	٧١	١٢١	وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ...
٣٠٠	٧٢	١٢٢	وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ...
٧١	٨٠	١٢٣	أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ
٧٢	٨٢	١٢٤	فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا
١٥٨	١٠٧	١٢٥	وَالَّذِينَ آمَنُوا فَسْجُدُوا سَجْدًا هَاشِرًا وَكُفَرُوا وَتَفَرَّقُوا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ
١٥٧	١٠٩	١٢٦	أَقْسَمُ أَلسِنَتُ بَيْنِيكُمْ عَلَى ثِقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ ...
١٥٨، ١٥٧	١١٠	١٢٧	لَا نَزَالَ مِنْهُمْ إِلَهِي نَبَأَ رَبِّهِ فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ...
			• سورة يونس:
٢٤٥	١٢	١٢٨	وَإِذَا مَنِ الْإِنْسَانُ أَلْفُ دَعَاءًا لِحَبِيبِهِ ...
١٧، ١٦	٢٤	١٢٩	إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْ مِنَ السَّمَاءِ فَاحْتَلَطَ بِهِ ...
٣٠٢	٢٦	١٣٠	لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْخَيْرَ وَزِيَادَةٌ ...
٣٠٣، ٣٠٢	٢٧	١٣١	وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ...
١٧٠	٣٤	١٣٢	قُلْ عَلَيَّ مِنْ شَيْءِكُمْ لَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ...

١٧٠	٣٥	قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ...	١٣٣
١٨٣	٦٢	أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ	١٣٤
١٨٣	٦٣	الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَكْفُونَ	١٣٥
١٨٣	٦٤	كُفَّ الَّذِينَ فِي الْخَبَرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ	١٣٦
١٥	٦٧	كُلُّ الَّذِينَ يَحْتَلُّ لَكُمْ الْيَمْلُ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَسْتَمِرُّونَ ...	١٣٧
٢٨٦	٩٠	حَتَّىٰ إِذَا أَذْبَحُ الْقُرْبَانَ قَالَ هَاجِرَةٌ ...	١٣٨
٢٨٦	٩١	يَا أَلَسَ وَفَدَّ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكَنتَ مِنَ الْفَاسِقِينَ	١٣٩
• سورة هود:			
٦٣	١٨	وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ...	١٤٠
٦٣	١٩	الَّذِينَ يَصْنَعُونَ غَنًّا سَبِيلَ اللَّهِ وَيَتَّبِعُونَ غَايَةً ...	١٤١
٦٣	٢٠	أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ...	١٤٢
٦٣	٢١	أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْهَمُونَ	١٤٣
٦٣	٢٢	لَا يَجْزِيكَ عَنْهُمْ فِي الْآخِرَةِ كُفُّهُمْ أَصْحَابُ الْأَعْنَابِ	١٤٤
٦٤	٢٣	إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رِجْمِهِ ...	١٤٥
٦٤	٢٤	مَنْ قُلُوبُهُمْ مُّكْلِيفٌ مَّا تَتْلُو وَلَا يَذْهَبُونَ عَنِ آلَاءِ اللَّهِ وَآيَاتِهِ ...	١٤٦
٧٤	١٠٥	يَوْمَ تَأْتِي لَا تَجِدُ لِكُلِّ شَيْءٍ قِيَمًا وَلَا يَدْرِيهِ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيقٌ وَسَعِيدٌ	١٤٧
٧٤	١٠٦	فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَمِنْهُمْ ثَلَاثَةٌ لَّهُمْ فِيهَا زَبَدٌ وَلَجٌّ	١٤٨
٧٤	١٠٧	خَالِدِينَ فِيهَا مَا كَانَتِ السَّمُوتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ...	١٤٩
٧٤	١٠٨	وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَوْا فَمِنْهُمْ جُنتانِ يَخْلِفَانِ فِيهَا ...	١٥٠
٢٠٨	١١٢	فَمَا تَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ فَتَكُنْ لَهُ زَكَاةً وَأَنْتَ تَعْلَمُ	١٥١
• سورة يوسف:			
١٥٢، ٢٦	٣٩	يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَزْيَابٌ مُّتَعَدِّجُونَ خَيْرٌ أَمْ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ	١٥٢
١٥٢	٤٠	مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاءُكُمْ ...	١٥٣
١٠٤	٨٢	وَسَلِّ الْقُرْآنَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا	١٥٤
• سورة الرعد:			
٢٢٨	١٦	قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ	١٥٥
٢٥٩	١٧	أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتَخَالَتِ الْوُودُودَ بِقُرُونِهِ ...	١٥٦
٣٠٥	١٨	لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ أَجْرٌ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ ...	١٥٧
١٨٧	١٩	أَجْرٌ ۖ نَعْلَمُ أَنَّكَ أَنْزِلْتَ إِلَيْنَا مِنَ رَبِّكَ الْحَقَّ مُحْكَمًا ...	١٥٨

١١٨	٢٠	الَّذِينَ يُوقُونَ بَعْدَ اللَّهِ وَلَا يُفْضِلُونَ أَلَمِيقًا	١٥٩
١١٨	٢١	وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ...	١٦٠
١١٨	٢٢	وَالَّذِينَ صَبَرُوا أَبَعَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ...	١٦١
١١٨	٢٣	جَعَلَتْ عَذَابَ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ عِبَادِنَا ...	١٦٢
١١٨	٢٤	سَلَّمَ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ ۖ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ	١٦٣
١١٨	٢٥	وَالَّذِينَ يُفْضِلُونَ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيقَاتِهِ وَيُقْطَعُونَ ...	١٦٤
٣٥٢	٢٨	الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ۚ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ	١٦٥
١٠٥	٣٣	أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ...	١٦٦
• سورة إبراهيم:			
٦٣	١	كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ	١٦٧
٣٠٦	٧	وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ...	١٦٨
٥٤، ٥٣	٢٤	أَمْ تَرَى كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ...	١٦٩
٥٣	٢٥	تُؤْتِي أَكْثَرَهَا ثَمَرًا ۚ لَئِنْ يَأْذَنَ رَبُّهَا ۚ وَتَضْرِبَ اللَّهُ الْاِنْشَاءَ ...	١٧٠
٥٤، ٥٣	٢٦	وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ ...	١٧١
١٨٣	٢٧	يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ...	١٧٢
• سورة الحجر:			
٣٠٨	٤٩	يَسْأَلُ عِبَادِي أَتَى أَنَا الْعَقُورُ الرَّحِيمُ	١٧٣
٣٠٨	٥٠	وَأَنْ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ	١٧٤
• سورة النحل:			
٧٤، ٧٢	١٧	أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ۚ أَفَلَا تُدْعَوْنَ	١٧٥
١٧٥	١٨	وَأَنْ تَعْبُدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا	١٧٦
٣٠٩	٢٤	وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ ۖ قَالُوا سَطِيرُ الْأَوَّلِينَ	١٧٧
٣٠٩	٢٥	لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ ...	١٧٨
٣٠٩	٢٦	قَدْ عَصَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَنَّى اللَّهُ بُنِيتُهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ ...	١٧٩
٣٠٩	٢٧	ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخَذُّونَ مِنْهُمْ وَيُقَالُ لِمَنْ شَرَكَاهُ ...	١٨٠
٣٠٩	٢٨	الَّذِينَ تَتَوَفَّيهِمُ الْمَلَائِكَةُ طَالِعِينَ أَنْفُسِهِمْ ...	١٨١
٣٠٩	٢٩	فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ...	١٨٢
٣٠٩	٣٠	وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ ۖ قَالُوا خَيْرٌ ...	١٨٣
٣٠٩	٣١	جَعَلَتْ عَذَابَ يَدْخُلُونَهَا فَخَرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ...	١٨٤

٣٠٩	٣٢	الَّذِينَ تَتَوَكَّلُ عَلَيْهِمْ الْمَلَائِكَةُ أُولَئِكَ يُقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ...	١٨٥
١٥٦	٥٢	أَفَتَعْتَبِرُ اللَّهَ تَتَّقُونَ	١٨٦
١٩٣	٦٩	مَا عِنْدَكُمْ يَنْقَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ	١٨٧
٣١١	٧٥	ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ ...	١٨٨
٣١٣	٧٦	وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ ...	١٨٩
١٧٥	٨٠	وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ مَسْكَناً ...	١٩٠
١٧٥	٨١	وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَلْمِثَالِ أَكُنْتُمْ ...	١٩١
● سورة الإسراء:			
١٣٢	١٢	وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ ۚ فَتَجَوَّزَا عَنْهُ اللَّيْلَ ...	١٩٢
٣١٤	١٨	مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْغَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِأَمْرِ تُرِيدُ ...	١٩٣
٢١٤	١٩	وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ...	١٩٤
٣١٤	٢٠	كُلًّا نُبَذُ هَكَذَا هَكَذَا مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ...	١٩٥
٣١٤	٢١	أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ...	١٩٦
٦٣	٢٤	وَأَخْفِضْ لِمَا يَنْتَازِعُ الدَّلَّ مِنْ الرِّمَّةِ	١٩٧
٣٥١	٤٦	وَإِذَا ذُكِرْتِ رَبِّكَ فِي الْمَقَرَّةِ إِنْ وَخَدْتُمْ وَأَنْتُمْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ تُفْهَرُونَ	١٩٨
٢٦٢، ٢٦١	٨١	وَقُلْ بَاءَ مَنْ سَأَلَ وَذَقَ الْبُطْلَ ۚ إِنَّ الْبُطْلَ كَانَ زَهُوًّا	١٩٩
● سورة الكهف:			
١٦	٩	أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا	٢٠٠
١٦	١٠	إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ...	٢٠١
١٦	١١	فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا	٢٠٢
١٦	١٢	ثُمَّ بَدَّلْنَاهُمْ لِنُعَلِّمَ أَتَى الْكَاهِنُ الرِّقْمَ أَهْضَى لَمَّا لَبِثُوا أَمْدًا	٢٠٣
١٦	١٣	ثُمَّ نَقَصْ عَلَىكَ نُبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى	٢٠٤
٣١٦	٢٩	إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ...	٢٠٥
٣١٦	٣٠	إِنَّ الْإِنْسَانَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ ...	٢٠٦
٣١٦	٣١	أُولَئِكَ لَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ خَلْقًا فَجَعَلَ مِنْ خَلْقِهِمُ الْأَنْثَرُ ...	٢٠٧
٣١	٤٩	وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُسْلِمِينَ مُشْفِقِينَ بِمَا فِيهِ ...	٢٠٨
٣٢٧، ١٩٥	١٠٨	خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَتُغَوَّى عَنْهَا جَوْلًا	٢٠٩
● سورة مريم:			
٣٢٠	٥٨	أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ ...	٢١٠

٢١١	٥٩	فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَةَ ...	٣٢٠
٢١٢	٦٢	لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لُعَاةَ إِلَّا سَلَسًا	٣٦٥
٢١٣	٨٢	كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِيقًا	٢٣٣
٢١٤	٩٠	تَكَادُ السَّمُوتُ يَنْقَطِعُونَ مِنْهُ فَيَمْنَحُ الْأَرْضُ وَنَعِيرُ الْجِنَالِ هَذَا	١٤٢
٢١٥	٩١	أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَنَا	١٤٢
● سورة طه:			
٢١٦	٧٤	إِنَّهُمْ مِنْ بَابِ رَبِّهِمْ يُجْرَمُونَ فَإِنْ لَهُمْ عِثْرٌ لَأَسْتَفْتِي	٣٢٢
٢١٧	٧٥	وَمَنْ يَأْتِيهِمْ مَوْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ ...	٣٢٢
٢١٨	٧٦	جَعَلْتُ عَذِينَ بَحْرِي مِنْ عَثَرِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ...	٣٢٢
٢١٩	93	أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي	٣٨
٢٢٠	١٢٣	فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْغَى	١٧٢
٢٢١	١٢٤	وَمَنْ أَعْرَضَ عَنِّي فَسَأَكُونُ لَهُ مَعِيشَةٌ ضَنْكًا ...	١٧٢
● سورة الأنبياء:			
٢٢٢	١٨	بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْكَافِرِ فَيَنْقَعُ فَيَاقُذُ هُوَ زَاهِقٌ ...	٢٦٣
٢٢٣	٢٢	لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا	٢٢٧
٢٢٤	٣٤	وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَأَإِنَّمَا يَمُوتُ فَهُمْ يُبْذَلُونَ	٨٠
٢٢٥	٣٥	كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ	٨٠
٢٢٦	٩٨	إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حُصُوبَ جَهَنَّمَ ...	٣٢٣
٢٢٧	٩٩	لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَفَوْهُمْ شَيْءٌ فَذَرْهُمْ خَالِفُونَ	٣٢٣
٢٢٨	١٠٠	هُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ	٣٢٣
٢٢٩	١٠١	إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ	٣٢٣
٢٣٠	١٠٢	لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَتَهَا ...	٣٢٣
٢٣١	١٠٣	لَا يُخْزِيهِمْ الْقَرْعُ الْأَكْبَرُ وَتَوَلَّوْنَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ...	٣٢٣
● سورة الحج:			
٢٣٢	١٩	هَٰذَانِ حَصَنَايَ أَخْتَصِمُوا فِي رِجْمٍ ...	٣٦٥
٢٣٣	٢٠	يُضْمَرُ بِهِمَا فِي يَطْوِيْنَهُمْ وَأَجْلَوْدُ	٣٦٥
٢٣٤	٢١	وَهُمْ مَقْمَرٌ مِنْ حَلِيدٍ	٣٦٥
٢٣٥	٢٢	كَلِمًا أَرَادُوا أَنْ يَخْرِجُوا مِنْهَا مِنْ عَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا ...	٣٦٥
٢٣٦	٢٣	إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ الْأَلْبِينِ عَالَمُهَا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ حَسْبُ ...	٣٦٥

٢٣٧	٢٤	وَهَلُّوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهَلُّوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ	٢٢٥
٢٣٨	٦٥	وَتَسْلُكُ السَّيِّئِ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ	١٤٣
٢٣٩	٧٣	يَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرِبَ مِثْلَ قَاسِقٍ فَلَهُمْ ...	١٦٣، ١١٦، ٥٢
٢٤٠	٧٤	مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَعَزِيزٌ نَذِيرٌ ٧٤	١٦٣، ١١٦
٢٤١	٧٥	اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِمَّنَ النَّاسِ ...	١٦٣
٢٤٢	٧٦	يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ أَلَيْسَ لَهُمْ عِلْمٌ بِمَا يُخْلَقُ ۚ وَهُوَ الَّذِي يُزْجِي الْأُمُورَ	١٦٤
● سورة المؤمنون:			
٢٤٣	١	قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ	٢٠٧
٢٤٤	٢	الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ	٢٠٧
٢٤٥	٣	وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ	٢٠٧
٢٤٦	٤	وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ	٢٠٧
٢٤٧	٥	وَالَّذِينَ هُمْ لِقُرْآنِهِمْ خَاشِعُونَ	٢٠٧
٢٤٨	٦	وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ذُنُوبِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ	٢٠٧
٢٤٩	٧	فَمَنْ أَتَّبَعْنِي وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاعِلُونَ	٢٠٧
٢٥٠	٨	وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ	٢٠٧
٢٥١	٩	وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يَتَأَفَّفُونَ	٢٠٧
٢٥٢	١٠	أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ	٢٠٧
٢٥٣	١١	الَّذِينَ لِرَبِّهِمْ الْفِرْدَوْسُ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ	٢٠٧
٢٥٤	٥٤	لَهُمْ فِي عَمُرِهِمْ حَقٌّ حَتَّى	٢٠٨
٢٥٥	٥٥	أَتَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِلُّهُمْ بِهٍ مِنْ ثَمَرٍ وَبَيْنَ	٢٠٨
٢٥٦	٥٦	نُسُفٍ هُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ	٢٠٨
٢٥٧	٥٧	إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ	٢٠٨
٢٥٨	٥٨	وَالَّذِينَ هُمْ بِإِيمَانٍ مِنْ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ	٢٠٨
٢٥٩	٥٩	وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ	٢٠٨
٢٦٠	٦٠	وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَاوَا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَّةٌ أُنْزِلَتْ إِلَى رَبِّهِمْ يَرْجِعُونَ	٢٠٨
٢٦١	٦١	أُولَئِكَ يُسَبِّحُونَ فِي الْحَمْدِ وَهُمْ لَا يَسْقُونَ	٢٠٨
● سورة النور:			
٢٦٢	٢٦	الْمُحْسِنَاتِ لِلْغَيْبِ الْمُبِينِ وَالْمُحْسِنِينَ لِلْغَيْبِ الْمُبِينِ ...	٣٢٨
● سورة الفرقان:			

٢٦٣	١٠	٤٤	تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ ...
٢٦٤	١٥	٤٣	قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخَالِدِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ ...
٢٦٥	١٦	٤٣	لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ۖ كَانَ عَلَىٰ رِجَالِكَ وَهَذَا مَثْبُوتًا
● سورة الشعراء:			
٢٦٦	٧١	١٦٦	قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظُرُ لَهَا عَنْكَبِيرِينَ
٢٦٧	٧٢	١٦٦	قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُم إِذْ تَدْعُونَ
٢٦٨	٧٣	١٦٦	أَوْ يَنْصَرُّونَكُمْ أَوْ يَكْفُرُونَ
٢٦٩	٧٤	١٦٦	قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا بَابَهُ كَاذِبًا كَذِبًا يَفْعَلُونَ
٢٧٠	٧٥	١٦٦	قَالَ الْفَرَةِ نُسَمِّ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ
٢٧١	٧٦	١٦٦	أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ
٢٧٢	٧٧	١٦٧	فَأَنذَرْتَهُمْ غَلَوِيَّ إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ
٢٧٣	٧٨	١٦٧	الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِي
٢٧٤	٧٩	١٦٧	وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي
٢٧٥	٨٠	١٦٧	وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي
٢٧٦	٨١	١٦٧	وَالَّذِي يُخْرِجُنِي مِمَّنْ يَبْغُونَ
٢٧٧	٨٢	١٦٧	وَالَّذِي أَوْفَّقَنِي أَنْ أَعْلَمَ أَنَّ يُغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ
٢٧٨	٩٠	٣٢٩	وَأَنزَلَتْ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ
٢٧٩	٩١	٣٢٩	وَبَرَزَتْ الْجَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ
● سورة النمل:			
٢٨٠	٤٠	٣٣٠	يَسْتَلْقُونَ ۚ وَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۚ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ...
٢٨١	٥٩	٣٩	قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اسْتَطَاعُوا
٢٨٢	59	٣٩	وَاللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ
٢٨٣	60	٣٩	أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ...
٢٨٤	61	٣٩	أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا ...
٢٨٥	62	٣٩	أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ...
٢٨٦	63	٣٩	أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ...
٢٨٧	64	٣٩	أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ ...
٢٨٨	65	٣٩	قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ...
٢٨٩	٨٠	٣٣١	إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ

٢٩٠	وما أنت بملهى العُمرى من ضلالتهم ...	٨١	٣٣١
٢٩١	ألم يروا أنا جعلنا الليل ليستكنوا فيه والنهار مبصرًا ...	٨٦	١٧٨
● سورة القصص:			
٢٩٢	ولولا أن نصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم ...	٤٧	٢١٢
٢٩٣	فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى ...	٤٨	٢١٢
٢٩٤	فلما قالوا يكتب من عند الله هو أهدى منها ...	٤٩	٢١٢
٢٩٥	فإن لم تستحيوا لك فاعلم أنكم يتشبهون أهواءهم ...	٥٠	٢١٢
٢٩٦	ولقد وصلناهم القول لعلمهم يتذكرون	٥١	٢١٢
٢٩٧	الذين ءاتينهم الكتاب من قبلي هم به يؤمنون	٥٢	٢١٢
٢٩٨	وإذا يئس عليهم قالوا ءامنا به وإنه الحق من ربنا ...	٥٣	٢١٢
٢٩٩	أولئك يؤثرون أجركم مرتين بما صبروا ...	٥٤	٢١٢
٣٠٠	وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ...	٥٥	٢١٢
٣٠١	أنصن وعدته وعدنا حسنا فهو لقيه كمن منته منتهى الدنيا ...	٦١	٢٥٥
٣٠٢	قل أرى أنتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدًا ...	٧١	١٧٩، ٣٣٣
٣٠٣	قل أرى أنتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدًا ...	٧٢	١٨٠، ٣٣٣
٣٠٤	ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار ليستكنوا فيه ...	٧٣	٣٣٣
٣٠٥	وأتبع فيما ءاتك الله الدار الآخرة بولا تمن نصيبك من الدنيا	٧٧	١٩٨
٣٠٦	فحسبنا به وبنداره الأرض ..	٨١	١٠١
● سورة العنكبوت:			
٣٠٧	إنما تعبدون من دون الله آوتنا ونخلقون إنا ...	١٧	٣٣٤
٣٠٨	وذلك الأمتل نضربها للناس وما يعقلها إلا العليمون	٤٣	٥١
٣٠٩	وما هلدو الحياة الدنيا إلا هو ولعبت ...	٦٤	١٩٦
٣١٠	فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ...	٦٥	٢٤٥
● سورة الروم:			
٣١١	أولم يسمروا في الأرض فنبطروا كيف كان عقبة الذين من قبلهم ...	٩	٣٣٧
٣١٢	فمن يهدي من أهلك الله	٢٩	٣٠
٣١٣	وإذا أدقنا الناس راحة فرحوا بما ءاتوا نصيبهم سبيكة ...	٣٦	٢٤
٣١٤	وما ءاتينهم من ربه ليزبنوا في أمول الناس فلا يرون عند الله ...	٣٩	١٣٤
٣١٥	الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم ...	٤٠	١٥٤

٧٤	٢٥	• سورة لقمان:	٣١٦
		وَلَيْسَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ	
٢١٦	١٧	• سورة السجدة:	٣١٧
٤٨	١٨	فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ	٣١٨
٤٨	١٩	أَلَمْ يَكُنْ كَانَ مُلْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا ۚ لَا يَسْتَوُونَ	٣١٩
٤٨	٢٠	أَنَا الَّذِينَ ءَاتَيْنَا وَعَبَلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ... وَأَنَا الَّذِينَ قَسَبُوا فَمَا أُولَهُمْ النَّارُ...	٣٢٠
		• سورة الأحزاب:	
٣٣٨	١٩	فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَقْظُونَ إِلَيْكَ ...	٣٢١
٣٣٨	٢٠	يَحْتَسِبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَنْهَبُوا ...	٣٢٢
٣٣٨	٢١	لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ...	٣٢٣
٣٣٩	٢٢	وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ ...	٣٢٤
٣٤٠	٧٣	يُخَذِّبُ اللَّهُ الْمُتَّقِينَ وَالْمُتَّقِينَ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكِينَ...	٣٢٥
		• سورة سبا:	
٨٧	١٣	وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ	٣٢٦
٣٤٢	٢٢	قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ رَزَقْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ ...	٣٢٧
٣٤٢	٢٣	وَلَا تَمْنَعِ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ...	٣٢٨
٣٤٢	٢٤	قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ قُلِ اللَّهُ ...	٣٢٩
٣٤٢	٢٥	قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أُجْرِمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا نَعْمَلُونَ	٣٣٠
٣٤٢	٢٦	قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ ...	٣٣١
٣٤٢	٢٧	قُلْ أَزِيدُ الَّذِينَ أَحْبَبْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ ۚ كَلَّا ...	٣٣٢
٢٦٩، ٢٥٨	٤٩	قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِي الضَّالُّونَ وَمَا يُعِيدُ	٣٣٣
		• سورة فاطر:	
١٩٧	٥	بِأَيِّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرُّكُمْ الْآيَةُ الَّذِينَ	٣٣٤
٢٤٩	٨	أَفَضَلُ لَكُمْ سَوْءَ عَمَلِهِمْ قُرْءَانًا حَسَنًا ...	٣٣٥
٢٥٠	٨	فَلَا تَلْعَبْ بِنَفْسِكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتِكَ	٣٣٦
٧٦	١٢	وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذَابٌ مُّزِيدٌ شَرَابُهُمْ وَهَٰذَا...	٣٣٧
٢٣١	١٣	يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ ...	٣٣٨

٢٣١	١٤	إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْتَجِيبُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ...	٣٣٩
٢٠١، ٢٦	١٩	وَمَا يَسْتَجِيبُوا لَكَ إِلَّا غَيًّا وَالتَّصْمِيمُ	٣٤٠
٢٠١، ٢٦	٢٠	وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ	٣٤١
٢٠١، ٢٦	٢١	وَلَا الظُّلُ وَلَا الْحَرُورُ	٣٤٢
٢٠١	٢٢	وَمَا يَسْتَجِيبُوا لَكَ إِلَّا خِيَانًا وَلَا أَلْفَاظًا مِنْ أَلْفَاظٍ يَنْشَأُ...	٢٤٣
٢٠١	٢٣	إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ	٣٤٤
٢٥٢	٢٥	وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ...	٣٤٥
٢٥٢	٢٦	لَمْ أَخْلُذْ بِالَّذِينَ حَقَرُوا ۚ فَكَيْفَ كَانَ لَكُمْ	٣٤٦
٣٤٩	٢٨	إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ	٣٤٧
١٢٨	٣٣	جَعَلْتَ عَذَابَ النَّارِ لِمَنْ يُخْلِقُهَا لَكُمْ فِيهَا مِنْ أَنْثَارٍ مِنْ حَقَبٍ...	٣٤٨
١٢٨	٣٤	وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ الْإِنْسَانَ أَضْيَقَ غِنًى الْحَقُّ ۚ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ	٣٤٩
١٢٨	٣٥	الَّذِي أَخْلَقْنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ...	٣٥٠
١٢٨	٣٦	وَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ بِأَرْحَامِهِمْ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا...	٣٥١
١٢٨	٣٧	وَهُمْ بِمُضْطَرَحُونٍ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا...	٣٥٢
١٤٠	٤٠	قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ...	٣٥٣
١٤٠	٤١	إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا...	٣٥٤
• سورة يس:			
٣٤٤	٥٥	إِنْ أَصْحَابَ الْجُنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِهِونَ	٣٥٥
٣٤٤	٥٦	هُمْ وَأَرْوَاحُهُمْ فِي ظُلُلٍ عَلَى الْأَرْبَابِ مُشْكُونِ	٣٥٦
٣٤٤	٥٧	لَهُمْ فِيهَا فَكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ	٣٥٧
٣٤٤	٥٨	سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ	٣٥٨
٣٤٤	٥٩	وَانْتَحَرُوا الْيَوْمَ أَيْهَا الْمَجْرُمُونَ	٣٥٩
٣٤٤	٦٠	أَلَمْ أَعْهِدْ إِلَىٰكُمْ يَبْنَىٰءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ...	٣٦٠
٣٤٤	٦١	وَأَنْ أَعْبُدُونِي ۚ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ	٣٦١
٣٤٤	٦٢	وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۚ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ	٣٦٢
٣٤٥	٦٣	هَالِكِهِمْ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ	٣٦٣
٣٤٥	٦٤	أَسْأَلُوكَ النَّارَ أَنْ تَبْعِيَهُمْ فَتُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ...	٣٦٤
٣٤٥	٦٥	الَّتِي كُنْتُمْ تُكْفَرُونَ	٣٦٥
٣٣٦	٧٤	الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ آلِهِمُ وَتَكْلِمُنَا لَا يَمْلِكُهُمْ...	٣٦٥
		وَنُخَلِّدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَآيَاتُ اللَّهِ لَظُهُورٌ يُصْهِرُونَ	٣٦٦

٣٦٧	لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ	٧٥	٣٣٦
● سورة الصافات:			
٣٦٨	إِلَّا عِندَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ	٤٠	٢٢٢
٣٦٩	أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ	٤١	٢٢٢
٣٧٠	فَوْقَهُ يَوْمَهُمْ مُكْرِمُونَ	٤٢	٢٢٢
٣٧١	فِي حَبْطِ النَّعِيمِ	٤٣	٢٢٢
٣٧٢	عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ	٤٤	٢٢٢
٣٧٣	يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ	٤٥	٢٢٢
٣٧٤	يُبَاشِّرُهُمُ الْمَلَائِكَةُ بِالسَّلامِ	٤٦	٢٢٢
٣٧٥	لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ	٤٧	٢٢٢
٣٧٦	وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ	٤٨	٢٢٢
٣٧٧	مِثْلَهُنَّ بَيْنَهُمْ يُكَلِّمُونَ	٤٩	٢٢٢
٣٧٨	فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ	٥٠	٢٢٢
٣٧٩	قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ	٥١	٢٢٢
٣٨٠	يَقُولُ أَهْلَكَ لَمَنِ الْفَضْلَيْنِ	٥٢	٢٢٢
٣٨١	أَوَدَا بَيْنَنَا وَكَانَا تَرَاهُ وَعِظَمًا أَوْثَقًا لَقَدْ يَمُونُ	٥٣	٢٢٢
٣٨٢	قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ	٥٤	٢٢٢
٣٨٣	فَاتَّخَذَ قَرِينَهُ فِي سَوَاءٍ الْجَحِيمِ	٥٥	٢٢٢
٣٨٤	قَالَ نَكَلَإِنَّكَ إِذْ كُنْتَ لَقْرِينَ	٥٦	٢٢٢
٣٨٥	وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْخَاسِرِينَ	٥٧	٢٢٢
٣٨٥	أَفَمَا نَحْنُ بِمَعِينٍ	٥٨	٢٢٣
٣٨٦	إِلَّا مَوَاقِفُ الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّينَ	٥٩	٢٢٢
٣٨٧	إِنَّ هَذَا هُوَ الْفُورُ الْعَظِيمُ	٦٠	٢٢٢
٣٨٨	لِيُفْلَ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ	٦١	٢٢٢
٣٨٩	أَذَلَّكَ خَيْرٌ لَكَ أَمْ شَجَرَةُ الزَّيْتُونِ	٦٢	٢٢٢
٣٩٠	إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ	٦٣	٢٢٢
٣٩١	إِنَّمَا شَجَرَةُ الزَّيْتُونِ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ	٦٤	٢٢٢
٣٩٢	طَلَعَتْ مِنْ أَكْثَرِ الْأَرْضِ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ	٦٥	٢٢٢
٣٩٣	فَأَنَّهُمْ كَانُوا مِنْهَا فَعَالُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ	٦٦	٢٢٢

٢٢٢	٦٧	لَمْ يَكُ لَكُمْ عَلَيْهَا أَنْتَوْنَ مِنْ حَيْمٍ	٣٩٤
٢٢٢	٦٨	لَمْ يَكُ لَكُمْ تَرْجُهُمْ إِلَى الْجَحِيمِ	٣٩٥
٣١	٩١	فَرَأَى إِلَى عَالَمِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ	٣٩٦
٣١	٩٢	مَا لَكُمْ لَا تَنْطِفُونَ	٣٩٧
٣٨	95	قَالَ اتَّقِبُونَ مَا تَسْجُونَ	٣٩٨
٣٨	96	وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ	٣٩٩
● سورة ص:			
٣٦	٢٧	ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا	٤٠٠
٣٥	٢٨	أَمْ تَحْجَلُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْفُفْسِيِّنَ فِي الْأَرْضِ...	٤٠١
٣٥٤	٥٠	سَجَّاتِ عَذَابٍ مُفْتَحَةٍ لَّهُمُ الْأَنْبُوبُ	٤٠٢
● سورة الزمر:			
٣٤٧	٨	وَإِذَا مَرَّ الْإِنْسَانُ حُزْرًا دَعَا رَبَّهُ مُبِينًا إِلَيْهِ ...	٤٠٣
٣٤٩	٩	مَنْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ...	٤٠٤
٢٠٣	٢٢	أَفَمَنْ هَرَّعَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ	٤٠٥
١٠٧	٢٤	أَفَمَنْ يَتَّبِعِ بَوَاحِشَهُ مِنْ غَدَابَةِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ...	٤٠٦
٥١	٢٧	وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ	٤٠٧
١٨٧، ٥٨	٢٩	حُزِرَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِمُونَ ...	٤٠٨
١٨٩	٣٨	وَلَقَدْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ...	٤٠٩
٣٥٠	٤٥	وَإِذَا ذُكِّرَ اللَّهُ وَحْدَهُ آمَنَّا بِقُلُوبِ الْكَافِرِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ...	٤١٠
١٧٠	٥٣	وَأَتَيْنَاهَا آخِسِينَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ...	٤١١
٣٥٢	٧١	وَيَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا ...	٤١٢
٣٥٢	٧٢	فَيَلْأَلُوا أَوْتَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ...	٤١٣
٣٥٢	٧٣	وَيَسِيقَ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ...	٤١٤
٣٥٢	٧٤	وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ ...	٤١٥
● سورة غافر:			
٢٠٠	٤٦	الَّذِينَ يُعْرِضُونَ عَلَيْهَا غُطُورًا وَعِشَابًا ...	٤١٦
٣٥٥	٥٨	وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ...	٤١٧
٩٩	٨٢	أَقْلَمَ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا حَيْفَ كَانَتْ عَقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ...	٤١٨

● سورة فصلت:			
٤١٩	فَأَمَّا غَدَاةُ فَاسِقِكُمْ فِي الْأَرْضِ يَغْتَرِ الْخَبِيْثُ وَقَالُوا مِنْ أَعْدَدِ مَنَا قُوَّةٌ	١٥	٣٣٨
٤٢٠	وَقَدْ ضَعَفْنَا لَهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ فَارْتَمَىٰ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ	٢٥	١٩
٤٢١	فَلْيَدْرِكُوا الْقَائِلِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا ...	٢٧	٣٥٧
٤٢٢	فَإِنَّكَ جَزَاءُ عَذَابٍ أَلَّهِ النَّارُ ...	٢٨	٣٥٧
٤٢٣	وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرَنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا ...	٢٩	٣٥٧
٤٢٤	إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا فَتَنَّا عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ ...	٣٠	٣٥٧، ٢٠٧
٤٢٥	فَخَرَّ سَائِرُهُمْ فِي الْأَرْضِ الْأَعْيُنِ وَرَى الْقَائِلِينَ ...	٣١	٣٥٧، ٢٠٧
٤٢٦	فَوَلَّى عَنْهُمْ رُحْمًا ...	٣٢	٣٥٧، ٢٠٧
٤٢٧	وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ	٣٤	٢٥٠
٤٢٨	أَفَمَنْ يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي بَعِثَةً ...	٤٠	٤١
٤٢٩	وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَىٰ بِنِعْمَتِنَا ...	٥١	٢٤٣
● سورة الشورى:			
٤٣٠	وَمَا يَذْكُرِكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ	١٧	٣٥٩
٤٣١	يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ...	١٨	٣٥٩
٤٣٢	وَلَئِنْ إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَدَحَىٰ بِهَا ...	٤٨	٣٦٠
● سورة الزخرف:			
٤٣٣	وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ	٥٧	٣٦٢
٤٣٤	وَقَالُوا وَيَلْبَسُنَا ذِكْرُكُمْ أَمْ لَوْ ...	٥٨	٣٦١
٤٣٥	إِنْ هُوَ إِلَّا عَذَابٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِمْ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ	٥٩	٣٦١
٤٣٦	وَنَادَوْا بِعَذَابِكُمْ لِتَقْضَىٰ عَلَيْنَا رَحْمَتُكُمْ	٧٧	٢٢١
● سورة الدخان:			
٤٣٧	فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ	٤	٣٩١
٤٣٨	إِنَّ شَجَرَتَ الزُّمُرُودِ	٤٣	٣٦٣
٤٣٩	حَطَّامُ الْأَيْمَنِ	٤٤	٣٦٣
٤٤٠	كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ	٤٥	٣٦٣
٤٤١	كَغَلِيِّ الْحَبَشَةِ	٤٦	٣٦٣
٤٤٢	لَخُلُوفُ رَبَابِهِمْ شَاءَ الْحَبَسِ	٤٧	٣٦٣

٤٦٧	آءِذَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعُ بَعْدِ	٣	٣٦٠
	• سورة الطور:		
٤٦٨	فَوَيْلٌ لِلْمُكَابِرِينَ	١١	٣٧١
٤٦٩	الَّذِينَ هُمْ فِي غَوْضٍ يَلْعَبُونَ	١٢	٣٧١
٤٧٠	يَوْمَ يَدْعُوكَ إِلَىٰ مَارِجٍ مَّكِينٍ	١٣	٣٧١
٤٧١	عَلَيْهِ النَّارُ الْخَالِدُ كُنْتُمْ بِهَا تُكَلِّبُونَ	١٤	٣٧١
٤٧٢	الْمَسْحَرِ هَٰذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ	١٥	٣٧١
٤٧٣	أَصْلَحُوا مَا صَبَرُوا أَوْ لَا تُصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ...	١٦	٣٧١
٤٧٤	إِنَّ الْمَغْضُوبَ فِي جَنَّتٍ وَتَمِيمٍ	١٧	٣٧١
٤٧٥	فَكَيْفَ بِمَا عَاشْتُمْ رَبُّكُمْ وَوَقَّعْتُمْ رَبُّكُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ	١٨	٣٧١
٤٧٦	كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ	١٩	٣٧١
٤٧٧	مُتَكِبِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْنُوعَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ	٢٠	٣٧١
٤٧٨	وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ ...	٢١	٣٧١
٤٧٩	وَأَلْمَدَدَتْهُمْ يَدَاهُ الْوَحْدُ بِمَا يَشْتَهُونَ	٢٢	٣٧١
٤٨٠	يَسْتَرْحُونَ فِيهَا خَاسًا لَا لَقَرٍ فِيهَا وَلَا تَأْنِيَةٍ	٢٣	٣٧١
٤٨١	وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ	٢٤	٣٧١
٤٨٢	وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ	٢٥	٣٧١
٤٨٣	قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُتَشَفِّعِينَ	٢٦	٣٧١
٤٨٤	فَمَنْ أَلَّاهُ عَلَيْهِمَا وَوَقَّعْنَا عَذَابَ الْسُعُومِ	٢٧	٣٧١
٤٨٥	إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلَ نَدِيعَةً ۖ إِنَّكَ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ	٢٨	٣٧١
٤٨٦	فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ	٢٩	٢٥٢
	• سورة النجم:		
٤٨٧	أَفَتَضَرُّونَهُ عَلَىٰ مَا يُرَىٰ	١٢	١٤٤
٤٨٨	وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ	١٣	١٤٤، ١٤٥
٤٨٩	عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ	١٤	١٤٤
٤٩٠	عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ	١٥	١٤٤
٤٩١	إِذْ يَغْشَىٰ السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ	١٦	١٤٤
٤٩٢	مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ	١٧	١٤٤
٤٩٣	لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ عَابِدِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ	١٨	١٤٤

١٤٤	١٩	أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ	٤٩٤
١٤٤	٢٠	وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةِ الْآخَرَىٰ	٤٩٥
١٤٤	٢١	الَّتِي كُنَّ الذَّكَرَ وَلَهُ الْأُنثَىٰ	٤٩٦
١٤٤	٢٢	تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ	٤٩٦
٧١	٤٣	وَأَنْتُمْ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ	٤٩٧
● سورة القمر:			
١٦٠	٤٧	إِنَّ السَّجَّادِينَ فِي الْمَلِكِ وَالْمُتَكَبِّرِينَ	٤٩٨
١٦١، ١٦٠	٤٨	يَوْمَ يُسْحَرُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ غُجُوهِهِمْ دُوقُوا مَسَّ سَقَرَ	٤٩٩
١٦١، ١٦٠	٤٩	إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ	٥٠٠
١٦٠	٥٠	وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ	٥٠١
١٦٠	٥١	وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ	٥٠٢
١٦٠	٥٢	وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ثُبُورٍ	٥٠٣
١٦٠	٥٣	وَكُلُّ شَيْءٍ مِّنْ عِندِ رَبِّكَ مُتَعَدٍ	٥٠٤
١٦٠	٥٤	إِنَّ الْمُتَفِينِينَ فِي جَنَّتِمْ وَنَهَرٍ	٥٠٥
١٦٠	٥٥	فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِندَ مَلِئِكٍ مُّقْتَدِرٍ	٥٠٦
● سورة الرحمن:			
٢٢٠	٥٤	مُتَكَبِّرِينَ عَلَىٰ فَارَسٍ يَخُوفُ إِتْرَافُهَا مِنْ إِسْتَهْرَقٍ	٥٠٧
٣٥٦	٦٠	هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ	٥٠٨
● سورة الواقعة:			
١٦	٧	وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً	٥٠٩
١٦	٨	فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ	٥١٠
١٦	٩	وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ	٥١١
١٦	١٠	وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ	٥١٢
٢٧١	٢١	وَلَهُمْ ظَلِيمٌ مِّمَّا يَشْتَهُونَ	٥١٣
٣٤٦	٣٠	وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ	٥١٤
٣٧٣، ١٦	٨٨	فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ	٥١٥
٣٧٣، ١٦	٨٩	فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ	٥١٦
٣٧٣، ١٦	٩٠	وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُتَرَدِّينَ	٥١٧
٣٧٣، ١٦	٩١	فَسَاءَ لَّكَ مِنَ الْمُنْجَرِفِينَ	٥١٨

٣٧٣، ١٦	٩٢	وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ	٥١٩
٣٧٣، ١٦	٩٣	فَنَزَّلُ مِنَ جَمِيمٍ	٥٢٠
٣٧٣	٩٤	وَتَضَلُّعَةٍ جَجِيمٍ	٥٢١
		● سورة الحديد:	
٨٨	١٠	لَا يَسْتَوِي سِتْكُمْ مَنَ اتَّقَى مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ ...	٥٢٢
٢٠٥	١٢	يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ...	٥٢٣
١٨٣	١٥	مَأْوَلَكُمْ أَلَّا تُرَىٰ مَوَاقِعُ الْمَبْعُوثِ	٥٢٤
٣١	١٦	لَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ	٥٢٥
		● سورة المجادلة:	
٣٤٩	١١	يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ	٥٢٦
٣٧٦	١٩	أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ	٥٢٧
٣٧٦	٢٠	إِنَّ الَّذِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ	٥٢٨
٣٧٦	٢١	كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ	٥٢٩
٣٧٦	٢٢	لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ...	٥٣٠
		● سورة الحشر:	
٢١٨	٢٠	لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۚ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ	٥٣١
١٦	٢١	وَبِئْسَ الْأَمَلُ لِمَن كَفَرَ وَكَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ	٥٣٢
		● سورة الممتحنة:	
١٢١	٨	لَا يَنْهَنِكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ ...	٥٣٣
١٢١	٩	إِنَّمَا يَنْهَنِكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ ...	٥٣٤
		● سورة الصف:	
٢٩٨	٩	هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ ...	٥٣٥
٣١	١٠	يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ جُزْءٍ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ	٥٣٦
		● سورة المنافقون:	
٦٢	٤	وَإِذَا رَأَوْهُمُ تَفَجَّعْتُمْ أَعْجَبَتْكُمْ ...	٥٣٧
٣٦٨، ٦٢	٤	كَانَتْهُمْ حَشَبٌ مُّسْتَنَدَةٌ	٥٣٨
		● سورة التحريم:	
٣٧٧	١٠	ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطَ ...	٥٣٩

٣٧٧	١١	وَضُرِبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتِ قِرْعُون ...	٥٤٠
٣٧٨	١٢	وَمَرْيَمَ إِتَتْ عِمْرُونَ إِلَهِي أَحْصَيْتُ فُرْجَهَا ...	٥٤١
		• سورة الملوك:	
٢٢١	٨	كَلَّمْنَا إِلَهِي فِيهَا فَوُجَّ مَلَكُومَ حَزَنَتَهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ	٥٤٢
٦٨	٢٢	أَفَمَنْ يَتَّبِعِي مُكَيَّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَتَّبِعِي سَبِيلًا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ	٥٤٣
		• سورة الحاقة:	
٣٨٠	١٩	فَأَمَّا مَنْ أُولَى كَيْدٍ يُجِيبُهُ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَفْرَأُوا كَيْدِي	٥٤٤
٣٨٠	٢٠	إِنِّي طَلَعْتُ آتَى مَلَكِي حِسَابِي	٥٤٥
٣٨٠	٢١	فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ	٥٤٦
٣٨٠	٢٢	فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ	٥٤٧
٣٨٠	٢٣	فَطُورُهَا ذَاتِيَّةٌ	٥٤٨
٣٨٠	٢٤	كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ	٥٤٩
٣٨٠	٢٥	وَأَمَّا مَنْ أُولَى كَيْدٍ يُبْسِلِيهِ فَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُوتِ كَيْدِي	٥٥٠
٣٨٠	٢٦	وَلَمْ أُدْرِ مَا حِسَابِي	٥٥١
٣٨٠	٢٧	يَلَيْتَنِي كَانَتْ الْقَاضِيَةُ	٥٥٢
٣٨٠	٢٨	مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِي ۚ	٥٥٣
٣٨٠	٢٩	هَلَكْتُ حَتَّى سُلْطَانِي	٥٥٤
٣٨٠	٣٠	خُلُوهُ فَعُْلُوهُ	٥٥٥
٣٨٠	٣١	ثُمَّ أَلْجَيْتُمُ صَلَوةَ	٥٥٦
٣٨٠	٣٢	ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ	٥٥٧
٢٢٤	٣٦	وَلَا طَعَامَ إِلَّا مِنْ غَشَلِينَ	٥٥٨
٢٢٤	٣٧	لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ	٥٥٩
		• سورة المدثر:	
٣٨٢	٣١	وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ...	٥٦٠
		• سورة الإنسان:	
٢١٦	٢٠	وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَجِيمًا وَمَلَائِكًا كَاسِمًا	٥٦١
		• سورة المرسلات:	
٢١٧	٣٢	بَشَرًا مَكْفُومًا	٥٦٢

٢١٧	٣٣	كَاذِبَةٌ جِئْتَ صَغِيرًا	٥٦٣
		• سورة النبا:	
٢٢٤	٢٤	لَا يَدْعُونَ فِيهَا بِرًّا وَلَا جَبْرًا	٥٦٤
٢٢٤	٢٥	إِلَّا حَيْثُمَا وَضَعْنَا	٥٦٥
		• سورة النازعات:	
٣٨٤	٣٧	فَأَمَّا مَنْ طَغَى	٥٦٦
٣٨٤	٣٨	وَوَسَّسَ الْخَبِيرَ الدُّنْيَا	٥٦٧
٣٨٤	٣٩	فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى	٥٦٨
٣٨٤	٤٠	وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ الْهَوَى	٥٦٩
٣٨٤	٤١	فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى	٥٧٠
		• سورة عبس:	
١٥	١	عَبَسَ وَتَوَلَّى	٥٧١
١٥	٢	أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى	٥٧٢
١٥	٣	وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّه بُرِّئَ	٥٧٣
١٥	٤	أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الْذِّكْرَى	٥٧٤
		• سورة العنكبوت:	
١٤٦	٢٣	وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالْأَيْمَنِ الْمَعِينِ	٥٧٥
٣١	٢٦	فَأَمَّا تَذَاهَبُونَ	٥٧٦
		• سورة المطففين:	
٣٠٤	١٥	كَذَّابًا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمِئِذٍ لَمَحْجُورُونَ	٥٧٧
٣٦٥	٢٤	فَالْيَوْمَ الَّذِينَ عَمِلُوا مِنَ الْكُفَرِ لُمْصَحَّوُونَ	٥٧٨
		• سورة الانشقاق:	
٣٠٦	٨	فَسَوْفَ يَحْشَابُ حِسَابًا نَجِيرًا	٥٧٩
		• سورة البروج:	
٣٨٥	١٠	إِنَّ الَّذِينَ قَاتَلُوا الْقُرْآنَ وَالْمُؤْمِنِينَ ثُمَّ لَمْ يَكُونُوا...	٥٨٠
٣٨٥	١١	إِنَّ الَّذِينَ قَاتَلُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ...	٥٨١
		• سورة الأعلى:	
١٩٣، ٩٤، ٩٣	١٦	بَلْ تُؤْخِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا	٥٨٢

١٩٣، ٩٣	١٧	وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَثْقَىٰ	٥٨٣
		• سورة العاشية:	
٢٢٠	١٣	فِيهَا سُرُورٌ مُّزْمُوعَةٌ	٥٨٤
٢٢٠	١٤	وَأَحْزَابٌ مَّوْضُوعَةٌ	٥٨٥
٢٢٠	١٥	وَتَمَارِقٌ مَّصْفُوعَةٌ	٥٨٦
٢٢٠	١٦	وَرِزَابٌ مَّيْبُوعَةٌ	٥٨٧
		• سورة الفجر:	
٣٨٧	١٥	فَإِنَّمَا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ	٥٨٨
٣٨٧	١٦	وَأِنَّمَا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْلَنِ	٥٨٩
		• سورة الشمس:	
٢٣٨	٧	وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا	٥٩٠
٢٣٨	٨	فَأَلَمَتْهَا فُجُورُهَا وَتَقْوَاهَا	٥٩١
٢٣٧	٩	فَكَذَّبْتَ عَنْ رَجْعِهَا	٥٩٢
٢٣٧	١٠	وَقَدْ خَابَ مِنْ دَمَاسِهَا	٥٩٣
٢٣٨	١١	كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا	٥٩٤
		• سورة الليل:	
٣٨٩، ٧٢	٥	فَإِنَّمَا مِنْ أَمْطٍ وَأَثْقَىٰ	٥٩٥
٣٨٩، ٧٢	٦	وَصَدَقَ بِالْحَسَنِ	٥٩٦
٣٨٩، ٧٢	٧	فَسَنِّيئَتُهُ لِلْعُسْرِ	٥٩٧
٣٨٩، ٧٢	٨	وَأَمَّا مَنْ يَجَلُ وَأَسْتَفَىٰ	٥٩٨
٣٨٩، ٧٢	٩	وَكَلَّبَ بِالْحَسَنِ	٥٩٩
٣٨٩، ٧٢	١٠	فَسَنِّيئَتُهُ لِلْعُسْرِ	٦٠٠
٣٨٩	١١	وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى	٦٠١
		• سورة الضحى:	
١٧	١	وَالضُّحَىٰ	٦٠٢
١٧	٢	وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ	٦٠٣
١٧	٣	مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ	٦٠٤
١٩٨	٤	وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ	٦٠٥

٣٨	6	أَمْ يَحْذَرُ كَيْمَا قَاوَى	٦٠٦
٣٨	7	وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ	٥٠٧
٣٨	8	وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ	٦٠٨
٣٠	١	• سورة الشرح: أَمْ تَعْلَمُ أَنَّكَ مَوْلَاكَ	٦٠٩
٣٩٠	٣	• سورة القدر: لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ	٦١٠
٣٩٠، ٨٠	٤	تَنْزِيلُ الْمَلَكِ وَالرُّوحُ فِيهَا يَأْذِنُ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ	٦١١
٣٩٠	٥	سَلَامٌ مِنْ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ	٦١٢
٣٩٢	٦	• سورة القارعة: فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ	٦١٣
٣٩٢	٧	فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ	٦١٤
٣٩٢	٨	وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ	٦١٥
٣٩٢	٩	فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ	٦١٦
٣٩٢	١٠	وَمَا أَذْرَكَ مَا هِنَةٌ	٦١٧
٣٩٢	١١	تَارَ حَامِيَةٌ	٦١٨
٢٢٠	٧	• سورة الحمزة: تَطْلُعُ عَلَى الْأَقْتَدَةِ	٦١٩
٢٢٠	٨	إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ	٦٢٠

ثانياً: فهرس الأحاديث والآثار

رقم الصفحة	طرف الحديث والآثر	
122	أنقضي أمي رغبة في عهد النبي ﷺ، فسألت النبي ﷺ: لأصلها؟ قال: نعم	١
١٧٥	أترون هذه طارحة ولدها في النار ...	٢
١٩٢	أترون هذه هيئة على صاحبها؟ قال الذي نفسي بيده للدنيا أهون ...	٣
٣٠٨	أنضحكون وذكر الجنة والنار بين أيديهم؟	٤
٥٤	أني رسول الله ﷺ بفنّاع من يسر، فقرأ: "مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة" ...	٥
٣٤٢	إذا أراد الله عز وجل أن يوحى بأمره تكلم بالوحي ...	٦
١٨٥	إذا أقعد المؤمن في قبره أني، ثم شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً ...	٧
٣٠٤، ٣٠٣	إذا دخل أهل الجنة الجنة فادى مناد: إن لكم عند الله موعداً ...	٨
٢٧٩	إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم	٩
١٣٠	إذا صار أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار جيء بالموت ...	١٠
٣٦١	أريت النار فإذا أكثر أهلها النساء يكفرن	١١
١٥٨	أقبل رسول الله ﷺ - يعني: من تبوك - حتى نزل بهذي أوان ...	١٢
١٠٩	أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادراً على أن يمشيه ...	١٣
٣٢٧	إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ الحميم حتى يخلص إلى ...	١٤
٣٧٠	إن العلماء ورثة الأنبياء	١٥
٣٩٣	إن الله سيخلص رجلاً من أمي على رؤوس الخلائق ...	١٦
١٧٥	إن الله لما قضى الخلق كتب عنده فوق عرشه ...	١٧
٢٨٥	إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر	١٨
٣٠٢	إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، يقولون: لبيك ربنا ...	١٩
٢٨٣	إن أمي يدعون يوم القيامة غرا محجلين من آثار الوضوء ...	٢٠
٨٣	إن بالمدينة أقواماً ما سرقم مساراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم ...	٢١
٥٤	أن رسول الله ﷺ أني بفنّاع جزء، فقال: ﴿مِثْلَ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ...﴾	٢٢
٨١	أن رسول الله ﷺ أمني علي: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَائِدُونَ...﴾	٢٣
٩٧	أن رسول الله ﷺ بعث رهطاً، وبعث عليهم أبا عبيدة بن الجراح ...	٢٤
١٩٤	أن عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له، أتوا النبي ﷺ فقالوا ...	٢٥
٣٤٦	إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام ...	٢٦

٢٧	إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله...	٨٤
٢٨	أن قتيلة بنت عبد العزى بنت أسعد من بني مالك بن حسل قدمت...	١٢٢
٢٩	إن مثل ما بعثني الله به عز وجل من الهدى والعلم كمثل غيث...	٢١
٣٠	إنما هو جبريل - عليه السلام - لم أره على صورته التي...	١٤٦
٣١	أنه كان يقسم قسما: إن هذه الآية ﴿هَٰؤُلَاءِ حُفَّتْ عَنْهُمْ النَّارُ﴾...	٣٢٦
٣٢	تحتاج الجنة والنار، فقالت النار: أوتيت بالمتكبرين والمضحجين...	٢١٦
٣٣	توضع الموازين يوم القيامة، فيؤتى بالرجل، فيوضع في كفة...	٣٩٣
٣٤	ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة: المنان الذي لا يعطي شيئا إلا منه...	٢٧٧
٣٥	جاء مشركو قريش يخاضعون رسول الله ﷺ في القدر...	١٦١
٣٦	دخل النبي ﷺ مكة وحول البيت ستون وثلاث مائة نصب فجعل...	٢٦٢
٣٧	الدنيا حجب المؤمنين وجه الكافر	٢٩٢
٣٨	دية الكافر نصف دية المسلم	١٩٩
٣٩	رآه بفؤاده مرتين	١٤٥
٤٠	رأيت جبريل عند سفرة المنتهى، عليه ست مائة جناح...	١٤٦
٤١	رفعت رأسي يوم أحد فجعلت أنظر، وما منهم أحد...	١١١
٤٢	عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد...	٢٤٥
٤٣	فلقاه الله: ﴿سَيَحْنَلُكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ﴾	١٦٥
٤٤	في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض...	٣٢٣
٤٥	في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين مائة عام	٣٢٣
٤٦	قل آمنت بالله ثم استقم	٢٠٨
٤٧	قل ربني الله ثم استقم	٢٠٨
٤٨	كان النبي ﷺ إذا دخل العشر شد معززه وأحيا ليله وأيقظ أهله	٣٩٢
٤٩	كامل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية....	٣٧٩
٥٠	كنت عند منبر رسول الله ﷺ، فقال رجل: ما أبالي أن لا أعمل عملا...	٤٦
٥١	كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد، حتى سقط سيفي من يدي...	١١١
٥٢	لا إيمان لمن لا أمانة له	٢٤٣
٥٣	لا تسبوا أصحابي لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده...	٩٠
٥٤	لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون...	٢١٠
٥٥	لا، ولكنه الرجل يصوم ويصلي ويتصدق، وهو مع ذلك...	٢١٠

٢١٠	لا يا عائشة، هم الذين يصلون ويتصدقون، وقلوبهم وجلة	٥٦
١٩٢	لروحة في سبيل الله أو غدوة خير من الدنيا وما فيها...	٥٧
١٩٩	لما كانت الليلة التي أسري بي، أتت علي رائحة طيبة...	٥٨
٣٢٣	لما نزلت ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبٌ...﴾	٥٩
٨١	لما نزلت غزوة بدر قال عبد الله بن جحش وابن أم مكتوم...	٦٠
١٩٣	اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة، فاغفر للأتصار والمهاجرة	٦١
٣٤٦	لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت...	٦٢
١٣٩	لو أن ما يقل ظفر مما في الجنة بدا لتخرفت له ما بين...	٦٣
١٩٢	لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء	٦٤
١٣٦	ما تصدق أحد بصدقة من طيب ولا يقبل الله إلا الطيب...	٦٥
٢١٦	ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر...	٦٦
٣٩٠	ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان...	٦٧
٣٩٠	ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار، ومقعده من الجنة...	٦٨
١٣٦	ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزاء...	٦٩
٢٣٤	مثل البيت الذي يذكر الله فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه...	٧٠
٢٠	مثل المجلس الصالح والسوء، كحامل لمسلك ونافع الكبر...	٧١
٢١	مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه، مثل الحي والميت	٧٢
٢١	مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كالأمرجة، طعمها طيب وريحها طيب...	٧٣
٢٩٥	مثل ما يعطي الله به من الهدى والعلم كمثل الثمن الكثير أصاب...	٧٤
١٤٥	من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم، ولكن قد رأي جبريل...	٧٥
٣٥٠	من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا من طرق الجنة	٧٦
٣٦١	من لم يشكر الناس لم يشكر الله	٧٧
٣٠٦	من نوقش لحساب عذب	٧٨
١٣١	من يدخل الجنة ينعم لا يبأس...	٧٩
٣٩٢	من يغم ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه	٨٠
٩٥	موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها	٨١
٣٩٣	ناركم جزء من سبعين جزءا من نار جهنم	٨٢
١٨٥	نزلت في عذاب القبر، يقال له: من ربك؟...	٨٣
٣٤٧	هل تدرون مما أضحك؟...	٨٤

٩٤	هل تدري بأي شيء ابتداء الحياة الدنيا؟ لأي شيء آخر ...	٨٥
١٨٢	هم قوم آمنوا بعمسى، فلما بعث محمد كفروا به	٨٦
٨٢	هم قوم كانوا على عهد رسول الله ﷺ لا يغزون معه ...	٨٧
١٨٢	هم قوم كانوا كفروا بعمسى فأمنوا بمحمد ﷺ	٨٨
١٩٥	والله! ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعة هذه...	٨٩
٢٧١، ٢٥٤	وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد حوت	٩٠
١٤٦	يا أبا عائشة، ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية...	٩١
٢٠٠	يا بلال حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام، فإني سمعت...	٩٢
٣٦١	يا معشر قريش، إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير	٩٣
٣٤٦	يدنى المؤمن من ربه حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه...	٩٤
٣٢١	يكون خلف من يعد ستين سنة أضعوا الصلاة واتبعوا الشهوات...	٩٥
١٦٥	يُلقي عمسى حجته ولقاه الله في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ الْكَلْبُ يُعِيسِي أَبْنِ مَرْيَمَ...﴾	٩٦

ثالثاً: فهرس الأعلام

رقم الصفحة	العلم	
٢٤	إبراهيم بن موسى القرناطي الشاطبي	١
١١٥	أحمد بن الحسين البيهقي	٢
١٤	أحمد بن عبد الرحيم الفاروقي - شاه ولي الله	٣
١٤٦	أحمد بن محمد التعلبي	٤
٢٠٢	أحمد بن يوسف - السمين الحلبي	٥
٢٠٢	إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي	٦
١٨٥	البراء بن عازب الأنصاري	٧
٩٧	جندب بن عبد الله البجلي	٨
٢٠٤	الحسن بن محمد القمي النيسابوري	٩
٢٣٦	زغلول راجب النجار	١٠
١١١	زيد بن سهل الأنصاري - أبو طلحة	١١
١٥٧	سعيد بن جبير	١٢
٢٣٠	سعيد بن محمد ديب حوى	١٣
١٢٢	سفيان بن عينة الهلالي	١٤
١٩٣	سهل بن سعد الساعدي	١٥
٣٣	الضحاك بن مزاحم الهلالي	١٦
٥٥	عبد الحق ابن عطية الأندلسي	١٧
١٣	عبد الحميد القراهي	١٨
١٧٧	عبد الرحمن بن محمد الثعالبي	١٩
٢٤٤	عبد العزيز بن عبد السلام السلمي	٢٠
٩٧	عبد الله بن جعش الأسدي	٢١
٩٢	عبد الله بن عمر ناصر الدين البيضاوي	٢٢
٨١	عبد بن جعش الأسدي	٢٣
١٨٠	علي بن محمد علاء الدين الخازن	٢٤
١٩٥	عمر بن علي - سراج الدين الحنبلي	٢٥
١٢٥	عمرو بن بحر الجاحظ	٢٦

١٥٨	عمرو بن حنفي - أبو عامر القاسق	٢٧
٨١	عمرو بن قيس - ابن أم مكتوم	٢٨
٢٤٧	قتادة بن دعامة السدوسي	٢٩
٩٤	محمد الأمين الشنقيطي	٣٠
٣٤	محمد الطاهر بن عابد	٣١
٢٢٨	محمد أمين بن عبد الله الحرري	٣٢
١٧	محمد بن أبي بكر ابن القيم	٣٣
٣٨٨	محمد بن أحمد ابن جزى الكلبي	٣٤
١٣٨	محمد بن أحمد أبو زهرة	٣٥
٤٦	محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي	٣٦
١٣	محمد بن بهادر الزركشي	٣٧
٧٥	محمد بن جرير الطبري	٣٨
٣٣	محمد بن علي الشوكاني	٣٩
٥٩	محمد بن عمر فخر الدين الرازي	٤٠
٤٧	محمد بن محمد العمادي أبو السعود	٤١
٣٧٤	محمد بن محمد الفزالي	٤٢
٨٣	محمد بن يوسف الفريابي الأندلسي - أبو حيان	٤٣
٨٩	محمد ثناء الله الباني بتي	٤٤
٢٤٣	محمد رشيد علي رضا	٤٥
٢٥٥	محمد سيد طنطاوي	٤٦
١٦١	محمد صديق حسن خان القنوجي	٤٧
١٧	محمد هبة الخالقي عضيمة	٤٨
١٢٧	محمد متولي الشعراوي	٤٩
٢٤	محمود أحمد غازي	٥٠
٦٦	محمود بن عبد الله الألوسي	٥١
٣٧	محمود بن عمر الزمخشري	٥٢
١٤٦	مسروق بن الأجدع الممداني	٥٣
١٤٢	مقصود بن محمد أبو المظفر السمعاني	٥٤
٤٦	النعمان بن بشير الأنصاري	٥٥

٢٤	وهبة الزحيلي	٥٦
١٩٥	يحيى بن سعيد القطان	٥٧

خامساً: فهرس المصادر والمراجع

- (١) القرآن الكريم.
- (٢) الإبانة الكبرى، أبو عبد الله ابن بطّة، تحقيق: عثمان أثيوبي وآخرون، ط١، دار الزاوية للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤١٥هـ.
- (٣) الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤م - ١٣٩٤هـ.
- (٤) الإحسان في تقريب صحيح ابن خبان، محمد بن حبان البستي، ترتيب: علاء الدين علي بن بلبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨.
- (٥) أحكام القرآن، ابن العربي المالكي، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
- (٦) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، ط١، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
- (٧) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
- (٨) الإرشاد في معرفة علماء الحديث، أبو يعلى الخليلي، تحقيق: د. محمد سعيد، ط١، مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٠٩هـ.
- (٩) أساسيات علم النفس، د. فاطمة عبد الرحيم النوايسة، طبعة دار المناهج للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ٢٠١٥م - ١٤٣٥هـ.
- (١٠) الأسس في التفسير، سعيد حوى، ط٦، دار السلام، القاهرة، مصر، ١٤٢٤هـ.
- (١١) أساليب القرآن، حميد الدين الفراهي، ط١، الدائرة الحميدية، ١٣٨٩هـ.
- (١٢) أساليب النزول، علي بن أحمد الواحدي، تحقيق: عصام الحميدان، ط٢، دار الإصلاح، للدعامة، المملكة العربية السعودية، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
- (١٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر، تحقيق: علي البخاري، ط١، دار الجيل، بيروت، لبنان، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
- (١٤) أسد الغابة، في معرفة الصحابة، عز الدين ابن الأثير، تحقيق: علي معوض وعادل أحمد، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
- (١٥) الأسماء والصفات، أبو بكر البيهقي، تحقيق: عبد الله محمد الحاشدي، ط١، مكتبة السوادي، جدة، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
- (١٦) الإصابة في تمييز الصحابة، الحافظ ابن حجر العسقلاني، تحقيق: عادل أحمد وعلي معوض، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ.

- (١٧) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، طبعة دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
- (١٨) الأعلام، خير الدين الزركلي، ط١٥، دار العلم للملايين، ٢٠٠٢م.
- (١٩) الأمثال في القرآن، ابن قيم الجوزية، تحقيق: سعيد محمد عمر الخطيب، ط٤، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ٢٠٠٠م.
- (٢٠) الأمثال من الكتاب والسنة، الحكيم الترمذي، تحقيق: السيد الجميلي، دار ابن زيدون، بيروت، لبنان.
- (٢١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين الألباني، تحقيق: محمد عبد الرحمن اللعشلي، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤١٨هـ.
- (٢٢) أوضح التفاسير، محمد عبد اللطيف الخطيب، ط٦، المطبعة المصرية ومكتبتها، ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م.
- (٢٣) أسرار التفاسير لكلام العلي الكبير، أبو بكر جابر الجزائري، ط٥، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
- (٢٤) أسرار التفاسير، محمد عبد اللطيف الخطيب، ط٦، المطبعة المصرية ومكتبتها، ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م.
- (٢٥) الإيضاح في علوم البلاغة، جلال الدين القزويني، تحقيق: محمد عبد النعم خفاجي، ط٣، دار الجيل، بيروت، لبنان.
- (٢٦) البحث العلمي - أساسياته النظرية وممارسته العلمية، رجاء وحيد ذويدري، ط١، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤٢١هـ.
- (٢٧) البحث العلمي أسسه مناهجه أساليبه وإجراءاته، يحيى مصطفى عليان، طبعة بيت الأفكار الدولية، عمان، الأردن.
- (٢٨) بحر العلوم، أبو الليث السمرقندي.
- (٢٩) البحر المحیط في التفسير، أبو حيان الأندلسي، تحقيق: مصطفى محمد جميل، طبعة دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ.
- (٣٠) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، أبو العباس ابن عجيبة، تحقيق: أحمد القرشي، طبعة حسن عباس زكي، القاهرة، مصر، ١٤١٩هـ.
- (٣١) البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، ١٩٥٧م.
- (٣٢) بغية الإيضاح لمخلص المفتاح في علوم البلاغة، عبد المتعال الصعيدي، ط١٧، مكتبة الآداب، ١٤٣٦هـ - ٢٠٠٥م.
- (٣٣) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة المصرية، لبنان.

(٣٤) البلاغة الصافية في المعاني والبيان والبدیع، حسن إسماعیل الجناحی، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، مصر، ٢٠٠٦م.

(٣٥) البلاغة العربية، عبد الرحمن حسن حینکه المیلادی، ط ١، دار القلم، دمشق، ١٤١٦هـ.

(٣٦) البلاغة الواضحة، علي الجارم ومصطفى أمين، ط ١، انتشارات سيد الشهداء، قم، إيران، ١٣٧٢هـ.

(٣٧) بيان القرآن، أشرف علي التهانوي، اداره تالیفات اشرقیة، ملتان، باكستان، ١٤٢٩هـ.

(٣٨) البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ١٤٢٣هـ.

(٣٩) التاريخ الكبير، محمد بن إسماعيل البخاري، طبعة دائرة المطارف العثمانية، حيدر آباد الديكن، الهند.

(٤٠) تاريخ المدينة، أبو زيد ابن شبة، تحقيق: فهد شلتوت، ١٣٩٩هـ.

(٤١) تنمية الأعلام، محمد خير رمضان يوسف، ط ٢، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ١٤٢٢هـ.

(٤٢) التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.

(٤٣) تحفة الأحوذی بشرح جامع الترمذی، أبو العلا المباركفوري، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

(٤٤) تخریج أحادیث وآثار فی ظلال القرآن لسید قطب، علوي السقاف، ط ٢، دار الهجرة للنشر والتوزيع،

١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

(٤٥) تدبر قرآن، أمين أحسن الإصلاحي، ط ٨، فاران فاؤنڈیشن، لاهور، باكستان، ١٩٩٨م.

(٤٦) تذكرة الحفاظ، شمس الدين الذهبي، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

(٤٧) التسهيل لعلوم التنزيل، أبو القاسم ابن جزى الكلبي الغرناطي، تحقيق: عبد الله الخالدي، ط ١، شركة

دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، لبنان، ١٤١٦هـ.

(٤٨) التفسير البسيط، علي بن أحمد الواحدي، ط ١، عمادة البحث العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود

الإسلامية، ١٤٣٠هـ.

(٤٩) تفسير التستري، سهل بن عبد الله التستري، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط ١، دار الكتب العلمية،

بيروت، لبنان، ١٤٢٣هـ.

(٥٠) تفسير الجلالين، جلال الدين المحلي وجمال الدين السيوطي، ط ١، دار الحديث، القاهرة، مصر.

(٥١) تفسير الراغب الأصفهاني، الراغب الأصفهاني، تحقيق: هند بنت محمد زاهد، ط ١، كلية الدعوة وأصول

الدين، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

(٥٢) تفسير الشعراوي - الخواطر، محمد متولي الشعراوي، مطابع أخبار اليوم، ١٩٩٧م.

(٥٣) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن كثير، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، ط ١، دار الكتب

العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٩هـ.

(٥٤) تفسير القرآن الكريم، ابن قيم الجوزية، تحقيق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية، ط ١، دار

ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان.

- (٥٥) تفسير القرآن، أبو المظفر السمعاني، تحقيق: ياسر إبراهيم وغنيم عباس، ط١، دار الوطن، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
- (٥٦) تفسير القرآن، عز الدين بن عبد السلام الملمسي، تحقيق: د. عبد الله الوهبي، ط١، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
- (٥٧) تفسير المراهي، أحمد مصطفى المراهي، ط١، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م.
- (٥٨) التفسير المظهر، ثناء الله الباي يتي، تحقيق: غلام نبي فتونسي، مكتبة الرشدية، باكستان، ١٤١٢هـ.
- (٥٩) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.
- (٦٠) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، د. وهبة الزحيلي، ط٢، دار الفكر، دمشق، سوريا، ١٤١٨هـ.
- (٦١) التفسير لطيسر، نخبة من أساتذة التفسير، ط٢، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، السعودية، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
- (٦٢) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي، ط١، دار تحفة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ١٩٩٨م.
- (٦٣) التفسير الوسيط، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، تحقيق: عادل الموجود وآخرون، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
- (٦٤) التفسير الوسيط، د. وهبة الزحيلي، ط١، دار الفكر، دمشق، سوريا، ١٤٢٢هـ.
- (٦٥) تفسير ماجدي، عبد الماجد دريبادي، ط٤، تاج كمبني، لاهور، باكستان، ٢٠٠١م.
- (٦٦) التفسير والمفسرون في نوبة الجديد، د. عبد القادر مصطفى جعفر، ط١، دار السلام، القاهرة، مصر، ٢٠٠٧م.
- (٦٧) تكملة معجم المؤلفين، محمد خير رمضان، ط١، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
- (٦٨) تيسر الكريم الرحمن في تفسير كلام المثلان، عبد الرحمن ناصر السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
- (٦٩) الثقات، محمد بن حبان، ط١، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.
- (٧٠) جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
- (٧١) الجامع الصحيح، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، ط٢، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

- (٧٢) الجامع الصحيح، مسلم بن الحجاج القشيري، ط ١، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- (٧٣) جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، القاضي عبد النبي نكري، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
- (٧٤) الجامع الكبير - منن الترمذي، أبو عيسى الترمذي، ط ١، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- (٧٥) الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله القرطبي، تحقيق: أحمد اليردوني وإبراهيم أطفيش، ط ٢، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.
- (٧٦) جبهة أشعار العرب، أبو زيد القرشي، تحقيق: علي محمد البجادي، نخبة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.
- (٧٧) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع، أحمد مصطفى الهاشمي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان.
- (٧٨) حقائق الروح والريحان في روائع علوم القرآن، محمد الأمين المرري، ط ١، دار طوق النجاة، بيروت، لبنان، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.
- (٧٩) الحماسة البصرية، أبو الحسن البصري، تحقيق: مختار الدين أحمد، عالم الكتب، بيروت، لبنان.
- (٨٠) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، السمين الحلبي، تحقيق: أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، سوريا.
- (٨١) الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت، لبنان.
- (٨٢) روح البیان، أبو الفداء إسماعيل حقي الإسطنبولي، دار الفكر، بيروت، لبنان.
- (٨٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود الألوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ.
- (٨٤) زاد المسير في علم التفسير، أبو الفرج ابن الجوزي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ط ١، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٤٢٢هـ.
- (٨٥) زهرة التفاسير، محمد بن أحمد أبو زهرة، دار الفكر العربي.
- (٨٦) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، محمد يوسف الشامي، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٣م.
- (٨٧) سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، ناصر الدين الألباني، ط ١، مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.
- (٨٨) المساء في القرآن الكريم، د. زغللول الفجار، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م.
- (٨٩) السنة، أبو بكر بن أبي عاصم، تحقيق: ناصر الدين الألباني، ط ١، المكتبة الإسلامية، بيروت، لبنان، ١٤٠٠هـ.

- ٩٠) السنن الصغرى، أحمد بن شعيب النسائي، ط١، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- ٩١) السنن الكبرى، أبو بكر البيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطاء، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
- ٩٢) السنن، أبو عبد الله ابن ماجه القزويني، ط١، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- ٩٣) السنن، أبو داود السجستاني، ط١، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- ٩٤) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد ابن سالم مخلوف، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
- ٩٥) شرح السنة، أبو محمد الحسن بن مسعود البغوي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعبد زهير الشاويش، ط٢، المكتب الإسلامي، دمشق، سوريا، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- ٩٦) شرح المعلقات السبع، حسين الزوزني، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
- ٩٧) شرح مشكل الآثار، أبو جعفر الطحاوي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
- ٩٨) شعب الإيمان، أبو بكر البيهقي، تحقيق: د. عبد العلي حامد، ط١، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.
- ٩٩) خمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، نشوان اليماني، تحقيق: حسين العمري وآخرون، ط١، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- ١٠٠) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط٤، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- ١٠١) صحيح الجامع الصغير وزيادته، ناصر الدين الألباني، طبعة المكتب الإسلامي.
- ١٠٢) الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين، أبو عبد الرحمن مقبل الوادعي، ط٤، دار الآثار، صنعاء، اليمن.
- ١٠٣) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، ط٢، دار الصابوني للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- ١٠٤) طبقات الحفاظ، جلال الدين السيوطي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٣هـ.

- ١٠٥} طبقات الشافعية للكبرى، تاج الدين السبكي، تحقيق: محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلوة، ط٢، دار هجر، ١٤١٣هـ.
- ١٠٦} طبقات الفقهاء الشافعية، تقي الدين ابن الصلاح، تحقيق: محيي الدين علي، ط١، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، ١٩٩٢م.
- ١٠٧} الطبقات الكبرى، محمد بن سعد، تحقيق: محمد عبد القادر عطاء، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
- ١٠٨} طبقات المفسرين، أحمد بن محمد الأذنه وي، تحقيق: سليمان بن صالح الخوي، ط١، مكتبة العلوم والحكم، المملكة العربية السعودية، ١٤١٧هـ.
- ١٠٩} طبقات للمفسرين، جلال الدين السيوطي، تحقيق: علي محمد عمر، ط١، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، ١٣٩٦هـ.
- ١١٠} طبقات للمفسرين، محمد بن علي الداودي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- ١١١} طبقات علماء الحديث، أبو عبد الله الدمشقي، تحقيق: أكرم اليوشي وإبراهيم الزبيق، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
- ١١٢} علوم البلاغة - البديع والبيان والمعاني، د. محمد أحمد قاسم والدكتور محي الدين ديب، ط١، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، ليبيا، ٢٠٠٣م.
- ١١٣} علوم البلاغة - البيان والمعاني والبديع، أحمد بن مصطفى المراغي.
- ١١٤} عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
- ١١٥} العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.
- ١١٦} غرائب القرآن ووعائب الفرقان، نظام الدين النيسابوري، تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٦هـ.
- ١١٧} غريب الحديث، أبو الفرج ابن الجوزي، تحقيق: عبد المعطي القلعجي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- ١١٨} الفائق في غريب الحديث والأثر، الزحشري، تحقيق: علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار المعرفة، لبنان.
- ١١٩} فتح الباري، الحافظ ابن حجر العسقلاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٣٧٩هـ.
- ١٢٠} فتح البيان في مقاصد القرآن، أبو الطيب القنوجي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا، بيروت، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
- ١٢١} الفتح الرباني لعزيمب مستند الإمام أحمد الشيباني، أحمد عبد الرحمن البنا، ط٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

- (١٢٢) فتح الرحمن في تفسير القرآن، مجر الدين المقدسي الحلبي، ط١، دار النوادر، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
- (١٢٣) فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني، ط١، دار ابن كثير - دار الكلم الطيب، دمشق - سوريا، بيروت - لبنان، ١٤١٤هـ.
- (١٢٤) فهرس الفهارس، عبد الحي الكنائي، تحقيق: إحسان عباس، ط٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٨٢م.
- (١٢٥) الفوز الكبير في أصول التفسير، شاه ولي الله الدهلوي، طبعة دار الحديث، ملتان، باكستان.
- (١٢٦) القاموس المحيط، الفيروز آبادي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، ط٨، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
- (١٢٧) كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد بن علي التهانوي، تحقيق: د. علي دحروج، تعريب: عبد الله الخالدي، ط١، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، ١٩٩٦م.
- (١٢٨) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، جابر الله الزعشمري، ط٣، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ.
- (١٢٩) كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، أبو الفداء إسماعيل بن محمد العجلوني، تحقيق: عبد الحميد هندوي، ط١، المكتبة العصرية، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
- (١٣٠) الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أبو إسحاق الثعلبي، تحقيق: أبو محمد بن عاشور، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.
- (١٣١) الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، محمد الأمين الحريري، ط١، دار المنهاج، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
- (١٣٢) الملامح العزوي شرح ديوان المتنبي، أبو العلاء المعري، تحقيق: محمد سعيد المولوي، ط١، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
- (١٣٣) لباب التأويل في معاني التنزيل، علاء الدين الخازن، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ.
- (١٣٤) اللباب في علوم الكتاب، أبو حفص سراج الدين الحلبي، تحقيق: عبادل أحمد وعلي محمد معوض، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- (١٣٥) لسان العرب، محمد ابن منظور الإفريقي، ط٣، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٤١٤هـ.
- (١٣٦) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، أبو الحسن الهيثمي، تحقيق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، مصر، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
- (١٣٧) مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار، جمال الدين الصديقي الهندي، ط٣، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٩٦٧م - ١٣٨٧م.

١٣٨) محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد ياسر عيون السود، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٨هـ.

١٣٩) محاضرات الأدباء، الراغب الأصفهاني، ط١، شركة دار الأرقم، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ.

١٤٠) محاضرات قرآني، د. محمود أحمد غازي، ط٥، الفصيل ناشرون وناسرون، لاهور، باكستان، ٢٠٠٩م.

١٤١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق ابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام محمد، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٢هـ.

١٤٢) المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده، تحقيق: عبد الحميد هندواوي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

١٤٣) مدارك التنزيل وحقائق التأويل، أبو البركات النسفي، تحقيق: يوسف علي يديوي، ط١، دار الكلم الطيب، بيروت، لبنان، ١٩٩٨م - ١٤١٩هـ.

١٤٤) المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطاء، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٠م.

١٤٥) مسند أبي يعلى، أبو يعلى الموصلي، تحقيق: حسين سليم أسد، ط١، دار المأمون للتراث، دمشق، سوريا، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

١٤٦) المسند، أبو عبد الله أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

١٤٧) المصحف المفسر، حسنين مخلوف، ط٤، دار الفجر الإسلامي، دمشق، سوريا، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

١٤٨) المصنف، عبد الرزاق الصنعاني، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، ط٢، المجلس العلمي، الهند، ١٤٠٣هـ.

١٤٩) معالم التنزيل في تفسير القرآن، أبو محمد الحسين البغوي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

١٥٠) معاني القرآن، يحيى بن زياد الفراء، تحقيق: أحمد يوسف النجاشي وآخرون، ط١، دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر.

١٥١) معترك الأقربان في إعجاز القرآن، جلال الدين السيوطي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

١٥٢) المعجم الأوسط، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: طارق عوض الله وعبد المحسن الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، مصر.

١٥٣) المعجم الكبير، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: حمدي السلفي، ط٢، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، مصر، ١٩٩٤م - ١٤١٥هـ.

١٥٤) معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عمر، ط١، عالم الكتب، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

- (١٥٥) معجم المفسرين (من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر)، عادل نويهض، ط٣، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، لبنان، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م.
- (١٥٦) للمعجم المفصل في شواهد العربية، د. إميل بدیع يعقوب، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م.
- (١٥٧) معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، طبعة مكتبة المفتي، بيروت، لبنان.
- (١٥٨) معجم من اللغة، أحمد رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٨ م.
- (١٥٩) مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، ط٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤٢٠ هـ.
- (١٦٠) المفردات في غريب القرآن، الراجب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، ط١، دار القلم، دمشق، سوريا، ١٤١٢ هـ.
- (١٦١) المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، فخر الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، تحقيق: محمد عثمان الخشت، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.
- (١٦٢) المنتخب في تفسير القرآن الكريم، لجنة من علماء الأزهر، ط١٨، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م.
- (١٦٣) الموافقات، إبراهيم بن موسى الشاطبي، تحقيق: أبو عبيدة مشهور، ط١، دار ابن عفان، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.
- (١٦٤) الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير والإقراء والنحو واللغة، وليد الزبيدي وآخرون، ط١، مجلة الحكمة، مانشستر، بريطانيا، ١٤٢٤ هـ.
- (١٦٥) النحو للمصفي، محمد عبد، مكتبة الشباب.
- (١٦٦) النحو الوافي، عباس حسن، ط١٥، دار المعارف.
- (١٦٧) نزهة الألباء في طبقات الأدباء، أبو البركات الأنباري، تحقيق: إبراهيم السامرائي، ط٣، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.
- (١٦٨) نزهة الخواطر ومهجة المسامع والنواظر، الحسيني الطالبي، ط١، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ١٤٢٠ هـ.
- (١٦٩) النكت والعيون، أبو الحسن الماوردي، تحقيق: السعد ابن عبد المقصود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- (١٧٠) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الجوزي، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطنجي، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.
- (١٧١) نيل الابتهاج بنظر الدنيان، أبو العباس أحمد بابا السوفاي، ط٢، دار للكتبة طرابلس، ليبيا، ٢٠٠٠ م.

(١٧٢) الوافي بالوفيات، الحليل الصفدي، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركلي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ.

(١٧٣) الرجز في تفسير الكتاب العزيز، علي بن أحمد الواحدي، تحقيق: صفوان عدنان داودي، ط ١، دار القلم، دمشق، سوريا، ١٤١٥هـ.

(١٧٤) وفيات الأعيان وأنباء الزمان، شمس الدين ابن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، ط ١، دار جنادرة، بيروت، لبنان، ١٩٧١م.

سادسا: فهرس الموضوعات

رقم الصفحة	الموضوع	
٢	الإهداء	١
٣	شكرو وتقدير	٢
٤	المقدمة:	٣
٦	■ أهمية الموضوع.	
٦	■ أسباب اختيار الموضوع.	
٦	■ الدراسات السابقة.	
٧	■ إشكالية البحث.	
٧	■ فرضية البحث.	
٧	■ منهج البحث وخطواته.	
٨	■ خطة البحث.	
١٢	التمهيد:	٤
١٣	■ أساليب القرآن الكريم في إثبات الحقائق.	
١٩	■ نبذة عن المقارنات في القرآن:	
١٩	● معنى المقارنة.	
٢٠	● أهمية للمقارنة.	
٢٣	● شروط المقارنة وضوابطها.	
٢٣	● ورود للمقارنات في القرآن.	
٢٥	● أنواع للمقارنات القرآنية.	
٢٦	● أهداف للمقارنات القرآنية.	٥
٢٧	الباب الأول: أساليب المقارنات القرآنية:	
٢٨	■ الفصل الأول: المقارنات الصريحة:	
٢٩	● للمبحث الأول: المقارنة باستخدام أسلوب الاستفهام:	
٢٩	○ أسلوب الاستفهام وأنواعه:	
٢٩	◆ تعريف الاستفهام.	
٣٠	◆ أدوات الاستفهام.	

٣٠	♦ أغراض الاستفهام.
٣٢	○ المطلب الأول: أسلوب الاستفهام الإنكاري:
٣٢	♦ معنى الاستفهام الإنكاري.
٣٢	♦ أمثلة على مقارنات باستخدام الاستفهام الإنكاري.
٣٨	○ المطلب الثاني: أسلوب الاستفهام التقريري والتوبيخي:
٣٨	♦ معنى الاستفهام التقريري والتوبيخي.
٣٨	♦ أمثلة على مقارنات باستخدام الاستفهام التقريري.
٤٣	♦ مثال على المقارنات باستخدام الاستفهام التوبيخي.
٤٥	○ المطلب الثالث: أسلوب طرح السؤال والإجابة عليه:
٤٥	♦ أمثلة على المقارنات باستخدام هذا الأسلوب.
٥١	● المبحث الثاني: ضرب المثل:
٥١	○ معنى المثل وفوائده:
٥١	♦ معنى المثل.
٥١	♦ ورود الأمثال في القرآن.
٥٢	♦ أقسام الأمثال الواردة في القرآن.
٥٢	♦ فوائد ضرب الأمثال في القرآن.
٥٣	○ أمثلة على المقارنات باستخدام أسلوب ضرب المثل.
٦١	● المبحث الثالث: استخدام أساليب بيانية متنوعة:
٦١	○ مدخل.
٦٢	○ المطلب الأول: المقارنة باستخدام أسلوب التشبيه والاستعارة:
٦٢	♦ معنى التشبيه والاستعارة.
٦٣	♦ أمثلة على المقارنات باستخدام التشبيه والاستعارة.
٧١	○ المطلب الثاني: المقارنة باستخدام أسلوب الطباق والمقابلة:
٧١	♦ معنى الطباق والمقابلة.
٧٢	♦ أمثلة على المقارنات باستخدام الطباق والمقابلة.
٧٩	○ المطلب الثالث: المقارنة باستخدام أسلوب الإطناب:
٧٩	♦ معنى الإطناب.
٨٠	♦ أمثلة على المقارنات باستخدام الإطناب.
٨٥	● المبحث الرابع: المقارنات باستخدام الأسلوب المباشر:

٨٥	○ مدخل.
٨٦	○ للمطلب الأول: ففي المساواة بين الطرفين.
٩١	○ للمطلب الثاني: بيان خيرية أحد الطرفين.
٩٦	○ للمطلب الثالث: استخدام صيغة "أفعل" التفضيل:
٩٦	◆ اسم التفضيل.
٩٦	◆ أمثلة على المقارنات باستخدام اسم التفضيل.
١٠٢	■ الفصل الثاني: المقارنات غير الصريحة:
١٠٣	● مدخل.
١٠٤	● للمبحث الأول: ذكر أحد الطرفين وحذف الطرف الآخر (إيجاز الحذف):
١٠٤	○ إيجاز الحذف.
١٠٥	○ أمثلة على المقارنات باستخدام إيجاز الحذف.
١٠٩	○ ذكر صفات أحد الطرفين والإعراض عن الآخر:
١٠٩	◆ أمثلة على ذلك.
١١٣	● للمبحث الثاني: اختيار صفة لطرفين أو ذكر صفات الطرفين وأحدهما:
١١٣	○ أمثلة على هذا الأسلوب.
١٢٥	● للمبحث الثالث: الربط بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد:
١٢٦	○ أمثلة على مقارنات هذا الأسلوب.
١٣٢	● للمبحث الرابع: ذكر النقيضين وما يترتب عليهما:
١٣٢	○ أمثلة على هذا الأسلوب للمقارنات.
١٣٧	● للمبحث الخامس: ذكر الفروق بين الطرفين:
١٣٧	○ أمثلة على المقارنات باستخدام هذا الأسلوب.
١٤٤	● للمبحث السادس: استخدام أسلوب فيه إنكار وتحكم وتوبيخ:
١٤٤	○ معنى الإنكار والتهكم والتوبيخ.
١٤٤	○ أمثلة على المقارنات باستخدام هذا الأسلوب.
١٤٩	٦ الباب الثاني: أهداف المقارنات القرآنية:
١٥٠	■ مدخل.
١٥١	■ الفصل الأول: ما يتعلق بالمولى عز وجل:
١٥٢	● للمبحث الأول: الدعوة إلى الإيمان بالله وتوحيده:
١٥٢	○ أمثلة على مقارنات تحميم هذا الهدف.

١٥٦	● المبحث الثاني: الترغيب في التقوى والتحليل من عقاب الله:
١٥٦	○ أمثلة على مقارنات تخدم هذا الهدف.
١٦٣	● المبحث الثالث: بيان سعة علم الله وقدرته المطلقة:
١٦٤	○ أمثلة على مقارنات تخدم هذا الهدف.
١٧٠	● المبحث الرابع: الأمر باتباع أوامر الله:
١٧٠	○ أمثلة على مقارنات تخدم هذا الهدف.
١٧٥	● المبحث الخامس: ذكر رحمة الله وشفقته ومظاهر نعمته على عباده:
١٧٦	○ أمثلة على مقارنات تخدم هذا الهدف.
١٨١	● المبحث السادس: ذكر معية الله وولايته للمؤمنين:
١٨١	○ أمثلة على مقارنات تخدم هذا الهدف.
١٨٦	■ الفصل الثاني: ما يتعلق بالإيمان والكفر والترغيب والترهيب:
١٨٧	● المبحث الأول: إصلاح عقائد البشيرة:
١٨٧	○ أمثلة على مقارنات تخدم هذا الهدف.
١٩٢	● المبحث الثاني: بيان أهمية الاستعداد للأخرة وفضلها على دار الدنيا:
١٩٣	○ أمثلة على مقارنات تخدم هذا الهدف.
١٩٩	● المبحث الثالث: إثبات فضل الإيمان والمؤمن على الكفر والكافر:
٢٠١	○ أمثلة على مقارنات تخدم هذا الهدف.
٢٠٧	● المبحث الرابع: تشجيع الثابتين على الحق والحث على اتباع مسيلهم:
٢٠٨	○ أمثلة على مقارنات تخدم هذا الهدف.
٢١٦	● المبحث الخامس: التشويق للجنة والتخويف من النار:
٢١٧	○ أمثلة على مقارنات تخدم هذا الهدف.
٢٢٦	■ الفصل الثالث: قضايا متعددة:
٢٢٧	● المبحث الأول: إقامة الحجة على العباد:
٢٢٧	○ أمثلة على مقارنات تخدم هذا الهدف.
٢٣٤	● المبحث الثاني: كشف الحقائق وإظهار الأشياء بذكر أضرارها:
٢٣٤	○ أمثلة على مقارنات تخدم هذا الهدف.
٢٤٠	● المبحث الثالث: بيان اختلاف أحوال الناس:
٢٤١	○ أمثلة على مقارنات تخدم هذا الهدف.

٢٤٦	• المبحث الرابع: الدعوة إلى التفكير والتدبر:	
٢٤٧	○ أمثلة على مقارنات تخدم هذا الهدف.	
٢٥٢	• المبحث الخامس: تسلية النبي والمؤمنين وبيان فضلهم على من سواهم:	
٢٥٣	○ أمثلة على مقارنات تخدم هذا الهدف.	
٢٥٨	• للمبحث السادس: بيان ثبات الحق وضوائه وزوال الباطل واضمحلاله:	
٢٥٩	○ أمثلة على مقارنات تخدم هذا الهدف.	
٢٦٤	الباب الثالث: الدراسة التطبيقية لمواضع المقارنات في القرآن:	٧
٢٦٥	■ مدخل.	
٢٦٦	■ الفصل الأول: المقارنات من أول القرآن الكريم إلى آخر سورة الكهف:	
٢٦٧	• المبحث الأول: المقارنات من أول القرآن إلى آخر سورة البقرة.	
٢٧٨	• المبحث الثاني: المقارنات من أول آل عمران إلى آخر سورة الأنعام.	
٢٩٣	• المبحث الثالث: المقارنات من أول سورة الأعراف إلى آخر سورة هود.	
٣٠٥	• المبحث الرابع: المقارنات من أول سورة يوسف إلى آخر سورة الكهف.	
٣١٩	■ الفصل الثاني: المقارنات من أول سورة مريم إلى آخر القرآن الكريم.	
٣٢٠	• للمبحث الأول: المقارنات من أول سورة مريم إلى آخر العنكبوت.	
٣٣٧	• المبحث الثاني: المقارنات من أول سورة الروم إلى آخر سورة غافر.	
٣٥٧	• المبحث الثالث: المقارنات من أول سورة فصلت إلى آخر الحديد.	
٣٧٦	• المبحث الرابع: المقارنات من أول سورة المجادلة إلى آخر القرآن الكريم.	
٣٩٥	الخاتمة:	٨
٣٩٦	(أ) النتائج.	
٣٩٩	(ب) التوصيات.	
٤٠٠	الفهارس:	٩
٤٠١	(أ) فهرس الآيات القرآنية.	
٤٢٦	(ب) فهرس الأحاديث النبوية.	
٤٣٠	(ج) فهرس الأعلام المترجم لها.	
٤٣٣	(د) فهرس المصادر والمراجع.	
٤٤٤	(هـ) فهرس الموضوعات.	

